

١٤

جامعة القديس يوسف
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
فرع الآداب العربية
بيروت

تجربة كمال ناصر الأدبية

رسالة ماجستير أعدها

سهيل سليمان

أشرف عليها

الدكتور أسعد علي

سنة ١٩٧٩



١١٢١٥٢

ز - ك

المقدمة

٢٠ - ١

تمهيد : اغتصاب فلسطين من التفكير الى التحقيق
(الهدف من خلق اسرائيل - مواقف اميركية
سيئة - مواقف بريطانية - احصاءات السكان
والارض - من ايام تركيا - وعود بريطانيا
بعد الحرب - أشكال الرفض الفلسطيني
١٩١٨ - ١٩٤٨ - الاحزاب الفلسطينية
ثورة ١٩٣٦ - ما بعد جراح الثورة - جامعة
الدول العربية - التقسيم ومواقف عربية -
نكبة ١٩٤٨ ونتائج ونظرات - جرائم صهيونية -
الميلاد الثوري - آي مسؤول وآية مسؤولية -
مولد الشعاع - انكسارات في الشعاع - كمال
ناصر في موقع المشاركة .

٥٨ - ٢١

الباب الأول

البيئة والحياة

=====

٢١

الفصل الاول : البيئة

٢١

أ - القرية : بيرزيت

٢٤

ب - عائلة ناصر وظروف حياتها

٢٨

الفصل الثاني : حركة الحياة

٢٨

أ - مولده

٢٨

ب - محيطه وواقعه

٢٩

ج - ثقافته

٣٠

د - بين التعلم والتعليم

٣٣

هـ - المرأة في حياته

٣٧

و - تفتح على المأساة والثورة

٣٨

ز - نشاطه السياسي بين الوطن وخارجه

٣٩

ح - تجربته النيابية

٤٠

ط - شهادته للصراع العربي

٤١

ي - الاغتراب القسري

٤٢

ك - عودته قبيل احتلال ١٩٦٧

٤٢	ل - نضاله الوطني ضد الاحتلال
٤٥	م - ابعاده الى شرقي الاردن
٤٥	ن - نشاطه الوطني في بعثة انقاذ القدس
٤٦	س - في منظمة التحرير الفلسطينية
٤٦	ع - شهادته لجازر الأردن بحق الثورة
٤٧	ف - بدء نشاطه في لبنان
٤٨	هـ - وبدء العهد العكسي لحياته
٤٨	ق - تناقض المهمة مع الحياة
٤٩	ر - القلق النفسي
٤٩	ش - اشتعال الضوء الاحمر
٥٠	ت - هكذا قتلوه . . . وهكذا صلبوه
٥٢	أ - أهداء الاستشهاد
٥٢	- في الوطن العربي
٥٢	- في فلسطين المحتلة
٥٣	بب - في ذاكرة الرفاق
٥٥	جج - في عمق شخصيته

١٢٣ - ٥٩

الباب الثاني

كمال ناصر والنضال السياسي

٦٠	الفصل الأول : كمال السياسي
٦٠	أ - النضال العفوي ١٩٣٦ - ١٩٥٢
٦٣	ب - النضال الملتزم
٦٣	أولا : مرحلة ١٩٥٣ - ١٩٦٧
٦٥	ثانيا : مرحلة ١٩٦٧ - ١٩٦٨
٦٩	ثالثا : نشاطه في حزب البعث العربي الاشتراكي
٧٢	رابعا : دوره في مجلس النواب الاردني
٧٩	خامسا : دوره في منظمة التحرير الفلسطينية
٨٩	الفصل الثاني : كمال ، الكاتب السياسي
٨٩	أ - جريدة " البعث "
٩٢	ب - جريدة " الجيل الجديد "
١٠١	ج - جريدة " فلسطين "
١٠٥	د - مجلة " فلسطين الثورة "
١١٥	هـ - فن الكتابة السياسية عند كمال ناصر

- ١١٥ : آولا : افتتاحية "الجيل الجديد"
١١٨ : ثانيا : جريدة "فلسطين"
١٢٠ : ثالثا : مجلة "فلسطين الثورة"

١٢٤ - ٣٦٠

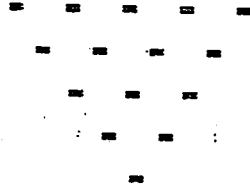
الباب الثالث

كيال ناصر الشاعير

- ١٢٤ : الفصل الاول : الاتجاهات الوطنية والقومية والسياسية
١٢٤ : ١ - الاتجاهات الوطنية :
١٢٤ : - مقدمة : الالتزام
١٢٧ : أ - سيرة الشاعر الوطنية
١٣٨ : ب - مشاعر وطنية
١٤٣ : ج - الحكام
١٤٨ : د - الشعب
١٥٣ : هـ - الثورة وشعره فيها
١٥٧ : و - الجيل الجديد
١٥٩ : ز - الشهداء
١٦٣ : ٢ - الاتجاهات القومية والسياسية :
١٦٤ : أ - مفهوم القومية
١٦٤ : ب - الوحدة العربية
١٦٧ : ج - البعث
١٧٢ : د - بطولات العرب
١٧٩ : هـ - خيانات رسمية
١٨١ : و - أبطال عرب
١٨٦ : ٣ - نتائج وملاحظات
١٩١ : الفصل الثاني : الاتجاهات الانسانية
١٩١ : ١ - الحب :
١٩١ : أ - الأم
١٩٦ : ب - الأطفال
٢٠١ : ج - شعر الغزل
٢١٧ : ٢ - الحقد :
٢١٧ : أ - دواعيه وظواهره
٢٢٣ : ب - انشودة الحقد شكلا ومضمونا
٢٢٦ : ٣ - الدين

٢٢٦	أ - في المسيحية
٢٢٨	ب - في الاسلام
٢٣١	٤ - رحلة في رحاب الله والحياة
٢٣٢	أ - البداية والنهاية
٢٣٧	ب - الاغتراب النفسي والجسدى
٢٤٠	ج - الايمان والشك
٢٤٥	د - تقويم أدوات الرحلة
٢٤٧	١- الفصل الثالث : الشاعر والشعر من النظرية الى التطبيق
٢٤٧	أ - كيف فهم كمال ناصر الشعر ؟
٢٥٢	ب - الشعريين الكلاسيكية والحرية
٢٦٠	ج - على هامش الرمزية
٢٦٥	د - الشعريين موجتين رومانتيكيتين
٢٧١	هـ - القصة الشعرية
٢٧٥	و - شعر المناسبات
٢٨٤	٢- المعجم اللغوى للشاعر
٢٨٨	ح - محاولة نقد وتقويم
٢٨٩	<u>أولا : ما عليه</u>
٢٨٩	- تقليد
٢٩١	- أخطاء لغوية
٢٩٣	- تكرار القافية
٢٩٤	- ضعف وتناقض في المعاني والمباني
٣٠١	<u>ثانيا : ما له</u>
٣٠١	- دقة اللفظ
٣٠٢	- حسن المطلع
٣٠٤	- التقسيم والاستعارة
٣٠٦	- التشبيه
٣٠٨	- معان وصور مبتكرة
٣١٤	<u>لحظ - البناء الشعري شكلا ومضمونا</u>
٣١٤	<u>أولا : الالفاظ</u>
٣١٧	ثانيا : الموسيقى
٣٢٢	٣- ثالثا : هيكلية القصيدة
٣٢٨	رابعا : المعاني
٣٣١	خامسا : العاطفة
٣٣٥	سادسا : الصور والخييلة

٣٤٠	ي - الأساليب
٣٤٠	أولا : الاستفهام
٣٤٤	ثانيا : التأكيد
٣٤٧	ثالثا : النداء
٣٥٠	رابعا : التعجب
٣٥٢	خامسا : الدعاء
٣٥٤	ك - شهادات في شعر كمال ناصر
٣٦١	الملحق
٣٨٤	الخاتمة
٣٨٧	فهرس المصادر والمراجع



- ز -
المقدمة

عندما شرعت في التفكير بموضوع لدراستي ، وقع الخيار على كمال ناصر وتجربته الأدبية ، وذلك لعدة أسباب نفسية وأدبية أبرزها :

١- أنه ، فلسطينياً ، تتوافق مشاعره وأهدافه مع مشاعري وأهدافي وخالصتها الهيام بالوطن والعمل الدؤوب لاستعادة حريته .

٢- يرتبط هذا الموضوع ارتباطاً وثيقاً بقضية الشعب الفلسطيني وثورته التي كرس كمال ناصر شعره وحياته لخدمتها ، فشعره مرآة صادقة لحياة الشعب ومسيرة ثورته في ارتقاءاتها وتعرجاتها ، وسجل لآمالها وآلامها ، ورسم مشرق لمستقبلها الداني .

٣- عندما وقع العدوان الصهيوني ليلة ١٠ نيسان ١٩٤٧ على بيروت واستشهد محمد يوسف النجار وكمال عدوان وكمال ناصر ٠٠٠ / امت منازل الشهداء الثلاثة صباح اليوم التالي وشاهدت بعض معالم الجريمة فتساءلت : كان النجار قائداً سياسياً ومناضلاً عسكرياً منذ بدء الاعتداءات الاسرائيلية على قطاع غزة عام ١٩٥٦ ، وكمال عدوان سياسي بارز ورئيس العمليات العسكرية في القطاع الغربي ٠٠ كلاهما يطمح العدو و باغتياله لأهميته ، أما كمال ناصر الذي لم يغم يوماً بعملية عسكرية فلماذا قتلوه ؟ وجاء الجواب سريعاً : لا بد أن الكلمته فعل البندقيه ، والكلمة تصريح وموقف سياسي وتعبئة وفكر ، والكلمة مقالة سياسية . وأخيراً ، الكلمة قهيد أو مسلحة .

٤- وكان اسم كمال ناصر قد ارتبط بالاذهان ، وخاصة بعد استشهاده ، باعتباره الناطق الرسمي باسم اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية . ولكنه ، كشاعر مكثّر وذوي مكانة ، لم تكن شهرته ذائعة كما يجب لدى العامة كما لدى الخاصة .

٥- وحيث أنه لم تظهر أية دراسة أكاديمية ^{أكاديمية} وافية لتجربة كمال ناصر الأدبية من قبل ، حتى ولا تجربته السياسية ، وهما تجربتان متكاملتان تكاملاً رائعاً .

٦- لذلك ، عندما اقترحت الموضوع على نفسي أواخر ١٩٧٤ ، كانت آثار كمال الشعرية تتشر لأول مرة شبه كاملة قبل ذلك ببضعة أشهر في آذار من العام نفسه . ولم يكن معروفًا لدى بعض العامة سوى ديوانه الصغير "جراح تغثي" ^(١) الذي أدرج ضمن المنشور الجديد . وقد أيقنت أنّ له شعراً آخر لم ينشر ولكنه مؤثر على أكثر من انسان ومكان ، فبدأت سعيي المضني للكشف عنه مادياً وأدبياً مساهمة مني في نشره وإبرازه والتعريف به قدر المستطاع . ولست أنكر أن كمال بعض الشعر والكثير من النثر ما كان منشوراً قبل نكبة ١٩٤٨ فسي صحف ومجلات مختلفة استطعت الحصول عليها من خلال جزازات مقطّعة ومهوّرة غفلت عنها عاديات الدهر ، وهي في تلك الصيغة أعتبرها كغير المنشورة لبعد المسافة الزمنية عنها . ولم يكن العمل سهلاً مطلقاً ، والمصاعب جمّة ، أبرزها :

١- تبين لي أن عدداً من معارف الشاعر يحتفظ بأوراق خاصة له وعلى غير استعداد للافراج

عنها .

٢- غياب بعض المقربين إليه سابقاً في بلاد الأرض الكثيرة مهاجرين لا سبيل للاتصال بهم

١- ذكره كامل السوافيري في كتابين له ، وعبد الرحمن ياغي ، وناصر الدين الأسد .

والإفادة مما يعرفون .

٣- هناك معلومات وافية عن الشاعر لا يمكن استيفائها من غير زيارة قريته شخصياً . فتحملت مشاق السفر ومخاض يره ، ودخلت القرية مساءً اثر نهار صاخب بالاضرابات الشاملة تضامناً مع العرب في شمالي فلسطين المحتلة احتجاجاً على ممارسات صهيونية عنصرية ضد هم . وقضيت في القرية كثيراً من الليل لأغادرها متأخراً على طريق مقفرة تمتد بضعة أميال إلى مدينة رام الله ، ثم كان السير ليلاً في أذيال القدس المقفرة حاملاً أوراقاً كتبت عليها وثائق لا يمكن حفظها بطريقة مغايرة .

٤- وجدت أوراقاً وجزازات صحف ومجلات لا تحمل عناوين ولا تأريخ محددة للإفادة منها حسب الزمان او المكان . . وبعضها موقّع بأحرف أو أسماء غير صريحة فأسقطت منها الكثير تجتنباً للتمادي في الاجتهاد . (١)

٥- صعوبة الاضمار التي عبرت بها آبان المشكلة التي عصفت بلبنان منذ أوائل ١٩٧٥ . (٢)

٦- ولعل الصعوبة الرئيسية هي فقدان الاتصال بالدكتور الشرف زنوناً طويلاً لخروجه من لبنان خلال الأحداث واستحالة الذهاب إليه لعوائق لا سبيل للاحتيال عليها .

وسط كل هذه العوائق ، عقدت العزم على متابعة الطريق مدفوعاً بالكلمة الحلوة المشجعة من الدكتور أنيس صائغ رئيس مركز الأبحاث الفلسطينية الذي وضع بين يدي كل الامكانيات والموارد مجدداً فعدت والعود أحمد .

لقد اعتمدت في دراستي على مصادر عدة ما بين منشورة وغير منشورة خصني بها مركز الابحاث والأستاذ ناجي علوش^(٣) ، بالإضافة الى مراجع تناولت

١- بعض الأوراق كانت قد ضمتها عائلته في بيروت إلى آثاره المخطوطة على أنها بالتأكيد له ثم اودعها مركز الأبحاث الفلسطينية في بيروت . وبعض الكتابات حمل التوقيع بالحرف (ك) بدا واضحاً ان الموقع هو كمال ناصر لكونها واردة في مجلته "الجيل الجديد" .

٢- أولاً حالت الاضطرابات دون الاستفادة الحقيقية من المكتبات الرئيسية لتعدد ارتيادها . ثانياً ، أنت النيران على بيتي ومكتبي فاحترقت جميع المصادر والمراجع والأوراق المنجزة من الرسالة فأصبح علي بعدئذ ان أعود فأذكر فأجمع فأكتب من جديد . ثالثاً ، ضاعت تسجيلاتي لبعض المقابلات الشخصية مع أناس مروا بلبنان سريعاً او تركوه نهائياً . . فلم يعد امامي إلا تذكر ما تيسر مع عدم لمكانية التأريخ لذلك بصورة قاطعة . ومن سافروا : الأستاذ راجي صهيون ، وانقطع الاتصال بالأب ابراهيم عياد والصحافي عبد الكريم أبو النصر ، والدكتور نديم ناصر ، والسيدة ريم ناصر . . . وكل هؤلاء من أقرباء الشاعر أو الأقربين إليه .

٣- المصادر المنشورة :

- الآثار الشعرية (بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر مط / ١٩٧٤) .

- الآثار النثرية (بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر مط / ١٩٧٤) .

- ديوان "جراح تغني" (بيروت : دار الطليعة ، ١٩٦٠) .

- جرائد ومجلات : فلسطين ، شؤون فلسطينية ، الجيل الجديد ، البعث ،

الشعب ، الوحدة ، الجريدة الرسمية الاردنية (محاضر جلسات مجلس النواب

والايعان الاردني ١٩٥٦ - ١٩٥٧) .

- اليوميات الفلسطينية (بيروت : مركز الابحاث الفلسطينية) مجلدات نصف سنوية

من عام ١٩٦٩ - ١٩٧٣ .

المصادر غير المنشورة :

- قصائد وقصص قصيرة في مركز الابحاث الفلسطينية ولدى الاستاذ ناجي علوش .

- رسالة الى ولدي ، مخطوطة تروية - مركز الابحاث الفلسطينية .

جوانب متفرقة من الشاعر^(١) وهي موزعة بين الادب والسياسة . وأخص بالذكر هنا تلك المراسلات الشخصية مع اهله وأصدقائه^(٢) . والحق يقال أن أكثر الذين قابلتهم بنفسي قد لمست لديهم مخزوناً متعاضماً من المحبة والإكبار للشاعر الشهيد ، وشعوراً رهيباً لفقدانه ، فمدوا اليّ يد المساعدة فما استتقلوا أسئلة كنت أتخيل أنها تنقلهم^(٣) .

وبعد أن اذلت ما اذلت من مصاعب ، واجتمع لدي ما اجتمع من مواد تدخل في صميم الدراسة ، قمت بوضعها في ثلاثة أبواب متلاحقة ، يسبقها تمهيد وأنزيت الدراسة بحقوق وخاتمة .
التمهيد

أما التمهيد فيقلب مع وطن الشاعر جغرافياً لإقامة الحدود ، وتاريخياً لإبانة الحقوق ، وسياسياً لكي أرسم الشاعر الناثر موقعا متفجراً يحكم ما سبق الالتفات به من مقدمات تعبوية على صعيد الحدود والحقوق . فهو ابن الوطن المضيق ، المبيع بأبخس الأثمان ولم يسأل عن البيعة فمن له الحق في أن يسأله : ولماذا تنمطق بالثورة ؟

والباب الأول أسميته " البيئة والحياة " مفضلاً إياه إلى اثنين : البيئة وهي مسقط الرأس والرحم الذي يتدخل في بناء الرجال . ثم حركة الحياة وهي رسم بياني لتحركات الشاعر المناضل في الوطن وخارجه . وإذا كانت القرية في الفصل الأول تواجه محاة التاريخ الزائف التي تهددها بالزوال عن خارطة الوجود بفعل المخالب الصهيونية وهي تصادر كل يوم أرضاً عربية جديدة من املاك المواطنين ، وهي تواجه ذلك ، كان لزاماً أن الأحق الشاعر في حركاته وسكناته ، في هدايته وتمرده ، في يأسره وتفاوته ، في شخصيته الفدّة التي " حياتها تُسرُّ الصديق وموتها يغيظ العدى " .

أما الباب الثاني فأسميته " كمال ناصر والنضال السياسي " وأتبعته لحركة الحياة لأن النضال السياسي بأشكاله المختلفة هو قمة الحياة المشرفة . فكمال ناصر لا يستطيع تنقّساً خارج محيط السياسة . لذلك بحثته في فصلين : الأول " كمال السياسي " فكشفت عن ولادته

.....

- خطب ومقالات وبيانات سياسية وأدبية لدى مركز الابحاث الفلسطينية .
- رسائل شخصية في أوراق مركز الابحاث والاستاذ ناجي علوش .
- " كيف افهم الشعر " ، مخطوطة لدى مركز الابحاث الفلسطينية .
- ١ - " كارثة فلسطين " لعبدالله التل . الجزء الاول (القاهرة : دار القلم ، ط ١ / ١٩٥٩) .
- " كمال ناصر شاعراً ومناضلاً " لمحمد حمادة . (بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ط ١ / حزيران ١٩٧٧) .
- " الاتجاهات الفنية في الشعر العربي المعاصر " لكامل السوافيري . (مكتبة الانجلو - مصرية ، ط ١ / ١٩٧٣) .
- ٢ - " الشعر الحديث في فلسطين والأردن " لناصر الدين الأسد (محاضرات في معهد الدراسات العربية العالية ، ١٩٦٠ - ١٩٦١) .
- " ذكريات عن الشهيد كمال ناصر " لياسر عرفات وآخرين . (تونس : الاتحاد العلم للكتاب والمحققين الفلسطينيين ، ١٩٧٧) .
- " حياة الادب الفلسطيني " . . . لعبد الرحمن ياغي . (بيروت : المكتب التجاري ، لا ت .) . (رسالة مقدمة في القاهرة عام ١٩٦٠) .
- مراجع اخرى كثيرة أفادت في الموضوع ككل دون ان تتناول شاعرنا من اية زاوية .
- ٢ - من هؤلاء الدكتور فسيم ناصر ، والأستاذ ابراهيم بكر .
- ٣ - في الحقيقة ان كل من تجاوزوا مصي ، ادرجت اسماءهم في جدول المقابلات والمراسلات في لائحة المصادر والمراجع لكثرتهم .

التلقائية في خضمّ النضال السياسي ، ثم تابعتها مناضلاً ملتزماً في كلّ المراحل الرئيسية التي شهدتها حياته بدءاً بنشاطه في حزب البعث العربي الاشتراكي في مطلع الخمسينات وانتهاءً ^{بدروره} في منظمة التحرير الفلسطينية . وقد راعت إلى حد كبير التسلسل التاريخي لنشاطاته خلال الأحداث الرئيسية مع انبعثته غطت القسم الاعظم منها . ثم لما وجدت أن النضال بالكلمة المحكيّة قد استوفى حقه ، انطلقت منه الى النضال الأشدّ فعالية مع أنه مرّكز إليه وتممّ له في الوقت نفسه فجعلت الفصل الثاني "كمال ، الكاتب السياسي" وخصصته بالعمل الصحافي فوق عرش صاحبة الجلالة . واتبعت المنهج التاريخي التقريري إلى حدّ ، فسي عرض الجرائد والمجلات التي اتصل بالشعب من خلالها لكي أظهر النشاط المتوثّب لدى كمال المولع بالصحافة إن بالمشاركة وان باصدارها شخصياً رغم ما يعترضه من عقبات كأداء .

ولم اقف عند هذا العرض ، بل اتممت الفصل بتحليل فنّ الكتابة السياسية عند كمال ناصر ودراسته ، لأنه ليس كاتباً عادياً ولا هاجراً ولا منتفعاً بل انساناً ينفكّ مما في صدره وفؤاده لكي يخطّ المقالة السياسية ارفع من القصيدة الوجدانية وأدقّ شعوراً وأنبيل عاطفة . بهذا نستطيع ان نقوم كمال ناصر الكاتب السياسي الفنان .

وأخيراً ، الباب الثالث ، أشدّ الأبواب اتساعاً وعليه تقوم العمارة الادبية . فصلته للشعر خصيصاً ، للتجربة الأدبية في ضوء نظرتة الى الأدب مفهوماً فسميت الباب "كمال ناصر الشاعر" ويقع في ثلاثة فصول : الأول "الاتجاهات الوطنية والقومية والسياسية" وقد قصدت الانطلاق من مركز ثقل الكوكب الذي يتعشقه كمال . . الوطن ، فوصلت إلى "اتجاهاته الانسانية" في الفصل الثاني لتبيان ان الحب متأصل في نفسه اما الحقد فيحترق ولا يحرقه لان من كان مؤمناً بالله ورسله وأنبيائه فله ملكوت الوطن والسماء .

اما الفصل الثالث منه فسميته "الشاعر والشعر ، من النظرية الى التطبيق" بادئاً اياه بعرض نظرية الشاعر نفسه حول فهمه للشعر ، منتقلاً الى ملاحظة تطبيقه لنظريته كما وضعها من خلال دراسة قصائده المنشورة خاصة وغير المنشورة حيث تدعو الحاجة . فعلمت ذلك لان صاحب النظرية قد لا يتقيد هو نفسه بالنظرية التي وضعها لغيره . ويعد ملاحظة الكلاسيكية والنزعة الى التحرر في شعره ، واللفت الى الرمزية والرومانتيكية عبر بعض قصائده القليلة وأبياته المتفرقة ، قمت بمحاولة لنقده وتقويمه في ضوء ما انشد طيلة حياته مبيّناً ما أبدع في نحتبه وتصويره ، وما سجا باليد على ما كان ممكناً ان يعبره اهتماماً أوفى لو أمهله القدر .

أما الكشف عن البناء الشعري شكلاً ومضموناً وأساليبه في التعبير عن ذاته وعالمه الخارجي ، فقد استعنت له بشعره كله الذي وقع في متناول سمعي ويدي . ولكيلا اتهم نفسي بالتحيز الى الشاعر ، فقد استعنت كذلك بشعره وشعراء غيره لكي يقولوا فيه كلمة الحق .

واختتمت الدراسة بملحق ادرجت فيه قصائد ونقداً أدبياً وقصصاً منشورة ومقالة سياسية بعضها منشور قديماً جداً وهنا ايسر الطرق لمطالعتة ، وبعضها غير منشور مطلقاً أخذت على عاتقي أمر إيصاله الى الاسماع والأبصار .

وفي الخاتمة ، عرضي لأهمّ النتائج التي تمخضت عنها الدراسة على مختلف الأبعاد ،

التاريخي والفردية والسياسي والأدبي . وفيها كذلك اطلالة على أبعاد مقبلة تيسر للاخوة

الدارسين ان ينطلقوا بها الى آفاق منفتحة يدرسون ما ضاقت عنه دراستي هذه مما يستأهل مكانا أكثر ملاءمة .

وبعد ، اعترف بأني ما كنت لأحسن القيام - اذا احسنت - بهذه الدراسة لولا تلك الأيادي البيضاء التي امتدت اليّ في شخص الشاعر عصام حماد رفيق كمال في شبابه وفي اصدار " الجيل الجديد " معه الى جانب هشام النشاشيبي ^(١) وعصام زودني بجرائد قديمة افادني كما افادني بذكرياته الخاصة التي لولاها لضاع من الفائدة الشيء الكثير . وأشكر السيد وديع شقيق الشهيد فقد استقبلني في بيته ببيروت فعرضني عن مشقة السفر والوصول بما افادني به من معلومات حول الشهيد طالما رفض الانفناء بها لمطلق صحافة عربية أو أجنبية منذ أن استشهد كمال . كما اشكر عائلة ناصر بأسرها وخاصة الدكتور فهييم الذي أجابني برسالتسه سريعاً على تساؤلاتي وهو الذي عايش الشهيد في أكثر حياته . وكذلك الاستاذ ابراهيم بكر اشكره على الاهتمام الفائق برسالته الموجهة اليّ حول كمال .

وهزيل الشكر اذجيه للشيخ الجيل ابراهيم علوش في بيروت والذي اسعفني بشجرة عائلة ناصر منذ مئات السنين ومعلومات وافية عن القرية وتاريخها القديم مما لا يمكن الاهتداء اليه في بطون الكتب . ومن الشيخ إلى ولديه موسى ، وناجي الذي تفانى في امدادي بإجابة عن كل سؤال حول القرية والعائلة والشهيد بوجه خاص . وأعطاني أوراقاً بخط الشاعر شعراً ونثرًا فإني منها وبعضها غير موجود في أي مكان آخر لأنه نسخة أصلية بخط كمال ولم أعر على مثيل له عند سواه .

ولا اسى الدكتور احسان عباس استاذ اللغة العربية وآدابها في الجامعة الاميركية ببيروت ، فقد وجدت لدي استشارته طيباً نافعاً خفف من وطأة الانفصال القسري بيني وبين الدكتور المشرف في دمشق ، فكنت أسأله ثم اعاتب نفسي على الإكثار فيا بى عليّ ذاك العتاب . أما الدكتور انيس هانغ رئيس مركز الابحاث الفلسطينية ، فقد أوصى المسؤولين عن قسم الوثائق بالسماح لي باخراج أوراق كمال المخطوطة الخاصة والاستفادة منها خارج المركز وكرر توصيته مرة أخرى بعد احتراق مكتبتي واوراقي فوجدت في تساهله وتسامحه أول وأعظم دافع على العودة إلى البحث من جديد . ثم زاد بأن أذن لي باخراج أي كتاب يفيدني من مكتبة المركز إلى البيت لعدة أيام وهذا لا يحظى به إلا موظفو المركز الباحثون . للدكتور انيس هانغ أسمى الشكر والامتنان واتي لمدين له طوال عمري .

ومسك الختام ^(٢) . من اشراقه المعنوي اشراق روهي . . . هو أستاذي المشرف الدكتور أسعد احمد علي ، لكل لقاء به تعلم كان مثيراً للنشاط محققاً للكمال ، فله أبكار شكرى وامتناني إلى جانب الدكتور ميري بولس الذي يعجز اللسان عن اللهج بأبوته الأدبية .

١- أصدر المجلة الى جانب كمال وعصام . مات شاباً برصاصة أهابته مخلّفاً رفيقيه يقومان بأود القسم الاكبر من اصدارات المجلة في ما عاشته من بعد .

٢- تضيق السعة كل الضيق لو أنا حاولت ان اشكر كل من ساعدني هنا ، ولكنني أحيل على قائمة بأسماء الذين تابلتهم وراسلتهم ، فيعض الحب إن يظلم في القلب يظل أعذب .

تمهيد

اغتماب فلسطين من التفكير إلى التحقيق

الحلم اليهودي بفلسطين قديم يسبق هذا القرن ، يوم دعا ثيودور هرتسل مؤسس الحركة الصهيونية العالمية الى اتخاذ فلسطين وطناً قومياً لليهود العالم . لم تكن دعوته وليدة ايمان عميق بذلك وهو القائل في كتابه " دولة اليهود " : " جمعية اليهود هي التي ستختار فيما بعد اذا كانت هذه الرقعة ستكون فلسطين او الارجننتين " .^(١) وعندما عرض البريطاني تشمبرلين " اوغنده " وطناً قومياً لليهود ، لقي ترحيباً لدى هرتسل مما جعل احدى عضوات المؤتمر الصهيوني تتهم هرتسل بالخيانة لتخليه عن فلسطين^(٢) فاندفع قاصداً السلطان العثماني عبد الحميد الذي أحجم عند مقابلته في ١٩ أيار ١٩٠١ عن منح " الفرمان " بالاستعمار الصهيوني لفلسطين ،^(٣) وقال : " ان فلسطين ليست ملك يميني بل هي ملك شعبي الذي رواها بدمه ، فليحتفظ اليهود بملايينهم . وان عمل المبعوض في بدني لأهون عليّ من أن أرى فلسطين قد بُترت من امبراطوريتي ، وهذا امر لا يكون " .^(٤) وهكذا يكون هرتسل غير مبدي في اختياره فلسطين وطناً قومياً لتخليه عن مطلبه ومساومته ، فجرى التخلي عن فكرة اوغنده بعد وفاته . وانشق ، نتيجة للتخلي ، عن المؤتمر اسرائيل زانغويل ورافق له هدفهم تنمية استيطان اليهود في أي جزء ملائم من العالم . الا ان زانغويل حلّ منظّمته تلقائياً حين وعدت بريطانيا وعد بلنهور المعسوف .^(٥)

لم يكن كل اليهود في العالم صهاينة ويفكرون بفلسطين و " لم تكن الحركة الصهيونية ناجحة ، فنسبة اليهود الذين كانوا يتسربون إلى فلسطين كانت لا شيء " بالنسبة الى الملايين التي صبّت في الولايات المتحدة واقطار اميركة اللاتينية حتى ان الكاتب اليهودي - لبونسكر - في كتابه - التحرر الذاتي - استبعد فلسطين عند بحثه أمر اختيار الوطن^(٦) جازياً فسي ذلك مجرى هرتسل .

الهدف من خلق اسرائيل : وجاءت لجنة كامبل باترمان عام ١٩٠٧ لتبين الهدف البعيد والأساسي من خلق وطن لليهود في الجسم العربي بقولها : " ان الخطر الذي يهدد الاستعمار يكمن في البحر المتوسط الذي يقيم على شواطئه شعب واحد يتميز بكل مقومات الوحدة والترابط ، ويجب أن تعمل الدول الاستعمارية على تجزئته وتفككه ، واقامة حاجز بشري قوي وغريب يمكن للاستعمار أن يستخدمه أداة في تحقيق اغراضه " .^(٧) وبدأت الدول الاستعمارية نشاطها .
مواقف اميركية سيئة : وعرض موجز لمواقف ساسة اميركا وزعمائها يبين الحقيقة البشعة . ففي عام ١٩١٩ زارت اللجنة الاميركية لفلسطين فلسطين ثم اوصت " ان ادعاء اليهود بحقهم في فلسطين امر لا يمكن ان ينظر اليه نظرة جدية ، ولذلك يجب ان يصرف النظر نهائياً عن جعل

١- اميل توما . جذور القضية الفلسطينية (بيروت : منظمة التحرير الفلسطينية - مركز الابحاث، حزيران ١٩٧٣) ، ص ٥١ .

٢- عبد الوهاب الكيالي . تاريخ فلسطين الحديث (بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط ٣ / لا ت ٠) ، ص ٣٩ .

٣- اميل توما . المرجع نفسه ، ص ٥٩ .

٤- صالح مسعود أبو يصير . جهاد شعب فلسطين خلال نصف قرن (بيروت : دار الفتح للطباعة والنشر، ط ٤ / ١٩٧١) ، ص ٢٧ .

٥- اميل توما . المرجع السابق ، ص ٦١ .

٦- نفسه ، ص ٧٠ و ٧٦ .

٧- أبو يصير . المرجع السابق ، ص ٢٧ .

فلسطين دولة يهودية^(١) ولكنه موقف متذبذب بشأن كل مستعمر جشع يربط لسانه بعجلة المصالح فوق رقاب الشعوب الضعيفة . فما لبث المرفف الاميركي ان تغير عندما بعث ترومان إلى اتلي ، رئيس وزراء بريطانيا ، في آب ١٩٤٥ كتاباً يؤيد فيه فتح ابواب فلسطين لليهود ألمانيا وكل من يرغب مؤيداً اقتراحه حول المئة الف^(٢) . ثم عزز ترومان تأييده بدعم هدم سياسة الكتاب الابيض على يد اللجنة الانجلو - اميركية للتحقيق حيث أوصت في ٢٠ نيسان ١٩٤٦ في تقريرها باصدار مئة الف شهادة هجرة في الحال لادخال مائة ألف يهودي من معسكرات المشردين خلال ١٩٤٦ ، كما أوصت بالغاء قوانين تحديد الاراضي^(٣) وتوجج ترومان تطبعاته الصهيونية في رده على مذكرة الجامعة العربية اليه عام ١٩٤٧ قائلاً : "إن حكومتي انما تتصرف طبقاً لسياسة الولايات المتحدة التقليدية التي ترمي إلى تعزيز وازهار فكرة الوطن القومي اليهودي في فلسطين إلى حيز الوجود^(٤) . وقد أكد هذا التواطؤ وايزمان في مذكراته بقوله : " طلبت من ترومان ان يقسم النقب بيننا وبين العرب على أساس خط عمودي فأمر ترومان مندوبه بأن يكون النقب كله لنا^(٥) . وهكذا يبدو أن الرئيس الأميركي ترومان يتصرف بمحتويات غرفته الخاصة آمراً متمنياً حتى كأنه بحاجة إلى الصهاينة لا العكس ، وهم قد أشاحوا عن بريطانيا المعين الأصيل ، إلى اميركا لدى شعورهم ببروزها قوة أعظم في الحرب العالمية الثانية . . فانتهى تقريباً الدور البريطاني المساعد لهم بعد ان يسر الوعد وهك الانتداب ، إلى أن هارت ترتفع أصوات بريطانيا من الداخل مناهضة للانسياق البريطاني وراء الصهيونية على حساب العرب .

مواقف بريطانية : أصبح هربرت صموئيل أول وزير يهودي في الحكومة البريطانية ، فكانت تلك للصهيونية مكافأة سالفة تمهيدا لمكافآت تالية . وعام ١٩١٧ أصدر بلفور ، وزير خارجية بريطانيا ، وعدة المعروف باسمه المشؤم مكرّساً بالنص الصريح انشاء وطن قومي لليهود في فلسطين . وفي كتابيها الابيضين عام ١٩٢٢ و ١٩٣٠ ، ضمنتهما بريطانيا وعد بلفور بنصه تأكيداً منها : سرعان مفعوله . ولم تنفع تسمية العرب له بالكتاب الأسود ولا تظاهرهم ضده ، إلا بأن بريطانيا تراجعت عن قرار التقسيم - مؤقتاً - و أصدرت كتاباً أبيض عام ١٩٣٩ لشعورها بأن التقسيم غير عملي^(٦) . وكان هك الانتداب البريطاني على فلسطين قد " أعلن مشروعه من قبل عصبة الامم بتاريخ ٦ يوليو ١٩٢١ وصدق عليه في ٢٤ يوليو ١٩٢٢ ووضع موضع التنفيذ في ٢٩ سبتمبر سنة ١٩٢٣^(٧) . وكان تشرشل قد أعلن في كتابه الأبيض الأول أن وجود اليهود في فلسطين هو حق وليس منة . وهكذا بدأت حلقات الغدر في خمس مراحل^(٨) :

- ١- أبو بصير . المرجع السابق ، ص ١٣٤ .
- ٢- كامل السوافيري . الشعر العربي الحديث في مأساة فلسطين (القاهرة : مطبعة نهضة مصر ، ط ١ / ١٩٦٤) ، ص ١٩٨ .
- ٣- كامل السوافيري . نفسه ، ص ١٩٧ .
- ٤- نفسه ، ص ٢٧٧ .
- ٥- نفسه ، ص ٢٧٨ .
- ٦- اميل توما . المرجع السابق ، ص ٢٧٠ .
- ٧- عبد الرهاب الكيالي . المرجع السابق ، ص ٣٨٨ .
- ٨- كامل السوافيري . الشعر العربي الحديث في مأساة فلسطين ١٩١٧ - ١٩٥٥ (القاهرة : مطبعة نهضة مصر ، ط ١ / ١٩٦٣) ، وقد فصل هذه المراحل على الصفحات ٧٥ - ٩٠ .

- ١- اتفاق سري بين بريطانيا وفرنسا وروسيا في مارس ١٩١٦ على تقسيم البلاد العربية الى مناطق نفوذ ، ووضع فلسطين تحت ادارة خاصة . عرفت بمعاهدتهم باسم باليالوغ - سازانوف .
- ٢- معاهدة سايكس- بيكو في مايو ١٩١٦ بين بريطانيا وفرنسا . . أقرتها روسيا القيصرية .
- ٣- وعد بلفور في ٢ نوفمبر ١٩١٧ .
- ٤- صك الانتداب من ثماني وعشرين مادة . اولها سلبت عرب فلسطين حقهم في ادارة بلادهم ورسم سياستها وتولي شؤونها ، وأعطت للدولة المنتدبة السلطة الكاملة في التشريع .
- ٥- عينت بريطانيا هربرت صموئيل اول مندوب سام لفلسطين وهو يهودي الاصل بريطاني الجنسية . وألحقت شؤون فلسطين بوزارة المستعمرات البريطانية وكان حقها الحاقها بوزارة الخارجية .

ولا خلاف حول أن وعد بلفور هو الذي قصم ظهر البعير وأمال ميزان العدل البريطاني الى الأبد ، فهل كانت جميع الأجهزة والشخصيات السياسية البريطانية تؤيد بلفور وتشرشل؟ خاصة اذا عرفنا ان وايزمان وصف رونالد غراهام ، وكيل وزير الخارجية بأنه " كان ذا عون بالغ في انجاز تصريح بلفور " . (١)

بالاضافة الى بلفور صاحب الوعد ، فقد برز تشرشل في البرلمان في ١٤ حزيران ١٩٢١ ليزعم " . . . ان العرب يعتقدون بأنه في السنوات القليلة القادمة سيحرقهم عشرات ألوف المهاجرين الوافدين من اوروبا الوسطى ، والذين سيقتفون بهم خارج الارض ويأكلون خيرات الارض الضئيلة وبالنتيجة يخنمون السيطرة المطلقة على مؤسسات البلاد ومهاجرها . في واقع الامران هذه المخاوف وهمية " . (٢)

ان قول تشرشل هذا هو الكذب والهراء بالذات بينما لا يترك اليهود فرصة لمناسبة تمرّ الا ويشعلونها ضد السكان العرب كما حصل بعد اربعة أشهر من قول تشرشل وفي ذكرى وعد بلفور . كان يزيّن لهم السياسة البريطانية وخاهة بلفور الذي صرح بأن الدول الاربع الكبرى ملتزمة باليهودية سواء أكانت على خطأ ام صواب " وهي ذات شأن أعمق بكثير من رغبات السبعمئة العربي الذين يقطنون تلك الارض القديمة . . . ان فلسطين يتوجب ان تمتد الى الأرض الواقعة شرقي الاردن " . (٣) وهكذا يعيّن ما يجب وما لا يجب . . .

ولا ننسى اللورد كورزن في وزارة الخارجية التي انتقلت فلسطين من عهدتها ، لأنه خصم عنيد للصهيونية ، الى عهدة وزارة المستعمرات في ١٩٢١ لدى " تشرشل الذي يعمر قلبه بحب صهيون " (٤) اللورد كورزن أثار اعتراضات قوية على أسس علمية ضد توطين الصهاينة بقوله : " لا يمكن تصوّر مقرّ اقل مائة للجنس اليهودي من هذا المكان . . . ان تأمين حقوق مدنية ودينية لليهود الذين سبق واقاموا في فلسطين ، أجدى من استهداف اعادة النازحين على نطاق واسع " . (٥) وقد لخص موقفه من القضية بقوله : " انطلقنا بالعمل على

١- دورين انخرامز . أوراق فلسطين ١٩١٧ - ١٩٢٢ (بيروت : دار النهار للنشر ،

١٩٧٢) ، ص ١٦ نقلا عن كتاب وايزمن " التجربة والخطأ " .

٢- المرجع نفسه ، ص ١٢٤ .

٣- نفسه ، ص ٧٤ - ٧٥ .

٤- نفسه ، ص ١١١ .

٥- نفسه ، ص ١١٩ .

أساس مبادئ التقرير الذاتي النبيلة ، وانتهمنا بتوجه رائج الى عصابة الامم ، ثم اخذنا نضع وثيقة تفوح بروائح يهودية من كل فقرة من فقراتها ، فهي دستور مععلن لدولة يهودية . حتى ان العرب الساكنين لم يسمح لهم الا التصلصص من خلال ثقب المفتاح بوصفهم جماعة غير يهودية ، فمن الواضح كليا بأن الانتداب صاغه امروء يترنج تحت غضب الصهاينة انني شخصيا لا أقر بأن صلة اليهود بفلسطين التي انتهت قبل ١٢٠٠ سنة تعطيم أي حق على الاطلاق . (١)

هذا الموقف تلخيص واضح للانتداب السيء على فلسطين حيث انبرى مخلصون لمناهضته امثال رئيس المجلس اليهودي للاوصياء ل . ل . كوهين بقوله : " ان اقامة وطن قومي للجنس اليهودي في فلسطين يفترض ان اليهود هم أمة . الامر الذي لا اقره ، وانهم بدون وطن . . . هذا مضمون ارفضه . " (٢)

وكذلك وافقه السير فيليب ماغندس - عضو برلمان يهودي - " انني لا استطيع الموافقة على اعتبار اليهود انفسهم امة وتعبير (قومي) المستعمل بصدد المتحد اليهودي في فلسطين أقتح سحب من الصيغة المقترحة . وان اشتمال التصريح على تعابير مثل (وطن قومي للجنس اليهودي) يبدو لي بكل تأكيد امرا غير مرغوب فيه . . . (٣) الا ان قلّة الاعوات المعارضة لم تفعل فعلها الواضح امام شراسة المهجمة ، ولم يستطع ادوين مونتاغو ، وزير الدولة لشؤون الهند والمناقص للصهيونية ، الا ان يؤجل القرار فقط بغياب لويد جورج وبلغور عن اجتماع الحكومة المنعقد لدرس مسودة التصريح " وأثار اعتراضات قوية ضد أي تصريح ينصر على ان فلسطين هي الوطن القومي للشعب اليهودي . واعتبر اليهود متحدا دينيا وأنه هو نفسه مواطن يهودي انكليزي . " (٤) واحتج الكاردينال بورن الى لويد جورج رئيس الوزارة برسالته من القدس " ان الصهاينة هنا يزعمون ان الأرض المقدسة ستكون بحوزة اليهود في ظل الحماية البريطانية وقد زعم الصهاينة كذلك انهم حصلوا على موافقة الحاضرة المقدسة فربحوا بذلك دعم بعض المطارنة الكاثوليك في الولايات المتحدة وانكلترا ، ولكن لا أساس لهذا الزعم ، فالحركة كلها تبد ومناقضة كليا للتقليد والمشاعر المسيحية . " (٥) وهكذا راح الفاتيكان يضاعف جهوده لمعارضة مسودة الانتداب على فلسطين بصيغتها الراهنة ، فتكلم بلغور ضد الاقتراح في خطابه بمجلس اللوردات " وقد أرسى موقفه على الفرضية القائلة بأن صنع الخير العميم يستوجب ارتكاب بعض الظلم . " (٦) ذلك الموقف جعل الكونت

١- كورزن في ٦ / ٨ / ١٩٢٠ عن كتاب دورين انغرامز السابق ، ص ٩٦ - ٩٨ .

٢- دورين انغرامز . المرجع السابق ، ص ٢٣ .

٣- المرجع نفسه ، ص ٢٢ .

٤- نفسه ، ص ١٨ .

٥- نفسه ، ص ٦٢ .

٦- نفسه ، ص ١٦٠ . وتعليقا على صنع الخير مع اليهود على حساب ظلم العرب ، فقد كان آباؤنا يروون ذكرياتهم ايام الانتداب في العشيات ومنها ان الضابط الانكليزي كان يمر بالفلاح الفلسطيني ، فاذا رآه رابطا الحصان الي النير ، حمله وربط الفلاح محله . واذا كان يستعمل لنهر العصا المنتهية بسمارحات ، غمز الفلاح به . . . كل هذا لكي يشعره بأن الحصان حيوان والحيوان يشعر كالانسان . . . فتصور !

دي سالي ، الوزير البريطاني لدى الفاتيكان ، يبرق الى الخارجية معرباً عن ان "ثمة قلقاً بالغاً وجدياً لجهة انكم في الوقت الحاضر تدرسون مقترحات من شأنها جعل الصهاينة في موضع الامتياز المتسبب بالضرر للمسيحيين". (١)

اما موقف ارنولد ترينبي آنذاك فكان متذبذباً ، ففي مذكرته في تشرين الأول ١٩١٨ قال : "نحن متعهدون للملك حسين أن هذه الأرض ستكون عربية ومستقلة ٥٠٠ من المرغوب فيه ان فلسطين يجب ان تكون جزءاً من اتحاد عربي كوندرا لي". (٢) ثم عاد فسجل في الخارجية "ان غور الأردن منطقة ادنى من استوائية ومقفرة ولكنها قادرة على استيعاب مجموعة من السكان اذا ما رويت وزرعت باسلوب علمي". ان للمصهيونيين الحق نفسه الذي للعرب في هذه الأرض المهجورة اذا لم يكن حقهم أكثر... (٣)

وفي موضع آخر قدم الوزير البريطاني أرومسي غور تحديداً جغرافياً للوطن اليهودي في شهر آب ١٩١٨ ، من النجم الشمالي لفلسطين هو مصب نهر الليطاني ، شرقاً إلى المستنقعات الواقعة مباشرة الى شمالي بحيرة الحلوة . شرقاً المنحدرات الغربية للتلال الممتدة من وادي الاردن بحيث يكون أسفل الوادي ضمن فلسطين . جنوباً خط يرسم الى الشرق من رفح الى البحر الميت . (٤)

ثم رسمت المنظمة الصهيونية تحديداً جديداً للوطن اليهودي في تشرين الثاني ١٩١٨ وقد مته الى مؤتمر فيرميساي للسلام في اول كانون الثاني ١٩١٩ وفيه : شمالاً ضفاف نهر الليطاني الشمالية والجنوبية ، ومن هناك باتجاه جنوبي شرقي الى نقطة تقع جنوبي منطقة دمشق وعلى مقربة وباتجاه غربي سكة حديد الحجاز . شرقاً خط على مقربة وباتجاه غربي سكة حديد الحجاز . جنوباً خط من نقطة تقع الى جوار العقبة وحتى العريش. (٥)

وهكذا تبدو تحديداتهم مطاطة الى أقصى الحدود لكي يدرك العالم اليوم ان الحدود الصهيونية متعادلة نسبياً مع عدوانهم وسط سيطرتهم المستمر حيثما استطاعوا . ولقد يئست لهم الظروف أكثر مما حلموا به ، كيف لا وبريطانيا يتوالى عليها من هم أشدّ حرصاً على الصهيونية ومطامعها من الصهاينة انفسهم ، فهذا الدوق أوفد يفونشير الذي خلف تشرشل وزيراً للدولة في شؤون المستعمرات ، يعلن في مطلع ١٩٢٢ بأن هدف التصريح كان تأليب عطف اليهود النافذين ومنظماتهم في العالم على قضية الحلفاء . فإن كنا توجهنا اليهم في ساعة الخطر ثم تخلىنا عنهم بعد زواله ، فهذا التصرف عمل دنيء". (٦) فما هو طموح الدوق المتمرد أبعد من وعد بلفور وتوقيع صك الانتداب في ٢٤ تموز ١٩٢٢ خاصة بعد تعيين هربرت صموئيل حاكماً مدنياً لفلسطين عام ١٩٢٠ وذلك بعد مغادرة النبي؟

١- دورين انغرامز . المرجع السابق ، ص ٦١ .

٢- نفسه ، ص ٤٥ .

٣- نفسه ، ص ٤٨ .

٤- م . ن . ص ٤٣ .

٥- م . ن . ص ٥٥ .

٦- م . ن . ص ١٦٢ .

وماذا تبقى متغلّتا من متاليد السمك في فلسطين خارج ايدى الصهاينة ؟ كيف كان الواقع العربي في فلسطين وأين يعود البريطانيون للعرب ؟
احصاءات السكّان والارض : على صعيد الاحصاءات البشرية لمجموع الطوائف المتعايشة في فلسطين خلال القرن الحالي ، فان الجداول تبين الحقيقة السكانية والحقيقة الملكية لاراضي فلسطين .

١- عدد سكان فلسطين حسب الطوائف سنة ١٩٢٢ - ١٩٣٦ م

السنة	المسلمون	اليهود	المسيحيون	طوائف أخرى	المجموع
١٩٢٢	٥٨٩١٧٧	٨٣٧٩٠	٧١٤٦٤	٧٦١٧	٧٥٢٠٤٨
١٩٣٦	٨٤٨٣٤٢	٣٧٠٤٨٣	١٠٦٤٧٤	١١٢١٩	١٣٣٦٥١٨

٢- جدول كيفية حصول اليهود على اراض فلسطينية حتى يوم ١٥ / ٥ / ٤٨ (٢)

التفصيلات	المساحة بالدونم
اراض حصلوا عليها في ظل الحكم العثماني كانت مسجلة باسمهم سنة ١٩١٨ .	٦٥٠٠٠٠
الأراضي الاميريقالتي منحتها سلطات الانتداب للوكالة اليهودية .	٥٠٠٠٠٠
أراض باعتهما عائلات غير فلسطينية . (٣)	٦٢٥٠٠٠
أراضي منطقة مرج ابن عامر .	٤٠٠٠٠٠
أراضي امتياز بحيرة الحولة .	١٦٥٠٠٠
أراضي وادي الحوارث .	٣٢٠٠٠٠
أراضي مختلفة .	٢٨٠٠٠٠
أراض باعها عرب فلسطين .	٣٠٠٠٠٠
المجموع العام .	٢٧٠٠٠٠٠

٣- ملكية الأرض : مقتبسات من احصاءات القرى وفقاً لما كانت عليه يوم اول نيسان ١٩٤٥ - جدول المجموع الكلي ، صادر عن حكومة فلسطين . ويمكن معرفة حقيقة الملكية اليهودية للأرض الفلسطينية ووسائلها من ملاحظة ملكيتهم وفق هذا الجدول بمجموعه العام مقارنة مع مجموع عام الجدول السابق ونسبة الملكية تلك من مجموع عام أرض فلسطين في هذا الجدول التالي :

- ١- سعيد حمادة . النظام الاقتصادي في فلسطين (بيروت : جامعة بيروت الاميركية ، ١٩٣٩) ، الذيل الاول - أ - ص ٧٣٩ .
- ٢- ناجي علوش . الحركة الوطنية الفلسطينية ١٨٨٢ - ١٩٤٨ (بيروت : منظمة التحرير الفلسطينية - مركز الابحاث ، أيار ١٩٧٤) ، ص ١٧ - ١٨ نقلا عن كتاب اميل الغوري " ١٥ أيار ١٩٤٨) ، ص ٥٨ - ٦٦ .
- ٣- تفصيل هذا سوف يأتي بعد قليل .

عرب	يهود	عمومي	آخرون	طرق وسكة حديد وأشجار وبحيرات
١٢٤٧٤٧٤	١٢٤٩١٦٩٩	١١٩٥٠٦٥٨	١٤٢٠٥٠	١٦٣٨٤٢

الجملة بالدوم (الدوم الف
م^٢ أو نحو روع فدّان)

(١)

٢٦٣٢٣٠٢٣

٤- جدول المهاجرين الى فلسطين من ١٩١٩ لغاية ١٩٣٦ : (٢)

بولندا	١٢٤٠١٠	ليتوانيا	٩٣٠٥	العراق	٦١٢٢	النمسا	٣٦٩٠
روسيا	٣٠٤٢٦	اليمن وعدن	٨٥٢٩	لاتفيا	٤٥٦٤	ايران	٣٠٤٧
المانيا	٢٨٦٢٩	اميركا	٧٦٧٤	تركييا	٤٠١٦	بلدان اخرى	٣٤٥٨٣
رومانيا	١٤٧٥٤	اليونان	٦٥١٦	تشيكوسلوفاكيا	٣٧٤٨	المجموع	٢٨٩٦١٦

أ - ملاحظة سكانية : ان مجموع السكان اليهود في فلسطين عام ١٩٣٦ وفق الجدول

الاول هو ٣٧٠٤٨٣ نسمة . ومجموع اليهود المهاجرين (مع كثرة ملادهم) حتى ذلك

العام نفسه هو ٢٨٩٦١٦ نسمة . وهكذا يتضح ان عدد اليهود في فلسطين قبل

فتح الاستعمار لباب النجزة امامهم كان ٨٠٨٦٧ نسمة هو الفرق بين المجموعين .

ب - ملاحظة ملكية : من الجدولين الثاني والرابع يتبين لنا مقدار الزيادة في تملك

الارض عند اليهود من ١٩٤٥ الى ١٩٤٨ والبالغة نسبة عالية قياسا الى السدّة

الزمنية . ونلاحظ من الجدول الرابع قياسا الى مجموع مساحة فلسطين ، النسبة

الضئيلة للمساحة التي استطاع اليهود تملكها حتى منتصف ١٩٤٨ .

ولكي يصحح التاريخ مجراه فتسقط اتهامات الشعب ببيع ارضه لعدوه فاننا مضطرون

الى تفصيل الواقع من بيانات اراض باعتهما عائلات غير فلسطينية واعتراف الصهيوني روسين

امام لجنة التحقيق عام ١٩٣١ : " ان تسعة اعشار الاراضي التي اشتراها اليهود بفلسطين

حتى عام ١٩٢٩ ، اشتروها من ملاكين غير فلسطينيين يعيشون خارج فلسطين . " (٣)

هؤلاء الملاك كانوا قد تملكوا الارض مستفيدين من وحدة بلاد الشام قبل تجزئتها . وعندما

عرض عليهم الصهاينة الشراء باعوا لعدم وجودهم في تلك الاراضي وموات شعورهم تجاه

المزارعين . . اما الاراضي وبائعوها فهم :

١- اراضي آل سلام - بيروت : كانت اسرة سلام قد اعطيت امتيازاً في الحولة ممنوحاً من

الحكومة العثمانية لهم ينص على استصلاح الاراضي الواسعة وتمليكها الى الفلاحين

الفلسطينيين الذين نشأوا مع الارضود أبوا عليها . فحرمت اسرة سلام الاثمان التي

- ١- عبد الوهاب الكيالي . تاريخ فلسطين الحديث ، جدول رقم ١ ، ص ٤١٢ .
- ٢- سعيد حمادة . النظام الاقتصادي في فلسطين ، الجدول ١١ ، ص ٣١ .
- ٣- ابو يصير . جهاد شعب فلسطين ، ص ٤٣٩ .

كان الفلسطينيون يدفعونها ، وخسر عرب فلسطين أراضيهم من جزاء بيع آل سالم
الامتياز الى اليهود وكانت مساحة الأراضي حول الحولة ١٦٥ ألف دونم اي ١٦٥ مليون م^٢
وهكذا تم تشريد ١٥ ألف عربي . (١)

٢- أراضي بيهم وسرسق - بيروت : في أراضي الحولة نفسها كانت آلاف الدونمات امتيازاً
لاثنين من أكبر الاسر اللبنانية هما محمد بيهم وميشيل سرسق . ملكا طريقة آل سالم
نفسها "وتتربع في بيروت عمائر شاهقة وسط ساحاتها الجميلة تحمل اسم هذه الأسر
الكبيرة" . (٢)

٣- أراضي مرج ابن عامر لآل سرسق : هي أخصب أراضي فلسطين . تملكها أسرة سرسق .
تبلغ ٤٠٠ ألف دونم . تضم من القرى العربية بين ١٥ - ٢٢ قرية^(٣) ويسكنها ٢٥٤٦
أسرة . فاذا كانت كل أسرة ١٠ أشخاص ، يعني هذا ان سكان مرج ابن عامر بلغوا
٢٥٤٦٠ عربياً شردتهم أسرة سرسق . ولجأ الفلاحون الى البوليس ليحميهم فهدم بيوتهم
وطردهم وسلم الاراضي الى اليهود .

٤- اراضي وادي الحوارث : هي اراض خصبة واقعة على الساحل الفلسطيني . عدد سكانها
٢٤٠٠ عربي . يملكها اللبنانيون أسرة تيان ، وتبلغ عشرات الألوف من الدونمات ، عام
١٩٢٢ رهن انطوان تيان ٥٢٥٠ دونما خصبة لرجل فرنسي ثم باعها لليهود . ثم باع
ميشيل تيان المقيم في فلسطين حصته لهم فادعى اليهود ان كل ما اشتروه هو كل ما يخص
قبيلة الحوارث . ونظرت المحاكم في القضية المعقدة ثم سلمت الوادي لليهود . (٤)

٥- أراضي القباني : كانت هذه العائلة السورية تملك حوالي ٤ آلاف دونم أي ٤ ملايين م^٢
ففعلوا عام ١٩٣٧ ما فعل ملاكو وادي الحوارث . (٥)

٦- أراضي أسراخرى : الصباغ والتويني البيروتيتان باعنا الاراضي الكائنة في السهل
الساحلي بين عكا وحيفا . واسرة الجزائرلي وشمعة والقوتلي السورية باعت لليهود
أراضي المنشيّة . وأسرة آل موديني السورية باعت قسماً كبيراً من أراضي صفد . (٦)

بعد ما تقدم ، هل يمكن تحميل المسؤولية لصغار الملاكين الفلسطينيين الذين كانت
تجميعهم الحرب العالمية والانتداب يرهقهم بالضرائب ويهلك أو يتلف مواشيهم ومحاصيلهم
لدفعهم نحو الاستغناء عنها بالبيع بعدما أصبحت القضية خاسرة وتتعلق بالحياة أو الموت ؟
بدأ النشاط الصهيوني لتملك فلسطين مبكراً ، سراً وعلناً ، ولم يكن الشعب الفلسطيني

على جانب من الوعي يمكنه من الانتباه للمؤامرات . مردّ ذلك الى زروحه المستمر تحسب
الاحتلال العامل - أيًا كان نوعه ومصدره - على تجهيل الشعب لاطالة أمد استعباده . هكذا
كان الشعب فأين كان الساسة العرب الدهاة المحنكين في النصف الأول من القرن العشرين

١- أبو بصير . المرجع نفسه ، ص ٤٦٦ .

٢- نفسه ، ص ٠ ن .

٣- أميل الغوري . المؤامرة الكبرى ، اغتيال فلسطين ومحق العرب (القاهرة : دار النيل ،
ط ١ / ١٩٥٥) ، ص ٤٧ .

٤- أبو بصير . م . ن . ص ٤٦٩ .

٥- م . ن . ص ٠ ن .

٦- م . ن . ص ٤٧٠ .

وعند ما كانوا يفتقرون ويستطيعون لكنهم لا يفعلون ؟ انه لعذر اقيح من ذنب لوعذروا بأنهم لم يكونوا يتصورون ان ما سيحل ببلادهم انكى وأدهى مما حل بفلسطين . كانت فلسطين تفاعه شهية فاز أكلها بالحياة وداهم بستانها الموات .

من أيام تركيّا : من المعروف ان الاستبداد التركي في فلسطين عمّر اربعة قرون قبل ان ينتقل الى الانجليز . وقد كان يسمي البصيرة والبصر من ضرائب فادحة واضطهاد وتجويع ومصادرة الغلال والممتلكات والتجنيد الاجباري للرجال في الجيش التركي حيث هاجر كثيرون هرباً من الفاقة . ومّرت البلاد بأسوأ ظروف معيشية يواجهها انسان في حياته خاصة أنّ الحرب الكونية تدق الأبواب بعنف فكيف وقد وصلت !

كان الدستور العثماني يمنع انشاء النقابات والجمعيات والصحف وعقد الاجتماعات وفتح المدارس ، فلم ينشئوا صحافة ومدارس الا بعد صدور الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ . وباختصار ، لم تكن هناك حياة ثقافية فقد كان بين ١٩١٣ - ١٩١٤ في البلاد كلها ٩٥ مدرسة ابتدائية فيها ٧٧٥٨ تلميذا وتلميذة ، و ٢٣٦ مدرّسا ومدرّسة . ومدرسة اعدادية في كل من حيفا وعكا ونابلس . ومدرسة المكتب السلطاني بالقدس . ولغة التدريس هي التركية . (١) كما كانت الوسائل الزراعية بدائية لم تلق هي ولا الصناعات تشجيعا ولا تطورا ناهيك عن تملك غير الفلسطينيين لأكثر الاراضي بسبب علاقاتهم بالاتراك . كما مرّ بنا . وهكذا بدا المظلم عاريا مع التعذيب والفقر والجوع والمرض والجهل ، كل ذلك منها وحده كاف للفتك بالانسان فما بالها وقد شدّها السُرك الى جسد الفلسطيني دفعة واحدة !

وعود بريطانيا بعد الحرب : لم يكن الفلسطينيون وحدهم ينتظرون مصيرهم ، بل كانت بلاد الشام والحجاز كلها سواء . وارتأت بريطانيا ان العرب ساعدها الايمن بالرجال الكثير لطرد الاتراك وهزيمة حلفائهم في حرب مقبلة . واتخذت من ذلك سببا مغرّباً للعرب بتخليصهم من النير العثماني واعطائهم الحرية والاستقلال مقسمين أغلظ القسم اذا انتصروا على تركيا . واستجاب الملك حسين لدعوة بريطانيا بدخول الحرب ضد تركيا لقاء الاستقلال ، ويصبح هو ملكاً على البلاد . فبدأت الثورة العربية صباح ٢٤ / ٦ / ١٩١٦ بينما كان الفرنسي بيكو والبريطاني سايكس يتفقدان سرّاً على تقسيم الوطن العربي الى اشلاء ومغانم ومناطق نفوذ . وكانت في ذلك الحين رسائل مكماهون الى حسين تفيهم بالخبت والمكر والتلاعب على الالفاظ لما يحتمل المط والتأويل على أكثر من وجه . ولم يكن الشريف حسين الا مخدوعاً واثقاً ثقة الفريسة بالشعوب .

وهكذا " التزمت الحكومة البريطانية بتعهدين متناقضين بمدد التصرف ما بمدد الحرب بالأراضي التي كان بحوزة الاتراك . . . التعهد الاول للعرب باستقلالهم ، والتعهد الثاني للفرنسيين أعطي للفرنسيين بموجب اتفاقية سايكس- بيكو . وفي ١٩١٧ صدر تعهد ثالث ، هذه المرة ، للصهاينة . " (٢) فتلاعبت بريطانيا ولم يستطع العرب ايقافها على الرغم من ان صموئيل استسهل ان يقترح على الحكومة البريطانية ضم فلسطين الى الامبراطورية

١- كامل السوافيري . الشعر العربي الحديث . ص ٤٤ .

٢- دورين انغرامز . المرجع السابق ، ص ١١ .

البريطانية وقد عينته بريطانيا مندوباً ينظر اليه كملك اسرائيل وجعلوا^(١) رئيس العسدية
يهودياً هوبنتويتش، وأعطوا امتياز تنوير فلسطين بالكهرباء الى روتبيرج اليهودي . . . ومنهم
رئيس دائرة التجارة والصناعة وغيرهما . . .

وصرح وايزمان ان مقابلته لفصل كانت ناجحة وقد وعده فيصل باقناع العرب بأن
المهيدونية والحركة العربية هم حركتان متزاملتان وان انسجماً يسود بينهما .^(٢) اما الامير
فيصل فانه كان في طريقه لمؤتمر السلام حيث قابل وايزمان في لندن واتفقا مع ملحق
وقّعه ، انه اذا لم يحصل العرب على استقلالهم فهو في حائل من اي اتفاق ، فقد أوصت
بعثة كينغ - كراين عام ١٩١٩ بأن تكون سوريا بما فيها فلسطين ولبنان في ظل انتداب واحد ،
وأن يصبح الامير فيصل ملكاً للدولة السورية الجديدة .^(٣) وكان ورد في رسالة مكماهون الى
حسين ما يلي : " وفق التعديلات المشار اليها اعلاه ، فان بريطانيا العظمى مستعدة ان
تؤيد وتعترف باستقلال العرب في تلك الاقاليم حسب الحدود التي طلبها شريف مكة ."^(٤)
ولم يوقت في الرسالة - كما تقول دورين انغرامز - على ذكر فلسطين بالاسم ، وفي السنوات
التالية عندما نشب الجدل حول تفسير الرسالة تمسك العرب بقولهم انه لم يكن ممكناً جغرافياً
اشتمال فلسطين في " الأقسام من سورية الواقعة الى غربي مقاطعات دمشق وحمص وحمص وحماة وحلب"
بينما أصرت بريطانيا على اننا قصدت دوماً استثناء فلسطين من منطقة الاستقلال . . . وتحول
التعارض الى خلاف مرير بعدما كان الشريف قد وافق على الانحياز الى الحلفاء بشرط ان يدعم
البريطانيون ، عند هزيمة الاتراك ، الاستقلال العربي " في شبه الجزيرة العربية كلها
(خلاعدن) وفي سوريا ولبنان وفلسطين وشرقي الأردن والعراق ."^(٥) وفي آذار ١٩٢٠
وزعت الخارجية البريطانية مسودة فيها المقطع التالي : " ان حكومة جلالته ستكون مسؤولة
عن وضع فلسطين في احوال سياسية وادارية واقتصادية تؤمن انشاء الوطن القومي اليهودي
ونمو كومنولث متمتع بالحكم الذاتي ."^(٦) وعين في العام نفسه هيرت سموئيل مندوباً سامياً
على فلسطين . وفي ١٨ آذار ١٩٢٠ أعلن مؤتمر سوري عام ، سوريا ، بما فيها فلسطين
ولبنان وشرقي الاردن ، دولة سيادة مستقلة و فيصل ملكاً عليها . فانعقد سريعاً مؤتمر سان
ريمو في عام ١٩٢٠ لبحث مستقبل الوطن فانتهى المؤتمر في ٢٦ نيسان عن انتداب
بريطانيا على فلسطين والعراق ، وفرنسا على سوريا ولبنان . فتكون بريطانيا قد نقضت
تعهداتها للعرب الذين احتلوا العقبة في تموز ١٩١٧ عندما احتل النبي بئر السبع في
تشرين الاول ثم يافا . وفي ٩ كانون الاول احتل القدس و أصدر تصريحاً أعلن فيه " ان هدف
الحرب التي تخوضها بريطانيا العظمى هي تحرير جميع الشعوب الراضحة ، من قبل ، تحت
نير الاتراك ، تحريراً تاماً ونهائياً واقامة حكومات وادارات وطنية في تلك البلدان تستمد سلطانها
من مبادرة تلك الشعوب نفسها وارادتها الحرة ."^(٧)

١- كما يقول خليل السكاكيني في كتابه : فلسطين بعد الحرب الكبرى ، ج ١ (القدس :

مطبعة بيت المقدس ، ١٩٢٥) ، ص ٧ .

٢- بتاريخ السابع عشر من كانون اول ١٩١٨ - الرقم ٠١١٩ . ليس برسم النشر - أوردتها

دورين انغرامز ، المرجع نفسه ، ص ٥٨ .

٣- دورين انغرامز ، م . ن . ص ٧٣ .

٤- م . ن . ص ١٠ .

٥- م . ن . ص ٥٠ .

٦- م . ن . ص ٩٤ .

٧- م . ن . ص ٢٧ .

وهكذا في أعقاب مؤتمر سان ريمو ١٩٢٠ ، تقدم الجيش الفرنسي الى دمشق فخلع الامير فيصل وتلاشت دولة سوريا العربية . اما اليهود انفسهم فقد طلبوا أن تكون لهم فرقة في جيش النبي الزاحف على فلسطين لتكون أول فرقة تدخل البلاد فتصبح حجتهم واقعة وأنهم أخذوا ما أخذوا بالسلاح . . . لكن النبي نحس الفرقة اليهودية لتيقنه من عدم كفاءة اليهود القيام بعمل عسكري^(١) وحتى لو كانت مادة فلسطين البشرية من اليهود كما اقترحها وايزمان عام ١٩١٩ "آلانا من الشباب اليهودي الذي خدم في الجيش الروسي ، ويهوداً من جبال القفقاس ، وأسرى حرب من غالياني روسيا الذين في الظروف العادية يجتدون في الجيش البولوني ، وأسرى حرب بولونيين في ايطاليا ، ويهوداً رومانيين من جنود سابقين وسواهم . . ." (٢) لقد كان النبي من القوة بحيث يستطيع اجتياح فلسطين بدون مساعدة محققاً قول وايزمان الذي اقنع حكومة لويد جورج في اثناء الحرب باعلان الوعد " ان فلسطين يهودية كما ان انكلترا انكليزية واميركا اميركية . . . وسنرجع الى فلسطين بلادنا لا نذهب اليها . . ." (٣)

أشكال الرفض الفلسطيني (١٩١٨ - ١٩٤٨) : دخل النبي القدس فاتحاً في ٩ كانون

الاول ١٩١٧ وسقطت فلسطين بكاملها في يد القوات البريطانية في ايلول ١٩١٨ . وتُعترف الكتابات البريطانية الرسمية منها وغير الرسمية باسهام عرب فلسطين في صنع انتصارات القوات البريطانية والحليفة . . .^(٤) الا ان نكران الجميل والاستمرار في تهئية بريطانيا لفلسطين وطناً قومياً لليهود من ضمن لعبتها السياسية المأكرة ، كان يؤدّي دائماً إلى صيغ حلول وسسوط اعتبرها الشعب الفلسطيني مكاسب للصهيونية . فقد رفض الدستور كما كان رفض الانتداب ووعد بلفور . ثم رفض المجلس التشريعي والمجلس الاستشاري لوضع اليهود والانجليز كل ذلك ومشاركتهم فيه . ورفض الوكالة العربية على غرار الوكالة اليهودية لانهم ليسوا غرباء دخلاء كاليهود .^(٥) وتحول الرفض غالباً الى انتقادات وثورات بدأت اثر الاعلان عن تشكيل البعثة الصهيونية الفرنسية الايطالية الانجليزية وارسالها الى فلسطين . " اخذت العناصر العربية والمسيحية في فلسطين تعمل في جو من التوتر الحاد"^(٦) وتالت الوفود العربية إلى لندن لبحث المسألة فوهلها وفد برئاسة موسى كاظم باشا الحسيني في آب ١٩٢١ " وحظي الوفد العربي - بعد حصار طويل - بلقاء بلفور الذي تحدث إليهم بغموض رشيق وهدوس عن (تجربة) الصهيونية . . . وعادوا الى لندن في الخريف ."^(٧) ثم رجع الوفد من لندن في ايلول ١٩٢٢ بعد صدور الكتاب الأبيض الاول . وفي الذكرى الاولى لتصريح بلفور ٢ تشرين الثاني ١٩١٨ ، أقام اليهود تظاهرات فرح فأقام العرب التظاهرات رغم تهديد الانجليز بعدم

١- خليل السكاكيني . المرجع السابق ، ١ : ١ .

٢- دورين انغرامز . المرجع السابق ، ص ٨١ .

٣- السكاكيني . نفسه ، ص ٢ .

٤- عبد القادر ياسين . كفاح الشعب الفلسطيني قبل العام ١٩٤٨ (بيروت : التحرير الفلسطينية - مركز الابحاث ، ايار ١٩٧٥) ، ص ٣٢ .

٥- السكاكيني . نفسه ، ص ٤٤ .

٦- دورين انغرامز . المرجع السابق ، ص ١٣٨ و ١٣٨ .

٧- م . ن . م . ن .



الاصطدام الذي حصل عند بوابة يافا . واحتج الفلسطينيون بوفود سارت تنشُد الاناشيد الوطنية . وتكررت الاضطرابات في الذكرى الرابعة عام ١٩٢١ فقتل في القدس اربعة يهود وعربي .^(١) وكان عيد العمل لسنة ١٩٢١ قد شهد صدامات واسعة في يافا القديمة فقتل ٢٢ يهوديا وجرح ١٥٠ ، وقد ذكر برنتون ، من أركان المخابرات ، اسباب الشغب هذه في جملة أسباب منها " ادراك الظلم الواقع بمنح بدو شرقي الأردن البرابر الحكم الذاتي وحجبه على فلسطين . " واستمرت الحوادث اياما وعلى نطاق واسع وصولا إلى المستعمرات^(٢) وفي مطلع ١٩٢٢ شرع الجيش السري اليهودي - المهافانا - في اظهار نفسه بحرية أكثر وبتغطية من البريطانيين الذين لما يتدوقوا طعم جرائمهم بعد . وجاء في وثيقة بريطانية بتاريخ ١٥ / ٦ / ١٩٢٢ : " الآن يعتقد بأن كل بلدة تهم مجموعة كبرى من السكان اليهود ، يتواجد فيها فرع للمهافانا وأن كميات كبرى من السلاح قد دخلت البلاد بتصريف اليهود . " ^(٣) وما يذكر أن شحنات الاسلحة كانت تصل الى أيديهم عبر ميناء حيفا تحت بسطة الانجليز ، وكانت المصفقة الكبرى عندما تناثرت حمولة أحد البراميل التجارية فاذا بها اسلحة وذخائر للمهاينة . وقام المهافانا بالتحريض ضد العرب في كل مناسبة . وشهد التاريخ انتفاضات عدة أبرزها عام ٢٠ و ٢٤ و ٢٩ و ٣٣ و ٣٥ ، واشهرها على الاطلاق ثورة ١٩٢٦ . ففي عام ١٩٢٠ ، وعند اقتراب عيد النبي موسى ، قام الشباب اليهودي باستعراض فرقة الدفاع الذاتي في شوارع القدس وهي تصرفات لم تساعد على تهدئة العرب وقد تكون اوصلت الى اضطرابات القدس في نيسان ١٩٢٠ . وفي يافا ، آذار ١٩٢٤ حاول الشباب الاستمراء من أزياء رجال الدين المسلمين فتصدى لهم العرب . ويمكن القول بأن هذه المظاهرات التي تتحول إلى مصادمات هي محاولات ثورية ولو انها كالأقل ، فذاك يعود الى عنف الانتداب البريطاني في قمع العرب بوحشية .^(٥) وفي ٢٦ آب ١٩١٩ وقع هجوم يهودي على مقام النبي عكاشة في القدس وهو مقام قديم مقدس له مكانة كبيرة فسي نفوس المسلمين ، فأصيب المقام بتلف كبير ودنس قبور الصحابة الكائنة فيه .^(٦)

وكان للجيش السري اليهودي ممارسات متطورة في الارهاب ضد الضباط البريطانيين أنفسهم وضد القرى العربية الآمنة حتى أن اليهود الارثوذكس - غير صهيونيين وهم الكثرة - تبرأوا من الصهيونية وانكروها لأن ما يهمهم هو العيش بسلام أينما كان . ولقد كان الدكتور ديهان احد زعمائهم في القدس يفسد على المهاينة أعمالهم ومشاريعهم فقتلوه علس قارعة الطريق . والزعيم الصهيوني الكبير زنجويل الذي كان يقول " يجب أن نبيد العرب على طريقة هادئة ولكن مستمرة " ^(٧) ثم ارتد عن صهيونيته وجعل يقاومها جهده فقتلوه . وآخر

١- دوري انغرامز . المرجع نفسه ، ص ٢٩ و ص ١٤٥ .

٢- المرجع نفسه ، ص ١١٨ .

٣- نفسه ، ص ١٥٣ .

٤- نفسه ، ص ١٥٢ .

٥- عرفات حجازي . فلسطين أرض الثورات (الكتاب الرابع لا مط . ط ١ / لا ت) موجود في مكتبة مركز الأبحاث الفلسطينية - بيروت .

٦- ناجي علوش . الحركة الوطنية الفلسطينية ١٨٨٢ - ١٩٤٨ (بيروت : منظمة التحرير الفلسطينية - مركز الأبحاث ، أيار ١٩٧٤) ، ص ٥٣ .

٧- السكاكيني . المرجع السابق ، ص ٢١ .

جريمة قتل لانصار سابقين لهم ثم فاضحين ، كانت اغتيال البريطاني الكونت برنادوت الوسيط الدولي في فلسطين .

وتظل الثورات هذه فردية وعفوية تنتمي في أمد قريب ما لم تكن منظمة تنظيماً سياسياً جيداً ودقيقاً . فلا بد من تسمية الأحزاب التي كانت في الساحة الفلسطينية سابقة لثورة ١٩٢٦ الرائدة .

الأحزاب الفلسطينية :

- ١- كان الحزب الشيوعي قديماً "فانشتر" سنة ١٩٣٦ للصدام بين أعضائه العرب وأعضائه اليهود حول قضية تأييد ثورة ٢٠٣٦ . وتكيف منذ ذلك الحين الشيوعيون اليهود مع الصهيونية . (١)
- ٢- حزب الأحرار العربي الفلسطيني : تأسس في آذار ١٩٣٠ ومركزه في حيفا . من رجاله البارزين أحمد الشقيري .
- ٣- حزب الاستقلال العربي : القدس في آب ١٩٢٣ . من مؤسسيه عوني عبد الهادي ، محمد دروزة ، أكرم زعيتر ، عجاج نويض .
- ٤- حزب الدفاع الوطني : القدس ٢ كانون الأول ١٩٣٤ برئاسة راغب النشاشيبي .
- ٥- حزب الإصلاح : القدس ١٨ حزيران ١٩٣٥ . قيادته الثلاثية من الدكتور حسين فخري الخالدي ، محمود أبو خضرة ، شبلي الجمل .
- ٦- حزب الكتلة الوطنية : نابلس ٤ تشرين الأول ١٩٣٥ برئاسة عبد اللطيف صلاح . (٢)
- ٧- الحزب العربي الفلسطيني : القدس ٢٥ آذار ١٩٣٥ . رئيسه الروحي المفتي الحاج أمين الحسيني وشغل منصب رئاسته جمال الحسيني . ابرز ما قام به الحزب هو تشكيله للدائرة الخاصة بتنظيم الشباب وانشاء منظمة "الفتوة" التي ساهمت بدور فعال في نداء له بتاريخ ٢١ أيار ١٩٣٥ ، فتظاهر الشعب في ٤ حزيران بالقدس ونابلس ويافا وسائر المدن . تدخلت بريطانيا فسقط شهداء وجرحى . ثم تجددت الصدامات في ٩ و ٢١ حزيران ١٩٣٥ عندما اندلعت ثورة التماس احد أعضاء الحزب ممثلين حيفا في لجنته التنفيذية . (٣)
- ثورة ١٩٣٦ (٤) : تعرف ثورة ٣٥ - ٣٦ الشهيرة بحركة عزالدین القسام ابن جبلة المولود عام ١٨٨٢ وقد وصل فلسطين عام ١٩٢١ مخلفاً في سوريا ثورة منكبسة وحكما عليه بالاعدام لاشتراكه بقيادة ثورة صالح العلي . اختار القسام ورفيقاه الشيخان محمد الحنفي وعلي الحاج عبيد من حيفا مقاما لهم . استفاد القسام من خبراته السابقة بضرورة وحدة أداة الثورة واقامة تنظيم ثوري محكم وتعبئة الجماهير وتنظيمها والتخطيط العلمي سياسياً وعسكرياً والوضوح الفكري وتعيين الظروف ؛ بنى خلاياه في شمالي فلسطين الناقم بعد طرد

١- ناجي علوش . الحركة الوطنية الفلسطينية . ص ٦٢ .
٢- يمكن مراجعة هذه الأحزاب الخمسة في كتاب عبد القادر ياسين "كفاح الشعب الفلسطيني" من صفحة ١٢٣ الى ١٢٨ .
٣- هذه النبذة عن الحزب من كتاب اميل الغوري : فلسطين عبر ستين عاماً ١٩٢٢ - ١٩٣٧ (بيروت : دار النهار للنشر ، ١٩٧٣) ، ص ٢٥ إلى ٣٨ .
٤- كل ما يلي عن هذه الثورة من كتاب عبد القادر ياسين الآنف ص ١٤٨ إلى ص ١٥٦ الى حين الاشارة لغير ذلك .

الفلاحين من رادى الحوارث وقرى مرج ابن عامر . وكانت مجالاته في المدرسة الاسلامية بعيفا مدرّسا ، وجمعية الشبان المسلمين في حيفا عام ١٩٢٦ عضوا ثم رئيسا . وإماما وخطيبا في مسجد الاستقلال في حيفا ، وقرى شمال فلسطين كان لها مآذونا وسخر وظيفته لخدمة نشاطه السياسي والتجمعات العمالية في الشمال . انبثق عن قيادته التنظيم خمس لجان قيادية : " للدعاية والتعبئة ، للتدريب العسكري لتأمين الاسلحة وتخزينها ، للمخابرات ، للاتصالات الخارجية . " كان اختيار الاعضاء بعد اختبار المرشح ومراقبته و - ربه ثم التنظيم في خلايا سرية خماسية يقود كل خلية نقيب ، واسلوب النضال هو الكفاح المسلح . وباستقرار الاسماء يتبين انهم في معظمهم رجال دين وفلاحون ، فمن بين اربعين عضوا نشرت اسماءهم سبق اسم سبعة وثلاثين لقب " شيخ " . رفض له الحاج امين الحسيني طلب تعيينه واعظا عاما ليتنقل بحرية . وطلب الاشتراك بالثورة فرفض الحاج . . حينئذ آثر تفجير ثورته بدونه " وخرج مع ٢٤ من رفاقه في النصف الاول من نوفمبر ١٩٣٥ الى قضاء جنين للحض على الثورة وتدريب الفلاحين وتشكيل ما يعرف اليوم بالبويرة الثورية وهي الصيغة التي اعتمدها غيفارا في بوليفيا بعد حركة القسام بأكثر من ثلاثين سنة . " وهكذا نظم في المدينة وانتقل الى الريف الوعر . وحصل ان قتل قسامي شرطيا صهيونيا من دورية مما أدى الى كشف مواقع الثوار فاشتبكت الشرطة معهم صباح اليوم التالي ١٥ / ١١ / ١٩٣٥ قرب قرية البار وجند المندوب السامي حملة من ٥٠٠ جندي بريطاني مساء ١٨ / ١٢ / ٣٥ فطوقت اخراج يعبد حيث جرت معركة ، في قعر احد الوديان ، غير متكافئة . وكان رجال القسام أحد عشر رجلا وعلى كل رجل ان يقاتل اكثر من أربعين جنديا . فاستشهد القسام مع رفيقيه الشيخ يوسف الزبواوي ، والشيخ محمد حنفي احمد (مصري) الساعة التاسعة من صباح ١٩ / ١٢ / ٣٥ وقضي على ثورة القسام وهي لم تزل بعد في دور المحاولة .

(١) الا ان ثورة القسام هذه كانت بذرة نشطة لثورة ١٩٣٦ الرائدة بعد خمسة اشهر ، ففي ليلة ١٧ نيسان ١٩٣٦ اغتال اليهود عربيين قرب جسر نهر العوجا ثم قتلوا رجلين وامرأة لدى تشييع احد الأولين ، فهاجت البلاد وأعلن الاضراب العام وتشكلت لجنة عربية عليا من الاحزاب للاشراف على الاضراب الذي لم توقعه نداءات المندوب السامي . وبدأ العصيان المدني في ٢٥ أيار ، وفي ٣١ منه قرر رؤساء البلديات الاضراب العام ما عدا المحامين للدفاع عن الشعب والصحف لوضع أخبار الثورة أمام أعين الشعب .

يمكن تقسيم الثورة الى مرحلتين : الأولى من يوم ١٩ نيسان ١٩٣٦ ولمدة ١٧٦ يوما انتهت بتوسط الملوك والرؤساء العرب أملا في ارتداد بريطانيا عن دعم اليهود وتهويد فلسطين . والثانية استثناف الثورة عام ١٩٣٧ عند فشل وساطة العرب وميلاد مشروع هزيل لإقامة دولة للعرب واخرى لليهود في فلسطين ، واصرار بريطانيا على إقامة الوطن القومي اليهودي . واندلعت الثورة صاخبة من جديد بحيث لم تتم عن لهيبتها قرية ولا مدينة في

١- اللوحات التالية عن ثورة ١٩٣٦ هي من كتاب عرفات حجازي " فلسطين أرض الثورات "

فلسطين قاطبة . وتوافد العرب شعباً وأموالاً يؤيدون الثورة التاريخية رغم معاناة الشعب من الجوع والفقر والارهاب الصهيوني والبريطاني . ولم تكن لتنتهي في أواسط ايلول ١٩٣٩ ، لولا بدء الحرب العالمية الثانية من جهة ، وللجوع الذي أصاب الشعب طيلة أربع سنوات . وللضحايا والاسرى والجرحى ، وللانهيار الاقتصادي نتيجة الاضراب الشامل والطويل الذي جوبه بالمدفعية والدبابات والطائرات مع ٤٠ ألف جندي و ٢٠ ألف رجل "بوليس" و ١٥ ألف حرس مستعمرات يهودية ، فاعتقل ٥٠ ألف عربي وصدرت أحكام الاعدام مع التنفيذ ، وهدم حوالي ٦ آلاف منزل واستشهد حوالي ٣ آلاف بطل . وجرح أكثر من ٧ آلاف مجاهد . ولا يخيب عن الذكر أن الثوار استطاعوا تحرير الخليل وبئر السبع والقدس وطبريا . واستشهد من القادة : حسن سلامة ، والشيخ فرحان السعدي الذي اعدمه الانجليز شنقا في رمضان وهو صائم يوم الجمعة ٢٧ تشرين الثاني ١٩٤٧ رغم تجاوزه سن الثمانين . وانطلق نداء الملوك والرؤساء العرب الى الثوار لوقف اضرابهم وثورتهم باسم وتوقيع كل من غازي ملك العراق ، وعبد العزيز آل سعود السعودي ، والأمير عبد الله الأردني وفيه :

" الى اتباعنا عرب فلسطين ،

بواسطة رئاسة اللجنة العربية العليا - القدس ،

لقد تألمنا كثيرا للحالة السائدة في فلسطين . فنحن بالاتفاق مع اخواننا ملوك العرب والأمير عبد الله ، ندعوكم للاخلاق الى السكنينة حقنا للدما ، معتمدين على حسن نوايا صد يقتنا الحكومة البريطانية ، ورغبتها المعلنة لتحقيق العدل . وثقوا بأننا سنواصل السعي في سبيل مساعدتكم . (١)

ولكن الهدنة لم تستمر أكثر من عشرين يوما من النداء ، ومما أشعل الثورة من جديد

مجيء لجنة بيل وتكريسها التقسيم بحيث ينال اليهود المناطق الأكثر خصبا . ما أثار حيرة

نداء الملوك والرؤساء في هذه الثورة بندايمهم في حرب ١٩٤٨ حيث لم يكن النداء في

الحالتين الا لا تخداع من ينادون بأصدقاتهم وانخداع من ينادي اليهم بملوكهم ورؤساءهم .

وكم كان حريا بأولئك ، بدل التمتي على الشعب بالمهادنة والاستكانة ، ان يتفهموا معنى

نداء الحاج أمين الحسيني لهم ابان الثورة قارعا ناقوس الخطر : " اني أطالب العالم العربي

والاسلامي ان يدرك فلسطين قبل أن تصبح أندلساً ثانية . (٢)

حتى هتلر ، صاحب التصنيف الشهير لشعوب العالم وقد حشر العرب في ذيله ،

هتلر نفسه وجه نداء الى شعبه على أبواب الحرب التي يعيها لها قائلاً : " اتخذوا يا

ألمان السويديت من عرب فلسطين قدوة لكم . انهم يكافحون انجلترا - اكبر امبراطورية في

العالم - واليهودية العالمية معا - ببسالة خارقة وليس لهم في الدنيا نصير أو مساعد .

١- عرفات حجازي في كتابه " فلسطين أرض الثورات " ص ٨٩ يذكر ان النداء قد وجه يوم

١١ / ١٠ / ٣٦ ، بينما يذكر عوني عبد الهادي في " اوراق فلسطينية " ص ٨٠ انه

وجهه يوم ١٠ / ١٠ / ٣٦ .

٢- أبو بصير . جهاد شعب فلسطين ، ص ١٠٧٩ .

أما انتم فان ألمانيا كلها من ورائكم .^(١) وأعدى الاعداء الجنرال ولسون - قائد بريطاني في بعض معارك فلسطين - لم يملك الا ان يشهد للبأس الفلسطيني في ثورة ٢٦ بقوله : " ان خمسمائة من ثوار عرب فلسطين يقومون بحرب العصابات ، لا يمكن التغلب عليهم بأقل من فرقة بريطانية كاملة السلاح ."^(٢) ويشهد حتى الاعداء ٠٠ فكيف وأين وما علاقة ملوك العرب والرؤساء ؟

ما بعد جراح الثورة : انطوى الشعب الفلسطيني الجريح على جسده يلحق جراحه بأسى وسمت ، فلم تمتد اليه مطلق يد ظاهرة لتحبي فيه ارادة ال ٣٦ وعطاء السنوات الاربع الرائع ، وبينما الشعب يللم اشلاء نفسه الممزقة ، كان اليهود يتسلحون ويتدربون برعاية الانتداب البريطاني ويتدفقون مهاجرين ، فما جاء عام ١٩٤٢ الا وكان جميع اليهود جنودا مدربين يشاركون الانجليز في مطاردة الثوار والمجاهدين الذين اشتركوا في ثورة ٢٦ ، ومطاردة المفكرين والكتّاب والشعراء . اما الفلسطينيون انفسهم فقد كانت هجمات الطيران الالمانى وغاراته على بريطانيا شماتة وتشفيا من وقوع الانجليز في قبضة الظلم ضد الابرار . وكان الالمان ينتقمون للشعب الفلسطيني ولشهداء الابرار .

جامعة الدول العربية : ما كانت حيلة ملوك العرب وزعمائهم الا ان يجتمعوا عبر ممثلي مصر وسوريا والعراق والاردن ولبنان ، في الاسكندرية بين ٢٥ أيلول و ٧ تشرين الاول ١٩٤٤ ويوقعوا في الختام ميثاقا يتضمن تأليف جامعة الدول العربية ، وتعاون اقتصاديا وثقافيا واجتماعيا ، وقرارا خاصا بلبنان وآخر بفلسطين . والله أعلم !! وظلت القرارات حبرا على ورق نتيجة لدوران الملوك والرؤساء في فلك بريطانيا - كما مر - او في الفلك الاميركسي الجديد بعد بروزه في الحرب العالمية الثانية قوة عظمى راح اليهود ينقلبون عن بريطانيا اليها .

التقسيم ، ومواقف عربية : أعلن التقسيم ليوضع موضع التنفيذ عام ٤٧ وقد رفضه العرب وقبل به الصهاينة فابتدجوا وقام بعضهم بوضع عبوات ناسفة على مدخل مصفاة نפט حيفا فانفجرت بالعرب العاملين فيها حيث قام رفاقهم ، نتيجة لذلك ، بالتتكيل بالصهاينة الحاقدين ولم ينج من موظفي وعمال صهيون الا كل طويل عمرا ومن احتسى بصديق عربي قديم .

كيف واجه العرب مشروع التقسيم عمليا ولا سيما ان الارتباطات على المستويات العليا كانت متينة جدا ؟ كتب أمين سعيد^(٣) : " لزمّت حكومة شرق الاردن الصمت ازاء مشروع التقسيم فلم تبد رأيا فيه ولم تسمح لأنصارها بابداء رأيهم . فكان سكوتها سببا في رواج اشاعات مفادها ان هناك اتفاقا بين حكومة الاردن وحكومة فلسطين على تنصيب سمو الامير ملكا على الدولة العربية الجديدة التي تنشأ في حالة تنفيذ مشروع التقسيم ونتم الجزء الذي يبقى للحرب الى شرق الاردن . " وكان الامير عبد الله مغاليا في ولائه لبريطانية ومتوقفا منه

١- أبو بصير . المرجع السابق ، ص ١٧٨ .

٢- م . ن . ص . ن .

٣- الدولة العربية المتحدة (مهر : مطبعة عيسى البابي الحلبي ، لا ت . ٠) ، ٣ : ٥٩١ .

ان يصفى الحركة القومية العربية المعادية للامبريالية في فلسطين . (١) وخير شاهد على هذا الاعتقاد ، الرسالة الموجهة من وكيل رئيس الديوان الملكي الهاشمي (صبيح زيد) الى عبد الله التل متصرف القدس بتاريخ ٧ نيسان ١٩٤٩ ، يقول فيها : " ٠٠٠ الدور الذي نحن فيه في الاردن الضري لا يسمح ابدا بتلاعب اصحاب الصحف بمستقبل البلاد . " (٢)

نكبة ١٩٤٨ ، نتائج ونظرات :

أ - كانت النكبة الفاجعة في الخامس عشر من أيار ١٩٤٨ بما تحمله من مآس وويلات .
ب - بايع عبد الله نفسه (باسم الشعب الفلسطيني) حكم القسم المتبقي للفلسطينيين وذلك في مؤتمراتها ، فبدأ كأنه منقذ للبلاد . وشرّما في ذلك تسميته ذلك الجزء باسم "الأردن الضري" .

ج - كان استواء عبد الله على بقية فلسطين مكافأة بريطانية له على دوره السابق .
د - اغتال الشعب كلاً من ملك الاردن عبد الله ورئيس وزراء لبنان رياض الصلح .
هـ - اننا نرى فلسطين الحرة بعد ١٩٤٨ وطننا يمكن أن تتوفر فيه وله اكثر مقومات الاستمرار والتطور شأنه شأن كل بلد طرّي العود في العالم لا يلبث ان يشتد ساعده ويفرض لنفسه مركزاً بين الدول بحكومة وجيش وكيان مستقل . عندئذ لن تظل فلسطين لقمة سائغة لأعداء يدركون جيداً انها عزلاء حتى من السكاكين . وهل كان انتصاف مجلس النواب الاردني بين اردنيين وفلسطينيين غير الاسفحة التي قدّمها اليهود من قبل للمسيح المصلوب ، مغمّسة بالخل !

جرائم صهيونية : ان المجازر التي ارتكبتها الصهاينة في فلسطين تشل التفكير ان فسي تكررهما ام في حجمها . ففي ٩ نيسان ١٩٤٨ ارتكبت منظمة " اتسل وليحي " مجزرة دير ياسين التي اسفرت عن مقتل نحو ٢٥٠ عربياً من القرية القريبة من القدس . وتعتبر المجزرة أكبر دافع للنزوح العربي الكثيف عن القرى والديار وخاصة أن منظمة " الهاغانا " الارهابية نفذت في صيف العام نفسه مذابح اللد والرملة . (٣) وحتى عندما أصبح الصهاينة حكاماً للوطن الفلسطيني فعلوا ذلك . ففي ٢٩ تشرين الأول ١٩٥٦ بينما كانوا يشاركون بريطانيا وفرنسا في عدوانهم على مصر ، ارتكبوا مجزرة كفر قاسم الواقعة في قلب فلسطين المحتلة مستهدفين من ورائها كسابقتها دير ياسين . وذهب رحيتها ٤٩ عربياً . قائد الكتيبة المنقذة " شدمي " وقائد الوحدة " مينيكي " يعاونه الملازم " غبرئيل دهان " . كان بين القتلى ٧ أولاد و ٩ نساء شابات وسنات ، احدها سن عمرها ٦٦ عاماً .

- ١- إميل توما . جذور القضية الفلسطينية ، ص ٢٥٨ .
- ٢- عبد الله التل . كارثة فلسطين ج ١ : ٥٧١ .
- ٣- صبري جريس . العرب في اسرائيل (بيروت : مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، ط ٢ / ١٩٧٣) صفحة ٢٢٧ . وكان المؤلف قد اصدر كتابه هذا اولاً بالانجليزية . وفيه يستعرض الارقام والمواقع والاسماء جميع المجازر الصهيونية بحق الشعب الفلسطيني قبل وبعد ١٩٤٨ ، لذا يحسن الرجوع اليه بهذا الخصوص .

الميلاد الثوري : " الضفة الغربية " لنهر الاردن غنيمه اردنية . و " قطاع غزة " غنيمه مصرية ، الا انه شهد رجالا لم يتوانوا يوما - بحكم تدريبهم العسكري مجتدين اجباريين في الجيش المصري كالمصريين - عن القيام بعمليات غوارية ضد الاحتلال الصهيوني لفلسطين جيشا ومنشآت عسكرية ، سواء بجهود شخصي او بشبه تنظيم ذاتي عبرت اليه انفاس ثورة من خلف الاسوار الشائكة فتوالدت في الداخل لدرجة ان اقلقت الاحتلال الذي وجدها فرصة ليفتك وينتهك القطاع البطل شهورا عدة في عدوان ١٩٥٦ لثلاثي ولم يتركه الا مشخنا ٠٠ الجراح تندمل والخلايا تتناسخ والانفاس الثورة تلازم حركتي القلب ٠٠ هذه المرة نشطت العمليات الغدائية شبه المنظمة والمدعومة من جهات فلسطينية خارجية . وراحت حدود غزة وسوريا تشهد تالؤا نجوم صبح جديدة كل يوم تقريبا - ولم يعد ممكنا سكوت الاحتلال عن استنزاف المقاومة لأعصاب جيشه ودمائه ومنشآته وراحته نفس شعبه ، فقام الصهاينة بعد وانهم صبيحة ٥ حزيران ١٩٦٧ على كل من مصر وسوريا والاردن فاحتلوا بقية فلسطين وأجزاء من مصر وسوريا .

أي مسؤؤل وأية مسؤولية ! وهجّت اصوات عربية على مستوى " رفيع " تحمّل الثورة الفلسطينية المنطلقة عسكريا اول ١٩٦٥ ، مسؤولية نكسة ٦٧ بداعي الخطأ في التوقيت وكان الثورة لا يكفيها انتظار تسعة عشر عاما من العزيمة العربية المقعدة الموهنة ، وكان هذه الاعوام لا تكفي الملوك والزعما لاعداد مئة مليون عربي ونيّف اعدادا عسكريا يفوق قدرة ثلاثة ملايين نسمة صهيونية . واستمرت المقاومة الفلسطينية تتبع اسلوب الكفاح المسلح وحرب العصابات ونصب عيניה ان الفرصة الكافية لم تهيأ للجيش العربي كي تخوض حريا متكافئة تظهر قدرة الجندي العربي ، ونصب عيניה ايضا ان أسطورة تفوق الجيش الاسرائيلي قد بنيت على الفكرة الخاطئة الاولى .

مولد الشعاع : ولم يحلّ او آخر آذار من العام ١٩٦٨ حتى كانت المقاومة الفلسطينية تحطّم الاسطورة وتلحق بجيش الغزو الصهيوني هزيمة نكراء لطيرانه ومدرعاته ومشاته على ارض مخيم " الكرامة " على الضفة الشرقية من نهر الاردن . لم يكن شيء بدون ثمن باهظ . لكن المقاومة رحت الموقع الصلب والجماهير العظيمة التي أمّتها بزخم بشري ومادّي فوق حدود الحساب والتصور . وثبت للعالم العربي ان الانسان صاحب الارادة الحديدية هو الذي ينتصر وليس السلاح بحد ذاته . لم تثبت هذا معركة الكرامة فحسب ، بل رسخها الحاق الجيش العربي هزيمة كبرى بالجيش الصهيوني في حرب تشرين الاول عام ١٩٧٣ .

انكسارات في الشعاع : بعد ١٩٦٨ مباشرة وقبل ١٩٧٣ ، أضحت الثورة الفلسطينية شوكة تقص مضاجع القوى الاستعمارية والقوى العربية المضادة على السواء . وراحت بتوجهها تتنامى وتندفع وتترك فجوات واسعة عميقة في تاريخ المنطقة بأسرها مما شجّع المترصين على تصيدها من خلال مشروع روجرز (أحد مشاريع اميركا العدوانية) فارضا الحل الاستسلامي على العرب ، ومتوجهها نحو الثورة بأحد أحد نضاله . وتطوّر النظام الاردني لمهمة تصفية الثورة والقضاء على كل مظاهرها المسلحة الفعالة . بدأ ذلك عام ١٩٧٠ حين لم تثمر الوساطات العربية ولا الاتفاقيات المعقودة . والأحرى ، لم يقم أي عمل عربي جماعي لوقف المجزرة التي ذهب هجيتها بضعه آلاف من ابناء الشعب والثورة .

وهلّل العدوّ للعملية . وتطلّع الاستعمار الى الساحة اللبنانية التي كانت الثورة قد اتخذت من جنوبها قواعد ارتكازية للانطلاق الى شمال فلسطين المحتلة مهدّدة الاقتصاد الصهيوني مركزيا والأمن الذي كان مطلقا حتى تلك الساعة . الا ان طاقة الثورة المكثفة على الساحة - مكنتها من استبقاء عناصر تماسكها ولاسيما أن عملياتها العسكرية قد غطت بلدانا كثيرة من العالم تعقبا للعدو والى جانب ملاحظته على ارض الوطن المغتصب .
وسرعان ما دُفِع النظام اللبناني الى مهادمة الثورة على ارضه مباشرة بعد عملية صنيونية اغتالت في قلب بيروت وضواحيها ثلاثة من قادتها (١) وبضعة مناضلين ومواطنين . ولكنه ما أسرع ما تكشف التخريب بالنظام عن عدة حقائق : ان ارض لبنان وارض عريضة متاخمة لفلسطين هي منطلق أساسي حق لرجال الثورة . وان الثورة حق ، تكسبها القوة الذاتية والالتفاف الجماهيري قوة كفيلة بدفع عجلتها نحو الهدف . وان قسم الثوار على بذل المزيد من الجهد والدماء قربانا مقدسا على مذبح الثورة الى ان تنتصر هو قسم صادق وحقيقة كبرى .

كمال ناصر في موقع المشاركة : عاش كمال ناصر منذ البداية متنقلا بين مسقط رأسه غزّة وقرية العائلة بيزريت . كما عرف يافا زمناً ، وعرف اكثر المدن الفلسطينية بحكم انتقال والده الموظف الرسمي فيما بينها . وعاش ثورة ١٩٣٦ الشهيرة حين لم يتجاوز الثانية عشرة من عمره فأدرك اهدافها الوطنية وتألّم لانتكاسها . ثم أدرك ميلاد جامعة الدول العربية فهلّل لها تهليلاً سرعان ما انقلب الى مأساة من جرّاء نكبة ١٩٤٨ وقد أصبح في الرابعة والعشرين من عمره المتفتح على ضياع الوطن شبرا فشبّرا ، وهلاك ابنا الوطن امرأة فطفلاً فكهلاً . ولمس بحواسه الخمس جرائم الاحتلال الصهيوني ، ونزوح المواطنين من بيوتهم واملاكهم الى العراء اكثر منه الى الخيام وكلاهما من مظاهر الفاقة .

وفي التصاق كيانيّ متين بين الشاعر وأبناء وطنه تلازم في العسر واليسر ، وإن طغى الجانب الأول ، شهد كمال ناصر هزيمة جديدة للأمة العربية عام ١٩٦٧ أتت على النصف المتبقي من فلسطين خارج الاحتلال منذ ١٩٤٨ ، والذي كان يأمل اهله اقامة كيان قووي حصر فوقه يصلح منطلقا لاستعادة النصف الأول . فعاش كمال نكبة جديدة فتحت الجراح الأوائل التي لم تتدمل تماماً ، وأدرك ان القعود مضيعة للوطن والكرامة ، فسعى وسعى ،

١- الشهداء الثلاثة هم :

- كمال ناصر : الناطق الرسمي باسم اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية . سوف نفصل طريقة استشهاده في الفصل الاول من الباب الاول .
- كمال عدوان : مناضل وقيادي فلسطيني . ولد في قرية بربرة بفضاء غزة عام ١٩٢٥ . شكّل اولي الخلايا لمقاومة الاحتلال الصهيوني عام ١٩٥٦ في غزة . تخرج مهندسا بتروليا عام ١٩٦٣ . من رواد حركة فتح ومؤسسيها . تفرغ للنضال تفرغاً كاملاً عام ١٩٦٨ حيث كان مسؤولاً للاعلام فيها . عضو في اللجنة المركزية للحركة ومسؤول العمل في قطاع الأرض المحتلة . استشهد في ١٠ نيسان ١٩٧٣ ببيروت .
- محمد يوسف النجار : من ابرز المناضلين في معسكر رفح بقطاع غزة الفلسطيني للمدّة بين ١٩٤٨ - ١٩٦٠ . ناهض مشروع وكالة النوث لتوطين اللاجئين في شمال سيناء عام ١٩٥٥ . في ٥ آذار ١٩٥٥ اعتقل في غزة مع المناضلين ونقلوا الى احد السجون العربية . من رواد انطلاقة حركة فتح وعضو اللجنة المركزية فيها . عضو اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية ورئيس الدائرة السياسية فيها ورئيس اللجنة السياسية العليا .

وما ان انطلقت ثورة ١٩٦٥ من فوق الأرض العربية الأردنية حتى أصبح كمال أحد عناصر
وقودها المتأججة فسارني ركبها صدودا وهبوطا ، وقد سكنته أشعتها سكنى فلسطين فيه .
وسجلت الثورة عام ١٩٧٣ ، اسم كمال ناصر لامعاً في سجل الخالدين
من أبطال وشهداء فلسطين .

الباب الأول

البيئة والحياة

مقدمة منهجية

لا يمكن أن تقوم دراسة أدبية حول شاعر ما بمعزل عن الاحاطة بالظروف المادية والموضوعية لذلك الانسان مما يلقي أضواءً كاشفة على الطريق المؤدي إلى عالمه الذي يجري استكشافه لأول مرة .

من هذا المنطلق سندرس في هذا الباب أمرين : البيئة التي ولد فيها الشاعر سواء أكانت بيئة جغرافية حد ودها القرية والوطن ، أم بيئة اجتماعية قوامها الأسرة أفراداً وجماعات . والأمر الثاني في دراستنا هو حركة حياة الشاعر من مولده إلى حين استشهاده ، ما همين مراحلها الدقيقة عرضاً تاريخياً متسلسلاً يجمع الحقائق الأولية أولاً فأولاً ليشتد منها الحقيقة النهائية الكبرى لشخصية الشاعر الانسان . وسنستلهم في هذه الدراسة بفصلها الكثيرين من أسرة الشاعر وأصدقائه وأهل قريته ورفاق دربه ونضاله^(١) وكتبه وما كتب عنه أو أفاد بصورة رئيسية .^(٢)

الفصل الأول : البيئة

أ - القرية : بيرزيت

تقع بيرزيت على بعد اثني عشر كيلومتراً إلى شمالي رام الله وتمتاز بميزاتها ، حيث أن " مناخ رام الله جيد ، أولى مدن الاضطياف في فلسطين . ترتفع ٢٨٢٩ قدماً : ٨٦٠ متراً عن سطح البحر ، يرى من تلالها البحر وكثيراً ما تشاهد السفن السائرة فيه ."^(٣) وخط المواصلات الرئيسي يبدأ بالقدس مروراً بمدينة البيرة : فإمّا رام الله سرده بيرزيت ، وأما رام الله دور عين سينيا جفنة بيرزيت ، ثم غرباً إلى مدينة يافا على الشاطئ . أما حدوها ، فمن الجنوب : سرده وأبو قش . ومن الشرق : جفنة . ومن الغرب : برهام وأبو شخيدم وكوبر . ومن الشمال : عطارة .

وعن تسمية القرية يقول الدباغ : " أن المواقع التي تحمل اسم الزيت والزيتون وزيتا (حاشية : كلمة سريانية بمعنى شجرة الزيتون وثمره وزيته) في بلاد الشام كثيرة ."^(٤)

- ١- من عائلة ناصر نفسها أقرباؤه الدكتور نديم والدكتور حنا وأخوه وديع ووالدته وديعة ، والسيد تان فيوليت وسلفيا . ومن أبناء القرية الشيخ ابراهيم علوش وولداه ناجي وموسى ، والسيد سميح زيادة ابن بيرزيت . ومن رفاق الدرب والنضال السيد عبد المحسن أبو ميزر الناطق الرسمي باسم اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية (خليفة كمال) والقائد الفلسطيني في منظمة التحرير السيد صلاح خلف (أبو اياد) والأصدقاء والكتاب والصحافيون الفلسطينيون نزيه أبو نضال وفريد الخطيب وحنا مقبل ، والشاعر محمود درويش . ولن ننسى استاذ كمال في الجامعة الأميركية ببيروت الدكتور قسطنطين زريق .
- ٢- كمال آثاره النثرية والشعرية المنشورة وغير المنشورة . وقد أفادني هنا كثيراً حول كمال ، كتاب "الهمير" باللغة الانجليزية لهالة سلام وسلوى الخالدي . وهو القرية سلسلة مصطفى مراد الدباغ . بلادنا فلسطين . وكتب وأصدقاء كتر يطالعهم القارئ في الباب .
- ٣- مصطفى مراد الدباغ . بلادنا فلسطين ج ١ ق ١ (بيروت : دار الطليعة ، ط ١ / ٧٢) ، صفحة ٦٧٠ .
- ٤- المرجع نفسه ، ج ٥ ق ٢ ص ٢١٢ .

و " من المدن والقرى في بلادنا الكثير مما تحتفظ باسمائها التي عرفت بها في عهد الرومان او حوّفت تحريفًا ظاهرًا ٠٠٠ بئر زيت - Berzets (١) يؤيد هذا القول نديم ناصر (٢) ان فيها زيتونا رومانيا من ايام السيد المسيح . فتكون قرية بيرزيت اذا ، من عهد الرومان او قبله . أما كمال ناصر نفسه فيقول عن سرّ تسميتها : " وبهذه المناسبة ، فان بلدتي هذه تدعى بيرزيت ، ولعل التاريخ لم يتوقف كثيرا عند هذه البلدة ، لأن أعلم علمائها ، وأكبر شيوخها سنا ، لا يعرفون تماما لماذا سميت بهذا الاسم ، وان اختلفت التآويل وكثرت التخمينات . " (٣)

وللجدّ الاكبر ، موسى أبو ناصر شيخ مشايخ القضاة في حينه ، مخطوطات من تأليفه في تاريخ بيرزيت (٤) ولكن العثور عليها غير ممكن لما يمر به الوطن الفلسطيني من ظروف صعبة تحت الاحتلال . لذلك كان اللجوء الى احد شيوخها ، ابراهيم علوش ، الذي قال : " هي أصلًا بيت زيت زمن الرومان والعبرانيين ، ثم أولها العرب لاعتقادهم أن الزيت يوضع في بير لا في بيت " (٥) اننا إذ نميل لهذا الاعتقاد ، نعتقد ان القرية لوفرة انتاجها للزيتون وزيته ، شُبهت بالنبع الذي لا ينضب ماؤه ، والبئر غالبًا ما يكون نبعًا قاعها .

وفي فلسطين قرى أخرى تدخل " زيت " في تركيبها ، فمثلًا Bét Zayit هي قرية غربي القدس تحت عين كرام ، و Bezet هي مستعمرة جنوبي غربي مستعمرة " شلومي " القائمة على أنقاض قرية " البصة " العربية . و Zeita قرية تقع جنوبي باقة الشرقية (٦)

وإذا كان للرومان في بيرزيت آثار ، فان للصليبيين فيها آثارًا منذ ان كانت لهم موقعًا حيويًا وثقافيًا ، ولهم فيها بقايا قلعة صغيرة " Crusader Archaeological Site " (٧)

تبلغ مساحة أملاك بيرزيت ١٤٠٠٠ دونم ، ما زال أهلها يحتفظون بها كلها . وأكبر ملاك فيها هو موسى حنا ناصر (٨) تشرب القرية من ثلاث عيون رئيسية هي : عين فليفلة ، عين الحمام ، عين الكوس . والاولى هي المنفصلة (٩) اما ابراهيم علوش فيقول : ان حوالي ٢١ عين ماء ما زالت تجري للقرية حتى اليوم . وسمي زيادة (١٠) يسمي من هذه أشهرها : عين الكوس ، عين الحمام ، فليفلة ، عين السقي ، عين المرح ، وما زال الناس يستخدمونها حتى الآن لتلبية حاجاتهم ، وباقي العيون صغير نسبيًا يستفيد منه الفلاحون والعيادون . للتاريخ في بيرزيت وقفة محطة يوم حطّ بها الجيش العراقي المقاتل إبّان حرب فلسطين ١٩٤٨ فالتحق به شبابها ، ومنهم كمال . ولكن عبد القادر الحسيني استوقف فيها

١- الدباغ . المرجع السابق هو ٦٧٠ .

٢- من حديث معه في ١٩٧٦ / ٢ / ٢٣ ببيروت .

٣- من قصة قصيرة له عنوانها " هل تعرفه ؟ وهل رأيته ؟ " مخطوطة في مركز الابحاث الفلسطينية .

٤- مجلة " الغدير " عدد خاص صدر عن كلية بيرزيت عام ١٩٧١ ، ص ٣ .

٥- من حديث خاص معه في ١٩٧٦ / ١١ / ٢٠ ببيروت .

٦- Atlas of Israel . No of pages are not mentioned .

٧- Atlas of Israel .

٨- من حديث خاص مع ابراهيم علوش في ١٩٧٦ / ١١ / ٢٠ ببيروت .

٩- من حديث خاص مع الدكتور نديم ناصر في ١٩٧٦ / ٢ / ٢٣ ببيروت .

١٠- من حديث خاص معه في ١٩٧٧ / ٩ / ٢ ببيروت ، و ابراهيم علوش في حديثه السابق .

مقاتله متخذاً منها مقرّاً لقيادته قوات "الجهاد المقدس" عام ١٩٤٨. يؤرخ عارف العارف لهذه الحقبة الهامة من تاريخ فلسطين قائلًا تحت عنوان : الحكومة تطارد قوات الجهاد المقدس : " وفي ١٨ كانون الثاني ١٩٤٩ ، حاصرت ، عند منتصف الليل ، سرية من سرايا الجيش العربي قرية بيرزيت واحتلت الدار التي ^(١) كان رجال الجهاد المقدس قد اتخذوها مقرّاً لعمالهم ، وكان مع هذه القوة بعض الدبابات والمصفحات ومدفعان من مدافع الميدان ، يقود الجميع ضابط من ذوى الرتب العليا . وسأقت امامها من وجدته من رجالها مكبلين بالحديد . ^(٢)

وبينما يرى نديم ناصر ان عدد سكان بيرزيت عام ١٩٤٨ زهاء ١١٠٠ نسمة ، فإن ناجي علوش قال : كانوا ٣٠٠٠ نسمة عامذاك ^(٣) . اما الدباغ فيقول أن العدد التقديري كان ٥٧٠ نسمة في ١ / ٤ / ١٩٤٥ ، و ٣٢٥٣ نسمة في ١٨ / ١١ / ١٩٦١ ^(٤) . ففي النتيجة يلتقي الدباغ مع ناجي علوش في ان عدد سكان بيرزيت حالياً حوالي ٤٥٠٠ نسمة ، وكان الثاني رده عام ١٩٦٧ الى ٦٠٠٠ نسمة . هذا الانخفاض في العدد خلال عشرة اعوام يعمله سميح زيادة ^(٥) : فما بين ٦٢ - ١٩٦٦ ، غادر بيرزيت قسم من الشباب للدراسة في اقطار العالم العربية خاصة والاجنبية عامة . وبعد الحرب عام ٦٧ ، لم يعد قسم كبير سواء أنهى دراسته ام لا ، وعاد قسم ضئيل تاركاً آخرين مؤثرين البقاء خارج السجن الكبير . هذه هي بيرزيت ، القرية الجميلة الواقعة بين الجبال ، المشهورة بالعنب والزيتون ، وفيض من العيون ، يزين بيوتها سقوف القباب وتلتقي فيها طوائف المسلمين والمسيحيين رُوماً ولا تيناً ، جميعهم مقسمون بالعدل ، الى جانب عدد ضئيل من البروتستانت . لذلك تجمع حالياً بين "جامع واحد و ٢ كنائس وملعب رياضي كبير و ٣ عيادات وفندق واحد ومدرسة أهلية اعدادية واحدة ومدرسة اعدادية لوكالة الغوث ومدرسة ثانوية للحكومة ومصنع أدوية حديث وجامعة" ^(٦) .

الاقليم ثلاثة : مربنا ، القرية ، يظل كمال فيما بعد ، تبقى الجامعة ، فكيف تم

هذا الحدث الفريد ؟

ولعل الجامعة هي أبرز أثر حديث في قرية بيرزيت منذ ان تأسست مدرسة عام ١٩٢٤

على يد السيدة نبيهة حنا ناصر شقيقة وديعة ناصر كمال ، وبمساعدة شقيقها موسى حنا ناصر الذي ظل رئيساً لها حتى وفاته عام ١٩٧٠ . كانت المدرسة ذات مستوى علمي رفيع جعل الطلاب يفدون اليها للالتحاق بصفوفها : القسم الداخلي او الخارجي ، من مدن وقرى فلسطين وشرقي الاردن ، كونها اولى المدارس الأهلية الوطنية للبنين والبنات معاً في فلسطين كلها . وقد كانت وما زالت تهتم باللغتين العربية والانجليزية معاً اهتماماً بالغاً .

- ١- هي دار عودة موسى كيلة في شارع المرج كما قال لي موسى علوش عند لقائه في ٨ / ١٢ / ٧٧ .
- ٢- النكبة من كبة بيت المقدس والعدد وس المقفود ١٩٤٧ - ١٩٥٥ (صيدا : المكتبة العصرية ، ١٩٥٩) ، ٤ : ٠٨٤٠ . وقد قال لي سمح زيادة في حديثه نفسه ان كمال ناصر كان من جملة الأولاد الذين حفروا للمدفعين المذكورين .
- ٣- من حديث خاص مع د . نديم ناصر ، وناجي علوش من بيرزيت وهو أديب وسياسي معروف ، يشغل مركز رئيس اتحاد الكتاب والصحافيين الفلسطينيين .
- ٤- الدباغ . بلادنا فلسطين ، ج ١ ق ١ ص ٢٤٤ .
- ٥- من حديثه السابق .

خلف الدكتور حنا ناصر أباه في رئاسة هذه المؤسسة الرائدة الى ان أبعدهت سلطات الاحتلال مؤخرًا الى خارج فلسطين. (١) وعام ١٩٣٠ تحولت الى مدرسة ثانوية كاملة، وعام ١٩٥٣ أضيف إليها صف جامعي واحد ، ثم أضيف إليها الصف الثاني عام ١٩٦١ ، وأصبحت بعد احتلال ٦٧ جامعة متكاملة تحطي البكالوريوس في كافة الفروع ما عدا التطبيقية منها كالطب والهندسة والزراعة. (٢)

في فلسطين ثلاث جامعات عربية : الأولى في بيت لحم ، والثانية في نابلس (٣) ، والثالثة في بيرزيت. اما وضع الجامعة الفلسطينية فغريب ومعقد في ظل الاحتلال الذي يحظر على عرب المناطق المحتلة منذ ١٩٤٨ الالتحاق بها كون الجامعة تعتبر - اسرائيليا - نواة حركة تنوير للشباب الفلسطيني وتثقيف ، مما يشكل مردودًا سيئًا على الاحتلال . لذلك جعلت السلطات الالتحاق بالجامعة محرمًا تلقائيًا بسبب اعتبرته قانونيًا هو تجاهلها لتدريس اللغة العبرية في مناهجها ، فاشتراطت لقبول الجامعيين ، اجتيازهم أولاً لاختبار قاس في اللغة العبرية ، وهذا ما لا يمكن توفيره أصلاً ولا شكلاً في جامعة بيرزيت التي يشهد طلابها حملات اعتقال واسعة متكررة حيث لم ينبج من موجاتها حتى بعض اساتذتها (٤) .

ب - عائلة ناصر وظروف حياتها

واذا كانت الجامعة ظاهرة ثقافية فذة ، فعائلة ناصر جزء منها ، هي الاولى ثقافة .

ففي بيرزيت ثلاث عائلات رئيسية هي :

١- عيد	وفروعها	علوش ، غنيم ، كيلة ، بربار ، صايح ، أبودية ، ربيع .
٢- مسلم	===	ناصر ، عركي ، القسيس ، زيادة ، الدوّارة ، شاهين .
٣- عبد الله	===	عبد الله ، ابو جاسر ، غياض ، حنانيا (٥) ، سعادة ، سعادة .

ومن عائلة ناصر ، الشجرة التي يرسمها ابراهيم علوش أبا عن جدّ ، يحدّد خروجها من الكرك بالأردن بحدود ١٥٥٠ م . حتى كمال أخيراً . لكن نديم ناصر (٦) يقول : ان عائلة ناصر ، وهي فخذ من مسلم ، جاءت من عرب شرقي الاردن ، وأول جدّ اسمه ناصر الحافي الذي خلف موسى وخليلا وعيسى . ثم ان عيسى خلف يعقوب ، ويعقوب خلف ابراهيم ، و ابراهيم خلف بطرس ، و بطرس كمالاً . الا ان ابراهيم علوش أكثر غوراً نحو الاصول ، فيبدأ السلسلة بـ :

- ١- من حديث مع السيدة فيوليت ناصر في ٢٣ / ٢ / ٧٦ بيروت .
- ٢- من مقال نشرته مجلة " شؤون فلسطينية " بيروت عدد ٦٣ - ٦٤ شباط وآذار ١٩٧٧ ، ص ٢٠٢ وما بعدها .
- ٣- في شهر ١٠ / ١٩٧٧ حصلت كلية النجاح على مرسوم تحويلها الى جامعة وطنية باسم جامعة النجاح .
- ٤- ومنهم الأستاذ توفيق عاروري أستاذ الفيزياء والرياضيات ، وهو موقوف منذ آذار ١٩٧٧ ولا يعرف متى يطلق سراحه . (من حديث موسى علوش في ٨ / ١٢ / ٧٧) .
- ٥- عن تواريخ وشجرات سالفة مدونة عند ابراهيم علوش في بيرزيت وقد أطلعني عليها .
- ٦- من الحديث السابق معه .

فرح - خليل - صالح - فرح - نمير - . . . (وهم في الاصل سبعة) .	له	(١) نمر
• سليمان - نمر	=	(٢) فرح
• ابراهيم	=	(٣) سليمان
• سليمان	=	(٤) ابراهيم
• مسلم - عيد - نصار	=	(٥) سليمان
• سليمان - سلامة	=	(٦) مسلم
ناصر - عابد - جريس - زيادة - يعقوب - سلامة - وكثيرون	=	(٧) سليمان
• خليل	=	(٨) ناصر
ناصر (وهو من سماه نديم ناصر باسم ناصر الحافي) .	=	(٩) خليل
• عيسى - موسى - خليل	=	(١٠) ناصر
• يعقوب	=	(١١) عيسى
• ابراهيم - عيسى	=	(١٢) يعقوب
• بطرس - يوسف - نسيب - انيس - شكري	=	(١٣) ابراهيم
• سامي - وديع - كمال	=	(١٤) بطرس
• حنا - سليمان - داود - يوسف - القس بطرس	=	ملحق (١٠) : موسى
• حنا - موسى ناصر الثاني	=	القس بطرس
• د . حنا ناصر الثاني (١)	=	موسى

في الخط الاول يجوز ان يكون السادس هو الذي خلف الدبابنة بالسلط والعمارة بالحصن ، ^(٢) يوءيده في ذلك ، فريدريك بيك في قوله : ^(٣) "العمارة اصلهم من الكرك و جدّهم يدعى سليمان ابوهموس ، أخ لجدّ عشيرة المدانات الكركية . ولهم اقارب في لبنان يقال لهم بيت الخازن ، وفي بيزريت وعين عريك والبعنة بفلسطين ، وهم مسيحيون مذهبهم روم ارتودكس . بينما " قدم الدبابنة من قرية دبّين من اعمال حوران ، ولهذا اطلق عليهم الدبابنة ، ولهم اقارب في الكرك يدعون بالمدانات ، وفي الحصن ويدعون بالعمارة . ^(٤)

ويكاد لا يختلف اثنان حول مكانة أفراد عائلة ناصر الادبية والاجتماعية والعلمية والسياسية والوطنية على حد سواء . فاذا نظرنا الى والد كمال ، بطرس ناصر ، وجدنا صاحبا مركز رفيع لدى الانجليز في السودان وقائما في فلسطين ومساعد الحاكم العسكري في اللد والرملة وفي غزة . ^(٥) ويقال عنه : انه كان من اواخر الثلاثة الذين ظلوا يعتمرون

- ١- رأيت هذه السلسلة يوم ٢٠ / ١١ / ١٩٧٠ عند ابراهيم علوش ببيزيت وهو يحتفظ بها .
- ٢- الحديث السابق مع ابراهيم علوش .
- ٣- فريدريك ج . بيك . تاريخ شرقي الاردن وقبائلها - تعريب بها ، الدين طوقان (القدس : مطبعة دار الايتام الاسلامية ، تاريخ المقدمة ١٩٣٥) ، ص ٢٨٦ .
- ٤- المرجع نفسه ، ص ٢٤٧ .
- ٥- من الحديث السابق مع الدكتور نديم ناصر .

الطربوش تحدياً للبريطانيين في منحهم الشعب من ذلك على غرار الثوار ، ولكن لا يغري هؤلاء بين صفوفهم . (١)

كانت سلوى بطرس ناصر مجازة في الأدب الانجليزي من الجامعة الاميركية في القاهرة . والأخ الأكبر سامي الذي مات في الثالثة والعشرين ، كان ينظم الشعر بالعربية والانجليزية حتى ان معلمته مس روبرت قالت عنه انه يعرف عن شكسبير أكثر من شكسبير نفسه ، لقد مات والكتاب بيد . (٢)

أما والدته كمال ، وديعة ناصر فكانت متخرجة من مدرسة " الفرندز " ولم تكن جامعات في زمانها . كانت متأدبة . وقد تحدثت إليها عام ١٩٧٦ في بيرزيت سائلاً عن كمال ، فلاحظت انها تعتمد الى التعبير عفويًا وغالبًا بلغة انجليزية على جانب عظيم من الاتقان .
وجدت العائلة الأكبر ، " موسى ابو ناصر ، شيخ مشايخ القضاء في حينه ، وذلك لما اتصف به من ولع في العلم ومن شجاعة اسطورية . وله مخطوطات من تأليفه في تاريخ بيسر زيت والطب العربي القديم . اما والده (والد خال كمال موسى ناصر) القس حنا ناصر فقد كان من اوائل خريجي كلية الشباب في القدس في ذلك الحين . (٣)

ونبيه عيسى ناصر ، كان مدير بوليس في فلسطين زمن الانتداب وخدم في الحكومة الأردنية حتى تقاعد وتوفي . اما القس حنا ناصر ، جد كمال لأبيه ، فكان أول من أسس كنيسة ومذهباً للانجيليين في بيرزيت وقد ساعده في ذلك القس بطرس موسى ناصر . ونبيهة ناصر أسست عام ١٩٢٤ اول مدرسة أهلية وطنية مختلطة في فلسطين ، ثم تحولت فيما بعد الى جامعة . كانت نبيهة من دعاة تحرير المرأة منذ ذلك الحين . وحنا موسى ناصر حائز على الدكتوراه في الفيزياء النووية من جامعة بيردو في ولاية انديانا ، وفي زمانه صارت الكلية تمنح الاجازة . كذلك نديم عيسى ناصر حائز على الشهادة ذاتها ولكن من جامعة تكساس . (٤)

أما داود ناصر فكان مختاراً للقرية يمتلك الى جانب عائلة واحدة فقط ، معصرة للزيت يديرها حصان . وعرفت داره كملجأ للفارين من مذابح اللد والرملة الى بيرزيت ورام الله . وهي الدار التي اتخذها القائد عبدالقادر الحسيني مقراً لقيادة قوات الجهاد المقدس . وتشاء معميات القدران تكون الدار بمن فيها هدفاً عسكرياً عربياً . (٥)

ويطول الحديث كثيراً ، الا اننا نتوقف مع اكثر ابناء العائلة تحملاً للمسؤوليات في حياته المديدة ، وهو موسى حنا ناصر شقيق وديعة ام كمال . لقد عمل على جبهات مختلفة ، قروياً وفلسطينياً وعربياً . ففي عهد الانتداب البريطاني عين قائمقاماً فمساعد حاكم لواء فسكرتيراً في حكومة الانتداب ، فعضواً في جمعية التعليم العالي . وفي حكومة الأردن تقلب في وزارات

١- من الحديث نفسه مع سميح زيادة .

٢- من الحديث نفسه مع سمع المعجدة فيوليت داود ناصر .

٣- مجلة " الغدير " العدد نفسه ، ص ٣ .

٤- من الحديث نفسه مع نديم ناصر وفيوليت ناصر .

٥- فيوليت ناصر في الحديث نفسه . ويبدو ان قيادة الجهاد المقدس قد اتخذت لها مقراً في اكثر من دار في بيرزيت .

المواصلات والمالية والخارجية ، وفي رئاسة البعثة الاردنية لمهئية الامم ، واللجنة الملكية لشؤون التربية والتعليم ، ووفد الاردن لمؤتمر الدراسات الاجتماعية بالقاهرة ، وفي عضوية مجلس الاعيان ومجلس النواب الاردني الذي تخلى عن الترشيح له لكامل ، وعضوية اللجنة العليا للمناهج . اما على صعيد رام الله ، فقد ترأس كلية بيرزيت حتى قبيل وفاته ، ونادي الروتاري في رام الله ، وناب عن رئاسة كل من مجمع الطائفة الانجيلية الاسقفية العربية ، وجمعية الشبان المسيحية بالقدس ، وقد كان عضواً عاملاً في لجناتها التنفيذية وعضواً فخرياً في جمعية انداش الأسرة في مدينة البيرة .^(١) ولا نستطيع الحصر في عمر حافل بالنضال امتد من ٤ نيسان ١٨٩٥ الى ١٩٧٠ . ولكن ، يقال : انه كان معتدلاً في آرائه ومواقفه القابلة للاعتدال ، اما مواقفه المبدئية حول القضية الفلسطينية فقد كان فيها مثال الوضوح والصلابة . يتذكره أحد ابناء قريته فيقول : ان ليفي اشكول - رئيس وزراء العدو - استدعاه إلى مكتبه اثر هزيمة ١٩٦٧ فرفض موسى الذهاب . وألح اشكول ولو ذهب بنفسه إليه ، فرفض موسى قبوله زائراً . . . لقد كان بحق ممثلاً لكل أوجه السياسة الخارجية الأردنية .^(٢)

ورعلى خطى الخال ساركمال . اختلفت بعض التفاصيل ولكن الهدف واحد مؤداه وحدة الامة العربية طريقاً لتحرير فلسطين .

١- مجلة " الغدير " نفسها ، ص ٦ .
٢- من الحديث نفسه مع سميح زيادة .

الفصل الثاني : حركة الحياة

أ - مولده

ولد كمال بطرس ناصر يوم العاشر من نيسان عام ١٩٢٤ في غزة حيث كانت العائلة بحكم عمل ربها . والمستبع لنضال رجال غزة تحت الاحتلال غب وقومه متقطعا حتى استمراره ، لا يستغرب ان تحل الروح النضالية " الغزبية " في هذا الوليد الجديد .
ونرى في موضع آخر أنه مولود عام ١٩٢٥^(١) ، الا اننا اكثر ميلا للأخذ بالتاريخ الاول للجريدة الرسمية الأردنية التي تستقي معيوماتها وفق أصول معينة .
كان كمال أصغر أخوته : سامي ، الين ، لوريس ، وديع ، سلوى .

ب - محيطه وواقعه

ولم يعانق عامه الثامن الا وقد غدا كسائر القرويين يخرج ايام عيد الفصح الى بساتين البرتقال لقطف ثمارها . وسط هذه الاجواء اتسع صدره بعبق الشدى ، وتحلّت بالسوان الازاهير رواءه ، ومرج في كروم العنب والتين والزيتون فتجلّت لناظره ربة الشعر في ثوب زفاف أزهي واجمل مما حملت به عروس شاعرة .
في ذلك القطاف ، أبصر امرأة تجني وتبكي مما اثار تساؤله . فأحزنه قولها بأنه ربما كان موسم القطاف الاخير . . فالصهاينة يتدفقون ويطغون .^(٢) ودار الدم في عروقه دورات حثيثة ، وككل الاطفال الساذجين ، ظن الطفل كمال ان ابيه الحاكم اوجدّه رجل الدين يستطيع ان يدفعه العكروه عن الارض والمرأة . نركض اليهما حيث لم يكن لذيهما الا الصبر والايان ومزيد من الصلاة .

مع تلك الحادثة ، كانت اولى تفتحات كمال على شؤون الوطن وشعبونه ، على وطن لا يطول فرح الطفل فيه بخلو طفولته . . بسرعة يعي كل شيء . يختصر عمره . ربدأ اختلاط كمال بأترابه فخلط الثورة بدمهم ، وراح يتودهم في سن العاشرة في مظاهرات تتأدى بانها الانتداب البريطاني على فلسطين . وكانت قد بدأت تنقح شرارات لتشعل ثورة اعتبرت من اعظم الثورات الشعبية ايامذاك ، بفعل شموليتها وفعاليتها . تلك هي ثورة ١٩٣٦ الأولى المسلحة والتي نجحت - ولو لمرحلة - في الحد من تدفق الانهياي الصهيوني على فلسطين . وقد وجد كمال فيها دوره مراسلاً وممونا للثوار من خلال رفاقه الصبية ليكونوا عوناً للثائرين في معارقلهم . وفيها بدأت رحلته الشاقة مع الوطن وقوى الانتداب والاعتصاب ، اذ انه راح رهينة شرطي بريطاني ، فلم يدع له وخاطبه قائلاً : لن يسرقوا وطني وانا مكتوف اليدين .^(٣) وكان بهذه الكلمات يترجم احساسه وأمانه كل ابناء شعبه الذين يشاركونهم قدرهم . وفيها التقى شرطيان بريطانيان القبض عليه " بتهمة " قيادة مظاهرة ، وجاءوا به الى ابيه مساعد

1 - Hala Salaam & Salwa Khalidi. The Conscience (Beirut: Palestine Research Center, 2nd edition, 1974) p. 4.

2 - (Idem. Ibid.) p. 3.

3 - (Idem. Ibid.) p. 5.

الحاكم آنذاك ، وهما يجهلان علاقة الحاكم بالمحكوم .
تلك الوقائع عبر عنها كمال في شعره لما ربط نفسه بعجلة شعبه التي تدور فوق
الاشواك وبين أسنة اللهب ، فقال :

مأساة هذا الشعب مأساتي	وجراحه النكس جراحاتي
انا بعض ما ينساب من دمه	وكانه من بعض آهاتي
قد ران في درب المنى اعتقنا	هيئات ينفصلان ، هيئات (١)

هذه هي بعض مبادئ واعتبارات ابن الثانية عشرة المشبعة ، وهي من الغيث أوله .
والثقافة للثائر سلاح آخر فيخوض معركته بحدود ثلاثة تتهازع مضاء . فمن خلال فهم
كمال ناصر لهذا المبدأ ، انطلق الى الجامعة الاميركية في بيروت ليحصد العلم ويزرع الثورة ،
ففيها غنى الوطن وغنى الحبيبة وتخرج قافلا الى بيرزيت ليبدأ نضاله المنظم من على ارض الصراع
وهو الأشد فعالية ، مقتفيا بذلك اثر كل المقتفين من أبناء قريته التي كانت تشهد أعذب
معانقات مثقفها في حين يكونون لها بلسمها المرجو .

ج - ثقافته

- في مدرسة بيرزيت:

عائلة ذات مستوى ثقافي مرموق . ومدرسة تدور تلك العائلة في فلكها ليصبح نجاحها
وتطورها شغلها الشاغل . هذا وضع كمال ناصر في بحر من العلوم والآداب والثقافة العامة
هو عبارة عن مكتبة خاصة اعترف منها . وكانت المدرسة تتحول تدريجيا الى كلية ثم الى جامعة
مع تركيز شديد على اللغة الإنجليزية واللغة العربية وآدابها ، وفوق ذلك التربية الوطنية .
فيها عرف كمال العلم من المهد حتى ابتداء المرحلة الجامعية عام ١٩٤٢ ، وفيها ظل طول
اقباله على العلم بلبلا صدحا يحيي مواسمها الادبية . ولقد اجمع كل من عرفوه آنذاك على
انه ذو صوت شجي يحب الموسيقى ويعزف على البيانو سماعا . أجل ، كان عضوا في فرقة
انشاد الكنيسة الانجيلية .

اخبرني اخوه يوما : " لم يكن كمال يحب الرياضيات . وقد ورث شذبية ابيه وادبيات
أمه ، وقال الشعر صغيرا . " (٢)

- في الجامعة الاميركية - بيروت:

أمها كمال عام ١٩٤٢ . ومن كان يراه يقرض الشعر في السن العاشرة ويوشح بقلائده
حفلات مدرسته ، يتصور حتما انه سيتابع التحصيل في اللغة العربية وآدابها . ولكن
التساؤل : لماذا اتجه الى العلوم السياسية لا الأدبية؟ وهل كان لهذا الاتجاه أثره
فيما بعد؟ ولو درس الأدب ، هل جاءنا افضل شاعرا ؟
لا شك في ان الحالة السياسية للبلاد هي التي لعبت دورها في حياة كمال

١- كمال ناصر . الاعمال الشعرية (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ط ١ /

١٩٧٤) ، ٥٣ - ٥٤ .

٢- من حديث خاص مع وديع ناصر في ٢٠ / ١١ / ١٩٧٦ ببيرزيت .

الشاعر والسياسي في آن واحد . وجهان متكاملان لا ينفصلان ، بالنسبة له على الأقل .
وفي الجامعة الأميركية ، دارسا وشاعرا ، كان يوحى للناس بالشاعر الفلسطيني الذي
سبقه اليها على مقاعد الدراسة ذاتها ، ابراهيم طوقان شاعر الجمال والثورة . لا بل شهدت
هذه الآونة غليانا جماهيريا فلسطينيا ضد الانتداب البريطاني وسياسته الصهيونية مما حرض
كمال ناصر على "تنظيم المظاهرات واللقاء الخطابات والتخطيط للاضرابات . فقامت ادارة
الجامعة بفصله فصلا دراسيا واحدا ."^(١)

عن تلك المرحلة ، لم يبق الا ما في ذاكرة استاذة قسطنطين زريق^(٢) "كان كمال
تلميذا عاديا . ولعل همومه السياسية والوطنية كانت تصرفه عن اهتماماته العلمية . كان يقول
في الجامعة شعرا وطنيا ."

د - بين التعليم والتعلم

بعد نشاط حافل ، حمل كمال اجازته الجامعية في العلوم ال ياسية عام ١٩٤٥ ،
وقفل عائدا الى فلسطين ، فماذا ينتظره هناك ؟ التعليم ؟ ألم يكن اتجاهه الادبي يدفعه
الى العطاء الفكري شعراً ، فلماذا لا يعطيه تربية ، والنشء في أمس ما يكون حاجة للتربية
الوطنية مع التربية الفكرية ؟ ووجد نفسه مدرّسا في القدس بمدرسة صهيون بعد تخرجه
مباشرة .^(٣)

أما لماذا لم يستمر في هذه الرسالة طويلا ولم ترهقه أعباؤها فذلك ما يجيب عليه
أحد رفاق شبابه فيقول : "كان يستغل دروسه ليعلم في كل حصة شيئا عن الوطن وحتى لو
كان الدرس خلوا من ذلك . ولم يكن يتقيد بأوقات الدوام وخاصة في الصباح ."^(٤) لهذا كان
استمراره يتوقف على مزاجية صاحب المدرسة .

ونشط كمال صحافيا ، وهو الشاب ذو العنفوان حين يحلو للعنفوان ان يتجسّد .
فحمل امتعته باتجاه دمشق ليكتب إلى أخيه وديع ذات مرة : "انني الآن اعلم اللغة الانجليزية
وأعمل في بعض الصحف ."^(٥) ثقافته الانجليزية الغنية وعمله الصحافي الزاخر ، وملكته الشعرية
المتنامية ، كلها كانت مؤشرات الى مستقبل هذا الجسد الذي يكاد ينوء بحمله ذاك أن
تعليمه الانجليزية وعمله الصحافي عام ١٩٥١ ، لم يمنعه من التفكير بالمحاماة ، فهل درسها
حتى النهاية ؟

كمال ، وحده ، يثبت ذلك في مذكراته إذ يقول : " . . . وعندما سرت نحو الفندق
لألتقي بزملائي المحامين الذين كانوا يجلسون بلا عمل ."^(٦) هو ، قبل ١٩٥١ ، لم يذهب
الى دمشق لدراسة المحاماة ، لانه عمل في الصحافة بين ١٩٤٦ - ١٩٥٠ في فلسطين .

١ - H. Salaam... (Idem. Ibid.) p. 6.

٢ - من حديث خاص معه عام ١٩٧٦ ببيروت .

٣ - (Idem. Ibid.) p. 4.

٤ - من حديث خاص مع نبيل خوري في كبة بمجلة الحوادث عام ١٩٧٥ ببيروت .

٥ - رسالة من كمال الى وديع ، دمشق ٢٧ / ٢ / ١٩٥١ .

٦ - الآثار النثرية - مذكراته ٥ / ٧ / ١٩٦٧ ، ص ٢٠٥ .

وبعد انقضاء عام على وجوده في دمشق ، كتبت إليه أمه تقول : إذا لم تتوفّق في المحاماة احضر حالا .^(١) فلماذا كتبت إليه بهذا؟ هل كان عبثاً مادياً على عائلته مع انه كان يحصل من التدريس والصحافة؟ نعم ، كان ، وإن لم يكن هو السبب فان "البنك الاهلي" مثلاً في أمه ، لخيرتها عليه لحبها التاريخي له ولأنه الابن المدلل الاصغر ، ارادت ان يكون بجانبها دوماً وقد حزّ في قلبها عندما كتب الى ابنها الاكبر وديع يشرح مصاعب المحاماة قبل شهر من تدخلها في الامر يقول : " أما فيما يتعلق بالحقوق ، فأنت تعلم انه هو السبب الاول الذي دفعني الى ترك البلاد الى سوريا ، ولقد كانت خطوة جريئة مني ان اترك الصحافة لأعود تلميذاً بعد ان شققت طريقي في الحياة ولكنني أصحح لك بانني تغلبت جداً في الجامعة ، ولم أسجل بعد لأنني طلبت ان أكون في الصف الثالث ، وأعتقد انني لن انجح ، ولذلك فسأحاول ان ادخل الصف الثاني اذا لم أكن متأخراً وأنا مصمم على اخذ شهادة المحاماة ، واذا لم اتوفّق فسأعود لأفتح جريدة .^(٢)

ان محاولته دخول الصف الثالث مباشرة لتؤكد صحة انتسابه الى الجامعة لدراسة الحقوق عام ١٩٤٥ كما اسلفنا . وفي مطلق الاحوال ، ظل كمال يطلب العلم في اتجاهاته الأدبية الى جانب حرصه الشديد على موضوعيته العلمية في حياته العملية . ولقد كان لزياراته المتعددة الى دول اجنبية أثر كبير في تنمية مطالعاته وتنويعها . لذلك ، فبعد أن جرب كمال الحياة تعلمًا وتعلِيمًا ، أحب ان يظل تلميذاً دائماً الى جانب تعليمه للأجيال الشابة فنجح في ما أراد ، وها هو يخرج بتحديد كيفية العلاقة بين المعلم والتلميذ فيقول : " أساتذتك ليسوا من الآلهة يا ولدي ، انهم بشر مثلنا تماما ، ويجب أن تكون هذه اولى نظراتك اليهم ، فلو فعلت غير هذا واعتبرتهم آلهة مخيفة او شياطين رجيمة ، فانك محال ، لن تفهم منهم شيئاً ، وتحيط نفسك بموجة من الخوف تفسد عليك علاقة جميلة جداً ، وتندم عليها عندما تغادر المدرسة فتلتقي بهم على صعيد الحياة ، فيظهرون لك على حقيقتهم تماما وأنهم بشر مثلك .^(٣)

علاقة المعلم بتلميذه علاقة ممتعة ، استشعر كمال بعد وبتها ، ولكن كيف كان يرى علاقة التلميذ ، او قل ، علاقته كتلميذ بكتابه الذي "عكف" إليه طوال حياته ؟ نقرأه قائلاً : " أما كتبك فهي وان لم تكن خلاصة العقل البشري إلا انها تكفيك في مراحل تجربتك الاولى فاعكف عليها حاول ان تشاطر كاتبها ما يريد ، وحاول ان تجد لذة فيما يقول ويكتب . حاول ان تفهم المادة نفسها ، فأنت بالغ ذروات السرور ان فعلت ولن يمهي وقت حتى تشعر بأنك أسهمت في وضع هذا الكتاب الذي بين يديك^(٤)

١- رسالة من امه اليه ، ببيروت ٢١ / ١ / ١٩٥٢ .

٢- رسالة من كمال الى اخيه وديع ، دمشق ٢٧ / ١٢ / ١٩٥١ .

٣- من رسالة تربوية له بعنوان " الى ولدي " مع انه لم يتزوج قط . والمخطوطة في محفوظات مركز الابحاث الفلسطينية - بيروت .

٤- المخطوطة نفسها ، وقد نسختها قبل ان تسحب من محفوظات المركز .

كمال اذا ، تلميذ محترف ، مطالع متجدد ، قارئ دائم ، كاتب مشارك في كثير مما يقرأ ، ينظر الى الكتاب انسانا محدثا لبقا يجب على التلميذ ان لا يحسن الاصناء اليه فحسب وانما مشاركته الحديث . وكمال ، إن ظل حتى النهاية تلميذا في مدرسة الحياة ، فلماذا أفنى في التعليم سنة واحدة ؟ هل خلق ليكون سياسيا ؟ أم صحافياً أم معلماً ؟ هل خلق ليكون كل هذا معا ؟ هو ، وان حاول ان يكون كل هذا ، وشاعرا يعلم بالتصيدة ويناضل بالقلم ، انما يجدر بنا ان نقرأه يصف تجربة استاذ يمارس التعليم فلانكاد نفرق بين الشخصيتين . يرسم صورة لأستاذ يته يقول عنه : " . . . ولم يكن استاذهم ، وهو شاب منهم يعيش بينهم ، ليخل عليهم بحكايات وقصص وطرائف عن بلادهم السلبية الضائعة . . . لقد اصبح هذا الاستاذ بالنسبة لهما هينا ، وربما لغيره من أقرانه ، معبوداً ، بل بطلاً يشار اليه بخشوع كلما دخل الفصل عليهم . . . ولعل هذه الهالة من البطولة التي اضفاها على طلابه دفعتة الى المزيد من الاهتمام بهم ، وكان يبلغ به حماسه الأوج كلما تحدث عن نكبة بلده وبلدهم . وكان هذا الحماس والاندفاع في حديثه عن النكبة يفوق كل حديث آخر . فالحساب واللغات والجغرافيا حتى الدين والاخلاق ، أصبح ثانويا بالنسبة للمعلم نفسه ولطلاب الذين انفعلوا به وتأثروا بحرارته . . . " (١)

لقد أجاد فن التلمذة وبرع في فن التعليم . اراد ان يصف تلميذا فوصف نفسه ، وأراد أن يصف معلما فوصف ايها نفسه . ومصادق وبغ ، حديث صديقه نبيل خوري (الآنف الذكر) وفيه تهويله كل درس الى درس في الوطنية والاحساس القومي . لذلك ، كان محيط تأثيره ضيقا ومحصورا بجدران مدرسة ، مهما اتسعت فلن تبلغ اتساع الوطن الفسيح بجماهيره يخاطبها من على صفحات الصحف وعبر القوائد العنيفة . فترك مهنة التعليم وتفرغ للسياسة والشعر معا حتى وان طغى أحدهما ، الا انه كان لكليهما تأثير بارز . ففي السياسة قلده الرئيس الراحل جمال عبد الناصر وسام الجمهورية العربية المتحدة من الدرجة الثانية (٢) . وفي الشعر نال شهادة براءة من جمعية خريجي الجامعات العربية الاميركية في ٢٠ تشرين الاول ١٩٢٠ (٣) تقديرا لتجسيده المعاني الانسانية ونشرها من خلال أدبه .

لم يكن كمال ناصر منقطعا عن مجريات الثقافة العربية على الاقل ، كان يتابع ترقي العلوم والآداب ويتابع التطور الدائم للشعر العربي الحديث . وهو وإن تأثر بالاخطل الصغير وشوقي وأبي ماضي ، نقد استقل فيما بعد بشخصية أدبية مميزة كوّنتها ثقافته المتجددة ، وسوف نحدد معالمها عند قضية شاعريته في الباب الاخير ان شاء الله .

١- من قصة قصيرة له غير منشورة عنوانها "خائن" في محفوظات مركز الابحاث الفلسطينية ببيروت وقد حصلت عليها قبل سحبها من المركز .

٢- أراني اياه اخوه وديع في بيرزيت ، تشرين الاول ١٩٢٦ .

٣- رأيتها كذلك هناك وهي مكتوبة باللغة الانجليزية وسوف أوردتها في الملحق .

هـ - المرأة في حياته

تفتق أكام الهوى الأول اذا توقرت له مقاعد الدراسة أو أحضان الطبيعة العالمة .
الى جانب هذين ، كان للصلة العائلية الحيمة فضل كبير على إزهار الهوى الأول في
قلب الشاعر وقد كتب الى حبيبته الأولى : " لقد أحببتك وكت أول من أحببت بما تحمل هذه
الكلمة من معان صحيحة خالدة . . . لقد أحببتك صغيرة وطفقت خلال السنوات الماضية الطويلة
أهدد هذا الحب وأحرص عليه وأعيش من أجله . (١) "

كانت ابنة خاله الغادة الفاتنة والفتاة المثقفة الذكية (٢) الى حد كبير يعترف به
كمال ولو من خلال لهجة الكبرياء التي يكمل بها رسالته قائلاً : " لست أجمل فتاة رأيت ،
ولذلك لست اذكي اننى جمعتني بها الظروف . . . ولكنك مع ذلك أغلى وأعز شي في حياتي .
لست أدري . . . لكنه يدري لأنه كان قد عرض محاسنها في احدى قصائد الغزلية (٣) وهي التي
يهيم بها حبا ويلقى النوى صاغراً هاوياً ، فاذا ما حاول ان يشغل قلبه بغيرها كان ينفر من
كل حسناء تتحدث اليه فيلجأ الى الخمر . ولكن شقاءه به يزداد الى حد الكتابة اليها :
" حبيبتي المستحيلة " فيستلهم الصليب ويدلف للإله ليسمع أصواتا تصرخ في داخله هازئة
" لن تستطيع ، لن تستطيع " فيقول لها : " انا الا اريد ان أصاب في عقلي . . . وأحطم قلب
العجوز التي اسمعها تئن وتتقلب في فراشها فزأاً من المصير المجهول ورحمة بي . انها
الآن تتحرك وتقترب مني شأنها كل ساعة لتسألني لماذا لا تنام يا كمال . . . ماذا تكذب ؟
فأحاول ان امنع عيني من الالتقاء بعينيها وأقول لها : قصيدة وطنية يا أمه . "

أرهقه التفكير والصراع الصاحب في نفسه بين عاطفتين : الحبيبة التي يهيم بها ولا
تبادل له الهيام ، والأم التي يسعددها حبه لفتاته . فكيف يسعد أمه ونفسه في حين ان حبيبته
لا تعبير نجاح المعادلة اهتماما وقد راحت تؤرجحه بين أمل الانتظار الممل وبين الانقطاع
زاعمة انها ستعطي نفسها " مئة سنة أو سنتين " ربما تغير شعورها نحوه؟ ولكنه في
كبره ، لا يستطيع تصوّر هذه الحقيقة المؤلمة ان يقول : " لا أفهم ان أكون ان النسر الشايع
عرضة للمساومة . . . انا افضل لهذا النسر ان يلوي منقاره تحت جناحيه فيموت موفور الكرامة . "

ومع هذا التفضيل الصعب ، نراه لا يلين بل يتصرف على صعيدين متناقضين : الابل
مادّي يتمثل في اصراره على مواصلة اقتحام حواجزها الرافضة . والثاني نفسي يتمثل في تحوله
الداخلي إلى انسان يأس كأنه " الملاك الطاهر الذي نعم عليه الله فمسخه شيطانا " وبخاصة
حين كتبت إليه ردّاً على رسالته تقول : " لم أشعر بميل خاص نحوك قط . . . أو من بعبريتك
ومستقبلك . . . ولا أزال حتى الآن أعتقد انك ستنسى . . . أتذكر ما قلته لي مرة وهو
انك تحب فتاة احلامك في الخيال أكثر منها في الحقيقة؟ (٤) "

١- الرسالة الاولى من كمال الى ريماء . بدون تاريخ وان كان يفهم من بعض رسائلها انها
ما بين ١٩٥١ - ١٩٥٢ وقد حصلت على عدد منها من السيد ناجي علوش . . .
٢- سمحت لي الأيام بمقابلة ابنة خاله التي كتب اليها رسالته هذه وغيرها .
٣- قصيدة " اليها " الآثار الشعرية ، ص ٢١ - ٢٢ . وستعرض لها في شعر الغزل
في الفصل الثاني من الباب الثالث .
٤- رسالة من ريماء الى كمال بتاريخ ٢١ / ١ / ١٩٥٢ .

هي تقول ما تعتبره حقيقة وتذكره بما يعتبره احلاما وردية لشاعر عاشق . فهل يرضخ لمنطقها الصريح ام تستمر احلامه الوردية فيتصورها وقد "وقفت خلني تعبين بشعري وانا انتج وأدفع للمطابع الكتاب تلو الكتاب: حتى في الزنزانة كان يفكر بها . وعندما "وهضوا القيد في يدي فكرت فيك . . . ولكنني عندما كنت افكر بأنك مستحيلة عليّ ولن تكوني لي ، كنت اقول: يا الله خذني اليك فلا يعلم احد انني مت هوى وغراما وعذابا ."

لقد ربط بتفكيره فيها من السجن بين معويتين: صعوبة القيود الحديدية وصعوبة استحالة ان تكون له . حيال هذه الاحلام والصعوبات التي تحول دون تحقيقها ، نقف متأملين عبر بعض الرسائل المتبادلة مع ابنة خاله فانها تنطوي على ابعاد ظاهرة واخرى خفية . كتبت اليه مرة: "أحب أن افهمك تماما ان لا علاقة لاحد في تصميمي هذا ابدا . (١) يصعب اكتناه البواطن في هذا المجال ، فنشرَ نصوصَ رسائل كتبها . . . قال: "اما شعورك نهوى فانني الى حد ما استطيع فهمه . . . ولعلّ للسن أثره . . . ولعلّ لعدم فهمك المعنى الصحيح ومعرفتك للألم واحساسك بالحرمان . . . (٢)

وأوضح في رسالة أخرى: "رابطة الدم هذه التي تدعين انها تفصل بيننا . . . وهي في الحقيقة من أسرار حبي لك وهيامي بك ."

يبدو ، لأول وهلة ، انها نفسها العقبات التي تعترض الجمع بينهما . ولكنه في رسالته الى اخيه وديع (٣) كتب يقول: "انا لا ازال افكر بها . لانني أحبها ولا اخجل من هذا الحب ، واعتقد أنني حتى في حبي اختلف عنكم لأنني صادق في شعوري . . . انني أحبها واذا لم اتزوجها فسأظل أحبها واعتقد انني استحق ان احصل عليها فأنا أهل لها من جميع النواحي ، ولن تجد أحسن مني . . . وتأكد ان الوقت سيأتي عندما يندم الجميع وخاصة العائلة اذا لم اتزوج منها ."

فهو هنا يكشف عن بعد خفي ، عقبة ذات تأثير كبير ولا سيما ان رأس البيت آنذاك كأن يمثل الرأس المفكر والمدبر والامر الناهي . وتأکید حبه لها رغم هذه العقبة ردّ صريح على اتهام ابيها له بفقد المورد ان يصرّح كمال لاخيه "ان انتاجي الأدبي وحده لو نشرته يكفل لي خلوداً ومادة أعيش بها . (٤)

ازاء هذا الموقف المتأزم كتب الى حبيبته المستحيلة من موقع المنهزم: "ان قلبي الذي استطاع فيما مضى ان يتلاعب بأحاسيس مجتمع بأسره ، سيعجز عن نقل شعوري وكآبتي الخرساء . . . اجل ، لقد فشلت ليس في الحصول عليك فحسب ، وانما فشلت في حسي واحساسي وعواطفي . " ورغم اعترافه بالفشل ، فان الأهم من الظاهري هو ذلك الاعتراف الضمني بأنه لن ينساها ، فاذا كان لامه دور ايجابي تجاهه ، فطبيعي ان تكون قد كتبت اليه تظمنته وتحتّه . . . قررت ان تذهب لباريس . . . ولا أظن شيئاً في الدنيا يغيّر فكرتها ."

١- الرسالة الثانية .

٢- الرسالة الثانية من كمال الى رما . بدون تاريخ .

٣- دمشق ، بتاريخ ٢٧ / ١٢ / ١٩٥١ .

٤- الرسالة الثانية نفسها .

ولربما بغيابها يصير لك فرصة ان تعمل نفسك وتقدم على هذا العمل . اما يا ابني ، ماذا تنتظر من . . . ان يجاوبك وانت بلا شغل . . . أنا أعدك واعاهدك إن انت اظهرت كفاءة سأدبر كل شي . . . وأما بالوضع الذي أنت فيه ، هذا من رابع المستحيل . (١)

والمستحيل هو رفض خاله له لانه لم يكن صاحب وظيفة ثابتة تدر عليه المال الكافي لتأمين مستقبل واضح مستقر . اما والدته فشأن كل والدة تسعى لنفع ابنها ولا سيما ان السعي لدى أخيها بالذات قد يكون محمود النتائج . وعلى الرغم من صدق مشاعراه وغيرةها وتفانيها إلا أن الشاعر العاشق كان يرى غير ما يراه كل الآخرين ، ويخنق النداء في صدره ويأسر عواطفه . . . يقسم لحبيبتة يمين خلودها بين جوانحه " وستظلين صورة حية أماي تفصلين بيني وبين اية امرأة اخرى " (٢)

هذا التأكيد دلالة واضحة على تملك اليأس من نفسه . موقف مأساوي يُشير الى الانفصال الأبدي ولكن من طرف واحد . وعند كل انفصال تظل لأحد الطرفين أمنية يتمنى تحقيقها وهي عند كمال ناصر " . . . غدا ، وإن قدرت لنا الحياة ، وعندما يدب الشيب الى رأسي ، ربما حملت اطفالك لا قبلهم وأداعبهم ، فلعلهم لا يمتنعون يا . . . " (٣)

قمة الشعور باليأس والفشل والعجز عن التعبير بكلمة واحدة عما يعذب النفس وخاصة ان الصورة مرعبة من عنصرين واحد هما كاف لشق الصدر : الحبيبة المستحيل تحولها الى أم لأولاده ، والاطفال المستحيلة نسبتهم إليه . . . هذه النسبة حلم ازلي . وقد يكون أخف على النفس وطئاً لو تحقق أحد المستحيلين ، فمن أين له ذلك !

ولكيلا تظلم دنياه طويلا ، انفتحت عليها للنور نافذة جديدة بيد فتاة جامعية تنتمي الى عائلة لبنانية عريقة . توّس فيها المستقبل المشرق بعد انتكاسة الماضي فعاش لحاضر يملأ عالم خيالها وقد كتبت اليه ذات يوم : " أحبيتك دون عقلي ، أحبيتك بقلبك ارهف حساً . (٤)

قلبه
ينقلنا اعترافها هذا الى نقيض له عند كمال الذي يبدا انه أحب بعقله دون قلبه . كل لفظة توحى بحب عنيف متبادل . يقوم استدلالنا على هذا من خلال تتبعنا لرسائلها من طرف واحد يمثل وجهها مشرقاً من وجهي العلاقة الحقيقية . فقد أرسلت اليه " حبي ، انت حبي وتبقى . . . وجهك يهفو . . . حسك في روحي . . . بوحك في جسدي يبقى . . . سأكتب لك اليوم عند غياب الدقيقة من روع الوجود وأبدأ ليلي نهاري بذكراك . " (٥)

أرق من الشعر بوحها له ، انصهارها فيه ، حتى في اعتذارها له : " حبي ، لم تمنحني نداءات الحروف وقتا كي اكتب لك كما وعدتك . لكنني أغرقت نفسي في أحلام رؤياك وغفوت مرات عديدة . كيفك يا حبيبي ؟ أتشتاقني كثيرا ؟ انني ووجدي لكثرة ما نهفونكاد ننهد . . . نحبك بكنا . (٦)

- ١- وديعة ناصر . بيرزيت ٢١ / ١ / ١٩٥٢ .
- ٢- الرسالة الثانية نفسها من كمال الى ربما .
- ٣- الرسالة نفسها .
- ٤- هدى زكا . الشويفات ٧ شباط ١٩٦٠ .
- ٥- هدى زكا . بيروت : رسالة بدون تاريخ تفصيلي ما عدا ١٩٦٠ .
- ٦- هدى زكا . بيروت : رسالة بتاريخ ١٤ نيسان ١٩٦٠ .

تظل نعمة حبه بيضاء ، سرّاً خاصّاً (١) قتلته الحضارة المادية والمتاييس المغلوطمة
 للتشايأ الشعورية . فهل يؤمن سبباً تراجمه عن هذا الحب ما ذكره ابن تيرته (٢) من انه
 ابن تيرته لا يتمرر لفسده زوجة يعيش من ايراداتها . . . هو فتاح يريد ابنة فتاح مثله . . .
 تيرته؟ فهل ذهب العاشق اذن ضحية المدينة؟ وهل هذا التصول منتطع الاصول؟ ولماذا
 تسأله غطيتته هذه " لماذا ترفض الكتابة لي باستمرار؟ اجعلني ولو مرة أحيا في التمرن
 السادس من مشرب مع العواطف السنداقه . " (٣)

تذكرنا هذه العواطف السنداقه بتلك التي كان ينعم بها على حبيبته الاولى . . .
 ياتى استجابة ، وقد كان من حقه ان ينعم بها على من استجابته مرتضية بالعواطف الأدنى .
 لسد خزان عاطفته تد أعييب بسبح او نضوب ، ام انه الشاعر الذي لا يتكلفني حبه ولا في
 شعوره ؟

وعلى الرغم من عدم امكانية الوقوف على رسائله الخاصة كلها لمياع او لعلّة أخرى ،
 فان تحوله الشعوري فيما بين في تعبير حبيبته عن تأسفنا لتضر رسائله اليما . . . فهل هو
 يتسائل بشيء آخر؟ ولكن " أياً من الاتية الى من تدعوها حبيبته بهذه السرعة؟ " (٤)

ولعله كانت له اوقات من الأخذ الى النفس يحاسبها ويحسب لها فيتصرف وفق ما
 يتراءى له . . . نها هي ذى حيناً تعاتبه على استعجاله لها اتقال خط الهاتفسده (٥) غير
 عاذرة له اعترافه بالرجل الذي يتصرف بجدلة في أحيان كثيرة ، كما تعاتبه على تصرحه لها
 بأن " اسئلتها الكثيره ترهته . . . وقوله اننا تقف دائما حجر عثرة امام كل مشروع " حتى ولو
 كانت رؤيته هي السبب . . . فلا تلبث يحاقر الحب العميق ان تمنى عليه أمنية واحدة وترجسو
 " أن تراه ينعم بالمرکز الذي يستحق . . . ان يفهم جيداً خصلة الحساسية المرهنة جدا في
 كيانها ، فما يوءذينا لا يرفّ جننا لغيرها . " ولا يفوتنا التأكيد له ان حينا " إن لسم
 يبلغ هذا المقدار ، لما كلفنا نفسها حتى التفكير بهذه الامور . " (٦)

وتسدكس الآيه ، فما كان يطلبه من حبيبته الاولى لم يستطع منحها للثانية . لسد حبا
 آخر للأولى جعلها تتسنع ، ولعل حبا آخر له جعله في المرة الثانية يتمنح . رالا فوئل ينتظر
 عواطفه المتراند لا قاسا رأينا ؟

ومرة أخرى ، توصي لحظات الافتراق بأمنية أخيرة هي الآن أن ينعم بمركز يستحقه
 فيذكر من احبته بمدق وحنان . . . انك تضحيتما بما لا تطيقنا لنفسنا نفس ، فكان على
 العاشق الآخر أن يتقدم بالمقابل تمهية أعظم .

وحين وجد نفسه منتارا بين حب المرأة وحب الثورة ، أسر الحب الثاني . وتندأ

١- لدى اتصالي بما لسو المنا من كمال الشاعر والانسان ، رفضت هدى زكا اللناء والاجابة .
 كما اندام تتوزر لي ام من رسائله اليما لان علاقة الخطبة التي ربطت بينهما انتهت عند
 مفترق طريقين . بيننا علاقة بابنة عماله كانت ذات طابع خاص من الترس فحفظت اوراقه .
 ٢- من مند يث خاص من نابهي علوش وقد التفت به لذلك عدة مرات خلال عامي ١٩٧٥ - ١٩٧٦ .
 ٣- هدى زكا . الشريعات ، رساله بتاريخ ١٠ / ٧٢ / ١١٥٦ .
 ٤- نفسها ، رساله بتاريخ ١٠ شباط ١٩٦٠ .
 ٥- هذه المقاطع الثلاثة بين الشولات تمت بصيافتها هذا من الناظر الرساله الاعلية من
 هدى الى كمال ، الشريعات ٧ شباط ١٩٦٠ .

قضى كمال ناصر العمر من غير زواج او اطفال يملؤون خياله ويميمون فيه .
اما رسائله الى حبيبته الاولى فتمثل امرازا غريبا على ولادة الحب العظيم واقتترانه
بما يكفل له الحياة السعيدة بينما تعبر رسائل الوجه الآخر عن حب عقائدي تد يكسرن مرد
عقلانيته الى طغيان الحب الأول على ينابيع العاطفة الاصيلة .
لذا يمكن اعتبار رسائله قطعا أدبية رائعة تجمع بين دقة التصوير وعمق الشعور ،
والإحساس المرفف الى جانب التأثير المباشر في نفس القارئ الذي لا يسعه إلا أن
يشاركه حسا وشعورا .

و - تفتحته على المأساة والثورة

كان مقدرا لكمال ان يعيش مرحلة دراسته في بيروت خلال السنوات التي شهدت
استمرار الحرب الكونية الثانية والوطن العربي ينوء مجزأ تحت كلال الدول المتصارعة
وكل جزء يهفو الى الاستقلال العاجل . الا ان التيارات السياسية المتضاربة والمتصارعة كانت
تسد لتصنيع كل نشاطات الشعب وبخاصة الطلاب الذين يحملون غالبا مشعل الهداية .
ومن جامعتهم رأى كمال القوى العدوانية تتناوش وطنه فلسطين وحدها ، فسيطرت
عليه تلك الرؤية وصبغت حياته حتى ليتال عنه آئذ " كان مفردا في الحساسية الوطنية ،
ولم تكن دموعه الا عيون شعره . كما وكان في دروسه عاديا لأن شغله الشاغل كان الوطن
الذي لأجله تظاهر وأوقف ، والذي لأجله سفح شبابه واعتصر سني حياته . (١)
وتنمنا قتل عائدا الى قريته بعد التخرج ونيل شهادة العلوم السياسية عام ١٩٤٥
من جامعة بيروت الاميركية ، كانت تصب على رأسه رياح التحرر فراح يسي لاخراجها قوة
متدفقة سواء بسلاح الشعراء الصحافة ام المشاركة النضالية .
ولم تكن شهر عام ١٩٤٦ و ١٩٤٧ والنصف الاول من ١٩٤٨ فحسب شهرة ثورة
شعبية فلسطينية ، كلا ، فكل يوم كان يشهد ثورة جديدة أشد وأعتى والشعب فيها امام
الانتداب البريطاني والغزوا الصهيوني أشبه " بالعين التي تتألم مخزرا " ، فيما مظلة الحكام
العرب الواقية لم تكن الا الشمس المحرقة .
وشهدت قري الشعبة ومدنه " أرقى " اساليب التعذيب والارهاب والقهر على النزوح
فلا يخرج امرؤ الا والعودة امنيته الوحيدة . لأجل هذا هرب الشيخ والرجال والنساء مع
الاطفال الآمنين من مدينتي اللد والرملة عام ١٩٤٨ وهاموا على وجوههم اثر المذابح
فلم يجدوا امامهم الا بيزيت التي اشرفت مداخلها لاستقبالهم والتخفيف عنهم .
وكان كمال في تلك السنة قد عاد " في ٢ أيار من مدينة يافا التي كان يقيم فيها
آنذاك لاسباب تتعلق بطبيعة عمله في الحقل العام " (٢) ورأى بأ عينه منتهى البربرية
الصهيونية .

١- الدكتور قسطنطين زريق ، من حديث خاص معه في آذار ١٩٧٧ .
٢- كمال ناصر ، الآثار الثرية - مذكراته ١٩ أيلول ١٩٦٧ ، ص ٢٢٥ . وكمال نفسه
لا يحدد طبيعة عمله في يافا آنذاك الا ان الشاعر محمود العنت ذكر لي أخيرا ان
شاعرنا كان يدلم هناك في إحدى المدارس .

أصحاب الدور والجناح المعلقة أصبحوا يشتهون الخيمة ولو كانت تستضيف الريح والوحول بالترحاب . أصحاب الأرض المعطاء الذين كانوا في الصباح التالي سيجنون غلالها تركوا الغلال غليلاً لا يشفى .

واستضافت عائلة ناصر عدداً وفيراً من أبناء المدنتين المنكوبتين فانعكست هذه المأساة على حياة كمال وكتاباته^(١) فخذت حياته جرحاً عميقاً لم يندمل ولا هو بريء منه ساعة .

مذابح اللد والرملة وكفر قاسم ودير ياسين وقبية وغيرها وغيرها لم يسمع بها سامع وقد غطى الصهاينة على جرائمهم فيها بإعلامهم ووسائل حكهم .

وانطلقت نداءات الزعماء العرب إلى الشعب بأن يخرجوا ، وهم يحررونها لهم برجالهم ، وان لم يستطيعوا فبأموالهم . . . وهدق كثير من يوم أجمع الزعماء على أمر عظيم هو القتال . وقد ف بالجيش السبعة في الميدان الفلسطيني بوجه الغزاة . . . وكان ان مرّ الجيش العراقي ببيرزيت فاندفع أهله بالعهي وفي شاحنات كبيرة للالتحاق بصفوفه . من بينهم ركض الشاب الثائر كمال ناصر الذي لم يكن قد شدت ساعديه بندقيه من قبل .^(٢)

وأسرعت أمه مبثاً تستحلفه الرجوع . إلا أن رجوعه تمّ لسبب مختلف ، فقد عاد كرفاقه "عوداً غير أحمد" بينما عاد الجيش العراقي المنتصر فعلاً - أو أعيد - بحجة انه "ماكو أوامر" . لقسمة سؤفها الغم فأسقطت منه .

ولم تكن "ماكو أوامر" عبارة عراقية المنشأ فقط بل تفهمتها اللجج السست الأخرى وترجمتها إلى عمل ذم على أرض فلسطين ، فقد انسحبت الجيوش كلها من فلسطين لتبقى القطعة الباقية نريسة أخرى بين أضراب عربية حيث أصبحت الضفة الغربية لنهر الاردن جناحاً ثانياً لمملكة شرقي الأردن . وهكذا صح القول " . . . مصائب قوم عند قوم فوائد " . وفي الوقت الذي تربى أهل فلسطين من الزعماء خيراً ، وهم ذور القرى ، ألسان اولئك عن النقيع الساري في انيابهم وكان لسخهم للشعب ما ادى الكبد وردد مع الشاعر الملتاع :

وظلم ذوي القربى أشدّ مضاضة
على النفس من وقع الحسام المهند^(٣)

ز - نشاطه السياسي بين الوطن وخارجه

وكان عود كمال طرماً لم يحتمل جريان السمّ فيه لثلاً يقتله . ولجأ إلى الصحافة ، فأصدر في الرابع من نيسان ١٩٤٦ جريدة "الجيل الجديد" مع هشام النشاشيبي وعصام حماد ، وقد دخل السجن تبداً لذلك مرات عديدة .^(٤) وعام ١٩٥٠ وسّع كمال نشاطه

١ - H. Salaam... , (OP. Cit.) p. 9.

٢ - من حديث خاص مع الدكتور حنا ناصر وفي رواية تاريخ يوم ٢٣ / ٢ / ١٩٢٦ .

٣ - طرفة بن المهد . الديوان ، شرح الأعلام المنتمى (طبع في مدينة شالون على نهر سكون بمطبعة برطرنند سنة ١٩٠٠ المسيحية) ، ص ٣٦ .

٤ - سنتعرض للأمور الصحافية في الفصل الثاني من الباب الثاني ان شاء الله .

السياسي فاشترك مع كثيرين في تأسيس حزب البعث العربي الاشتراكي في رام الله. (١) ثم عمل مديرا لتحرير مجلة "الميثاق" التي يصدرها شفيق ارشيدات ناطقة بلسان الجبهة الوطنية المعارضة في عمان وذلك في تشرين الثاني ١٩٥٠ .

واشتدت وطأة السجن المتكرر عليه فصار تضاغط على صدره الرحب الضغوط السياسية الملتوية ، مما ادخل نسي قناعاته ان الحياة في هذا البلد "غير الأيمن" لم تعد آمنة . فكان له في العام ١٩٥١ ارتحال الى بيروت لسته اشهر ، بعدها امضى أواخر العام في سوريا . وهناك كان يكتب للصحف ، كما حاول الالتحاق بجامعة دمشق بغية دراسة العقسوق (٢) ولكن رجلا نكبه الدهر بوطنه وبعزمائه ، لم يكن سهلاً أن يجد لنفسه مكاناً ملائماً .

وهكذا وجد كمال ناصر نفسه مشرداً من جديد . . بعيداً عن وطنه وعائلته ، مؤثراً السفر للراحة والاختبار . والحقيقة انه اراد تحصيل لقمة عيشه بنفسه بعد أن "كانت عائلته تمدّه بالمال ، وكانت امه له بمثابة البنك الاهلي" . (٣)

ووصل الى الكويت ومكث زهاء السنة هديفاً حنيماً واستشارا لابن امير الكويت آنذاك ، الشيخ فهد السالم الصباح ، الشاب الذي عرض عليه اطالة المكوث . انه كعرض مغرٍ أن يوقع كمال بيده على ما يشاء من امور . . وقام اغراءات المادة الزائلة الى اغراءات الوطن الخالد . وفي الكويت ، خلف هديفاً بكاه كمال بحرارة يوم لبي نداء ربه (٤) وعاد الى بيززيت يغرد في سريره فيشجئهم .

وشهد عام ١٩٥٤ دورة انتخابية جديدة حيث وجد كمال في تنكب النيابة موتعا أثنى ناعلية . فرشح نفسه عن قفء رام الله . وتدخلت أنامل القائمين على شؤون الانتخاب لتتمصر فئة على فئة فيستط كمال ناصر وسائر التقدميين والوطنيين .

وتابع نضالاته الصحافية بشكل مستديم في جريدة "فلسطين المقدسية" ومن ثم انضم مع بعض رفاق الصبا الى حزب البعث العربي الاشتراكي . (٥) وقد وجد كمال في الحزب منفذاً لخوض انتخابات ١٩٥٦ الجديدة ، كما وجد فيه من جيمته ، منافلاً شجاعاً جريئاً ، وشاعراً ذائع الصيت ووطنياً هبته النكبة وعجنته التجارب . . وجد في الحزب من اجسد رمن يمثله في المجلس الذي أراد الشعب ان يكون الأكثر نزاهة لكي يحقق ما لم يستطع السابقون تحقيقه من رنع كوابيس الانتداب العسكري والسياسي البريطاني عن الرقعة الاردنية .

حد - تجربته النيابية

وأصبح كمال ناصر في تشرين الأول ١٩٥٦ حين تشكلت حكومة وطنية شهد بمنزاهتها ونزاهة الانتخابات معها . وعملت المواقف المشرفة للمجلس النيابي الوطني الجديد على

١- سنتعرض لهذا العمل في الفصل الأول من الباب الثاني .

٢- رأينا تحليل هذا الامر في الفصل الحالي .

٣- من عديك خاص مع عبد المحسن ابو موزر ١٩٧٥ ، ومن رسائل كمال للعائلة .

٤- يدل على هذا البكاء قصيدته "دمعة على صديق" في آثاره الشعرية ، ص ٢١٨ - ٢١٩ .

٥- سنتعرض للمحافة والحزبية اثناء الباب الثاني بفصليه .

٦- سنتعرض لهذا بالتفصيل في الفصل الأول من الباب الثاني .

إسقاط الاقنعة عن وجه الانجليز ليسبع أردية الشرف على الشعب العربي فيفخر هذا ويعرى أولئك ابرز عمل قامت به الحكومة الجديدة كان الغاء المعاهدة الأردنية البريطانية جملة وتفصيلاً مما عجل في عملية حبك مكائد بريطانيا ، لينهض النواب في اليوم التالي ما بين فريق ينترش السجن وفريق يلتحف السماء في شعاب الأرض . وكان آذار ١٩٥٧ بدء انهيار صرح الوطنية الجديد في الاردن . فتبخرت احلام كمال بإمكانية تحقيق آماله ومعتقداته بالنضال الديمقراطي المغيّر من خلال مؤسسات رسمية .

ووجد كمال نفسه متارياً من وجه العدالة التي تساوي بين القاتل والثائر المناضل .

ولم يكن أحسن عليه من صدرامه ووطنه ، فقضى أربعة عشر شهراً متخفياً في بيزريت لم بيت خلالها ليلتين في بيت واحد . ويقال (١) : ان العسكر عرفوا به وداهموا البيت والكلية مرارا فلم يظفروا به . الا ان احساسه بجلب المضايقات لأهل قريته مما يحملهم الكثير في سبيله ، دفعه إلى ان يفتدي شعبه قبل ان يفتديه شعبه . فترك بيزريت وأهله الى نابلس حيث أمضى اربعة اشهر . وأحس بالضيق من التخفي والتهرب والشك الفكري فعبر الى سوريا عام ١٩٥٨ .

ط - شهادته للصراع العربي

وشهد مولد الوحدة مع مصر كما شهد عام ١٩٥٩ ، بوادر خلاف وانشقاق في حزب البعث المتحد مع مصر ، وكان له في خضم الأحداث موقف مبدي يتلخص في تقديم الوحدة الشاملة على النزعات الفردية في الحزب . (٢) قضى مدة طويلة هناك حتى وقوع التصدع التاريخي الكبير بالنضال سوريا عن مصر ، فغادرها الى مصر . ولم يعد الى سوريا الا عام ١٩٦٣ بعثيا مرموقا وشاعر الحزب المفقوه والمعبر عن آماله غداة ان تسلّم الحزب مقاليد السلطة العليا . ولكن الامور لم تسر سيراً حسناً بالنسبة للحزب ، فحدث في صفوفه من الاقتتال (٣) وبروز مراكز قوى متنافسة داخله ، مما أدى قلب كمال فاعتبره في حينه خيبة العمر . كان بوسعه الرجوع الى الأردن والبقاء فيه إثر صدور العفو العام عن الحكوميين السياسيين عام ١٩٦٥ ، ولكنه آثر سوريا حيث يمكنه النضال بحرية يوفرها له الحزب .

وطلع الفجر ذات يوم من عام ١٩٦٦ على كمال ناصر يساق مع رفاق له الى المستقل وعلى أنغام احدى قعائده تغنى بمعانيها السامية محطة الاذاعة (٤) وظل يعيش تحت وطأة التابوس الطويل في قصر الضيافة تحت الاقامة الجبرية الى أن ادعى ألماً في معدته يستلزم نقله الى المستشفى مخفورا . وهناك ، حزن لمرضه الحاكامان : المخلوع والمستجد على

1 - H. Salaam..., (OP. Cit.) p. 16.

١- كان الى جانب القيادة الواحدة بقيادة ميشال عفلق وصالح الدين البيطار .
٢- حصل الاقتتال يوم ٢٢ شباط ١٩٦٦ بين قوى داخل الحزب لتسلّم مقاليد رئاسة الدولة .
٣- من حديث خاص مع الاديبه كوليت خوري في دمشق ١٢ / ١١ / ١٩٧٧ . قاد الانقلاب صالح جديد ونور الدين الأناسي وأطبع بالرئيسين امين الحافظ ومحمد عمران عام ١٩٦٦ .
٤- اعتقل مع كمال ، المحامي جبران مجد لاني وبعثيون آخرون .

السواء . أما هو فقد كان المستشفى منفذاً الوحيد الى الحرية ، فهرب منه إلى بيت أحد أصدقائه ليسير مع الدليل ، فيما بعد ، اياماً يضيّعان فيها الطريق قبل الوصول الى لبنان . (١)

شهدت حياته أربع نكبات بدأت بهجرة ١٩٤٨ ، ثم استيلاء الأردن على القسم المتبقي من فلسطين خارج الاحتلال ، ومطاردة الاردن للوطنيين واعتقالهم ، ثم القضاء الأخير على حلم الوحدة بين مصر وسوريا . وما لم يستطع كمال البعثي تصوّره ، كان تناحر أقطاب حزب البعث الذي علّق عليه آمالاً عظيماً منذ انتمائه اليه عام ١٩٥٦ .

ي - الاغتراب القسري

ومن لبنان الى باريس عام ١٩٦٦ . وصلها قلقاً ينشد الراحة . قد تصلح باريس لعاشق يتناسى ولكنها ليست لمن ضيّع الناس وطنه ويريد وطنه . . . هي المنفى الكبير الذي راح يستعيد به من المفرطين بوطنه فكان لجوؤه محاولة هروب من الآلام ليستشعر ، ولو للحظة واحدة ، مذاق الفراغ والهدوء . ولكن أتى له ذلك وهو القومي العربي الملتزم بقضايا شعبه وأمته ، المناضل الذي وقف قلمه وحياته على تحصيل حقوقه ! وهو عندما أراد العيش في باريس حياة اجترار التاريخ واستجداء الفرار:

"باريس لا تدري بأني ههنا

أجترتاريخي وأستجدي الفرار

دوامتي اتسعت وعمّقتها الأسى والإجترار" (٢)

وهدد نفسه يعيش غير حياة المناضل الحقيقي ، حياة المناضل من خارج أرض الصراع ، يعيش "مسترخياً حول تماثيلها
وسرّت في أحشائها طويلاً
في الحقيقة وكان الى باريس لاجئاً سياسياً مرغماً في حين كانت كل الطيور المغرّدة باسم الحرية تمنع من التحليق فوق بساتين اوطانها المثقلة أغمانها .

وكانما لا يكفيه اغترابه الجسدي ، فنسمعه يردد في مواضع عدة سرّ عودته الى

المنفى الاختياري ، الى باريس :

أجترأيامي التي عشتُ . . .
حالي كحالك ان تساقطت . . .
جرح بدنياه تمزّقت . . .
حيران ، لا ظلّ ولا بيت . . .
فهجرت له لما به متّ " (٤)

"قد عدتُ يا باريس قد عدت

باريس يا قديسة سقطت

ورجعت يا باريس يحملني

سأمان ، لا أهل ولا وطن

وطني الذي مات الوجود به

١- كولييت خوري ، الحديث السابق .

٢- قصيدة "انتظار" الآثار الشعرية ، ص ٣٧٩ .

٣- قصيدة "ما أروع الشاعر ما أبراه" المصدر نفسه ، ص ١٢٧ .

٤- المصدر نفسه ، أبيات متفرقة من صفحة ١٢٣ - ١٢٦ .

وكما لباريس الجأه سرّ ، فالذي أفزعه منها كذلك سرّ . فأبي سرّ اكتشف فيها ؟ يقول :
باريس حبلى بالسجانين الصغار
وبالكبار

فمضيت في جنباتها
بالوهم أنتعل الحوار
لأقابل الدنيا بوجه مستعار
لا شيء يربطني بأعماق الوجود المستعار^(١)

لهذا ، نعم باريس قطع الحوار وألقى جانباً الوجه المستعار . . . وعاد بجسده العاري السى
ثيابه العربية الرثة ، فهي ، في بلائها ، أكثر سترًا لعريه من حرير باريس الشفاف . عاد كمال
المرتبط جذعه بجد ورضارية في أعماق الوطن الكبير ، ففيه لا تقتلعه العواصف ، بينما في
باريس تحرقه الأنسام الرقيقة .

وحمل ما خفّ حمله من أوراق مثقلة بأحلى القصائد والأعمال التي تمخض عنها في
باريس ، وطار قاصداً بيرزيت وهو يقسم بأنه لن يغادرها ثانية .

ك - عودته قبيل احتلال ١٩٦٧

لم يطل به المقام طويلاً ، بعيداً عن هدم الحزب ، وممّياً النفس بمتابعة النضال من
المنطقة الأقرب الى الهدف ، حتى فوجيء في نهاية ١٩٦٦ ذاتها بالجيش الاسرائيلي يغزو
قرية السّموع^(٢) الآمنة فيستبيحها لساعات دون أن ينامرها الجيش الوطني ولا هي تستطيع
الدفاع عن نفسها ، وهل يقاوم الأعزل مدججاً ! كردّ فعل مباشر لهذا الغزو الذي اتخذ طابع
الاجتياح ، راح كمال " السانج " مع رفاق له في وفد لمقابلة الملك حسين طلباً للسلاح^(٣) وذلك
استعداداً لمجابهة مماثلة قد تنشأ فيما بعد ، فتبين لهم ان ضعف الأوطان هو من ضعف
الايمان . وبعد أشهر قليلة كان لهزيمة حرب حزيران ١٩٦٧ وقع موجع بدأ امتداداً طبيعياً
لما أصاب النفوس من اجتياح السموع وقد وقع ما تخوف منه كمال ورفاقه إن بقيت أيدي الشعب
عزلاء من أسلحة الدفاع عن النفس .

وسط الاوضاع المتفجرة والاحداث المتواترة ، كان لا بدّ من أن يكون للشعب عامة
مواقف محددة ازاء أزمة المصير . لم يكن العاديون من الشعب الفلسطيني أقلّ حقدًا على
العدو ، ولا أضعف نفوساً لمقارعتة من الطبقة المثقفة . ولكن مستوى الوعي الرفيع عند
المثقفين كان يفرض عليهم الأخذ بتلايب الامور لكي لا يفلت الزمام والى الأبد .

ل - نضاله الوطني ضد الاحتلال

ولمّا كان الاستعداد النفسي عند كمال ، وممارساته السابقة مما يشهد لها ضد كل
معادٍ لارادة الشعب ، فلا غرابة أن نراه بعد ايام قلائل من وقوع الاحتلال ،

١- الآثار الشعرية ، ص ٢٨١ .
٢- السّموع قرية عزلاء كسائر اخواتها ، واقعة في الضفة الغربية لنهر الاردن بمحاذاة حدود
الاحتلال الصهيوني . فواجب حمايتها اذن واقع على الاردن الذي لم يقم بواجبه .

أحد ضباط الاتصال^(١) العاملين في لجان تشكلت من المدن والقرى الفلسطينية لمقاومة الاحتلال حيث كانت البذور كامنة بانتظار قطرة ماء ٠٠ كمال ناصر ينتظم تلقائياً في صفوف المقاومة الشعبية صاحبة المواقف السلبية من الاحتلال ، يدفعه الى ذلك ما ألفه من الجبن الصهيوني على الصعيد الفردي والساعد الذاتي . كان يتمزق عندما يتخيل نفسه امام جندي صهيوني سيقف امامه إن عاجلاً أو آجلاً . لقد اعتبر نكسة حزيران رصاصة "يا الهي ، لما اذا لم تقصر عليّ تلك الرصاصة التي مزقت بعض شرايين جسدي" ^(٢) رصاصة تنقذه بالموت من ذل الحياة الجديدة . لشدة ما ألمه مشهد "شيوخ البلدة ، شبابها ، نساءها ، اطفالها واجمونها ٠٠٠ حدقت في عيونهم جميعاً الا الاطفال ، وحدهم كانوا يحدقون في وجهي وفي ظمري وفي صدري ، وكنت أهرب من نظرات عيونهم ، اهرب من خناجرهم التي كانت بلا وعي تطعنني في كل مكان من جسدي وروحي ووجداني وعقلي ٠٠ كيف اهرب من هذه العيون؟ كيف؟ ما زلت حتى الآن لا استطيع" ^(٣) فأى معنى لجمال الطفل ان لم يكن ذا حلم وردّي ! لأجل احلام الاطفال الوردية ، وعيون النساء ، وكرامة الشيوخ من ابناء شعبه ، يصارع البطل ، ولاجلهم جميعاً يقرر ان يدرع الوطن طولاً وعرضاً وعمقاً ، يكتحل بروءياه التي حرم منها طويلاً ، ويقف امام عدوه وجهاً لوجه وقفة السيد المسيح امام ابليس . كان يؤمن بوجوب التسرف الى العدو وعن كتب ، فاتخذ قراراً مع خمسة من رفاقه يقضي بالمكافحة تحت شعار الكفاح السلمي وباسم مجموعات رام الله " ولقد استمر العمل في السرية مدة طويلة قبل ان تخرجه منظماً الى العلنية" ^(٤)

كانت مفاجأة لكامل بعد ذلك حين وجد ان بعض رفاقه في المجموعات قد سبقه الى الكفاح المسلح ملتزماً بفصيل منظم ٠٠ "كانت هي المرة الاولى التي أسمع فيها بوجود التنظيم المسلح داخل الوطن المحتل ٠٠٠ يعمل منذ ١٩٦٥ في الداخل والخارج" ^(٥) بينما هو يناضل من خلال التزام مبدئي فرضه عليه وعيه السياسي وحسه الوطني .

وأبحر كمال في الوطن الطمحين ووصل القدس ، فوجد املاك العائلة في "الشيخ جراح" ما زال يديرها احد اصدقاء العائلة وقد سجله من قاطني القدس ^(٦) ليتسنى له التجوال الحر فيها وفي سائر اجزاء الوطن . وسار في الأراضي المحتلة منذ ١٩٤٨ يقبلها بناظره ، والشاطيء الجميل استعذب ماءه ، والتقى بالمناضلين من حركة الأرض وعمال المهانع العرب ، وبالجزبيين الشيوعيين ، وبالسكان العاديين الذين تأسره بساطتهم وعفويتهم . يحدّثنا كمال في مذكراته فيقول : "كانت رقعة الشطرنج دوماً جاهزة لتبسط في

- ١- الآثار الشعرية - مذكراته ١٥ حزيران ١٩٦٧ ، ص ٢٧١ .
- ٢- نفسها ٢٠ حزيران ١٩٦٧ ، ص ٢٠١ .
- ٣- نفسها ٢٠ حزيران ١٩٦٧ ، ص ٢٠٢ .
- ٤- نفسها ٢٢ تموز ١٩٦٧ ، ص ٢٠٨ وما يليها .
- ٥- نفسها ١٧ تشرين الاول ١٩٦٧ ، ص ٢٥٤ وما يليها . ومن رفاقه آنذاك من تتوم اليوم على اكتافهم اعباء الكفاح المسلح الفلسطيني .
- ٦- المصدر السابق - مذكراته ١٠ أيلول ١٩٦٧ ، ص ٢١٨ - ٢١٩ .

مثل هذه الحالات ^(١) تغطية للهدف الحقيقي من وراء الاجتماع اذ ا ما أحسوا بمقدم انسان غريب . ولم يكن العمل سهلاً ، وعبء العذر والمحتل أشد اتساعاً من عيني هـرفني قلب الظلام . لا التحرك الفعال كان سهلاً ، لا ولا نظرات البؤس ومرارة الخيبة كانت لترتد عن عيني كمال وقلبه . تلك المشاهد كان يقول عنها الشعراء انها تحرك قلب الصخر ، فكيف بها ، وما عساها تفعل في قلب شاعر!

أراد كمال أن يرى في أيام ما حجبت رؤيته منذ آلاف الأيام ، فقُرئ عرفها وقرى لم يعرفها لتغيير معالمها . ورأى في الناصرة ، من هول ما رأى ، أي منقلب انقلب اهلها بعد حرب ١٩٦٧ حيث أن " بعض العائلات اليهودية كانت تطلب الحماية سلفاً من معارفها العرب ، وكان السكان العرب على حد زعم النسوة ، يطمنون اليهود ويعدونهم بالحماية في حالة وصول جمال عبد الناصر . " ^(٢) وفي طول البلاد وعرضها إجماع مطلق على رفض هذا الاحتلال بأي شكل . كمال ناصر المستطلع في عملية سباق مع الزمن بعد أن راح المحتل يطرد المثقفين " الخطرين " الواعين إلى شرقي الأردن .

أهم شخصية صهيونية التقى بها كمال أثناء تجواله كانت موشي ساسون . كل الموازين انقلبت وقد رفع ساسون عقيرته بعنجهيته يطاول بها السحاب ، فتذكر كمال آنثذ ، قادة العرب في حزيران . ولم يحقد عليهم لأن " سياط بني قومي في هذه اللحظة بالذات أرحم من كلام هوؤلاء الكلاب . . . يا حبذا لو يمر بعض المسؤولين العرب بهذه التجربة ، ربما تحرك فيهم شيء ، ربما أحسوا بالخطر . " ^(٣)

عندما قامت الحكومة الاردنية عام ١٩٤٨ بتسليم المثلث الى الصهاينة ، كان كمال ناصر ^(٤) يحضر تلك الوليمة " بصفته صحافياً ، فهاله ما رأى وما سمع . وكان كل ذلك معبئاً للطاقة .

وتطورت اساليب المقاومة في مناهضة الاحتلال وراح بعض الوجهاء المشهود لوطنيتهم واخلاصهم ، يعمل سراً وعلانية مما اضطر سلطات الاحتلال الى إجلائهم ، أحياناً الى شرقي الأردن وأحياناً الى اقاصي البلاد بدون تمييز بين ذوي المراكز الرسمية او ذوي الحصانة الدينية .

كان كمال يؤمن بضرورة العمل سراً بالنفس الطويل لئلا يتعرض للطرد خارج الارض ، وحيث يخف تأثيره على الجماهير ولا سيما أن أمره ما يزال مكتوماً . لاجل هذا رفض " فلا فائدة من التعاون مع الوجهاء " ^(٥) لأن العدو وشرس لم يتوَّع عن نسف البيوت بمن فيها ، فما باله ازاء حاجز بسيط في دربه لا دعامة له .

-
- ١- الآثار النثرية - مذكراته ٢٢ تموز ١٩٦٧ ، ص ٢٠٩ .
 - ٢- نفسها ١١ تشرين الأول ١٩٦٧ ، ص ٢٤٢ .
 - ٣- نفسها ٢٢ تموز ١٩٦٧ ، ص ٢١٢ .
 - ٤- نفسها ١٠ تشرين الأول ١٩٦٧ ، ص ٢٣٨ . (أخطأ الكتاب فقال ١٩٧٢ خطأ مطبعياً) .
 - ٥- نفسها ٢٠ تشرين الثاني ١٩٦٧ ، ص ٢٦٧ .

انقضت أشير على الاحتلال المقيت ، والمؤمنون بقدرة الشعب مكبون على العمل ليل نهار . خلال ذلك ، كان العدو يفتح العيون الجديدة في كل قرية ومدينة . ووقف الشعب ، بعد أن طال عبيره ، ما بين رب عادل يثيب في الآخرة ، وحاكم ظالم يعاقب في الحياة الدنيا . وكما كان من الشعب من آثروا رحمة الحاكم الجائر ، فقد كان هناك من آثروا عدل ربهم يوم الحساب أيضا ، فسقطوا واحدا واحدا في جوار ربهم . . . واختلف مصير كمال ناصر عنهم وإن انتهى كما هم فيما بعد .
ومن خلال خبره في " الفردوس المفقود " ، عرضت له امور شتى ، يذكر منها ايقاف شرطي سير بولوني يهودي له في القدس ، وحالما تحقق كمال من شخصيته رفض الاعتراف به الا محتلا لا حق واجبا له على اهل البلاد ، ولم يجد ما يقوله لدى انعقاد المحكمة سوى تكرار عدم الاعتراف نفسه . . . فترك بضمانة . (١)

م - إبعاده الى شرقي الاردن

ويوم الثالث والعشرين من كانون الاول ١٩٦٧ اعلن راديو العدو نبأ اعتقال كمال ناصر و ابراهيم بكر ليلاً وإبعادهما الى شرقي الاردن . يقول احد اصدقاء كمال (٢) : سمعت بالخبر ، ولكنه فاجأني وجود كمال نفسه في سيارته الخاضعة يتجول في القدس حرراً طليقاً . فأشرت عليه باللجوء الى السفارة الرومانية في تل أبيب ، وهي السفارة الشرقية الوسيطة فرفض ، ورفض كذلك اللجوء الى الفنزلية التركية . . . وشعر بأنه انتهى في الداخل ، فرأى ان يكسب دقائق الوقت القصير وثوانيه قبل ان يسلم نفسه الى حاكم القدس العسكري الذي سيبعده الى الاردن ، وفي رأي كمال انه يستطيع متابعة نضاله خارجا بعد أن اصبح العمل في الداخل تحت مجهر العدو .

عن الإخراج يقول ابراهيم بكر : " ثاني يوم وصولي الى عمان ، وصلها المرغم كمال وتبين ان قوة أمن اسرائيلية مماثلة ذهبت الى منزله للقاء القبض عليه في ذات الوقت الذي جرت فيه مدهامة منزلي لخرض إبعاده . (٣) وطويت صفحة صغيرة نوعاً ، لتفتح بعدها صفحة جديدة أكبر ، وذلك بخروج كمال الى الوطن العربي الكبير قبيل ليلة الميلاد .

ن - نشاطه الوطني في بعثة إنقاذ القدس

ووجد نفسه في الأردن بين رفاقه يشاركونهم الفضال ويساعد في تكوين لجنة انقاذ القدس تنشط عربيا وعالميا ضد الاجراءات الصهيونية لتهويد القدس . ومن ضمن بعثتها كان له لقاء مع قداسة البابا بولس السادس في الفاتيكان . احد رفاقه ، الأب ابراهيم عياد ، يقول : (٤) تحدت الينا قداسة البابا عن شعوره تجاه الشعب الفلسطيني وتألمه لآلامه ، وأنه

١ - H. Salaam..., (OP. Cit.) p. 23.

٢ - Idem. Ibid. (p. 25).

٣ - من رسالة جوابية خاصة التي بتاريخ ١٤ / ١١ / ١٩٧٢ .

٤ - من حديث خاصر مع الاب عياد عام ١٩٧٥ ، ومن ضمن البعثة كان المحامي ابراهيم بكر .

كان مرتاحا لوضع القدس تحت الادارة العربية قبل ١٩٦٧ ، ولكنه ، من مركزه الديني ، يستطيع فقط ان يتكلم ويبدى شعوره وتضامنه . . . ولقد استبقى كمال ناصر عنده اكثر من نصف ساعة . . . وهذا تكريم لم يكن يحظى له يومذاك كبار الرسميين والكرادلة .
وانطلقت البعثة الى بلاد اخرى ، فزارت بريطانيا وكان كمال فيها ندوات واتصالات .
وشعر قادة المقاومة ان كمال ناصر حبة زيتون مترعة يمكن اعتصارها أكثر ، فضمّ عضوا الى اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية ومسؤولاً للتوجيه والاعلام ، وناطقا رسميا باسم المنظمة .
كان ذلك في شباط ١٩٦٩ يوم تسلّم رجال الثورة وقادتها زمام قيادة المنظمة فحولوها من مكاتب سياسية الى خنادق قتالية مع الاحتفاظ بحقيقة أنّ رصاصة البندقية تخدم في النهاية فكرة سياسية . لقد كانت عملية تثوير المنظمة ضرورة تصحيحية .
س - في منظمة التحرير الفلسطينية

في هذا المجال الحرب باشر كمال عمله الذي يرتاح اليه ، ولو أرقه . وحضر سنّتذ مؤتمرا القمة في الرباط . وفي السنة التالية هبّت على المنطقة "الرياح الغربية الصفراء" حاملة "مشروع روجرز" (١) ، فانبثقت المقاومة الفلسطينية تتصدى له بمختلف اساليب العنف الثوري وخاصة لأنه ينظر الى الفلسطينيين كلاجئين ذوي مشكلة وليسوا كشعب طرد من وطنه ظلما . فكل تسوية كهذه تتم على حسابهم . وأدت موافقة الأردن على المشروع الى تضخيم اخطاء الثورة واعتبارها خطأيا مميتة ، وأغلقت مصر اذاعة الثورة من على أراضيها ، وضيّقت الخناق على الفلسطينيين . ثم كان الصمت العربي المشبوه عندما باشر الاردن عملياته العدوانية في صيف ١٩٧٠ لتجريد المقاومة من سلاحها القوي . عندئذ شكّلت القيادات المقاتلة قيادة موحدة لتضبط امور صراعها مع المنهزمين ، وكلف كمال ناصر بمهمة النطق الرسمي باسمها في شباط ١٩٧٠ ، كما أصبح اول فلسطيني ينتخب رئيساً للجنة الدائمة للاعلام العربي . وفي حزيران ، عضواً في هيئة الأمانة العامة لحركة المقاومة (٢) . وفي آب ، متحدثاً رسميا باسم اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير .

ع - شهادته لمجازر الأردن بحق الثورة

استيقظ الناس صبيحة ١٦ أيلول ١٩٧٠ في عمّان ومخيمات "اللاجئين" على أزيز المدافع وصخب الرصاص . النظام يذبح المقاومة الفلسطينية بصمت ، والزعماء العرب يزعمون استنكارهم لذلك ويرسلون وفود الاستطلاع وجمع الحقائق والتوسط . فما انقضت اسبوع المجازر

١- تقدّم به ويليام روجرز وزير الخارجية الاميركي في حكومة نيكسون (١٩٦٩) الى كل من مصر والاردن واسرائيل والاتحاد السوفياتي عارضا تسوية تضمن الانسحاب الاسرائيلي من الاراضي المحتلة وتعهد عدم قيام اية دولة باعتداء ضد الاخرى . وتعهد بمنع قيام اية اعمال عدوانية من على اراضي مصر واسرائيل سراء حكومية ام منظمات . واعلان حدود آمنة معترف بها والاتفاق على تسوية عادلة لمشكلة اللاجئين . وانسحاب اسرائيل من قطاع غزة ومن الضفة الغربية ورسم الحدود . ويكون للقدس وضع خاص بحيث تتوحد للجميع .
٢- اليوميات الفلسطينية ، المجلد ١١ تاريخ ١٦ حزيران ١٩٧٠ ، ص ٥٤١ .

الا وكانت وساطات الزعماء قد تمخضت عن اقتلاع المقاومة من قلب الأردن، كما لو انها جسم غريب عن الجسد العربي .

خلال معارك ايلول ، ارتأت اللجنة المركزية لحركة المقاومة اسناد مهمة الناطق الرسمي الى ابراهيم بكر لمتابعة تنفيذ اتفاق القاهرة بشأن الازمة ، وذلك لبعده كمال ناصر عن قلب الاحداث .

وفي آذار ١٩٧١ قدم كمال استقالته الى اللجنة التنفيذية فرفضتها . وعاد لمزاولة مهماته كلها كما أعيد انتخابه عضوا مستقلا في اللجنة التنفيذية والتي كانت تستقطب أعضاء المنظمات المقاتلة الى جانب القوى المستقلة عنها ، الملتزمة بالقضية المصرية الكبرى . بعد معارك ايلول ، كان الرد العربي أن يضمنوا سلامة المقاومة وحرية حركتها اذا هي حشدت قواها في احراج الاردن الشمالية دون المدن . ولا اعتبارات كثيرة ، فعلت المقاومة ذلك على أساس أن وعد الحردين .. ولكن عاملنا العربي الذي نكب بحرياته ، لم يستطع ان يأتي حراكاً عندما استمرت عملية التصفية في الشمال . وكان ان قصفت جميع المخيمات وقواعد المقاتلين .. والناس ، أطفالاً وشيوخاً ورجالا يدبّحون ، تشقّ صرخاتهم كبد السماء وما من منقذ .

تباً له من زمان يوءخذ فيه الحاكم بحدّ السيف فلا يواجه بحدّ سيف ، زمان فقدت فيه " وامعتصماه " رونتها فكيف تُسمع " وافلسطيناه " ! زمان يخرج فيه أهل مخيم " البقعة " لاجئين ثانية باتجاه العدو والصهيوني الذي قد يرحم أكثر من الأخ العربي . (١) ذلك كان ينزق كبد كمال ناصر شرمزق وقد غدت المقاومة بعيدة عن أرض الهدف بعدما كانت على خطوط التماس معها . قبل المقاومة كان جنود الصهاينة يستحمون نسي مياه نهر الأردن ، ومع المقاومة اصبحت رؤيتهم مستحيلة .

ف - بدء نشاطه في لبنان

وفي لبنان ، كلّف كمال ، الى جانب مسؤولياته الأخرى ، بمهمة الاشراف على تكوين اتحاد للكتاب والمحافيين الفلسطينيين . فنجح في ذلك . كما بدأ في الخامس من حزيران ١٩٧٢ مهمة تطبيق الوحدة الاعلامية بين فصائل المقاومة . وتبعاً لذلك أصدر في ٢٨ حزيران ١٩٧٢ ، العدد الأول من مجلة " فلسطين الثورة " مختاراً تسميتها وقد أرادها تليق بمستوى الشعب المناضل وهي تتحدث باسمه وباسم جميع فصائل المقاومة . ولم يمهل القدر زميله ورفيقه غسان كنفاني ، رئيس الدائرة الاعلامية في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، ليعيشها سعادة تحقيق الوحدة الاعلامية تمهيداً لتحقيق الوحدة الوطنية .. حلم كمال .. على مختلف الأصعدة . فكان ان اغتالته الصهيونية في بيروت يوم الثامن من تموز ١٩٧٢ . كما جرت بديد ذلك محاولة ثانية لاغتيال بديل غسان ، بسام أبو شريف ، المسؤول الاعلامي في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين .

أ- عند اشتداد الحمار آثر الناس الخروج جماعيا قاصدين الأرض المحتلة طلباً للنجاة .

كان الاغتيال والمحاولة محطة توقف عند ها كمال لينظر الى المستقبل ببصيرة أقوى . هل هذه أول حلقة من السلسلة فعليه ان يحذر ؟ هل هذه مؤامرة صهيونية التخيط عرية التنفيذ ؟ كل شيء يزعم كالسيوم محدراً ولا سيما أن العام الجديد قد يحمل في طياته مفاجآت غريبة ، من جملة التحديات التي تتراكم في وجه الثورة . . من قبل كانت عملية ايلول الاسود^(١) التي القاهرة ثم في ميونيخ ، واليوم عملية جديدة لها في الخرطوم^(٢) وغدا ، ماذا يخبئ الغد ؟ كل الامور تشير الى احتمال وقوع شيء .

ق - تناقض المهمة مع الحياة

كمال ناصر انسان يحب الحياة هادئة طبيعية يعب من ينايعها ما لء وطاب .. كان يعطي حراسه اجازات طويلة كاذبة او يقول لاصدقائه: لا وقت عندي . . اليوم لي . شهد مصر غسان كنفاني . وكان اتهام العدو وكمال صريحا حول مسؤوليته في اغتيال ايلول الاسود " للقاءم بالاعمال الاميريكي في السفارة بالخرطوم تبيل استشهاده هو . وكان يعرف انه من رجال الطليعة ، ورجال الطليعة عادة يدفعون الثمن غالبا . يعترف بذلك منذ كتب الى ابن اخته " . . . ليس من الضروري ابدأ أن تكون من رجال الطليعة لأن ذلك يكلفك كثيرا من صحتك وشبابك واعصابك . " ^(٣)

انرسقوط غسان ، قال كمال : انها قضية وقت وسيأتي دور حتما . وبعد عملية الخرطوم قال يوم السابع من نيسان ١٩٧٣ : " رؤوسنا مطلوبة . . هل تستطيع طائسرة هليكوبتر الهبوط امام هذه الساحة (يقصد ساحة بيته) ؟ ان الدم الاميريكي على السجادة السعودية في الخرطوم لن يكون بلا ثمن . . لم الطائرات وجواسيسهم في كل مكان ؟ " ^(٤) كان كثير التساؤل فيما اذا كان مستهدفاً ، ولكنه يعزى النفس ، يقول : اذا حصل شيء لفلان و فلان - من قادة المقاومة - فسأخذ الاحتياطات . أمعقول أن يضربوا الاماكن السكنية ! ^(٥)

كان نائرا يريد الجمع بين حياة النائر و حياة الرجل العادي ، وهذا الجمع لا يصيبه التوفيق بتاتا ويتنافى مع أبسط قوانين الثورة : السرية والحذر . كان يريد ان يعيش حياة

- ١- منظمة فدائية فلسطينية سرية ظهرت بعد مجازر ايلول ١٩٧١ في الأردن ومنها اتخذت اسمها . برزت بشكل خاص بعد عملية اغتيال وصفي التل رئيس الوزراء الأردني ، في القاهرة في ٨ تشرين الثاني ١٩٧١ التي قام بها أربعة من اعضائها . ومن أشهر عملياتها عملية ميونيخ في صيف ١٩٧٢ حيث نفذت حكم الاعداء برياضي اسرائيل الى الدورة الاولمبية هناك معتبرة اياهم جنردا في جيش العدو والعدو الذي يتخذ كل رجال محتتمه احتياطاً .
- ٢- في مبنى السفارة السعودية بالخرطوم ، نفذ الفدائيون انفسهم حكم الاعداء في القنصل البلجيكي والقاءم بالاعمال الاميريكي سنة ١٩٧٣ .
- ٣- رسالة الى ماهر بتاريخ ١٥ / ٩ / ١٩٥٧ .
- ٤- حنا مقبل . ذكريات عن الشهيد كمال ناصر (ترنس : منشورات الاتحاد العام للكتاب والصحافيين الفلسطينيين ، ١٩٧٦) ، ص ٩٠ .
- ٥- من حديث خاص مع الصحافي فريد الخطيب بتاريخ ١٩ / ٢ / ١٩٧٦ .

عريضة مترفة واصفا نفسه بالبورجوازي الثائر^(١) لذا ، كان يشاهد العروض السينمائية كثيراً . وفي الآونة الأخيرة انتابته الهواجس وهو ذو الحس المرهف ، كان ذات يوم " يشاهد عرضا عن اضطهاد الاميركيين للهنود الحمر السكان الاصليين ، فوقف في القاعة خطيباً يقول : نحن ، نحن الهنود الحمر ، واسرائيل والغرب هم اميركا ويضطهدوننا ."^(٢)

ر - القلق النفسي

كانت تتتابه الهواجس في كل مكان . . . فكان اذا جلس الى بعض اقربائه ، وضع مسدسه جانبا فيسألونه اذا كان يجيد استعماله . . . كان يهرع الى الشرفة مرارا ويشكّل " دراما تيكي " يراقب سيارته خشية ان يمييه ما اصاب غسان . . . كان يعرف بملاحقتهم له .^(٣) وكان القلق النفسي قد استبد به . . . لم يدفعه الى كره الحياة ، انما هو يأس يظهر أحيانا قاتلا . . . ولكن الرجل هو الذي يحول اليأس عذما وان لم يخرج عن كونه بشرا . تروي احدي قريباته^(٤) انه كان في السينما يجلس الأخير ، يراقب في الظلام تحركات الناس تحسباً . . . احد المشاهدين جاء يفتش عن مقعد به نور اندكس على وجه كمال فوقف شاهرا مسدسه . ثم انه شاهد على الشاشة ممثلا يطلق الرصاص على بطنه فيتألم بيضاء ويقضي . . . في البيت قال كمال متألما : حرام ، هذا الذي مات كذلك قد توجع كثيرا . . . انا لا اريد أن أموت كهذه الميتة .

ش - اشتعال الضوء الأحمر

وذات يوم حملت اليه يد أمينة رسالة بالحبر الأحمر من القصر الملكي في عمان ، وقد خلت من التوقيع . فيها : حصل اجتماع مع السفير الاميركي ، وحضرته . . . الجماعة وراءك وسينالون منك .^(٥) وتقبل استشهاده أيضا ، جاء من يقول له ، وقد رفض كمال الإفصاح عن اسمه ، انه مطارذ . لذا فعليه الاختيار أو البعاد عن المقاومة . . . لكمال ، كان ذلك تخييرا بين الموت بشرف أو الموت بذلة . . . وقد اختار . وسط هذه الامواج المتلاطمة ، استقبل كمال حبيبته الاولى والأخيرة . . . أمه ، في بيروت ليقتضي اسبوعين بمعزل عن أي صديق يستمتع بكل لحظة من حضورها تثرى ، أكان يدرك دنو أجله فكان كالطفل يستريح في حضنها الانسان الذي لم يسترح في حضن الارض كلها !

- ١- من حديث خاص مع سلفيا ناصر بتاريخ ٢١ / ٢ / ١٩٧٦ .
- ٢- الحديث نفسه .
- ٣- من حديث خاص مع فيوليت ناصر بتاريخ ٢٣ / ٢ / ١٩٧٦ .
- ٤- سلفيا ناصر ، الحديث السابق .
- ٥- فيوليت ناصر ، الحديث السابق .

ما أكثر اصدقاءه ومحبيه ممن يتلهفون لمقدمه! كان كمال يحمل ورقة بيضاء تخوّله
حق اقتحام القلوب والأبواب الموصدة مهما قست . ففي مطلع نيسان ١٩٧٢ كان يقول مازحا
لصديقه في جريدة النهار^(١) : اذا متُّ غداً ، هل تضعون نبأ موتي في "مانشيت" ؟ اذن ،
فليمت الجميع ، وأنا أرثيهم لانه اذا مت فلن اجد أحدا يرثيني .
لهذا ، جلس ليلة الاثنين ٩ نيسان قبيل منتصف الليل ، يكتب قصيدة ليلقيها في
مهرجان تكريم الشاعر اللبناني امين نخلة . . . وحتى هذه اللحظة لم تكتمل القصيدة . وهو
كان في المساء قد اتصل برئيس الوزراء اللبناني بغية الالتقاء صباحا لضبط امور معينة . . .
صباح الثلاثاء ١٠ نيسان أيضا كان مقررا ان يسافر الى قبرص لتسوية الامور بعد
حادثة سف السفارة الاسرائيلية واطلاق النار على طائرة ركاب اسرائيلية في مطار نيقوسيا .
معهه الأكبر كان مع اطفال العائلة يوم السبت ١٥ نيسان في الجبل ، ان قال
لهم : "عندي أشياء لكم فقط اريد أن أخفيها . . . وأدار وجهه جانبا مردفا : هذا اذا
ما صار شيء . . ." ^(٢)

ت - هكذا تملوه . . . وهكذا صلبوه

يوم العاشر من نيسان ١٩٤٨ نُقذت عصابات "الارغون" الصهيونية بقيادة مناحيم
بيغن ، مجزرة ديرياسين الرهيبة في نساءها واطفالها وشيوخها رغم انهم واتعون في
قبضة احتلالهم .
وعند الساعة الاولى من فجر العاشر من نيسان ١٩٧٢ ، وبعد خمس وعشرين سنة
من المجزرة الاولى ، كانت عصابات صهيونية أخرى قد دخلت لبنان بطرق مختلفة ، تتوزع
ما بين شاطيء بيروت الشمالي وشاطئها الشرقي وأحد أحيائها السكنية في القلب ، تقتل
وتدمر . . . البشر نائمون لا يعون ، واليقظون لا يقدررون ، والقادرون موثقون ، وأبناء الجلدة
مبعدون . . . وأمام المبنى الكبير وسط العاصمة ، كان هناك نمر من الحراس الضحيا بأسلحة
رمزية يقومون على حراسة ثلاثة من كبار قادة المقاومة : محمد يوسف النجار وكمال عدوان وكمال
ناصر . هرب لاء الحراس جردوا من اسلحتهم المناسبة بناء على طلب السلطات الرسمية مرة
بعد مرة . . . وتسلفت مجموعة ارهابيين المبنى الى الدور الرابع لتفتحه بقنابلها ورماسها
فتصرع مضيغة طيران ايطالية . . . لقد أخطأوا . . . وفتحوا بابا آخر ليصرعوا برصاصهم الغادر
طنلاً ينسج شعر الحب والحزبة ، وليطلقوا عشر رصاصات على فمه لإسكات لسان الحق الى
الأبد ، وليصلبوه كالسيد المسيح ويخرجوا يجرّ بعضهم جراهم التي أصابهم بها رصاص
الشهيد مدافعاً عن نفسه ^(٣) . وحده الذي قام ووجدت قربه رصاصات فارغة ، ذاك الذي
كان يردد دائما : اذا جاء المهينة فلن أهرب ولن أؤخذ أسيرا .

١- هو المحافي عبد الكريم ابوالنصر في حديث خاص معه بتاريخ ١٣ / ١١ / ١٩٧٤ .

٢- فيوليت ناصر ، الحديث السابق .

٣- اعترفت صحيفة "بأحانيه" في ١٨ أيلول بمصرع قائد العملية الليفنتانت بيغال .

وهكذا ، سقط الطفل الكبير فأذهل الناس جميعاً . كان يعرف ان " مصيره بين

الحراب " فمنذ البداية قال :

"ولدت أحمل جثمانى على كتفى

ولدت وأسفى . .

لا شأن لى بمجيتى او بميلادى

انا ضحية تاريخى واصفادى

اللعنة ، اللعنة الكبرى تطاردنى " (١)

وفى النهاية قال :

"أعلم اننى انتهيت . .

لم يبق من أحبه

ومن يحبنى

وانظفاً المصباح

لم يبق فيه زيت

فانتهيت

وانتصبت جريمتى تصلبنى " (٢)

كُتبت صحيفة النهار البيروتية (٣) : " ابو يوسف وكمال عدوان قتلا وقد تردّد

ان كمال ناصر اختفى وقد صدرت الطبعة الاولى من الصحيفة الساعة ١٠ ٣٠ صباحاً فلم

تتضمن اخبار الاعتداء ثم فى طبعتها الثالثة الساعة ١٠ ٣٠ ذكرت الشهداء الثلاثة .

وقد علّل العدو وغاراته على بيروت وبعض المناطق ، بأنها ردود على قيام الفدائيين بمحاولة

فاشلة لاغتيال السفير الاسرائيلي راحيم تيمور في نيقوسيا ؟ كما قامت فى الوقت نفسه مجموعة

اخرى بقيادة سيارتين داخل مدرج مطار نيقوسيا وأطلق الفدائيون النار على طائرة اسرائيلية

يوم ٩ نيسان ١٩٧٣ . (٤)

ولكن العدو ولم يستطع التبرير حقاً ، كيف استطاع القيام بوضع عمليات معاً فى اماكن

متفرقة خلال ساعتين ونصف فقط . وهل يمكن التحضير لهذه العمليات كلها خلال ٢٤ ساعة

نقط من عمليتي نيقوسيا وخاصة ان اسرائيل كانت تنوي تنفيذ عملياتها قبل العاشر من نيسان ؟

مالت اعتقادات المقاومة الفلسطينية الى ان الاسرائيليين لم يقوموا من الخارج بمفرد هم

فى ما حصل ، ولا بد من وجود عملاء لهم داخل لبنان لرصد الاهداف والتأكد من وجود

القادة كلهم فى منازلهم فى وقت واحد . وقد اتهم ياسر عرفات ، رئيس اللجنة التنفيذية

لمنظمة التحرير الفلسطينية ، المخابرات الاميركية بالتواطؤ مع المخابرات الاسرائيلية فى

١- الآثار الشعرية ، ص ١٩ .

٢- الآثار الشعرية ، ص ٤٦٤ وما بعدها .

٣- النهار ، ١١٧٢٠ (١١ نيسان) ، الطبعة الثانية (برجوى الينا بعد وقت

طويل وجدت هذه الطبعة بالذات غير محفوظة فى المجلات لا فى مركز الابحاث

الفلسطينية ولا مؤسسة الدراسات الفلسطينية ولا الجامعة الاميركية حتى ضمن

الميكروفيلم ، ولا فى مكتبة "النهار" نفسها .

تزويدها بالاسلحة الاميركية . كما هدد عرفات بالانتقام للشهداء^(١) وأكدت منظمة التحرير ان الاعتداء ليس خارجيا بل على ايدي المخابرات الاميركية وعملاتها في بيروت ، وتحركات المدد والعسكرية على الشاطيء وفي الجو ، كانت تنطية وتضليلا وقد هرب عدد من القتلة الى السفارة الاميركية في بيروت .^(٢)

وبنينا نتذكر كمال ناصر إبان أحداث ١٩٧٠ في الاردن وقد قال لرفاقه : " أنا لا اريد ان اموت على يد بدوي جاهل . . فلا زال امامي عشرون سنة لكتابة الشعر .^(٣) لكنه قهرى بسرعة الرجل الذي نرض وجوده عبر عشرين عاما من النضال والاعتقال والتشريد ليعطي بموته امثلة تميز الثائر الحقيقي عن سواه . هو الثائر الذي " داس على حبه وعواطفه لحظة ان طرح عليه الخيار : الثورة او الزوجة والحبيبة . . هذا الرجل الذي يسخر من الموت كما يسخر من الخوف . " ^(٤)

أ٩ - أصداء الاستشهاد

- في الوطن العربي : بعد استشهاد كمال ورفيقيه ، دعت الاتحادات والروابط الطلابية في لبنان الى الاضراب والمشاركة في التشييع الذي دعت اليه كذلك جميع الاجهزة اللبنانية . وأغلقت بيروت تماما . وسار في العاصمة اللبنانية وحدها ربع مليون نسمة من وزراء ونواب وجماهير . وفي طرابلس لبنان شيعه خمسة عشر ألفاً . وسارت المواكب في البقاع وكل من القاهرة والاسكندرية . وفي الكويت خمسون الفا . وكذلك في بنداد والجزائر وقطر . اما في تونس وليبيا فقد اتمت صلاة الغائب على ارواح الشهداء .^(٥)

- في فلسطين المحتلة : كان لاستشهاد القادة الثلاثة وقع الصاعقة على رؤوس المواطنين العرب في فلسطين المحتلة ، فصدرت الصحف الوطنية متشحة بالسواد وعلى صدر صفحاتها صور كمال ناصر . وأوقف الاحتلال جريدة " الفجر " عن الصدور عقابا على نشرها صورة كمال كما اعتقل أصحابها . وارتدت النساء الثياب السود .

وسارت المواكب باتجاه بيرزيت مسقط رأس كمال وقد توقف العمل دقيقة واحدة حدادا على الشهداء . واقامت صلاة الغائب في الضفة الغربية وقطاع غزة .^(٦) وفي بيرزيت رفع العلم الفلسطيني فهاجم الجنود الصهاينة الناس .^(٧) وفي القدس قطعت سلطات الاحتلال اذاعتها

- ١- كان الانتقام بعملية فندق ساقوي في قلب تل ابيب (المرجع السابق باللغة الاجنبية) .
- ٢- صحيفة النهار ، ١١٧٣٠ (١١ نيسان ١٩٧٣ الطبعة الثانية) (ترجى مراجعة الحاشية الثالثة على الصفحة السابقة) .
- ٣- نزيه ابو نضال . ذكريات عن الشهيد كمال ناصر ، ص ١٠٦ .
- ٤- نزيه ابو نضال . نفسه ، ص ١١٣ .
- ٥- اليوميات الفلسطينية ١٣ نيسان ١٩٧٣ ، ص ٣١٨ . وكتبت صحيفة النهار ١١٧٣٣ (١٣ نيسان ١٩٧٣) ، ص ٤ ، ان ربع مليون قد ساروا ثلاث ساعات وراء النعوش التسعة (الشهداء الثلاثة ورفاقهم) .
- ٦- اليوميات الفلسطينية ، نفسا ، ص ٣١٦ .
- ٧- م . ن . في ١٧ / ٤ / ١٩٧٣ ، ص ٣٢٤ .

ظهر الجمعة ١٢ نيسان لكي لا تتطلق أصوات المآذن من مسجد يافا الكبير . وامتنع العمال العرب عن الذهاب للعمل في كيان العدو وذلك النهار .^(١) وقال المعلق السياسي الإسرائيلي حفاي أشد : " حقق زعماء المخربين بموتهم ما لم يحققوه في حياتهم " وكتبت جويش كرونيسل " أخطر ما في الامران يتحول كمال ناصر الى بطل قومي ."^(٢)

كانت الصدمة عنيفة على أم كمال على الرغم من تجاوزها سن الثمانين ، وقد عبّرت ربما ناصر عن عنفها بقولها : " لو كانت امه تعي يوم استشهادها لما عاشت من بعده يوماً ."^(٣) أمه حتى اليوم لا تعدق أن ابنها رحل ، فهي تنتظر رسائله بين اللحظة والأخرى وقد تحدثت اليّ^(٤) بلسان الام التي تنتظر إياب ابن لها رحل ليعود . لا تواكب قسما الحزن وجهها أبداً . تتحدث بسعادة عن شيء لا تدرك أو تعي أنه مستحيل . ان ما كان يحزن كمال ناصر هو كيف ستغدو امه اذا استشهد . لهذا كتب الى غادة السمّان مرة : " بالمناسبة لست هزيناً . . . ومن حقا ان تخاني مني عليّ . كيف استطيع أن أربي بثقل التاريخ عن كفتي . . . علميني فتحبك أمي كثيرا ."^(٥)

وهدر لشاعر الأرض المحتلة ، راشد حسين ، قصيدتان في كمال ، أخيه في الالتزام بالوطن والقضية : الاولى الى امه . . حبيبته الاولى حبيبته الأخيرة . . قصيدته الاولى قصيدته الأخيرة^(٦) والثانية :

يبدأ الحب - ينتهي الحب - لكن
يقتل الحب اينما كان ، لكن
هكذا تولد الورود وتمضي
ثم يضحون اين ماتوا سحابا
واذا الأرض الف مليون حبلبي

أي قلب في حبه يستشار
بعد ان ينتهي تظل النار
وعلى الشوك يكبر الثور
فوق حقل لتولد الامطار
واذا النار كلها أزهار"^(٧)

باب - في ذاكرة الرفاق

كان كمال يفضي الى الادبية كولييت خوري برغبته في ان يكتب كل انسان في السياسة ليفصح الاعيب كبارها في مفاخر صغارها . تقول : " كنت أتصور كل شيء الا ان يقتل كمال . . كان عالماً قائماً بذاته ، وجوده مهم وضروري . . أرادوا اسكات فمه بالرصاصة ، فوجدت ان من واجبي القيام بدوره . . فكتبت في السياسة منذ استشهد ."^(٨)

١- المرجع السابق في ١٨ / ٤ / ١٩٧٣ ، ص ٣٢٧ .

٢- نفسه ، في ٢٠ / ٤ / ١٩٧٣ ، ص ٢٤٤ .

٣- من حديث خاص مني في أوائل ١٩٧٦ .

٤- في ٢٠ / ١١ / ١٩٧٦ ببيروت .

٥- غادة السمّان . " كمال ناصر تنبأ بموته شعرا " ، مجلة الحوادث ٨٥٨ (٢٠ نيسان

١٩٧٣) ، ص ٦٨ .

٦- مجلة " فلسطين الثورة " ملحق الثلاثاء ٢٩ أيار ١٩٧٣ ، ص ٤ .

٧- ن . ن . ن .

٨- من حديث خاص مع الادبية كولييت خوري وقد التقيتها عدة مرات عام ١٩٧٧ بدمشق .

وفي الذكرى الأولى لاستشهاده ، أعلن الاضراب الشامل في لبنان ، وتصدته الوفود العربية تشارك أهله في تكريم الشهداء الثلاثة . قال فيه كامل قسطندي : " قَدِّم أوج التكاثر بين الكلمة والقضية . " (١)

لجمال ناصر حضور دائم في كل مظهر لقضيته ، يبعث فيه الأمل بالنصر وتيار التفاؤل بقدرة الشعوب على اتیان المعجزات . لهذا بادرا اعدقاؤه ومحبوه الى تكريمه في ذكراه الثانية ، فوصفه كلوفيس مقصود بـ " أجمل الواجه التي مرت امام بصيرة الامة واحلى الناس الذين عاشت معهم الجماهير . . . كان في الحقيقة موجهاً ومعلماً اعظم ما فيه انه ادرك حجه وأبى ان يكون غير ما هو . . . عندئذ ، تجاوز حجمه نصار غيابه أوقع من حضوره ، وكما كان حضوره مفرحاً وعظيماً . " (٢)

وصلاح خلف - أبو اياد - نفذ الى صميم حقيقته بقوله فيه : " تكاد نبضات قلبه تقف من كثرة معاناته وصبره ومثابرتة . " (٣) والدكتور احسان عباس عرف ان جمال ناصر " أراد شيئاً واحداً ، ان يكون رجلاً يناضل في سبيل امته ومبادئه بمقدار ما يستطيع ، واران ان يكون شريفاً ، وكذلك عاش وكذلك مات . " (٤)

وشفيق الحوت ، لعله لم يبالغ ان قال فيه : " هذا الشاعر الانسان ، النبي غير المرسل ، عاشق الروابي الخضمر والصفير الملونة والاطفال الصغار . هذا المحب بلا حدود الكارة للموت حتى لاعدائه . . . " (٥)

في ذكراه الثانية ، سبر محمود درويش اغواره الطانحة على صفحة وجهه : " كان جمال ناصر يبني تابوته مازحاً ، ويستكتب مراثيه ضاحكاً ، وفي أوج الفرح يمضي الى العسرة . . . وكان يصر على انه حامل بالموت . " (٦)

وكان مسك الختام ، كلام مؤمن بالله وبعدالة القضية الفلسطينية وبالنصر الاكيد ، كلام المطران جورج خضر : " لقد ارادوا اخراسك ، ولكن احداً لن يطغيء الروح . ستنب الروح وتصير السنة من نار . " (٧)

ولعل الخسارة بفقدان جمال كانت على حساب الثورة اولا وآخرا ، وقد عبرت عنها الأدبية عادة السمان بقولها : " ان المفكر والأديب هو بوصلة الثورة ، والمقاتلين هم مدفعها . . . والثورة بحاجة الى بوصلة والى مدفع في آن واحد . " (٨)

١- جريدة السفير . السنة الاولى ، ١١ (٥ نيسان ١٩٧٤) ، ص ٦ .

٢- مجلة "فلسطين الثورة" ١٣٨ (١٣ نيسان ١٩٧٥) ، ص ٤٨ .

٣- م . ن . ص . ن .

٤- م . ن . ص . ن .

٥- م . ن . ص . ن .

٦- م . ن . ص . ن .

٧- م . ن . ص . ن .

٨- عادة السمان . "جمال ناصر تنبأ بموته شعراً" ، مجلة الحوادث ٨٥٨ (٢٠ نيسان

١٩٧٢) ، ص ٦٨ .

عرف الناس كلهم قيمة كمال شاعرًا ومناضلاً على السواء ، وكان عليه ان يعرف هو ذلك

ليحافظ على نفسه فما كان يجب ان يرحل والثورة في امس الحاجة اليه .

لذلك ، تشكلت لجنة من الاصدقاء ورفاق النضال ، أخذت على عاتقها مهمة تخليد

الشاعر المناضل ^(١) ومن مهامها : إصدار آثاره الشعرية والنثرية بحيث يعود ريعها لانشاء

مكتبة ضخمة تحمل اسم الشهيد في مسقط رأسه ، وإقامة تمثال له في لبنان .

يرى كمال ناصر أن كل انسان يعتال على الحياة بطريقة او بأخرى ليضمن لنفسه

الخلود . لذلك حين طلبت منه عائلة قسطندي القريبة له ان ينشر شعره ليشهره ، أجاب :

" سيعرف الناس غدا من هو الشاعر الحقيقي " .

وإذا كانت الادبية هدى زكا قد ارسلت اليه تقول : " لقد خلقت كي تكون فسي

العلوي " ^(٢) ، فان الادبية غادة السمان ارسلت اليه ايضا تقول : " ذلك الشاعر الفنان الذي

يعيش في جو من الشازات السامة التي تخذر شاعريته حيناً وتنبهها احياناً حتى النزف الاخرس ،

ذلك الكمال ناصر " يستحق ان يعرف مكانته في قلوب بعض اصدقائه المخلصين . ^(٣)

وكمال ناصر نفسه ، بكل بساطة ، يطرح سر نفسه منذ مطلع حياته اذ يقول في رسالة

الى اخيه وديع : ^(٤) انني رجل وابن الحياة ، وسأنجح كما نجحت سابقا وسيخلد اسمي فسي

التاريخ رغم ان جميع الذين لا يقدروني ، لانني مخلص في عملي " .

أجل ، لانه كان رجلاً يعشق الحياة ، ومخلصاً في كل اعماله ومبادئه ، اصبح كمال

ناصر خالداً . . . وقد دفع غاليا ثمن الخلود .

ج ج - في عمق شخصيته

نشأ كمال طفلاً مدللاً في أحضان أسرة ورعة تقيّة تدين بالمحبة وتمنل جوهرها بالعلم ،

وتعمل ميزان العدل بين الناس . هذه النشأة جعلته رجلاً ذا شخصية متعددة الجوانب ،

خالية من العقد ، غير خالية من المفارقات العجيبة . يقول عنه رفيق بضع سنين من عمره :

" لم يكن رجلاً غامضاً ، لا فيما ينكر ولا فيما يكتب ولا فيما يتكلم او يتصرف ، فكل من عرف كمالاً

تأسره عفويته وهداه . . . ينكر بصوت عال . . . لقد كان كتاباً مفتوحاً يقروءه كل من يرغب في

قراءته . " ^(٥)

هو دائماً عاشق ، وغالباً مؤمن ، وحيال التجارب لا نعتب عليه متشككاً . ودائماً هو

رجل امام مسؤولياته . وكمال ، طفلاً ، " كبر ولم يودع طفولته ، كان يحملها ويسافر ، فلا يتعب

ولا يصدأ . " ^(٦)

١- من أعضاء اللجنة : ناجي علوش ، كامل قسطندي ، د . كلوفيس مقصود ، ابراهيم سلامة ،

محمود درويش ، شفيق العتوت ، عبد المحسن قطان ، سلوى ناصر

٢- من هدى الى كمال . الشويفات ٧ شباط ١٩٦٠ .

٣- لندن ١٥ / ٤ / ١٩٦٧ .

٤- دمشق ، ٢٧ / ١٢ / ١٩٥١ .

٥- عبد المحسن ابو ميزر . ذكريات عن الشهيد كمال ناصر ، ص ٣٥ .

٦- محمود درويش . م . ن . ص ٥١ .

تزوِّج العالم ، نكل اطفال الأرض أطفاله . يدرّب من عيون الاطفال اذا نظروا اليه طالبين ما يعتقدون أنه قادر على تلييته ، بينما هو يشعر بمرارة العجز في قرار نفسه . ويهرع الى عيونهم البريئة وقلوبهم الساذجة اذا كان الموضوع موضوع الوطن . ففي القدس المحتلة ، طفلة رأها تعزف الموسيقى ، هيّجت كوامن عاطفته فقال انه لا يمكن ان يقتل انسانا بسبب الموسيقى .

وإذا كان للانسان ان يصرح في نعيم ، فليس أجمل ولا ازهى من الأمومة ، فأمّ كمال تجسّد الأمومة المثالية ، كل رسالة منها اليه ، ينشرها ويقرؤها على اصدقائه . وكل لقاء بها يتمناه ان لا ينتهي . . . ينتظر قدمها انتظار الزهرة لريبتها ، وفي غيابها يتسوه وسط المعالم المميزة ، يحمل الكون على كاهله لقاء ان لا تحمل امه عنه ذرّة . فكمال العاشق ابدًا لكل وجه حسن في الطبيعة ، ما رآه احد الا متبسما ، متفائلا ، متحركا في الاتجاهات الاربعة معًا . وحده وصفه فأحسن ، من رآه يبكي مرتين في حياته: الاولى "يوم استشهد غسان كنفاني . . . المرة الثانية كانت عندما جاءت أمه من بيزريت . . . لقد سافرت . . . أتعرف ، عندما ودّعتهما شعرت أنه الوداع الاخير . . . لقد كبرت ابي ! ! وبكى يومها كمال . " (١)

أحب الهدوء والاستقرار فما كان حبه الوحيد الذي قضى فيه مبكرا . . . لقد أحب الحياة الاجتماعية واحب الاصدقاء وحنا على الاقارب ، ولما وضع رجلاً في الثورة ورجلاً في الحياة العادية ، استطاع العدو ان ينقض عليه ويشقه الى شطرين . " (٢)

أحب الحياة العائلية فحرم منها عائلته ، ووجد لها نثراً في اقراره وأصدقائه ما أحلاه لربكان انتظم . وأحب الناس الى حد انه "كان يتعذب بامتدود ان يجعل الآخرين يحسّون بهذه المعاناة القاسية ، فيصمت عن أحزانه ليبد وأكبر من جراحاته . " (٣) وأحب الله وكل نبي أو رسول جسده على الارض فكان تقياً ساذجاً كأبناء القرى الطيبين . قال عنه صديقه راجي صهيون : "كان حمامة بيضاء . . . كان ثائراً طول عمره ضد كل قيد حتى العائلي . . . كان وجهها خضارياً للثورة واطالة حلوة لها . " (٤) ونصت بالفراشة النائرة وبالفراشة التي تداعب شفة ناعمة . وأقرب أصدقائه ، عبد المحسن القطان ، قال فيه: "عفويّ وطيب . . . لم يكن يمثّل ولا يدعي ولا يناور . . . أحب الاطفال والموسيقى ، وأحب الفن وحفنة من النساء . . . لم يكن بإمكانه العيش لحظة دون حب . " (٥)

هو هامل فمّن الزيتون بين من يفترض ان تحكمهم الأخوة ، ومشهر سيف العدل في جرحهم حين لم يؤدوا فرضهم . ومن يحسب أن شخصية كهذه يمكن أن تحمل المسدّس لتقتل عدواً مغتالاً .

-
- ١- حنا قبل . ذكريات عن الشهيد كمال ناصر ، ص ٨٧ .
 - ٢- من حديث خاوص مع فريد الخطيب في ١٩ / ٢ / ١٩٧٦ بيروت .
 - ٣- صلاح خلف . المرجع السابق (١) ، ص ٢٤ .
 - ٤- من حديث خاوص معه في ١ / ٢ / ١٩٧٦ بيروت .
 - ٥- عبد المحسن القطان . ذكريات عن الشهيد كمال ناصر ، ص ٥٥ .

لقد كانت شجاعته مما يصلح لمواجهة المسنن ، كلما واجهته شدة وضغط ازداد فعلاً .
قال بؤدؤ : " صحيح انا لست فيفارا . . . ولكنني لست جبانا . " (١) والحاكي عن جنبه قري
إن حكى . ولما طلب اليه نقل منشورات حزبية بين دمشق وبيروت ، قال عنه ناجي علوش :
" كان في كثير من الأحيان يبالي في اظهار ضعفه كقوله : أنا كمال بطرس ناصر وليس عنتر بن
شداد . ولكنه كان يفعل ذلك سخرية بالزايدين . " (٢)

كمال شخصية فريدة جمعت من التناقضات كثيرها ، آمن بالاشتراكية حتى النهاية ولكنه
أحب البورجوازية أكثر حياته . تروى له عبارة شهيرة باللغة الانجليزية : " Better to die in
Hamra, than to live in Sabra. " (٣)

ان في هذا التعبير من اتجاه ملج الى الحياة الحلوة المنطلقة مثل ما فيه من روح
الدعابة التي لم تفارقه لحظة حتى في أشدها حلكة وحملأ بالصعاب . ففي معارك المقاومة مع
النظام الاردني عام ١٩٧٠ ، رفض الموت رخيصة . ووسط الدمار كان مؤمناً متفائلاً على رغم
شراسة الواقع وخطورته . حتى في فترة سجنه في المستشفى بدمشق قال للذين زاروه بأنه
سيهرب ، فحكوا ولم يصدقوا الى ان هرب فعلاً . (٤)

وفي السجن أيضا ، عندما صام تضامناً مع رفاقه الحزبيين ، يقول رفيقه الأسير معه ،
جبران مجدلاني ، " عندما جيت بالطعام ، تطلع كمال إليه وقال : إن المودة التي بيني وبين
الطعام لا تسمح بأن تكون بيننا قطعة . وراح يخاطب أصناف الخضار والفواكه : يا حبيبة القلب
ويا رفيقة العمر . " (٥)

كمن يقتل الضجر بالعبث وكمن يطرد أشباح الليل بالغناء ، كان كمال يطرد غيـوم
حياته اذا تلبدت ، بأنسام علية من زفرات فؤاد . مرحه عامل أول في استمرار حياته ، فهو
على استعداد للموت فرحاً في أية لحظة ، على قضاء طول العمر في كدر . ومن أطرف ما يمثل
روح الدعابة والمرح المتأصلة في شخصيته ، ما يروييه صديقه كلوفيس مقصود : " كنت اجلس مع
كمال وصديق صحافي لبناني يحب كمال فيه دعابته . نقلت له : لك سلام من صديقه . . .
وهو حزبي قديم - فأجاب مازحاً : العشاء مع جاسوس رجعي مهضوم ، أفضل من الحديث
مع مناضل تقدمي ثقيل الدم . " (٦)

أما محمود درويش فيصفه " . . . خلقوا التوتراؤلا ثم صبوا فيه جسد كمال ناصر . . .
صيق هذا الجسد الملي بالرخام والعصافير . والأرض أضيف من مسام الجلد الغاضب . " (٧)

كان كمال ناصر متطرفاً في كل جانب من جوانب شخصيته ، لأن كلاً منها لم يتبلور الا
بعد مخاض عملي عسير . حياته كانت زاخرة بالحب في وجوهه ، وبالثورة . كان الشعب ، فوجدوه

- ١- حنا مقل . ذكريات عن الشهيد كمال ناصر ، ص ٨٠ .
- ٢- ناجي علوش المرجع فوق . ص ٢٢ .
- ٣- من الحديث السابق مع فريد الخطيب .
- ٤- من الحديث السابق مع كولينت خوري .
- ٥- من حديث خاص مع المحامي جبران مجدلاني عام ١٩٧٧ ببيروت .
- ٦- من حديث خاص مع الدكتور كلوفيس مقصود في ٢٦ / ٨ / ١٩٧٧ .
- ٧- محمود درويش . ذكريات عن الشهيد كمال ناصر ، ص ٤٦ - ٤٧ .

محبًا . وكانت الأرض فوجدوه عاشقًا . وقد كان لصيقًا بالشعب لم يخذله مرة في حياته ، وهو نفسه سمى سيارته "سيارة الشعب القديمة والتي كان لا يترك راجلاً بين بيرزيت ورام الله الا ويحمله بها ."^(١) هذا الفلاح ابن الفلاح الاميل الذي قال يوم عرض عليه سمّ الرجولة: "تصوّريا ابن عمي انني اعيش من ايرادات بيت زوجتي . هل يقبل ذلك فلاح من بيرزيت؟"^(٢) واذ كانت ملامح الفلاح الذي لوّحت وجهه الشمس ، ملامح الشدة والبأس ، فان وجهه كمال كان آية في البراعة المبادرة . وهو كما تصفه كوليت خوري: محاور هادي ذو حجة ، يستمع الى الجميع في شكاويهم ويكل اهتمام . ويشارك حتى يرتاح اليه المحدث فيفرض بكل ما في داخله وغمو يستقد بأن كمالا قادر على حل اية مشكلة مهما استعصت.^(٣) وكتب عنه "لوموند" اثر استشهاده: "كان متوّها طلق اللسان ، يضحّ بالحيوية ، غير مقيّد ، صاحب ثلاثة وظرف."^(٤)

ويعد هذه الرسوم البيانية المتعددة لشخصية كمال ناصر الفدّة ، تقرّ برأي عبد المحسن ابو ميزر ، صديقه ، بأن الحديث عن كمال صعب لأنه مجموعة أشخاص في واحد . وأن شخصية كمال الكلية لم تكن طولية او عرضية . . . بل كانت كروية يصعب رؤيتها من جانب واحد ."^(٥) ويتابع مفضلاً: " . . . ومن زاوية أولى تجده الأديب الموهوب . . . ومن ثانياً تجده السياسي المناضل ومن زاوية ثالثة فقد تجده الانسان الطامح ابداً لأن يكون انساناً بكل ما تعنيه الأنسنة من معان . فكان في علاقته ودوداً ، وفي حديثه ساخراً ، وفي صداقته وفيّاً ، وفي مجالسه وديعاً . يحب الجميع ولا يقوى على كره أحد . يؤمن بحرية الرأي ويرغب في الاستماع الى الآخرين ، ويضيق بمن ينكر عليه حقه في حرية التعبير عن رأيه . يميل الى التأمل في الأحداث في محاولة لم تفارقه طيلة حياته لمصرفة الحقيقة ، فقد كان من عشاقها ، بمعرفتها يهدأ انفعاله ، ويزول قلقه ويشعر بالطمأنينة ."^(٦)

كالمشهد كان ممثلنا ، الصديق المحب فقط يمتصّه ، وفي فم العدو وكان كالعلم . حاول العدو واقتلعه من أصل قائه ، فثبته فيهم من حيث لم يقصد . كان كمال هاجساً يقلق العدو . . . أزالوا الجسد وبقي كمال الانسان ، الفراشة النائرة في جوانح كل فلسطين .

١- من الحديث السابق مع ناجي علوش .

٢- ناجي علوش . ذكريات عن الشهيد كمال ناصر ، ص ٢٩ .

٣- في الحديث السابق معها .

4 - Rouleau, Eric. Le Monde (Paris, Trentième Année - N° 8784, Dernière Edition 3. Mercredi 11 Avril 1973) p.2.

" Il était Voluble, bouillonnant, désinvolt et d'une drôlerie irresistible."

٥- عبد المحسن ابو ميزر . ذكريات عن الشهيد كمال ناصر ، ص ٢٧ .

٦- نفسه ، ص ٢٩ .

كما قد يلجأ الشعب الثائر ضد المستبد الى أساليب شتى من النضال تتراوح بين الاضراب عن العمل او الطعام ، او الاعتصام او التظاهر السلمي ، او العنف المسلح بمبادرة او بدفاع عن النفس . وغير هذا الكثير . كذلك ، يعتمد الثائر ضد غاصبي وطنه الى أساليب شتى من النضال تتراوح بين الثورة المسلحة او النضال السياسي بالكلمة . وهكذا سوف نرى كمال ناصر في هذا الباب ذي الفصلين : الأول ، كمال السياسي . والثاني ، الكاتب السياسي . وطالما انه لم يحمل بند قية الثورة حسب المفهوم التقليدي ، فقد حمل قلمها المتفجر . لذلك أنطلق من نضاله وفق تطوره التاريخي الموضوعي بدءاً بالنضال العفوي غير المؤطر مثلما حصل فيما بعد ملتزماً بأطر حزب البعث العربي الاشتراكي ومجلس النواب الأردني ثم منظمة التحرير الفلسطينية . واتباعنا لهذا النمط الدراسي عائد الى الرغبة في تتبع الخط النضالي المتطور طبيعياً من عام لعام ومرحلة اثر مرحلة ، ولا سيما أن حياته شهدت مرحلتين سياسيتين هامتين هما نكبة حرب ١٩٤٨ وهزيمة حرب ١٩٦٧ . هاتان اثرتا مباشرة في لعبه أدواراً هامة على المسن السياسي العربي والفلسطيني معاً سوف نجلوهما في الفصل الاول . (١)

اما الفصل الثاني فهو النصف المكمل للأول من حيث اعتباره نضالاً بالكلمة المكتوبة اسوة بالمنطوقة . وسوف نعرض أولاً لأدواته الرئيسية خاصة التي اطلق كلماته من على منابرها زمنياً طويلاً ، مراعين كذلك تسلسلها التاريخي من حيث هي صحف امثال "البعث ، الجيل الجديد ، فلسطين" او مجلة "فلسطين الثورة" التي جانب صحف فلسطينية وعربية عديدة متفرقة بذور فيها حبّه .

ولن نقف عند حد العرض التاريخي والتعريفى بتلك المنشورات بل سندرس اسلوب كمال كاتباً سياسياً للمقالات والافتتاحية السياسية الرئيسية في ضوء تطوره من البداية اليافعة الى النهاية اليانعة عبر ثلاث مقالات في صحائف ثلاث تغطي الحقبة التاريخية من عام ١٩٤٩ ، الى عام ١٩٧٣ . (٢)

١- أكبر الاعتماد في هذا على آثار كمال ناصر النظرية ومحاضر جلسات مجلس النواب والاعيان الاردني ورفاقه في الحزب ومنظمة التحرير . كذلك على صحف ومجلات فلسطينية وعربية ، وسلسلة "اليوميات الفلسطينية" التي تصدرها مؤسسة الدراسات الفلسطينية في بيروت .
٢- قصرت الدراسة حول فن الكتابة السياسية لدى كمال علي "الجيل الجديد ، فلسطين ، فلسطين الثورة" كونها أمهات الصحف التي كتب فيها ولأن صحيفة "البعث" المشار اليها في مطلع الفصل الثاني هذا لا تقدم اعدادها المتيسرة نماذج واضحة لمقالات كمال السياسية كونها صدرت في وقت مبكر جدا تبيل نكبة فلسطين . وقد أفادني في هذا الفصل ايضا مذكرات عبداللّه التل "كارثة فلسطين" وكتاب احمد العقاد "تاريخ الصحافة العربية في فلسطين" وجميع الصحف والمنشورات المتفرقة في العواشي . ولا بد من ذكر الادبيّة كوليث خوري ، ورفاق كمال ، راجعي صهيون والمحامي ابراهيم بكر والشاعر الصحفي عصام حماد . وأفادني الى ابعد الحدود في دراسة فن الكتابة السياسية كتاب الدكتور إجلال خليفة "اتجاهات حديثة في فن التحرير الصحفي" (مصر : دار الهنا للطباعة ، ط ١ / ١٩٧٢) ، وكتاب الدكتور محمد يوسف نجم "فن المقالة" (بيروت : دار الثقافة ، ط ٤ / ١٩٦٦) .

بطرس ناصر الموظف لدى سلطات الانتداب البريطاني يناهز الفلاحين والفقراء مخالفاً وامرؤء سائه . وابنه كمال تتفتح ادراكاته في بستان البرتقال على مرأى من المرأة الحزينة فتتحرك مشاعره الكامنة مشيرة في نفسه ألد سؤال وسؤال عن وضع وطنه غير الطبيعي ومستقبله المجهول .

واند لعت ثورة ١٩٣٦ لتقدح في صدره شرارة النضال سواء في قيادة مظاهرة ام في التمرد على جنود الانتداب الذين أرادوا سوته الى الحاكم . كل ذلك ولم يكن قد جاوز هذا الفتى الرابعة عشرة من عمره . وفي السابعة عشرة سمع بأن في العراق ثورة ضد الاحتلال البريطاني ، فأحس بواجب عليه يندفع اليه قبل أن يستدعيه . يتذكر قريبه تلك اللحظات فيقول : "عندما نار رشيد عالي الكيلاني على الانكليز في العراق، وكنا آنذاك في الصف الرابع الثانوي ونستعد لتقديم امتحان المترك ، القى كمال خطبة حماسية . بعدها تطوع جميع طلاب الصف للذهاب الى العراق لقتال الانكليز . ولكن الثورة انتهت قبل ان نستكمل عدتنا للسفر ."^(١)

وشهدت انفعالاته الوطنية كذلك الجامعة الاميركية في بيروت عام ١٩٤٢ ، بعدها تأزم الموقف الانساني مفعداً حسه الوطني والانساني معا وهو يرى الهاربين من مذابح اللد والرملة يفرون الى بيزريت في انعس ما يمكن ان تصل اليه حالة انسان تعاسة . لأجل كل اولئك ولأجل البؤس في قلوبهم ووضعات الامل في عيونهم ورضعات التقوي في سراعدهم ، لأجل المعدبين في الارض ، لم يقف مكثوف اليدين بعد استشهاد القائد عبد القادر الحسيني^(٢) والهجوم اليهودي على الجيش المصري . وقيام قيادة الجهاد المقدس بتجنيد القرويين من بيزريت وجوارها للهجوم على اللد والرملة وتخفيف الضغط عن الجيش المصري . ووجدتها كمال فرحة سانحة للانتقام ورد الاعتبار . ويقال : حمل كمال البندقية ، وهو لا يعرف استعمالها ، وعند الحدود أصر على ان يترك مركز القيادة الى الخط الامامي

١ - من رسالة جوابية خاصة بتاريخ ١٩٧٧ / ٩ / ٢٩ من الدكتور فهيم ناصر (بالكويت حالياً) وهو قريب لكمال عاشر واياه الطفولة والدراسة حتى انتهاء الجامعة منها . اتجه كمال الى السياسة والشعر بينما الآخر الى الطب فمارسه في الجيش الاردني . كان آخر لقاء بينهما من طرف واحد عندما قدم لمعاينة جثمانه يوم ١٠ نيسان ١٩٧٢ . وعن ثورة الكيلاني المشار اليها في الرسالة ، فقد استمرت من ٤ نيسان ١٩٤١ الى ٢٨ أيار ١٩٤١ .

٢ - عبد القادر الحسيني : ابن موسى كاظم الحسيني . ولد في القدس عام ١٩٠٨ وانتقل عام ١٩٢٥ الى القاهرة فدرس المرحلتين الثانوية والجامعية . انشأ اول رابطة للطلبة الفلسطينيين هناك . طرد من الجامعة بسبب مواقفه الوطنية فعاد الى القدس في مطلع ١٩٢٣ ليخدم وطنه . تولى سكرتارية جمعية الشباب المسلم المتعلم ، وادارة مكتب الحزب العربي الفلسطيني في القدس . بدأ بتشكيل منظمات سرية شبه عسكرية لجأت الى الجبال وشاركت في الثورة الكبرى . جرح وأسرف في الخضر ، ولكنه فر الى دمشق ومنها الى بغداد فآلمانيا حيث تدرب على استعمال ووضع المتفجرات . شارك في ثورة ١٩٤١ . ناضل واعتقل وحوكم مرارا ونفي فتنقل من بلد الى بلد . استشهد سنة ١٩٤٨ في معركة التسطل الشهيرة على مشارف القدس .

مع المجاهدين و "جريت أن اقنعه ، ومعني قاسم الريماوي قائد الجهاد المقدس، بأنه سيكون عاقبا لانه لا يسرف عن البنادق والحرب شيئا . ولولا تدخل الضباط العراقيين لمنع الهجوم لاستشهد كمال في ذلك الوقت." (١)

البذرة كائنة في النفس، ولكن الظروف الموضوعية للشعب ، والظرف الخاص الذي عاشه كمال ، جعل البذرة تثور وتنطلق لمجرد استرجاعه ذكريات ابيه :

" يا أبي ، هل ترى القباب اللواتي
شمخت بالتقى على الأجيال
بعدنا يا ابي تصدّع عسي
قد أثناه مشرقا بالرجال " (٢)

عنده ، تصدّع حي يساوي تصدّع قلب ، لكلاهما تنشق حجب السماء . وأبوه ، معلمه الأول ، ما زال يذكر طيب فعالة ومواقفه البطولية التي عمقت مشاعره الوطنية وأن مصلحة أبناء الوطن فوق كل مصلحة فردية . منه تعلم البذل والخطأ والتفحّية بالنفس . .

" لدّ لي ان اراك تنوع على الجرح
وتدعو للبذل والاحتمال
لدّ لي ان اراك تغشى المنايا
وبقايا يدك في الاغلال " (٣)

وثورة العر واحدة أما العبد فثنتان : واحدة على العبودية مفهوما ، وأخرى على المستبد مباشرة . لذلك ، تمّى كمال ان يختصر المسافة الطبيعية ليتسنى له تحقيق ريادته للثورة فقال :

" وتمنيت لو اسابق عمري
فأراني اسطورة للرجال " (٤)

وكان له ما تمنى . اما اسطوريته فيكفي ان العدو - حتى العدو - اعترف بأن كمال ناصر قد حقق بمماته ما لم يكن يحلم بتحقيقه في حياته .

وللفوز مصاعب ومواقف واقتحامات هي سلسلة طويلة . وحيثما تعقدت الامور كان على كمال ان يتخذ موقفا حاسما وصریحا فقد وصفه قائد منطقة القدس في مذكراته (٥) بأبرز المعارضين للحكم في الاردن ، مستقلا ، الى جانب عبد الله الريماوي (٦) وعبد الله نعواس (٧) وموسى عبد الله الحسيني . . وعندما وقّع الجانب الاردني على تسليم المثلث الفلسطيني للصهاينة في اواخر ١٩٤٨ ، حضر كمال . وحضر كذلك مؤتمر اريحا عامذاك . وكسياسي وصحافي ، لم يكتف بتسجيل الاحداث بل شارك في تسيير عجلتها وتوجيهها الى حد بعيد . وكان كالرجل يرى طفلا في الحريق فيندم تفكيره في نتيجة ما يحلّ به شخصيا ان هو أنقذه ، ويثور تفكيره باتجاه روح تنقذ ، وثورة متدفقة ، ففي المؤتمر الذي حضره الملك عبد الله في سينما دنيا في رام الله ، "كان المنافقون يكيلون المديح للملك . . وقف كمال على منصة الخطابة واتهم

١- من رسالة الدكتور فهمي ناصر السابقة .

٢- الأثار الشعرية ، ص ١٧٧ - ١٧٨ .

٣- نفسا ، ١٧٨ .

٤- م . ن . ص . ن .

٥- عبد الله التّل . تارثة فلسطين ، ج ١ ، حاشية ص ٥٨١ .

٦- عبد الله الريماوي سياسي ويعني فلسطيني من قرية بيت رما قرب القدس . صديق لكمال في النضال السياسي وفي ميدان الصحافة . فاز بالنيابة غير مرة في مجلس النواب الاردني .

٧- عبد الله نعواس ايضا سياسي وصحافي ويعني فلسطيني . كان صديقا حميما لكمال . استشهد في الخمسينات في الاردن .

الملك علانية بتسليم اللد والرملة ، مما اودى به الى السجن . . . (١) وهذا موقف سياسي إن لم يكن مدروسا فلأن العنوية صفاء ونقاء وطيب معدن وقد وجد كمال نفسه بحضوره المفاوضات شاهد حق على بيعة زور - بيع ما لا يملكه البائع من ارض فلسطين للصهاينة . قال دايان : " هذه حدودنا على الخارطة التي وقستم عليها ، ومعنى ذلك ان ارض المثلث هذه لنا ، وعلينا الانسحاب منها . " فأجاب اللواء احمد صدقي الجندي عن الجانب الأردني ببساطة وغباء : " اننا لم نكن نعرف ان كل هذه الأرض العربية ستذهب لكم . " (٢)

ولما شاهد كمال المأساة واستعلاء الصهيوني ، قال انه استمع الى المهزلة في الداخل وينصح بأن لا تتم مثل هذه الاجراءات . فأجاب دايان : " هذه الحرب وسوف تنسون . نحن نعرفكم . " (٣)

بعد هذا الموقف ، كيف لا يثور كمال في وجه الملك ويتساقط في نيرانه ؛ ولا سيما ان اليهود بدأوا بتهويد القدس سريعا . وهذا الاجراء العدواني مع ما رافقه من مفاوضات وتنازلات مزرية ، يستدعي موقفا كالذي اتخذه طرفه بن العبد القائل :

" اذا القم قالوا : من فتى ؟ خلت اني
عنت فلم أكسل ولم أتبلد . " (٤)

فتانا هذه المرة هو كمال . فينعقد مؤتمر لضرورة القدس ويفتتحه راجي صهيون . يتحدث فيه كثيرون ومنهم الشاعر المجاهد كمال ناصر الذي التقى مع عبد الله الريماوي كلمة شباب القدس (٥) كمال ناصر آنذاك لم يصمت في حضرة الملك ، فكيف يسكت لتناول وليم سترانج وكيل وزير الخارجية البريطانية الى فلسطين ؟ لذا نرى قائد القدس يهبط موقف مجابهة جديدا بين كمال والوكيل ، فيروي قائلا : " أتمت له حفلة شاي مساء ٣١ / ٥ / ١٩٤٩ ودعوت لنا بعض الشباب من اخواننا في القدس ومن جملتهم الشاعر الثائر كمال ناصر . وطبيعي ان يدور الحديث حول الكارثة التي خلقتها السياسة البريطانية في فلسطين . وأشرت الى السيد كمال ناصر فشرع يوجه الى الضيف البريطاني الكبير أعنف ما سمعته في حياته من نقد مرّ وفضح ساخر لسياسة بريطانيا الاستعمارية ومولاتها للصهيونية العالمية . ووقفت اللقمة في حلق الضيف وبهت وأخذته المفاجأة . ولم يكن يتصور ان يسمع مثل هذا التقرير والتأنيب من شاب عربي وفي حفلة رسمية يقيمها على شرفه موظف أردني . وعاد سترانج الى عمان ليقدم احتجاجا سريّا عنيفا . . . " (٦)

اذا كان هذا شأن كمال مناضلا سياسيا ، بالموقف الصام والكلمة القاطعة ، فهو ابن الشعب الذي يباده حبا بحب ، وفي صفوفه يستطيع كل مرّ ، ويواجه كل خصم حتى ولو كان نظاما يدنع الشعب تحت رحى الطاحون مكبلا . ففي " ذات يوم ، عمّت رام الله

- ١- د . فهميم ناصر . الرسالة نفسها .
- ٢- الآثار النثرية - مذكراته ١٠ تشرين الأول ١٩٧٢ ، ص ٢٣٨ .
- ٣- المصدر نفسه ، ص ٢٣٩ .
- ٤- طرفه بن العبد . الديوان ، ص ٢٣ .
- ٥- عبد الله التل . كارثة فلسطين ١ : ٤٠١ . وهو يذكر ان المؤتمر انعقد في القدس الساعة العاشرة من صباح الاثنين ٣١ / ١ / ١٩٤٩ .
- ٦- م . ن . ١ : ٥٨٤ .

المظاهرات واستعانت الشرطة بالفرسان والآليات لقمع المظاهرات. ولا أنسى منظر كمال وهو واقف امام المدرسة الهاشمية يتهدى للفرسان بالحجارة مثل اي متظاهر آخر ، وشعره الطويل يتطاير في الهواء» (١)

هو هكذا في كل مكان موجود ، مع الجميع للجميع بقلبه وجسده ولسانه ، بكل على حدة وكل هذه الأدوات متحدة . من هنا انطلق كمال الى تأسيس منظمة دعاها منظمة الجيل الجديد (٢) في مدينة رام الله مركزا لتضم عناصر طيبة من الشباب الذين يشعرون بعدم مسؤوليتهم عن النكبة ، وانما هم يجنون أشواكا زرعها الجيل القديم . من ابرز مظاهر المنظمة ، جريدة تحمل اسمها ، جاءت مباشرة بعد جريدة كمال الاولى "البعث" وقد عطلت الجريدتان فيما بعد لأسباب نتبينها في حينها .

ب - النضال الملتزم

أولاً - مرحلة ١٩٥٣ - ١٩٦٧

كان كمال قد باشر بتتويج المرحلة الاولى من نضاله السياسي العفوي باصدار جريدتين ينفذ بأرائه وممارساته من خلالهما الى ابناء وطنه . اما وأن ظروفنا قاهرة ، مادّية ومعنوية ، حالت دون استمراره ورهما ، فقد شعر كمال بأن وسائله المشروعة قد اجهضت وأن لا طائل من الععود . فاستقرّ رأيه على الخروج من فلسطين حلبة الصراع . أمران أحلاهما مرّ : البقاء في فلسطين تحت قيود الوصاية الاردنية . والرحيل الى الخليج العربي . وواحد الامرين كاف ان يستجير المرء من رضائه بالنار .

وحطّ رحاله في الكويت عام ١٩٥٣ محظياً لدى الشيخ فهد السالم الصباح (٢) ومستشاراً له لمدة ثمانية أشهر . يعبر عن واقع الحال القول : "كان كمال يحكم الكويت فعليا سنة ١٩٥٤ ولكنه لم يكن ينتهز مركزه ذاك" (٤)

وظلّ مقرباً من الشيخ الصباح الى حين استدعاه ربه ، واستدعى الوطن ابنه الى بيرزيت في العام نفسه ليصبح نائباً في مجلس النواب الاردني عام ١٩٥٦ مرشحاً عن حزب البعث العربي الاشتراكي .

وعاش منذ ١٩٥٨ حلم الوحدة الذهبي بين مصر وسوريا وهو البعثي الملتزم يقدم الوحدة على الحرية والاشتراكية ولا يفصلها عنهما . الا ان العهد الجديد راح يشهد جملة من الصراعات الداخلية بين اقطاب البعث في سوريا (٥) مما أخرج الكثيرين عن الصمت ازاء مواقف آخرين . وأحدثت الصراعات في صدر كمال تصدعات توازي تلك التي أحدثتها في نفسه مطاردات الاردن للوطنيين والحزبيين خاصة عام ١٩٥٧ ، فعاشها بمنطق الالتزام

١- ناجي علوش: ذكريات عن الشهيد كمال ناصر ، ص ٢٨ .

٢- جريدة "الجيل الجديد" عدد ١ الأحد ٤ نيسان ١٩٤٩ ، ص ٧ .

٣- ذكرت جريدة "فلسطين" التي كانت تصدر حينذاك انه كان شقيقا للامير الحاكم ووزيرا للصحة ووزيرا للمواصلات ورئيسا للأشغال العامة ولمجلس الانشاء .

٤- من حديث خاص مع كامل قسطندي في ٢٣ / ٢ / ١٩٧٦ ببيروت .

٥- سنري ذلك مفصلاً اثناء الحديث عن نضال كمال الحزبي بعد قليل .

ولكنه ، ثانية ايضا ، تحامل مغتربا الى الغرب تخفيفا لوطأة الاغتراب في الوطن ، وانطلق في رحلته الى الاتحاد السوفياتي وفرنسا وايطاليا وبريطانيا في بداية الستينات . وفي موسكو كان له اول لقاء بالفيلسوف جان بول سارتر عام ١٩٦١ وقد كان عضوا للوفد الفرنسي الى مؤتمر السلام العالمي ، وأكد كمال له ^(١) انه ، فلسطينيا ، يفرّق بين الصهيونية العالمية وقاعدتها اسرائيل وبين اليهود . ثم ، حين قابلته ثانية في باريس سنة ١٩٦٦ ، كان سارتر عازما على اصدار عدد خاص من مجلته "الازمنة الحديثة" للحوار بين العرب واليهود . فحاوره كمال من وجهة اصغاء سارتر الى الادعاءات الصهيونية على هيئة فتح باب الحوار بين العرب والصهيينة . . . اعتبر ذلك تراجعاً لسارتر عن مواقف سابقة له مؤيدة للحق الفلسطيني بوطن . ثم كانت لكامل في بريطانيا وقفة مجددة سار بها على نهج خالته نبهة يوم وقعت - أول فلسطينية تتحدث في هايد بارك - لندن عن القضية الفلسطينية عام ١٩٢٦ . وها هو كمال بعد ثلاثين سنة يجدّد الوقفة . . . يستمع الى خطيب يتحدث عن خطورة تفجير القنابل الذرية وصهيوني يسأل : لماذا يتحدث عن التفجير الذري ولا يتحدث عن الصاروخ الذي اطلقه ناصر ليهدد به اسرائيل . وحده كمال يقول : " . . . ووقفت مكان الخطيب لأشرح لجميع الموجودين هناك قضايانا العربية ، وطرح علي عشرات الاسئلة " ^(٢) ويشير الى ان اكثر الاسئلة تبين ان القضية العربية مرتبطة في الخارج باسم ناصر . لذلك ، كان اعجاب كمال بجمال وقودا معنويا دافعا في وقفته ، وهو لم تعوزه الحجة يوما . يعرف ماذا يريد دائما وإن كان يخطيء احيانا في توقيته التصريح به ، فيقوده هذا الخطأ الى السجن مرارا والى التشريد . حتى وان كانت السياسة تتطلب التقية والمداراة كثيرا ، الا ان كمال ناصر يريد لها صريحة مباشرة . كان يريد للوحدة ان تعمّر حتى تحقق اهدافها المقدسة ، ولكنها صدمته بالانفصال . ثم التفت الى الجزائر المقاتلة " للاشتراك في ثورتها المسلحة . . . الا ان ظروفنا حالت حينذاك دون اشتراكه فيها " ^(٣)

وعاد الى سوريا شاعر الحزب بعثيا مرموقا عام ١٩٦٣ لينعش النفس بشذى حريتها . ومن ثمّ ليشهد انقلابها العسكري الذي راح ضحيته . . . وكم وكم ضحى بهذا الجسد الذي قد يتهدم ، وبهذه الروح التي قد تتحطم . . . فيعتقد بإمكانية شفاء باريس له جسدا وروحيا . ويلتقط انفاسه وبعض متاعه ويطيّر الى بيزيت لاعناً الاغتراب واللجوء السياسي .

ويوقن ان الوطن في أمّ الحاجة اليه . ولكن القدر الناشم يعاجل المعارب نفسي بداية استراحتته . واستيقظت السموم الفلسطينية على صباح اشدّ حلقة من الدجى ، على غزوة صهيونية . . . اعادة أكثر من ناجحة لمجزرة بربرية تقاسم افعالها غزاة حقيقيون . وتساءل كمال - كغيره - لمصلحة من تركت قرية السموع عزلاء على خط نار ملتهب ؟ ولكن لا يضيع المرء في خضمّ التساؤلات ، فان بريق توقيع اتفاقية الدفاع المشترك بين مصر وسوريا ، بعد الغزوة مباشرة ، رافقه في الضفة الغربية تشكيل ذاتي للجان الدفاع الشعبية لتوعية الشعب

١- مجلة " اخبار الاسبوع " المصرية ، الاحد ٢٧ شباط ١٩٦٦ (هي جازة موجودة لدى) .
٢- من حديث اجراه معه الصحافي وجيه ابوزكي في جازة صحيفة مصرية غير مذكور اسمها ولا تاريخها .

٣- من حديث خاص مع الشاعر يوسف الخطيب في ١٩٧٧ بدمشق ، وهو لا يذكر الاسباب

وتنظيمه . . . وزارت الوفود الملك حسين طالبة منه السلاح! ^(١) وقد عزّما طلبوا .
أي امرئ يقنع أهل الضفة الغربية بأن عدم تسليحهم وتهيئتهم جدّيا ليكونوا خط
مواجهة ومصادمة لا مفر منها مع العدو الصهيوني على بعد أمتار . . . من يقنعهم بحسن
النوايا او بالعزم على الحماية؟
واستيقظ الناس صباح الخامس من حزيران ١٩٦٧ ، يلوحون للجنود "العرب" من
مختلف الاقطار ! مبتهجين للنصر ! وما علموا او بالاحرى ، لم يكونو مهيّئين ان يهدقوا او
يتخيلوا انهم اصبحوا في حظيرة جنود صهاينة ليس غير .
وابتداً حلول الكابوس في ظل وضع ميؤوس منه . فمن يعالجه؟ ومتى ؟ وكيف ؟ ولا سيما
ان النفس سرعان ما تتحطم وبطآن ما تتقوم .

ثانياً - مرحلة ١٩٦٧ - ١٩٦٨

فعل الارتداد النفسي في كمال فعل المثبط المسمر له في رقعة ضيقة أرضا وشعبا .
وانطرح السؤال الشهير الذي كان يردده : ما العمل؟
والعمل يعني التحرك الهادف ، فالى فلسطين المحتلة منذ ١٩٤٨ كان له انطلاق
وتعرّف الى معالمها المستحدثة لغايات ، والمشوهة لبواعث . فإن ازداد وجه الناصرة وحيفا
جمالا طبيعيا ، فقد أغرق الصهاينة يافا الجميلة بأذيال تل أبيب التي حرمتها من لمسات
التجديد الساحرة ، لا بل أمعنت في تشويهها اكثر .
ويوم انكران يرى صهيونيا ، فقد رأى العديد منهم في رحلته التي غطت الأرض كلها ،
وكان له مثل حوار الصم مع طالبة يهودية جامعية التقى بها على طريق يافا - القدس حيث
راحت تؤرّخ فلسطين لشعبها وانهم اضطهدوا في كل العالم فلا بد لهم من ارض .
وسألها كمال : "هل سألت نفسك يوما لماذا اضطهدتم كعشب ؟ وبالمناسبة ، انتم اضطهدتم
في كل مكان وليس في بلادنا العربية ولا في فلسطين . . . ومع ذلك فاننا ما زلنا نفرّق بين
اليهودية كدين وبين الصهيونية ، ونعتقد انكم ضلّتم . . ." ^(٢) لقد حاول كمال ان يغسل
دماغها . . . إن هي الا محاولة ، أيزيل في دقائق ما رسّخته الصهيونية في تسعة عشر عاما ؟
تعدّ العمل في ظل هذه العقلية وازدياد شراسة المحتلين فيما يعاني الشعب
الأمّين . وهار لزاما ان يلتقي الشباب من مختلف المعتقدات الحزبية . لذلك ، تشكلت لجان
للتحرك بين المواطنين ، كان ابراهيم بكر وكمال ناصر من ضباط اتصالها . وفي الثلاثين من
حزيران ١٩٦٧ ^(٣) ونزع اول منشور رسمي من رجال المقاومة السلبية باسم "الحركة الوطنية
الفلسطينية" يدعو المواطنين الى الوقوف موقفاً سلبياً من الاحتلال واستنكاره .

١ - H. Salaam... (Idem. Ibid.) p. 20.

٢ - الآثار النثرية - مذكراته ٢٢ أيلول ١٩٦٧ ، ص ٢٣٥ - ٢٣٦ .

٣ - الآثار النثرية - مذكراته ٣٠ حزيران ١٩٦٧ ، ص ٢٧١ وما بعدها .

لقد كان واجبا اساسيا التصدي لمحاولات تثبيت الاحتلال ومنع الناس من النزوح القسري. يتذكر هذا ، ابراهيم بكر : " . . . وكانت المبادرة من المرحوم الأخ كمال ومي . وعلى هذا الاساس تشكلت لجنة شعبية في رام الله شاركت فيها مدينة البيرة أيضا ثم في القدس ، وحاولنا تعميم ذلك على باقي مدن الضفة الغربية . . . كان عمل اللجان الشعبية واسعاً جداً يتعدى في كثير من الحالات القضايا السياسية ويتناول اجمالا معالجة كافة الشؤون العامة . " (١) وعرفت هذه المجموعات باسم مجموعات رام الله او لجان رام الله الشعبية التي كان يعمل اعضاءها في سرية تامة عن عيون الاحتلال . واستمر العمل السليبي للجان في الضفة الغربية منفصلا عن النشاط العسكري والتنظيمي لثورة ولدت حديثا عام ١٩٦٥ ، ولكن الالتقاء بين اللجان والثورة كان محصورا ببضعة رجال يشاركون في اللجان مع كمال الذي يجهل نضالهم الأرفع على صعيد الثورة . . . يؤكد هذا قوله : " . . . محمد رؤوف (٢) الذي مضى على خروجه حوالي الشهرين من الضفة الغربية بعد أن خاض عدة معارك ضد الاحتلال الصهيوني ، استدعته على أثرها القيادة لترتيب اوضاعها في الخارج والتهيئة للانطلاق من جديد . . . كانت هي المرة الأولى التي اسمع فيها بوجود التنظيم المسلح داخل الوطن المحتل . . . ولذلك فقد أظهرت استيائي من صاحبي "ع" الذي يعمل من وراء ظهره ، كما ثبت لي بأنه عضواً في تنظيم يعمل منذ ١٩٦٥ في الخارج والداخل . " (٣) هذا يعني ان كمال ناصر لم يكن قد ارتفع بعد عملياً الى مرحلة الكفاح المسلح وان كان يتمنى ذلك بدليل استيائه من تكتم رفاقه في ذلك الجناح العسكري .

ولكن ، هل كان كمال يريد ذلك فعلاً حينذاك ؟ أم كان يفضل العمل الشعبي السري على ما في التحرك من محاذير الانكشاف ؟ وماذا كان يمنعه من الأول ؟

هو نفسه كان يؤثر العمل السري وان لم يمنعه من المسلح مانع حقيقي ، اللهم الا انعدام خبرته فيه وطغيان الوقت ، والا توقعات انكشاف امره كشاب فلسطيني مثقف بين التحرك . لذا نجده " يفاجأ بصديقه "ع" يدعوه الى اجتماع مكشوف مع "الاخوان فسي القدس" فيقول : " . . . رفضت المبدأ ورفضت أن أكشف نفسي فأتعرض للطرده خارج البلاد دون جدوى . " (٤) ألم يعترف كمال مرارا بوحشية اللجوء السياسي وخطأ الخروج من هلبة الصراع مبيرا بخطوتين إلى الوراء لقاء خطوة الى الامام ؟

واستمر في التحرك داخليا مع مجموعة من أصدقائه ورفاق نضاله ، يلتقي بجماعة "حركة الأرض" ويشيوعي الأرض المحتلة من حزب "راكح" ، وشخصيات صهيونية راحت تعقد لقاءات تبدأ بمداهمات ، مع الشباب الفلسطيني المثقفه وكمال يجد كل ذلك دافعا إلى العمل الشعبي ويؤثر أن ينوء فرداً من أن ينوء المجتمع كـ شعب .

- ١- ابراهيم بكر ، المحامي ، السياسي الذي رافق كمال ناصر طويلا في نضاله الوطني في فلسطين والأردن ، وقد سألته فأجاب برسالة مفصلة في ١٤ / ١١ / ١٩٧٧ من عمان .
- ٢- في لقاء بالاستاذ عبد المحسن ابو ميزرع عام ١٩٧٦ بدمشق وهو يدل كمال بعد استشهاده ، قال لي ان محمد رؤوف هو نفسه ياسر عرفات .
- ٣- الآثار النثرية - مذكراته ١٧ تشرين الاول ١٩٦٧ ، ص ٢٥٥ .
- ٤- الآثار النثرية - مذكراته ٢٠ تشرين الثاني ١٩٦٧ ، ص ٢٦٧ .

لذلك ، وعندما عنم موشي دايان على زيارة القدس والتقاء الوجهاء والمختير وأعضاء البلديات والشباب ، يقول كمال في مذكراته^(١) : "قررت الحضور بالاتفاق مع صديقي رئيس البلدية باسم المعلم "سليم" من القرية ، وأرتدي الحطة والعقال . فاشترط ألا أتكلم . . . ولكنني لم اصبر فسألت دايان بهراحة ووضوح : متى ستخرجون من بلادنا ؟ فأجاب : نحن باقون هنا بالشكل الحالي حتى يتم صلح حقيقي بيننا وبينكم ثم نعيش معكم بسلم . . . ثم يجب تثبيت حدود آمنة لنا . قلت : تقول كتبكم : ان حدودكم من النيل الى الفرات ، ثم ان هذه الارض ليست ملككم ، هي للفلسطينيين العرب منذ الفي سنة فهل تستطيع ان تبرر لي أخلاقيا وقانونيا كيف يحق لكم دولة على حساب واثلاء مليوني انسان ؟ - أحببت ان أراه محرجا مرتبكا امام الحقيقة - فقال دايان : انت يا سيد سليم شاب مثالي ولا تعرف حقائق الحياة السياسية ، تتكلم عن الاخلاق والقانون وتطلب منا ان نبرر وجودنا . انني أنصحك أن تبحث لك عن بداية جديدة من ضمن الواقع ."

وطلبني لمقابلته عن طريق الحاكم العسكري وصافحني وهو خارج ، ووعده بالزيارة . . . ولكنني لم ولن اذهب . . . وألح علي صاحبى عضو المجلس البلدى بعد الحوار ، بالسفر والاختفاء فرفضت مع ان الحاكم العسكري طلب منه تفصيلات عني .

وقد يكون هذا الحدث الى غيره من النشاطات ، سببا مباشرا لطرد كمال الى شرقي الاردن بعد أن لم يتوسع المحتل من اخراج الكثير من العناصر البارزة أمثال عبد المحسن أبو ميزر وروحي الخطيب وابراهيم بكر وغيرهم ، لمواقف اتخذوها من الاحتلال . وأذاع العدو نبأ طرد ابراهيم وكمال . ووقع كمال مجدداً في ما كره . ووصل الى

الاردن لا يلوي على شيء ، إلى ان انعطف مجرى التاريخ السياسي في المنطقة حين قررت المقاومة الفلسطينية في الاردن التمدي للاجتياح العسكري الصهيوني لمعسكر الكرامة فجر الحادي والعشرين من آذار ١٩٦٨ . فخاضت حرب مواجهة عنيفة طوال النهار ضد قوات العدو والجوية والبرية المسلحة بأحدث المعدات الثقيلة والمدمرة . وما ان بدأ حلول الظلام حتى كان العدو ويترك بقايا آليات وقتلى يجد صعوبة في سحبها خلف الجسور العسكرية التي أقامها على النهر . وأصبح معسكر الكرامة رمزاً لأول صمود عربي في وجه الاحتلال الصهيوني مسقطاً بذلك اسطورة التفوق الصهيوني . يكون الانتصار حيث يكون الايمان والاصرار على القتال والصمود وقد دفعت الثورة عدد كبيراً من خيرة قياديينها السياسيين والعسكريين ثمنا لذلك الانتصار . ولكن الانتصار عوّضت الثورة بأعداد هائلة من الملتحقين بصفوفها ، ومنهم كان كمال ناصر الذي صار العمل السياسي يستهلك كل وقته لما فيه من وعاء وتقدم الى جانب ضخامة الأحداث العسكرية المستجدة على صعيد الثورة الى درجة انه كتب يقول : "لا علاقة لي بالقلم والورقة (وهو الشاعر) الا في تلك اللحظات التي أجلس لأكتب فيها لك هذه الأسطر القليلة . . . عملي السياسي يأكل كل

وقتي . لقد أقمنا ندوة من اجل انقاذ القدس التي يستعجل اليهود تهويدها ، وقد انبثق عنها لجنة تنفيذية وربما سيكون لنا نشاط عربي قريب خارج حدود الأردن .» (١)

وفعالاً ، كان له انطلاق آخر أبعد الى بريطانيا وقد كتبت صحيفة "التايمز" اللندنية (٢) ان كمال ناصر "يعمل لتأسيس لجنة للدفاع عن القدس في بريطانيا تتألف من ٦ بريطانيين و ٤ عرب . " وكذالك نشط هناك فكانت له ندوة املم حشد بريطاني اراد فيها اثارة عقولهم فقال : " فاذا لم يكن السلام قائماً على العدل ، فلماذا نزلتم في طاهون الحرب العالمية الثانية بجلايين الارواح من شبابكم لانقاذ أوروبا من الاعتداء النازي؟ لماذا ساندتم كهاج الحركة التحررية في أوروبا ضد الاحتلال النازي؟ للسبب ذاته ، نعرض قهينتنا في محافلكم ، فبكل بساطة احتل الصهاينة اراضينا وبيوتنا . مليون طريد ، والعام الماضي أضيف اليهم ٤٠٠ ألف ، أغدق العالم عليهم الهبات ومنع عنهم أبسط حقوق الانسان الوطنية . . . لست أعرض عليكم الأمر لنيل مساعدة ، وانما لدعمكم لهم حتى يعودوا الى بيوتهم في فلسطين ، ففي ظل يأسهم من نيل حقوقهم العادلة من خلال هيئات الأمم المتحدة السلمية ، ورفع اسرائيل التقييد بالحلول المطروحة على اتمال عشرين عاماً ، لم يجد اللاجئون الفلسطينيون غير المقاومة المسلحة طريقاً ، شأنهم شأن كل حركات التحرر عبر التاريخ . . . اننا بحاجة الى دعمكم الذي نرجوا ان يشملنا كما شمل ، فيما مضى ، كل المناضلين من أجل التحرر والعدالة .» (٣)

خاطبهم بالعقل وليس بالعاطفة لاعتقاد ، بناء على اساس نكبة فلسطين ودور بريطانيا في حلها ، ان تلك العاطفة قد تحجرت في قلوبهم او توجهت مصلحياً وجهة خطأ تنم عن قصر في الرؤية . وربما كان يطلب الدعم المعنوي فقط تفواؤلاً منه بأن العمل العسكري هو دعم أشد فعالية للمطلب الحق . ولدى صدور قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ (٤) الشهير ، علق على ايمانه بقدره الثوار على سحق القرار بقوله : " سستمعون اخباراً مفرحة قريباً . أنا اعرفهم وقد رأيتهم في دمشق عام ١٩٦٥ . طراز جديد من الرجال العرب . . هم حطموا قرار ٢٤٢ مع اول عبوة فجرها بعد صدوره .» (٥)

كمال ناصر متفائل دوماً على الرغم من ليل الصعاب الطويل والمتفائل فيه سالك وعبر دروبه . ففي رأيه ان الوضع العربي مستتق يتوقع ان يحدث فيه كل ما يزيرو من ١٩٤٨ الى ١٩٥٦ ، الى ١٩٦٧ . ولكنه يقرر : " مع كل ذلك ، فقد اخترت الطريق الصعب وما زالت

- ١- في رسالة خاصة له الى غادة السمان لم يؤرخها ولكنها حسب مضمونها عام ١٩٦٨ .
- ٢- اليوميات الفلسطينية ، المجلد ١٧ تاريخ ١٧ / ٦ / ١٩٦٨ ، ص ٢٨٢ .
- ٣- الفقرة المقتبسة كلها ترجمتها عن النص الاصلي لندوة كمال هذه بالانجليزية حصلت عليه .
- ٤- قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ تاريخ ٢٢ تشرين الثاني ١٩٦٧ ، وفيه يؤكّد مجلس الأمن بطلان شرعية الاستيلاء على الاراضي عن طريق القوة . ويقرر انسحاب القوات الاسرائيلية من الاراضي التي احتلتها في النزاع الأخير وان تنهي كل دولة حالة الحرب وتحترم وتقر بالاستقلال والسيادة الاقليمية لكل دول المنطقة وحققها في العيش بسلام ضمن حدود مأهولة معترف بها . ويطلب القرار تحقيق تسوية عاجلة لمشكلة اللاجئين . . . الخ .
- ٥- هنا مقبل . ذكريات عن الشهيد كمال ناصر ، ص ٦٤ وما بعدها . ويجدر بالذكر هنا أن كمال ناصر يشير في حديثه الى " قوات العاصفة " الجناح العسكري لحركة " فتح " التي انطلقت رماصتها الاولى في الفاتح من كانون الثاني عام ١٩٦٥ .

في المعركة الى درجة تعريض نفسي لكل شيء حتى الموت . أنا قومي يا فهميم ، ولن اترجع .
والغريب انني متفائل وأكاد رغم المأساة أكون سعيداً لأنها قد تكون الفرصة الصحيحة للبدء
الصحيحة» (١)

وتقفز الى الذاكرة صورة موجية لحياة كمال المناضل رغم جو التشاؤم الحاد الذي سبق
استشهاده وقد سألته أمه : ألم تتعب من هذه الحياة ؟ فأجاب : "انها غلظتك . . . فأنت
من المهمتي منذ نعومة اظفاري ان أناضل من اجل شعبي .» (٢)
ونتساءل : ألم يتعب كمال من حياته السياسية الطويلة المثقلة ؟ ولكن التعب إيذان
بابتداء النهاية . . . ولا تنتهي البطولة الا بالنصر او بالشهادة .

ثالثاً - نشاطه في حزب البعث العربي الاشتراكي

كان مقدّراً للأحزاب الفلسطينية ان تنهار بانهار الكيان بعد أيار ١٩٤٨ ، ممّا
أتاح للانفاس الحزبية العربية ان تجد لها في فلسطين رثايت خليات متعطشات . أمّا
الشباب الفلسطيني الذي اغمض العيون على رؤى داكنة ، شقّت جفونه تلك الأشعة الحزبية
الخاطفة فتلقفتها ولا سيما انها تنادي بتحرير فلسطين اولاً ، وانها في شعبيتها تريحه
اثر شعور بالعجز مطبق تجاه الانظمة العربية الرسمية ثانياً ، وانها أحزاب عقائدية ذات
أطر منظمة فعالة ثالثاً . هذه الاسباب الثلاثة - دون سواها - هي التي دفعت كمال ناصر
والشباب غالباً الى الانخراط في صفوف احزاب وأحزاب . هو نفسه يعدل اهمية تلك بقوله :
" . . . التنظيم العقائدي مفيد في تربية المجتمع العربي الجديد وتوعيته على وجوده
ورسالته الانسانية . وهذا التنظيم ضرورة لمكانة الاستعمار في ظل شعارات هادئة ثورية
تستهدف تحرير الامة العربية واستقلالها . . .» (٣) وخاضعة أن الشعب ما زال تحت تأثير
ضربة موجعة : الحياة الديمقراطية معطلة ، النفوس والجهود موزعة ، الهمم خابية ، الثقافة
حزمة متفارقات . ولكنه رأى " ان الاحزاب السياسية دليل حياة ديمقراطية صحيحة ، وهي
تكتف قوى الشعب وتسيره حسب برامج سياسية وفكرية وثقافية واضحة المعالم والأسس .» (٤)
كان للبعث في حينه بريق خاص . كما كان لانتماء اغلبية أصدقاء كمال دور مشجّع
الى جانب الافكار والمبادئ الوحدوية والتحريرية . . . لأجل ذلك انتمى الى حزب البعث ،
هذا اذا تجاوزنا قول أحد اصدقائه (٥) بأنه اشترك في تأسيس حزب بعث في رام الله مع
راجي صهيون ويحيى حمودة وعبدالله نعواس والأب ابراهيم عياد وآخرين . ثم يتفرق هؤلاء
الرجال كل في سبيله ، وتندثر الفكرة .

١- من رسالة الدكتور فهميم ناصر السابقة نفسها .

٢- H. Salaam... (Idem. Ibid.) p. 5.

٣- من حوار وجيه ابوزكي السابق مع كمال أجراه معه بعد عودة الشاعر من روسيا وانجلترا
في ١٩٦١ .

٤- جريدة "فلسطين" ونيتها مقالات مصورة عن الأصل بدون ذكر رقم العدد ولا التاريخ ،
وسوف نتعرض لهذا في الفصل الثاني من هذا الباب عن الكاتب السياسي .

٥- من حديث خاص مع الأب ابراهيم عياد في آذار ١٩٧٥ ببيروت .

ونحن اذا ما طالعنا جريدة "الجيل الجديد" أترأتنا قولها: "علمنا ان حركة البعث في فلسطين قد اجتمعت في القدس قبل يومين وبحيث جدّيا في مسألة الخروج على الملا بعد أن أتمت معظم استعداداتها ووضعت دستور حركتها . والمرجح ان تتخذ حركة البعث مقراً لها في باب الساهرة بالقدس." (١) فهل حاول كمال "الانبعاث" قبل "البعث" المعروف آنذاك أم على خطاه ؟ الذي يدفع الى مثل هذا التساؤل هو كثرة ايراد كمال في قصائده وكتاباتة السياسية للفظه "البعث" في عدد من تعريفاتها بشكل ملفت. (٢)

ولكن ، متى انتمى كمال الى حزب البعث العربي الاشتراكي ؟ هذا لا يجزم في تحديده هكذا وإن كنا لا نقبل بالقول ان كمال "انضم" في اوائل صيف ١٩٥٦ الى حزب البعث العربي الاشتراكي ، ودخل الانتخابات مثلاً عنه في منطقة رام الله ، فنجح وأصبح نائباً في البرلمان. (٣) فأنا يرشح حزباً ، لينوب عنه في مجلس شعب ، رجلاً لم تمرّ على عضويته فيه ثلاثة اشهر تأمّة ، فذلك حزب لا يحترم نفسه الا ان يكون العضو خارقاً . ولكني لا نجزم هنا ايضاً ، نرى مذهب محمد حمادة (٤) الذي أفاده أكثر من سألهم عن الموضوع بأنه انتمى عام ٥١ أو ٥٣ . فارتأى العام ٥٢ حلاً وسطاً بين تاريخين متقاربين .

وطالما ان احد الرفاق الملازمين لكمال ، ما زال يذكر وقائع تلك الاعوام ، فلنسمعه يروي : "سنة ١٩٤٩ حضرت اولى اجتماعات حزب البعث في بداية العمل لتأسيسه مع كمال وراجي صهيون في رام الله ولم نكن بعثيين . وأواخر ١٩٥٢ لم يكن كمال بعثياً بعد . . . كان اجتماعياً قريباً الى البعث والقوميين العرب ، انما فكراً كان قريباً الى الاكتريسارية من البعث . " (٥) ويكمل الرفيق روايته: "أعتقد انه جاء الى الشام زمناً في عام ١٩٥٣ وقد تقرب إلى الحزبيين فيها . ففي عام ١٩٥٣ دخل كمال عليّ في مكنتي ، وكنت مديراً للبرامج في الاذاعة الاردنية ، بعصبية قائلاً : "عصام ، أنا قررت ان أكون بعثياً ، وخاض الانتخابات المزيّفة عن حزب البعث سرّاً لأن الاحزاب كانت محظورة . . . ونشل سنة ١٩٥٤ ."

ونحن اذا كنا أكثر أخذاً بالقول الأخير ، فما يهمننا هو ان كمال ناصر ، عندما أراد تطير نهاله السياسي ، بدأه عفوياً مستقلاً ثم انخرط في صفوف "البعث" أكثر من عشر سنين . حتى عندما انفصل عنه الى الدائرة السياسية في منظمة التحرير الفلسطينية ، وجدناه يتنفس البعثية حين يذكرها في مناسبة عامة في قصيدته مؤبنا خالد الشرطي ، البعثي الخلقية فيقول :

" فوداعاً يضمك البعث والفتح ومعناهما : السلى والفخار " (٦)

وفي القول هذا أجمل التذكارات . . . حنين الى خوالي النضال عندما كان يمّني النفس بالتحزّب امانى عظاماً ، عندما حاول ان يمسك بالدقّة مع من يسكونها قادة الى الافضل ، فشطر

- ١- جريدة "الجيل الجديد" العدد ٧ في ١٥ أيار ١٩٤٩ ، ص ١ .
- ٢- سنرى ذلك في الباب الاخير لذي استقرأ المعجم اللغوي للشاعرة ص ٢٨٤
- ٣- الأثار النثرية ، صفحة ٨ من المقدمة بقلم ناجي علوش .
- ٤- كمال ناصر شاعراً ومناضلاً ، هامش ٩ ، ص ٣٤ .
- ٥- من حديث خاشع مع رفيق كمال ، عصام حماد في ١٢ / ١١ / ١٩٧٧ بدمشق . وظاهر أنه يقصد البداية التأسيسية العنصرية الأولى التي ذكرناها قبل قليل .
- ٦- الأثار الشعرية ، ص ١٥٦ .

نفسه وبعثها ثم لهما متألمة الحنايا . . . يهاجم في شخصه ولو لم يكن بعثيا ملقرا لغض . .
لذا ، عندما يتخذ صلاح الدين البيطار وأكرم الحوراني موقفا معينا من حركة البعث اثر
خلافات داخلية وانقسامات ، ينبري كمال ببيانه موضحاً ذات نفسه قائل : " . . . انني لا
ألجأ الى اية مناورات تكتيكية تستهدف أية مصلحة خاصة من وراء كل ذلك ، ولكنني وقد
كنت آمل ان يكون معروفا لأقرب الناس الي ، انني عملت بهذه الروحانية في الخمسة عشر
سنة الماضية من حياتي الوطنية والسياسية العامة . وسأبقى طالما انا مصمم على العمل في
هذا الحقل ، أنظر للأمور من خلال النظرة المثالية الصحيحة التي كوَّنتها من تبني العقيدة
ومن خلال تجاربي الحية الكثيرة . " (١)

وعندما تقوم ثورة العراق ، نراه يتخذ من وجهها الظاهر ، عبد الكريم قاسم ، موقفا
محاذرا فيقف الى جانب الوجه الفعلي المخبوء ، عبد السلام عارف . لهذا يعتبر ان العراق
انتكس بعد ثورته وقد زاره في وفد لجنة الاتصال الشعبي والتهنئة وكتب يقول : " . . . وانه
لواجب أيضا أن يتناسى كل واحد منا نفسه ويعترف ان واجبه يدعوه للعمل من أجل المجموعة ،
من أجل انتصار المبادئ والافكار الصحيحة . " (٢)

ونتساءل هنا : هل هذا الواجب هو الذي أسكته أحيانا كما أفرغ عليه الصدور مرارا ؟
اذن ، حقا " كان يتمزق ، فهو وجد نفسه أيام البعث في مواقع التفكير لكنه بعيدا وبعيدا
عن مواقع التقرير . . . مأساته ان طلاقا حصل بين مواقع التفكير والتقرير . " (٣) كيف حصل هذا
الطلاق وماذا كان دور كمال فيه ؟ ما نتيجته وانعكاساته عليه ؟ الطلاق يؤدى الى طلاق
اتسي ، فهل كان نهائيا ؟

بعد التشققات في صفوف القيادة البعثية خلال سني الوحدة ، ثم حين وقوع
الانفصال مع ما تبعه من اقتتال عام ١٩٦٦ الشهر ، انطلق كمال يعبر عن حقد الصريح
على اسلوب الانقلابات العسكرية . (٤) وانبرى يهاجم الانقلابيين في الشوارع فسجنوه
حتى فسر من المستشفى فيما بعد .

تقول كولينت خوري : كان كمال ناصر معروفا لدى العامة حتى ان جازنا السائق كان
يسمع به ولا يعرفه وقد نقله بسيارته من غير ان يعلم بفراره . (٥) ومن السجن الى لبنان
ففرنسا . ولكنه مظاف غير مشوق لم يكن بعده بد من الرجوع الى بيروت في أواخر ١٩٦٦ .
ولكن عزمه على البقاء راح يتلاشى مع غزو المهالبة لقرية السموع ثم نكسة حزيران ١٩٦٧ التي
أخرجته الى عالم جديد ليس لصراعه حد ود .

- ١- بيان سياسي لكamal يلاحظ انه منشور في سوريا بدون تاريخ ولكن يفهم انه اواخر الستينات .
- ٢- كمال ناصر . " كنت في العراق " مجلة آخر ساعة ، المصرية ، ١٤٧٧ (١٢ فبراير - ١٩٦٦) ،
والجزارة موجودة لدي .
- ٣- كلوفيس مقصود . كمال ناصر شاعر في ورشة الثورة " مجلة " شؤون فلسطينية العدد ٢١
(أيار ١٩٧٣) ، ص ١٩ .
- ٤- كان الانقلاب في سوريا بقيادة نورالدين الأتاسي وصلاح جديد وآخرين .
- ٥- كولينت خوري ، الحديث السابق . وهي قد عرفت كمال ناصر صديقا وشاعرا وأديبا طيلة
اقامته في سوريا وترددت على دمشق خلال حياته .

وأخيراً ، هل كان كمال ناصر بعثياً حسب المفهوم الحزبي السائد ؟ انه كعضو كان يتعين عليه ان يكون في مرتبة معينة يناضل من خلالها على أساس التسلسل التنظيمي المتداول . ولكن كل من عرف هذا النموذج البعثي الطريف أكد انه لم يكن منضبطاً كسائر الرفاق ، ولم يتقيد بقيد حزبي قط ، ولا تفصله عن مرتبات حزبية ادنى أو اعلى اية فواصل . كان ذا علاقات حسنة مع صغار الحزبيين يتفهم ببسمة الشجعة وفكرته الدافعة الى التفاؤل الدائم . وهكذا كانت علاقاته المباشرة مع كبار القياديين وهولا الى مؤسس الحزب ، ميشال علق . يعتبر نفسه ، كما يعتبرونه ، شاعر الحزب يتخطى الحواجز الرتبوية ويقوم علاقات مؤثرة مع الجميع موصلة الى عقول جميع من عرفهم وعاشهم ولى قلوبهم .

ان علاقة كمال بالبعث ، شكلياً ، قد انقطعت بعد الفرار الكبير وان تكن علاقته الفكرية لم تنقطع لا بل اتصلت - كما مرّ قبل قليل - حتى اواخر أيام حياته . لهذا نراه بعد حزيران ١٩٦٧ مناضلاً عفويًا وملتزمًا في آن واحد . حتى اسلوب نضاله السياسي ونشاطه في منظمة التحرير الفلسطينية ، سوف نرى انه مكتسب من نضاله الحزبي العقائدي وتجاربه القيمة التي رمت حياته السياسية حتى النهاية .

ولمّا كانت نيابة كمال في الاردن عام ١٩٥٦ ذات أثر كبير في مساره حياته السياسية ، فقد أفردنا لهذه المرحلة النضالية القصيرة الاجل مبحثاً خاصاً لنراه اذا كان نائباً عادياً أم متميّزاً .

رابعاً - دوره في مجلس النواب الاردني

بعد أن تيسر للملك عبد الله أمرهم ما تبقى من فلسطين الى مملكته ، توجه الى الشعب بشقيه في محاولة متعمدة لإقرار المناخ الديمقراطي من خلال انتخاب ممثلين ينوبون عنه في ادارة شؤون البلاد . وأعلنتها الملك انتخابات حرة ، وللحرية جاذب مغر . كان ذلك أواخر عام ١٩٥٤ ، وكما قد عاب مؤخراً من الكويت ووجد الجو ملائماً ، فأصدر بيانه الترشيحي معللاً : " . . . البلاد العربية بحاجة الى دماء جديدة ، وانني اتقدم باسم الجيل الجديد لهذه المعركة مستقلاً ، واستقلالي ناتج عن عدم انضمامي الى اي حزب من الاحزاب الحالية الموجودة في البلاد . . . ومن كانت هجرته لله والوطن فهجرته لله والوطن . " (١)

هذا هو دافعه الى الترشيح ، وهو أحد ابناء الجيل الجديد ان لم يكن مثلاً لهم فمن أجدرب أن يكون ! وهل كان ضامناً نجاحه ! ام انها تجربة لها ما لها من النتائج ؟ انه يستنطق نفسه باسم الشباب قائلًا : " . . . نحن أبناء هذا الجيل الجديد ، حسبنا ان نتحسس هذا الواقع المرير الذي يعيش فيه شعبنا العربي ، وحسبنا اننا نحاول ان نشق لأنفسنا طريقاً واضح المعالم . . .

١ - بيان كمال الانتخابي ، في محفوظات مركز الابحاث الفلسطينية في بيروت ، بلا تاريخ . وقد يكون زاعماً استقلاليتها بسبب حظر الانتماء الى الاحزاب علناً وهو الذي أثبتنا بعثيته قبيل هذه الانتخابات .

شرف الوثبة ان ترضي العلا
غلب الواثب أم لم يغلب^(١)

هو اذن ، يحاول الوثوب باتجاه العلا عندما يكون الوثوب معيار العظمة والفخار ، يتأهب لتمثيل الجيل الجديد فيبرز له المنافسون عن قفاء رام الله . . . وتقرأ لجنة الفرز اسم منافسه من على اوراق باسمه . . . ويهتّب كمال منقذا الورقة فاضحاً التواطؤ وخسة الانتقام . لقد قررت السلطات اسقاط كل الوطنيين . يذكر احد رفاق صباه آنذاك ، وقد خرجت المظاهرات في صبيحة اليوم التالي للنتائج ، تعمّ مدينة رام الله : " ان المتظاهرين حاصروا مركز القائم مقام رغم اجراءات الأمن المشددة ، ودخل كمال مع من دخل من القادة الوطنيين لابلّغ السلطة احتجاجهم واستنكارهم ومطالب الجماهير^(٢) .

منذ أن شبّ كمال وهو يقود معارك الترشيح لخاله موسى حنا ناصر ، ولم يثنه عن الترشيح ان خاله ما زال يصول في الميدان . مبكراً ، كان له آراء تعدل أسباب دخول البرلمان ، منها ان العمل من الداخل أكثر شرعية وفعالية من الاعتراض الخارجي ، واعتقاده " . . . اننا سنشترك في تكييف دقّة المجتمع . . . فالانتخابات ستجري ان شئنا أم أبينا . وفي هذه الحالة هل نترك الميدان للمعاليك تعول وتجول وتتصرف بأمر الشعب عن غير فهم أم نحاول ابراز عناصر قوية مخلصه طيبة؟^(٣) "

وازاء اصراره على تمثيل الشعب كحقّ مكتسب ، واصراره على ظاهرة الفشل ، واصراره على ارضاء العلا ارضاء غير مشوب ، فقد وثب ثانية عام ١٩٥٦ ونجح في التربع على سدة النيابة بفخر واعتزاز . فيتذكر ايامذاك قائلاً : " . . . انني أحب ان أشير انني وصلت إلى مقعد النيابة لاهتاً ومتعباً ولكن بشرف ، وبعد نضال وطني دام سنوات طويلة ، فلقد كان للنضال الوطني طعم في تلك الايام^(٤) .

كان المجلس النيابي مناصفة: عشرين نائباً عن الضفة الشرقية ، وعشرين عن الضفة الغربية^(٥) . وكان لكمال فيه حضور دائم ، فهو من عضو لجنة الى مقترح الى مبرق في حركة دائبة لا تترك . لقد انتخب عضواً في لجنة الشؤون الخارجية ، وعضواً في لجنة اللاجئين ، وعضواً في لجنة الردّ على خطاب العرش ، وكذلك مقراً للجنة مشروع الميثاق القومي لمجلس النواب . فهل كان اهلاً لهذه المركزية الحركية؟ وأي أثر ترك في أعمال المجلس ومنجزاته؟ لدى استعراضنا لحركيته الزئبقية في النيابة ، نجد انه لم يترك مناسبة ذات أهمية الا وشارك فيها ابرازها . فهو ، عضو فيها ، قررت لجنة الشؤون الخارجية الطلب الى الحكومة تبادل التمثيل الدبلوماسي مع روسيا والصين الشعبية عاجلاً . ورفع توصية الى

١- كمال ناصر " شكر وعهد " ، جريدة " فلسطين " بتاريخ ٢ تموز ١٩٥٥ وجزازتها لديّ .
اما بيت الشعر الذي استشهد به كمال فهو للشاعر عمر ابو ريشة . ديوانه (بيروت : دار العودة ، ط ١ / ١٩٧١) ، ص ٤٤٢ .

٢- ناجي علوش . ذكريات عن الشهيد كمال ناصر ، ص ٢٨ .

٣- جريدة " الجيل الجديد " عدد ١٩ في ١٢ آذار ١٩٥٠ ، ص ١ . من افتتاحيته بعنوان " حديث الجيل " .

٤- كمال ناصر . " مذكرات لاجي " سياسي " ، شؤون فلسطينية ، العدد ٤٤ (نيسان ١٩٧٥) ، ص ٢٤ .

٥- انتخب في تشرين الثاني ١٩٥٦ . رئيسه حكمت المصري ورئيس وزرائه سليمان النابلسي .

المجلس تطلب من الحكومة إلغاء المعاهدة البريطانية. (١) دول كثيرة في العالم تنحاز الى المعسكر الشيوعي الاشتراكي ، وأخرى أكثر الى المعسكر الرأسمالي الديمقراطي ، ودول كثيرة غير منحازة وهي تشكل العالم الثالث او ما يسمى بالدول النامية وهي دول ضعيفة نسبيا . لذلك تكبر الاردن كيف يتجرأ على معاهدة بريطانية ثقيله ماديا وتضغط على رثيته عسكريا . وأية جرأة تلك التي يجسدها كمال بتأييده إعادة اقرار ارسال برقية لبريطانيا نفسها تعتبرها بنصر صريح (دولة معادية) ؟ هذا لأن البرقية السابقة كانت لهجتها أكثر ليونة باستنكارها فقط الاعتداء الوحشي البريطاني بحرا وجوا على مصر ، وتذكير بريطانيا بمبادئ الحرية والسلام. (٢) وكذلك اقترح مع آخرين إرسال برقية الى فيصل ملك العراق مطالباً باقضاء نوري السعيد واقامة حكومة تسيير في موكب الحكومات العربية ، والتخلي عن حلف بغداد والانفراج عن أحرار العراق المعتقلين. (٣) واذ يتسع نطاق الاعتداءات على الجماهير العربية ، يقدم كمال ناصر ، مع أربعة عشر نائبا ، اقتراحا للابراق الى الرئيس السوري شكري القوتلي والمصري جمال عبد الناصر والسعودي الملك سعود ، وسكرتير هيئة الامم المتحدة ، طالبين فيها وقف الاعتداء الاسرائيلي على أهالي غزة على ايدي عصابتي شتيرن وأرغون ، وإرسال لجنة دولية للتحقيق في جرائم اسرائيل. (٤)

كانت هذه فعاليات كمال النيابية على الصعيد السياسي ، ولكن هناك فعاليات اجتماعية أخرى له لا ماض من ابرازها . فقد اقترح برغبة اقتتاح مكتبتين عامتين في القدس وعمّان. (٥) ومشرفاً لحماية المستأجر من جشع المالك (٦) وتكلم في شؤون القطاع العامل مرتين معاً : الاولى بصدد المطالبة بأنصاف عمال شركة بترول العراق الاستعمارية في محطة أجفور فقال : "اعتقد أنه ليس من الضروري إلقاء خطبة من أجل انصاف العمال ، لان انصافهم حق ."

١- محاضر جلسات مجلس النواب والاعيان الاردني . الجريدة الرسمية الأردنية ، عدد ٦ في ٢٠ تشرين الثاني ١٩٥٦ . اما المعاهدة الاردنية البريطانية فوردت بنودها الرئيسية بالعدد السابع من محاضر الجلسات ، الجلسة الاولى من الدورة الاستثنائية الاولى ليوم الاربعاء ١٣ آذار ١٩٥٧ ، وردت كما يلي : "كانت المعاهدة المنتهية تقضي بأن يضع ملك شرق الاردن قواعد بلاده ومطاراتها وطرق مواصلاتها وسككها الحديدية ومواردها المادية في خدمة بريطانية في حالتي السلم والحرب لتحقيق أهدافها في التسلط والسيطرة والعدوان . كانت المعاهدة تجعل من الجيش العربي أداة لكبت الحريات العامة وضرب الحركات القومية النامية والقضاء على كل اتجاه نحو الوحدة العربية والتحرر والاستقلال . كانت المعاهدة تجعل من الاردن دولة تابعة ليس له شخصية دولية مستقلة . فكان أداة طيعة في يد بريطانيا تسييره حسب مشيئتها وتفرض عليه الرأي الذي ترتئيه . كان الاردن يصادق من تصادق ولو كان من ألد أعداء الأمة العربية والقومية العربية والمصلحة العربية وكان الاردن يعادي من تعادي ولو كان الأخ الشقيق ."

٢- محاضر الجلسات - عدد ٥ جلسة ٥ في ١٣ تشرين الثاني ٥٦ .

٣- محاضر الجلسات - عدد ٨ جلسة ٩ في ٤ كانون الاول ٥٦ .

٤- نفسها - عدد ١١ جلسة ١٢ في ٢ كانون الثاني ٥٧ .

٥- نفسها - عدد ١٢ جلسة ١٣ في ٨ كانون الثاني ٥٧ .

٦- نفسها - عدد ١١ جلسة ١٢ في ٢ كانون الثاني ٥٧ .

والثانية بحدود انصاف شركة الفوسفات ، فقد طالب الحكومة بالتصرف في ضوء ان المنطق يقتضي التحقيق أولاً: (١)

ومن وجهة اخرى ، فقد كان سعيد العزة ، نائب قضاء الخليل ، قد قدم اقتراحا باقامة نصب تذكاري لشهداء الأردن فأيدته كمال (٢) أما اغرب موقفين عرضا لكمال ناصر النائب فكانا :

(١) قدم عبد القادر العمري ، نائب اربد ، اقتراحا برفض ارسال بعثات تعليمية الى جامعات بريطانيا وفرنسا على اعتبار انهما دولتان معاديتان . الا ان كمال ناصر رفض هذا الاقتراح بانياً على أمرين : اولهما ان الذين دعوا بريطانيا هم ممن درسوا فيها . وثانيهما ان الاختصاص اللازم للشباب موجود فيها . ولكن المجلس وافق على الاقتراح وزهق رأى كمال (٣)

(٢) طالب كمال بممارسة المرأة لحقوقها السياسية (٤) فوقف حمد بن جازي ، من نواب بدو الأردن ، قائلاً : " ان النساء قبورهن بيوتهن " (٥)

يتذكر هذه الحادثة الطريفة التي يترك للمطلع تبين مدلولاتها . يتذكرها كمال ضاحكاً متألماً وهو يعطي رأيه في تعيين وزيرة في الجمهورية العربية المتحدة : " في مرة طالبت في البرلمان الاردني باعطاء المرأة العربية في بلادي ، حق الانتخاب ، فوقف شيخ من مشايخ الحويطات ورفع السيف في المجلس وقال : ان الذي يطلب حقوقاً للمرأة يصبـح مثلها ، وسأقطع رأسه بهذا السيف . ولم يكن الرجل إلا جاداً في حديثه وسقط الاقتراح (٦) وتمخضت هذه المرحلة النيابية القصيرة عن منجزات هامة . فقد أعلنت الحكومة استبدال المعونة البريطانية بالمعونة العربية ، وانهاء المعاهدة البريطانية (٧) . وبذلك يكون عهد كمال قد شهد ثلاثة أحداث انجزتها تلك الحكومة وكان لها الفعل المغير في تاريخ الوجود العربي الأردني وهي :

- (١) انتهاء المعاهدة البريطانية ذات الطابع الاستعماري المادي والعسكري .
- (٢) ابعاد غلوب ، القائد العسكري البريطاني للجيش الاردني ، عن الاردن نهائياً لأنه كان يمثل وجهاً عسكرياً من وجوه تلك المعاهدة .
- (٣) رفض الدخول في حلف بغداد الاستعماري لطبيعته العدوانية ضد وحدة الوطن العربي وبروزة كقوة مستقلة ، ولارتباطه بالمصالح الغربية بحكم ولادته في ظل قواها .

-
- ١- محاضر الجلسات - عدد ١٦ جلسة ١٧ في ١٩ شباط ٥٧ .
 - ٢- نفسها - عدد ١١ جلسة ١٢ في ٢ كانون الثاني ٥٧ .
 - ٣- نفسها - عدد ١١ جلسة ٢ في ٢ كانون الثاني ٥٧ .
 - ٤- كان ذلك في الجلستين السابعة والثامنة بتاريخ ٢٧ و ٢٩ تشرين الثاني ١٩٥٦ .
 - ٥- محاضر الجلسات - عدد ١٠ جلسة ١١ في ١٨ كانون الاول ١٩٥٦ .
 - ٦- من الحديث السابق نفسه الذي اجراه الصحافي المصري وجيه ابوزكي مع كمال ناصر .
 - ٧- محاضر الجلسات - عدد ١٧ جلسة ١ من الدورة الاستثنائية الاولى ١٣ آذار ٥٧ .

لقد كان حدثا هاما لم يكن يتخيله ببساطة ان تلغى المعاهدة البغيضة . فسي
الجلسة التي رافقت الغاءها - أفاض النواب في خطبهم الحماسية والوطنية ، حتى كان
دور كمال في خطبة مطولة أكد فيها جملة أمور هي :
(١) انتهاء المعاهدة البريطانية الاردنية نهائيا .
(٢) انسحاب اليهود من غزة .
(٣) ارتداد المعتدين خائبين عن مصر .
(٤) تعاظم حركة التحرير العربي في الجزائر .
(٥) ازدياد القوى المناهضة في جميع انحاء العالم العربي .
(٦) انما قاد الى كل هذه الانتصارات "نهالنا التاريخي المظفر في سبيل الوحدة والحرية
والاشتراكية ."^(١) ثم ألقى قصيدة الهبت الأقف تصفيقا دوى مقاطعا مرات . . قال فيها
معارضها ابا القاسم الشابي :

على درينا فانتشى وانتصره	" بلادي ، تملل حلم الجهاد
وكبر مجد وغنى قدر	فتمتم عهد وزغد جهد
نضال مير عميق العبر . . .	ولاح على ملعب الذكريات
ولم تقض منا المنى والوطر	وديست معاهدة الانكليز
ولم يبق شبر به من أثر	وزالت فزالت قيود الزمان
وكان جهاد وكان ظفر . . .	وكان صباح وكان مساء
وللمجد قول رهيب الخطر	فأهتف في موكب الهاتفين
فلا بد ان يستجيب القدر ^(٢)	اذا الشعب يوما اراد الحياة

وارتفع الكابوس ، وانتشى الشعب وهلل وزغد ، وتوافد المهنئون الى كمال ينظرون
الى الأمل القريب . وحده كان يتطلع الى المستقبل البعيد البعيد ، وحده كان يتحسس
مخاطر الغد ، وحده عبر تاريخ تجاربه الطويلة مذوى الدنيا يعرف مكائد الاسد البريطاني
الجريح . لذلك خاطب زائريه الجذلين لانتهاء المعاهدة قائلا : " لا تشغلوا كثيرا فسي
قضية الغاء المعاهدة . . . انشغلوا فيما يحمله لكم الغد . . . كيف سيخطط الاستعمار لاجهاض
هذا المكسب . ليس المهم ان تحقق الشعوب الانتصارات . . . المهم ان تعرف كيف تحافظ
عليها . . . انظروا حولكم جيدا . . . وراقبوا من اين ستأتي الضربة المعاكسة ."^(٣)
وبالفعل ، صدق حدسه حيث ما لبث صاحب العولجان ان ابتلى . ولم تراسابيع
حتى جرت حركات داخلية أقرب الى ما يسبق الانقلاب ، كانت مبررا للسلطة العليا ان تحل
المجلس وتطارد النواب الوطنيين فتسجن بعضهم بينما يفر كمال الى بيزيت ليتخفى فيها

١- هذه هي الشعارات الشهيرة الثلاثة لحزب البعث العربي الاشتراكي .
٢- القصيدة غير منشورة كاملة في الآثار الشعرية ، وما نشره جزء منها ، ص ٨١ - ٨٢ .
٣- هنا مقبل . ذكريات عن الشهيد كمال ناهر ، ص ٥٨ .

ثم الى نابلس فيتحقّق اربعة عشر شهرا يتسلل بعدها الى سوريا .
تبدأ الازمة مع بدء الجلسة الافتتاحية من الدورة العادية الثانية لمجلس الأمة الخامس
في ١ تشرين الاول ١٩٥٧ ، والتي حضرها الملك حسين ، وتغيّب النواب : شفيق ارشيدات
يعقوب زيادين ، يوسف البندك ، سعيد العزّة ، عبد الخالق يغمور ، عبد الله الريماوي ،
كمال ناصر ، فائق ورّاد^(١) واستمر تغيّب هؤلاء^(٢) كلهم أحيانا بفتح جلسات متتالية وقد أرسل
كمال ناصر الى رئيس المجلس الكتاب التالي :^(٣)

الاردن ١١ / ١٠ / ١٩٥٧

معالي رئيس مجلس النواب المحترم

تحية وبعد :

أتقدم بطلبي هذا راجيا منحي اجازة مقدارها شهر واحد من تاريخه . أسباب مرضية
حالت دون حضوري جلسات مجلس النواب بالاضافة الى اسباب اخرى . سأرسل لمعاليتكم
تقريراً طبيا خلال الايام المقبلة ريثما يتهيأ لي الاتصال بأحد الاطباء - رجائي ان
يوافق المجلس الكريم على هذا الطلب .

كمال ناصر

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام .

نائب رام الله

وام يتقدم كمال فيما بعد بتقرير طبي كما وعد مما يحمل على الطعن بصحة مرضه . أما
الاسباب الاخرى التي ذكرها في كتابه فقد نتبين طبيعتها من معرفتنا لأمر التهمة الموجهة
الى النائب عبد الله الريماوي ، رفيق كمال البعثي ، وهي الاشتراك في المؤامرة لقلب النظام .
حكم خمس عشرة سنة مع الاعتقال لانه فأر وقد اسقطت عنه عضوية النيابة . كما اسقطت عضويته
آخرين من الفارين نخص منهم كمال ناصر الذي يختصر زميله النائب الدكتور الحسيني حقيقة
أسباب تواريه واعتذاره :^(٣)

" تغيّب السيد كمال ناصر لأنه (خايف) من الاعتقال ، كان سبب تخوفه الواقعي قضية
زميلنا السيد عبد الخالق يغمور الذي برّأته المحاكم وحكمته الادارة العسكرية . للآن ،
الكثيرون من أعضاء هذا المجلس الكريم تحت الكفالة . مربوطون بكفالات معينة ، وآخرون
منوعون من السفر للخارج . هذه من جملة الأسباب التي تمنع اشكال كمال ناصر من العودة
الى الظهور في الاردن . لما الحكومة الكريمة تثبت حسن نية بالنسبة لهؤلاء الاعضاء ، أنا
(بتأكد تمام) انه لن يتأخر منهم احد عن الحضور . "

ولدى التصويت على عضوية كمال ، طالب ثلاثة وعشرون نائبا بالاسقاط ، فلم يلبث
نائبا فعليا سوى ستة أشهر كان في نهايتها شديد التشارؤم من ممارسات الحركة الوطنية
التي رأى فيها تفرقا على الحق لقاء اجتماع اصحاب الباطل على باطلهم . لقد رأى الحركة

١ - المملكة الأردنية الهاشمية . مجلس النواب ، ملحق الجريدة الرسمية العدد ١ يوم

الثلاثاء ١ تشرين الاول ١٩٥٧ ، ص ٢ .

٢ - م . ن . الجلسة ٥ الثلاثاء ٣ كانون الأول ١٩٥٧ ، ص ٦٧ .

٣ - م . ن . الجلسة ٦ الثلاثاء ١٧ كانون الاول ١٩٥٧ ، ص ١٢٥ .

الوطنية ، حتى في مظاهره ، لا تستطيع توحيد لافتاتها ولا هتافاتهما . . . وهذه من ايسر ما يمكن الالتقاء حوله لولا التخبط العشوائي المنذر بعظائم الأمور .

وهكذا ، بعد سنين ، يعترف كمال ناصر : " ان ذكريات هذه النيابة اصبحت باهتة

في خيالي بعد أن اصبحت ثلاثة ارباع قهط المنطقة نوابا لها في السنوات السبع الاخيرة مدة غيابي . " (١) لم يبق لديه الا الذكريات والأوسام التقدير الذي منحه اياه الرئيس

جمال عبدالناصر عندما زار الجمهورية في وفد نيابي عام ١٩٥٧ . (٢)

كيف عاش بعد نكسة الوطنيين وفراره سنوات سبعة؟ يقول : " . . . عشتها وما أزال

أعيشها وسط دامة قاسية عاتية لا ترحم ، تجترني ، تبصقني دون ان أستطيع السيطرة عليها (٣)

وكيف يعيش انسان ضاعت جنسيته الاولى بسقوط بلده في أيدي الصهاينة ، وضاعت

جنسيته الثانية عندما طورد وهرب من الأردن ! هو ليس حزينا لضياح جنسيتين تتجسدان

في جوازين للسفر " فضياح الوطن أو جزء منه ، وانحراف حكام الوطن أو بعض حكامه ، اكثر

خسارة وألما من ضياح الجنسية والتسكع على أبواب السفارات العربية طلبا لجنسية أو هوية

مرور . " (٤)

إن تبرير الاخطاء دائما من طبيعة الانسان المخطيء غالبا ، فهل بزر كمال ناصر

خروجه من الأردن متهربا من الحقيقة ، أم أن الحقيقة صادته فأقربها ! لا بأس ان نجده

يصف نفسه بعد فوات الأوان نادما مغتما بقوله : " . . . ومرة الأيام والسنون لتثبت لي ان

الذي ارتكبته بخروحي أو هربي ، كان خطأ قاتلا . . . وكان علي ان استسلم وبرجولة للمحاكمة

أو أن أبقى مختفيا آملا ، أو أن افترض عن طريقة اخرى للموت الشريف او الاستشهاد . . . إن

أصلب الناس ايمانا ينهارون امام ازمة اللجوء وفراره . . . سبع سنوات قضيناها متسكعين مع

هذا الوحش الذي تواضع الناس والعلماء عندما سموه باللجوء السياسي . " (٥)

وبعد سبع سنوات من اللجوء السياسي ، عاد كمال الى الاردن إثر العفو العام .

ولكنه منذ خروجه عام ٥٧ حتى عودته ، ماذا كانت أوجه نضاله السياسية إن على صعيد

النشاط الملتزم ام النشاط العفوي؟ كل اطراف حياته كانت متداخلة يصعب الفصل بينها

١- كمال ناصر . " مذكرات لاجي سياسي " ، مجلة " شؤون فلسطينية " العدد ٤٤ (نيسان

١٩٧٥) ، ص ٢٤ .

٢- شاهدت النص الاصيل في بيت اخيه وديع ببيزيت عام ١٩٧٦ وقد جاء فيه:

" بسم الله الرحمن الرحيم / جمهورية مصر / من رئيس الجمهورية جمال عبد الناصر /

الى السيد كمال ناصر ، نائب بمجلس النواب بالملكة الاردنية الهاشمية / تقديرا لجميل

صفائح وتوثيقا لعري الصداقة وتوكيدا / لروابط الوداد ، قد منحناكم وسام الجمهورية

من الطبقة / الثانية ، وأمرنا باصدار هذه البراءة ايذانا بذلك . / تحريراً بقصر

الجمهورية بالقاهرة في اليوم السابع عشر من شهر جمادى الآخرة / لسنة الف وثلاثمائة

وست وسبعين من هجرة خاتم المرسلين / جمال عبد الناصر "

٣- كمال ناصر . المصدر السابق ، ص ٢٢ .

٤- م . ن . ص ٢٣ .

٥- م . ن . ص ٢٠ .

تماماً لدى التحدث عنها ، كما رأينا .
لهذا ، سنراه مناضلاً سياسياً في ذروة الالتزام من خلال منظمة التحرير الفلسطينية
منذ ١٩٦٩ ، الى ان توجّ التزامه بالشهادة الكبرى في نيسان ١٩٧٣ . فماذا كان دوره
خلال هذه الحقبة ، وكيف أثر وتأثر ؟

خامساً - دوره في منظمة التحرير الفلسطينية

صار اربعة أعوام ، عمر الثورة الفلسطينية التي فجرتها البندقية في مطلع ١٩٦٥ ،
ولم يكن وجهه كمال ناصر غريباً عن ابصار روادها الاوائل الذين وجدوا فيه مبسماً لها ، ولساناً
نافع عمراً طويلاً عن الحق الذي تنازع هي عنه . فما ان اعلن تشكيل اللجنة التنفيذية لمنظمة
التحرير الفلسطينية ، حتى اصبح عضواً فيها حيث انتخب رئيساً لدائرة التوجيه والاعلام .^(١)
فباشر مهمته واضعاً نصب عينيه مفهوماً ثورياً واضحاً لإعلام ثوري ناجح مشيراً الى تلك التجربة
بقوله : " ان الثورة هي التي تمنع اعلامها وليس العكس ومن خلال فوهة البندقية ما استطعنا
ان نغير أكثر من موقع كان مستعصياً على وسائل الاعلام الكلاسيكية ."^(٢) ، فهل يعني تكامل
القلم والبندقية ؟ وهل يثبت عقم الاعلام اللامقاتل ؟

لقد كان يؤمن بضرورة بناء " الكادر السياسي الواعي لتصبح ثورة وعي لا وعي ،
ويسعى فيحقق القدر الذي يستطيع فيه رفاقه ان ينوبوا عنه في الاجابة عن جميع طروحات
الصحافيين والمحققين بشأن الثورة ، فذاك يسعده بل يميزه ويجعله غرضاً يرمى . وعناية
الله وحدها هي التي تدخلت لكي تتقده من موت محقق من صواريخ عملاء المخابرات الاسرائيلية
على مكتب منظمة التحرير في بيروت ."^(٣)

كان في مستوى الاحداث يشارك في مسيرتها ويؤثر فيها ، مما أهله ان يصبح الناطق
الرسمي باسم القيادة الموحدة لحركة المقاومة والتي تشكلت لمواجهة الاحداث الطارئة على
الساحة الأردنية^(٤) وكان قد عاد من رئاسة وفد فلسطين الى مؤتمر وزراء الاعلام العرب
بالقاهرة^(٥) حيث اصبح اول فلسطيني رئيساً للجنة الدائمة للاعلام العربي . واندلعت شرارة
الحرب مع النظام الأردني وكما لعضو هيئة الأمانة العامة لحركة المقاومة الى جانب ياسر عرفات
وجورج حبش وعصام السرطاوي ونايف حواتمة وضافي جميعاني . وحين اضطرته ظروف العمل
للخروج من الأردن ، صدرت اليه التعليمات " بأن يتوقف عن الادلاء بأية أحاديث أو عقد

١- اليوميات الفلسطينية ، المجلد ٩ تاريخ ٤ / ٢ / ١٩٦٩ ، ص ١٠٤ . وهي مجلدات
يغطي كل منها نصف سنة من الاحداث الفلسطينية عبر المجلات والصحف العربية وتصدر
عن مركز الابحاث الفلسطينية - بيروت .

٢- اليوميات الفلسطينية ، المجلد ١٠ تاريخ ٢٨ / ٨ / ١٩٦٩ ، ص ١٨١ .

٣- وقع الحادث يوم ١٥ / ١٠ / ١٩٦٩ وقد نقلته " الانوار " اللبنانية في صفحتها الاولى
بتاريخ ١٦ / ١٠ / ١٩٦٩ . ونجا منه معه شفيق الحوت مدير المكتب ، وخالد البيشرطي
عضو القيادة في حركة التحرير الوطني الفلسطيني - فتح .

٤- اليوميات الفلسطينية ، المجلد ١١ تاريخ ٢٢ / ٢ / ١٩٧٠ ، ص ١٥٠ .

٥- جريدة " الانوار " اللبنانية ، تاريخ ٢٧ / ١ / ١٩٧٠ ، ص ١ .

مؤتمرات باسم اللجنة المركزية لانه الآن في موقع بعيد عن قلب الاحداث: (١) وقد كلف ابراهيم بكر - العضو فيها وهو لجنة متابعة تنفيذ اتفاق القاهرة في الاردن - بمهمة الناطق الرسمي باسم المقاومة . وكان كمال في بداية الاحداث قد واجه وضعاً صعباً أفرزته كثرة الناطقين ببيانات وتصريحات ، مما دفع اللجنة المركزية الى منع التحدث واصدار بيانات سياسية منفردة . وقد حذر كمال من ان كل خروج عن ذلك يشكل خروجاً عن الوحدة الوطنية وأمن الثورة. (٢)

قد تكون المقاومة اخطأت او تريتت في الاردن الذي اصبح لها فيه قواعد سياسية وعسكرية عريضة قادرة على ترجيح كفتها ترجيحاً بيناً . ولكن عزوها عدم اللجوء الى الحسم ، الى التمسك بشعار لا تدخلها في الشؤون الداخلية للدول العربية ، كان ضعيفاً لان تلك الدول لم تلتزم بالوجه المقابل للشعار . وعزوها عدم اللجوء الى الحسم ، الى قدسية الهدف الاسمي والأبعد والى خشية الغرق المتخبط في اطار الدولة النظامي ، كان ايضاً ضعيفاً لان للهدف ذلك جسوراً ومواطني لا بد من ارتقاها واجتيازها مهما علت او همرت ، ولان للغرق بد يلا في القوى الوطنية الرديفة في الاردن .

وفي ظل ظروف مستجدة تحمل في طياتها امورا منكرة أدركها كمال بحدسه ، ترك على باب صديقه في بيروت قصاصة تضمنته "عزيزي فريد ، عدت لأخبرك ان حكومة عسكرية تشكلت بالاردن ، والخبر خطير . اراك غداً - كمال . (٣) " وبالفعل صححت رؤيته ، فهاجمت القوات الاردنية قواعد المقاومة ومنشأتها بعد ثمان واربعين ساعة . وما توقعه في الاردن ، كان يراه ويتوقعه في لبنان ، فلا ينفك يقول : " نحن اليوم في شهر عسل للثورة في لبنان ، وسيأتي يوم يكون فيه القتال من سطح الى سطح ومن بيت الى بيت . ستقع مجزرة في لبنان (٤) " واتقاء لوقوع ما تكمن به ، فقد كان دائم الاتصال بمن في ايديهم مقاليد السلطة بدءاً برئيس الجمهورية وانتهاءً بأخر معقل سياسي في التشكيلة . وهربياً بروءساء وندوى مراكز حساسة . وعالمياً بزيارة موسكو في وفد للمقاومة ، واستقبال وفد نيابي فرنسي ديغولي ، بالاضافة الى عشرات المقابلات والمؤتمرات الصحافية والمصورة . . . حقاً كان في خلية نحس ، عاملاً فرداً نشيطاً في حركة لا تهدأ ، ولساناً يشحذ الحق ، وجسداً قوياً غير قابل للانحياز بسهولة .

واذا كان رأي المكروه ، فقد رأى المطلوب وتمناه حين توقع ان يكون عام ١٩٧٣ عام

التحرك على الجبهات العربية واستمرار القتال . (٥)

واذا تساءلنا : هل كان كمال ناصر في حجم المهمة الملقاة على عاتقه ؟ فلننظر لماذا

- ١- اليوميات الفلسطينية ، المجلد ١٢ تاريخ ١٩٧٠ / ٩ / ٢٧ ، ص ٤١٨ .
- ٢- اليوميات الفلسطينية ، المجلد ١١ تاريخ ١٩٧٠ / ٦ / ٢٤ ، ص ٥٧٥ .
- ٣- أرائها فريد الخطيب عنده يوم ١٩ / ٢ / ١٩٧٦ .
- ٤- من الحديث السابق مع سلفيا ناصر في ١٩٧٦ / ٢ / ٢١ ببيروت . والمتتبع لأحداث لبنان في آيار ١٩٧٣ ، يرى صحة ما ذهب اليه كمال في شكوكه .
- ٥- اليوميات الفلسطينية ، المجلد ١٧ تاريخ ١٩٧٣ / ١ / ٢٢ ، ص ٥٨ . وقد تحقق حلمه في التضامن العربي وخوض معركة تشرين الاول ١٩٧٣ .

رفع استقالته الى اللجنة التنفيذية طالبا اعفائه من جميع المسؤوليات التي يتحملها؟ (١)
ونجيب ايجابا مطلقا ان سألنا انفسنا : لماذا رفضت اللجنة التنفيذية استقالته التي قدّمها
من منصب الناطق الرسمي باسم اللجنة التنفيذية بالاضافة الى عضوية اللجنتين : التنفيذية
والمركزية؟ (٢) لا بل انتخب عن المستقلين ، عضوا في اللجنة التنفيذية في المجلس الوطني
الفلسطيني التاسع ٧ / ٧ / ١٩٧١ بالقاهرة . (٣) ثم كلفه ياسر عرفات بالاشراف على تشكيل
اتحاد الصحافيين الفلسطينيين ، ففعل في ٩ / ٢ / ١٩٧٢ وأرسل رئيسا للوفد الفلسطيني
الى مؤتمر وزراء الاعلام العرب المنعقد في القاهرة (٤) ودخل تشكيلة الهيئة الخاصة لإعداد
برامج الوحدة الوطنية وتعديلها ودراستها . كما دخل عن المستقلين ، تشكيلة اللجنة
التنفيذية في ختام دورة المجلس الوطني الفلسطيني الحادية عشرة . (٥) وعندما وزعت المهام
أعلن من جديد " رئيسا لدائرة الاعلام والتوجيه القومي ، والمتحدث الرسمي باسم اللجنة
التنفيذية " (٦) فظل محتفظا بمهامه الرسمية ومهامه التلقائية لا يزاحمه مزاحم ولا يستعظم
نفسه في ميدانه آخر ، مما أشعر العدو والهنيوني بثقل حجمه السياسي ، وبأن ازاحته
زلزلة للفكر الفلسطيني الواعي . . حتى كان استشهاده جزءا مهما من مهامه الاعلامية ،
مختتما نضاله السياسي الملتزم في تأكيد ان انعدام وزن الجسد الفاني يقابله عكسيا
ازدياد الفكر الواعي ولا سيما اذا كان ذلك فلسطينيا ناهضا بالثورة .

قد يكون واقصيا امر التزام كمال ، الناطق الرسمي في تصريحاته ، التزاما باراء
اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير وأفكارها ومواقفها ، ولكنه أكثر واقعية ان اصابع كمال
السحرية لها دور عظيم في ايصالها المضمون الساطع الى الناس في اشراقة واحدة .
ان الموضوع الابرز - موضوعا امام جميع اجهزة منظمة التحرير والمجلس الوطني -
هو الوحدة الوطنية بين فصائل المقاومة كلها . والناظر الى كمال في جلسات العمل ، كان
يراه بوضوح حامية السلام بين كل فريقين متباعدين . . يمازح هذا ويؤنس ذان ، يقلل من
أهمية المهم بغية انجازه أولا ، ويتحمل كل التهم الموجهة الى اية اطراف تحمل اكليل
الشوك القديم . . يجزى نفسه على المقاعد المتضادة ولو مرحليا ، يرفع صوته آملا في روجه
هو لاء ويخفض الصوت داهية في حضرة اولئك لينال من هو لاء تنازلا ومن اولئك شيئا مقابلا .
فلا يعتبر ذلك من قبيل التنازل وانما التلاقي على الطريق الموصل الى الهدف الأسمى .
وهذه الحركة النادرة ان تدانى ، استحق كمال من جميع الاطراف ان يطلق عليه

- ١- اليوميات الفلسطينية ، المجلد ١٣ تاريخ ١٦ / ٣ / ١٩٧١ ، ص ٢٩١ . وكان ذلك
في اجتماعات اللجنة المركزية للمنظمة في دمشق .
- ٢- اليوميات الفلسطينية ، المجلد ١٣ تاريخ ٤ / ٥ / ١٩٧١ ، ص ٥٠٣ .
- ٣- نفسها ، المجلد ١٤ تاريخ ١٢ / ٧ / ١٩٧١ ، ص ٦١ .
- ٤- نفسها ، المجلد ١٥ تاريخ ٢٧ / ٢ / ١٩٧٢ ، ص ٢٠٧ .
- ٥- نفسها ، المجلد ١٧ تاريخ ١٢ / ١ / ١٩٧٣ ، ص ٣٤ .
- ٦- نفسها ، المجلد ١٧ تاريخ ٢٤ / ١ / ١٩٧٣ ، ص ٦٤ .

لقب "الضمير"^(١) ولم يكن يكفي بعرض وجهة نظره فقط ، بل يقاتل من أجلها بشجاعة نادرة حتى قال عنه أبو اياد : " ان كمال ناصر كان متحيزاً للثورة الفلسطينية ، نشيده الكبير وتنظيمه الكبير . . . كان لا ييأس ولا يتوقف عن أداء دوره كرَسُول محبة ووفاء ، فلا ينقل للطرف والفصائل الا الصورة المشرقة . . . وكان يختزن في اعماقه كل الصور المحزنة المؤسفة . . . حتى تكاد نبضات قلبه تقف من كثرة معاناته وهيبه ومثابرتة"^(٢).

هكذا كان كمال ناصر يملاء مركزه ، وضميراً في كل ضمير . فهو إما ان يكون ناطقاً وحيداً وإلا فلن يرضى بأن يكون واحداً في "شعب بابل جديد" . فوجه كتابا الى اعضاء اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير طالبا منهم عدم اجراء اية مقابلة صحافية او الادلاء بأي تصريح الا عبر دائرة الاعلام^(٣) . ولما لم يلتزم واحد منهم ، طلب تجميد عضوية الجبهة الشعبية الديمقراطية لتحرير فلسطين في جهاز الاعلام الموحد ريثما يوضع رئيسها ، نايف حواتمة موقفه منه^(٤) . ولم يتوان عن الطلب ذاته الى خالد الحسن ، عضو قيادة فتح واللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير . فاذا لم يتخذ هذه المواقف ، فما العبرة من تكليف منظمة التحرير له بتشكيل جهاز الاعلام الموحد وتوجيه قيادات الفصائل كتباً الى اعلامييها للالتزام بذلك؟ هكذا فهم كمال الالتزام : يبدأ صغيراً فيكبر فيتعمق لكيلا ينقضه امر صغير صغير يطرأ فيما بعد .

كان امراً بدهياً للناطق الرسمي باسم التاريخ - العدل ان ينطق بالحق نصف الحقيقة ، والنصف الاخر يتحقق تطبيقاً . فما ان ابتدأت مهمته الاعلامية الملتزمة في اطار المنظمة برئاسة ياسر عرفات بديلا للسيد احمد الشقيري ، حتى نزع عنه ما حملوه ، جوراً ، من مسؤولية هزيمة العرب في حزيران ١٩٦٧ ، فصرح : " ان السيد الشقيري الذي نهي عن زعامة المنظمة بعد حرب يونيو حزيران عام ١٩٦٧ ، قد لعب دوراً سياسياً بارزاً في خدمة قضية فلسطين ، وان اعتباره مسؤولاً عن هزيمة العرب في عام ١٩٦٧ ليس من قبيل الانصاف"^(٥).

والحقيقة ان الشقيري لا يمكن ان تكون مسؤوليته في هزيمة ٦٧ مبنية على التصريح بنيته " اللقاء اليهودي البحر اذا ظل احد منهم حياً " ، فلماذا لا تكون مسؤولية الانظمة العربية التي لم تعين توقيتاً ملائماً ؟ ولماذا لم تستعد طيلة الاعوام السابقة لمعركة ودرء الخطر المتنامي وخاصة قد أظهر هذا التهاون ، غياب التكافؤ في المستوى القتالي بصرف النظر عن اليقظة العسكرية التي لا يجوز ان تكون الجماهير مسؤولة عنها ، ولا

١- جميع من قابلتهم اتفقوا على صحة هذه التسمية من خلال سياسة كمال الهادفة الى التوفيق دائماً وتناسي جميع الاطراف لخلافاتها الآنية او تجاوزها خدمة لحساب الوحدة الوطنية . وقد أشار فريد الخطيب الى ان كمال كان يوقع بعض رسائله السرية الى ياسر عرفات باسماء "الضمير" .

٢- صلاح خلف . ذكريات عن الشهيد كمال ناصر ، ص ٢٠ .

٣- اليوميات الفلسطينية ، المجلد ١٦ تاريخ ١٦/٧/١٩٧٢ ، ص ٧ .

٤- نفسها المجلد ١٦ تاريخ ٢٧/٨/١٩٧٢ ، ص ١٤٨ .

٥- نشرة فتح ١٩٦٩/٩/٣ . ويجدر بالذكر ان حركة فتح كانت اصدرت كتباً (لا تاريخ ولا مكان اصدار) تحت الرقم (١) بعنوان "دراسات وتجارب ثورية" ، ألقت الحركة فيه مسؤولية هزيمة ٦٧ على عاتق الانظمة المتخاذلة والمستسلمة والمتهاونة .

وسائل المقاومة الاعلامية التي تقبض اصابع الانظمة على اعناقها ؟ ولماذا لا تكون نظرة كمال نفسه الى الانقلابات العسكرية في بعض الاقطار العربية ، هي النظرة المبينة لحقيقة : على من تقع مسؤولية هزيمة ٦٧ ؟ يعتبر كمال الانقلابات العسكرية في اكثر من قطر عربي " ظاهرة خطيرة أقل ما ينشأ عنها تصفية الجيوش العربية " (١) ومن ذلك ما حصل في الاردن .. نكسة الاحرار - وثورة قاسم في العراق ، وما تلاهما في غير قطر حيث يقتل او يسجن او يسرح عدد وفير من القيادات العسكرية الشابة يزداد عددها بتكرار التحركات او الانقلابات التي " تخنق في المهد " ، ولا يرى كمال قبول الشعب للانقلاب العسكري غالباً الا لأن الشعب يرتاح أمنياً مدّة من الزمان .

شهدت السنوات الاربع التي عاشها كمال ناطقاً رسمياً باسم المقاومة في الاردن ثم في لبنان ، أحداثاً جساماً تتناول كلها وجود الثورة الفلسطينية بأى شكل من الاشكال . ومهمة الناطق الرسمي للثورة هي أولاً الدفاع عنها وتبرير أسباب وجودها ، فماد فعل كمال من زاوية مهماته المتعددة ؟

كمال ايمان مطلق بجدوى الاساليب الديمقراطية في التعبير عن الفكر وبخاصة الملتزم منه حيث يكون الموقف مبدئياً على حاقتي الصواب والخطأ . لذا ، رفع رأي فولتير القائل : " قد لا أتفق معك في الرأي ولكنني مستعد لبذل دمي في سبيل ان تكون حراً في ابداء رأيك " (٢) . فالقضية اذن ، قضية التعبير عما يعتقد المرء بصوابه ، وليس هذا الاساس أوسع في المجال لسواه . اما فيما يختص بنفسه فقد كان مرناً في مواقف تتطلب منه ذلك ، وصلباً في اخرى لا تتطلب غير ذلك . له دائماً موقف مبدئي يتخذه فيناضل بهلابته وبغض النظر عن مدى تأييد الآخرين له . وسجّل ، تبعاً لهذا ، مواقف عدة مستمدة من روح سياسة الجهاز الناطق باسمه ، وأحياناً من ذات نفسه . كان ذلك عندما بدأت مجازر الاردن ، فجرى التصويت في اللجنة التنفيذية على الذهاب أو الامتناع ، في وفد الوساطة العربية . (٣) ولم يجد غضاظة في البقاء رافضاً الى جانب اثنين فقط من اهل ثمانية من أعضاء اللجنة .

وكان ذلك في موقفه الرفض لقرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ ، وتأكيده أن أزمة المقاومة بعد الخروج من الأردن لا تتعدى التكتيك الى الاستراتيجية . (٤)

وفي لبنان ، كان له موقف ثابت حين طالب مؤتمر وزراء الاعلام العرب في القاهرة بتخصيص ثلاثين مليون جنيهاً لدعم لبنان وحماية حدوده المهددة . (٥)

وعندما أعلن الملك حسين مشروع المملكة المتحدة الرابط للضفة الغربية بالضفة

١ - كمال ناصر : " جيوش العرب في خطر " ، الحوادث ٢٦٧ (٢٢ ك ١٩٦١) ، الجزيرة موجودة لدى .

٢ - الآثار الشعرية ، ص ٣١٣ ، مقدمة لقصيدته " الانبياء الصغار " .

٣ - اليوميات الفلسطينية ، المجلد ١٤ تاريخ ١٤ / ٩ / ١٩٧١ ، ص ٣٢٠ .

٤ - نفسها ، المجلد ١٥ تاريخ ٨ / ١ / ١٩٧٢ ، ص ٣٦ .

٥ - نفسها ، المجلد ١٥ تاريخ ٢٧ / ٢ / ١٩٧٢ ، ص ٢٠٧ .

الشرقية ، تابعة مدى العمر ، وقف كمال معلناً ان المشروع هو مؤامرة تستهدف تصفية القضية الفلسطينية تصفية نهائية . (١)

وبلغ ذروة الرفض الصاخب ، موقف له من تصريحات الملك حسين في واشنطن فصرح كمال بأن "٠٠٠ حسين لا يملك الاهلية التي تبيح له التعاقد بأي التزام يتعلق بقضية فلسطين ، ويستتبع هذا بالضرورة انه فاقد الاهلية بأن يقدم اي التزامات تتعلق بالقدس (٢) كذلك واجهت الثورة الفلسطينية وهما محرراً حين طرحت ضرورة اقامة حكومة فلسطينية في المنفى ، علما بأنها تقام عادة على اعتبار التحرير - المرحلة قبل النهائية من نضال الثورة المسلح . يومئذ ، وقف كمال موقف الراض لهذا الطرح واعتبر ان حكومة المنفى "شيء سابق لأوانه" (٣) وهكذا كان حتى الساعة .

وعلى سبيل الذكر لا الحصر ، فان موقفاً جديراً بالاهتمام هو ذلك الذي اعلنه كمال من منظمة ايلول الاسود التي نفذت عملية ميونيخ ضد الرياضيين الهالينديين في ١٩٧٢ . قال : ان ايلول الأسود ظاهرة افترتها الاحداث التي عصفت بالشعب الفلسطيني في الاردن أخيراً ، وبالتالي لا يمكن لمنظمة التحرير الا ان تتفهم هذه الظاهرة . ولقد ترتب على هذا الموقف أن أجهز العدو وعليه معتبراً ان له ضلعاً في العملية ، بينما أنكر كثيرون ان يكون قد استشهد صريع هذا الموقف بالذات .

ولكنه ، يجب القول بأن المرء لا يقتل على نية نواها وانما على موقف وقفه مناضلاً ملتزماً في سبيل تدعيمه وقطف نتاجه . لذا ، عندما يواجه مطلق ظرف أمام الثورة ، كان يضطر الى إعلان الحقيقة صريحة . ومما يذكر هو الكثير من الأكثر :

(١) إثر انتكاس الثورة في الاردن ، أعلن كمال أن الثورة قد تضطر للعودة الى الوراء خطوة من أجل خطوتين الى الامام ، وقد تنزل تحت الأرض وتبدأ من جديد كما فعلت دائماً . (٤)
(٢) وعندما برزت اصوات مغرضة تنعى الثورة لانكشافها ، قال كمال : "ان العلنية والسرية وجهان لضرورة ثورية واحدة . ان علانيتنا لا تعني التعرّي والانفلاش ، كما ان سرّيتنا لا يجوز ان تطمس شرعية الوجود الفلسطيني . (٥) أي أنه لا حاجة للنزول تحت الأرض باسم السرية ، لأن الوجه العلني هو مكسب حق للثورة ، وقد تحقق بالدماء والشهداء .

(٣) وأعلن رفض المقاومة اقامة دولة فلسطينية في الضفة الغربية ، وان فكرة اقامة هذه المحمية جريمة ستقطع يد كل من يجروء على تنفيذها . (٦) ومما يذكر هنا ان هذا الموقف الراض قد اتخذ على مرّ السنين وتوالي الاحداث مما جعله موقفاً متطوراً مسائراً للسنين وأحداثها .

- ١- اليوميّات الفلسطينية ، المجلد ١٥ تاريخ ١٧ / ٣ / ١٩٧٢ ، ص ٢٩٣ .
- ٢- نفسها ، المجلد ١٥ تاريخ ١ / ٤ / ١٩٧٢ ، ص ٣٥٣ .
- ٣- نفسها ، المجلد ١٥ تاريخ ١٧ / ٣ / ١٩٧٢ ، ص ٢٩٣ .
- ٤- نفسها ، المجلد ١٢ تاريخ ٢٥ / ٩ / ١٩٧٠ ، ص ٤٠٤ .
- ٥- نفسها ، المجلد ١٦ تاريخ ٤ / ٧ / ١٩٧٢ ، ص ١٠ .
- ٦- نفسها ، المجلد ١٢ تاريخ ٢٥ / ٩ / ١٩٧٠ ، ص ٤٠٤ .

٤) وأعلن كمال بلسان المقاومة "احترامها الكامل العميق للبنان الذي استطاعت المقاومة ان تجد فيه الصيغة المثلى للتعامل والعمل من اجل قضيته الاساسية . وأعلن حرصه للمقاومة على جنوب لبنان ووحدة التراب اللبناني ، وان مطامع اسرائيل في الجنوب هي بالوجود وبغير الوجود الفدائي ."^(١) فالدولة الديمقراطية التي تسعى الثورة لاقامتها في فلسطين تجمع الديانات الثلاث ، وقد أثبت لبنان أنه قادر على صهر عدة مذاهب في بوتقة الوطن .

٥) وأعلن كمال أنه يجب كسب المزيد من الاصدقاء ، لأنه مثلاً " لدى الصين الشعبية والامة العربية أكثر من قهوة مشتركة أبرزها ضمان اقبال بوابتي الشرق اليمنى واليسرى امام المصالح الامبريالية."^(٢) وكذلك تشجيع الاصدقاء على المضي في تنمية صدق مواليتهم عملياً ، فعقب تأميم ليبيا لشركة النفط البريطانية يعلن كمال ان كل خطوة يخطوها أي نظام عربي باتجاه الحق العربي في قهوة البترول هي مساهمة منه في خدمة قهوة فلسطين .^(٣)

٦) وانطلاقاً مما تقدم واستناداً إليه ، تفاعل كمال كثيراً الى حد الاعلان أن الثورة الفلسطينية ، وهي جزء من الثورة العربية المعاصرة المرجوة ، ما زالت توءم من انه لا بد من ان تتوافر لها أكثر من هانوي عربية^(٤) خاصة ان اصدقاءها كثر وأكثرهم حلفاء استراتيجيون مما شجعه لكي يعلن على الملأ وبشجاعة ، باسم احدى عشرة منظمة فدائية ، يعلن الرفض القاطع لمشروع روجرز الاميركي^(٥) المكرس للاحتلال الصهيوني للأراضي العربية وطمس معالم الشعب الفلسطيني كصاحب وطن مسلوب .

٧) وعندما تُثار مسألة فلسطينية الثورة الفلسطينية ، لا يتوانى عن تعليل تلك بـ " ان الفلسطينيين كانوا الوحيدين بين العرب الذين لم يملكو نظاماً متّهماً في التسبب بهزيمة الخامس من حزيران"^(٦) لذا ، كان يتوجب على القلب مصدر الحركة ان يكون معافى لتنشط الحركة وتستمر . وبذلك يعلن كمال ، واثقاً متفائلاً ، جملة ما حققت الثورة على صعيد الوحدة الفلسطينية من البرنامج السياسي الى الاعلام الموحد وصدار وكالة الانباء الفلسطينية "رفا" الى الاشراف الموحد على اذاعات الثورة باسم "هوت الثورة الفلسطينية" الى اصدار مجلة "فلسطين الثورة" العاطقة باسم الثورة . واخيراً تشكيل مجلس عسكري اعلى لقيادة المقاومة من جميع الفصائل . فيكون كمال قد هايش تحقيق بعض احلامه في معظم اشكال الوحدة الوطنية - حلمه الاكبر .

وليس اعلان الموقف بكلمة تقال هنا او هناك وعبارات تلقى على عواهنها ، وانما هي مسوؤلية جسيمة وبخاصة عندما تتعدى الى وقفة التنبيه والتحذير والاستنكار والتشهير .

- ١- اليوميات الفلسطينية ، المجلد ١٥ تاريخ ٣ و ١٩ / ١ / ١٩٧٢ ، ص ١٢ - ٧١ .
- ٢- نفسها ، المجلد ١٤ تاريخ ٢٨ / ١٠ / ١٩٧١ ، ص ٤٧٠ .
- ٣- نفسها ، المجلد ١٤ تاريخ ٨ / ١٢ / ١٩٧١ ، ص ٦٢٢ .
- ٤- جريدة "اخبار اليوم" المصرية ، العدد ١٢٩٨ (٢٠ / ٩ / ١٩٦٩) والجزارة لدي .
- ٥- جريدة "الانوار" اللبنانية بالسنة ١١ - ٣٤٦٥ (٢٥ / ٦ / ١٩٧٠) ، ص ١ .
- ٦- جريدة "الدفاع" الاردنية ، من جزارة مصورة لدي تاريخها ١٤ / ٣ / ١٩٧٠ .

فعندما تتجدد معركة الكرامة ويدخل المتطوعون في مظاهر الثورة افواجاً افواجاً ، ينبّه كمال الثورة من مزلق التهذيب ومحاولات الاحتواء وأن تعطي انتصاراتها حجمها الحقيقي . (١)

كما ينبّه الدول العربية حاثاً "على اتخاذ اجراءات انتقامية ماثلة وقطع العلاقات السياسية والاقتصادية مع حكومة بون" (٢) بعد المعاملة السيئة التي يلقاها العرب في المانيا الضرية . وينبّه بعض الدول الى القيام بدفع التزاماتها المالية للمنظمة (٣) بعد انقطاع . يسميها كمال التزامات وبالاحرى واجبات . أليست الثورة رأس حربة عربية في خاصرة العدو والطامع بالوطن الكبير ؟ أليس الالتزام واجبا مقدساً وجهاداً بابه من أبواب الجنة ؟

وحين تشرق طائرات الفانتوم الاميركية فوق "اسرائيل" قبل اشراق الشمس ، يستنكر كمال ذلك المنكر طالباً وضع حد لدعوة اولئك الذين يطالبون باقامة جسور مع الولايات المتحدة . (٤) ولو عاش لرأى الجسور وقد اصبحت اعرض من الميادين وأطول من حبال كذبهم .

وعندما يتعمّض "ابوداود" (٥) ورفاقه الى تعذيب وحشي على أيدي السلطات الاردنية ، فان كمال ناهر يوجه رسالة الى مؤتمر وزراء الاعلام العرب في القاهرة (٦) يستنكر فيها عمل السلطات ويطالب بانقاذ الموقف ، ويحدّر من مغبة السكوت عن اقتصاص الذئب من الحمل . ويشهر محدّراً ، بوصف الانظمة بالعجز والتردد ازاء المجازر التي ترتكب بحق الفلسطينيين في الاردن ، ويعلن القبول بوقف اطلاق النار - بعد رفضه من قبل - لتخفيف المجازر . (٧) وتبلغ ذروة التشمير عندما ينفي عن الانظمة العربية النظرة الجدّية في تحرير كل التراب الفلسطيني لأن الغيث لما تبتدأ أوائله . وكذلك فالثورة تتناقض تناقضاً رئيسياً مع معظم هذه الأنظمة (٨) ، اذ بينما هي تنادى وتعمل لتحرير كل شبر ، نجد الانظمة تطالب بازالة آثار العدوان عن اراضيها التي تعدّت التراب الفلسطيني . وقد كان التخطيط ، لوسليما ، قادراً على شطر الوطن المحتل منذ ١٩٤٨ ، وذلك واضح لكل انسان ينظر الى الخريطة ليرى كيف تضيق تلك الأرض من دخول أراضي الضفة في وسطها الى مسافة بضعة كيلومترات من حدود الشاطيء الغربية . ولكن صوت الثورة كان أسمع لونادى حياً ، حياً واحداً من "جامعة الأحياء العربية" - ان جاز لنا - تشبيهاً بالاحياء التي تنفخ افتراقاً من ملتقى اللغة . لهذا ، يدعو كمال الانظمة الى الاعتبار مما مضى ، محدّراً من عدم تحمّل مسوءولياتها التاريخية كاملة حيال تصرفات الاردن العسكرية ضد رجال المقاومة (٩) ، فأما الوقوف الى جانب المقاومة صراحة واما الى جانب الأردن في عملية سحقها صراحة .

- ١- اليوميات الفلسطينية ، المجلد ٩ تاريخ ٢١ / ٣ / ١٩٦٩ ، ص ٢٣٥ .
- ٢- نفسها ، المجلد ١٦ تاريخ ١٠ / ١٠ / ١٩٧٢ ، ص ٢٩٦ .
- ٣- نفسها ، المجلد ٩ تاريخ ٤ / ٥ / ١٩٦٩ ، ص ٣٤٥ .
- ٤- نفسها ، المجلد ١٠ تاريخ ٩ / ٨ / ١٩٦٩ ، ص ١١٥ .
- ٥- هو مسؤؤل ميليشيا الثورة في عمان وقد كان في مهمة رسمية الى الارض المحتلة عندما اعتقل مع رفاقه في الاردن وتعرضوا للسجن والتكيل مدة طويلة قبل الافراج عنهم .
- ٦- اليوميات الفلسطينية ، المجلد ١٧ تاريخ ١٨ / ٢ / ١٩٧٣ ، ص ١٣٣ .
- ٧- نفسها ، المجلد ١٢ تاريخ ٢٥ / ٩ / ١٩٧٠ ، ص ٤٠٤ .
- ٨- نفسها ، المجلد ١٢ تاريخ ٣١ / ٣ / ١٩٧١ ، ص ٣٢٦ .
- ٩- نفسها ، المجلد ١١ تاريخ ١٠ / ٦ / ١٩٧٠ ، ص ٥١٠ - ٥١٥ .

ومن يتحمل هذه المسؤولية ، مسؤولية الصمت والتواطؤ ؟ وكما ، ان يضع اصبعه على الجرح ، يتخذ الموقف المؤثر سريعاً فيهدد مهدر آلام الشعوب . . . يهدد بالحاق الضرر بالمصالح الاميركية في الشرق الأوسط ، وان هناك ايدى اميركية وراء مخططات ضرب المقاومة والاحداث الدامية في الأردن ، وقد زعت وكالة الاستخبارات الاميركية رجالها في الاردن كله . (١)

كان ناطقاً باسم مجموعة تمثل اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية والانسان لا ينطق باسم مجموعة الا اذا كان هو واحداً منها في كل شاردة وواردة ، فكيف اذا كان كمال نفسه صاحب الفعاليات السياسية التي تكوّنت وتعمقت في نفسه على امتداد قرابة الاربعين عاماً !

لقد بلغ الوضع العربي السياسي حد التفجر الداخلي ، فكان كمال فيه رأي لا وصف أبلغ منه تعبيراً حين يقول : " العالم العربي كله مسفلس ، فمن كان هكذا كثرت امراضه " (٢) فقد تكوّن لديه رأي خاص ووقناعة راسخة يعبر عنها باستخدام قاموسه الخاص في قوله : " . . . وضع مخمّي ومنطقة مسفلسة ، اذاً الوطنية صارت وجهة نظراً " (٣)

لهذا طلب كمال من كامل قسطندي ان يهني له جواً لكتابة الشعر بعيداً عن السياسة . وأسرّ لرفيقه ناجي علوش برغبته في ترك العمل السياسي واللجوء الى ديري في الجبل ليعيش هناك ، يكتب ويقرأ ، " . . . أنا شاعر ، ولست سياسياً ، ما لي ولهذا القرف " (٤) فهل كان كمال شاعراً لا سياسياً على الرغم مما رأيناه من التزام بخط سياسي واضح بداية ونهاية ؟ أم انها ساعات اليأس يخرج فيها كل مخبوء بين الجوانح على زلات اللسان او الملامح ؟ وهل تعب من هذه الحياة النضالية كما سألته ، من قبل ، أمه ؟ أم عاد الى رأي قديم له في السياسة يوم كتب قائلاً : " . . . نريد وطنيين ولا نريد سياسيين . . . فالسياسة مهما سمت من طبعها هذه الخصال (الدجل والتضليل) ومن شأنها ان تورث الاحقاد والاختلافات " (٥)

هذا هو رأي منذ البدء في السياسة فدخل ميدانها على الرغم من الاشواك وما تورثه . فنراه في أواخر حياته عندما يُسأل : هل هو نائراً سياسياً ؟ يجيب : أنا نائراً وسياسياً معاً . . . في الظروف الحالية ، لا يستطيع الفصل بينهما . السياسي يناور أما الثائر فلا . لا مناورة في قضيتنا الكبرى . علينا بالقتال لاسترجاع كل شبر من أرضنا . (٦)

وكيف يكون الالتزام ان لم يكن كهذا ؟ كمال ناصر الذي تعشق السياسة فهو وإن آلمته حبيبته مراراً ، فما زاده بها ذلك الاحباً وتعلّقاً . وعلى رأي احد شعرائه المفضلين ،

١- اليوميات الفلسطينية ، المجلد ١١ تاريخ ١٥ / ٦ / ١٩٧٠ ، ص ٥٣٦ .

٢- من حديث خاص مع الدكتور نديم ناصر في ٢٣ / ٢ / ١٩٧٦ ببيروت .

٣- نزيه ابو نضال . ذكريات عن الشهيد كمال ناصر ، ص ١١١ .

٤- ناجي علوش . ذكريات عن الشهيد كمال ناصر ، ص ٣٣ .

٥- كمال ناصر . " وطنيون لا سياسيون " زاوية " منبر الرأي الحر " في جازة من جريدة

لدي غير مذكور اسمها ولا تاريخها ولا رقم عددها .

بشارة الخوري فهذا هو "الحب الذي قتل" . القتل الشهيد ، تفتقد الثورة فلا تجد من يملأ مركزه بحق على المدى الطويل وفي هذه المرحلة على الأقل . كمال ناصر الذي كان رائد تحقيق الوحدة الوطنية ، كان أيضا رائد التنسيق بين الحركات التحررية في العالم العربي . كان يؤلف ويوحد الى حد الاعتقاد بأن جمع الشر والشرر ما يكون خيرا عن طريق الردع والتحول .

وتظل شهادة أحد رفاق نضاله الطويل الشاق ، يقولها كلمة حق في كمال ناصر ، المناضل السياسي في كل لحظة من حياته بل في كل رعشة من ارتعاشات فؤاده ، وكدل ومضة من توقد ذهنه وخياله . . فكتب ابراهيم بكر : " ان كمال ناصر كان أكثر السياسيين العرب الوطنيين والتقدميين نقاءً وشفافاً . وهو من القلة القليلة التي لم تستثمر وضعها للانتفاع المادي . " (١) فما أكثر من يعلمون علم اليقين ان مخصصاته الشهرية كعضو في اللجنة التنفيذية لم تكن تكفي لسد نفقات معيشته فكان يستعين بمال والدته .

وقل للبحر أن تهدأ امواجه ، وقل لليل ان يتصل بلا نهار . . ولكن كمال ناصر هو منذ كان مناظلاً سياسياً في اوائل الأربعينات حتى منتصف الستينات . يصفه في ذلك ابراهيم بكر قائلاً : " أستطيع ان أقول ان المرحوم كمال ناصر كان في طليعة السياسيين الوطنيين والتقدميين في الضفة الغربية والقطاع ، في العمل السياسي والنضال الجماهيري ضد الاحتلال ، وكان أكثرنا جميعاً حركة وديناميكية . " (٢)

وتظل شهادة الدم هي الأرفع بعد شهادة الكلمة . فهل اغتالوه شاعراً ؟ ام اغتالوه سياسياً ؟ قد اغتالوه شاعراً وسياسياً ، وكل صفة على حدة كافية لتخليد أثره ، فكيف بالاثنتين معاً !!

١- من رسالة جوابية خاصة اليّ في ١٤ / ١١ / ١٩٧٧ .

٢- من الرسالة نفسها .

الفصل الثاني : كمال ، الكاتب السياسي

مدخل: خلال حياته الطويلة التي قضاها مناضلاً بالكلمة المقاتلة وبالقلم المتفجّر، أرخى كمال العنان لقلمه يصول ويجول في اية مجلة او صحيفة عبر الوطن العربي الذي تواجد فيه أزماناً . أصدر صحفا خاصة به ، وكتب لاخرى لا حصر لها وان لم تكن اولها جريدة الوحدة عام ١٩٤٥ التي يقول فيها أحد أصدقائه: "كان العاملون في تحرير "الوحدة" فعليا عصام حماد وهشام النشاشيبي وصاحبها اسحق عبد السلام الحسيني ، وهو نفسه رئيس تحريرها المسؤول . وكان كمال بصفته صديقا لنا ، يكتب من القدس في اواخر ١٩٤٥ . (١)

تلي الوحدة جريدتا "البعث" و "الجيل الجديد" ثم "فلسطين" عام ١٩٥٥ . ثم جريدة "الميثاق الاردنية" . (٢) ويرجح ان كمال ناصر قد رأس تحريرها مدة عام ١٩٥٠ ، اي بعد اقفال جريدته "الجيل الجديد" مباشرة وذلك في تشرين الثاني من العام نفسه . ولكن ما حدث لمكتبات فلسطين عام النكبة وبعده ، كان أشبه بما حدث لمكتبات بغداد اثر استباحتها على ايدي المغول ، فقد اصبح الكثير من الصحف والمجلات والمؤلفات اثرا بعد عين او ذكريات وخيالات ليست ذكرياتها الا باعنا لألم الخسارة التي لا تعوّض .

أ - جريدة "البعث"

مذ كان على مقاعد الدراسة في الجامعة الاميركية ببيروت في اواخر ١٩٤٥ ، واطر العودة الى القدس ، كان كمال لا يزال يكتب الى صحيفة الوحدة المقدسية الاسبوعية . ولكنه ادرك ان الكتابة في صحيفة لغيره لها حدود . اما الخاصة فهي الاكثر تقبلا لفكره الذي يخالج دقات قلبه . فلا بدّ منها . . . ومدّ يده الى جيبه او بالحقيقة الى جيب اخته فاستدان منها المال لاصدار جريدة يشير اسمها الى حزب البعث المؤسس حديثا في فلسطين ، فعبر فيها عن آرائه بصراحة وعنفا فاشتهر ، ولجأ الى الصدام المباشر مع النظام فأغلقت الجريدة . (٣) وكتب كمال في مجلته "الجيل الجديد" مخاطبا صديقه عبد الله الريماوي:

" أنت اخي وصديقي قبل ان نعمل على تأسيس جريدة البعث اليومية . . . ولدني من الكلام ما هو مؤلم وكثير ، وسأفسح لك مجال الردّ في جريدتي هذه لأكون منصفاً . . . سأوضح

١- من الحديث السابق مع عصام حماد . وعن "الوحدة" هذه يذكر احمد العقاد بكتابه "تاريخ الصحافة" . . . صفحة ١٦٣ ، انها تأسست في ٥ حزيران ١٩٤٥ بالقدس ، وصدرت اسبوعية لسنتين ثم اصبحت يومية . رئيس التحرير اسحق عبد السلام الحسيني ، وسدس التحرير المسؤول خيرى حماد . استمرت في الصدور حتى فقدت مطابعها الموجودة في شارع الاميرة ماري بالقدس المحتلة .

٢- هي مجلة سياسية اسبوعية ادبية اجتماعية صدرت في عمان لصاحبها ومحررها المسؤول المحامي شفيق ارشيدات بتاريخ ٢٥ حزيران ١٩٤٩ . وردت هذه النبذة في الصفحة ٨٨ من جزء من كتاب مطبوع ، ناقص عنوانه وأكثر صفحاته ، وصفحاته المتبقية من ٨١ الى ٩٦ فقط ، في محفوظات مركز الابحاث الفلسطينية - بيروت .

في العدد القادم كل شيء فأطلع الشعب على كل شيء وهي قصة طويلة تبدأ من ٥ أيلول سنة ١٩٤٨^(١). أما صديق صباه ونضاله ، عصام حماد ، فيقول : ان عبد الله الريماوي وكمال ناصر قد أسسا "البعث" وساهم فيها كل من عبد الله نعواس وراجي صهيون^(٢) لكن راجي صهيون نفسه يقول : "في ايلول ١٩٤٨ كنا ثلاثة ، أسسنا جريدة يومية اسميناها البعث ، كمال ناصر وعبد الله الريماوي باسميهما الصريحين ٠٠ وأنا من خلف الستار . ووضع كل منا آخر قرش في جيبه لهذا المشروع الذي كنا نقوم به بجهدنا الخاص ، من التحرير الى الترجمة الى المراسلة والتقاط الاخبار ٠ الخ ، ذلك بالاضافة الى ان كلاً منا كان يكتب عموداً يومياً ؛ عبد الله وكمال باسميهما . وأنا بتوقيع - عابر سبيل -^(٣) ومن الطريف ان اكثر القراء كانوا يظنون ذلك العابر السبيل .. كمال ناصر^(٤) .

ومن ثم يقول حاكم منطقة القدس ، عبد الله التل ، ان عبد الله الريماوي وعبد الله نعواس والشاعر الشاب كمال ناصر "حينما قرروا اصدار جريدة باسم "البعث" آزرتهم مادياً وأدبياً ، ووصفتي قائداً للمنطقة ثم حاكماً لها ، فقد سهلت لهم اصدار الجريدة وأتحت لهم الحرية التامة لنشر ما يرغبون في نشره دون رقيب او حسيب^(٥) .

لسنا ندري لماذا أغفل احمد العقاد اسم كمال ناصر وهو يؤرخ للجريدة قائلاً : صدرت في مدينة القدس سنة ١٩٤٨ وكان يشرف على سياستها حزب البعث ويحررها كل من الاستاذين عبد الله الريماوي الذي أصبح وزيراً فيما بعد ، والمرحوم عبد الله نعواس الذي أصبح نائباً في مجلس الامة ، وكانت تصدر اسبوعياً في اول عهدهما ٠٠٠^(٦) ولا ندري ايضاً سبب الاغفال نفسه في مكان آخر جاء فيه ان البعث "جريدة سياسية اجتماعية ثقافية اسبوعية صدرت في القدس عام ١٩٤٨ لصاحبيها عبد الله الريماوي وعبد الله نعواس ، وقد غدا أمين شقير محررها المسؤول اعتباراً من شهر آذار سنة ١٩٥١ ثم أوقفت^(٧) .

كل ذلك لا ينفي ان يكون لكمال ناصر ضلع في جريدة "البعث" تأسيساً وتحريراً . فالتل يقول : ان كمال "من مؤسسي جريدة البعث وعمل سكرتيراً لتحريرها ، ثم استقال حينما علم ان السيد موسى العلي يصرّف على الجريدة^(٨) .

وخلال جولة عبد الله ، ملك الاردن ، في الضفة الغربية لنهر الاردن ، زار مدينة رام الله حيث التقى كمال خطاباً أمامه وكتب مقالا في "البعث" حول تسليم "المثلث" فسجنه الملك ثمانية عشر يوماً . وضيّق على جريدة البعث فنقلت من القدس الى رام الله لضمّان

- ١- الجيل الجديد ، العدد ٢١ تاريخ ٢٧ آذار ١٩٥٠ ، ص ٣ .
- ٢- من حديث خالص مع راجي صهيون في ١/٣/١٩٧٦ بيروت .
- ٣- من مقال لكمال في "الجيل الجديد" عدد ٨ تاريخ ٢٢/٥/١٩٤٩ ، ص ١ يذكر كلمتي "عابر سبيل" بين شولتين مما يشير الى قصة مسبقه لها ويؤكد قول راجي صهيون .
- ٤- راجي صهيون . الحديث نفسه .
- ٥- عبد الله التل . كارثة فلسطين ، ١ : ٥٦٩ .
- ٦- أحمد العقاد . تاريخ الصحافة العربية في فلسطين (لامط ٢٠ / ١٩٦٧) ، ص ١٦٧ .
- ٧- صفحة ٨٦ من الكتاب الناقص المذكور في الحاشية الثانية على الصفحة السابقة . وهو يؤكد ان كمال انسحب من جريدة البعث عام ١٩٤٩ حيث أسس في نيسان ١٩٤٩ اجريده - عبد الله .
- ٨- عبد الله . نفسه ١ : ٥٨٤ ، الحاشية .

استمرارها كونها الوعيدة في صحف الضفة الغربية التي تنهج النهج الوطني الصحيح . (١)
ولم يكن عبد الله التل يقف مكتوف اليدين ، وهو الخبير بأحوال القدس وسائر المنطقة ، وكيف
ضاع الوطن مدينة فمدينة . ففي هذا يقول : " أخذت أطلعهم على خفايا السياسة في عمان
وأسمح لهم بنشر التوجيهات والانتقادات المرة اللاذعة ، بل والتهديدات المستورة تارة
والتصريحات الواضحة تارة اخرى . وكان رئيس التحرير ، وهو الريماوي نفسه ، يكتب -
بايحاء مني - مقالات افتتاحية لم يسبق لكاتب او صحفي ان نشر مثلها . . . فقد سمحت له
وشجعتة على كشف اعداء الوطن . . . فصالت اقلام الريماوي ونعواس وناصر وجالت ، وأسهمت
جريدتهم في كشف جرائم الانجليز . . . وبعد مأساة المثلث ، صدرت الجريدة وفيها مقال
افتتاحي للريماوي بعنوان : " اني لأرى رؤوسا تد اينعت وحن قظافها ، فهاج القصر
وطاج " . (٢)

فماذا كانت عاقبة هذا اللسان القويم ؟ وعلى من صب القصر جام غضبه ؟ وهل وقع
المحررون ضحية مشاعر حاكم منطقة القدس وأحاسيسه ان كان يوعز اليهم ويوحي ويتمنى ان
يقولوا جهرا ما لا يسمع له مركزه الرسمي بالجهربه ؟ أم انها قضية مبدأ اعتنقه المحررون
فربطت ألسنتهم ومزقت أوراقتهم ؟

وعاجلا ارسل وكيل رئيس الديوان الملكي الهاشمي ، صبحي زيد ، كتابا (٣) الى
التل جاء فيه : " سعادة السيد عبد الله التل متصرف القدس ، أرسل اليكم نحر الرسالة
الماتفية التي أبلغتكم اياها صباح اليوم تنفيذاً للأمر السامي الملكي : الدور الذي نحن فيه
في الأردن الغربي لا يسمح أبدا بتلاعب اصحاب الصحف بمستقبل البلاد بنشر مقالات
مخالفة للسير المطلوب . جريدة البحث والريماوي لا ينبغي ان يسمح لهما في لعبة خطيرة
كهداه ألفت نظركم اليها وأمر بتوقيفها شهرا ونصفا . وتفضلوا بقبول فائق الاحترام . " (٤)
ولكن التل لم ينفذ الارادة الملكية السامية ، بل حمى الجريدة ومحرريها من بطش
الحكام . . . على الأقل ، فإن كمال ناصر كان قد ترك الجريدة لسبب ذكرناه ، او بسبب ملاحظة
النظام له ، او رغبة في اصدار جريدة مستقلة - أصدرها في اوائل نيسان من العام نفسه .
كان كمال في " البحث " صحافيا شابا خارجا لتوه من أفطع جريمة جماعية ترتكب بحق
الانسان في القرن العشرين ، فما كانت شواظ فؤاده بأقل لسعا من شظايا لسانه . . . كان
يكتب بحرارة عاطفته المشبوبة التي رافقتة طوال حياته وكأنه يعصر من قلبه . بل كل تصرف
من تصرفات حياته اليومية جزءا من أحاسيسه الوطنية .

كمال ناصر الكاتب السياسي ابن الخامسة والعشرين ، متملي فكرياً ، متخم عاطفة
متوثب للتعبير لا للتنفيس ، منتظر الفرصة المواتية للظهور والانطلاق . وآية فرصة أفضل

١ - من الحديث السابق مع راجي صهيون .

٢ - عبد الله التل . نفسه ، ١ : ٥٧٠ .

٣ - بتاريخ ٩ جمادى الآخرة ١٣٦٨ الموافق ٧ نيسان ١٩٤٩م ، الرقم ١٧ / ١١ .

٤ - التل . نفسه ، ١ : ٥٧١ .

من صحيفة ما ان تصدر حتى تتلقفها عيون الناس وقلوبهم . . على الصحيفة والصحافة علق
كمال آماله بتثوير الشعب ولا سيما ان الجرح عميق لما يندمل ، والامل بالعودة لما يفقد بعد .
فاذا ما واجه عسفا في " البحث " فلربما تكون حالته افضل في اخرى بعدها ، في عمل
جديد لخلق جيل من الشعب جديد كما يتصوره هو : عاملا منقادا لما تبقى ، بانبا لما
تهدم . . فكان لا بد من " الجيل الجديد " .

ب - جريدة " الجيل الجديد "

اجتمع كمال ناصر وهشام النشاشيبي وعصام حماد ، لأمر عظيم عام ١٩٤٩ ، فكان
اصدار " الجيل الجديد " في الرابع من نيسان . فيها أطلق كمال كلمته : " إن هي الا محاولة
نقصد بها حياة جديدة وبعثاً جديداً . . سنحاول ان لا نكذب وأن لا نناق ! فالصحافة
دليل الامة ، فان كذبت ضلّت الامة . " (١)

لم يكن لهم مكتب خاص . كانت بادرة لكمال في تكوين جمعية " الجيل الجديد " على
هيئة ناد رياضي وثقافي باسم الجريدة ، " وفيه كنا نجتمع . وقد كانت المطبعة عبارة عن
- كراج - قديم متهدم تقريبا في ساحة رام الله الرئيسية في اول الطريق الى بطن الموي
- حي من أحياء رام الله القديمة ، وكنا ندفع لصاحب المطبعة بعد كل عدد مباشرة . " (٢)
كيف صدرت الجريدة ؟ يتابع عصام حماد قوله : ماديا ، جمعنا بعض المال من اصحابنا
أمثال محمد أديب العامري مساعد مدير الاذاعة الأردنية ، وعمر مطر الحاكم العام في الضفة
الغربية ، وراحي صهيون ، ووديع ناصر ، وغيرهم . لم تكن منتمية الى اية جهة ، لا ماديا
ولا معنويا ، وانما كانت تصدر عن زمرة من الشباب الوطنيين الراغبين بالضرب بسهم من
أسهم القيام بالواجب الوطني . . وكانت أجرة الواحد منا دينارا واحدا في الاسبوع . كنا
نطارق وديع بالسيارة حتى بيرزيت لنقبض منه بعد صدور كل عدد ، فقد كان مسؤول المالية .
وقيل ان صاحب الجيل الجديد هو حنا جاسر من قرية الطيبة قرب رام الله ، تبعد
٢٨ كلم عن بيرزيت . (٣) بيننا يصرّ عصام حماد على عدم وجود اية علاقة لحنا جاسر بالجريدة
من حيث الاصدار وان كتب فيها ذات مرة . أما نحن فتكفينا نظرة الى أعداد الجيل الجديد
لنرى الأول وعليه : " محررها المسؤول كمال ناصر " ومن الخامس حتى الحادي عشر ، رئيس
تحريرها . وفي الثاني عشر والثالث عشر صاحب الامتياز ورئيس التحرير حتى التاسع عشر .
أما الأعداد العشرون والاثنان بعده فقد أضيف لاسم صاحبها ورئيس تحريرها المسؤول
كمال ناصر ، اسم سكرتير التحرير محمد التيجاني ، وما لبث التيجاني ان اختفى اسمه من
العدد الاخيرين فيما بعد .

١- العدد الاول من هذه المجلة صدر بتاريخ الأحد ٤ نيسان ١٩٤٩ .
٢- من الحديث نفسه مع عصام حماد ، وهو ثالث الرفاق ، الحي الباقي ومصدر كل ما يرد
ذكرة عن " الجيل الجديد " .
٣- محمد حمادة ، كمال ناصر شاعرا ومناضلا ، ص ٣٣ .

وإذا لم نكتف بهذا التبرير لأن كمال ناصر نفسه يقول في مذكراته: ^(١) أُلح علي صاحب الجيل الجديد لمرافقته كصحفي في اجتماعات تسليم المثلث من الوفد الاردني الى الصهيوني برئاسة موسي دايان ٠٠٠. وعدنا الى رام الله مؤ كتب صاحب الجيل الجديد مقالا بعنوان - كيف سلّمنا المثلث - وافتتاحية بعنوان:

ومن دخل البلاد بغير حرب
يئون عليه تسليم البلاد ^(٢)

واعقل صاحب المجلة للمرة الخامسة منذ الاحتلال ، وصودرت المطبعة واعتقل المحررون والعمال واصدقاؤهم ، وكل من كانت لهم علاقة بالمجلة ^(٣).

إذا لم يكن هذا مؤيِّدا لرأينا في ان صاحب المجلة هو كمال ناصر ، فالمؤيِّد الاقوى هو هذا القول: "الحلقات التي سننشرها في هذه المجلة ، ننزعها من مذكرات محام شاب فلسطيني يقيم في الأرض المحتلة يكتب بصمت ويوعاني بصمت ، ويتحرك بصمت" ^(٤). فهذا القول يفسر لماذا اضطر كمال المحامي الفلسطيني الشاب المقيم تحت الاحتلال الرهيب الى التمويه في مذكراته لاسباب أمنية بقوله: ألح "صاحب الجيل الجديد" وهو صاحبها الحقيقي الذي ما أكثر ما اوقف وسجن ، اضافة الى تأكيد عصام حماد ان البيت المثبت في المذكرات هو من شعر كمال نفسه .

أنسأل عن اثبات آخر لملاكية الجريدة بعد قول كمال: "مجلة الجيل الجديد طفل رعيته في المؤبد ٠٠٠ ولقد غدّيت هذا الطفل من اعصابي وسقيته من عرقي ودمي في دور المطابع وفي جنبات وزوايا مكثبي" ^(٥) أو بعد قول احمد العقاد ، صديق كمال ، : "تعرفت بكمال ناصر في مدينة القدس ، وفي مطبعة دار الايتام ، حيث كان يطبع جريدته الاسبوعية "الجيل الجديد" . عرفت فيه الصدق والمحافظة على المبدأ والتشبث بأرائه الخاصة به وافكاره. الدليل على ذلك ان الجريدة لم تكن تتشراي اعلان مهما كان ، علما بأن الصحافة لا تستطيع الاستمرار بدون الاعلانات ٠٠٠ وكان لا يفوته حدث عام الا ويشارك فيه" ^(٦)

- ١- الآثار النثرية ، تاريخ ١٠ تشرين الاول ١٩٧٢ ، ص ٢٣٨ وما بعدها .
- ٢- يقصد المفاهيين الذين ارسلهم الملك الاردني عبد الله برئاسة احمد صديقي الجندي لمفاوضة الجانب الاسرائيلي حول أراضي المثلث التي مرّ الحديث عنها في الفصل السابق .
- ٣- المصدر السابق ، ص ٢٣٩ .
- ٤- المصدر نفسه ، مقدمة مذكراته ، ص ٢٠١ .
- ٥- الجيل الجديد ، عدد ١٢ . لا تاريخ له بل يفهم من العدد ١٣ انه في ٢٣ كانون الثاني ١٩٥٠ كون العدد ١٣ في ٣٠ منه والمجلة اسبوعية .
- ٦- محمد حمادة . المرجع نفسه ، ص ١٠ نقلا عن مجلة فلسطين الثورة عدد ٤٩ في ١٩٧٣ . قضية الاعلانات هذه ليست صادقة كليا من خلال مراجعتنا لأعداد جريدة الجيل الجديد المختلفة توخيا للدقة راجعت جميع الاعداد الصادرة والمحفوظة في مركز الابحاث ، بيوت فوجدت ان الاعداد (٥ ار ٣ ار ٥ ار ٢ ار ملحق ٢٣ ر ٢٤) هذه فقط لم تنشر أي اعلان او منشور دعائي . ووجدت ان معدل اعلانين للعدد الواحد يشمل باقي الاعداد (١ ار ٤ ار ٧ ار ٩ ار ١٠ ار ١١ ار ١٢ ار ١٣ ار ١٤ ار ١٥ ار ١٦ ار ١٧ ار ١٨ ار ١٩ ار ٢٠ ار ٢١) . ولست أدري كيف تجاهل العقاد وحمادة اعلان "كونتيننتال" للطباعة الذي يغطّي اكثر من ربع الصفحة الثامنة من العدد ١٢ حيث ان مساحة الصفحة ٤٠ × ٦٠ سنتيمترا . ولست ادري كيف غاب عنهما العدد ٢٤ الذي صدر في ٤ صفحات فقط وفيه ثلاثة اعلانات .

لكي تدخل الصحافة عقول الناس، يجب ان تتسم بالصدق الى ابعد الحدود . وصدق
كمال بلغ حدًا دفعه لكي يطيل لسانه في شخصية حاقدة على الجريدة أو صاحب الجريدة ،
فتصدى له قائلاً: " اين كنت يا هذا ، لَمَّا كانت فلسطين تصرخ وتستغيث ! اين كنت ايها
المتطفل على دنيا الصراع، لَمَّا كما نخوضها نحن في سهول الموت وكل عرق فينا ينبض ويهتف
لبيك يا فلسطين . . . تقول انني قبضت غالياً ثمن ما كتبت ! وكم أودّ لو تأتي لتراني بعينك
وأنا أبيع آخر قميص لديّ لأصدر به جريدتي الحبيبة الى قلوب الناس، دفاعاً عن عرضك الذي
هتكه الظالمون ! وكم كنت اتمنى أن تأتي لتراني وأنا أنام الاسبوع بأكمله في المطابع بسين
العمال الكرام . . . ان الجيل الجديد لا يعبد أصناماً ولا اشخاصاً ، ولا يرضى أن يقف
خلفها أحد من الناس ولو كان من الآلهة ، كما لا يرضى ان يقف احد من الناس امامها ولو
كان من الآلهة . " (١)

لولم يكن صاحبها ، فلماذا يتحمل اعباء التحرير والاخراج والتوزيع معاً ، وكلها
مرهقة ! لم يكن الاغراء يوماً مادياً ، فسعر العدد حتى الحادي عشر ، خمسة وعشرون ملاً
على الرغم من اصدارها في ثماني صفحات من الاول حتى العدد الحادي والعشرين . وقد
خفضت الى عشرين ملاً من العدد الثاني عشر حتى الحادي والعشرين . ولَمَّا صارت تصدر
في اربع صفحات في الاعداد من واحد وعشرين الى اربعة وعشرين ، صارت تباع بخمسة عشر
ملاً ، علماً بأنها كانت تتعرض لانتكاسات متلاحقة وملاحقات مشبّطة للعزائم وشدائد تعانسي
منها الجماعات فكيف بالافراد ! شكاً كمال من كل ذلك فكتبت: " ان تعطيلها طيلة الأشهر
الماضية أصابها في الصميم . . . ولقد خفضنا سعرها على شدة نعانيها ، لأننا لا نريد أن
نمنعها عنك ، ولا ان نمنعك عنها . وليس أحبّ إلى نفسي من أن أسمعك تقول: انني لا
أملك ثمناً لهذه الجريدة فأرسل لك ايها يا قارئي دون مقابل أو ثمن . " (٢)

ثم عاود شكواه فقال: " هذه هي الجيل الجديد نقدّمها للقارئ في عامها الثاني . .
. . . فالتعطيل الذي كان يلزم المجلة من قبل السلطات أضعفها وأفقرها مادياً ، ولم
يفقرها معنوياً . " (٣) عزاءه كان في بلوغ المجلة جميع فئات الشعب من جهة ، وتبليغها
اياهم إثارته . . . يوضح هذا زميله عصام حماد بقوله : " لم تكن نطبع أكثر من ألف نسخة
أسبوعياً للعدد الواحد نظراً لعدم توفّر الامكانيات المطبعية . . . إذ كان العدد كان يباع
في نابلس وغيرها بعشرين إلى ثلاثين قرشاً ، وهو أضعاف مضاعفة للثمن الأصلي . وقد
كانت توزّع في كل الضفة الغربية . " (٤) كان امتلاء عقول الناس وقلوبهم يخفيه عن امتلاء
جيوبه وكفيّه .

لم يكن التوقيف المعلن وحده عقبة في وجه الجريدة ، فقد صادرتها الرقابة من
الاسواق مرات بشهادة كمال : " لقد صادرت جريدة الجيل الجديد يا حضرة الرقيب " (٥)

- ١- الجيل الجديد ، عدد ١٣ ، الاثنين ٣٠ كانون الثاني ١٩٥٠ ، ص ٨ .
- ٢- نفسها ، عدد ١٣ في ٣٠ كانون الثاني ١٩٥٠ ، ص ١ .
- ٣- نفسها ، عدد ٢٣ في ٢٤ نيسان ١٩٥٠ ، ص ١ .
- ٤- عصام حماد . من الحدِيث السابق منه بد مشق .
- ٥- الجيل الجديد ، عدد ٤ في ٢٤ نيسان ١٩٤٩ ، ص ١ .

وكذلك تعرّض محرروها للتوقيف الإداري مرارا ولضغوط شتى بغية خنق صوتها .
فلدى صدور العدد الحادي عشر بتاريخ الاحد ١٢ حزيران ١٩٤٦ ، أوقفت ولم تعد
الى الحياة الا في عددها الثاني عشر الذي ظهر بدون تأريخ ، حتى كتب كمال في العدد
الثالث عشر "كيف استقبل القراء الجيل الجديد" فقال : " ما كادت مجلة الجيل الجديد
تظهر في الاسواق يوم الاثنين الماضي في أول اعدادها (يقصد ١٢) بعد ذلك الاحتجاب
الطويل الذي فرضته الظروف . . . حتى أخذ الجميع يشحنون اقلامهم ، فمن مرسل كاتب
التشجيع لأسرة الجيل الجديد ، ومن معجب ، ومن مساهم في التحرير . . ." (١) فأية
ظروف هي تلك التي حجبتهما قسراً سبعة اشهر ونصفا فصارت تصدر الاثنين بدل الاحد ،
وفي باب الخليل - القدس بدل صدورها في رام الله ؟

يوضح زميله عصام حمّاد فيقول : " قبيل صدور العدد الحادي عشر ، اعتقلنا أنا
وهشام وكمال الذي كان موقفاً . . . تركوني مع هشام لأننا موظفان حكوميان في الاذاعة ، أما
كمال فوقف موقفاً مبدئياً أمام الملك عبد الله الذي سأله : ما هذه الاسماء الأسيّة ؟ (عصام
وهشام) فأجاب كمال : لا وجود لها يا سيدي ، أنا " اخترعتها " من ناحية صحافية . . .
فأنا رئيس التحرير المسؤول ومسؤول عن كل ما ورد في المجلة . فقال الملك : اتركوهما ،
أمّا هذا " الكلب " فاحبسوه " (٢)

وحبس كمال الذي كان في العدد العاشر قد اتهم الحكومة الأردنية بالتمييز بين
اردني وفلسطيني . . . يعلّق عصام حمّاد على تلك الحادثة بقوله : كما الثلاثة قد اتفقنا على
الاستمرار في اصدار الجيل الجديد تحت اقسى الظروف . وعند ما اودع كمال السجن ،
صدر العدد الحادي عشر بافتتاحية تحمل العنوان :

قالوا حبست ! فقلت ليس بضائري حبسي ، وأيّ مهند لا يغمد

ويتوقيع كمال نفسه لكي يخيل للسلطات انه كاتبها ، فكيف استطاع تهريبها من سجنه ؟ لذلك
اعتبرت السلطات هذا المقال تحدياً مع ان عصام حمّاد هو كاتبه . " فما ان قرأه كمال في
السجن حتى أرسل اليّ قصاصة كتب فيها : بعد مقالك الأخير ، لم يبق بيني وبين حبس
المشنتة الا شبر . " (٣)

وكان توقيف آخر للمجلة ما بين العدد الحادي والعشرين في ٢٧ آذار ١٩٥٠ حتى
الثاني والعشرين في ٢٤ نيسان حيث احتجبت لأعداد ثلاثة . كان السجن وتوقيف المجلة
حدّاً فاصلاً في خط سيرها ، فبعد العدد الحادي عشر الشهير ، لازم كمال السجن اياماً ،
وقضى زميله هشام النشاشيبي نحبه برصاص من مسدس كان يقلّبه داخل السيارة ، فيما غادر

١- الجيل الجديد ، عدد ١٣ في ٣٠ كانون الثاني ١٩٥٠ ، ص ٢ . ومن الكلمة يتبين
ان العدد السابق ، الثاني عشر ، قد صدر قبل اسبوع مباشرة من الثالث عشر هذا ،
اي في ٢٣ كانون الثاني ١٩٥٠ ، لأنها كانت اسبوعية .

٢- من الحديث نفسه مع عصام ، وهو - كما أسلفنا - المصدر الوحيد الباقي بعد مصرع
هشام النشاشيبي واستشهاد كمال ناعراً .

٣- الحديث السابق مع عصام .

الزوميل الثالث، عصام حمّاد ، الصحراء الى دمشق الفيحاء . وما ان صدر العدد الثاني عشر حتى كتب كمال كما لم يكتب من قبل . كان قاصراً همّه على الإبتحاحية ، فأفاض بعد بعادهما ، التيار الجارف من عاطفته ، مخاطباً المبتعد ومناجياً المرتحل بأرقّ من النسيم وأحزن من هديل الحمام . . . فمن يملاء بعدهما "المكان الخالي" (١) ؟ ولا ندري ما الخالي ، أهو باب يحرّرانه أم قلب يملأه ! ولماذا "ذهباً وخلياً وحيداً" (٢) في ميدان لم يخل يوماً من الفرسان ؟ كيف سيقوى كمال وحده على مبارزة الزمان ؟ لنره يؤكّد جازماً : كان من حيلة هذه الرسالة معي ، اثنان ضمّ أحدهما القبر ، وهاجر ثانيهما ، وبقيت أنا ، والقافلة تسير! . . . (٣) وحده سوف يتابع .

جريدة الجيل الجديد هذه ، قبل ولوج باب مأساتها التي تتلف الاعصاب وتقلق التفكير ، لنر كيف كان الثلاثة يحررونها فلا نميّزها عن اولى جرائد التاريخ . ونعجب كيف كانت ترى النور بعد ذلك المخاض العسير . في رسالة تذكيرية من عصام الى كمال ، بعثها من دمشق وقد وقع الفراق بينهما ، كتب يتذكر : " . . . تلك الغرفة الصغيرة المتواضعة التي تنهالك في جنباتها ثلاث من الموائد ، لا تخلو من طرف مشقوق او قاعدة بالية ، اورجل محطمة . . . ها هنا يجلس هشام ، وها هنا يكبّ كمال ، وها هنا ينزوي هذا الضعيف . (ان الصفحتين الرابعة والخامسة جاهزتان للطبع ولا يزال امامنا الثالثة والسادسة ، والثانية والسابعة يجب ان تتجزموا لها الليلة . أما الأولى والثامنة فلهما صباح غد . . .) يتابع عصام) " . . . هذه هي الساعة في بيت جيران المكتب تدقّ واحدة ، اثنتين ، ثلاث ، اربع ، احدى عشرة ، اثنتي عشرة ، أف . . . لقد انتصف الليل ونحن لم نتناول عشاءنا بعد . ويسرع كمال ليعود بعد لحظات وفي يده ثلاث قطع من الشاطر والمشطور وبينهما فلانل . هذا هو المكتب وهذه هي المطبعة التي تدار باليد . . . وها هم أولاء أعضاء الجيل الجديد يحملون نسخ "الجيل الجديد" واحدة واحدة الى المكتب خوفاً من مصادرتهما . وهذا هو أبو جورج رئيس العمال نائر حانق علينا لأننا نتأخر بالموا . " (٤)

وها هي الجريدة تصدر بين الجدّ والعيث ، فلا ينسى محرروها الثلاثة ان يخيمتوا مسوداتها تحت الكرسي الخلفي للسيارة ، فلا يظل للشرطة المداهمين مستمسك عليهم . ويتابع عصام رسالته مثيراً للشؤون والشجون : " جزاك الله خيراً يا هشام . . . وأنت يا كمال ، أسأل الله ان يأخذ بيدك حتى يغيّر هذا الحال بأحسن من هذا الحال . "

تمّناها عصام حالاً أحسن من هذه الحال ، ان بها الأسوأ من أيّ حال . لم يترك الرقيب له متنقّساً ولا الحاكم الاداري العام ، وكأنه الموت تواطأ مع الارتحال مع الظلم والعسف فكانت قمة المأساة لهذه الجريدة الغضة وصاحبها . وها هو كمال في كتابه المفتوح

١- هو عنوان المقال الأول لكمال في العدد الثاني عشر يوم ٢٣ كانون الثاني ١٩٥٠ ،

بعد رحيل هشام وعصام .

٢- عنوان المقال الثاني لكمال في العدد السابق نفسه (الثاني عشر) .

٣- الجيل الجديد ، عدد ١٢ تاريخ ٢٣ / ١ / ١٩٥٠ ، ص ٢ .

٤- الجيل الجديد ، عدد ١٧ تاريخ ٢٧ / ٢ / ١٩٥٠ ، ص ٦ .

الى جلاله الملك والشعب^(١) نستبكيها على حاله بما يشق القلوب قبل ان يفجر ينابيع
العيون . . . "مؤامرة شنيعة حاكها الحاكم الاداري العام في هذا البلد هو وأعوانه ليقتضوا
على جريدة ناشئة فتية تنطق بلسان الشعب وتعبر عن الأمة . . . كت اطلع جريدتي الصغيرة
المتواضعة . . . في دار الايتام الاسلامية في القدس . . . تسلمت رسالة - من مديرها -
بأنه لا يستطيع طبع الجريدة لانني خالفت الاتفاقية . . . ولما حاولت ان استفسر منه أصر
. . . يجب ان اعود إلى المجلس الاسلامي الاعلى . . . فذهبت الى "الدفاع" الجريدة
القوية . . . فرأيت وجوها كالحة متألمة . . . فشعرت أن في الجوؤ مؤامرة . . . فأردت ان اتصل
بالحاكم اياه فضعني الاستاذ صادق الشنطي أحد اصحاب الدفاع وقال لي : أنا لن أتدخل
وأخشى من بطش الحاكم . . . مع ذلك لم أياس . . . حضر سعادة حسن بك وفا الدجاني
وكيل مدير المجلس ((مجلس النواب الأردني)) . . . فرفض وقال : معلش يا أستاذ (ابلعها)
أما أنا يا صاحب الجلالة فلن أبلعها لأنني ما تعودت ان أكون كبش الفداء لذئاب لا
يرحمون ولا يشعرون . فقررت أن أصدر العدد في موعده مهما كلفني الأمر ، فاتصلت بجهات
معينة وتمكنت من اصدار هذه الصنحة البسيطة لأرفع ظلامي . . . وقد أكون يا سيدي قاسياً
وجارحاً في هذا الحديث ولكنني أتحمل مسؤولية كل ما جاء فيه وقصدي الاصلاح ووضع
الأمر في نصابها . . . تعتبر هذه ظاهرة خطيرة تهدد (للشعب) كيانه ومستقبله . . .
ان جمال طوقان^(٢) لا يعمل من أجل بلده . انه يحارب أهله وعشيرته وحتى ربه في سبيل
مهالعه الشخصية . . . فاخرج أيها الحاكم اترك هذا البلد . . . انني اطمأنت اليك في
فترات الزمان الغادر فحدثتك بأشياء وآمال فخذلتني وكنت كالرقطاء التي أرادت أن
تلذغني فلذغت نفسها لانني أقوى منك بقوة الشعب وقوة الأمة . . .

الا ان كمال ناصر لم يستطع الصمود لاكثر من عدد واحد بعد هذا^(٣) ولكن ، ما
هو الأثر أو الآثار التي خلفتها جريدة "الجيل الجديد" هذه في الأذهان ؟ وما هي
قيمتها الصحافية والسياسية ؟

"عند اصدار اعداد الجيل الجديد السابع الأول ، لم تكن تصدر في فلسطين الحرّة
أية جريدة . . . وقد كانت الجيل بلا ترخيص لأن البلاد لمّا تنتظم ادارياً بعد ، وكان بعض
ضباط الجيش الاردني يشجعوننا بمؤازرتهم ، كما كنا نفسح لاقلامهم فيها . . ."^(٤)
لهذا كانت الجريدة غداءً روحياً وفكرياً للجيل الجديد قبل القديم ، واللسان الصريح
الواحد في الساحة .

١- الجيل الجديد ، ملحق العدد ٢٣ بتاريخ ٢٤ نيسان ١٩٥٠ ، وهو ورقة واحدة
في صفحتين فقط .

٢- هو المسؤول عن الرقابة على الصحف والمطبوعات في الأردن آنذاك .

٣- في محفوظات مركز الابحاث يوجد العدد ٢٤ تاريخ ١/٥/١٩٥٠ فقط كعدد أخير
وليس فيه كلمة واحدة موقّعة باسم كمال مما يدفع الى الاعتقاد بأنه العدد الاخير ،
وخاصة ان العائلة في بيرزيت كانت تحتفظ بالمجموعة ذاتها المودعة مركز الابحاث .

٤- من الحديث نفسه مع عصام حماد .

وكما ان ميدان الحرب ساحة لعبور الشعب الى جنة الحرية ، كذلك كانت الصحافة منبر الفرد لعبور الشعب الى نعيم التحرر . فمن سماها السلطة الرابعة رفعها عاليا . ولكن كمال ناصر رفعها الى الاعلى حين سماها الدولة الثانية .^(١) هي حرية الفكر والقول والعمل وحرية ان ينتقد الحكام المؤهلين ، وأن يهاجم أرنالهم بعنف ، وأن يعتبر اعدام انطون سعادة^(٢) وهمة عار في جبين الحريات والفكر والتاريخ .^(٣) هي حرية لفت انظار أصحاب الجلالة والقائمين على جامعة الدول العربية الى القضية - المأساة . حرية نقد الحكومة التي تفرق بين اردني وفلسطيني^(٤) والحكومات التي لم تجمعها الجامعة حقا ، ولم يكن النقد هداما . . فهو وإن انتقد العشائرية والمحسوبية ، فالبدل في تسليم ذوي الكفاءة والاختصاص مراكز الادارة . وان انتقد الوزارات فالبدائل مطروحة . وان انتقد التشرذم العربي فلماذا لم يعتبروا من ذلك وتأثيره على وقوع المأساة ؟ ولماذا تدخل جيوش سبعة كما خرجت وتخرج كما دخلت ، تتعثر بأذيال الهزيمة فتستباح اوطان وأعراض لم تألف الا العزة والنقاء معدنا !^(٥) وحتى الشعب العربي لا يسلم من نقده العنيف . فهو خامل متواكل يصفه تارة بالفأر وتارة بالجبان وعبدة الاصنام او الخراف الوديعة والعجول الصماء .^(٦) هل وضع كمال يده في الجرح بقوله :

ونصبح فليحيي الوطن^(٧)

وطن يباع ويشترى

أم أنه يردد مع الشاعر عمر ابوريشة قوله :

ان يك الراعي عدو الغنم^(٨)

لا يلام الذئب في عدوانه

ويظل عنده واحد مقدس ، يرقعه عن الشبهات والانتقادات ، هو الجيش العربي -

أي جيش - فاثار ايها الجندي العربي لكرامتك من الذل الذي ألحقه بك الساسة^(٩) ،

أيها الجندي المتوجع عليك الموت لينتصر ساستك .

ويسير كمال بجريدته المتجددة هذه توأكب الشعب بمختلف قطاعاته في سائر انحاء

حياته . فللفلاح باب وللجندي باب . للفن زاوية وللترفيه أيضا . للشاعر مكان وللقصاص والاديب

مكان . وللمرأة متسع تناضل من على ساحته . وللسياسة حصة الأسد من الجريدة "الاسبوعية

السياسية المصوّرة" . . ففي موسم الانتخابات يمجّد الشعب الخارج من خيام الصليب الاحمر

١- كمال ناصر . "مولاي يا صاحب الجلالة" ، الجيل الجديد ، عدد ٤ تاريخ ٢٤

نيسان ١٩٤٩ ، ص ١ .

٢- هو مؤسس الحزب السوري القومي الاجتماعي في لبنان في ١٦ أيار ١٩٣٦ . ولد في

١ آذار ١٩٠٤ ، وأعدم في ٨ تموز ١٩٤٩ .

٣- كمال . "مصرع البطل" ، الجيل الجديد ، عدد ١٦ تاريخ ٢٠ شباط ١٩٥٠ ، ص ١ .

٤- كمال . "ايتها الحكومة الاردنية اسمعي كلمة الجيل الجديد" نفسها ، عدد ١٠ تاريخ

حزيران ١٩٤٩ ، ص ١ .

٥- م . س . "يا لعار الاجيال" ، عدد ٢١ تاريخ ٢٧ آذار ١٩٥٠ ، ص ١ .

٦- م . س . "يا شهر أيار يا شهر الكرامات" ، عدد ٦ تاريخ ١٥ أيار ١٩٤٩ ، ص ١ .

٧- أبراهيم طوقان . الديوان (بيروت : دار القدس ١ / ٢ / ١٩٧٥) ، ص ٥٩ .

٨- عمر أبوريشة . الديوان (بيروت : دار العودة ، ط ١ / ١٩٧١) ، ص ١٠ .

٩- كمال . "أيها الجندي يا كبش الفدا" ، م . س . ، عدد ٨ تاريخ ٢٢ أيار ٤٩ ، ص ١ .

في برد العواصف والاعاصير الى مراكز الانتخابات ليحقق حلم انتصار الوطنيين في مثل هذه المعركة (١) وفي مواسم المطاردات يستنفر المحيط الشعبي لدفع سفينته السابحة في طوفان نوح ، سفينة "الامل والعقيدة والجهاد" (٢) التي أبحرت في ثلاثة عشر شهرا أربعاً وعشرين رحلة من أصل خمس وخمسين فيما لو طأطأت الرأس مرة واحدة . صحيفة تطارد مرارا وتحجب قسرا مرّات . . كان حربياً بصاحبها ان يحجبها طوعا لولا مبادئه يتمسك بها وقيم يسعى لتعميمها ، فكان نضاله المفوّه امتدادا لنضاله الذي بدأه في جريدة "البعث" من قبل ، وفي صحف من بعد وخاصة صحيفة "فلسطين" حيث كان لكلمته وقع متفجر ، ولموقفه صلابة لا تنطوي . وما تعرّضه للسجن بمنقطع يوما لولا الشعور السائد لدى الخاصة والعامة بأنه من اعرق بيوتات فلسطين نضالا ووطنية . . تلك الشهرة كان يهابها الحاكم فيضطرّ الى السكوت عنه مرارا .

ولا يغيب عن بالنا ان كمال ناصر حاول جهده ووحده الخطو بجريدته خطوات جريئة مجهدة باتجاه شموليتها الموضوعية وإعارته للرسم الكاريكاتيري المعبر اهتماما بالغاه مستعيدا في ذهنه نشوء هذا الفن أبان الثورة الفرنسية الشهيرة . فما أحوج الشعب الفلسطيني والعربي اليوم الى مثل تلك الثورة . فبدأ الرسم الكاريكاتيري يتوالى من العدد الخامس عشر مواكبا الاحداث وخصوصا الانتخابات العامة ، حتى العدد الثاني والعشرين . فقد كان الثالث والعشرون مثقلا بهموم الملاحقات والمطاردات - كما أسلفنا - الا أن الكاريكاتير الأكثر النصاقا بقضايا الشعب اليومية ، كان ذلك الرسم الذي لازم أكثر الاعداد متمثلا بصورة "ابن البلد" المحذود ب الظهر تحت وطأة ثلاثة أكياس حشيت " بالمرض والفقير والتشرد" . هذا يعيد الى اذهاننا ما طالعناه في التاريخ عن ابن الشعب في الثورة الفرنسية وقد امتطاه النبلاء والأكليرس في وضع مماثل ، بيد أن الشعب الفلسطيني أكثر حملا وأكثر تحملا .

عظم حملة فطال تحمله ، وهاجت عواطفه فعقلنا مرت وتفلّنت مرّات . كانت لكمال في جريدته مفاهيم سياسية مبدئية واضحة رسمها وناضل من اجلها . طرحها على الشعب لأن عليه ان يفهمها . ولكن ، بعد مرور سبعة وعشرين عاما على تلك الطروحات ، الشعب اليوم بالذات غير مستعد ان يفهمها كما ارادها كمال . هذه وحدة متكاملة إن تتحقق ، تكن للشعب حرته وللطريد وطنه . كتبت "الجيل الجديد" : "على الشعب ان يفهم : أن له الحق في تقرير مصير بلاده . انه صاحب الشأن ؛ انه من العبث والعار ان يستسلم امام هزيمة لم يسطرها هو نفسه . . . أن القدس عربية وغيرها ايضا عربي . . . علينا ان لا نعترف بقيام اية دولة من شأنها ان تحط بكرامتنا . . . أن العالم العربي وحدة لن تتجزأ رغم أنف الاستعمار البغيض . أن التكتل هو خطوة اولى في سبيل مواجهة الحقائق . . . أن

١- كمال . "يوم الشعب" ، م . س . ، عدد ٢٢ تاريخ ١٧ نيسان ١٩٥٠ ، ص ١ .
٢- هذه الكلمات الثلاث وضعت تحت عنوان "الجيل الجديد" بالاضافة الى "جريدة اسبوعية سياسية مصورة" في صدر الصفحة الاولى .

العالم الغربي لا يقيم وزناً لسياسة التواكل والتمهاون والاستسلام وأنه يحترم القوة^(١).
ما رآه كمال في حينه ، كان بالبصيرة مع البصر ، بالحقيقة مع الحلم ، وبالممكن مع
المعقول . لذلك " كانت صحيفة تحاول ويقدر الامكان ان تعبر عن الافكار والآمال التي تراود
أذهان شعبنا في الضفة وفي فلسطين بعد دخول الجيش الاردني لاسيما من كنا نعتقد
فيهم صلاحية ان يكونوا طليعة وطنية لهذا الشعب " .^(٢)

هذا من حيث المضمون المادي للصحيفة . " أما من الناحية الصحافية ، فلا نستطيع
الادعاء بأنها كانت صحيفة نموذجية ولا حتى شبه نموذجية . . . كنا نحاول قدر الامكان ان
نصل بها ضمن الامكانيات المتوفرة والظروف السياسية^(٣) . . . وكما رأينا من انتشارها في مدن
الضفة الغربية وقراها وتمافت القراء على هذا الرغيف الاسبوعي بأضعاف الاثمان " فان عصام
حماد يقول بحق : أستطيع ان اقول انه اذا كانت هناك ميزة خاصة للصحيفة من حيث انتشارها
ووقع كلمتها ، فذلك لا يعود اليها كمحررين بقدر ما يعود الى كونها قد صدر العدد الاول
في غمرة دخول الجيوش العربية لفلسطين . . . والى انقطاع الصحف التي كانت تصدر في
فلسطين قبل زوال الانتداب عن الصدور بسبب الاحوال السياسية والعسكرية في ذلك
الحين . . "

وتظل كلمة حق اخيرة في " الجيل الجديد " اذا ما توقفنا امام صفحاتها المتوفرة
لدينا ، وحاولنا قياس ما تدنا بصحف اليوم فهالنا التقصير من الناحية الإخبارية ، ونحن في
هذا الجيل أدري بما كان يجب ان تكون عليه اخبار " الجيل . . . " اذا ما وقفنا متأملين
فلنتساءل : هل كان وقتذاك ، اي جهاز صحافي بالمفهوم الحقيقي ، يغطي هذه الناحية ؟
وهل كانت المواصلات العادية متوفرة للانتقال والتوزيع ؟ وهل كانت الاتصالات السلوكية
واللاسلكية متوفرة كذلك على صعيد الوطن الصغير على الاقل ؟ هل كانت حراجة الموقف
العسكري والظروف السياسية غير الملائمة والتي تسود المناطق المختلفة من فلسطين فسي
ظل الجيوش العربية المتفرقة ، هل كانت تسمح بأكثر مما كانت عليه " الجيل الجديد " ؟
هي ، على ما كانت عليه ، كانت في معاناة أيوبية . ولكن ، حسبنا وفاقاً لكمال
وهشام وعصام ان نسجل لهم هذه المأثرة التاريخية ، حسب التقويم الفلسطيني الحديث ،
مع عبارة السيد المسيح : خير لك ان تضيء شمعة من أن تلعن الظلام .

١- كمال ناصر . الجيل الجديد ، عدد ١٨ تاريخ ١٦ آذار ١٩٥٠ ، ص ١ .
زاوية " على الشعب أن يفهم " .
٢- عصام حماد . من الحديث السابق نفسه .
٣- عصام حماد . نفسه .

لم يكن من طبع كمال ان يسمح للفشل بالنيل من همته وشّل توثبه . فوجد نفسه مجددا في تموز ١٩٥٥ ، يكتب في جريدة فلسطين^(١) حيث يقول : " هذه زاوية من زوايا عديدة في جريدة يومية معروفة أنيط بي الكتابة فيها وتحريها ."^(٢) وفعلا شغل منصب نائب رئيس تحريرها وكتبا لزاوية يومية باسم "حديث اليوم" حيناً ، وآخر "من يوم" الى يوم " ، فتلذت كانت رثته الوحيدة التي يتنفس بها وفيها تدفق هادرا نائرا في عنفوان الشباب وفي يقينه ان " . . . رسالة القلم الصحيحة ، كانت مهمتها ولا تزال ، دعوة الناس للثورة الفكرية في ظل الايمان والحرية والمساواة ."^(٣) فإذا ما عصفت رياح ساخنة بالمنطقة العربية ، فمن المسوء ولون عن الصمت والقفود ؟

يسخر كمال من هؤلاء الاطراف بأسلوب ينضح أسى ومرارة . . من ذلك قوله : فماذا وراء " النفحة اليهودية " التي لم يعرف لها مثيل في تاريخ " الكرم الصهيوني " وما سرّ هذا " الحنو " بعدما خصمت اسرائيل خمسين الف دولار مساعدة للاجئين العرب ؟^(٤) ويسخر من هيئة الامم التي هي لأريح دول فقط ، والباقيات " تجرّها القافية اذا جاز لنا التعبير ولا تجرّها القافلة لانه ليس هناك قافلة بل قوافل تتصارع وتتناحر ."^(٥) ويسخر دامي الفؤاد ، من تعوير مهمة الصليب الاحمر الانسانية " فللصليب الاحمر المؤسسة فضائل علينا كلاجئين ، ولكن لماذا تعلن انها ستقطع المؤن عن كل لاجيء فلسطيني يكسب اربعة جنيهات في الشهر الواحد . . فهل انتهت مشكلة اللاجئين !"^(٦) ويسخر الانسان من عدوه ، من الذين اصابعهم في الثلج ، من الذين يتلاعبون بمصائر الشعوب ، من الذين يزرعون الخطر في التربة العربية ليحصدوه منانم من بطنها وعن وجهها . . أما ان يسخر كمال ناهر من العرب ابناء جلدته فانه ساخر مرتين : مرة من اخيه ، ومرة من نفسه . . وهذا من أشد ما يبتلئ به المرء ولا سيما اذا توفرت لديه رهافة أحاسيس الشاعر المنكوب والناثر الراض حين يأتي العيد فيكتب :

١- أحمد العقاد . تاريخ الصحافة العربية . . . ص ١٨٨ وما بعدها . وقد ذكر أن جريدة فلسطين قد تأسست في يافا بتاريخ ١ كانون الثاني ١٩١١ على يد عيسى العيسى وموسف العيسى . كانت تصدر مرتين في الاسبوع ثم ثلاثا فيومية . أوقفها الحكومة العثمانية عند اعلان الحرب العالمية الاولى حتى سنة ١٩٢١ ، وهي المدرسة الاولى للصحافة العربية الفلسطينية . توقفت اثر النكبة الكبرى ثم عادت للصدور سنة ١٩٤٩ في القدس وتولت رئاسة تحريرها رجا العيسى ، نجعل مؤسسها . ظلت تصدر حتى أوقفها قانون المطبوعات الاردني الموقت رقم ١٦ لسنة ١٩٦٢ . بتاريخ ٢١ آذار ١٩٦٧ توقفت عن الصدور نهائيا .

- ٢- زاوية " من يوم " الى يوم " بعنوان " افكار وعواطف " ، السبت ٢ تموز ١٩٥٥ .
- ٣- الجريدة نفسها والمقال نفسه لكامل . وكل المقالات المستشهد بها من جريدة "فلسطين" هذه موجودة لدى صورا طبق الاصل حصلت عليها من السيد ناجي علوش ومركز الابحاث .
- ٤- "فلسطين" ، حديث اليوم بعنوان " لم يبق الا اسرائيل " . والجريدة غفلت من التاريخ .
- ٥- "فلسطين" ، من يوم . . الى يوم بعنوان " عيد الدماء " . (لا ت .) .
- ٦- نفسها ، حديث اليوم ، " رسل الانسانية يتخلون عنها " . (لا ت .) .

ما بهجة العيد ان عيّدت في العيد العيد للحرّ، ليس العيد للعيد

فمن دموع الأيام واليتامى عبر مخيمات العسف والشقاء، أضمرّ راحتي على حفنة باردة، وأنقل بها في عواصم الدول السبع ولسان حالي يقول: اغتسلوا في دموع اليتامى والارامل لعلمكم تطهرون ٠٠٠ ومؤسسة الجامعة العربية الهزيلة، أهدىها مشعل النفاق والتضليل وعلم الانانية والدجل وشعار المحافظة على الوعود والعهود ٠٠٠ ولا ميركا أهدى الاشمزاز ولرسل الانسانية والعدل أهدى دستور الظلم والاستبداد ٠ (١) فأى عيد بعد هذا يكون؟ الكلمة عند كمال مطارق ليس أثقل، فأى دور مشرف كان للدول السبع قوام الجامعة

العربية لمنع نكبة عام ١٩٤٨؟ حتى نهض التاريخ يعيد نفسه ليكتب كمال: "٠٠٠ غدا تجتمع الجامعة وسيحضر (ممثلون) عن الحكومات العربية (ممثلون) نعرفهم جيدا، ونسمعهم دائما ٠٠٠ وانهم في هذه المرة سيكونون (جائدين) وغير (هازلين)" (٢)

ويبدو ان الداء كان متمكنا من الجسد العربي فلم تستفد الزعامات من النكبة الاولى

على الرغم من شهادتها، الا انهم كمن لم يرو ولم يسمع فلم يفهمه ما أثار حفيظة كمال فكتب مقالا بعنوان "نحن نكابد وهم يؤجّلون"، فألى متى ايتها الجامعة العربية؟ ويشيره "العطف" الاميركي لتمويل اسكان الشعب في اراضي البلاد العربية فيقول لهم: "دولاراتكم احتفظوا بها" فالقضية قضية سياسية محضه ٠ ثم انه كصحافي، يتابع اخبار المحادثات والصفقات العربية الصهيونية ٠ تراسى اليه ان الصفاقة اليهودية قد بلغت حدّ شتم العرب في اجتماع اللجنة الاجتماعية التابعة لهيئة الامم، فماذا فعل الحكام العرب؟ لماذا لا يدافعون عن انفسهم "فلو كنا بدون حناجر لسكنا ٠٠٠ ولو لم تكن لدينا قوى وامكانيات لصمتنا ٠٠٠ ولكننا لم نصل بعد الى الدرك الذي علينا فيه ان نطأطيء ونرضى بالاهانة والصغرة" (٣)

ولسان الصحافي الجريء وقلمه الذي لا يرحم اعوجاجا، راح كمال يستحث قادة الحركة الوطنية في العالم العربي على قول الحقيقة للشعب وهي "ان قضية فلسطين انتهت ٠٠٠ فلن تحلها هيئة الامم ٠٠٠ ومشكلة اللاجئين انتهت أيضا ٠٠٠ فلن يعودوا الى بيوتهم واملاكهم في الوقت الحاضر ٠٠٠ وحسبنا تخديرا لهم وضحكا عليهم" (٤) ومن ثم يدعو الشعب الى اتخاذ الموقف نفسه حسب رؤيته الواضحة، فلقد ثبت انه "ان يخلص البلاد الا اصحاب البلاد ٠٠٠ لهذا يدعو الى "ضرورة تأليف كتلة شعبية فلسطينية تواجه الوضع الراهن، فالاحداث لا تزال تنتظرنا وقد تنشأ عدة ملابسات تمسّ جوهر القضية الفلسطينية ٠ وعلى هذا الاساس يستطيع الشعب ان يقول كلمته عن طريق ممثلية الشرعيين" (٥)

- ١- "فلسطين" حديثا اليوم، "هدايا العيد"، (لات ٠)
- ٢- نفسه، "اليها ٠٠ الى الحرب"
- ٣- نفسه، "لقد هزلت"
- ٤- نفسه، "لقد انتهت"
- ٥- نفسه، "كتلة شعبية فلسطينية تنطق باسم الأمة"

ولعل أصلب موقف اتخذته كمال ناصر في حياته الصحافية في هذه الآونة ، كان ما عبّر عنه بقوله: "٠٠٠ فإما نحن وإما هم ٠٠٠ ولا يمكن لهذه الرقعة الضيقة ان تتسع لاكثر من دولة واحدة ٠٠٠" (١) ولكن هذا الاندفاع العاطفي ، حبذا لو كان من موقع القوة الحقيقية لكي يقربنا الى الاماني بالافعال . سبع سنوات مرت على الوعود بالرجوع والارجاع والاسترجاع ، وكلها ذهبت مذهب وعد ابليس بالجنة . السلاح محرّم على الشعب ، والارض التي قد تصلح منطلقا لوطن قادر متطور قد جيّرت الى غير اصحابها ، وغطيت فوهات البنادق العربية بحجة منع الصدا عنها . وهتي الكلمة بات الرقيب لها بالمرصاد وكأننا بكامل بصريح : حتى أنت يا كلمة ! ويكتب "٠٠٠ يا وليّ العهد ، لفتة منك نحو فلسطين ، تر شعباً فقد كرامته وأمة مرّغت عزّتها في التراب ٠٠٠ وللشباب حرمة يا وليّ العهد ، على الدولة ان تراها وتراعيها ، فاضمنوا له حرية القول ٠٠٠ وانسحوا له مجال العمل ٠٠٠ وأما ان يعتقل بعض الأحرار ، فسيء لا يضيرهم ، ففي هذا شحذ للعزائم والارواح . (٢)

ازاء هذا الكبح العلني للجماح الوطني ، كان على كمال ان يسجل تراجعاً خطيراً في الموقف المتقدم ، لا عن قناعة ، وانما عن عجز فاتك نتيجة اجتماع عظماء العرب فلم يتمخض عنهم الا النكبة التي ستتعدى فلسطين ولو بعد حين طالما استمرت مواقفهم كما هي . فينصح اقطاب الجامعة العربية الذين سيجتمعون ليقرروا الذهاب الى مؤتمر ليك سكسس ، ينصحهم " أن تبحث قضية فلسطين على اساس تقسيم سنة ١٩٤٧ على انه أهون الشرين ، واعتقد أنه آن لنا ان لا نكابر بالمحسوس . (٣)

هذا الذي ارتضاه كمال المثقل الموهن النفس قبل الجسد ، لم يكن ليرتضيه نسي الايام العصبية للثورة وقد عاشها حتى الشهادة ٠٠٠ انما كان قلمه يتحرك بوحى من قلبه لا من عقله ٠٠٠ وهذه نظرة عجلت الى عناوين زاويتيته " حديث اليوم " و " من يوم ٠٠ الى يوم " في هذه الجريدة ، نظرة تشع بالكثير من مذهب كمال السياسية في ذلك الزمان الذي ، جلّ من عاشه اتخذ من الشعب الفلسطيني المغدور موقف الذئب من الحمل ٠٠ من ذلك : (٤)

" النغم المنشود - الحرب " و " هذه القدس فحرروها " و " هل يجتاز الشباب التجربة " و " المنافقون في الأرض " و " الجولة المفتعلة " و " ضريبة الفكر " و " انقذونا او فاتركونا " و " اليها ٠٠ الى الحرب " و " اليك ٠٠ يا وليّ العهد " و " نحن نكابد وهم يؤجّسون " و " دولا راتكم ٠٠ احتفظوا بها " و " رسل الانسانية يتخلون عنها " ٠٠٠

أما لإيمانه فأفعال كثيرة ينحصر بعضها في : (٥)

- ١- المصدر السابق ، " النغم المنشود " .
- ٢- نفسه ، " اليك ٠٠ يا وليّ العهد " .
- ٣- نفسه ، " اليها ٠٠ الى الحرب " .
- ٤- كلها عنوانات لمقالات كمال في جريدة " فلسطين " عام ١٩٥٥ والتي أحتفظ بنسخ مصوّرة عن اوراقها الاصلية التي لا تحمل أي تاريخ ، وهي في مركز الابحاث .
- ٥- هذه الستة التالية هي معظم مفاهيم كمال السياسية والوطنية من خلال المقالات المذكورة آنفاً في جريدة " فلسطين " نفسها .

- (١) الايمان بحرية الفكر الملتزم وحرية التعبير وحرية الاحزاب .
- (٢) الايمان بالعنف الثوريّ سبيلا للتصحيح الداخلي ولدحر الاحتلال .
- (٣) الايمان بأن لا تحرّردون اشتراكية قومية .
- (٤) الايمان بأنه لا يحرّر الارض الا شعبها .
- (٥) الايمان بأنه لا عيد للفلسطينيين حقيقيا في خارج الوطن .
- (٦) الايمان ، والاعتبار من مولد الرسول في الصحراء المجذبة ، وبنجاح ثورته الشعبية الاجتماعية والدينية .

وما الرسول الا رائد يجب الاقتداء به من كل مؤمن ولا سيما مثل كمال ناصر المعبر عن ايمانه وأفكاره ومبادئه بشتى الاساليب ، محمّلا على الرقيب وقانون المطبوعات متحديا العساف والقمع . يؤيد ذلك صد يقه^(١) وكيف كان يستطيع ان يصل الى القراء ، ان لم يكن بالصورة فبالقصة الرمزية . وان لم يكن بهذا او ذاك فبالافتتاحيات البيضاء مرة وأخرى بالافتتاحية الحذاء . . . وقصة هذه الافتتاحية الطريفة على لسان صد يقه انه عندما كان كمال نائبا لرئيس تحرير "فلسطين" ، عرض على الرقيب افتتاحية فرفضها . وكتب غيرها خمسا فرفضها . ويومها طرأت فكرة فقال لرئيس التحرير: "انهم لا يريدوننا ان نتكلم . . . حسنا . . . أنا أقترح ان نضع صورة حذاء بدل الافتتاحية . . . " كان يريد ان يقول للرقيب: " ذات يوم لن يخاطبكم غير هذا الحذاء . . . ستدوسكم احذية الجماهير . " لقد كان كمال قادرا على ان يقول في زمن الارهاب ذاك ما لا يجروء صحافيّ اليوم بالذات على قوله . . . أليست الافتتاحية فنّا شاء وكما ما أكثر من يكتبون فيه ، انما ما أقل من ينجحون! وعلى الأقل ، فان كمال ناصر استطاع في هذه الجريدة ان ينفذ الى قلوب الناشئين وعقولهم من خلال الكلمة الحرة والحارة ، لتنفخ فيهم روح البعث المؤودة في ظلمات الجامعة العربية ، ولتؤدّد لهم ان ظلمات الكون تضيئها شهب شابة لا تخبو .

وأضأء كمال هذا الركن من النضال الوطني من الخمسينات حتى مطلع السبعينات مع صدور مجلة "فلسطين الثورة" فكانت آخر سلاح حمله إذّاك الى أن خرّ صريعا وسلاحه بين يديه .

١- حنّا مقبل . ذكريات عن الشهيد كمال ناصر ، ص ٦٢ - ٦٣ .

مدخل عام: اذا قلنا بأن كمال ناصر قد بدأ كتاباته السياسية في صحف فلسطين منذ ١٩٤٥ ، فهل نتصوره مجرداً من عواطف الشباب وسرعة انفعالاته وحدتها ؟ أم نطلب منه تحليلات يسوّفها العقل وحده دون العاطفة ؟ أنتظر منه فيض العاطفة ومصفاة العقل ، هو ابن الحادية والعشرين ؟ لا ، لن نتظر منه كل ذلك ، بناءً على قوله: (١) قال لي رئيس تحرير (على مهلك وبلاش عواطف كثير) . أدافع انا عن العواطف ، هذه الكلمة المظلومة . وألاحظ ان كثيرين من أدباء وخطباء ومفكرين يحاولون حذفها من قاموس اللغة لأنها برأيهم سبب رئيسي لنكبة فلسطين . فمسكينة فلسطين بهم . فلو كان لدى الزعامات عواطف ، لما تركوا مليون انسان يتشرد ولا يرجعونه . سأكتب على مهل ، ولكنني لن انسى مزج عواطفي بفكري .

وعاش طيلة حياته تجنح به العاطفة كل جنوح . . حتى كان انسكابه الأخير في

مجلة "فلسطين الثورة" .

كتب مقالات في القصة ، وكتب في الوطن مضمدًا جراحاته . وفي السياسة الى أن صرعه . وكتب في العظماء حتى طاولهم . (٢) وكتب في الانسانية حتى سقط ثمنًا لشيوعها . وكتب في كل باب فانفتح له كل باب . خلق سياسيًا أم خلق شاعرًا ؟ هو يصرّ على السياسي والشاعر معًا وقد بدأهما معًا ومات على دنيهما . . قتلوه لفاعليته السياسية ، وهلبوه لكلماته الصاخبة . .

تبدأ رحلة كمال ناصر مع "فلسطين الثورة" يوم أخرج من الارض المحتلة في نهاية ١٩٦٧ ، فتلقفته المقاومة الفلسطينية في عمان وطارت به فيما بعد الى لبنان حيث ظل الناطق الرسمي باسم اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية ورئيس دائرة الاعلام والتوجيه القومي فيها ، الى ان استطاع بين السادس والتاسع من شباط ١٩٧٢ (٣) أن يأخذ قرار اللجنة التنفيذية للاشراف على تشكيل اتحاد الكتاب والصحافيين الفلسطينيين بدلا للاتحاد الشكلي السابق في مهر للكتاب المقيم أكثرهم فيها . وكان ان انتدب من الجديد : ناجي علوش وفايز قنديل ، عضوين لدى المجلس الوطني الفلسطيني . (٤)

كل شيء يوحى بالنشاط والتجدد ويصرّ عليهما ويتطلب ايحاء وسيلة نطق قوية بلسان حركة المقاومة كلها ، فطلع على الرفاق بقوله : "علينا ان ندرك ان الثورة بدون فكر هي مجموعة من العصابات . . والمجلة هي فكر الثورة" . (٥)

لهذا ، اجتمع عشرون كاتبًا و صحافيًا فلسطينيًا لتسمية المجلة وحجمها وتبويبها ، فقال كمال : "وجدت الاسم . . فلسطين الثورة" لأنني لا يمكن ان أتصور فلسطين بلا ثورة . (٦)

- ١- "فلسطين" ، زاوية "من يوم . . الى يوم" ، مقال "أفكار وعواطف" ، (لات . .)
- ٢- يمكن مراجعة مقالات مختارة حول هذه الكتابات في ملحق الرسالة هذه .
- ٣- ناجي علوش ، أمين سرّ عام اتحاد الكتاب والصحافيين الفلسطينيين ، في الحديث السابق .
- ٤- فريد الخطيب . من الحديث السابق معه .
- ٥- حنا مقبل . ذكريات عن الشهيد كمال ناصر ، هي ٧٧ .
- ٦- نفسه ، ص ٧٩ .

واختار لرئاسة تحريرها قمة في الصحافة والنضال : غسان كنفاني الذي اعتذر لتظل مسؤولية للناطق باسم الثورة . أما حجمها فلم يتجاوز في سنتها الاولى على الأقل ، الصفحات العشرين باستثناء العدد الممتاز الذي يصدر عادة في الفاتح من كل عام - الذكرى السنوية لانطلاقة الثورة الفلسطينية المسلحة . أما ابواب المجلة الثابتة فسبعة : يتناول الاول قضايا الثورة وأخبارها على الصعيد الفلسطيني المحلي والوطن المحتل . والثاني يتناول الثورة على الصعيد الفلسطيني المحلي والوطن المحتل . والثاني يتناول الثورة على الصعيد العربي من حيث علاقتها بالجماهير لشبه الثورة بسمكة تسبح في بحر الشعب ، والشعب الفلسطيني بسمكة تسبح في البحر العربي . الباب الثالث يتناول الثورة على الساحة الاردنية من حيث أزمته الرئيسية مع النظام ، ثم تعريته وفضحه أمام الجماهير ، والدعوة الى اسقاطه واقامة الحكم الوطني البديل . الرابع يتناول صدى الثورة في أنحاء العالم ، ونشاطاتها ومدّها الاعلامي والسياسي . والباب الخامس ميدانه الثقيف الثوري إن على صعيد المقاتلين والثوريين لتعبئة الجيل الواعي وتنشئة الجيل الصاعد ، أو على صعيد الجماهير العربية المدنيّة بظاهرة المقاومة المسلحة . الباب السادس يتناول حركات التحرر العالمية ابتداءً بآفريقيا وانتهاءً بأميركا اللاتينية : اخبارها السياسية والعسكرية ، ثم العلاقة المصيرية بينها وبين حركة المقاومة الفلسطينية من قبيل وحدة مهدد الخطر . والسابع ، الباب الاخير الثابت في هذا المجال ، يعالج الادب والفن الملتزمين من شعراء الثورة وفنانيها في الوطن المحتل وخارجه .

تضاف الى هذه الابواب الثابتة ، زوايا وصفحات تخلقها ظروف الثورة المتغيرة باستمرار . فهي مجلة متحركة تتناسب مع الاحداث ، تتعاطف امام التحديات وتنشط مع الانتصارات . تعبر باستمرار عن فكر الثورة الثوري في محاولة لجعلها وثيقة تؤنّخ للثورة بدقّة وشجاعة وصدق ، وترسم لها سبل الاستمرارية وتبيّن معالمها . فقد كانت الشغل الشاغل لكّمال ، قضية الوحدة الوطنية و "كانت روح كمال ناصر تتمزق من اجل الوحدة الوطنية . وكان هو روح هذه الوحدة . فكم صمت من اجل ان تنجح الوحدة وتبقى . لا بدّ من نجاح التجربة قبل أن أموت " . ذلك كان هاجسه وأرقه الدائم .^(١)

ولم يقصر نشاطه على المجلة الاسبوعية ، بل تعدّاها الى النشرة اليومية حيث ساهم بزخم في انشاء الوكالة الفلسطينية للأنباء (وفا) وتعزيزها ، وقد كانت من تفكير الشهيد كمال عدوان . . يؤهله للقيام بعظام الاعمال هذه ، كونه "من القلائل القادرين على استيعاب الأطر الصحافية . فكانت صداقاته مع الصحافيين اللبنانيين^(٢) واسعة ، وعلاقاته جيدة مع الاوساط السياسية ومحترما لدى القصر^(٣) ، وكان يحلّ الكثير من المشكلات ذات

- ١- نزيه أبو نضال . ذكريات عن الشهيد كمال ناصر ، ص ١٠٧ .
- ٢- وخاصة مع اسيرة تحرير النهار " فقد لمست ذلك من الالتقاء فيها بالصحافيين ميشال أبو جودة وعبد الكريم ابو النصر بتاريخ ١٣ / ١١ / ١٩٧٤ . ومع "الحوادث" كانت تربطه علاقة قد يمة مستمرة مع رئيس تحريرها نبيل خوري وقد التقيته هناك في أوائل ١٩٧٥ .
- ٣- كانت له مكانة لدى رئيس الجمهورية سليمان فرنجية جعلت رأيه مأخوذاً به في الغالب وقد جاء تعرّف الحكم للثورة في أوائل أيار ٧٣ بعد شهر من غياب كمال عن مسرح الحياة .

الطابع الاحتكاكي بين السلطة والمقاومة ، كما استطاع انتزاع تسهيلات عدة للاعلام الموحد بريدياً وهاتفياً ، كالاغفاء من الرسوم وأكلاف المخابرات المخففة^(١) كان يحمل جواز سفر يخوله حتى اقتحام الموحد من الابواب والقلوب ، حتى ان أحد زملائه^(٢) يتذكر: " ان كمال كان يلتقي الصحافيين اللبنانيين باستمرار^(٣) ، يعطيهم اخبار المقاومة ويناقشهم في ما يكتبون عنها ، ويبحث في الازمات السياسية وآياهم ، ولا يتورع عن لوم أي منهم على موقف له من قضايا الثورة . كان يحرص على ابراز اخبارها في الصحف وخصوصاً وضع عناوين رئيسية لفحوى افتتاحيته قبل يوم من صدور فلسطين الثورة . "

هذه المجلة نكّرت كمال ناصر بأول منبر صحافي شيدته في مطلع حياته السياسيّة وأطلّ منه على العالم . وعلى أحرّ من الجمر بعد اعلان الوحدة الاعلامية يوم ٥ حزيران ١٩٧٢ ، أصدر العدد الاول من المجلة في الثامن والعشرين منه لتستمر اسبوعياً - كل اربعاء - وبدون انقطاع حتى الحادي عشر من نيسان ١٩٧٣ في واحد واربعين عدداً ، كان لكمال فيها كتابة الافتتاحية حتى ان الاخيرة التي كتبها الأحد - كعادته - قد وجدت سبيلها الى المجلة بعد استشهاد . ويومذاك^(٤) لم يظّل كمال مع الاخوة صباح مساء ، ولم ينزل الى المطبعة يراقب صدور العدد ، ولم يفرح بأنه سهر حتى الثانية ليلاً ويسبق الجميع الى رؤية العدد . أجل ، ولم يعد يختلي كل أحد لكتابة الافتتاحية ثم مناقشتها مع هيئة التحرير وتعدّلها اذا قرّ الرأي على ذلك ، وانّما ترك على طاولته المثقوبة بالرصاص ، قائمة بهيئة تحرير جديدة كان يتصورها قفزة في الطباعة والاخراج . الا ان حزنه كان عميقاً نتيجة للرفض الذي صعقه به بعض كبار الكتاب والصحافيين الفلسطينيين^(٥) محجّمين عن المشاركة في بعث نسغ الحيويّة في شرايين المجلة . ولكنه لم ييأس فيتخلّى عمّا التزم به طائعا .

حصر كمال همّه هنا في كتابة افتتاحيات " فلسطين الثورة " كلها ، باستثناء ما كانت تلزمه طبيعة مهمّاته بأن يكون بعيداً عن موقع المجلة ، على الرغم من محاولته اجتياز هذا الحاجز القسريّ مراراً . وليس سهلاً اليوم تحديد الافتتاحيات التي ليست بقلم كمال ناصر ، ولا سيما ان توقيعاتها كانت تتراوح بين " رئيس التحرير " و " فلسطين الثورة " في حياته وبعدها .

- ١- من حديث خاص مع زياد عبد الفتاح عام ١٩٧٨ ببيروت .
- ٢- من الحديث نفسه مع فريد الخطيب .
- ٣- كان رئيس تحرير جريدة النهار ينشر افتتاحية كمال من فلسطين الثورة في " النهار " قبل يوم من صدور المجلة ، وذلك كان بسبب علاقة الصداقة بينهما .
- ٤- حنا مقبل . ذكريات عن الشهيد كمال ناصر ، ص ٧٨ .
- ٥- بعض هؤلاء في فصائل المقاومة ممن لذيهم حساسيات خاصة أبعدهم عن المشاركة في المجلة . وبعضهم كان مرتبطاً بصحف تجارية ومجلات اخرى ، وليس ممكناً فرض الالتزام على أي منهم لان الالتزام طوعي قناعي .
- ٦- حنا مقبل لا يحدد افتتاحيات ليست لكمال . زياد عبد الفتاح ينسب لنفسه افتتاحية العدد ٣٧ ، وسواه ٢٨ و ٢٩ بحجة ان كمال كان اثناءها في المجلس الوطني الفلسطيني في القاهرة .

وهو ، صاحب الافتتاحية - مفتاح المجلة المتدخل في شؤونها مضيافاً ومنقهاً فمُنشئاً ومزخرفاً ، هو استطاع أن يواكب اعظم حدث تاريخي متمثل في انتصار الثورة الفيتنامية فخصها بعدد من المجلدات . كما انه اصدرها في حلّة قشبية فجر العام ١٩٧٣ للذكرى السنوية الثامنة لانطلاقة الثورة . وحققت مجلته سبقاً صحافياً عظيماً^(١) يوم كانت اول من كشفت النقاب عن الاحتلال الصهيوني للجزر العربية في البحر الاحمر ، وقبل ان يثار الموضوع في جامعة الدول العربية .

وكما رأينا في ثنايا هذه الفصل من ان لكامل مقالات وافكارا ومواقف مأثورة منذ مطلع حياته السياسية والصحافية ، فانه استمر في " فلسطين الثورة " يقدم من عصارة حسه وقلبه ، ومن بدائع فكره ، ما جعل بعض افتتاحياته ذا أثر كبير في المفهوم السائد لمهمة الصحافي الثوري ، هو الصحافي الملتزم بقضية أكبر من ان يحيط بها او يحمل اعباءها انسان فرد . ومع هذا فإن أشهر افتتاحياته فيها : " في موضوع الوحدة الوطنية ، الجماهير ترفض التزوير والتبرير"^(٢) والتي كانت وليدة البدء بتنفيذ خطوات على طريق الوحدة الاعلامية . ثم افتتاحية " كيف نثار للشهيد " غسان كنفاني ، والثأر له يكون بتحقيق الوحدة الوطنية ، وتعزيزها بين سائر فئات المقاومة^(٣) وافتتاحيته بعنوان " دفاعا عن انفسنا لا دفاعا عن السوفيات"^(٤) و " عندما نحرر شبراً من ارضنا"^(٥) رداً على دعاة تشكيل حكومة فلسطينية في المنفى في الوقت الذي لا تشكل هذه الا على اعتبار النصر والتحرير . وافتتاحية " ماذا نتعلم من ثورة فيتنام"^(٦) و " لا . . . للوصاية على الثورة"^(٧) ، هذه ال " لا " يعلنها كمال مطلقة . وافتتاحية " بلغور والبلغوريون"^(٨) عندما يكون بلغور ذاك البريطاني المعروف والبلغوريون هم " قوى الثورة المضادة التي تعمل كقرين واحد لاجهاض القضية وتركيز الكيان الصهيوني الاسرائيلي"^(٩) . واجب الثورة هنا هو ممارسة العنف الثوري حيث ان " المطلوب من يد العدالة المتمثلة في الثورة الحقيقية ان تصل الى رأس كل لويس سادس عشر في المعسكر البلغوري الفلسطيني والعربي"^(١٠) وهكذا يتم القضاء على كل " العنف والسرطان الذي ينمو وتزداد أورامه في أحشاء الأمة نفسها"^(١١) .

- ١- سيمون خوري . " فلسطين الثورة بعد عامها الاول " العدد ٤٩ (٢٧ / ٥ / ٧٣) ، ص ٨ .
- ٢- فلسطين الثورة ، عدد ١ في ٢٨ حزيران ١٩٧٢ .
- ٣- نفسها ، عدد ٤ في ١٩ تموز ١٩٧٢ .
- ٤- نفسها ، عدد ٨ في ١٦ آب ١٩٧٢ .
- ٥- نفسها ، عدد ١٦ في ١١ تشرين الاول ١٩٧٢ .
- ٦- نفسها ، عدد ١٩ في ١ تشرين الثاني ١٩٧٢ .
- ٧- نفسها ، عدد ٢٤ في ٦ كانون الاول ١٩٧٢ .
- ٨- نفسها ، عدد ٢٠ في ٨ تشرين الثاني ١٩٧٢ .
- ٩- كمال ناصر . الآثار الثورية ، ص ٩٨ .
- ١٠- م . س . ، ص ٩٩ .
- ١١- م . ن . ، ص ٩٧ .

ثم افتتاحية "التهميل بخطر الثورة العربية" (١) في صدد اتخاذ العرب هذه الثورة أداة ابتزاز في وجه أباطرة الذهب الأسود . ولعل افتتاحيته "اسئلة لا نستطيع الا طرحها" (٢) التي أعاد العدو والصهيوني نشرها غداة اغتياله للقادة الثلاثة كمبرر للخدر بهم بجرم تصريحاتهم . هذه الافتتاحية ، كان كمال في حينها (٣) قد طرحها اثر عملية الخرطوم الشهيرة على اساس ان "منظمة التحرير الفلسطينية بصفتها الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني ٠٠٠ لا يمكن الا ان تعنى بكل الظواهر التي يفرزها الشعب الفلسطيني ، ومنها ظاهرة ايلول الاسود" (٤) بحجة ان "ايول الاسود" تجسد "حالة عقلية بدأت تسود بعض قطاعات الشعب الفلسطيني والعربي نتيجة الكبت والحرمان والتآمر الديني المفضوح ضد قضية الأمة الكبرى" (٥) لهذا ، اذا ما حللنا هذه الظاهرة قياسا الى الثورة الرائدة ، فالقضية ككل ، فإن "جماهيرنا ما زالت أكبر من كوادرها الثورية ، وما زالت كوادرها الثورية أكبر من قياداتها ، وما زالوا جميعاً أصغر من قضية فلسطين" (٦) وهذا التحليل هو ذاته الذي قاد كمال ناصر في آخر أشهر افتتاحياته "خطوات الى الأمام على طريق الوحدة" (٧) قاده الى تعيين الاصل والفرع في القضية: "أما القيادات فتتغير ، وأما الاشخاص فسيزولون ، وتبقى القضية أكبر من القيادات والاشخاص ، ولا بد ان يدوب الجزء في الكل ، وأن يدوب الكل في الثورة قبل ان تسقط الثورة ، كما فعلت في الماضي القريب ، الاجزاء التي لا تستحق الحياة" (٨) كمال ناصر ، أحد القادة والاشخاص النادرين الذين كبرت الثورة بهم في حياتهم وبعد غيابهم . التزم بها حتى الذروة فخلد نفسه طالما ان الثورة مستمرة والشعب باق . لم يتحقق ذلك من الفراغ ، بل من عقيدة راسخة ومبدأ ثابت أحيانا ، وأحيانا من تأكيد ما تعتنقه الثورة من مبادئ ، ومنطلقات تسير وفقا لها ، وما تتخذه من مواقف معلنة على الساحة الفلسطينية والعربية والدولية على حد سواء . كل ذلك عبر واحد وأربعين مقالا افتتاحيا (٩) تتناول تلك الزوايا الثلاث تعليلا وايضا وتريسيخا .

من زاوية الساحة الفلسطينية ، كان تعريفه المبسط للثورة بأنها فعل ايمان "فليست الثورة حالة تشاؤم وافتاؤل ، وانما هي حالة ايمان نامية متصاعدة ، وحالة حركة وعمل ، وحالة تمرد مستمر على الواقع المتردي ، تبدأ برفض الاحتلال وتنتهي بتحرير الانسان والارض" (١٠) . ولكي يستمر تفجر الثورة محققة قفزاتها المتسارعة باتجاه الهدف الرئيسي ، فلا بد

- ١- فلسطين الثورة ، عدد ٤٠ في ٤ نيسان ١٩٧٣ .
- ٢- نفسها ، عدد ٣ في ١٢ تموز ١٩٧٢ .
- ٣- الاربعاء في ٧ آذار ١٩٧٣ .
- ٤- الآثار النثرية ، ص ١٧٤ .
- ٥- م ٠ ن ٠ ، ص ١٧٥ .
- ٦- م ٠ ن ٠ ، ص ١٧٧ .
- ٧- فلسطين الثورة ، عدد ٤١ في ١١ نيسان ١٩٧٣ .
- ٨- الآثار النثرية ، ص ١٩٧ .
- ٩- هذه الافتتاحيات منشورة في الآثار النثرية لكمال ، القسم الاول من ص ١٧ - ١٩٧ .
- ١٠- الآثار النثرية ، ص ١٤٨ .

من قيادة البندقية لها قبل انقيادها للكلمة ، فالبندقية هي "عزاوننا الوحيد امل كل مظاهر العجز والخطأ والاستسلام . . . من حقها وحدها أن تقود وأن تنظر وأن تخطط وأن تناضل للنصر دون أن تلتفت للمعادلات والتسويات والتراجعات . . ." (١)

وكان على كمال ابراز الثورة انها "فلسطينية الملامح والقسمات ، عربية العقل والقلب والروح والعمق والبعد" (٢) لكي يؤكّد اتساع شمولها وعمق جذورها ورفض الاقليمية المغلقة الضيقة . عوامل التثبيت والتماسك مهيمنة مما أكسب الثورة قدرة عظيمة على تخطي العواجز والانكاسات والمؤامرات ولا سيما انها تعتمد اعتماداً مطلقاً على الشعب ، وقد سجّل التاريخ للثورات حقيقة ان "النصر حليف الشعوب . . ." (٣)

ومن شرط البندقية المجهّزة ، والشعوب العاملة المؤمنة لكي تستمر الثورة ، هناك شرط لا يقل أهمية عما رأينا ومتوافر فيها "في فكرها السياسي والنظري المعبر عنه بمنطلقاتها الأساسية ، والتي يضمها اليوم ميثاقها الوطني وبرنامجها السياسي ، وحصيلة الأفكار والنقاشات والحوارات التي دارت في مؤسسات الثورة . . . هذه الأفكار التي تشكّل بمجموعها دليل عمل حركة المقاومة . . . وتضع استراتيجيتها الشاملة في الكفاح المسلح وحرب الشعب من أجل التحرير الشامل والتي أعطت للثورة مضمونها التقدمي الحقيقي" (٤)

ولا يمكن للاهداف الاستراتيجية ان تتحقق ، ولا للثورة ان تعمل ، الا انطلاقاً من وقائع أولية سليمة يجسدها العمل الجماعي الذي يعلّق عليه كمال ناصر في جميع كتاباته أهمية خاصة حين لم ينفك يوماً يردد : "أما القيادات فتتغير ، وأما الأشخاص فيسيزولون . . . ونحن نعرف ماذا نريد بالضبط ، لا نخضع للمزايدات ولا للمناقصات ، فلا ميوعة تحت غطاء المرونة ، ولا تشنّج باسم التصلّب ، يحكمنا البرنامج السياسي والقوانين العلمية الثورية والعلاقات الجدلية التي تستطيع وحدها ان تحدد الخطوات" (٥) ولن يضلّ السائر في النور .

كانت هذه نظرة كمال ناصر عبر افتتاحياته في فلسطين الثورة من زاوية الساحة الفلسطينية خاصة . اما من الزاوية الفلسطينية العربية ، فقد عبّر عن أهميتها بقوله : " قضية فلسطين محور كل قضايا العرب ، والتي يدور من حولها مصير هذه الامة وجوداً وعدماً " (٦) وربط لذلك ، بين تحرير فلسطين و "جوب تحقيق التحرر الكامل للارادة العربية وحتمية قيام حركة التغيير العربية الحضارية الشاملة" (٧) وفي ابرازه المحور الرئيسي والربط المصيري ، وجد كمال نفسه مضطراً الى وضع الكلمات في مواضعها المفيدة حين أخرج الثوار وحدهم من السجن الكبير الذي تعيشه الامة العربية "حكما ومسؤولين وزعماء وقيادات فقدت

- ١- الاثار النثرية ، ص ١٢٢ .
- ٢- نفسها ، ص ١٦٠ .
- ٣- نفسها ، ص ١٥٣ .
- ٤- نفسها ، ص ١٢٩ .
- ٥- نفسها ، ص ١٩٦ .
- ٦- نفسها ، ص ١١٥ .
- ٧- نفسها ، ص ١١٣ .

احساسها بالتاريخ ، فتأرجحت بين العجز والانحراف . (١)

لا يرى التاريخ في غير اتحاد الشعوب المقهورة ، وسيلة لتحررها من الاستعمار .
ومنظار التاريخ ، نظرت الثورة الفلسطينية الى ضرورة الوحدة بين فصائلها يوم تعرضت للخطر
المصري في الاردن عام ١٩٧٠ ، فشكّلت قيادتها الموحدة . كذلك ، فان الوحدة مطلب
هامّ وحاجة مأسّة للامة العربية وقد أكد كمال " ان كلاً من سوريا والعراق مدعوّتان لتحقيق
مثل هذه الخطوة الاولى في رحلة الالف ميل باتجاه المعركة والتحرير . " (٢) طالما ان البحث
هو الحزب الحاكم في القطرين وواحد الايمان والأهداف وعرضة لخطر مؤكّد ، فماذا يحول
دون الوحدة - النواة ؟

واستمرت شكواه من التشردم المفجع في الصف العربي المهشم . وهل تصلح الثورة
ما أفسده الدهر أو فسد مع الدهر ! لم تقف الامور عند هذا الحدّ ، بل ان انفرط الصف
العربي قد انعكس سلبياً على بعض فصائل الثورة التي تصيح السمع الى بعض الانظمة . . .
ومع هذا ظلت الثورة في رأي كمال المعلم ودوماً ، أنبل ظاهرة عربية معاصرة " فقد كانت
ثورتنا بالذات وستظل في موقع المحاسب وليس في موقع المحاسب ، لأنه في مجال الحديث
عن الاخطاء والخطايا ، يتّضح كل يوم . . . من هي الجهات والفئات والدول والهيئات التي
تحتاج الى حساب ومحاسبة ومعاقبة . " (٣) والثورة " من ضمن هذه الازهاق الشاذة - العربية
والدولية - ما تزال قادرة على العطاء وعلى الحركة في مختلف الميادين والساحات ، بل
تكاد تكون الشيء الوحيد النابض المتحرك في المنطقة . " (٤)

وليس صمود الثورة الدائم ، على الرغم من طلب الاعداء الدائم لرأسها ، ليس الا
اعترافاً ضمنياً بقوة الثورة واشتداد ساعدها وطولها وكونها تدرك أن التحرك بين جماهير
الشعب هو الأجدى . وقد تطول سيطرة الانظمة وكبتها لشعوبها ، الا ان استباحة كرامة
الانسان العربي تظل حلماً لاعدائه لا يتحقق . وهنا يشير كمال باصبع الاتهام مباشرة الى
أمراض الانظمة التي هي دون المستوى الثوري المطلوب والتي تتحكم في ممارساتها " تنازلات
وتراجعات ووساوس ومخاوف وتردد وخسوف تكاد تزيل حتى التناقض (الثانوي ١) مع
الصهيونية ودولة العصابات التي قامت على أشلاء مائة مليون عربي . " (٥)

وكون ملء كمال ناصر لمهمته في " فلسطين الثورة " في مرحلة تالية لتلك التي شهدت
جرائم النظام الاردني بحق الثورة الفلسطينية ، فقد دارت مقالات عدة في فلكه متخذاً من
الاردن عينة عربية " رسمية " تقف موقفاً شاداً من الثورة . ولم تتغير قناعته يوماً بأن الأردن لن

١- الآثار النثرية ، ص ١٦٥ .

٢- نفسها ، ص ١٦١ .

٣- نفسها ، ص ١٢٩ .

٤- م ن . ص ن .

٥- نفسها ، ص ١٦٠ .

يقا تل الع د و الص ه ي و ن ي ب أ ي ش ك ل ، ب ا ن ي ا ق ن ا ع ت ه ع ل ي " ا س ت ع ر ا ض ت ا ر ي خ ه الت ا م ر ي ع ل ي الح ر كة الع ر ب ية الو ط ن ية ب د ا من ث و رة ر ش ي د ع ا ل ي الك ي ل ا ن ي ف ي الع ر ا ق و ع ب ر ت د خ ل ه الم س ل ح ف ي ال ي م ن و م ر و ر ا ب ا ل و ح دة الم ص ر ية الس و ر ية و م ج ا ر ز ه الر ه ي ب ية ف ي ا ي ل و ل و ب ع د ا ي ل و ل . ٠٠٠ ب ا ل ا ض ا فة ال ي ت ب ن يه س ي ا سة الج س و ر الم ف ت و حة ، و ب ا ل ا ض ا فة إ ل ي الل ق ا ا ت الخ ا صة ال ا ر د ن ية - ال ا س ر ا ئ ي ل ية (١) . و ل ي س ه ذ ا ال ا م ق د مة ل ت ص ر ي ح الم ل ك ح س ي ن ف ي م ج لة " ن ي و ز و ي ك " و ق د أ و ر د ه ك م ا ل ح ر ف ي س ا : " ن ح ن ه ن ا ف ي ال ا ر د ن ، ب ا م ك ا ن ا الت ا ك ي د ع ل ي أ ن ا غ ي ر ق ا D ر ي ن ع ل ي الص م و د ب ع د خ س ا رة م ع ر كة أ خ ر ي ، و ه ذ ا ي ن ط ب ق ع ل ي ب ق ية الع ا ل م الع ر ب ي . " (٢)

ت ا ك ي د الت ق ا ع س و ت ص س و ر الض ع ف ف ي الن ف س ت م ه ي د ا ل ت ح ق ي ق ض ع ف ه ا ف ع ل ا . ق و م ف ر ض ع ل ي ه م الق ت ا ل د ف ا ع ا ع ن الن ف س ف ا ث ر و ا ال ا س ت س ل ا م ا ج ت ن ا ب ا ل م و ء و نة الح ر ب و الش ه ا دة . و ن ف و ر ا م ن ه ذ ه ال م ه م الم ق ع دة ، ا ع ت ب ر ت الث و رة الن ظ ا م ال ا ر د ن ي ب ع د ص ر ا ع ١٩٧٠ ، ع ق بة ك ا D اء ل ا ب دة م ن ا ز ا ل ت ه ا . و ع ب ر ك م a ل ع ن ا ر ا دة الم ج ل س الو ط ن ي الف ل س ط ي ن ي " ا س ق ا ط الن ظ ا م الم ل ك ي ال ح ا ك م ف ي ال ا ر د ن م ن أ و ل ي ا ت الن ض ا ل " (٣) و خ ا صة ا ن س ج و ن ه ت غ ص ب آ ل ا ف الم ع ت ق ل ي ن م ن ر ج ا ل الث و رة الف ل س ط ي ن ية .

ل م ي ح ت م ل ك م a ل ، ب ا س م الث و رة ، ا م ر ا ف و ق ط ا ق ت ه . ك م a ل م ي س ت ط ع ب ا س م ه ا ا ن ي ن س ل خ ع ن م ح ب ت ه ال ت ي ل م ي ن ق ط ع ع ن الج ه ر ب ه ا ي و م a و الت غ ي ن ي ب ن ق ا ئ ه a . و ح م ل ر آ ي ه ق ب ل ر آ ي الث و رة و م ع ه ، ف ي م ر ا ع اة ظ ر و ف ل ب ن ا ن ال ا ق ل ي م ية و ت ح م ل ه ع ب ا الث و رة الم س ل حة ، ف a ل ث و رة " ت ه م ج ي د a ا ن ح ج م الق ض ية الف ل س ط ي ن ية ا ك ب ر ب ك ث ي ر م ن الم س ا حة الل ب ن ا ن ية الص غ ي رة . و ل ذ ل ك ف a ن ه a ا ع ل ن ت و ي ه م ه a ا ن ي ع ر ف الل ب ن ا ن ي و ن ب ك a فة ف ت ا ت ه م أ ن ه a ض دة الت ص ا د م و الت ت ا ح ر ال ذ ي ل a ي س ت ف ي د م ن ه س و ي الع د و الم ش ر ك " (٤) و ل ي س ا ش م ت ر ا ز ا س ر ا ئ ي ل و ا م ي ر ك a و س خ ط ه م a ع ل ي الت و ا ف ق الق ا ئ م ب ي ن ح ر كة الم ق a و مة و الج م a ه ي ر ف ي الس ا حة الل ب ن ا ن ية ، ل ي س a ال a ب ا ع ث الأ و ل ع ل ي ا ت ه a م ل ب ن ا ن ب a l م ه ج ية ل ا ن ب ع ض الم ق a و م ي ن الف ل س ط ي ن ي ي ن ي ت و ا ج د ف ي ه .

م a ت ق د م ، ن س ت ن ت ج م ب ل ع ال ا ه م ية ال ت ي ي ع ي ر ه a ك m a ل ن ا ص ر ب a س م الث و رة ، ل ل س ا حة الع ر ب ية خ a صة و ق ب ل الس ا حة ال د و ل ية ، و ذ ل ك م ن و ج و ب ت ه ي ئة الأ ه و a الم ح ي طة أ و ل a ك م ن ط ل ق م ه م إ ل ي س a ح a ت ا ك ت ر ا ت س ا ع a . م ع ه ذ a ، l a ي م ك ن a الف ص ل الت ع س ف ي ب ي ن الس a حة الف ل س ط ي ن ية و الس a حة ال د و ل ية ل a ن الع ل a ق a ت ج D و ر ، و a ل ج D و ر م ه a D ر ل ل ق و ت س ب ب ال ا س ت م ر ا ر ، و ل ل ق و ة س ب ب الص م و د . و ق د أ ص ر ك m a ل ع ل ي " ه ت م ية ل ق a ئ ن a م ع ح ر كة الت ح ر ر الع a ل م ية ، ه ذ a الل ق a ا ال ذ ي ي خ ف و ي ز ع ج ال ا م ب ر ي a ل ية و ق و ي الث و رة الم ض a Dة ف ي الم ن ط قة م ت ي ت م ت ل a ح م ه و ت ر ا و ه ه ف ي ح ر كة ث و ر ية م و ح دة ال a ه D a ف . " (٥)

١- الأثار النثرية ، ص ١٥٧ .

٢- م . ن . ص . ن .

٣- نفسها ، ص ١٣٧ .

٤- نفسها ، ص ٧٤ .

٥- نفسها ، ص ١١٦ - ١١٧ .

ان هذا المستوى الرفيع للقاءات الثورة بقوى الثورة العالمية ، ليوكد صحة المنطلقات التي قامت عليها مستفيدة من تلك التجارب وبخاصة تجربة فيتنام التي رسخت مبدأ انتصار الشعوب المؤمنة بالحق وجدوى النضال . كما علمت الثورة الفلسطينية "المزيد من الدقة والتنظيم ، والمزيد من الفداء والعطاء ، والمزيد من المحبة والتواضع ، ونحن نحمل الراية ونسير نحو النصر". (١)

اما المحبة والتواضع والفداء والعطاء فمحاسن لا تخفى . وأما المزيد من الدقة والتنظيم فتبنيانه واجب جاهد كمال لتأديته من خلال تنظيم الموارد والطاقات والصفوف ، والدقة فسي الفرز والاختيار . لقد ركز كثيرا على الدور الرئيسي الذي يمكن ان يلعبه النفط كشریان متدفق في الجسد الغربي يوءد الى انقطاعه الى انقطاع أحد أهم اسباب السيطرة الغربية على المقدرات العربية ، فهو سلاح عربي حاد ولا بد من ان يكون النفط سلاحا استراتيجيا في هذه المعركة . (٢) وليس أدل على اهميته من عمليات التحويل بخطورته وخطورة ودائمه التي يملكها العرب . فمن وجهة نظر كمال "ترجح لها وسائل الاعلام الغربية وتعمل على تضخيمها بشتى الاساليب . . . في اعقاب حرب الخامس من حزيران (١٩٦٧) قال بيجال آلون ، نائب رئيسة وزراء العدو ، انه لولا تلك الحرب ونتائجها لتمكّن العرب من تأمين النفط . " (٣) ويقصد بنتائجها ان انتصاره على العرب ملكه حقول نفط عربية في سيناء ، كما خوّف العرب من مغبة الاقدام على تأمين هذه الثروة باستخدامها كسلاح رئيسي في المعركة . التاريخ يعيد نفسه . فعام ١٩٤٨ وقعت نكبة فلسطين لأن شعبها الذي يريد القتال كان أعزل ، والقادة والزعماء الذين لا يريدون هم المسلحون . . . وكذلك الامر مع سلاح النفط حديثا . ازاء هذا ، كان من حق كمال ان يطرح ، باسم الثورة قضية اساسية تدخل في جدلية الصراع بين الوجود العزيز والوجود الذليل او الوجود . تلك هي قضية تحديد الموقف من الخطر المصيري الواحد على الامة العربية . وضع الولا للثورة قولا وفعلا ، مقياسا دقيقا في عملية فرز معسكري الاصدقاء والاعداء لكيلا يتساوى الذين مع الثورة والذين مع اعدائها حيث يكون الحياد تخاذلا ولا مبالاة . لذلك ، آمن كمال " بالضرورة ان نميز في المنطلق والاسلوب بين معسكر الاعداء ومعسكر الاعداء عند اعادة النظر وفتح الحوار ، فستان بين موقع الالتزام وموقع التريص ، وستان بين منطلقات التفسير ومنطلقات التزوير . " (٤)

كما ركز كمال على اعتبار الاتحاد السوفياتي صديقا استراتيجيا رادّا بذلك اتهامات اعداء الثورة لها بالولا للسوفيات من منطلقات عقائدية على اساس ظاهر العلاقات الحميمة . ولكن كمال ناصر لم ينقطع يوما عن التصريح بمناسبة وغير مناسبة بالمبدأ الشهير للثورة حول استقلاليتها وعدم تدخلها في الشؤون الداخلية للدول العربية إلا اذا تدخلت

١- الآثار الثورية ، ص ١٥٣ .

٢- نفسها ، ص ١٩٢ .

٣- نفسها ، ص ١٩٠ - ١٩١ .

٤- نفسها ، ص ٤٩ .

الدول في شؤونها هي . على هذا الأساس أعلن " لا . . . للصياغة على الثورة " (١) لا وصاية فكرية ولا عملية ولا احتواء ولا تبعية . وشاء كمال تعرية الحملة ضد الوفاق الفلسطيني السوفياتي فقال : " لسنا شيوعيين ، والشروعية في نظرنا ليست تهمة . . . فليس مستهجننا ان يعجز عن فهمنا أصحاب هذه العقول الرجعية التي جعلت من الشيوعية قميص عثمان لوهت به عبر الخمسين سنة الماضية في وجه كل وطني وقومي وتقدمي . . . لسنا شيوعيين ، والشيوعيون انفسهم يعرفون ذلك لأننا نحاورهم بشرف وصدق ورجولة ، فنقول لهم ما (لهم) ونقول لهم ما (عليهم) فيفهمون ونفهم ويستمر التعاون . . . وانه لفي منتهى الخفة والارتجال والرعونة والانحراف ، ان نضع المعسكر الاشتراكي في نفس الميزان مع الامبريالية العالمية بقيادة الولايات المتحدة " (٢)

ومتى عيّنت الثورة مبادئها القوية ورسمت منطلقاتها الصحيحة ، وفرزت الاصدقاء من الاعداء ، وأكبت على تنفيذ مراحل برنامجها السياسي والعسكري ، فاننا تحقق لنفسها شخصية قوية نادرة . . . وقد سعت الثورة ، والمتحدث بلسانها والكاتب باسمها ، كمال ناصر ، الى رسم الخطوط العريضة لابرار الشخصية الفلسطينية واسم فلسطين مجددا باهرين بعد أن كادا يضيعان وسط زحام الصراع الدولي والتناقض العربي " وعاد اسم فلسطين ، عاد كما لم يكن سابقا ، باهرا قويا ساطعا ، ينشغل به وفيه الاعداء والاصدقاء على السواء " (٣) قد نكون اعطينا صورة واضحة عن كمال ناصر المفكر السياسي في مجلة " فلسطين الثورة " التي امتاز فيها عن سواها من قبل بأنه أصبح ملتزما بخط عام واضح للثورة التي ينطق باسمها وعليه ان لا يخرج عن حدود مرسومها ، وخصوصاً فيما يتعلق باستراتيجيتها السياسية والعسكرية وعلاقتها مع العالم .

لقد أفنى العمل السياسي معظم وقته ، واستحوذ العمل الصحافي على جل نشاطاته فتضاءل انتاجه الشعري وهو على ما هو عليه من خصب الشاعرية ، فجاءت افتتاحياته أحلى أخريات تصائده . ويمكننا القول بأن المجلة استهلكته أدبيا وجسديا . . . كانت شغله الشاغل ، الارتفاع بمستواها ارتفاع مواز لارتفاع مستوى الثورة . والآن نرى لزاما علينا دراسة كتابة المقالة كفن خاص عند كمال ناصر لنرى خصائصه كاتباً سياسياً إن من حيث الشكل او المضمون ، وما رافقهما من تطورات وتغييرات ، متخذين ثلاث مقالات سياسية له منارة نستضيء بها على دروبه .

١- عنوان افتتاحية في الآثار النثرية ، هي ١١٤ - ١١٨ .

٢- المصدر نفسه ، ص ١١٧ .

٣- نفسه ، ص ١٣١ .

هـ - فن الكتابة السياسية عند كمال ناصر

مارس كمال ناصر خلال حياته الصحافية ، معظم فنون المقالة ، من نقد أدبي الى نقد اجتماعي ، الى السياسة بوجه خاص ذلك انه لم ينقطع لحظة عن شؤون السياسة حتى ولو فعل ذلك في حياته الأدبية .

نحن الآن ازاء صحيفتين ومجلة عرضنا لتاريخها ، وسوف نختار منها ثلاث مقالات سياسية^(١) لنكشف من خلالها عن أسلوب الكاتب والموضوعات التي كانت تستأثر باهتمامه . أما الصحيفتان فهما " الجيل الجديد " و " فلسطين " ، والمجلة فهي " فلسطين الثورة " وذلك لأنها تمثل مراحل زمنية متدرجة من ١٩٤٩-١٩٥٠ الى ١٩٥٥ الى ١٩٧٢ - ١٩٧٣ بالتالي . وهي في الوقت ذاته تمثل تطورا ملحوظا من حيث الأسلوب والمضمون في مقالات الكاتب كما سنرى . وأما الموضوعات غير السياسية فمتروكة لمتناول سوانا لاننا بصدد كمال ناصر الكاتب السياسي فقط .

كما قد أشرنا في مطلع الفصل ، الى أنه كتب في عدة صحف ومجلات في بعض ارجاء الوطن العربي ، ولكنها كتابات لا تخرج في مجملها عما سنتتبعه ونستنتجه ونحلله فيما يلي . هذا يعني أنه كتب المقالة الذاتية التي تبرز شخصية الكاتب جلية جذابة تجعل له موقعا محببا لدى جمهور القراء من خلال أسلوبه الادبي الذي يشع بالعاطفة ويشير الانفعال . وأنه كتب أيضا المقالة الموضوعية التي تبني وفق خطة موضوعة يتسارع فيها التوصل اذا تشعب وتركز التحليل ، وذلك كما سنرى في المقالة الاخيرة .

عرف ادmond حوس المقالة في بحثه المنشور في دائرة المعارف البريطانية بقوله :
" المقالة باعتبارها فنا من فنون الأدب ، هي قطعة انشائية ذات طول معتدل تكتب نثرا وتلم بالمظاهر الخارجية للموضوع بطريقة سهلة سريعة ، ولا تعنى إلا بالناحية التي تمس الكاتب عن قرب ."^(٢) ويحدث ان تتطابق الهوية الأدبية مع الاهتمامات الصحافية السياسية في شخص شاعرنا الكاتب ، فاذا بنا امام الناحية ذاتها التي تمس الكاتب والمكثوب اليهم على السواء ، وامام صحافي من مهامه الأولى تعليم الشعب وثقافته وتوجيهه مسخرا قلمه ساعة للتثوير وساعة للتثوير .

أولاً - افتتاحية "الجيل الجديد" :^(٣) شعب اضحكته النكبة !

في أيار ١٩٤٨ ، حلت النكبة بالشعب الفلسطيني فترك وطنه وقد استقر جزء منه في ما تبقى خارج الاحتلال الصهيوني في ما اطلق عليه اسم الضفة الغربية لوقوعها غربي نهر

- ١- المقالتان الاوليغان اللتان سنتناولهما من "الجيل الجديد" و "فلسطين" موجودتان لدي مصورتين . وكذلك جميع المقالات التي سنستشهد بها خلال هذا البحث بأكمله . أما المقالة الاخيرة من "فلسطين الثورة" فمنشورة في الآثار النثرية للكاتب صفحة ٧٦ . وكذلك كل ما نستشهد به من افتتاحيات المجلة نفسها .
- ٢- محمد نجم . فن المقالة (بيروت : دار الثقافة ، ط ٤ / ١٩٦٦) ، ص ٩٤ .
- ٣- العدد ١٥ ، الاثنتين ١٣ شباط ١٩٥٠ ، ص ١ . (يمكن مراجعة الملحق) .

الاردن . وكان طبيعياً ان تغشى فلسطين السلبية ابحار الشعب وأحلامه في المنام واليقظة معاً، وأن تكون العودة هاجسا لا يفارق المخيلة . يندى كل هذا أن فلسطين ما زالت على التخوم تحت السمح والبصر . وكان طبيعياً كذلك ان تنقرض وسائل النشر آنذاك ، فتجد جريدة "الجيل الجديد" نفسها في نيسان ١٩٤٩ وحيدة في الصف الوطني تغطي انحاء الوطن الصغير وتشرق كل اسبوع على القراء المتلهفين لسماع اخبار الوطن وما تخبي لهم الايام بشأن العودة .

من اين استمدّ كمال موضوع افتتاحيته "شعب أضحكته النكبة" ! علما بأن الافتتاحية تكتب عادة في موضوع يهيم أكبر عدد ممكن من القراء . لقد أصاب اذن ، في اختياره العنوان ومضمون المقالة متحدثا عن سبب النكبة وقد "حطم المستعمر الغاشم العالم العربي بموازرة العرب" فنتج عن ذلك "الدول المتعددة التي يجمع بينها الدين والثقافة والتقليد والتاريخ فأصبح اليوم لا يجمع بينها تاريخ ولا تقليد ولا ثقافة!!! " وفي حين ان الشعب يتعلم من ماضيه ، فاننا كعرب لم نتعلم من نكبات الماضي "وانما كنا نستسيغها ونرضى بدائها يخترم وينهش كياننا حتى لم يعد لنا كيان . " ومع هذا فاننا نضحك ، فعالم "والنكبة ما أصابت فلسطين وحدها - يا قارئ - وانما أصابت الشعب العربي . . " والآن بعد ان ذاب الجليد وانكشف عري الاطفال المشردين ، نبتسم ونضحك للنكبة "التي لا نعتبرها الاولى ولا الاخيرة في عمر العرب ، وإن ظلّ العرب على حالهم من انقسام او تصدّع وانهايار . فماذا عساهم يفعلون "ساسة وقادة وجامعة عربية" ؟
خصائص كمال في هذه المقالة السياسية :

لقد اتخذنا مقالة نموذجية تنسحب احكامها الفنية والشعورية على غالبية مقالاته في هذه الجريدة ، وترانا لهذا مستعنيين في اصدار احكامنا على مقالات متفرقة منها تبين خصائص اسلوبه .

— نلاحظ في المقالة التي بين ايدينا ، صحافيا يتوسل السخرية الممتزجة بالتأم سبيلا للتأثير في قارئه مستخدما الالفاظ والعبارات الهائجة المتهكمة يعالج بها اللامبالاة التي تسيطر على الوضع العام للبلاد فيقول بنفسه : "اننا نضحك من الساسة ضحكات ملوؤها السخرية والألم" ويذكر الساسة بعودهم يوم قالوا : نشترى فلسطين "بالذهب" اذا "نيا" السيف في أيدينا ، الى استعمال كمال "الثلج" و "الدولارات" الفاظاً تعبّر عن هزء وسخط معاً من التقاعس العربي والرسمي تجاه فلسطين .

— ونلاحظ الحكمة الساخرة التي يختم بها مقالته وهي منها بمكان نتوقعها حتى ولو لم يعتمدها الكاتب خاتمة .

— ونلاحظ العاطفة المتدفقة مشاركة لأبناء الشعب في نكبتهم وذلك في "مخيمات العساف والشقاء" ، والبرد يلفح كل طفل ، والتعب والجوع يجهض كل امرأة . "في ذلك تغلغل الى أعماق الصدور يستشعر مشاعرها ويعبّر عن احساسها في صور تثير الخيال حيث لم يبق في وجه الشعب سوى العيون الذابلة فقراً وجوعاً ، ذلاً وصغاراً . . . " وقوله : " . . . والثلج

ما ذابت عن بعض مدور اللاجئين العارية . . .

— ونلاحظ قدرته على تخيير الالفاظ الموحية المعبرة بدقة كما في "نرضى بدائها يخترم وينهش" حيث يوهي "الاخترام" — على وزن افتعال — بالتحول السلبي الداخلي وهو ما يفعله بالضبط كل داء دفين في الجسم . وحيث تعبر "ينهش" عن التحول السلبي الخارجي فتتألف الحركتان داخليا وخارجيا معا لتعطيا صورة مريرة ودقيقة للداء الذي يخترم الجسد العربي وينهشه .

— ونلاحظ ندرة احتفال بأساليب البيان والبديع من سجع وجناس وخلافهما ، وذلك لكي يكون توجهه الى الشعب البسيط السانج مباشراً سهل التلقي وبالتالي سهل الهضم والاستجابة لمضمونه .

— ونلاحظ أخيراً من خلال هذه المقالة — الافتتاحية بالذات ، ان الكاتب لا يحفل بما يشترط في الافتتاحية من مقدمة سريعة وعرض مفصل للاحداث وخاتمة هي ثمرة طبيعية — للخطوط الرئيسية في العرض . نرجع سبب ذلك الى شكل المقالة من حيث الطول ووحدة الموضوع . فهي افتتاحية قصيرة ، وكذلك سائر افتتاحياته في "الجيل الجديد" . وموضوعها واحد مقصور على بضعة امور تضحك من شدة البلية . فالكاتب ان ذكر الداء كأنما ذكر الداء ، وقد اتى عليه منذ البداية فجاء الحل في النصف الثاني من المقالة: "نضحك من الساسة . . . نضحك من جامعة الدول العربية . . . نضحك من قادة العالم العربي الموسرين الاغنياء . . . نضحك منهم ومن انفسنا . . ." وكل هذه الاطراف اذا حزمت امرها منعت أحدا من ان يضحك من البلية .

وملاحظات لا بد منها حول سائر افتتاحيات كمال في "الجيل الجديد" نبيها حول غلبة العاطفة على العقل في أكثر مقالاته لأن جمهور القراء تثيره عاطفة حب الوطن التي يثيرها الكاتب في نفسه . وهذه الملاحظة هي التي دفعت صاحب جريدة "فلسطين" للقول له : "على مهلك وبلاش عواطف كثير" .^(١) ونسأل ، هل كان طغيان العاطفة على مقالاته منقصة فيها ؟ كلا ، فالشعوب البدائية عرفت الشعر الغنائي — والعاطفة قوامه — قبل اي شعر آخر وحتى النثر . وهكذا كان الشعب الفلسطيني في بداية النكبة . وتلفت انتباهنا مقالته الافتتاحية "هذه المناشير السوداء"^(٢) التي يعتمد في كتابتها على اساليب الاقناع المنطقية الهادئة والموضوعية فيضعها في قالب الصحيح من حيث المقدمة والعرض والخاتمة . ففي المقدمة يعرف باقتضاب المشكلة وهي مناشير سوداء تدعو الى مقاطعة الانتخابات النيابية . ثم يبين منهجه: "لست أريد ان أهاجم . . . وانما اريد أن اناقشهم . . . واريد ان اتنعمهم . . ." فهو ان ، يريد ان يناقش ويحلل مغلبا العقل على العاطفة فهو متفهم لطبيعة مهمته وشرط ألا يقسوعلى معارضية فقد يكونون هم على صواب .

١- "فلسطين" زاوية "من يوم ١٠ الى يوم ١٠" مقالة "افكار وعواطف" السبت ٢ تموز ١٩٥٥ .
٢- "الجيل الجديد" ، العدد ١٩ ، الاثنين ١٣ آذار ١٩٥٠ ، ص ١ . ويمكن مراجعة جميع اعداد الجريدة مصورة في مكتبة مركز الابحاث الفلسطينية — بيروت .

وفي عرضه لخطوط المشكلة بموضوعية وتركيز شديد ين يقول: "هم يقولون ان القضية لم تنته بعد ، وان دخولنا المعركة الانتخابية معناه الاعتراف بالامر الواقع في البلاد وان فلسطين بهذا تكون قد ضاعت منا للابد . وأنا اريد ان اسلم معهم ببعض ذلك . . . ولكن الدخول في المعركة النيابية لا يعني اننا نعتزف بالامر الواقع وان فلسطين ضاعت للابد . . . هل نقف مكتوفي الايدي لتحل قضيتنا الأيام ؟ وهل نترك غيرنا يتصرف بشؤوننا ؟ . . . وهل دخولنا البرلمان يعني بأننا سنسلم بقية البلاد ؟"

هذه التحليلات والتعليقات لم تكن نقابلها في معظم المقالات الافتتاحية للجيب الجديد ، فهو قليلا ما يلجأ اليها مستشيطا بفعل عاطفته وتعصبه الوطني . ولكنه هنا يكثر منها بعد ما أخذ على نفسه في مقدمتها مسؤولية الاقناع بالشواهد ، الى ان ينتهي داعيا موزعي تلك المناشير الى محاولة " ان نخرج عناصر قوية صالحة تستطيع ان تقول - لا - عند الضرورة ، وتقول - نعم - عند الضرورة ايضا . والويل لنا ان لم تعلمنا النكبات ! ويا حباذا لو نسمع اصواتكم واعية من جديد ."

انها لظاهرة طبيعية ان يعود الانسان الى رشد عقله كلما ابتعدت به الايام والسنون عن المشكلة الرئيسية التي ألمبت خياله وأذكت مشاعره . هذه الظاهرة الانتقالية نلاحظها تتدرج بوضوح في مقالات كمال ناصر سواء مفتتحا " الجيل الجديد " أم كاتبا على صفحاتها الداخلية الى جانب ذلك .

ثانيا - جريدة "فلسطين"

هي في غالبيتها مقالات تجنح الى القصر والانسكاب في قوالب متساوية من حيث اجزاؤها الثلاثة المتداخلة في انصهار . ظهرت أحيانا تحت زاوية " حديث اليوم " وأحيانا زاوية " من يوم . . . الى يوم " كما ظهرت مرات بشكل مقالات متحررة من الأسماء الثابتة ، وقد غلبت عليها الصبغة السياسية باستثناء " بترول الكويت يسد فراغ الطبيعة في الصحراء " و " غدا عيد " و " ضريبة الفكر " و " أمة في رجل " وأخرى .
زاوية ، حديث اليوم ، : " اليها . . . الى الحرب ! "

تبد والمقالة من حيث الشكل ، مقدمة وعرضا مسهبا . فبعد أن يقدم لها بنبا اجتماع الجامعة العربية وباختصار شديد ، يعرض آراءه ومواقفه وي طرح حلوله للقضية التي يزعم ممثلو الحكومات العربية طرحها ، وخطوطها الرئيسية: " يجب أن توحد خطة العمل ، ويجب ان نضع المنافسة الرخيصة جانبا . . . وأن تبحث قضية فلسطين على اساس تقسيم سنة ١٩٤٧ " على أنه أهون الشرين " . . . أن لنا ان لا نكابر بالمحسوس . . . " وتنتهي المقالة كما بدأت بأسلوب خطابي عنيف يحمل في طياته التحدي المباشر للزعما العرب ان يتحدوا وأن يخرجوا برأى واحد " وكلمتنا هذه لن يكون فيها استجداء ولن يكون فيها ضراعة ، وانما هي الصرخة الاخيرة التي نريد أن نستفز بها هم وكرامة العرب ، ان كان لا يزال فيهم بقية من كرامة وهم ."

المقالة اذن ، استفزازية حماسية استعان لها الكاتب بالألفاظ المناسبة التي تجمع بين العنف والسخرية وقد قال : "سيحضر (ممثلون) عن الحكومات العربية ، (ممثلون) نعرفهم جيداً" فزین القول جناش تاماً . واستعار "خفي حنين" لوعف عودة الزعماء من الاجتماع بخفي حنين صفراليدين . وهناك ألفاظ أخرى أراد بها التورية كقوله "نأمل" وهو متشائم ، و "جادين" وهم هازلون . ثم أراد وصف العلاقة الرابطة لبريطانيا باسرائيل فلم يستخ غير "تدليل" . ومما يستحق الاعتبار شكلاً ، هو ذلك العنوان الذي أراد به كمال مفاجئاً عن طريق الابتداء بالضمير قبل التصريح بالمضمرة ، وما تحمله "اليها" من معنى اسم الفعل بصيغة الأمر الموجه الى الزعماء العرب فتعمل الصيغة فيهم عمل المدين ونفير الحماس "إن كان لا يزال فيهم بقية كرامة وهم" .

شعور بالمرارة من غياب الكرامة وعود الهمم ، وشعور بالمهانة وهو يعتبر التقسيم "أهون الشرين" وهو الذي قال مرة : "فإما نحن وإما هم ، ولا يمكن لهذه الرقعة الضيقة ان تتسع لأكثر من دولة واحدة" . (1)

ومثلما قاده شرّ البلية قبلا الى الضحك المرّ فهو في جريدة "فلسطين" يلجأ كثيراً الى الالفاظ والتعابير الساخرة ، ففي مقالته "لم يبق الا اسرائيل" التي يتناول فيها موضوع زعم اسرائيل تخصيص خمسين الف دولار مساعدة للاجئين العرب ، قال : ما وراء هذه "النفحة اليهودية والكرم الصهيوني" ومعروف عنهم شدة بخلهم . وما سرّ "الحنس" رغم مجازهم بحق الاطفال والنساء ! ويصف الدول العربية السبع بالدول "السبع الصالحة" ولم ير منهم صلاحاً قط .

وغير هذه ، حملت مقالاته الكثيرة عنوانات ساخرة ولاذعة أمثال : "هذه القدس فحرروها" موجهها خطابه الى الزعماء المتفاهرين بكراسيهم . و"لقد هزلت" وأصبحت قضية فلسطين مهزلة يتفكّهون بها . و"رسل الانسانية يتخلّون عنها" موجهة الى أقطاب الصليب الأحمر الدولي الذين عزموا في ذروة النكبة على التخلي عن بعض واجباتهم الانسانية التي قامت لها منظماتهم . و"عيد الدماء" مقالة موجهة الى الذين يعيدون بثرائم الفاحش بينما يعود العيد على اللاجئين في فقرهم المدقع .

وهكذا كان كمال في مقالاته السياسية يرتفع الى مستوى المسؤولية دائماً ، يتوجّه الى الشعب عامّة ، يخاطبهم بلهجة المتألم الحزين وبلغفة المشجّع على لعق الجراح وتضميدها لأنهم وهدهم يكتوون بنار المحنة وعليهم يقع واجب النهوض والتحرير . ولكمال مقالات شهدتها جريدة "فلسطين" ، موضوعية مرّكة على غرار "اليها" الى الحرب التي نحن بصدددها في منطلقنا لتحديد الكتابة السياسية عنده . و"الجولة المفتعلة" و"هل يجتاز الشباب التجربة؟" و"كلمة فلسطينية تنطق باسم الأمة" .

1- جريدة "فلسطين" زاوية "حديث اليوم" مقالة "النغم المنشود" ! . لدى هورة عنها لا تحمل تاريخاً .

وفي مقالتنا الرئيسية التي بدأنا الحديث حولها ، نلاحظ رجحان كفة العقل على
العاطفة خاصة هنا ، وفي مقالات " فلسطين " بشكل عام . ولا نعتقد ان لتوجيه صاحب
الجريدة له بخصوص " بلاش عواطف " أثرا في تحوله الظاهر لأن الكاتب يستقرى الأحداث
ويتفهم طبيعة القراء ثم يضع ذلك في حسابه . كما نلاحظ اتكاه الى الالفاظ الخاصة المعبرة ،
وهذا اهتمام برز في هذه المرحلة خاصة من كتاباته السياسية لان اسلوب المخاطبة بات
يتطلب منه الدقة في التعبير بغية التسلسل المنطقي في السرد لتحقيق أكبر قسط من
اقناع الجمهور .

ولعلنا من الطبيعي أن تلتقي أكثر مقالاته في هذه المرحلة حول موضوع رئيسي واحد
هو فلسطين والحرب ، فلم تمر على نكبة فلسطين سوى سبع سنوات ، وما زال بالامكان خوض
حرب جديدة " وإن النصر معقود بلواء الانسجام والتكاتف والاتحاد . " ان المقالة الموضوعية
ذات أثر عظيم في نفس القارئ لا تستطيع أن تبليغه المقالة الذاتية .

ونلاحظ كذلك في اسلوب الكاتب ، جزالة اللفظ وحسن الرصف والاختيار بدليل أننا
نقرأ العبارة الطويلة او الفقرة او المقالة كلها بانسياب لفظي واستيعاب معنوي دون أن
نشعر بالفاظ نابية او بمعان مستغلة تعيق الفهم وتحجب الافادة . ولا يمكننا غض الطرف
عن ان الاسلوب الخطابي في مقالات كمال السياسية ، لا يمكن فصله عن الاسلوب نفسه في
مواقفه الخطابية التي عرفه بها الشعب في مناسبات سياسية مختلفة . فلا عجب اذا هو
مارس الخطابة في الصحافة وهي منبر للقول .

وخاصة أخرى نلمحها من خلال هذه المقالة عينها ، تتمثل في قدرة الكاتب على
الاستفادة من أحداث الماضي باستخلاص العبر منه للاستفادة منها في ترسم الحاضر
والمستقبل وإلا فما الذي جعله يقبل بالتقسيم على انه " أهون الشرين " بعد رفضه
الجازم له قبل قليل ، إن لم يكن قبوله من الاعتبار من دروس الماضي ؟ ولكن ، علينا ان لا
ننسى انه اعتبر ما يرفع أكثر مما يخفض ونصب عينيه كرامة الشعب وحرية ووطنه .

ثالثا - مجلة " فلسطين الثورة "

كتب كمال ناصر افتتاحياتها المطولة بأسلوب يختلف كلياً عما تعرفنا اليه مما سبق من
كتابات ، ذاك أنه بات يتعامل مع نوعية جديدة مختلفة عن السابق ، فيتوجب عليه ان ، معرفة
كيفية مخاطبتهم ، والدقة ، مخاطبة السواد الاعظم منهم .

افتتاحية " البعد الانساني للثورة الفلسطينية " (١)

تتوالى أجزاء هذه المقالة كغيرها من افتتاحيات المجلة بطريقة يتجلى فيها حسن
التخطيط والربط والاستنتاج عبر مقدمة وعرض وخاتمة يشبهها الكاتب مادة مترعة ومنهجاً قوياً
وأسلوباً مباشراً . عنوان المقالة يتناول البعد الانساني للثورة الفلسطينية .
في المقدمة ، يطرح الكاتب المشكلة وهي " أبعاد الهجمة المسعورة على الشعب

الفلسطيني ، وعلى قضيته الكبرى ، وتحويلها بكل بساطة ورعونة في أكبر المحافل الدولية من قضية عد القوحي إلى قضية اجرام وارهاب .

منهج البحث : " ان نتصدى لهذه الهجمة الجديدة المدروسة ، بفضحها وتعريرتها وكشف اسبابها ومسبباتها " في وقت تطرح اميركا واسرائيل على هيئة الامم المتحدة مشروع اعتبار القضية الفلسطينية " قضية ارهاب " في ظل مناقشة موضوع الارهاب في العالم .

وفي العرض ، يستفيض في اشباع الفكرة الرئيسية تحليلا وتبريرا . ويكون السؤال فاتحة ناجحة : " هل صحيح ان حادثة ميونيخ وبعض الحوادث هنا وهناك تستأهل كل هذه الضجة وتهدد السلام العالمي ؟ . لماذا عندما وجهت (التهمة) في هذه الحوادث الى بعض الفلسطينيين قامت الدنيا ولم تقعد علما بأن حوادث مماثلة تملأ كل أطراف العالم وأرجائه ؟ ولماذا يحملون الشعب الفلسطيني مسؤولية كل شيء ، والكل يعرف بأن اسرائيل وألمانيا هما اللتان تسببتا في نتائج ما جرى في ميونيخ ؟ "

ثم يبدأ حملة الاتقان وعرض آرائه : " فالمحاولة . . . تستهدف بالضرورة القضية الفلسطينية بأسرها والتي . . . تبلورت أبعادها ومعالمها وتفجرت طاقاتها باعتماد نوارها الكفاح المسلح وحرب الشعب الطويلة النفس سبيلا واحدا للتحرير . . . ويرسم الكاتب أبعاد المؤامرة حين " قامت الامبريالية الاميركية التي ترتبط عضويا بالصهيونية العالمية . . . بمحاولات عديدة لتصفية القضية . . . والمحاولة الاخيرة في هيئة الامم المتحدة . . . ترمي الى تحويل الانظار عن جوهر القضية وحقيقتها ، الى السلبيات التي قد تنشأ عنها للاسراع بتصفيتها . "

ثم يذكر كمال حقائق دامغة انطلاقا من استراتيجية الثورة وفكرها وميثاقها وهي " تؤكّد عبر نضالها ضد كل أشكال التآمر ، انها بحكم تواجدها العالمي والعربي . . . تعرف تفاصيل المخطط النظري والعملي . . . كما تعرف كافة اطراف هذا المخطط وأبطاله على الساحتين الدولية والعربية ، ومع ذلك فهي تعرف طريقها بالضبط ، ولا يمكن أن تحيد قيد شعرة عن استراتيجيتها في الكفاح المسلح . " ثم ينتقل الى التعليل والاحتجاج القوي من عل : " ان الثورة الفلسطينية لا تخشى من هذه التهمة التي ترفضها . . . فالثورة التي تدعو لإقامة المجتمع الديمقراطي الفلسطيني في دولة فلسطينية بعيدة عن العنصرية والعرقية والطائفية ، يتمتع كل مواطنيها بالحرية والمساواة في ظل سيادة القانون ، لا يمكن أن تتهم بالارهاب . والثورة التي تفصل بين الصهيونية كحركة عنصرية توسعية ارامية وبين اليهودية واليهود ، لا يمكن ان تتهم بالارهاب . . . والثورة التي تناهض وترى ان من واجباتها وأعبائها تخليص الانسان اليهودي وتحريره من العنصرية الصهيونية التي وضعت في المأزق الذي يعيش فيه ، لا يمكن أن تتهم بالارهاب . . . من سخرة الاقدار ان يتهم الشعب العربي الفلسطيني بالارهاب ، وهو أول وأكبر ضحايا الارهاب في العصر الحديث و أكثر سخرة من ذلك ان تتهمه الصهيونية بذلك وهم اساتذة الارهاب وأساطينه في العالم . . . وأن تتبني اميركا التحريض والتنظير للامروهي الدولة التي قامت ايضا على الارهاب والاجرام منذ تأسيسها . "

ويورد الكاتب أمثلة وشواهد تقوى حججه على مختلف الاطراف . . . "أما الأمم المتحدة فنحب أن نذكرها ونذكر السيد ثالدهايم ان اسرائيل قد أدمنت في هيئته الموقرة أكثر من سبعين مرة بالارهاب والوحشية والاجرام ، ولن نذكرهم (بدرياسين وقلقيليا وبحر البقر) وغيرها . . ."

وفي خاتمة المقالة ، يبيى الكاتب قناعته على أصول ثابتة مستمدة من فكر الثورة وخطها الاساسي في التحرير وهي " لن تحيد عن فهمها الحقيقي لمعنى الثورة ، وذلك بمتابعة المسيرة المسلحة لحر الصهيونية المغتصبة للحق الفلسطيني الكامل في الارض الفلسطينية وطرح أفكارها الانسانية الثورية للاسهم في تصحيح المسيرة الانسانية في كل مكان وحتى انتصارها . . ."

لقد قدم لنا كمال ناصر نموذجاً رائعاً للمقالة السياسية في ارفع مستوياتها اكتمالا من حيث الشكل والضمون ، فمنها نتبين خصائص اسلوبه في كتابة المقالة السياسية في المرحلة الأكثر نضجا من حياته هذه .
— جرت اللغة دوماً متينة سهلة مقتبسة من الحياة العامة للشعب ورموزه اليومية ومفاهيمه الراسخة .

— غابت اللهجة الخطابية الحماسية — التي عرفناها قبلا — عن هذه المقالة مع غياب العنصر العاطفي اكتفاءً بالحقائق الموضوعية حتى ليتمكن القول : ان الكاتب صاحب معنى لا صاحب لفظ .

— يتسم اسلوب المقالة بالهدوء متخذاً طابع الدرس والمحاضرة لأنه يخاطب لكي يتقنع بالمنطق وقد تخيرت عقلية القراء عن السابق فأصبحوا أكثر وعياً وادراكاً وتقبلاً للحقائق التي يبنى عليها البناء المتين .

— الكاتب هنا يمتاز بوضوح الرؤية وتحديد ما يريد بالضبط بأسلوب بعيد عن الحشو والاستطراد . . . لكل عبارة مكانها الخاص بها مؤدية دورها كاملاً مما يفرض على القارئ ان يطالع الموضوع من أوله اذا شاء ان ينال الفكرة الرئيسية بشكل واف ، فكل فقرة تستند الى سابقتها وتلد لاحقتها .

— ونلاحظ ان الكاتب في عملية عرضه للموضوع ، يمسك بخيوط رئيسية متعددة يشدها ويربطها في حركة مستمرة تتراوح بين آراء وقناعات شخصية ، وأفكار وقناعات الثورة التي ينطق باسمها ، وبين حجج مقنعة يسوغ بها كل هاتيك الآراء ولا نتجاهل ما أوتي الكاتب من مقدرة فائقة على استيعاب حقائق التاريخ والاستشهاد بأحداثه من خلال تذكيره بمجازر الصهيونية قبل نكبة ١٩٤٨ وبعدها في فلسطين . وتذكيره الاميركيين بأن بلادهم هي للهنود الحمر وقد نكلوا بهم وقروضهم . كما ان لدى كمال ناصر مقدرة لربط الحاضر بالماضي والتكهن بالمستقبل ، وهذه المقدرة تعتبر حساسية خاصة يشترط توفرها في كاتب الافتتاحية الناجح الذي لا يبيى مقالته في الهواء .

— وكاتب الافتتاحية هنا — وأينما كان — لا يستطيع التفرد بآرائه الخاصة ، بل عليه الرجوع الى الجهة التي ينطق باسمها او الى النشرة التي يكتب لها . . . يتمثل رأيها وهدفها وخطها السياسي العام فيجري عليه مضمياً على هذا الجو من عند حسن السياق والتحليل والتعليل والاستنتاج . . . ولسنا نرى كمال ناصر الا أصدق ضمير مفكر وناطق باسم الثورة الفلسطينية وعبر أداتها الاعلامية " فلسطين الثورة " .

— وخلاصة القول : كان كمال ناصر كاتباً سياسياً ناجحاً ، ذا ثقافة عريضة عميقة ، وواحداً من أبرز مفكري الوطن ، وصاحب قدرة عالية على اكتساب مركز مرموق في المجتمع الذي عاش لأجله . . . وحين كانت هذه عدته ، فقد كتب لنفسه النجاح بما أوتي من دقة الملاحظة وحس بالغ الصدق ، ونضوج فكري ، ونظرة شمولية لاجتلاء جوانب أي موضوع يتناوله بالعرض والبحث . . . وكما رأينا ، فقد استطاع بالمنطق السليم ان يردّ تهمة الارهاب عن الثورة ، وأن يبرهن انسانية الثورة ، الوجه المشرق الذي لم يستطع أحد تشويهه . . . ولن يستطيع .

xxxxxxxxxxxx

++++++

xxx

+

الباب الثالث

كمال ناصر الشعاعر

الفصل الأول : الاتجاهات الوطنية والقومية والسياسية

مقدمة منهجية

ندرس أولاً الاتجاهات الوطنية والقومية والسياسية في شعر كمال ناصر ، وأكثره في ذلك ، مستقرتين^(١) أجمل ما أنشد طيلة حياته مما تفوح منه رائحة الوطن وكرامة الانسان وعظمة الخالق .

وتقديم الاتجاهات الوطنية على القومية والسياسية مردّه الى تقديم الشاعر نفسه للوطن على مختلف أوطان الكون . الى جانب هذا ، انطلاقه من عالمه الخاص الى العالم الأرحب وليس له غناء عن العالمين معا .

لذلك ، نبحت الثورة في شعره وما يترتب على الجيل الجديد نحوها مع ما يتساقط من شهداء يرف لهم فؤاده . ثم نبحت مفهومه للقومية العربية والوحدة أساسها ، وما يترافق على طريق تحقيق الوحدة من عوامل مثبطة وعوامل مشجعة لا بد من أن تنتصر في النهاية .

وابتداءً ، نبحت التزام الشاعر الوطني يجب ألا يفهم منه وزن القضية بقدر ما هو كشف عمق الالتحام بين الطرفين : الشاعر ووطنه . من ذلك ، يكون انتقالنا الى سيرته الوطنية انتقالاً طبيعياً بحيث يكون الشاعر نفسه الناصر الرائد .

وبعد تبين مدى فعل الوطنية والقومية في نفسه ، نتبين مدى انعكاس فعلها هذا على صفحة شعره لنخلع في النتيجة الى ملاحظات تتعلق بالشكل والمضمون من حيث أساليب التعبير والموسيقى وشكل القصيدة الموطي للالتزام النفسي والأدبي .

١- الاتجاهات الوطنية

مقدمة : الالتزام : منذ فجر تاريخ الأدب ، وللشعراء منازل مرتفعة بين شعوبهم ، لانهم لسانها المعبر عنها في الحرب والسلم ، وفي الحزن والفرح ، وفي الضيق والشدة على السواء . ذلك الارتباط الوثيق يسمى التزاماً . فعند اليونان " تحدث أفلاطون عن توجيه الفن وطالب الشعراء بلون من الالتزام ، وحثهم على ان تكون أناشيدهم تمجيدياً للبطولة وحثاً على الولاء ."^(٢) وفي الجاهلية كانت القبيلة تحتفل احتفالاً عظيماً اذا نبه بين صفوفها أو نبخ شاعر يظم مضاء لسانه الى مضاء سيوفها . وفي صدر الاسلام ، التزم حسان بن ثابت بالدعوة الجديدة حتى لقب بحق " شاعر الرسول " .

وظل الشاعر عامة مطبوعاً بظابع الالتزام حتى عصور متأخرة ، الى أن شهد عالمنا العربي نظريات مستوردة يمتن روادها " الفن للفن " أو " الأدب للأدب " . وقد يكون

١- ليس هذا الفصل فقط ، بل الثلاثة في هذا الباب الثالث تقوم على استقراء النصوص الشعرية المنشورة للشاعر وغير المنشورة مما وقفت عليه العين واهتدت اليه اليد .
٢- صلاح عبد الصبور . " حياتي في الشعر " ، آثاره الكاملة ، المجلد ٣ (بيروت : دار العودة ، ١٥ / ٣ / ١٩٧٧) ، ص ١١١ .

هذا المفهوم للفن والادب في الغرب متولدا من ظروف خاصة به ، ولكنها ليست مشابهة لظروف أمتنا العربية التي تواجه الخطر التوسعي الصهيوني بدءا بفلسطين . لذلك ، علا صوت من فلسطين للدكتور اسحق موسى الحسيني يفتق أكام الحقيقة بقوله : " درست على العرب إبّان كفاحهم في سبيل الحرية ومقارعتهم للاستعمار ، عبارة عجيبة هي : الادب للأدب . والسؤال هو : أيصح ان يخلو الأدب من المضمون ؟ والأدب - كما نفهمه - تصوير للحياة وتعبير عنها وشرح لأسرارها . (١)

مع كمال ناصر ، لا يحق لأحد ان يطرح قضية الالتزام من باب "هل كان؟" تحقق الإبانة فقط : كيف كان ؟ الى أي حد حقق ذاته ؟

تفتحت عيننا كمال على شاعرين كانا يمثلان ذروة الالتزام الكلي في فلسطين قبل النكبة . الاول ، ابراهيم طوقان (٢) الذي لم يربط المرض لسانه الا بعد أن أوقف الموت فؤاده . والثاني ، عبد الرحيم محمود (٣) الذي كان يمارس التعليم نهارا ، ويلتحق بصفوف الثائرين ليلا ، فجاء شعره صدى للثورة وتأريخاً صادقا لها . وعلى هديهما نهج كمال ناصر وقد لمس منذ البداية انه في مجتمع متألم ووطن منكوب يتحمل شعبه كل افرازات النكبة . وأن وطنه متفرداً بها وحده دون سائر الاوطان ، فذاك ما لا يمكن احتماله والتعزي بسواه ، كما لا يمكن أن يعيش في كيانين متناقضين ، وتناقضهما لا يشكل وحدة مكتملة ذاك ان عالمة الخارجي بائس وكذللك عالمة الداخلي ، فهذه وحدة أولى . ثم ان الحق أن يكون الداخلي والخارجي هائنين معا ، وهذه وحدة ثانية . انما يكمن التناقض بين ما كان وما يجب أن يكون عليه العالمان . والشاعر الملتزم هو من يعي ذلك ويعمل بنفسه على الغاء انعدام التوافق عن طريق الثورة المنظمة ذات المضمون لإخراجها من نطاق الفوضوية الآيلة الى الاستسلام للامر الواقع . الملتزم لا يستسلم ، كمال لم يستسلم للامر الواقع ، فهو حين ولد على الضفة الأخرى - المكان غير الطبيعي - قفز الى الضفة الفضلى خائضا غمار تياراتها ،

١- اسحق موسى الحسيني ، في كلمته أمام مؤتمر الادباء العرب الخامس ببغداد ١٩٦٥ ، ج ١ ، ص ١٦٥ .

٢- ابراهيم عبدالفتاح طوقان . ولد في نابلس بفلسطين سنة ١٩٠٥ . درس الادب في الجامعة الاميركية ببيروت . اشتغل في التدريس بفلسطين والعراق والجامعة الاميركية في بيروت ، وعارض قصيدة شوقي "تم للمعلم" بقصيدة صادقة المشاعر حتى التقاني . ألح عليه المرض فعاد الى فلسطين . شغل منصب مراقب القسم العربي في اذاعة فلسطين . أبعده الانتداب بوحي صهيوني . عاوده المرض فتوفي مساء الجمعة ، الثاني من أيار سنة ١٩٤١ . ترك ديوان شعر حافلا . اشترك مع المستشرق لويس نيكول في بيروت ، بتصحيح كتاب "الزهرة" لابن داود الاصفهاني ، وتعليق حواشيه وتنظيم فهرسه . تنبأ بنكبة فلسطين قبل سنين من وقوعها فقال : "أملك ايها العربي يوم تشيب لهوله سود النواهي فلا رحب القصور غدا بباقي لسأكنه ولا ضيق الخصاص"

٣- عبد الرحيم محمود . ولد في قرية "عنبنا" التابعة لقضاء طولكرم بفلسطين في ١٩١٣ . تتلمذ في مدرسة النجاح الوطنية بنابلس على يد ابراهيم طوقان . ثم علم الادب العربي فيها . شارك بفعالية في ثورة ١٩٣٦ ، وحين توقفت طرده الانجليز فهاجر الى العراق . عاد عام ١٩٤١ ، وعام ١٩٤٨ شارك في الثورة ضد التقسيم وانضم الى المجاهدين حتى استشهد في معركة الشجرة قرب مدينة الناصرة يوم ١٣ تموز ١٩٤٨ ، تاركا قصائد كثيرة معظمها لم يكن منشورا . أصدر له الاتحاد العام للكتاب والصحافيين الفلسطينيين ديوانا يجمع معظم شعره الى أبعد حد .

وراح يقرع الاجراس ويصرخ بملء فمه حتى ينقذ السفينة او يغرق معها . (١) وكان التزامه مرهقا ، عبثا ثقيلًا حمله طائعا طيلة حياته . . في ترحاله أكثر مما في حله ، يتلذذ عند الحزن الناتج عن الألم من الهيام وحيدا في أرجاء الكون مع مشاعر الغربة والحنين ، والألم المتمق بالحنن المتأتي من انسحاب بساط الوطن الجميل من تحت قدميه . كمل هذه المشاعر والأحاسيس يفيض بها شعره الوطني والانساني . انه ليس يشكو ، انما يقدم نفسه بنفسه منفعدا ناعلا ، فهذا " البلد منكوب وجائع وفقير . البلد يعيش في فوضى وتهتك وطني . البلد يشكو الارهاب والاعتداءات . البلد يشكو عجزا ويحن لاستكمال كيانه . البلد نام وسأخط على الذين تسببوا في نكبته . هذه أشياء إن لم يتحدث عنها الاديب والشاعر فمن يتحدث عنها اذن ؟ وهذه الانفعالات لم تهز الطبيعة الفكرية فمن تهز ؟ " (٢)

وإذا كان الشاعر عبد الوهاب البياتي (٣) يرى في السياسي المحترف لصا وقاتلا للثورة ، فإنه يرى في الفنان الثوري خالقا للثورة وصانعا . انه يعني الفنان الملتزم بثورة ذات مضامين ، هي عند كمال ناصر ذاتها ، ذات مضامين انسانية ووطنية . وهي إن بدت عند كمال احيانا أحلاما رومانتيكية وردية ، فلن تلبث أن تتكشف عن رومانتيكية نائرة عنيفة لانه قد ألزم نفسه بقضايا شعبه ووطنه وأمته ، شد نفسه اليها مستمدا منها حرارة الحياة . فإذا قرأنا له قصيدة " حرمان " (٤) طالعنا قوله :

لا تترف بالعجز في مقلتي

ايها الشاطيء الجريح بصدري

أو تقوى على المجيء اليأ

لست أقوى على المجيء هوانا

ونكون خصوصا لحقيقة هذا الانسان اذا قصرنا لفظه " البحر " على مفهومها الجرد ، فالعلاقة بينه وبين البحر قائمة على حقيقة أن جسده مجبول من التراب - تراب الوطن . فالبحر هو الوطن والوطن هو بحرنا . هذه المطابقة الدقيقة هي مرمى كمال ناصر كما يراها الناقد احسان عباس بقوله : " . . . قد يصف الشاعر البحر لانه أحب منظره أو تأثر بروعة امتداده ، ولكنك تحس وهو يتحدث عنه انه يعبر عن حرية الانسان ، او عن عمق الوجود الانساني ، أو سعة التجارب الانسانية دون أن يصرح في الحالين - مخبرا أو مقصرا - بهذه الرابطة السرية بينه وبين البحر ، وتكون كل حركة او صورة او موجة موسيقية في قصيدته صورة لذلك التطابق . " (٥)

قبل قليل ، رأينا الحب السرى بين كمال والبحر ، ونعود لنلاحظ عمق الوجود

الانساني أو سعة التجارب الانسانية بينهما في قوله :

- ١- على حد قول الشاعر صلاح عبد الصبور ، المرجع نفسه ، ص ٩٩ .
- ٢- كمال ناصر ، متوجها الى الشباب القومي العربي في تقديمه لأمية شعرية أحيائها في النادي الثقافي العربي ببيروت عام ١٩٥٩ . وليس لدينا من الامية الا مقدمتها المخطوطة فقط .
- ٣- في تقديمه لآثاره الشعرية ، المجلد ٢ (بيروت : دار العودة ، ١٩٧٢) ، ص ٤٩ .
- ٤- كمال ناصر . الآثار الشعرية ، ص ٢٤٩ - ٢٥٠ .
- ٥- احسان عباس . اتجاهات الشعر العربي المعاصر (الكويت : المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، شباط ١٩٧٨) ، ص ٢٠٣ .

"فقد رأيت البحر هذا اليوم عاريا

وشاقني بأنه جميل

وقد فرحت كالأطفال عند ما ضمته ، فضمني . . .

رأيت في اعماقه الاسماك لا تبكي وترقب السبيل

ولا الكبير من حيثانه يهّم بالنحيل " (١)

ومثل قصيدة البحر ، " قصة برتقالة " (٢) ، " التفاحة المحرّمة " (٣) و " خيمة " (٤) وسائر قصائد الرمز في شعره .

أ - سيرة الشاعر الوطنية

يظلُّ الشعر حالة شعورية خاصة بماحبها ضمن حدود الفرد الضيقة ، عرضة للأهواء

الفردية . ولكن - في ظروف سياسية خاصة تتحدى الوجود الانساني في مجموعه - على

الشعر أن يصبح حالة شعورية او تعبيراً عن حالة شعورية شاملة تتخذ نعمة خلودها من

قدرة الجماعة على تجديد الثورة باستمرار .

وشاعرنا كمال ناصر إذ ينطق بلسان " أنا " فهي المغرقة في أماني الجماعة وأحلامها

وعزمها على الانتفاض . وسيرة نضاله هي سيرة نضالها بكل ما تحمله من المآسي والأهوال

والمطامح ، حتى ان ترديده " أنا " في قصيدته التالية يجب أن لا يفهم منه عكس ما بيننا .

وليس أشهد على ذلك من سيرة حياته حتى النهاية وتشابها وحياة أهل وطنه التي يريد

نهاية مغايرة . . . يقول :

أنا ذاك الروح القريب النائي

تائهات في غياب الظلماء

في جفون الحرمان والانتواء . . .

لي بدنياك لذتي وهنائي

كلّ لموى ، ارجوحتي وغنائي

والصغير العظيم من اشياي

صامدا للعذاب بيكي ورائي

لم يخلف معي سوى اشلاي

وفداء تخضبت بدماي . . .

وأدعو للشأر من أعدائي " (٥)

أنا ذاك القلب الجريح المعنى

أنا عشر من السنين طوال

أنا عشر من السنين دموع

أنا ذاك الصغير بالأمس كانت

أنا ذاك الصغير خلفت فيك

أنا أنسيت في الرمال وسادي

أنا أنسيت عند بحرك قلبي

أنا كلّي لديك ، عارٌ نزوحي

أنا نار ولوعة وحنين

ها أنا قد رجعت أرقل بالهقد

في كلّ هذه التأكيدات التي تسمو فوق مطلق شكّ ، عاش الشعب الثورة سنين متصلة منذ

وعد بلفور وحتى النكبة ، كما رأينا في التمهيد .

- ١- قصيدة " رسالة من دوفيل " ، الآثار الشعرية ، ص ٤١٢ .
- ٢- المصدر نفسه ، ص ٢٥٣ - ٢٥٥ .
- ٣- م . ن . ص ، ص ٢٣١ - ٢٣٥ .
- ٤- م . ن . ص ، ص ٣٠٢ - ٣٠٤ .
- ٥- قصيدة " في فلسطين " ، م . س . ص ، ص ١٧٢ .

وفي ضجيج الضياغ والتشريد ، كم من أبوين في غمرة الرعب ناسيين رضيعاهم فترا
مع الفارين من المعتدين ! ثم غدا الشعب في الغربة مجامر شوق وحنين الى الوطن ، بينما
الاعداء في العالم يراهنون على ان الجيل المتقدم عندما ينقرض فسوف لن يعرف الصاعد
شيئا عن الوطن ، وينسى الجميع في غياب المشاعر . طبعاً ، خسر الزهان وسجل شاعرنا
صورة لهذا الخسران ^(١) ما أسرع ما انتشرت عدواها حتى عمّت جميع أطفال الشعب وقد
غدا وأبطال مستقبل ، حتى لتطالعنا الاخبار اليومية تقريبا بأسماء الأبطال وشهداء ولدوا
بعد النكبة ولم يعرفوا من فلسطين الا اسمها الذي تسلّل الى دفاترهم بخفة وخفية . ^(٢)
واذا كان شاعرنا يوم النكبة ابن اربعة وعشرين ربيعاً فتأثربما شاهد بعينه وسمع
بأذنه وارتعش له قلبه ، فقد كان مؤملاً للأمال معتمداً عليه في تقلّب الاحوال . ولم تزده
أمنيات رفيقته الشاعرة فدوى طوقان الا لهفة للتوثب عبر القضبان بأشرس منه حرّاً من قيودها
فكتب اليها رده من سجنه :

وأنا مثلاً شئتني أن أكون	وشاءت لي الحادثات الصعاب
كبرت على الذل لا أرضيه	ولي موطني خالد في السحاب
أعانق من ربوتيه النجوم	وأختال بين الدرى والقباب . . .
ومن أرضعته النجوم الدار	سرى في سماء العلى كالشهاب
سفحت دمي فاستفاقت جراحي	تلوّن صدر الدرى بالخضاب . . .
أتوب ، معاذ العلى أيّ يوم	مضى شاعر للمعالي وتاب . . .
إذا هتف الشعب يوماً بروحي	أطلت له من حنايا التراب! ^(٣)

بكبرياء وعنفوان ، ولو من داخل السجن ، يخاطب ابنة شعبه التي ذكرته لآمال تعلّقها
عليه ، فهو قد قرّر ربط مصيره بما يؤول اليه الوطن ، بأسلوب عنيف عفواني الوقع والتأثير .
فإذا ما أراد ، الشعب يوماً هاتفا باسمه فلا بدّ ان يستجيب للقدر الذي نذر له نفسه .
شاعرا منافحاً كان ، ومناضلاً كان ، وكل ما فيه من اختلاج الثورة وتأججها كان . ولكن ،
هل كان يكتفي بذلك في نفسه فقط ؟

قلنا : كان فرداً في هيئة الجموع . وفي تقبّله ارهاق ذاته لم يرد ارهاق مجموع شعبه ،
ذاك ان الانتفاضة تحيي ولا ترهق لما يرجى من ثمار النصر تتلوها . لهذا ، وحين هاله
مرأى الناس يبكون على الماضي ويبكون على الحاضر ، أدرك ان المستقبل لن يكون الا من

١- كان ذلك في شكل قصة "خائن" لكamal ، حصلت عليها من الاستاذ ناجي علوش .
٢- معلوم انه مضى على نكبة فلسطين ثلاثون عاماً كانت كافية لولادة جيل كبير من الشباب
الذين التحقوا بصفوف الثورة المسلحة . ولصعوبة العد والحصر ، يمكن الرجوع الى
سجلات الشهداء والاسرى لدى بعض فصائل المقاومة لملاحظة ان النسبة الكبرى منهم
ممن لم يبلغوا الثلاثين من العمر اي انهم لم يولدوا في فلسطين ، ولم يتحلوا بترابها ،
فشدّهم الاحساس ولم تشدّهم رؤيته .
٣- قصيد "كمال هذه" من الأعماق " في الآثار الشعرية ، ص ٣٤٩ - ٣٥١ . وهي رد
على فدوى طوقان عندما كتبت اليه قصيدتها "المغرد السجين" وقد كان فعلاً مختفياً ،
وهي منشورة في آثار كمال الشعرية ص ٣٤٦ - ٣٤٨ .

تضافر زمني البكاء فلا ينتج الا البكاء مخلفا التلاشي والعدم . ورأى فتاة من شعبه تبكي
أهلها الذين سقطوا فنهروها بعنف ولكن بيد ناعمة الملمس مورقة البنان ، مستنطقا ، هادما
وبانياً :

"أتبكين ؟ ماذا

أمات أبوك ؟ ومات أخوك

وجارت عليك جراح السنين

وأدرجت في موكب اللاجئين ؟

أتبكين

قومي نشدُ الإباء

على ملعب الكبرياء

فإني أبوك وإني أخوك

كبرت على لوحة اللاجئين

وأخرست في جنباتي الأنين . . .

أتبكين . . . ماذا ؟

أجدى البكاء ، فتحنو عليك عيون السماء

لتقتل في جانحيك الرجاء ؟

وتطفيء في جانبيك الحنين ؟

أخاف عليك

أخاف الشقاء وأخشى الرثاء

يميت بقايا الإباء " (١)

لأمثال هذه الفتاة الباكية في بأس جاء الشاعر يحيى النفوس والآمال ويضيء طريق الفرح
والرجاء ، فالصلاة الكهنوتية لا تطعم جائعاً ولا تلبس عارياً ولا تدفيء فؤاداً مقررراً اذا لم
تترجم الى أعمال كذلك التي قام بها السيد بسوط يمينه وشارة اتهام يساره ، فلم ينتظر أن
يعاقبهم ربّه العظيم ، وهو قادر على ذلك او مخوّل لفعله وقد أعطاه ربّه سيفاً به "الحقّ
يوؤخذ" . والشاعر يفيض في الاستفهام ، لا عن جهل وإنما عن ادراك للحقيقة . وهو حين
يستفهم بهذا الاسلوب ، يولد فينا حبّ الاستفهام والتتبّع لكي يأخذ بيدنا الى مرماه الاخير
فتساوى بالشاعر حسب ارادته ونقتنع بقناعاته . فالبكاء يورث الرثاء ويقتل الإباء والكبرياء .
اللاجئون بكوا واستبكوا وامتأدت دواوين العرب بالرثاء حتى كاد أن ينحلّ فيهم الكبر والاباء .
ومرّت بالشعب أوقات من اختناق الانفاس الثورية من الداخل ، وانقطاعها من الخارج بعد
أن أصيب اخوان لهم في مصر بعد وان ١٩٥٦ ، وانصياح العراق وراء حلف بغداد الذي
خلفه الانجليز ، وبعد أن لم تظهر أية بوادر محلية وعربية مشجعة تجيي النفوس كالشمس

الآفة أيا ما لا تلبث خضرة الاوراق وزهو الازهار أن تذوي وتبلى • حتى أقدر الناس على الصبر
المتسلح بالايان ، مرت به مرحلة من اليأس كادت تقضي على صبره وتضعف من ايمانه • فهذا
شاعرنا ، معتزنا بتلك الحالات ، يرى نفسه ذات يوم مطاردا حتى الموت فلا يلقى مأمنا ولا
ملجأ يلوذ به حاملا جريمة الدفاع عن الوطن • ولم يكن في هذا التخفي وحيدا بل شاركه
كل الوطنيين الذين رفعوا اصواتهم منددين بالاحلاف الاستعمارية وفاضحين المؤامرات
التي تحاك في القصور ودر الحكم • وجد كمال نفسه ذات عام خمسيني متخفيا لمطاردة
السلطات له ، فراح يحاسب نفسه ويراجع ضميره • في الموقف الاول كان متشائما تراءت له
كوابيس اليقظة لأن ••

” ثورتنا للمجد يا شعبنا
وانهزم التاريخ في درنا
لا بطل يمسي الى حتفه
ذلت قلوب الناس واستفحلت
صرخت في ياسي وفي حرقتي
ماتت بعينيها طيوف المنى
وتاه في صحرائه متخفيا
مؤزرا ، مغامرا ، مؤمنا •••
عصابة مجرمة بيننا •••
ما أحقر الشعب وما أجبنا • (١)

تفوح من هذه الأبيات روائح النعي الكريمة من ” موت وانهزام وحتف وذلل وعصابة
مجرمة وياس وحرقة وجبن ” • كلها ألفاظ معبرة عن الجوّ القاتم القاتل شوما وياسا • أما في
الموقف الثاني ، فمراجعة الضمير واتخاذ الموقف • وبينما يغرق في تأملاته ، دخل عالم
أحلامه عنصرا جديدا :

” ولاح لي طيف غريب الخطى
وراح يحكي عن بطولاته
كأنما النصر على كفته
وتعرّف الى الطيف المتشائم ، الكابي بعد التوب ، فبادر مناديا قبل أن ينتحر:
يا طيف هذا خنجرى في العلى
فاضرب به اضرب جارحا مؤمنا •

ويا لهول الموقف ! حتى الطيف لم ينتحر فكان أشدّ ثباتا من حقيقته:
” فأطبق الطيف على نفسه
يدب في مشيته راعشا
يردد الوهم صدى نفسه
ولاح دمعي فوق أجفانه
يشقى بأحلام العلى ، موهنا •••
وسحر ما أبدع عبر الدنى •••
شدّ بأوتار العلى والجنى • (٢)
ذعرا ، وولى شاحبا أرعنا
وبين عينيه يمشج الونى
ما أحقر الشعب وما أجبنا ! !
يا خجلي في المجد •• هذا أنا ! • (٣)

في أبيات هذه القصيدة ، نسير مع الأحداث الغامضة التي تشدنا الى نهاية تبدو
كذلك غامضة حيث لا تلبث أن تقفز المفاجأة أمامنا بقوة تدفعنا الى الصراخ مع الشاعر المتألم:

١- قصيدة ” الطيف الجبان ” ، الآثار الشعرية ، ص ٢٥١ • يحسن الرجوع الى الباب الثاني
لمعرفة اسباب هربه •
٢- القصيدة نفسها ، ص ٢٥٢ •
٣- القصيدة نفسها ، ص ٢٠ ن •

هذا أنا . قمة التشاؤم وذروة المأساة ، لأنه بات يستشعر الجبن والذل في نفسه لشدة ما ألمّ منهما بشعبه . لذلك ، لم يكن طبيعياً فحسب ان ييأس شاعرنا - رمز شعبه - بل كان غريباً أن لا ييأس بعدما توالى على الشعب الضربات وتتالت الأكف لكم الانفاس المحرورة .
وإذا كان ينسب الجبن لنفسه ، فلأنه ما عرف الجبن يوماً وقد تبين من خلال سني حياته المثقلة بالنضال والدؤوب انه مثال الشجاعة والوفاء للكلمة والثبات في الموقف عن قناعة بعد اختيار ذاتي . من البدء كان مقتنعاً بأنه انسان تائر للإصلاح وعزيمة للضغوط والتحول ، وما أكثر الضغوط وسرعة قبول الانسان - مطلق انسان - للتحول . . . فهو يقول انه منذ أبصر الواقع التحيس ، انطلق على الرزم من أعظم كايح . . .

" انني وحيد

لا معولي صلد ولا يداي من حديد

وكنت أدري أن ذاتي هشة تلجمها القيود " (١)

اننا نرى في تتابع الدال في القافية ، عدا الحشو ، إحدى حلقات الحديد المتصلة التي يتألف منها القيد . وعلى الرزم من هذه الوحدة الميئسة حتى الانهاء الحقيقي للرمز ، فقد كانت له ارادة صلبة لتحقيق كينونته التي لا ولن تتحقق الا اذا . . .

" أردت ان أنشق عن عجزني فأعبر الأتون

أردت أن أعيد مولدي بالموت من جديد

وأن أعانق الوجود لذة في مآتم الوجود . . .

فاخترت أن أمزق الجليد في معازل الجليد . . .

مد يني . . . مدينة الضلال والجحود

والموت والسجود

أهدمها ، أحرقتها ، أذبحها من الوريد للوريد

أهّب نيرانها على عفتها وطهرها المزيف النهود . . .

حتى تضجّ في عروقها الحياة من جديد " (٢)

وفي الشدائد تختبرهم الابطال ، وإذا كانوا يكبون فإنهم لا ينامون . لذلك ، لم يقصر ارادته التغييرية على أدرا ان الارض فحسب ، فإلى السماء طموحه امتدّ وقد اعترف من قبل بأن النجوم الدارارى مرضعته ، لا بل تخلل خلايا النفس لتعم ارادته وتشمل وليكون التغيير جذريا قبل أن يستفحل الداء فيقضي على الجذور . ويوضح موقفه بقوله:

" أردت أن أغير الدني لتنبض النجوم في مواكب السنّا . . .

أردت أن أروض الفناء والبقاء والقدر

في مهجتي الظمأى ، وأن أضاجع الخطر

أردت أن أحول العجز المريض في دمي الى شر

١- قصيدة "النبي العاجز" ، الآثار الشعرية ، ص ٣٩٧ .

٢- القصيدة نفسها ، ص ٣٩٧ - ٣٩٨ .

وأرتدي النجوم حلّة ، وأحمل القمر * (١)

ولم يعد يكتفي بمواجهة الخطر بل بمضاعفته وقهره ، ولا بطرد المعجز من دمه بل بتحويله الى شرر مستفيدا منه في عكس ما أريد منه ، وبدل نفسه كما بدل ثيابه الى حلال مزركشة تفتن الابصار . جملة من الافعال التي تحفر في الحاضر طريقا للمستقبل . تلك كانت ارادته فعبر عنها بصدق غير متناه ، وبالأدلة الحسيّة تشهد عليها حياته : أراد التفكّلت من مستنقع الوطن الكبير والخروج من المدينة - السجن . أراد هدم كل زيفها وبهرجتها . أراد تقوم كل اعوجاج حتى في نفسه يحسّ به هو من غير أن يلحظه الآخرون . وفي لحظة من لحظات الارادة العمياء ، ولكنها المرتكزة على خلفية مشرقة التحق بركب المجاهدين على الرغم من أنه لا يجيد استعمال السلاح ، وبالإضافة الى نزقه وحيويّة الشباب في دمه . . . صاح في وجه أمّه التي وقفت حائلا دون لحاقه بهم :

" ولا تطرقي ١٠٠ "

فوجهك هذا الحزين

سأنساه في فرحة المعركة . . .

فلي مأرب في المنون

أضّم عليه العيون

فأمشي الى مطلبي

بصبر نبيّ ، وعين نبيّ * (٢)

لعله منذ البداية أراد أن يحقّق مسيحيّته النقيّة من ينابيعها بأن يكون له مأرب من موته شهيدا . وهذا المأرب الذي رآه أعظم من مأرب أمّه بحياته ، جعله يتابع معلّلا . . .

" ولا تطرقي ١٠٠ "

فان جراح الحياة بصدري

تعدّ بصدري

دموعك كقرّ ، فلن ترجعيني

ولن تضعفيني . . .

ونحن على ما ندركه من ان الصخور تليّن لها دموع الأمّ وتوسّلاتها الى ابنها ان يظلّ في محتوى ذراعيها ، الا ان شاعرنا رأى الوطن أمّا أولى وعلى أمّه الثانية أن تجلّها وتبذل كسل غال في سبيلها ولو كان ذاك وحيدا . ولا بدّ لهذا الوحيد من استرداد حقه المنتصب . . .

" فحقّي يريد الذهاب

الى المعركة

الى المجد كي أدركه

مصيري . . . مصيرك بين الحراب

١- القصيدة السابقة ، ص ٣٩٨ - ٣٩٩ .

٢- قصيدة " الى أمي " ، الآثار الشعرية ، ص ٢٨٦ - ٢٨٧ .

وهذا الذهاب... (١)

هذه ارادة الحق... واذا كان للانسان أن يختار السبيل الى المصير ، فليكن السبيل المشرف للرجال والانسان وليكن العزم الموءن محققاً لأفضل مصير ، ففي هذه القصيدة - الدوقف لم يكن كمال الا انساناً حياً يحمل بين عينيه شهادة شهادته . واذا عانى - شاعراً - من الفوضى التي تخبط فيها زعماء البلاد من جراء قلة الخبرات ام من انعدام الدعم الخارجي المنظم من الزعامات العربية عبر شعوبها ، فتلك معاناة دفعت الشاعر الى طريق اخرى للثورة المنظمة وقد رسمت بوضوح وبيّنت الوسائل بدقّة ، وحددت الهدف المعروف بطلقات وقذائف مضيفة لإطار خارطة الوطن .

واذا كان علينا ان نتنبّه في هذه السيرة لأمر ، فشورية الشاعر التعبيرية مواكبة لسيرته الوطنية . فهو وان بدأها بقصيدته الكلاسيكيتين " من الاعماق " و " في فلسطين " ، الا أنه ثار ، ولو بدون وعي ، على الشكل القديم لمجرد أنه قديم الشكل ، بينما يتجدد الانسان فنلاحظ لجوءه الى التعبير المتحرر من القافية والبيت الشعري الى التشكيل والتشظير في تطوّر متعاقب الازمان والاحداث في تهيدته " الدمعة الحاقدة " و " النبي العاجز " التي نظمها في اواخر ١٩٦٥ .

هكذا ، اشتملت السيرة تغييرين معاً : التغيير النفسي والتغيير التعبيري . أما النفسي فشديد الوضوح في حياته ، وأما التعبيري فلنا حول أصله وتطوره حديث آخر منفصل فيما بعد ، وتلميحا ، شعره الكلاسيكي الذي فرضته عليه شكلية المواقف الخطابية حتى في قمة حياته النضالية والادبية .

ولا يمكن اكمال صورة كمال ناهر في سيرة حياته من دون لقاء الضوء على جانب هامّ منها كان له أثر عظيم في بلورة أسلوب نضاله حين عرفه حياة الازلال والهوان في السجن على يد أبناء قومه ، فحزّ في نفسه فعل من كان ينتظر منهم بيض الفعال لا سودها . عرف شاعرنا المناضل السجن غير مرة حتى تكوّنت لديه عنه نظرة خاصة . أما لماذا كان يسجن ؟ فالأسباب كثيرة وكلها تظاله . . . إما لموقف وطني عبّر عنه بصراحة ، وإما لمبدأ آمن به معارضا ذوى الحكم . وإما لمقال سياسي نشره ، وكلمة حق نفّوه بها ، وزفرة ضيقٍ أطلقها . ومع ذلك ، كان يفرّج عنه دائما إما لمدخلات بعض البارزين من عائلته ، وإما لانعدام تأثير الاتهامات على سمعته الوطنية الفوّاحة . وما بين السجن الصغير وسجن الوطن الكبير ، كانت له انطلاقات راوحت بين القبول والرفض .

في البدء ، أصدرت عليه المحكمة قرارا غيابياً بسجنه ثلاث سنوات ، فكانت قصيدته " ثلاث سنين " (٢) التي عبّر فيها عن دهشته من القرار الجائر . وعندما رفض دخول السجن لأول مرة عام ١٩٥٧ ، اعتدى عليه الجنود بالضرب . وحين شعر بتلك اللحظات الرهيبة ،

١- القصيدة السابقة ، ص ٢٨٨ .

٢- الآثار الشعرية ، ص ٢٦٢ .

انتفضى وتماسك واشتدّ آما :

فلمست أطيق هوان غدي . . .
قيود يدي حطمت في يدي . . .
مدى غايتي والفضا مرقدى . . .
فمن فرقد لذرا فرقد . . .
ولست مع القيد في موعد . (١)

" قفي قدي عزة وأمددي
قفي ، فكلانا قوي ، وهدي
أسجنا يريدون لي ، والسما
وهلي له في النجوم انطلاق
فلن يطمع القيد في معصمي

بهذه الصيغة يفتح القول ، وعلام يقع الأمر؟ على الاستعارة التي يريد ثباتها ركيزة للشعب يستند إليها في مقارنته لجلاذيه مشدوداً الى غدٍ مشرق . ويتساءل : "أسجنا ؟" وهو يدرك أنه أسس من ان يسجن الساج بين النجوم ، وأن السجون أضيق من أن تتسع لنبل غايته ، ويؤكد أن القيود قد صنعت لغير معصمه الذي يزدان بعقود الأنجم . وهكذا يلتوي القيد من وقته الشامخة الأبية وامرارته على إقامة اطرافه المتهاكة . لعل هذا الموقف كان نتيجة رد فعل طبيعي على موقف سابق مرّ به الشاعر وأقسم على ألا يعود اليه ، موقف يتناقض مع أخلاق النافر وجسارته وتضحياته في سبيل عقيدته ومبدأه . كان ذلك يوم . . . إنّه يوم يروي الشاعر نفسه قصته فيه مع شرطة السلطة :

" ويفتّشون ويسألون "

وأنا هنا في مكمني في ملجئي
في مكمني العتم المغير
مكثور في ذلّة تحت السرير . . .
وأحس أنفاس الكلاب تشمني
وتصيح في مرج : جبان
هرب الجبان

سخرت لتحميني وتمنحني الأمان

وتمدّ لي من خلف بسمتها اللسان . . .

ويفتّشون ويسأمون فيذهبون

وتعود أحلامي إليّ

وتثور آلامي عليّ . . .

وتصيح في الكبرياء . . .

فاذا بصوت للضمير

صوت أذل من المصير

يغتالني ، ويصيح بي : نذل حقير . . . (٢)

١- قصيدة " التجربة الاولى " ، الآثار الشعرية ، ص ٢٦٨ - ٢٦٩ .

٢- قصيدة " حقير " ، الآثار الشعرية ، ص ٢٢٥ - ٢٢٨ .

لسنا ننكر براعة الشاعر في سرد القصة التي تجعلنا نشعر بمشاعر نفسه ، ونخجل
مثله ونحس بالمهانة من منح الكلاب ، حتى الكلاب ، الأمان لثائرها هو يختبيء ، ولا يواجه
مصيره بشجاعة . لهذا رأينا قبل قليل يأمر " قدمه " بالوقوف والصمود ، منتقلا من حالة شعورية
مهينة الى حالة مشرفة . وقد لعبت الكلمات دورها الرائع في أداء معانيها وايماءاتها بدقة
متناهية وخاصة في تصوير حسده المختبيء " متكوراً " وتصوير " أنفاس الكلاب تشمه " ولم يقل
ان الكلاب تشمه فقط ، لا بل جعلها تصيح في وجهه ، وقد أراد بذلك نقل حقيقة دقيقة
هي ان ضميره هو هو الذي يصيح في وجهه : " جبان " ، وهذا ما يشير اليه في نهاية
المقطع بوضوح . انها صورة جديدة للشاعر في هذا الميدان سكبها في عبارات قصيرة متلاحقة
متسارعة شبيهة بأنفاس الكلاب وأنفاسه الهادرة عن تعب وخوف شديدين . لقد أدى الشكل
الشعري الجديد وظيفته في تلوين القافية وتوزيعها بين النون المنطوية المستكنة وكأنها
مختبئة ، والراء المترجحة وكأنها خائفة مضطربة .
وكاننا بالشاعر أقسم على الوقوف والصمود عزة وقد خرج من سجنه يحمل فلسفة خاصة

لم يكن يعيها من قبل . عبر عنها في قوله :

" فما السجن الا احتضار الأجل "

وما المجد الا انتصار الفشل

وما النصر الا عذاب السنين . (١)

بهذا التعبير ، تعمل القوافي المسكنة على تأكيد ما أراد الشاعر نفيه ثلاثاً ، وللسكون وقع
حازم شديد ، وتنبية وتذكير بحقائق أتى عليها في قصيدته التي سارت على النمط نفسه حتى
النهاية مستدركا :

" فلا تهدئي ، واعصفي يا رياح "

فكل سجين ألف جناح

سينشق عن قيده في الصباح

لينشر في الشعب حق الكفاح . (٢)

فعمق نظرنا الى قصيدته من حيث معانيها ومبانيها وفلسفته التي ضمنها آياها . ولعلنا
في هذا المقطع سمعنا الشاعر الى توحيد القافية من باب اصراره على وحدة موقفه ومبدأه . .
فلكل سجين ألف جناح . هكذا ، فالشاعر الذي يشير الحماس ويبعث النخوة في صدور أهله ،
حرى به أن يكون قدوة لهم ومثلاً أعلى في الصمود والإقدام وتحمل المصاعب والمصائب . لذلك ،
وحين وجد نفسه مقوداً الى السجن من جديد ، راح يخاطب سجنانه قائلاً :

اليك في ثوان

شوقاً الى مكاني . (٣)

" رجعت يا سجانني

يحملني ايمانني

١- قصيدة " ثلاث سنين " ، الآثار الشعرية ، ص ٢٦٢ .

٢- نفسها ، ص ٢٦٥ .

٣- قصيدة " السجن الثاني " ، الآثار الشعرية ، ص ١١٢ وما بعدها .

خطاب عنقوي بأنفاس قصار ، وتذكير للسجان بما هو في الحقيقة من باب الفخار لدى الشاعر السجين ونحو يسأله :

"وأنت، كيف حالك؟
ألم تمت خيالك؟
يرهبنا رجالك؟" (١)

وكأن الشاعر قد أضحى ، لكثرة دخوله السجن ، معروفا لدى الجميع . . . فهذا هي عودته اليه لا تحمل طابع الدخول الأول . . .

"قد عدت لا أبالي
في دربها فضول
سلخت فيه عمرا
يحملني بعيدا
أرى بها بلادى
تشتاقني الزنانه
لا أدعي نسيانه
مناجيا شيطانه
في رحلة سكرانه
دروينا ظمانه" (٢)

ونلاحظ لا مبالاة الشاعر بالسجن من وجهة نفسية ، توافق لا مبالاة فنية من وجهة التعبير ، بالابيات المجزأة وكأنه لا وقت للشاعركي يتأنس في مثل هذا الموقف . وكذلك بالقوافي المتخيرة من مقطع الى مقطع في القصيدة نفسها ، تفيد بأن الشاعر مؤزج الفكر مشتم لا يستطيع التركيز على قافية واحدة . . . لا بل هو قصد ذلك لكي يرتفع فنه في انضمام المقام التعبيري الى المقام الشعوري ليرتفعا معا ، وهذا من صلب واقع الشاعر الذي اراده مرتفعا بالسجن الذي يعقل التأثر ويزيد في الحاجه على شق جدران الزنزانة عن النور السرمدي له ولشعبه وقد صور الزنزانة تشتاقه لأنه تلمح فيه بطلا وهي متلطفة الى الابطال ، وكمال واحد منهم . لذلك ، جعل صورة الاشتياق مقلوبة إمعانا في المبالغة المستحبة .

وهكذا ، لم تطل لدى الشاعر عن السجن سوى ذكريات دافعة الى المضي بعزم واصرار على الطريق المرسم للتأثر الذي وقف حياته على حياة شعبه ووطنه . ولكن لا تتخذ طريقة السرد طابع الافتخار والادعاء ، ترك الشاعر زمام الحديث للسجان ، عدوه ، قائلاً :

"أتذكرك يوم ملأت الجدار"

بألف شعار

وألف قرار

فضج المكان وجن وثار

فكان عقابك ان لا تنام بقرب الجدار

أتذكر ذاك الكلام الشجي ؟

من وحيه العبقري

عرفت بأنك بعد زمان قليل

تعود سجيناً الي . . . " (٣)

١- القصيدة السابقة ، هي ١١٢ .

٢- نفسها ، ص ٠ ن .

٣- قصيدة "عودة السجين" ، الآثار الشعرية ، ص ٢٧٣ .

هذه هي اعترافات السجّان وقد استقبل سجينا صلب الايمان راسخ العقيدة . ويبدو أنّ السجين بدوره استطاع التأثير في سجّانيه أنفسهم بمثل ما أثر في السجناء الآخرين معه حين راح يعبّئهم الى جانب ميادئه وقضيته ، اعتقادا منه بأنهم مأمورون ينفذون من غير فهم للحقائق . وبالتالي يمكن ارجاعهم الى رشدهم . . . وتنجح الخطة فإذا بالسجّان يتعاطف معه وهو يناديه :

" تعال ، تطلّع فبئذي دماؤك

تنزولودا بصدرا الحفر

أراك ضحكت

أتضحك من سخريات القدر ؟

أتذكر يوم جلدناك ظلما

فأستيت همّا وغمّا

وذقت الأمر

تطلّع الى الشفرة الداميه

لأعماقها الباليه

فمنها بجراح بأجفانيه " (١)

فهذا اعتراف مزدوج ، تحوّل السجّان من دمية الى انسان تدمى أجفانه ، وتعتمد السجين نائرا صلبا صبورا على الأمر . تبئى السجّان قهية السجين نتيجة لوفاء السجين لقضيته . وهذه الحقيقة تقودنا الى الاعتراف بنجاح الشاعر في قدرته على انتزاع الاعتراف والاعتبار حتى من جلّاديه .

الشاعر في مواجهة عالم يفتك فيه القوي بالضعيف ، والضعيف لا ينفك يثور لكرامته وتقدّم أجياله الجديدة قوافل الشهداء وقودا للثورة على مذابح الحكّام الذين تسببوا بنكبة فلسطين تماونا وسكوتا . للشعب في أجياله وشهداءه ، نذر الشاعر نفسه وقصيده فحاش حياة عاقلة بالنضال ما بين ربوة يعتليها ، ومنخفض ينحصر في وحوله متسلّحا في مسيرته الشاقّة بقلم جراح ولسان صادق وذهن متوقّد ، وايمان بالنصر دائم التجدّد .

تفتّحت عينا كمال ناصر على عيرن القمصان الوطنية وقد جاد بها أبرز شعراء فلسطين آنذاك ، فكانت قصيدة " الفدائي " للشاعر ابراهيم طوقان :

روحه فوق راحته	" لا تسأل عن سلامته
يتلظى بنغائته	بين جنبيه خافق
لفظ النار والدّما	صامت لو تكلمنا
خلق الحزن أبكما	قل لمن عاب عمته
والردى منه خائف	هو بالباب واقف
خجلا من جرائته " (١)	فاهدأى يا عواصف

وللشاعر أبي سلمى ، كانت القصيدة الشهيرة :

شكوى العبيد الى العبيد	" انشر على لهب القصيد
دعوت الى الجحود	لو كان ربّي انكليزيّا
كنتم ملوكا في الوجود " (٢)	إيه . . ملوك العرب لا

أمّا الشاعر الشاعر عبد الرحيم محمود ، فقصيدته :

وألقي بها في مهاوى الردى	" سأحمل روحي على راحتي
ولمّا مات يغيظ العدى	فإنما حياة تسرّ الصديق
ورود المنايا ونيل المنى	ونفس الشريف لها غايتان
ولكن أغدّ اليه الخطى	لعمرك اني أرى مصرعي
فيعلم قومي بأنّي الفتى " (٣)	وأحبي حياضني بحدّ الحمام

قمصان ردها الشعب صغيرا وكبيرا كأنها الاناشيد الحماسية تصخب بها حصى المعركة الوطنية المقدسة . وكان شعر طوقان وأبي سلمى وعبد الرحيم نموذجا للشعب قبل أن يكون نموذجا للشعراء ، ومنهم كمال ناصر الذي تفتّح على تشققات خفية في جسد الوطن الجميل ما لبثت أن راحت تنزّدا . فحمل لسانه وقلبه ليمسح الجراح . لم يكن ذلك بُعيد النكبة عندما أقسم :

فياك يا وطني يهون	" وطني فديتك ، كل جرح
وانّما أرخى الجفون " (٤)	والله ما نام الزمان

- ١- ابراهيم طوقان . الديوان (بيروت : دار القدس ، شباط ١٩٧٥) ، ص ٩٤ . نظم هذه القصيدة بعد أن كمن فلسطيني للنائب العام البريطاني في فلسطين ، وهو يهودي ، وأطلق النار عليه فجرحه .
- ٢- ديوان أبي سلمى (بيروت : دار العودة مط ١٤١٥ / ٥ / ١٩٧٨) ، ص ٢١ - ٢٣ .
- ٣- ديوان عبد الرحيم محمود (بيروت : دار العودة ، ١٩٧٤) ، ص ١٢١ - ١٢٣ .
- ٤- قصيدة " يا مجرمون " ، الآثار الشعرية ، ص ٩٨ .

ولم يكن ذلك في زمن الثورة عندما لم يترك متسعا لتأكيد أعمق :

"لا هوان ، لا ذلّة ، لا سلام
لا احتواء ، لا تبعة ، لا حصار
انما لمعة تطل مع النصر
فيمحى على لظاها العار" (١)

بل كانت عرخة محدّرة أطلقها يأسه قبل النكبة الكبرى وقد أدرك بنفسه ان فلسطين لم تنعم في تاريخها المعاصر بومضة من سوية . . لم تعرف الحرية الا على يد العرب الذين حرّروها من الصليبيين ، ثم ما لبثت أن زحمت تحت النير العثماني دهرًا ثقيلاً أسلمها من بعد الى الانتداب البريطاني لنصف قرن من الزمان ، الى ان كان الاحتلال الصهيوني الرهيب . فهذا شاعرنا يقول :

"عُدّي فلسطين الأبيّة
قرّت بها عين الجبان
في السلاسل والقيود . . .
وكل نمام حسود
وبين طغيان اليهود" (٢)

وكان طبيعياً ان يتساءل الشاعر بعد هذه السلسلة الثقيلة في عنق الوطن الطرىء : من المسؤول عن هذا ؟ من يستطيع التخيير ؟ وهل يمكن تغييره ؟ وللإجابة ، لا بدّ من الاعتراف بأنّه "لم يكن في وسع الشاعر ان ينتظر رجّة الوحي من انتفاض الجماهير وحركة لها . كان الشاعر هو الذي يحرك الجماهير ، وما كانت الجماهير لتحرك الشاعر" (٣) ، لأنّ الشاعر هو الأقدّر على تبين الخفايا والأقدّر على ترجمة الاحاسيس ، والأقدّر على التأثير . لذلك ، لم يكن كمال ناصر ليترك مناسبة وطنية او اجتماعية الا ويقف بين الناس أو أمامهم خطيباً يقيم المشاعر ويريج الاحاسيس . . في القدس وبيروت ونابلس وغيرها ، يحث الناس على الثورة سائراً في مقدمتهم ، يحثهم بالكلمة ويحثهم بأول حجر يطلقه نسي وجه الشرطة التي تنهياً لقمع الانتفاضة .

كان لثورة ١٩٢٦ المسلحة أكبر الأثر في تفتيح كوامن نفس الشاعر لما تجلّى فيها من بطولات وتضحيات نادرة جهلتها مضرب مثل الغزيم الالمانى ، هتلر ، لشعبه ألمان السوديت "حاثاً على الثورة واللحاق بركب التحرر .

الوطن العربي الكبير مجرد اطار يجمع المتناقضات والآثار السحيقة الشاهدة على همجية الماضي أكثر من مدينته . . هكذا ، من بعد البطولات ، صار الوطن اذن ، "متحفاً كبيراً لم يزل يحجّ بالأوثان وقد وقع الشاعر ضحية لهذا الوطن الكبير . . .
"المتحف الكبير صولة . . وولوجان"

المتحف الكبير خطبة ومهرجان

د بآبصرد يد بان

أسطورة لفقها الدعاة خدعة ، وحاكها الكئبان . . (٤)

- ١- قصيدة "خالد مات" ، الآثار الشعرية ، ص ١٥٦ .
- ٢- قصيدة "فلسطين الأبيّة" ، الآثار الشعرية ، ص ٢٩ ، وقد كتبت قبل نكبة ١٩٤٨ .
- ٣- بدر شاكر السياب في كتاب "الأدب العربي المعاصر" ص ٢٤٣ ، ومادّة الكتاب : أعمال مؤرّروها المنعقد في تشرين الاول ١٩٦١ ، واشترك فيه شعراء وأدباء عرب وأجانب .
- ٤- قصيدة "المتحف الكبير" ، الآثار الشعرية ، ص ٣٩٤ .

أراد الشاعر في تعبيره هذا إشعارنا بإحساسه الذي لا يحسد عليه فنح القوافي متراكمة
مملّة مؤثرة ولاسيما أن الوطن قد انقلب من رمز للجمال والروعة الى وطن شلو تتناوشه الذئاب
في مشهد يتكرر كل لحظة مثيرا في نفس الشاعر ذكريات سوداء راح يعيدها ، فيقول :

”أدمنت جرحي لم أعد أحسه يسيل في الوجدان^١
ألفته كما ألقت لعنتي في الحب والحرمان

لكنني أخاف أن ينذري الأهل والخلان . . .

من كنت في طفولتي بهم أعيش في كل آن . . .

وأستطي سمارتي الشقواء أسابق الفرسان

وقطة جريحة ، عرفتها في سالف الأزمان

سوداء كالوهم الذي أطلقتني . . . وخان . . .

نموءا كل ما قد ظل لي ، في وطن الاوطان . . .” (١)

إحساس رهيب بالخيبة ، ولجوء الى بيض الذكريات هربا من الإدمان القاتل والدماء
التي تسيل في الوجدان فتتخلله وتصبغه لتغرق الشاعر في هذا اللون الدموي الذي يكرهه
الى جانب ”السواد” المخيف ، حتى أن اللون الأشقر قد فقد اشعاعه عندما لم يجد ما
يلصقه به غير حمارته ، فشوه الصورة التي أراد تشويهها تمهيدا للتخلص منها فيما بعد .
في هذه الحالة اللاشعورية اليأس ، يتخيل شاعرنا مستقبل العالم المشؤم وهو
فيه يدب ”قائلا” :

”وتمر علينا الايام . . . نحن الحشرات^٢

لا نعرف شي^٣

نأتي للدنيا أمفارا

ونعود فنرجع أمفارا

عبدا أم أحرارا

تجارا أم ثوارا . . .

وتدق الساعة معلنة بعث الاموات

سئم التاريخ ملايسه ، وطنافسه ، وخنافسه^٤

فاعتل ومات^٥

وتلاشت في صدر الدنيا كل الحشرات

فالعالم لا يد ستأكله احدى الساعات

ويقول الناس : لقد سقطت

من صاحبنا احدى الطبايات . . .” (٢)

١- القصيدة السابقة ، ص ٢٩٥ .

٢- قصيدة ”البهلولان الاعظم” ، الآثار الشعرية ، ص ٣٨٨ - ٣٨٩ .

حالة شبه يائسة يبرع في كشفها وتصويرها حيث توهي الكلمة بمعناها الدقيق " التلاشي ، الحشرات . . . طابات . . . " تتلاشى بسرعة كالوطن يتلاشى . ويلعب التشبيه دوره الموء كمد في تساوى الانسان بالحشرات مما يزيد في انضفاء الشعوب على الجواء العام للقصيدة والتكرار الممل في اتباع قافيتين رئيسيتين لهذه المجموعة من الاسطر ، وذلك يوحى بالتساقط الفعلي وقد سقطت احدى الطابات .

في بداية الخمسينات ، راح أعداء الشعب وكل من يخاف من تملله ، يقذفونه بشتى التهم اذا ما رفع صوته مطالباً بقوة كفافة يومه . . . أقلها تهمة اعتناق الشيوعية . تقودهم الى تلك عقدة تاريخية تتمثل في نزعة العالم الرأسمالي الجشع للحفاظ على مواقفه العليية متمطياً فوق أجساد الشعوب المتهالكة والممتدة تحت مثاقيله . وحى كمال في وطنه ، عنده المسألة عندما خرج شبه رافداً للملوك والحكام أثواب الذل والهزيمة التي يجرونها معقودة الى خراعرهم . وحين راح يتقاضى الثياب الرثة والطحين الفاسد لقاء التراب الطاهر ، وبالأمل يصد في ادعاءاتهم بعد فوات الأوان ، بدأ الشعب يكفر بالعطايا والوعود ويرعبه شيخ السنين السود تمر بنظيئة متناقلة مرهقة وفي كل يوم يراهن الزعماء على أنه لا بد وأن ينسى . . . فلا السنون أنسته ولا الومود خدّرتة ، ولا نام شاعره عن ترديد قصته التي . . .

" حاكمها الجوع ، ووشتها عشيات الظلام "

في بلادي ، وبلادي حفنة من لاجئين "

كل عشرين لهم رطل طحين

ووعود بالفرج وهدايا ويقع

انها قصة آلام الجماعة "

صمد وا عشرين في مجاعة . . .

انها قصة شعب فلولوه

ورموه في متاهات السنين

فتحدّى وصمد "

وتعدّى واتحد . . .

واذا الخصم وقد أعياه اصرار القطيع . . .

ويسمى الحقّ بمتانا وإنما

صارخاً : لا نظمعه بالرجوع

انه شعب أنانيّ شيوعي . . . (١)

إنه تصوير مؤثر للتعقيد المنجعة في الصراع ، والقضاء ما بين تهمة الشيوعية والموت جوعاً . ولا يجد الشاعر في احداهما مغزها فحوق الحياة فوق كليهما . ولا يمكن وصفه بالشيوعي لأن حقه في الحياة فوق كل اعتبار ولا يقبل أية تنازلات . أمّا من حيث التعبير ، فقريب من

ولأن يوم الحساب لناظره قريب . كيف ؟ ومن يقربه ؟ أيستتمض أبطال العرب في الجاهلية
- وما أصلب أبطالها - وفي الاسلام - وما أتربزم ايماننا وأضاهم عزيمة - يستتمضهم لكي
يزنوا الى العلم الذي لونه بأفعالهم لا بأقوالهم^(١) ، فلعلّ وعسى تنفع الذكرى ؟ ومن غير
شاعرنا يذكّرهم وهو الشاهد الأقرب على تلك المجازر ؟

لمن نذر الشاعر شعره وقلبه ودمه إن لم يكن لشعبه ووطنه ! لم يكن بحاجة الى ذلك
القسم لكي نصدقّه وإنما نحن بحاجة الى استقراء تاريخ حياته وأعماله لكي نفتتح بصدقّه ،
ومع هذا قال :

”ويا وطني والجرح ينزوا لهما
فلمست أرى الآك قلبا أحبّه
فأسمع صوت الغيب يهتف في دمي
من الغيب صوت لعله الوحي المسيب ،
كبير حيتانه صغيرها .
ولعله بالغ المثالية الاجتماعية في عالم لا يتلوع
فعلش
فهمس دائما حرّاً^(٢)

ج - الحكّام

”وطن يداعبه الردى ومدده
رقص الرعاة وصفق الحكّام^(٣)

تصوير صادق ودقيق لمشكلة الوطن الكبير حيث لم يعرف الوطن العربي الاستقلال التام
بمفهومه الصحيح منذ أمد بعيد ، وخاصة فلسطين التي جثم الأتراك فوقها عقوداً متعاقبة
حتى كان الانتداب البريطاني بعد الحرب الكبرى فتقاسم الفرنسيون والانجليز الوطن
العربي وجعلوه دويلات يحكم كلّها أمير . في ذلك العين ، كان كمال ناصر قد جاوز سنّه
العشرين ، سنّ الملاحظة الدقيقة والفتنة المدركة . وهكذا بدا من خير من أجادوا في
وصف تلك الأوطان المجرّأة بلغة شعبية بسيطة وصور مقتضبة من صميم الحياة العامة التي
يديرها الفلاحون . .

”زرائب يرعى بنا الضباب والدخان

تتأثرت من حولها الذئاب والقطبان

فاعتنق الفدّان

وهشعت في صدها الديدان والنريان

والتحمت كأنها جسد

تقلّصت . . تجمّعت . . وسمّيت ”أوطان“^(٤)

١- إشارة الى العلم العربي الذي اختصره الشاعر الجاهلي عمرو بن كلثوم :

(بيض صناعنا ، خضر مرابنا ، سود وقائنا ، حمر مواغينا)

٢- قصيدة ”العودة الكبرى“ ، الآثار الشعرية ، ص ٦٩ - ٧٠ .

٣- مجلة ”نداء الأرض“ بلا تاريخ ولكنه قبل ١٩٤٨ . وهذا هو البيت الثالث في دفاع

كمال عن اتهام الوطنيين بنسف المجلّة في يافا ، والبيتان هما :

(شرفاً ”نداء الأرض“ كلّ تذيقة نكراً في صدر الجهاد وسام

ما نام عنك المسجد لكن شقّه أن الرجال العاملين نيام)

٤- قصيدة ”النبي الساخر“ ، الآثار الشعرية ، ص ٤٠٠ .

ويوم عنّ للزعماء ان ينقذوا الوطن العربي وفلسطين ، كان لهم اجتماع تمخّص عن تشكيل
"جامعة الدول العربية" التي كان لها "فضل" اشترك جيوشها في حرب ١٩٤٨ - حين
خرجوا بخيبيتين مشيرين عواصف المنزّ العالمية ، ومطلقين السنة الشعراء وأدعيّة
اليتامى والمشردين في أعتابهم . . . وها هو كمال ناصر يسألهم بسخرية ومرارة :

"ماذا فعلتم بالبلاد سوى القضاء على البلاد ؟

يا عصبية "الخير" التي انتحرت على ثغر الجهاد

قوموا انظروا الشعب الفقير مشردا في مـل واد

يشكو فلا تصغي له أذن ولا يوؤيه ناد (١)

ويتساءل عن "ركب العروبة الجبار" فإذا به يجده "كتلا تدب على النميمة والفساد وتحوك
للشعب الكتيب ، بلدّة ، ثوب الحداد . . . بأسلوب ساخر لاذع يتناول المسؤولين عن تدهور
الأوضاع العربية ، السبب المباشر لضياح فلسطين . . . هذه الزعامات ، وقد استجير بها
من الرمضاء بالنار ، ماذا فعلت لكي تحفظ ماء الوجه وهي ما فتئت تحصي ملايينها اثر
الملايين ؟

يبين الشاعر الداء ويصف الدواء الناجع وهو متوقفا كما لم يتوقف لشعب مكافح في العالم
حينذاك ؛ فالشعب كرمل البحار ، واردة التحرر متوقّبة ، والنفط سلاح فياض ، فهل استغلّه
أحد . . . ؟

"ذلك الأسود المطل من الأرض

لو ملكنا زمامه لنسجننا

ورنعنا على السماء لو اننا

انه حنّنا وفي ذمّة الغدار

نداء الصحراء للانفجار

من شرايينه عقود النار

واقترحنا معاقل الفجار

ما ضاع من غنى ونضار (٢)

جرأة تفوق التصوّر أن يقف شاعر في الخمسينات مثيرا قضية النفط كسلاح تحريري بينما يدس
أصحابه أمرآله في جيوبهم . . . فالدولة النفطية فاحشة الثراء ومحاذاتها دولة عربية شقيقة
فاحشة الجوع .

لقد نبّه كمال منذ فوران الينابيع السود الى ان الصحراء العربية تختلف عمّا وهنّها

به العلماء . لا بل ذهب الى الأبعد في وصفه اياتنا بالأعظم انجابا - لا إجدابا -

كون الرسول العربي نابتاً من رمالها . وعانى الرسول وهاجر ثم عاد فنظّم "العودة الكبرى"

عبر الرجال الرجال . وما في الصحراء من نغم نظيم لمتمومات الحركة والحياة ، عوضوه

بملاحة الارادة ومضاء العزيمة وعمق الايمان وقد غلب القليلون المؤمنون الكثيرين الكافرين .

ونحن اليوم ، إمّا أن نكون كثيرين كافرين ، وأمّا قليلين مؤمنين . أمّا أننا قليلون فلا ، وكثيرون

فنعم . تظلّ مسألة الايمان ، فهل نحن على دين ملوكنا وحكامنا ؟ لا يتوجب أن يقولوا :

نحن كافرون ، ليكفروا ، نالكفر والايمان يتاسن بأعمال الانسان . ولننظر مع الشاعر لنرى وجه

١- تصيدة "الى أقطاب الجاسدة العربية" ، الآثار الشعرية ، ص ٥٩ .

٢- تصيدة "في الصحراء والخليج العربي" ، الآثار الشعرية ، ص ٢١٦ - ٢١٧ .

- والماء ينضح من صحرائه ذهباً
كأنما لم تفضَّ شهداً ولا رطباً
ليصبح الناس في أوطانهم غرباً
ومن يبين لأحفادٍ لنا السببا . . .
- أخشى النوازل أخشى الساسة النجبا (١)
لا عجب أذن ، أن يساوى الساسة بالصواعق والنوازل التي تصيب هامة الشعب ، لأنه . . .
أصبحوا للغريب من عبدانه
يُرى راقصاً لدى أحزانه
احتمال الأذى ولثم بنانه (٢)
- نقد سكرنا بخمرة الكسب من مشمد الملايين تتناثر في أكماسهم العابقة بروائح النفط ،
وفقدوا حاسة الشم وتأصلت حاسة البصر ، فإذا الزعامات "قلوب خائفات كلها للنفاق خيال"
رهانه "والشعب في غمرة الضياع" ليس يدري حمارة من حصانه . "أيفهم أمثال هؤلاء أن
غناء الشعب ليس طرباً بل إفراطاً في التألم والحزن ؟ لذلك ،
"أخرسوا البلبل الجريء ولما
هكذا تصمت البلبل في الدج
- لا يريدون بلابل ثائرة ، بل شعراء يكيلون المديح - وكما لن يكون منهم - لنيل عطاياهم
معيدين صور بعض الخلفاء والولاة والحكام من انبطاح الشعراء على الاعتاب وافتتاح المديح
بالثناء واجادة الوصف لأخذ يتهم ورقاعهم المستوردة .
- الحكام : من "حكيم" ، والحاكم هو الذي يحكم بالعدل . والحكمة : الفطنة
والنباهة في ضبط الأمور ضبطاً صحيحاً . ولكن الحكام عند كمال ناصرهم غير الواتع . . .
"يقولون : حكّام . . . وأنيابهم مشت
هذا تصوير رائع لشراسة الحكّام وتأصل الشرفي نفوسهم من معانقة سلاحه : الأنياب
والأظافر . وإلا ، فماذا فعل أهل الحكم لرفع الضيم عن الشعب ؟ ألا يرون
مكم شريد على ملاعبه الثكلي
أشعث الشعر مزقته الليالي
جائع البطن والذئب سكارى
- تشعث الشعر ، والدماء الجافة ، والبطن الجائعة ، صور تجرح الشعور والضمير كوما
الشاعر معاً ليخبرني في تصوير المأساة من حكّام راقصين طرباً حول شعب يتمزق ألماً .

١- قصيدة "جريمة الأمس" ، الآثار الشعرية ، ص ٩٢ - ٩٣ .

٢- قصيدة "الزعامات والشعب والطحين" ، الآثار الشعرية ، ص ٦١ .

٣- نفسها ، ص ٦٢ .

٤- قصيدة "العودة الكبرى" ، الآثار الشعرية ، ص ٦٨ .

٥- قصيدة "الزعامات والشعب والطحين" ، الآثار الشعرية ، ص ٦٣ .

ويستعير الشاعر الحكاية الشراعية وسيلة لإدانة الحكام . . . يستنطق العابرين عن
 "بطولاتهم ! " كالثعلب الذي سمع موسيقى الطبل المعلق بشجرة ، فاعتقد بأن ما نسي
 جوفه خير مما في ظاهره . ولما مرّته ، وجده خالياً فخاب ظنه وعاد خاسراً . أما الشعب ففي
 دور الثعلب وإن لم تكن له صفاته ، فصفاته تركها للذين " جمعوا أمرهم لفتح أكيد . . . "

" حدّثني عن وثبة العرب لما
 ومشوا للجهاد " سبع " كرام
 ربّ " طبل " قد أسمع الدهر صوتا
 ونفيرا الى القتال دعانا
 ذكّرني الامجاد " باللغم " لما
 جمعوا أمرهم لفتح أكيد . . .
 ثم ولّوا الادبار سب عبيد
 أجوف الوقع " يحرّبي " الوعود
 لم يظّل براية وجنود
 ثار مستضعفا بباب العمود " (١)

ومنذ نكبة فلسطين عام ١٩٤٨ ، الى حين مؤتمر القمة العربي عام ١٩٦٥ الذي
 أجمع فيه الملوك والحكام العرب على " تحويل " مجرى نهر الاردن بحيث لا يستفيد منه
 العدو ، صدّق الشعب ، ولكن الشاعر المطلع على التاريخ ، لم يصدّق فقال :

" فلسفوا منطق الخيانة جهرا
 فتساوى التحرير والتحويل " (٢)

كان ذلك غوراً في أعماق الزعماء الذين اعتبر الناس مشرعيهم انتصارا عظيما . أما فلسطين
 فلم يبق من شعبيها الا الذكريات ونداءات الملوك عام ١٩٤٨ بأن يترك الشعب الأرض ،
 وهم " يحرّرونها " . شاعرنا يقرر حقيقة هامة أسسها على مصادر الطاقة العربية التي بها . . .
 " لو مشى بعضنا غضوبا الى هنا
 مرّغت في الرغام اسوائيل " (٣)

ولكن وقوع النكسة عام ١٩٦٧ كان أثرا شامداً على تشاؤمه من قياداته الهزيلة التي لم
 تستطع أصوات الشعب ولا اصوات شعرائه أن تجرد الصدى الطيب الفاعل في مسامع الحكام .
 وها هو يقول بأسى :

" عشرين عاما بعثت الشعر عاصفة
 ولم أجد حاكما في الدار يسمع لي
 من النضال ووشحت الدنى أدبا
 وضاع رجوع نشيدي في البلاد هبا " (٤)

ومثله شعراء وشعراء ضاعت أناشيدهم سدى وحتى لم ترتد أصداؤها من أجواف القصور .
 وتقرير كمال هذا يقود ، الى آخر أشمل وأصوب ، من تحتها تصيدته :

" قد يحسن الحرب من يمشي لساحتها
 ويحسن الكرم من أحسن الثريا "

فأسسن الشاعر في إبراز التناقض عن طريق المطابقة أملا في إثارة الهم . ولكن السذنين
 أحسنوا الحرب ليست مشكلتهم في أنهم لا يحسنون الكربل في عدم ارادتهم لذلك تحت
 وطأة تورطهم في موثيق ومعاهدات والتزامات دولية تحظر عليهم اقتداء شعوبهم وتحرير
 أوطانها ورفع مستواها الانساني .

- ١- قصيدة " لغم باب العمود " ، الاثار الشعرية ، ص ٥٨ .
- ٢- قصيدة " وسيقى البعث الاصيل " ، الاثار الشعرية ، ص ١٤٠ .
- ٣- نفسها ، ص ١٤١ .
- ٤- قصيدة " جريمة الأمس " ، الاثار الشعرية ، ص ٩٤ .

من ذلك ، نشأ العداء المزمّن بين الشعراء وهذه الشاكلة من الزعامات الفاشلة
الناقدة لمبرر غرقها في كراسيها ولسبب وجودها . فوا لو فتا على أبطال العرب ، ووا حسرتا
على عيوب في سيوفهم كسيوف من قال فيهم الشاعر :

” ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم
بين فلول من قراع الكتائب ” (١)

بينما سيوف زعمائنا اليوم قد دخلت عالم الآثار القديم محافظة على مضائها ولمعانها يزيناها
شكلاً ويشينانها فعلاً .

إذا صمت الشعب ، كل الشعب ، فلا يحق للشاعر ، أي شاعر ، أن يصمت عن
الحق في الحياة فلا يرفع صوته مدوّياً مجلجلاً في وجه صانعي الهزيمة . فالشاعر يرى ويشهد
ويتأثر أكثر من سواه ؛ وعليه ، قبل سواه ، تقع مسؤولية التحذير والسعي الى التخيير . وإذا
عاش كمال الوقائع فتأثر زمننا من شدة هولها وأطلق صرخته السدّوية : ” لقد كفرت بالقطيع ،
لقد كفرت بالقطيع ” (٢) ، فإتته قام بواجبه إذ انحنى على سجّلاته يدوّن مشاهداته وتجاربه
ومآسي الشعب ومواقف زعاماته جاعلاً نفسه مؤرخاً فيصلاً ، ما أشبهه بالديان يوم الحساب
وقد انهمر عليه الناس فراح يمتنّهم كلاً بعصب ما تيه شراً أم خيراً . هكذا أخذ كمال القلم
مقدّمًا نفسه :

” عندما أكتب تاريخ بلادي

بدموعي ومدادي

سوف أبقى صفحة للخزي تنزو بالسواد . . .

وتعزّي الغدر في دنيا الجهاد

وسأرويها جهاراً

للملايين الحيارى في بلادي

عن زعامات بلادي ” (٣)

تسم لهجته في مخاطبة الحكام ووهفهم بالعنف والحقد والتشهير والالفاظ المنازعة
الساخرة . ومن حيث السعاني ، لا يترك لأحد مجال الارتداد على تعليقاته لما تحمل من
دقة التصوير وحسن النقل والبراعة في كشف خفايا السياسة التي يتبعها الحكام مع شعوبهم
التي لم يفتحوا عينونها بعد أن كان الاستعمار البغيض قد أغلقها من قبل . كما تلعب
القافية في المقطع الأخير مع تواتر العبارات سريعاً ، دورها الإيحائي بأن الشاعر واثق
مما يقول ويفعل . لذا ، فهو يسرع في التدوين والتثبيت ، ويحترف الرّصل بين العبارات
لتتلاحق الأنفاس فيزداد الحماس بحيث لا يمكننا قراءتها ببطء قد يخفّف من تأجيج عواطفنا
التي لا يريد لها الشاعر الا مقوّدة .

وإذا كان كمال يرمي من قهائده الى شحن نفوسنا بالحقد على الزعماء الذين وقعت

١- النابغة الذبياني . الديوان (بيروت : دار الرأي العام ، آب ١٩٦٩) ، ص ٢٥ .

٢- قصيدة ” المظلة الضائعة ” ، الآثار الشعرية ، ص ٤٢٢ .

٣- قصيدة ” زعامات بلادي ” ، الآثار الشعرية ، ص ٢٧٩ .

نكبة فلسطين ابّان توليهم السلطة ، فقد بلع مرماه بحذق ، متلاعباً بمشاعرنا حيناً ، وواضعا حقائق الأحداث أمامنا أحيانا كثيرة . أليس هو مؤرخا لتاريخ بلاده ، واما الشعر لغته !

د - الشعب

تلك صفحة الزعامات بلونها الداكن كأسمال الحداد ، أما صفحة الشعب فسيكتبها :

" بشبابي ودماي

فسأبقي صفحة للشعب تنزرو بالإباء

صفحة خالدة حمراء في سفر الفداء

تتلظى بالبطولات وتهمي بالفدا والشهداء

صفحة بالنور تروى ، والهدى والكبرياء " (١)

ألفاظ خطابية بلهجة خطابية حادة ، وتعلّق واضح بماضي الشعب الذي يؤنّخ له . نلاحظ سيطرة النمط الشعري القديم على انفاسه ، فهو وإن حاول التخلص من العمودية التقليدية والاسطر المتماثلة ، الا انه لم يستطع التخلص من القافية في تواترها الموسيقي ، فكان انشدادا معنويا الى الماضي ، ومادّياً الى الماضي والحاضر معاً ، يواكب الزمنين وهو يسطر هذه الصفحة التي ما عرفت غير دماء الأبطال والشهداء على مرّ السنين في معاناة لم تنقطع يوماً ولن تنقطع طالما ان في عروق الشعب دماء تنزرى . وقد يكون الشعب الفلسطيني من أشر الشعوب تعرضاً للطعن والتكيل . . . ولكن لا منازع في انه من أشدّها صبرا على المظالم وأعنفها ردّاً لها وتغانياً متملاً في محاولات ردعها في الوقت نفسه الذي يبذل والنصر دانياً من المستحيل ، ففي عرفه لا مستحيل ، وفي تاريخه لم ينحن لظالم ولم يركن لمستعمر . لم يفّت من عضده أنه يصارع الصهيونية تدعمها اميركا ، اعظم قوة في العالم ، طالما هو مؤمن بحقّه صبور مشهور سيفه فلا تهزّه ريح ولا تشنيه . ويكفيه فخراً انه كان ولم يزل يقاتل في الساحة وحده أو على الأقل ، ليس له من نصير ثابت في مبدأه . هذا الشعب يثير الحميّة في نفس شاعرنا قبل أن يثير الحمية في صدور أبنائه . فلنسمعه يردّد نشيداً أحبه :

نشيد ي يدوي بسمع الفضاء . . .	"أنا الشعب فلتسمعي يا ذرا
على الدرب ، أوماج طيف الإباء	أنا الشعب إمّا تلقت كسبر
فمن كبرياء الس كبرياء . . .	أمد جناحي عبر الجراح
يطاول في الكبر صدر السماء	ولدت كبيرا على الضيم عدري
أطلّ لهم من ضمير الخفاء . . .	رقيب على دجل الحاكمين
هزمت ، ودب بروحي العياء " (٢)	وكم مرة ظنني جاحداً

بالطبع ، هذه ال "أنا" ليست إلا الأناثية الجماعية ، الافتخار بالجماعة وهو يبيّن الحقيقة

١- قصيدة "زعامات بلادي" ، الآثار الشعرية ، ص ٢٨٠ - ٢٨١ .

٢- قصيدة "أنا الشعب" ، الآثار الشعرية ، ص ٢١٧ .

التي أغرقها الجاحدون إذ انهزموا فألقوا على الشعب التبعات ، فيحيلنا الى السجّل
الحّي لبطلواته رجالاً ونساءً . ومن ينظر الى فلسطين ، يرّأنه . .

"لم يبق في الملحّب المطعون ذابحه
في القدس في غزّة الثكلى معاصرنا
ولا تبقي بوادي الموت إلانا
تدرّ بالصبر والايان ألبانا" (١)

أجل ، في "قدس" البطل عبد القادر الحسيني يدافع عن قدسيّة اقدامها المنبّة حتى
"القسطل" وقد خاض بصبره وايمانه معركة غير متأنفة مع الصهاينة وصفت بأنها عمليّة
انتحاريّة . من هنا فتمثّل دقّة قول الشاعر "تدرّ بالصبر والايان ألبانا" . وفي غزّة التي
تاومت الاحتلال أنصف مقاومة الى حدّ اضطرابه للفصل بين الاحياء والمنازل بأسلاك شائكة
وعبوات ناسفة لمنع الاتصال بين الرجال والرجال للإتيان بأجلّ الاعمال . في غزّة ، كانت
رعى الشهداء "تدرّ بالصبر والايان ألبانا" . فيها أكثر من "جميلة" وأكثر من
"غولة" ، فهيّا . .

"قل للعداري السبايا من حرائرنا
ينمدن للجوّ يستمطرن ديمته
هل يعرف المجد أغلى من عذارانا؟
ويستحلن بدنيا الغيم عقباننا
ما أجمل الغضب المسجون سجّانا" (٢)

الصورة مسرحية رائعة تجمع بين شخصيتين متناقضتين في واحدة ، حسان حرائر
عدراوات ، وعقبان غاضبات شمخت بالكبرياء . هذا الجمع السريع يسرع في قدرة الكائن على
اتخاذ الموقف النعال ساعة الواجب . فعذارى فلسطين سبايا يرين السجن الحقيقي في
بيت القعود ، يخافهنّ السجن ولا يخفنه وقد قلبن مقاييس السجن وغدون لبوات هوجمن
في أعراض وطنهنّ . . شأنهن شأن الرجال . . أما حملت مريم في قلبها ذلك الصليب الذي
حملة المسيح على كتفيه ؟ ان تعدّد الصلبان أضحى من الكثرة بحيث صار لكل امرئ صليب .
نكمال ناصر يري . .

"إنّا حملنا عن المصلوب رايته
وقد نحتنا من الصلبان صلبانا" (٣)

فهل من حكمة في مجيء المسيح ثانية ؟

نحن أمام ثلاثة دروس وعبر : لن يستمرّ الناصب بلا عقاب . وإن الشعوب تمهل ولا
تنهل . وإن الشعوب تزحف الى حقها وفق تخطيط دقيق . هذه كلها عبر عنها الشاعر
بقوله :

"أخا الغدر ، ان دماء الشعوب
تمهل ، فلن تستطيع الممرد
لها في حساب الشعوب تمنّ
ولن تستطيع البقاء ، ولن
وزحف الملايين علم وفنّ" (٤)

١- قصيدة "إنّا حملنا عن المصلوب رايته" ، الآثار الشعرية ، ص ١٤٨ .

٢- نفسها ، ص ١٤٩ .

٣- نفسها ، ص ١٥١ .

٤- قصيدة "النكسة" ، الآثار الشعرية ، ص ٢٨٢ .

وهكذا سيفتك الشعب بالغادرين كما فتك السيد المسيح بالتجار في الهيكل . كما نلمح سيراً على خطى " اذا الشعب يوماً أراد الحياة . . . للشابّي ، ونلاحظ ما في القصيدة من فواصل ساكنة بأسلوب التأكيد " إن " والتزام شاعرنا في قوافيه بنون التوكيد ، وفي استساغة الأبيات جزءاً رائعاً من نشيد حماسي صاحب . وهناك تنبؤ بحتمية النصر وحتمية انهزام المعتدين لأن للشعب تاريخاً عريقاً صنع في الزمن الغابر للرسول العربي عودته الكبرى زمان كان الشعب درعه الواقية التي لا تكمن منفعتها في اتساعها - وهي ضيقة - بل في صلابتها وتماسكها وسرعة حركتها إبان القتال . والشعب العربي قاطبة كان أصلب درع لمن أرادها ولو كانت اليد التي تحملها تريد لها خيراً ولا تريد لها لغير الزخرف والزينة . هو نفسه حدث التاريخ عن بطولاته عندما . . .

تسامت " تسامت تسور الجوّ إمّا تألّبت
عليها عوادي الافق وانتظمت نسراً . . .
فتحنا طريق المجد ، والمجد لم يزل
على خفقات الدهر مستوحشا بكراً " (١)

تبد ورعة المجازي في " فتح طريق المجد " اختصاراً لطريق ملتوية كان ممكناً ان يشار اليها بالقول : فتحنا الطريق فنلنا المجد . ولكنّ الفتح المجازي في أروع تجليات الحقيقة ، يتناول بريقه لدى ابرازه مجداً بكراً مما أكسب الفتح هالتين : الأولى بلوغ المجد ، والثانية يكارته حيث يكون للظفر بالأسبقية مذاق ليس أحلى .

هكذا ، على يد الشعب في فلسطين ، عرف المجد أولى تفتحاته على الدنيا . . . تفتحات لا بدّ ان تطرح الثمرة الكبيرة وفق منطق الطبيعة السوي ، وفق منطق التاريخ البشري يرى شاعرنا " ان النهاية للشعوب ، وان تأخرت الشعوب " (٢) فمن الخيام لا من القصور يأتي النصر . ومن الشعب الخائض في غمار البؤس يشهر السيف مع الصرخة ، ومن حيث لا يدري ولا يتوقع الغاصبون ، يتفجّر ، ويتدفّق الثائرون تدفق الأمطار والسيول بلا برق ولا رعود .

قدّم الله الشاعر فظلاً محافظاً على تقدّمه وتقدمه للشعب في غليان مراحلته يتحمّل ما لا يقوى الشعب على تحمّله . واذا كان لهم أن يياسوا فليس له . وان كان لهم أن يهونوا فليس له إلا ان يهلب ويشتدّ ولا سيّما وهو يدافع عن الشعب المفترض ان تقتله وحدانيته في الميدان ولكنه لم يتهاك . والمفترض ان ينقرض ولكنه يتناسل كأنفاس المعمّرين . والمفترض ان تتكسر اظافره وتقتلع أنيابه ولكنه الضمير الذي يقبض على مخارج الرثا متحكماً . . . هذا الشعب الذي اتصل به الله تعالى اتصالاً مباشراً . . .

وبينه حرّاً عزيز الرحاب	" فمن حقّه أن يعيئ الوجود
ادّعاء لينزل فيه العقاب . . .	وليس لغير الاله عليه
مهيب الجناح حسير الحجاب	غداً ينجلي الليل عن روضنا
وللشعب ظفر رهيب وناب	غداً ينفذ الشعب أو هامه

١- قصيدة " العردة الكبرى " ، الآثار الشعرية ، ص ٦٩ .

٢- قصيدة " صرخة الخيام " ، الآثار الشعرية ، ص ٧٧ .

ملايينه أتممت لا تنام
وفي درهما موطيء للذئاب" (١)

وتقسم الملايين من قسم الرائد ، شاعر يعد و به عنفوان الشباب فلا يلبث لهم خاد ما طاعاً
غاسلاً لأقدامهم راوياً لظمأهم مقاسماً أيأهم بردته . وإذا ما انتقدته الساحة والميدان ،
فلأن السما "مدى غايته" ضاقت به فتسارت بالسجن الذي أودع فيه . لهذا افتقدت
الساحة والميدان وافتقدت الأهل والخلان ، شاعرة فلسطين فدوى طوقان ، وقد كتبت اليه
بعد ما شقت قمائده الثائرة حـدائد زنـانته . فرد عليها من موقع السيد - الناثر الذي
لم تتسع له السجون لما لم تستطع خفض جناحيه ، ولم تستطع عقل لسانه ، فرد معارضاً
قصيدتها بتأكيد المطلق:

أنا مثلما شئتني أن أكون
وأظماً والكأس في راحتي
وأعزى وملء شبابي الحياة
أريد الحياة لشعبي الجريح
واسنا نرى في قافية الباء المسكنة الا
رغبة الشاعر بالاستقرار والسكون وفق رغبة واضحة
عن طريق عهد متفان ومشاعر ليس أصدق منها يقرها من
وضع اصبعه في الجرح حتى
أيقن ان فلسطين وطنه لم يضيّعها الا الملوك والحكام في تلك
الحقبة التاريخية التي قطرت
ورزدها دماً ، فراح يصرخ بملء فمه ويسنّ يراعه : ايها الزعماء ، لم الكلام ؟ " هذه
القدس فحزروها " و " أنقذونا أو فاتركونا " ، أيها الحكام " اليها ... إلى الحرب " (٢)
يا أيها الذين ظنكم الشعب أحلاماً جميلة فتبيّنتم أفاعي رقطاء ... كلّم بلا استثناء . ألا
يحق للشعب أن يكفر بكم وأن يزري بعد يدكم !

أجل ، كان لنكبة فلسطين أثرها العميق في العروش والكراسي المهترئة إذ تترجمت
على يد الشعب في مصرغداة أن قلب " الضباط الأحرار " الملك البائد " فاروق " الشاهد
الأول على النكبة وقد برز الضابط جمال عبد الناصر حاملاً من معارك فلسطين جرح الرجولة ،
فأصبح حاكماً لمصر عقب ثورة تمّوز ١٩٥٢ ، فراح بينها تأهياً لريادتها حركة القومية
العربية ومُتخذة من تحرير فلسطين هدفاً أولياً . وما إن سار في الشوط مسيراً مشجعاً
ملحوظاً ، حتى هال الامر القوى العدوانيّة متمثلة في بريطانيا وفرنسا والعدوّ الصهيوني

١- قصيدة " من الأعماق " ، الآثار الشعرية ، ص ٣٥٠ - ٣٥١ .
٢- القصيدة نفسها ، ص ٣٥٠ ، وهي رد من كمال على فدوى طوقان عندما كتبت اليه
قصيدتها " المنزرد السجنين " بعدما تعرّفت الى اسلوبه في الكتابة وهو يوقع باسم
مستعار من أماكن اختفائه في فلسطين . وقصيدة الشاعر والشاعرة مثبتتان في آثاره
الشعرية من صفحة ٢٤٦ - ٣٥١ .
٣- هذه عناوين بعض مقالاته السياسية اثر النكبة كما مرّت مدنا في الفصل الثاني من
الباب الثاني ، ص ١٠٢ .

نانقّرت مجتمعة على مهر لإجهاد ثورتها وتغيير خط سيرها المتصاعد برقيًا . وفشل عدوان ١٩٥١ الثلاثي^(١) وتحرّز موقف الزعيم الجديد الذي رفض هزيمة ١٩٤٨ في فلسطين وأثبت نفسه من جديد منتقداً شدّ إليه افئدة الجماهير وبخاصة أهل فلسطين حيث انطلق شاعرنا كمال ناصر ينثي البطل بقلبه قبل لسانه متوسّماً في وجهه الخير والفأل بالنصر . فكان أول زعيم - بعد النكبة - يحظى باعجاب الشاعر الذي وقف يخاطبه بعفوية الطفل المتفائل وقد أحبّ بصدق :

” اليك اليك مددت يميني
لأنّي لمحت بعينيك أمني
وقبلك لم يزد ه النصر يوماً
لا ، ليس مديحاً ، فهو صادر عن نفس كانت قلقة أرقّة فتبيّن لها مستراح . وعن قلب مغتمّ
فانفتحت عليه للنور كوة . ولم يكن مخطئاً في تأييده للزعيم الجديد غير المسوّول مطلقاً عن
النكبة ، فكل قائد جديد بحاجة الى هذا المدّ الجماهيري الذي يمكن أن يحققه الشعراء
لكي يمدّه بالزخم والمطاء والضيء في البناء . أمّا لا يعرف مخبوء الاقدار الا الله سبحانه .
ولكن ، في وقت من الاوقات ، كان كل ذي حقّ مهدير يري على يد ” جمال ” استرداده ، من
هو لاء شاعرنا الذي استبشر به خيراً فقال له :

” جمال . ولي في فلسطين حقّ
هناك على الساحل المسجديّ
أحنّ اليه لذي ملواتي
جمال . نريد انطلاقاً جديداً
غدوت وحيداً على الدرب فاصد
وحقّ شبابك لم أجد
لنا ملعب ظاميء المورد . . .
حنين المسيح الى المدود . . .
ونصبوا الى عالم أجود . . .
سيخلو لك المجد إن تصمد^(٣)

فلنلاحظ كيف يخاطبه الشاعر عاطفياً بإثارة ذكريات الوطن الجميل في النفس ، نفس كل بشريّ مويحتّ القائد على الانطلاق وحده رائداً سوف تكون فرديّته مجلبة للفخار وتحقيقاً للخلود . يمارس كمال لغة الاغراء ولكن بلهجة الواثق من النهاية السعيدة .
وتشاء الاقدار ان تأتلف المطامع الصهيونية مع الاحقاد الاميركية ضد الأمة العربية لكي ينحني هذا ” المارد الاسمر الذي حنّ له العُصر ”^(٤) انخاءة لا شموخ من بعدها ،

- ١- أطلقت اسرائيل على دورها في العدوان اسم ” عملية قادش ” . كان العدوان نتيجة للتحرر المصري العربي المتمثل في صفقة الاسلحة من تشيكوسلوفاكيا في ايلول ١٩٥٥ ، وازدياد التقارب بين مصر والمعسكر الشرقي ، وتزايد عمليات الفدائيين الفلسطينيين ضد المنشآت العسكرية الاسرائيلية ، وتأميم قناة السويس في ٢٦ تموز ١٩٥٦ ردّاً على سحب البنك الدولي عرضه بمنح مصر قرضاً طويلاً الأمد مما اعتبر تحدياً لوجود التحالف الانجلو - فرنسي ومصالحه في المنطقة . امتدّ العدوان من ٢٩ تشرين الاول ١٩٥٦ ، الى ٥ تشرين الثاني ١٩٥٦ . عين أنذرت روسيا دول العدوان الثلاثة بالتدخل ان لم توقف النار فوراً . فانسحبت اسرائيل من قطاع غزة ووضعت قوات طوارئ دولية على طول الحدود وفي شرم الشيخ الى ان سحبتها مصر من مضائق تيران المصرية في ايار ١٩٦٧ ، مما كان سبباً رئيسياً من الأسباب المباشرة لحرب حزيران في السنة نفسها .
- ٢- قصيدة ” الى جمال ” ، الآثار الشعرية ، ص ١١٠ ، وقد نظمت في ٧ حزيران ١٩٥٧ .
- ٣- نفسها ، ص ١١١ .
- ٤- اشارة الى تهديدته ” ألاجيء أنت ” ، الآثار الشعرية ، ص ١١٩ ، وجمال هو المارد المعنيّ .

وذلك مثلما حاولت عام ١٩٥٦ وفشلت ٠٠ فكانت هزيمة في ٥ حزيران ١٩٦٧ ، لكنها لم تنل من القائد المنمنم ، ولم تخرجه من قلب الشاعر لثبات قناعته على أسس منطقية سليمة ، وهو القومي العربي طوال حياته وفي شتى مراحل نضاله . حتى عندما التقى حزب البعث العربي الاشتراكي بالحكم المصري عام ١٩٥٨ ، كان ايمان كمال بالشعب فوق كل ايمان بأي فرد ، كائنًا من كان . وعلى هذا الاساس الذي أرسى أسسه منذ بداية نضاله الجماهيري ، وقف في ضوء بعثيته متجاوزا عواطفه الفردية أحيانا ، يصرح بمبدأه :

” يا رائد البعث ، لا زيفًا ولا ملقا
ولا زعيما ، ولا فردا عبدناه
أعوذ من نزوات الفرد جامعة
ما كان للفرد في دستورنا جاه ” (١)

نقول : ظل كمال ناصر قوميًا عربيًا في حزب البعث . وقلنا : توزعت قناعاته مرحليًا فيما تداخلت المراحل تبعًا للظروف والتجارب التي تعزز الحقيقة عمادها . الزعماء أنفسهم الذين لعنهم شاعرنا ، لعنهم الشعب في جبهة الأمة العريضة ، ولعنهم التاريخ . وحسبهم ان ضاعت فلسطين في عام كانوا هم فيه مترعّين على كراسيهم ملوكًا وحكامًا وسلاطين . لقد دخلوا التاريخ لإرادياً انما في الوعي المتيقظ ، عندما حسبوا أن الزمان تد نام عنهم ، وفي الحقيقة انه ” ما نام بل أرخى الجنون ” .

ه - الثورة وشعره فيها

عاصر كمال ناصر ثلاث ثورات في وطنه العربي . أولها ثورة ١٩٣٦ - ١٩٣٩ في فلسطين . ثم ثورة البعث في سوريا وهو أحد عقائد يمينها وهي الداعية الى تحرير فلسطين والوحدة العربية . والثالثة ، الثورة الفلسطينية المسلحة عام ١٩٦٥ من خارج فلسطين وداخلها ، وقد قدّم نفسه وقوداً للإبقاء على نارها المشبوبة . كان وعيه الأخير أشدّ تفتحاً بعد تكرار المآسي والاجهazات في أيام النضال السابقة . لذلك ، حين انطلقت الثورة الأخيرة ، وقف عام ١٩٦٦ منشداً قصيدته فيها وقد سماها ” الضوء الأخضر ” (٢) على ما تعمل التسمية من تناوّل مضاعف: بالضوء الأخضر وهو نقيض عصر الظلمات ، وبالاخضرار وهو رمز العطاء والفرح . فتأون الثورة بذلك فعلاضوءاً أخضر وقد سلّطه على مضمون القصيدة ” مدينة الأموات والغرائب القتيلة والسكون والسبات والشحوب والرفات ، والخزي والعهر والحجز والفناء ” ، سلّطه على كل هذا لكي تحقّق الثورة الضوء — معجزة ” دبيب السنا على الدّنس ” ونحن ، بني البشر ، أقدّر الخلق على نصور سريان الدّبيب في الأوهال وخاصة دبيب السنا المنتزع من صورة غزو الصباح لفلول الظلام حين تتصل السماء بالأرض اتصالاً محسوساً بوساطة الغيوم البيضاء التي تطمع الانسان ببيكانية القبض عليها .

١- قصيدة ” وأنما هزّنا في بحث أمّتنا ” ، الآثار الشعرية ، ص ١٢٢ .

٢- الآثار الشعرية ، ص ٤٠٢ - ٤٠٤ .

ويدور الشاعر في الفلك الثوري نفسه ، وقد أصبح " المارد الجريح " ثورة " تفتح " الكوى للأمامي " فالمارد إذن ، مصدر نور وأشعاع .

" قد صحا المارد الجريح فهذي
طلقة تفتح الكوى للأمامي
سمعتها الدنيا وضج لها الكون
الاعاصير والعواصف والبرق
طلقة الفتح ثورة وشعار
وصداها على الدنى انذار
فكّنت سلاسل وإسار . . .
تلاقت فسالت الامطار " (١)

وأصاب الشاعر الثائر في وصف ثورته من حيث دقة التعبير وقد فتح الكوى التي تفتح عادة لدخول النور في قلب الظلم . ومن حيث الإيحاء في صورة المارد فإنه جعل محتواه بعد جرح ابرازا لعنف الانتقام فيما بعد . ومن علامات الثورة ، اجتماع " الاعاصير والعواصف والبرق والامطار " وهي صورة لطوفان نوح القديم الذي أهلك الشر وأبقى على من يستحقون الحياة . كذلك الثورة توجه " الانذار " الى اعداء الشعب والوطن . وكما ناصر من أقدر الناس على التعبير بأسلوب خطابي مؤثر في النفوس عن الثورة الأمل وقد واكبها مذ كانت عملا فردياً وتلقائياً كاستجابة فورية للحدث الجلل والخطب الداعم . ومن قصيدته الخطبة " خالد مات " الى قصيدته " إننا حملنا عن المصلوب رايته " (٢) وقد جعل فيها اللفظ وصحبت الموسيقى وتوثبت الحركة . . . كيف لا يكون هذا وهو يدافع عن رمز الثورة وحامل لوائها !

" جَلّ الفدائي عن شعر يراودني
يبصره في جحيم الليل عاصفة
يطارد الخطر المنشود ولمهانا
في كل دالية تكلسى ورابيبة
يكرّ ، يزحف ، يدنو ، كل ثانية
كأنما المدافع الرّمّاش في يده
فقد حشدت له الأعطار أوزانا
وفي الضحى دمة تنساب تحنانا . . .
ويلتقي القدر الموعود نشوانا
أعدّ قبرا له منها وأكفانا
تكاد تجعله حيا ، وجثمانا
طفل ينام على زنديه جذ لاننا " (٣)

بهذا النفس الملحمي والاندفاع الخطابي الحماسي ، يطلع علينا الشاعر وسلاحه التشبيه المبتدع للرّمّاش بالطفل ، وتلابق التضاد لصورة الثائر عاصفة في الليل رمزا للرجولة ، رد موع تحنان في الضحى رمزا للطفولة . والتضاد الحركي الذي تكمن روعته في قدرته على إكمال جانبي اللوحة فيما بين مطاردة الخطر والتقاء القدر . في الحركة الاولى يدفعه ولده ، وفي الثانية نشوته . اما الاندفاع فيبرزه " الكرّ والفرّ والدنو " وكل ذلك في ثانية بحيث يوحي الشهيد للناظر بأن الثائر يضيع " روحه على راحته " فيلتبس الامر ، هل هو حي أم شهيد ؟ بين البطولة والطفولة عاش كمال حياة طويلة ، فجاء الفدائي الثائر لكي يستمر في تجسيد أحلامه ان يسخر الشاعر له أعذب أناشيده ويخلع عليه أفضح الالقاب ، ويرسم له في الخيال صورة لا تتزعزع ولا تتشوه . . . **وها هو يصرخ نافيا مؤكدا ان الشهيد لا يموت:**

- ١- قصيدة " خالد مات " ، الاثار الشعرية ، ص ١٥٥ .
- ٢- الاثار الشعرية ، ص ١٤٩ .
- ٣- القصيدة نفسها " اننا حملنا " ، ص ١٤٩ - ١٥٠ .

"لا . . لن يموت انبياءنا الصغار

فمقلة الليل لها ، من كبرها نهار . . .

كأنما الحياة قد تملطت وجددت أحلامها . . .

فاستيقظت على جراحها

براعم الشعار" (١)

لم يستسغ غير "أنبياء" لقباً لشهداء الثورة ، وما عساه فاعلا أسى من هذا الرفح! وحين أراد القول بأن الحياة قد تجددت بهم ، لجأ الى التشبيه "كأن" من باب ارادته التأكيد أكثر من التشبيه ، ذلك أنه فتح "براعم الشعار" ، ثم انه استعار الليل مقلة جعلها نافذة لنور النهار على الليل فربط ما بين البراعم والثور على سبيل التفاؤل بالغد المشرق بعد انتصار الثورة .

تنفس كمال ناعمر ثورته الفلسطينية صباحا ومساء . ألقى عليه القبض مرارا متلبساً الثورة مخبئاً أياها بين ضلوعه وفي مسام جسمه . ولما استلواها من غده المخابي ، خر صريعاً وما خرت الثورة .

كان هذا الجانب المضاء من ثورة "الفتح" التي انطلقت في مطلع عام ١٩٦٥ وقد عاشها الى ان سقط عنها عام ١٩٧٣ وما فتى يردد أن الاشخاص سيزولون ، أما الثورة فسوف تبقى . كان متفائلاً وما لان الثائر لا يتشاءم . وكان بلبل الثورة والبلبل لا يكف عن التخريد . وكان شاعرها الذي نضج بها وارتقى الى مرتبة يصح عندها القول بأن أدبه "مصنع الجمال والحق والخير ، فهو لا يهرب وإنما يفوض في أعماق الواقع يبارك الجمال والحق والخير ويحارب كل من ينحرف وينهبط بمستواها الاخلاقي الكبير . ورجال أدب الثورة أدباء انسانيون لأن أدبهم انساني ، أدباء احتضنوا واقع مجتمعاتهم وأحسوا باحساسهم مشاعرهم ، أدباء لم يهربوا من آلامها الى مكان لا ألم فيه" (٢)

هكذا كان كمال ناصر الذي غنى ثورة الجزائر ، وكتب عن ثورة أريتريا وكل ثورة عربية حيث كان في أدبه عربياً صميماً يشده مصير الانسان المعدب اينما وجد ، فكيف ببني وطنه بالذات ! ولعله أدرك منذ البداية ختميتين متناقضتين ، الاولى ثورة الشعب المكبوت ، والثانية انتهاز أعدائها الفرص للانقضاض عليها . لذلك بنى ختميته الثالثة أن الثورة سوف تنتصر ، واستدرك قائلاً:

"ما علينا في حمانا لو بدا
منطق الوثبة أن نجني المنى
كل يوم خائن أو مجرم
والمنى شعب وقلب ودم" (٣)

فرسم أركان تلك الثورة ثلاثة : الشعب ، وكفى عن ارادته بجسارة قلبه " ، وعن استمرار

١- قصيدة "الانبياء الصغار" ، الاثار الشعرية ، ص ٢١٣ .
٢- محمد الشرفي ، ممثل اليمن في كلمته أمام "مؤتمر الأدباء العرب الخامس" ببغداد ١٩٦٥ ، القسم ٢ صفحة ٦٤ ، وقد اشترك في المؤتمر أكثر أدباء الاقطار العربية .

الثورة " بالدم الذي تبذله توائل الشهداء بعد أن ران على الوطن العربي ظلام مطبق ،
وحدات الحاجة ملحة الى الانبعاث من جديد . وتحققت بوادر الامل في ثورة " البعث " :
" لا تسأل عن حاجة الشرق ، فما
حاجة الشرق سوى بعث جديد " (١)

وأننا بالشاعر في قوله " لا تسأل " قد أراد القول بأن هذه الحاجة تحصيل حاصل ، فدعوته
الى الكف عن السؤال تحمل معنى الختمية البدئية ، والبحث هو الطريق الثوري . فجهر
بفلسفته الخاصة :

" البعث نبضة أصيلة يعرفها الخلود
وحاجة جاءت تلبي مرخة الوجود
غريبة على الذين انشطرت أرواحهم . فانشقوا
وفي غد
ربما تدر كهم حقيقة الحياة في الوجود والعدم
فيعرفون كيف يولدون في المنون
وكيف يولد المنون في الحياة
ويعرفون البعث . . كالحياة
ثورة خالدة وحق . . " (٢)

وهكذا شبه البعث بالنبضة تشبيهاً بليغاً مطابقاً تمام المطابقة والنبضة تعني الحركة في
سيرة حياة البذرة من تملئها البدائي تحت التراب حتى أوج عظامها وزهوها . وفلسف
الثورة في طرفين : الحياة بالموت ، والموت بالحياة ، وقد استمد فلسفته الجزئية من
مصدر واحد ذي وجهتين : فالمسيح هو المصدر ، الوجهة الاولى أنه كان لا بد من ان
يموت لكي ينبعث من جديد الى الحياة . والثانية قوله ان حبة الحنطة ما لم تقع في الارض
وتمت فلن تفرخ وتعطي قمحا وسنابل .
ولو ألقينا نظرة على ثورة " الفتح " وأخرى على ثورة " البعث " ، لألقينا ذاك الارتباط
السري بينهما من حيث أن الشاعر أنعم على الثوار الشهداء في الاولى بالنبوة " ثم عاد
فأنعم عليهم في الثانية " بالنبوة " الجديدة وهي الحياة الباقية .
كان كمال ناصر نائر النفس قبل أن يكون نائر الجسد ، ربط مصيره بعجلة الوطن
وشد نفسه الى ثورته على أمل الوصول الى الحرية . يهمننا هنا اللفت الى أنه لم يكن يأمل
بذاك الوصول لنفسه " وإنما لأبي جيل من أجيال وطنه يظل مستمراً في رفع لواء الثورة . أما
هو شخصياً فقد رأى ان " شرف الوثبة أن ترضي العلاء ، غلب الواهب أم لم يغلب . لهذا ،
عمل لشعبه ووطنه قبل نفسه بدليل أن روحه تماوت عن كفه في مهاوى الردى ، ولكن
" كالأنبياء الصغار " الى مراع الخلود .

١- هذا البيت من قصيدة طويلة منشورة قديماً في جريدة (على جزارة لدي) لا دليل
على اسمها ولا تاريخها ولا مكان صدورها .
٢- قصيدة " وقيل مات " ، غير منشورة ، لدي من مركز الأبحاث الفلسطينية - بيروت .

و - الجيل الجديد

يريدون من شجرة الزيتون المعمرة أن تظل على مستوى عطائها الاول ، ولا يريدون اجتثاث غصونها الجافة . ان الشجرة المثمرة ، عندما يضعف عطاؤها ، تقلم أغصانها الجافة لتسترد الندية منها نسغها الموزع على ما عداها وإلا فأمام صاحبها حلان : إما أن تطعم ببراعم جديدة ، وإما أن تفلح ويستعاض عنها بأصاب جديدة فتيّة .

آمن شاعرنا بتوقف جيل النكبة عن العطاء المرجو ، ربما ياسا من الماضي ، وربما من الواقع الجديد تحت الانتداب العربي . واتجه ايمانه الى جيل غير مسؤؤل عن الماضي ولكنه مسؤؤل عن تسيير آثاره وها هو يزف " الجيل الجديد " من الشباب المعقود بسواعده الأمل والخير ، يزقه الى الشعب بأبيات من قصيدة تتصارع فيها قوى الشباب وقوى الظلم ، فيكون النصر المحتم الى جانب الشباب . . . يقول والفن يملأ جوانحه :

قد تلوى من غمده مسلولا	" خبّريهم بأن جيلا جديدا
فأضاءت به العيون نزيلا	أطلقتها الآلام من مقلتيها
وفؤأدا علبا وسيفاً صقيلا	وحبته الجراح روحا جريئا
حاملا في ركابه المستحيلا	أقسم المجد أن يمر عليه
عبقرياً في عمرنا لن يزولا ^(١)	علمهم بأن للشعب يوماً

في قوله " خبّريهم " توجه الآمر الى " بقايا الحنان " بالذات لكي تكون شاهدا ومبلفاً للأعداء بأنه :

" اذا رأيت نيوب الليث بارزة
فلا تظنن أن الليث يبتسم " (٢)

وكما استعار للجيل تلوي السيف في غمده ، فقد استعار لليوم الثوري صفة العبقريّة وهي أكثر الصفات مبالغة غير مستحيلة .

قد تثبت الثورة في تربة الفقر والبؤس أكثر مما تثبت في تربة الترف والرفاه ، وفي نفسي الأولى يبدأ الشعب تملطه ضد الفقر والبؤس ، ثم تحركه ضد السادة الباسطين ظلالهم المخالكة عليه ، ثم تفجيرهم للواقع ككل ، وصولاً الى مختصب الوطن الجميل . ولا تنمو الثورة بدون بذور ، ولا تعلو بدون جذور . كذلك ، فإن الشعب الفلسطيني الذي صنّفه العالم قطيعاً من اللاجئين ينتظر بالذور عطايا الطحين من أيدي الجلادين أنفسهم ، قد ذهب الزمان بذلك وحلّ ومن الثورة ، وفيه :

" حَبِلَ الحقد بالقطيع وثارت	شهوات الجراح في الأغنام . . .
سئمت حفنة الطحين على الدّل	وعافت في الجود خبز اللئام
وأشاحت عن كل بذل رخيصر	منج السّم والردى في الطعام
ان دمّ التمساح في الخبث أزرى	بحنان الذئاب في الآجام . . .
لم يعد للوثام في الشرق معنى	أتخم الشرق بالرضى والوثام ^(٣)

١- قصيدة " صراع وانتصار " ، الاثار الشعرية ، ص ١٦٦ - ١٧٠ .
٢- المتنبي . شرح ديوانه ، وضع عبدالرحمن البرقوقي (مصر : مطبعة السعادة) ، ٤ : ٨٥ .
٣- قصيدة " عودة الثائر " ، الاثار الشعرية ، ص ١٨٢ - ١٨٣ .

استعار الشاعر الحبل للحقد ، وشدة الضغط تولد شدة الانفجار ، كما جعل للجراح شهوات تنور كمثل ما جعل للمارد الجريح صهوة رهيبية . أما هنا ، فالصورة تختلف عن المارد حيث ان الاغنام الميؤوس من نورتها ، قد نارت فعلا لكرامتها فكانت الحكمة المضمّنة في البيت الرابع ، والحقيقة المقررة في البيت الاخير انه لا يمكن ان يجتمع الفقر والغنى المتطرفين على أرض واحدة وإلى الأبد ، كما لا يمكن أن يعيش عدوان على ارض فلسطين ، فإنما شعب الشاعر وإنما أعداؤه .

ولم يكن كمال في وسط حشود الجيل ولا في جانبهم ، بل في الطليعة التي لم يكن يرضى بأن يسبقه أحد اليها وإن كان يرضى بأن يكونوا جميعا الى جانبه فيها لكي يمارس ، بلذة ، دور المعلم الأكبر والخطيب المقنع والهادي الحكيم فنسمعه يتوجه الى سائر قطاعات الجيل الجديد بأسلوبه الطفولي البريء كأنه ، في شبابه ، شيخ جليل وقور سكبت فيه تجارب الحياة من الحكمة الكثير الكثير . ويكل هدوء يتول :

يا أيها الجيل من أبناء أمتنا
بعض الجراح اذا غيّبتها التأمّت
لا تخمدوا ثورة الايمان في دمكم
والكون لولا دماء الشباب لشاخ وهمم وتناثر كالهباء ، فليكن العلم سلاحا حادًا موجهاً :
"والعلم ، إن لم يكن للبعث غايته
وليكن كل واحد منكم "سقراط" عصره ورسول زمانه ، فلا السّم ولا الاضطهاد والتشريد ، حتى
لا الصلب يقوى عليكم ان كنتم محقّين . . .
"ولا تخافوا فقول الحقّ مرحمة
ومن تعصّب عن وعي لأمته
فكل مجتمعت في صدر وثبتته
انها حكم كشفتها تجاربه وعمّقتها في الحياة التي أمضاها بين كرفرف ، فثبت لديه انها
فضائل هي :التعصّب الأعمى للوطن ، والثوب حتى اذا لم يكن له في البدء غلبة ، وقول
الحقّ ولو على أسنة الرماح . ولا يفوته أن يلفت الى الواقع الملزم للشباب بتغييره من الجذور ،
وهذا الواقع المزري تولّد عندما صارت "الدمى تحمل الألقاب" التي خلعتها عليها الاستعمار
ولو شاء لخلعها عنها .

السؤال الممكن طرحه هنا : هل نجح الشاعر في بناء جيله الموعود ولو كانت مساهمته فيه ضئيلة أو أكثر مشاركوه في المهمة ؟ وماهي الدلائل على نجاح الجيل الجديد الذي قيل عنه في الثورة : "أطفال اليوم أبطال الغد" ؟

١- قصيدة "جريمة الأمس" ، الآثار الشعرية ، ٩٣ .

٢- نفسها ، ص ٩٤ .

لم يستطع كمال ناصر، طيلة حياته، أن يدرك خارج جاذبية مسيحيته الأولى ذات الوجه الحضاري المشرق منذ أن سقط السيد المسيح أول وأعظم شهيد ليفتدي بموته سائر بني البشر. ومن قدسيته، يستمدّ شهداء الثورة الفلسطينية، عند كمال، قدسية خاصة حيث يسمّونهم "الأنبياء الصغار" تيمناً بالنصر المائل لنصر الأنبياء الكبار. ولأنبياء الثورة، شهدائها، يبدع شعره وينظم لهم غاره أكاليل... حتى باكورة إنتاجه الأدبي "جراح تخفي" (١) يهدىها...

"الى الذين برعموا في مقلة الجراح
واستشهدوا ليولدوا في ثورة الصباح
الى رفاق الموت في مواكب الحياة
فدّل واحد في موته اله
الى الذين دفعوا ضريبة الوجود
الى الذين مزّقوا اسطورة القدر
ولوّنوا تاريخهم بعاصف الشر
لأنبيائنا الصغار أبداع النشيد
ملاحما ينزرونها الوريد للوريد
فأنبياءنا الصغار عالم جديد
يموت والعلى به أدري بما تريد..."

والدوران هنا بين الرموز المتعارضة في تكامل: "كالموت والحياة، والدفع والتمزيق، والاستشهاد والولادة" دوران عناء الشاعر لتصوير واقع حال الثوار الذين يهدى إليهم شعره، فهم ليسوا أحياء لا يستشهدون، وليسوا شهداء لا يحيون، لأن حياتهم في استشهادهم تتحقق وفي حياة شعبيهم الكريمة ووطنهم الحرّ. وكمال ناصر واحد من شعراء فلسطين الذين لَوّن الشهداء أشعارهم حتى ليقول واحدهم في الشهيد قبل أن يقول في شؤن القلب وشجونه، بما فرضوا عليهم من بطولات وشوارق جاءت بعد طول احتجاب.

الأمّهات يحضن أبناءهنّ على انتداء "فلسطين العروس ومهرها الدماء" (٢).
وامرأة يسألها صغارها عن أبيهم الذي كبروا في غيابه، بم تجيبهم؟ أن أباهم، على غير ما هاج أباً فراس الحمداني حزن بنيته، كتب يطمئن زوجه:

"هبيبي!

إذا ما أتاك الخبر

١- صدر الديوان عن دار الطليعة - بيروت ١٩٦٠، وهو واقع ضمن آثار كمال الشعرية المنشورة من ٢٢١ - ٣٥١.
٢- من أقوال الثورة الفلسطينية، أطلقتها حركة التحرير الوطني الفلسطيني عام ١٩٧٠، شعاراً لاستنهاض الشعب الى ثورة التعرير.

وصاح النعاه . . .

فلا تبكي ، وابتسم للحياه

وتل لوحيدي ، لأنني أحب وحيدي

أبوك رومي شعبه

أهواءت دجى قلبه

وحطت على دربه

شظايا فكره

رأى الظلم يدمي رياه

فتار الى مبتغاه

وكان شهيدا

وكل شهيد إله . . . (١)

ولكن طمأنته لها هي من قبيل الكبرياء والقناعة بكسب الشهادة لكي يستحق لقب "الإله"
وقد كان من قبل "نبيا صغيرا"، فهو وحده يتقدم الى الموت راضيا به رافضا للعبودية
في الحياة . عبر عن هذه الحقيقة أهدق تعبير ، الشاعر الفلسطيني في معرض ردّه على
حبييته تسأله طفلا :

أعذك من عبد له خلف (٢)

"أتعلمين بطفل قلب والده عبد

معاذ العلى ، أى شاعر يمضي الى المعالي ويتوب ! وأى ثائر يوثر حياة الدل على موت
النسور ولا سيما أن موته دين يوقيه للوطن الى ان تعود له الحياة الكريمة ! وهكذا ، في
رأي شاعرنا ، فإن لكل كنز ثمنا يوازي قيمته ، وكلما غلت غلا . . . ترجمة هذا أن . . .

"من سار في درب العلى

لا بد أن يموت . . .

في موكب الإباء والشّم

لأننا في موتنا نستلهم العياة

نحقق الحياة

ونخلق الحياة في العدم

ضريبة الوجود أن نسمّر الوجود

وأن نسمد الوجود بنشوة الألم . . . (٣)

١- قصيدة "الوصية الأخيرة" ، الآثار الشعرية ، ص ٢٤١ - ٢٤٢ . أما اشارتنا الى

أبي فراس فني قوله لبنيته هو خارج للمرة الاخيرة وقد رآها تبكي :

"أبنيتي لا تجزعي كل الأنام الى ذهاب

قولي اذا ناديتني وعييت عن رد الجواب

زين الشباب أبو فراس لم يمتع بالشباب

ديوان أبي فراس الحمداني (بيروت : المطبعة الأدبية ، ١٩٠٠م) ، ص ٥٥ .

٢- راشد حسين ، ديوان الوطن المحتل جمع ودراسة يوسف الخطيب (دمشق : دار

فلسطين ، ١٩٦٨) ، ص ٥٥٢ .

٣- قصيدة "رسالة الشهيد" ، الآثار الشعرية ، ص ٣٠٧ .

وشاعرنا الذي يسير في درب العلى ، يعرف مسبقا أنه ساعر الى موت الجسد . ليس لغزا قوله : "ضريبة الوجود . . . بنشوة الألم" ، ففي الموت خلق وتعمير للوجود وتعميد ، كلها حقائق يبني عليها وقد أبرز الموت مطمعا . ولو كان الشهيد يأبه عندما يسقط ، الى أن الألوف خانعون ، ومئات الزعماء متراخون . . لو كان ذلك عقبه ، لما أقدم ولا كان له في الحياة أثر فكيف بالممات ! ولكن الشهيد في حياته كان أكبر من الجميع ، أسى من العلاء وأرفع من عمد السماء وهذا سر نبوته ، وهذا سر عجزه لعالمنا الى الملاء الأعلى ، فهو ما استشهد إلا قصورا منا ، فنحن أمدنا في قتله وتخاذلنا شعوبا وحكاما عن نصرته :

لندكي وجوده ونعيده . . .

"ربما ربما نكون قتلناه

في العشايا أحلامه الموءودة" (١)

كان يستقي بحبه ويداري

ولسنا نرى في تأكيد الاحتمال "ربما ربما" الا تأكيدا لواقع لا يدركه الانسان الا بعد فوات الأوان . . بعد الشهادة . فهل عرفناه . عبق المعرفة ؟ وماذا فعلنا لتكريمه غير التصويت فيما يكون عرفان الفضل بالسير على الطريق ذاتها ، أو على الأقل ، بقتل أسباب مقتله من تفرق وتناحر واستنزاف لطاقتنا المادية والبشرية ؟ وكان شاعرنا يعرف أن نهايته كذلك البطل الشهيد الذي . . .

سرق المجد عمره وجهوده

"لم يكن طارئا على المجد لكن

المجد ، وقد يظهر اسمه في جريده" (٢)

وغدا قد يموت . . . واضيعة

في هذا البيت الاخير ، يطرح كمال حقيقة مساوية تتمثل في الترحم على بطل صريح كان ممكنا انقاده بمساعدته لو تحركت النخوة في الشرايين . ومن أشكال الترحم ، غير الخطب الرنانة ، إدراج اسمه في "جريدة" أو أكثر . وحتى هذا الإدراج تسبقه "قد" التي تفيد تكثيرا كما تفيد تقليلا على قدم المساواة . ولكننا نميل الى ارادة الشاعر بها التقليل ، تحريكا لمشاعرنا بالحزن لمشهد الجراح المتجددة في جسد الثورة . ولعلنا تعبنا من التصويت فسخرنا أقلامنا للمهازل في صحف كان هدف اصدارها مقدسا في زمن كان للكلمة وقع ، وللمقال مفتاح لسجن ، وكان للرسم نواة ثورة كالثورة الفرنسية الشهيرة في التاريخ الحديث .

يظل الشهيد أسى من كل خيال وأبهى من كل وسام وأروع من أية قصيدة ، لا بل هو نفسه ترنيمة الحياة الأعذب وقد أبدعها الخالق وصعد لها المخلوق . في هذا الجو المضغ بالمسك ، تبرز الحقيقة البشعة للموت النادر ، خاصة اذا كان الشهيد بطلا قعدت دون همته الرجال وذلت الحكام وهانت الملوك حتى عد استشهاده انتحارا في إصراره على مقاتلة الكثير الكثير بالقليل القليل . وشاعرنا ، لشد ما يزهو بالبطل الشهيد عبد القادر الدسيني ، لشد ما ينزع من المتبني في وصف أبطاله ، وصادم بطش الموت ببطش السخرية :

١- قصيدة "الثائر القائد" ، الاثار الشعرية ، ص ١١٨ .

٢- نفسها ، ص ٠ ن .

أيها الموت تبه علينا وفاخر
أنت لم تطووه صغيرا ولكن
انت لم تطووه جباناً ولكن
كم تحاشيت أن تراه فألوى
دونك النعش، هل ترى من عليه؟
رددي صوتها الشجي وضجي
زارك اليوم فارس عربي
لم يطش سهمك اللثيم الغادر
قد تداعت في مقلتيه الكبائر
قد تهادى اليك نشوان ظافر
ليتحدّاك رابط الجأش نائر...
تلك أنشودة الجهاد الطاهر
يا ليالي وزغردى يا مقابر...
عانقيه، فذاك عبد القادر (١)

وليس عبد القادر أولاً ولا آخر عظيم يستشهد، فإن المجد الأثيل صفة لازمة لهذا الشعب الذي لم يفارق الكسوف شمس ولا الخسوف بدرة. ومع هذا الاجحاف العلوي والانساني معا فإننا ..

" ما اغتصبنا المجد الأثيل ولكن قد ورتناه كإبراهيم بعد كابر (٢)

اننا امام صورة للموت الغادر يقف مشرباً بعنقه فوق البطل الشهيد وليس يدري الموت أنه أكسب ضحيته مجداً وفخاراً وحياة عند ربّه، فما أكثر الشهداء يروون التراب المقدس! وما أكثر الجراح في جنبات الشعب المتأرجح بين الموت والحياة! وما أكثر الخيام تضم اللاجئين وقد غطت مساحات شاسعة من الوطن العربي ولا تزال بمن فيها شواهد حية على أذى البشرية دامت أكثر شعراء الوطن الملتزمين بقضاياها الثانوية التزامهم بنهايات الجوهرية، الى التخيّي بالبطولات وتصوير الخيام - عبوات البؤس في هياكلها وقد تحوّلت بالثورة، وبالثورة وحدها، الى عبوات متفجرة يوم أن حملت السلاح بسواعد فتية تطلقها نظرات مشعة بالأمل ويتقارب النصر خطوات اثر خطوات. لم يفت الشعراء شيء من هذه الظواهر الباعثة على الفأل والرجوع الى منابع الإيمان وأنّ الوطن هو الانسان في معادلة الكينونة.

ليس الوطن أي مكان يرتاح فيه الانسان، بل هو مكان واحد خلق فيه سواء ارتاح أم شقي. وكما رأينا، فهو الأم الأولى ثم من ولدتنا. نضحّي بالثانية في سبيل الأولى، والعكس لا يكون أبداً. المحقّق الحق، قال كمال ناصر لأمّه:

"دموعك كفر، فلن ترجعيني ولن تضحيني

فحقي يريد الذهاب الى المعركة" (٣)

أراد الرجوع الى الوطن فلم يتم له ذلك الا شهيداً.

- ١- قصيدة "مصراع البطل"، الآثار الشعرية، ص ٥٥.
- ٢- نفسها، ص ٥٠.
- ٣- قصيدة "الى أمي"، الآثار الشعرية، ص ٢٨٧.

٢ - الاتجاهات القومية والسياسية

أ - مفهوم القومية

ماذا يمكن أن يقال في طرح الثورة لمنطلقها : الثورة الفلسطينية فلسطينية الوجه
عربية العمق؟ وما مدى انطباقه على نظرة كمال الى قطرية الثورة او قوميتها استنادا الى
قطرية المعركة او قوميتها؟ نهل كان شاعرنا قوميا بالمعنى الدقيق في نضاله الطويل؟
ما أسرع ما يبادرنا بأبيات قصيدة له :

"أنا من هناك ومن هنا في كل عاصفة أنا
وطني الكبير يحدّه قلبي على هذي الدنا
وطني الكبير تحدّه لغتي وتشعله المنى
وطني الكبير يحدّه التاريخ دريا مؤمنا
أنا من هناك ولم أزل في بعث أممتنا هنا ١٠٠" (١)

فهو إذن ، قومي عربي ولا يمكن لفلسطينيته التحقق بغير النظرة الشمولية للأمة العربية
على أساس مقوماتها الأساسية من مشاعر جامعة ولغة واحدة وأما نبي مشرقة وتاريخ مرتبط
بمسير مشترك. هذا التاريخ ، لو أدرك الحكام أهميته ، لما تنازلوا عن فلسطين التي
لا تبعد دقائق زمنية عن أطراف الوطن من محيطه الى خليجه . حسب كل حاكم أن ينجو
بنفسه .

وشاعرنا في "أنشودة الحقد" (٢) داعية للثأر لفلسطين على أجنحة بساط الريح
المقرب بين ما شئت الحكام ، مذكّر بأمجاد الماضي وبأن التاريخ لا يعيد نفسه الا بإعادة
سير رجاله . ولن يكون تاريخ مشرق من دون وحدة الوطن ارادياً ومادياً وتنظيمياً فيتحقق
حلم الشاعر الذي طالما راوده مذوى شتات الأنظمة قبل نكبة ١٩٤٨ وحتى نكسة ١٩٦٧
وما بعدها ، ومنذ أن كتب أول مقالة في الثورة المعاصرة داعياً الى توحيد فصائل المقاومة
ومختتماً آخر مقالة بمثل ما افتتح . (٣)

وشرع يجمع قواه مناضلاً ضد الاحلاف الاستعمارية داعياً الى الوحدة العربية الشاملة
التي لن تقوم للأمة قائمة من دونها ، حتى غدا شاعرا أكبر للقومية العربية . كان يؤمن
بعبقرية الوطن الكبير وجبروته لو توحد ايمانه بأن القوى الاستعمارية حين عمدت الى
تقاسمه رقعة رقعة بعد الحرب الكبرى ، فلكي تتفرق الأعواد آحاداً . وليست وحدة مصر
وسوريا الا خير دليل على ايمانها بها من أخطر صيغ الاتحاد ضد الاحتلال .
وإذا كتبنا رأينا شاعرنا متلبساً بالالتزام تلبس الجسد لجلد ، فذلك من صلب تبريره
لإنسانيته المتكاملة . اذا رضي بالعيش في الوطن الأكبر ، فلن يكون ذاك قبولاً به في ظل

١ - قصيدة "أغنية جزائرية" ، الآثار الشعرية ، ص ٢٩٣ .

٢ - الآثار الشعرية ، ص ١٥٧ - ٢١٨ .

٣ - يبدو وهذا واضحاً لكل من يراجع تلك المقالتين في آثار الشاعر النثرية المنشورة ،
أو بالرجوع الى ذلك في محفوظات مركز الأبحاث الفلسطينية من أعداد "فلسطين الثورة" .

وجود وطن أصغر لا يستطيع العيش فيه . . . الجسد واحد ، وكل أذى يصيب عضوا ، تهب
الآخرى لمداداته . ولا يكون للإنسان هنا إلا في وطنه الأول وقد عبر عن معاناة شاعرنا
الفعلية شاعر عاش أكثر حياته مثله مبعدا عن وطنه قال : " خير للإنسان أن يكون في
السجن في وطنه ، من أن يكون ملكا في المنفى . . . أن على الفنان أن يخلق صورة مصغرة
لوطنه أينما كان . . . أن كل شيء ينبع من الوطن . حتى الجنة بالنسبة للشاعر منفي إذا
لم تكن الجنة هي وطنه الأصلي " . (١)

كذلك ناعمر الذي عاش خارج الوطن في منفي كبير ردحا من الزمن ، استطاع أن
يخلق صورة مصغرة لوطنه ولكنها لم تشبهه تماما أو تغنيه عنه . عاش في أقطار عدة فساءه
أن ينرق حكماها في اللذة السمية ، بينما يغرق أهل وطنه في البؤس والشقاء . ولو
كان الحكام أبرياء من وطنه ولا يستطيعون شيئا ، فأضعف الإيمان أن لا ينساقوا في
الأحلاف التي يخطط لها الاستعمار نفسه الذي خلق الوجود الصهيوني ، فيحذر الشاعر
الحاكمين ليروا الشعب السملاق في معركته بتوله :

خشوعا للشعب في ثورانه
ويهدنو للحق في بهتانه
سوف ننجو من ذلّه وهوانه (٢)

"أيها الكافرون في ثورة الشعب
يتأبى أن ينحني للأضاليل
شرك باسم شعبنا نصبوه

ب - الوحدة العربية

هناك البديل . . . أحلاف تستدعيها حاجات الشعب الواحد في أقطاره ، هي
الوحدة القائمة على أسس وركائز وطيدة عميقة لكي تستطيع التصدي للعواصف المحيطة
بشراستها واستمرارها ، فالوحدة - الحلم المتحوّل الى حقيقة منقذة ، تستطيع أن تخلق
حقيقة جديدة تبلمس جراح الماضي . . .

في وحدة كبرى تلمّ الجراح
يطلّ بالنخوة شاكي السلاح
اليوم يحلّو في رباك الصداح
يخمر بها العرب فخر مباح (٣)

"أشهى المنى ما نبضت بالكفاح
كأنما التاريخ من حولها
فانتفضي يا أمّتي واهدحي
طلّاع الوحدة هذي فلإن

هي خمرة العرب التي أرادها الرسول لشعبه خير شاف مما يعلق بأذ يالهم من غبار المهانة
وأشواك الدّل ، وقد كان يستبق الأمور عليما باتخاذهم النفط خمرة تذهب بالألباب وتنكص
العقول . وما سجّل التاريخ والوجود افتراق أخوين أو رفيقين الأودخل الشيطان بينهما
يمعن تفريقا لنيل مأربه الجهنمي من كليهما . ولما كانت أصابع اليد الواحدة لا تشتدّ

١- الشاعر التركي ناظم حكمت ، وقد ورد في تقديم الشاعر عبد الوهاب البياتي لديوانه
الخاص ، ج ٢ ، ص ١٣٤ ، المقدمة "تجربتي الشعرية" .
٢- قصيدة "لا تلوموه" غير منشورة ، في محفوظات مركز الأبحاث الفلسطينية . كتبها
كمال مندّنا بحلف بغداد الاستعماري المعروف .
٣- قصيدة "من وحي الوحدة" ، الأثار الشعرية ، ص ٢٤٧ . نظمها كمال فور إعلان
نبأ الوحدة بين مصر وسوريا عام ١٩٥٨ .

الا اذا اجتمعت في قبضة ، كذلك يتساءل شاعرنا :

ما ضرّ لو نهضت بندا في وكره
وأجمعت في روابي النيل قافلة
وصافحت اختها بيروت أو حلبا
مد كان تاريخنا أمّا لنا وأبنا^(١)

وقد يما لم يقدر العرب الى انتصاراتهم رجال من القبيلة ذاتها ولا من الموطن ذاته من المكان الفسيح . نحن اليوم في أمسّ مما تقادم عهده حاجة الى الاتحاد ولاسيما أن عدونا أبشع مما مضى . من اين تبدأ الوحدة ؟ بمن وعلى يد من ؟ ما أهدافها القريبة والبعيدة ؟ كلها اسئلة تسقط في الهوامش الثانوية ازاء الخطر المتمدّد للوجود العربي . وهذا شاعرنا يحلّ الإشكال :

ما همنا إن بنينا صرح وحدتنا
ولیکن تراحم الحكام على من يتقدم الجموع النائرة لا على من يتزعمها لكيلا يصحّ فيها القول :
يا أمة ظمئت والماء يغمرها
كأنما وضعوا في مائها الرقبا^(٢)

وما الرقبا سوى ظلال أو هام كما يتخيّلها السائر الوجل في الظلم ، وهي من نسج الذاكرة المنكوبة بنسيان الحبر والتماون بالخطر . لهذا السبب انطلق صوت الشاعر نداءً مرّاً تعجّبيا الى حدّ الاستهجان الذي لم يبرره نفي سببه بقوله " كأنما " فجعل الفعل غير حاصل ولا عذر للظلم . والشاعر هنا يرى من واجبه المقدس أن ينبّه الى مكان النداء لسحقه وإلا فالويل والتبور . يتول :

أخشى الاخلاقات أن تودي بوحدتنا
لن يصلح العرب إلا في تجمّعهم
تلك الحدود التي شئت توتبنا
وكل من يدعي فيها سيادته

الواثق^(٣) من صحة منطلقاته ، يعبر عن خشيته ويؤكد داء الحدود الحاجزة ، وادعاء من أثبت التاريخ غدرهم بشعورهم ، ويتخذ قرارا خطيرا مبنيا على تلك القناعات الراسخة عبر تجارب استغرقتها سنون طوال لم يكن القطيع خلالها نائما عن حثّه ، بل كان الرعاة سادرين لاهين عن حقيقة فعل التنظيم في صفوف الشعب للارتقاء الى مرتبة القدرة على التعويض عن كل خسارة تلحق بكيانه او اقتطاع من جسده . ومذ كان العرب شعوبا وقبائل ، وهم يطمحون بعد الرسول الى صيغة مرضية من صيغ الوحدة لنشر الدعوة والحق والعدل ، فأين أتباع الدعوة من فلسطين وقد ضيع الحق وشنق العدل تحت قوس محكمة الانسانية !

١- قصيدة " جريمة الأمم " الآثار الشعرية ، ص ٩٤ . يذكرنا كمال في أبياته هذه بقول

شاعر من قبل حول الفكرة نفسها :

بلاد العرب أوطاني

ومن نجد الى يمن

من الشام لبغدان

الى مصر فتطسوان

٢- قصيدة " الأجيء أنت " ، الآثار الشعرية ، ص ١٢٠ .

٣- قصيدة " جريمة الأمم " ، ص ٩٣ .

٤- نفسها ، ص ٠ ن .

بدأت قوى الاستعمار في العالم تراقب باهتمام وترى بوادٍ رَأول وحدة عربية ، وخين تحققت روابطها بين مصر وسوريا ، انبرى الشاعر يتحدث بلغة من يقول أخبارا مسلما بها :

” وحدة الحرب لم ينم عنك يوما
عربيّ ينمى الى عدنان . . .
سيلّ الزمان شملك مهما
أنكرته ذئاب هذا الزمان ” (١)

وبلهجة المؤكّد ، يتفأل بمستقبل مشرق يصنعه الشعب العربيّ . ولكن الوحدة لم تعمّر أكثر من أربع سنوات دأب خلالها أعداء الأمة العربية التقليديون على الانقراض عليها ، فوقع الانفصال عدمة رهيبية أدت فؤاد كل عربيّ مؤمن بها متطلّع الى معجزات تتحقق في عهد ها . ولم تكن أصابع الصهيونية بعيدة عن فحّ الانفصال من قبيل استفادتها من التشردم العربيّ . وانبرى الشعراء العظماء وحدهم الى لكمة الجراح ورأب الصدوع ، والعمل وفق منطلقات جديدة لإحياء الوحدة وتعميمها بالصيغة والانصهار الكفيلين بجعلها أبدية تستطيع التحرك نحو أهدافها على خطّ مرسوم بدقّة تراعى فيها رغبات الجماهير وآمالها كدعائم جامعة مثبتة لمفاصله . من هؤلاء العظماء بإرادتهم ويتفأؤلهم كان كمال ناصر ” الموحد ” ربا وشورة وأمة .

وقمع البضع على جسد الوحدة ، فشقه وحشاً في صدره الملح فغاض بالألم رغم انقطاع الدّم . ولم يجد سوى الشعر سلاحا يلغي جراحه بطريقته الخاصة :

” يا شعر لم يبق لي في جرحتي الاثا
سواك ينفذ وهم الشكّ ايماننا
اني لجأت اليك اليوم يحملي
جرحي السخيّ وإيماني الذي خاننا
جرح تمزّق في صدرى فضيّعني
لما تناثر أشكالا وألواننا
فطمته بين آمالي وما انطمت
اشراقة للأسى ، فارتدّ ظمّانا
لجمته بين أفضاعي فحطمها
وسال ينبض شريانا فشريانا ” (٢)

لعلنا نستشف من اطلاق القافية طويلة ، انطلاقا نفسيا وماديا عظيما على الرغم من مشاعر الأسى التي نلمحها في لهجته الجريحة النخمة ، المتمزّقة أوتارها . لقد كان الانفصال فاجعة حقيقية نكبت الاحلام وآمالها وشدهت كل لبيب . الا ان شاعرنا كان يرى وسط الدياجير كوى نور تنفتح في أشدّ لحظات اليأس حلقة ، فنراه يتخذ من الشعر ” بساطا ” يطوي به الجرح فوق ربح عاصفة يهدد قلب دمشق المشكل . .

” يا شجر ، خذ بيدي واسبح على كبدي
واهبط الى جلدّي نورا ونيرانا
عساي ألح عبر الجرح منطلقا
يطوي جناحي على الجرح الذي كانا
يشلني من ضباب العجز عاصفة
تحيلني في ضمير البعث بركانا
دمشق ، يا بلد الأحرار ، أي يد
أدمت جناح العلى زورا وبهتانا ” (٣)

تنقلنا هذه الأبيات الى أجواء ملحمة تحكي قصة الوطن مع المأساة والدرب الطويل ،

١- قصيدة ” شاعر في العيد ” ، الاثار الشعرية ، ص ٨٠ .
٢- قصيدة ” جرح الوحدة ” ، غير منشورة ، لدي من محفوظات مركز الأبحاث الفلسطينية .
٣- القصيدة نفسها .

ولكن الملحمة لم تكتمل من تسارع الأحداث ، فترك لنا الشاعر نواة ملحمة تحمل بذور الوحدة لكي يتعلم الشعب من انتكاساتها ويبنى من جديد وحدة لا تنتكس .

ج - البعث

العاصفة . . البعث . . البركان . . ما هذه الأركان الثلاثة ؟ رأينا العاصفة في الثورة تتفجر بركاننا فتسيل حممه حارقة جالية لمعدن الوطن . ورأينا الجيل الجديد منبعثا من خلل الرماد . ورأينا الشاعر ينبت من جرح الوطن ليضمّد جرح الوطن بيد فلسطينية وأيدٍ عربية أخرى ، داعيا الى قومية المسرّكة انطلاقا من الخطر الذي يتهدد القوم جميعا وقوميته من أركانها . ولو لم يكن هناك حركة بعث سياسية في أجزاء من الوطن العربي ، لكان كمال ناصر بعثيا بالفطرة على الصعيد الفردي . لذا ، وجد نفسه في مكان طبيعي من " البعث " الحزبي الذي امتدّت فروعه الى فلسطين أو تقيّاً بظلاله في ارتحاله خارجها وقد بان لنا كيف نادى بالوحدة قبل أن يكون بعثيا وبعد . . وكيف ألح على الحرية باستمراره وكيف بذل وضحي حتى بالسعادة والحياة من أجل ان توهب لأمته الحياة عزيزة كريمة . لقد آمن بالبعث طريقا موعلا الى فلسطين الممتهبة ، ليس في مناداة البعث بالتحريم مجرد مناداة ، بل والعمل الجاد لتحقيق ذلك من خلال نضالاته اليومية على صعيد الجماهير في صراعها مع الزعامات المتذبذبة المواف ، ومن خلال نضالاته الرسمية على مستوى الجبهات الوطنية والمجالس الحكومية في صراعها مع العقليات المنشدّة الى الغرب في عدوانه المستمر على الأمة العربية . آمن بالبعث طريقا . .

" للبعث فيه ، ثورة التاريخ والايام

البعث للجميع ، كلنا فداه . . .

لكل حرّ مؤمن يعتنق الحياه

نقيّة خالدة ، كالمجد في صباه

غدا نعود لدارنا الجميله . . " (١)

فطريق البعث موهل الى الدّار الجميلة التي يحنّ اليها شاعرنا حنين شعبه اليها ، فكيف لا يقطر أحلى قصائده ملاحم للبعث تسبق الفجر مبشرة ، حتى لقد مرّت به في الستينات مرحلة عرف كمال خلالها بـ " شاعر البعث " ، وقد رأينا قصيدة له تغنى من اذاعة دمشق وهو يساق الى السجن مقيدا . (٢)

وقف شاعرنا من البعث موقفا الموقّح لولادته : أسبابها وظروفها ، مجالات تأثيره وتأثيره ، وما يتطلبه البعث من رجاله عمليا . كل هذه استطاع أن يوضحها في مطوّلته التي ألّفها في الذكرى السابعة عشرة لميلاد " حزب البعث العربي الاشتراكي " وقد بدأها

١- قصيدة " أذاكر بلدتنا القديمة " الاثار الشعرية ، ص ٢٣٥ .
٢- يمكن الرجوع بخصوص هذا الأمر الى " كمال ناصر المناضل السياسي " في الفصل الأول من الباب الثاني ، صفحة ٧١ .

بذكر الحاجة وطريقة إشباعها :

والشعب ضلّ على التاريخ مسراه . . .
تردّ للكبرمنا ما فقدناه (١)

"الدرب والظلمة الرغناء تغشاه
أين الطريق الى آفاق وحدتنا

وضعنا الشاعر في الصورة المظلمة منذ اللحظة الاولى لمطلع قصيدته ، لكي يدفعنا الى
تأمّن طريق النجاة معه لأن الوحدة لا تتحقق الا بالمشاركة الجماعية ، وقد يكون البحث
طريقا مختصرا . أمّا مادّة الخبز البشرية فهي :

من جرحه التّرجئنا من شظاياها

"من غصبة الشعب كنا من تمرّده

عقيدة البحث تحميه وترعاه . . .

ومن تطلّعه عبر الدجس سطعت

حتى تفجّرنا ما تمنّاه

كنا الضمير له فانهدّ يرهقنا

من بعدنا دمة تدمي محياها

من دمه البكر أجرانا فلا نزلت

فأورقت في رحاب الخلد نعماه

ومن أمانيه ألهمنا رسالتنا

ويوم عزّت على الدنيا شكواها

من شهقة الكادح المطعون شهقتنا

آلما ، فوجدنا إذ وجدناه . . .

فلا حنا ، نحن من آلامه انطلقت

كنا فيه ، وسنبقى من عطاياها . . .

والشعب كالروح نسقى من عطيته

تموي في العاصف المخموم ، لولاه "

لولاه ما ركبت للشمس هممتنا

أنفاس ملحمية من حيث صخب التعبير وسمو العاطفة وإيقاع التعمى وركوب الشمس .

ومن صوره المجازية في سطوع العقيدة ، وتشبيها للشعب بالنسبة الى الحزب ، بالماء

للسمكة لا حياة لها بدونه . وغير ذلك من المبالغة المستعجبة ، فالبحث عقيدة تفجّرت

فلسفتها من مدامع الشعب الجريح ، ورسالة سطرتها شهقة العامل والفلاح . البحث من

الشعب وللشعب يضمّد جراحه ويخفف آلامه ، فيما يعزّز له الشعب مسراه ويقوى ساعده

في تصميّق مجاري التاريخ العذبة . وحركة ، هذا معدنها وهذه مادتها ، حرية بأن

ينحني أمامها أعظم الشعراء في أروع أشعارهم ؛ فكما البعثي يضحّي بالنفس ، فليضحّ

الشاعر بالقلب عن ايمان لتسمو التضحية . . .

ولا ادعاء ولا زهوا ، مشيناه

"ويشهد الله ، هذا الدرب لا طمعا

جرح على صدرها الدامي لثمنه . . .

وانما هزّنا في بعث أمتنا

في كل نجم لنا جرح أضأناه

عشرين عاما نضيء الليل من دمننا

ولا تترقق دمع ما مسحناه "

ما أن في الشرق جنب لم نخفّ له

في استرجاعه للنخوة العربية القديمة حين كان ينصر العربي أخاه العربي بنفسه

وبماله ، استرجاع محيي مشير لمجد الشرق القديم . . . حينين إليه والذكريات تتداعى .

١- ألقى كمال القصيدة هذه في ٦ نيسان ١٩٦٤ وعنوانها : "وانما هزّنا في بعث
أمتنا " ، في ٨٥ بيتا منشورة في آثاره الشعرية من صفحة ١٢٨ إلى ١٣٢ ومنها
نورد الأبيات التالية لهذه الإشارة ، وإلى حين الإشارة لغير ذلك .

ويسترجع الشاعر ذكريات مضى عليها ثماني سنوات عندما كان نائبا بعثيا في مجلس النواب الأردني ولقي من السلطات ، لوطنيته وسياسته ، ما كانت الجراح الظاعرة أخفّ منها على النفس ووطئا . . .

”هذي جراحي على الاردن مشخنة
لكنني ، وهدير البحث يملؤني
فالبعث للناس ، كل الناس ، موكبه
ذكري نضال لنا ما كان أضراه . . .
أنسى تشردت أبعاه وأحياه . . .
جحافل الشعب ضمّتها حناياه ”

لقد استبقنا الى انه مشى الدرب ، لا زهوا ولا طمعا ولا لغاية في ”نفس يعقوب” ، ولا سيما هو يعلم علم اليقين أنّ النضال الحزبي طويل ومرير لأنّه عن ايمان ومبدأ ، واحدهما كاف أن يذيق معتقه أشدّ صنوف العذاب والاضطهاد والتشريد . لهذا ، لم يصطف البحث رجاله . . .

لكننا للجراحات اصطفيناه

فالبعث وعي وايمان وتضحية
وجيشه الثائر الثوريّ إن لمعت
حرايه ، فهو عند الله أتقاه ”
والبعث همّ كبير قد حملناه . . .

والبعثيّ مجاهد في سبيل الله ، وكل مجاهد تقّي ، وكل تقّي هو من صفوة الشعب وخادمه الأكبر . هكذا يتعمق البحث بعذاب الجراح كما لا بدّ للجراح من لفظ الدماء المتفجرة لكي تستعيد الخلايا نموها من جديد طبيعيا معاني .

كان البحث في ذكراه السابعة عشرة قد استردّ أنفاسه وجمع شتات رجالته الذين شاءت ظروف الوحدة أن تفرّق بينهم لمواقف اتخذوها ، يدخل بعضها في نطاق تقديم الأهمّ على المهمّ بحيث تكون المصلحة الجماعية قبل مصلحة أي فرد مهما بلغت مرتبته ؛ فالبعث لا يعترف بزعامة الفرد - كما أسلف كمال - ولا يرفع رجالاته الا من ضمن الحمل الجماعيّ الأضمن انتاجا ونوعية .

وفي ذكراه الثامنة عشرة ، كانت مطوّلته الثانية ، بل ملحمة العنقوانية ” وسيبقى البحث الأصيل ”^(١) وقد أكد طول الدرب ولكنه قد لا يطول أمام تدقّق البحث . وطالما لم يكن الانتماء الى البحث ، زهواً ، فقد ” طاب في زحمة العلى المستحيل ” الذي يتحقق بالنضال الشرس الذي صبغ حياتهم ،

”ورضعنا من العقيدة حتى
وتمرّ السنون والبحث ينمو
كان لا بدّ أن يسيل جراحا
فكرنا واضح المعالم باقٍ
قبستها جراحنا والعقول . . .
وبجنبيه سيفه المسلول . . .
قبل أن تعمق الروءى والأصول . . .
والشعارات أمة لا تحسول ”

صوب يدعة لاستقاء العقيدة حسا وروحا ، وتنامي السيوف المسلولة في الجنبيين دليل

١- ألقاها في نيسان ١٩٦٥ من ١٢١ بيتا منشورة في آثاره الشعرية من صفحة ١٣٤ الى ١٤١ ، ومنها نورد الأبيات التي تلي الى حين الاشارة لخير ذلك .

يقظة جسم البعث على المخاطر ، وسيلان الجراح في أعماق من مجاري الانهار ، وكل هذا
محتمل في سبيل البعث . وكما أن الثورة بلا مضمون هي قفزة في الهواء نعصف منتهاها ،
كذلك حركة البعث قفزة في المجهول لولا أنها جلية الفكر واعية الشعارات مرعية وأبدية .
وما الفكر وما الشعارات ان لم تكن أعمالا ؟

" شرف البعث أن يقبض مجدا لسواه ، فالبعث نفع جليل

لسوانا الأحقاد ، لا عاش في البعث ثعبان معقود معلول

نحن باسم الآلام جئنا لنعطي فليلب تاريخنا أو ينزل

البعث ينقي الانسان بصهره في أتون النضال ، ويتحتم بالتاريخ ان يملئ عليه صفحات مشرقة
من البطولات التي لا تقف عند حدود ، فمن نذر نفسه للبعث ، قدّم شبابه وحياته على
طبق من فضة شهية . وهذا شاعرنا يخاطب جمهور الرفاق وإن كان ينطق بلسان كل
واحد منهم :

" أتحبون أن أغرد للبعث وأشد و في عيد ه وأطيل

ليس عندي ، فقد سفحت شبابي بين جنبيه ، فاحتواني الذبول "

ترك لغيره حمل رءاء البخور المحترق روائح تذورها الرياح فلا أثر ، وحمل الصليب ، وكلاهما
عرف الخلود . فسفح شبابه ليحيا الآخرون في الظل وقد وقاهم حرقة الشمس طواعية حتى
" شوّهت غربة المقاييس روحه " ويات لا يدري الشكاة الا " دمه البخيل " فعزم على الرحيل
الى راحة الحياة التي تحلوا زاءها راحة الممات . ولكنه يتذكر قسمه البعثي ومبادئه
السارية في سرايينه . ويتذكر رجولته فيستدرك قائلا :

" غير أنني والبعث يملأ روحي وسرايا النضال حولي تصول

تحمل العبء وحدها ، وقد يما في العلى ، غير الكثير القليل . . .

ويذور الحياة تنبض في الشعب ويبقى البعث الأصيل الأصيل "

البعث ملء الروح فأين تذهب روح الشاعر بنفسها وما فيها ؟ والحياة ، رغم تقدّم سنّه ،
ما زالت تزرع فيه البذور ، فهل تشيخ البذور قبل أن تنمو أشجارا مثقلة بالثمار ؟ لقد أدرك
شاعرنا منذ البداية أن الافراد يتساقطون على جنبات الطريق ، أما الثورة فتظلّ بعدد
الإسقاط والتساقط ليعيش منها الجزء السليم . . الجزء الأصيل الذي يحمل بذور الانبعاث
الكامنة .

ولم تكن ايام البعث وسنوه في رحلة استجمام طويلة أبدية لأن سكوت الاعداء عن
المناضلين يعني أنهم قاعدون بدليل استراحة العدو منهم . كذلك ، لم يعرف البعث
طيلة حياته الا العقبات من الداخل حيننا ومن الخارج أحيانا . مهشمة حيننا ومحطمة
أحيانا . وما ذلك الا لأن عجلة البعث تندفع الى الأمام فما أكثر العصى ! تنبّه لها
شاعرنا رغم ادعائها حمل الصيعة التصحيحية لمسيرة الحركة ، وسألها أن تفتن الس
أن التصحيح لا يكون انتهازا وتجريحا ، وقام بواجب ملزم له تجاه عقيدته وهو يصوّر

”وهيبة أضمرت للبعث طعنتها
ما كان أحرى بها لو أنها سلكت
قل للغيارى على أمجاد أمتنا
وعبدا من وهبناهم طلائعنا
وشاعرنا من موقع القلب في الحركة وامتداده الى أكثر الأطراف ، أدري البعثيين بأهداف
المتعلقين حول الحركة للإيقاع بها مما أفرصه دره عليهم الى ضرورة ممارسة العنف الثوري و...
”لو ان عيسى سيأتي في هويتهم
قننا له ، وعلى عود صلبناه“ (٢)

أمنية يرجو الشاعر أن لا تتحقق لكي لا يكون مرفعا على اقتراف الجريمة التي يكرهها ، فهو
يحب المسيح وكذلك يحب بعثيته ويذود عنها بكل وسائله ، ولكنه ، ملتزما بالخط السياسي
والانساني للحزب ، يلوذ بالخط المستقيم قاتلاً الرغبة الفردية لأجل أن يبعث الحياة في
الأطراف التي غزاها الياس واهمها الفناء... فالبعث لا ينتقم لأن الانسان - كل انسان -
عرضة للخطأ والانحراف فلا بد من التضحية...

”لكننا في سبيل العرب إن لمحت
نسمو على الجرح تحدونا أصالتنا
في الأفق بارقة تجلو محياها
وكل ذنب لهم فينا غفرناها“

وليست قدرة الشاعر على السمو فوق الجراح الا من قدرته الفائقة على جعل الجراح تورق
وتتشد وتغني وتحقد وتكون انسانا رقيقا شقافا يتأثر بالنسيم كتأثره بالواصف على السواء...
الامة العربية واحدة كما أرادها البعث الصحيح ، وهو مستعد أن يخفر للخارجين
على وحدتها ”لأنهم لا يدرون ماذا يفعلون“ أو أنهم يفعلون مدفوعين بأصابع العدو وأر
بأصابع الرغبة في تسلق الكراسي .

كان الوطن العربي كله يمارع اليأس... الحركات التحررية والعقائدية تصارع نسي
ميدانها الخاص ، والشعراء لا يكتفون بالتغني والتشجيع بل كان منهم نفر يشاركون في
كل انتفاضة ، وينصهرون في كل ظلمة . ولعل كمال ناصر من أبرزهم ارتباطا بعجلة الثورة
العربية منذ وعائها الى أن استوقدته ليظل أوارها متأججا . ان التزامه بحياة أمتة ، جعل
منه أدبيا مشاركا لها في كفاحها ومعبرا عن آلامها ومناصرا للحق والعدل والحرية والمكافحين
للاستقلال وتوحيد التلمة ، فهو بهذا أديب عربي (٣) . فإذا ما ارتقى لنصرة المثل العليا
في العالم كله وعبر عن شوق الانسان الى الكمال وتطلعه الى تحقيق الأخوة الانسانية
والمحبة والعدل ، جاء أدبه انسانيا وعمر أيد الدهر .

١- قصيدة ”واتما هزنا في بعث أمتنا...“ ، الآثار الشعرية ، ص ١٣١ .

٢- نفسها ، ص ٠ ن .

٣- عبر عن هذا الالتزام ، الدكتور اسحق موسى الحسيني - فلسطين - في كلمته بمؤتمر
الأدباء العرب الخامس ببغداد ١٩٦٥ ، القسم ١ ص ١٦٦ .

لم يكن كمال في أدبه الا عربياً وإن كانت له بعض التطلعات البعيدة مما لا تؤخذ مقياساً ، لأنه في تعبيره عن ثورة وطنه وأمته إنما يعبر عن ثورات العالم المتشابهة مبادئ وأهدافاً سامية . وارتبط كذلك ، بثورة عصره وبلاده فقط ارتباطاً أدبياً وعملياً عميقاً لعمق القضية وتعقيداتها ووطنيتها على حياة الجماهير طغياناً مطبقاً لم يمكنه من الاستغراق في ثورات العالم الأخرى ولا سيما أن وطنه الكبير يخوض أشد عمليات اقتلاع وإبادة للشعب من جذوره . الخطر أعظم مما يتصور ، والاعداء أكثر مما يحتمل . وفي ميادين الصراع العديدة كان لشاعرنا جولات في أقطار الوطن الكبير ، ينفخ في صدره هذا ويشد من عزمه ذلك ويضغط زناد تلك ، حتى يغطي سائر الاقطار التي أقسمت أن لا تنام وفي أرضها موطني لذئب ، بد ١٤ بلبنان فلواء الاسكندرون فمصر فالجزائر والعراق فالخليج والمغرب . كلها مواطن رحبة للنضال ومشاهد حية للبطولات العربية .

قد يكون للبنان في قلب كمال هوى مختلف عن سائر الاقطار ، نتحسسها في مقالات سياسية ، أو في رسالة حب الى خطيبته سماها " لبنان " فأفرغ فيها كل حبه للبنان ولم يأتي على ذكر الحبيبة ، ولو تلميحاً ، قال :

بعض السنا حتى نغثي معك

" خَلِّ لنا لبنان ، ما أطمعك !

الا ووشحت به مرتعك . . .

لم تبقر في الحسن لنا موسما

تغرك أو عينك أو إصبعك " (١)

انظر بعين الحب تشهد بنا

ولبنان عبر التاريخ المجيد ، قطر عربي ونقطة ارتكاز القومية العربية وميلادها منذ بشر بنما اللبنانيون بشارتها الاولى حتى عمّت . لهذا ، يصيب الغياري عليه ما يصيب هذا الوطن الجميل ، والذي كلما ضاق صدره طالت ذراعه لتحضننا الانسان في وطن الله . تاريخ لبنان وتاريخنا واحد ،

لو سال تلقى عبره هرعك . . .

" فجرحنا من صدره في العلى

في موكب الدين الذي روعك

غدا يشق الفجر أكمامه

على عناق في العلى أرجعك " (٢)

ويسترد الله أنفاسه

وأى تعبير عن الحب أروع من ربطه بين الله وحب لبنان مساوياً بينهما ! التفكير من دلالات الوجود ، وكذلك الحب من أقدس دلالات . الله موجود ، فلبنان أيضاً موجود ، وبأنفاس الحب يظل القلب في انبساط دائم ، والانبساط ارتياح واطمئنان وانفتاح بل افتتاح لمبسم السماء . هكذا رأى شاعرنا لبنان في حقيقته :

لا زلت في الحسن أبهانا وأحلامنا . . .

" لبنان يا مقلّة الدنيا وقبلتها

١- قصيدة " لبنان " ، الآثار الشعرية ، ص ٢٤٥ .

٢- نفسها ، ص ٢٤٦ .

من لا يرى الله في أحداق أرزته ولا يرى بعيون الله لبناناً (١)

وهذا الحب المتأصل في نفسه قاده الى ما قاد حبّ فلسطين شاعرها الأول ابراهيم طوقان الذي كان أول من تنبأ في شعره بنكبتها كما حصلت بعد أكثر من عشر سنوات فقال :

"أمامك أيها العربيّ يوم
فلا رحب القصور غداً بباقي
تشيب لهوله سود النواصيبي . . .
لساكنها ولا ضيق الخصاص" (٢)

هكذا رأى كمال ناصر في لبنان أناساً يترصّون للايقاع به فتغبرّ أرزته ويكلج بحره . هوّلاء أظهرهم الزمان يوم حطّت الثورة الفلسطينية بعض رجالها فيه ، فصادمتها جماعات أنكرت عليها حقّها في الثورة التحريرية . وسالت دماء ذكّية في نيسان ١٩٦٩ وكاد أن يحلّ المكروه الأعظم لولا تدارك الثورة للموقف ووضعها في الحساب أن لبنان خير عون لها ينطق بحقّها عبر العالم . وراح شاعرنا يسأل عن هويّة أولئك . . .

"ف قيل : رهط يماري في هويّته
أعيد لبنان من خطب يحاك له
يدّعي حبّه زورا وبهتاناً
فدريه السّمح مسرانا ومأوانا
تدقق الجبل الجبار عرباناً" (٣)

هكذا تتدفق ألفاظه وقوافيه في لبنان سهلة عذبة كتدفق المياه في جداوله وسواقيه سلسلة القيادة من منابعتها المرتفعة متصلة بزرقة السماء ، الى مصابها المنحدرة متصلة بزرقة البحر . لذلك ، يظل متفائلاً بلبنان ووجهه الحضاريّ المشرق وبأنه فلذة كبرى من كبد الوطن العربي ، ولن يتردد في الدفاع عنه عند اشتداد النواصب .

تري ، أكان كمال يتنبأ بمصير لبنان بعد بضع سنوات ، ولو عاش حتى عام ١٩٧٥ لأبصر نبوءته التي يكرهها تتحقّق !

شهدت الساحة اللبنانية ممارسات معادية بعد أيام معدودة من غروب الشاعر عنها . عين توقفت عقارب الزمان فتبلّد ، وأمسى الانسان يحصي ساعات التأخر والانهازم أمام التاريخ . ربّما كان شاعرنا يرجو أن يدفع عن لبنان ما لم يستطع دفعه عن فلسطين ، ولا استطاع أحد دفعه عن لواء الاسكندرون الذي شابه فلسطينه . . .

"نحن جرحان في جبين الليالي
عانقت في الأسرى بوع فلسطين
عمّقا بالعذاب والتعذيب
في الاسكندرون خفق القلوب
وسرى من ضلوع يافان داء
ردّته أنطاكيا بالوجيب" (٤)

والوجيب اضطراب في القلب يرهقه ، فأبى لفظ غير الوجيب يكمل بناء هذا المدماك الشعوريّ النبيل ؟ وكيف لا يتشابه الوطنان والوحش واحد في كليهما ، لا بل وحرش الغاب قد تعف وهو لن يفعل لأن . . .

- ١- قصيدة أنا حملنا عن المصلوب . . . ، الآثار الشعرية ، ص ١٥٠ .
- ٢- ابراهيم طوقان . الديوان ، ص ١٦٢ ، والقصيدة "مناهج" نظمها في ٣ / ٣ / ١٩٣٥ .
- ٣- قصيدة كمال ناصر السابقة ، ص ١٥٠ .
- ٤- قصيدة "اسكندرون" . . . ، الآثار الشعرية ، ص ١٩٠ .

في عروق الأتراك بحر العيوب . . .
رهيب وكم له من نيبوب (١)

"هذه خسة السلاطين تحيا
كم لعثمان في العروبة من ظفر

الحقد عليهم عميق قد يم غير دفين ، تأصل نتيجة لسياسة التجهيل والترغيب والترهيب باسم
الدين يوم كان يتبوا منصب الخلافة الاسلامية رجل تركي ، حتى كان العهد البائد . . .

عهد عبد الحميد ، لا بارك الله
بعبد الحميد بين الذنوب
فعلى كل ربوة من رساه
عربي معلق في صليب (٢)

تري ، هل كان خير عقاب للطاغية عبد الحميد - صالب الأحرار في سوريا ولبنان -
أن يرى ملكه يزول شيئاً فشيئاً وهو مفتح العينين "كأنه" موثق اليدين ! هل كان عقاباً
يشفي غليل شاعرنا أن يهوى السلطان تحت لسع الصولجان ؟ أما أتى على ذكر مصير كل
من شابه عبد الحميد وسفاحه الذي علق الأبطال فكانت النتيجة أن ارتفع الأبطال وارتفع
الوطن ، أما السفاح فقد تهاوى وتهالك وطنه ؟ وما خشية شاعرنا على هير السلطان وغابته
الأخشية من يتلف الى رؤية ذاك المصير بأم عينه . . . فقال :

"أنا أخشى أن يستفيق بك الصبح
أحمر الثغر أنفه في رساك
على مدفع قريب قريب
ويداه على ثراك الرحيب (٣)

فالأخشية نفسها تحمل معنى الشوق . ولم تقف روعة التعبير والتصوير عند هذا الحد ، بل
تعدت الى اعتقاد القارئ بأن ما يسمعه في البيت الثاني فزل إباحي عنيف أحمر ،
بينما ليس أحمر الثغر سوى مدفع رهيب يشفي غليل مظلومين طيلة قرون خلت . بعد هذا
الشفاء يعود شاعرنا الى "بلاد النجوم والحلل الخضراء وطرة الغمام القشيب" محمولاً على
أجنحة العطر وقد استرد اللواء السليب أنفاسه .

ما كان ينبض بهذه النبضات لولا تغاؤه المتطرف بانتظام العقد العربي شعوراً
تتكشف لدفع الأذى ، وقد رأينا كيف أعطاه الله العدد عدة فعالة والسلاح الفتاك من
قلب الصحراء ، والتاريخ الماضي والقريب لأبطال خشع لهم العالم فلم يأبه لهم عالمهم
القريب .

وهذا العراق قد شهدت رحابه رجالات الخلافة العربية التي عطرت الأمة وشجرت

الصحراء . العراق متخم بحليب الثورة والفداء عبر السنين وما زال

"كلما أرقه البطش نزا
نحن لم نبخل على تاريخنا
بالبطولات وهماح انتقموا
مذ صحا في مقلتيه الحلم (٤)

وإن يكن العراق قد أصيب بجرح بليغ ، فما زال هناك جيل من الميامين على ثغر الردى
يتلمهى "والردى يحتدم" حتى بدا الموت ازاءه "حاصر الطرف يسترحم" . وباعتبار العراق

١- قصيدة "اسكندرون" ، الآثار الشعرية ، ص ١٩١ .

٢- نفسها ، ص ١٩١ - ١٩٢ .

٣- نفسها ، ص ١٩٢ .

٤- قصيدة "جرح بغداد" ، الآثار الشعرية ، ص ٢٥٦ .

ركنها هامة وأساسياً من أركان الوحدة أو نواتها، فهي تشبه في ذلك قاعدة الهرم وجل الشعب أضلاعه المتماسكة. وشعب هكذا يكون، يأخذ بلب الشاعر المولع بالشعوب النائرة تهزّه فيشد وبها وينادي متلبساً التاريخ :

كَلْنَا من دونه المعتصم (١)

"ألف ليبيك" وما عزّ الفدا

صرخة الاستغاثة "واعتصماه" أطلقت في ظروف ماثلة للظروف التي يمرّ بها الشاعر وشعبه فهو أحوج ما يكون لإطلاقها وفي مسيس الحاجة الى المستغاث به أو مثيل؛ فمن يدخل سمول مصر وريها وهياكلها الحضارية العريقة، يؤمن ايمان شاعرنا بأن اهراماتها "شيدها الحب" وبأن "النيل دمة الله وفيض السماء عبر النجود". وهكذا معرض للقيم القيمة لا بد أن يشمخ رغم شدّ المصائب والأعدى ركاب بعضهم بعضاً. حتى من اشتهروا بالبأس والجبوت أو بالسدور وضغط حقّ الشعوب، فمصيبرهم واحد، والتاريخ يحكي كيف..

في مغانيه يانعات السورود

"ذلّ فرعون في رباها وشاخت

غير ذكرى في قبر عبد الحميد (٢)

وبقايا فاروق لم يبق منها

ولا يمل، بل لا يجد الشاعر غير قصص التاريخ الماضي موضوعات يستمدّ منها العبر على مبدأ ان التاريخ يعيد نفسه اذا عمل الشعب على إعادته. فهل يعتبر كل "فرعون" وكل "فاروق" جديد يطأ الأرض العربية؟ وإن زها وتاه عبد الحميد، واسطة العقد المهشم، لأن مصر - النيل دمة الله وفيض السماء، فأتها عند مداهمة الكروب "ثورة" الله على كل ماجن عربيدي "فما أودع اللبوءة في هدايتها وما أشرسها في ما عداها! ولقد قيّض الله، لثورة الله تلك، رجلا هتك الستر الحاجب لجمال وجهها الأسمر الوديع غداة كانت ثورة..

وينفخ الوليد إثر الوليد...٠٠٠

"شهر يزيو والفجر يبسم للفجر

محلّى بزنبق وورود (٣)

مقل بالعطاء والجود والخير

يحاول الشاعر التأريخ مجدداً للماضي في عملية مقارنة بين الماضي والحاضر وما سوف يكون عليه المستقبل من انتصار للشعوب. ولكنّه ينمّق الأهداث فيزيئها ليزيد المشرق منها اشراقاً، والمظلم طمسا، يدفعه تفاوته الى هذا الفعل. وطالما ان الثورة تتقدّم باستمرار، فإنّ العدو كذلك يخطط لاجهاضها باستمرار. ومتى كان اشتغال الشعوب المكافحة بالنضال، أضحى انشغال القوى الاستعمارية في التخطيط لضربها. وما جرب مستعمر يوماً أن يضع نفسه في موضع مستعمر يناضل لتحرير الوطن والانسان، والآفاتي موتف ثقفه اميكا من قضايا الأمة العربية في مناصرتها العمياء لضلال أعداء الأمة وهي التي رزحت سنين طويلة تحت الاحتلال البريطاني؟

١- القصيدة السابقة، ص ٢٥٨.

٢- قصيدة "الثورة - مصر"، الآثار الشعرية، ص ٢٠٤.

٣- نفسها، ص ٢٠٥.

الشهوة تعمي المشتبه ؛ ففي مصر التي انتشلها " النائر - المارد " بثورة " يوليو ١٩٥٢ " لم ترق معجزته لبريطانا ، فجهزت ألوفاً مؤلفة من أسودها التي مرضت فيما بعد مرضها التاريخي القاضي على أسطورتها في ١٩٦٥ عام العدوان الثلاثي على مصر ، وقد راح الناس عما ذاك يتساءلون عن الغزاة ؛

زرق العيون بيض الخدود . . .
ومن عالم مضى مؤود (١)

" من ترى القوم يدرجون على الرحبة
أتراهم من القراصنة البيض

وقد كانت صرخة واحدة من الساهرين على الشعب ، كافية لايقاظ جموع الشعب المتناثرة كحبات الرمال على الشيطان ، لانجاز عملية " الواد " ، لم ترهبها كثافة الغزاة ولا اسطورية أسلحتهم وأدواتهم ؛

في المرفأ الصغير الودود : . . .
تتلوى على أنين الوجود (٢)

" الأساطيل ، يا لدار الأساطيل
وأطلت مدافع الإنم فيها

لا ، لم تكن تلك معركة ضد الشعب الفقير الناهض من حفرة البؤس التي دفع اليها سنين يعيش فيها وقد أشركه حكامه المترفون في الحفر عمقا واتساعا ، لم تكن الا معركة أسراب الجراد ضد حديقة ضيقة ندية الأزهار غضة الاغصان ؟ فما بال جنود بريطانيا غطوا بعديدهم " مقلّة الشعاع عن الأرض " ؟ شاعرنا يتنبأ لهم كما تنبأ بمصير كل من شابههم عبر أحداث الزمان . . . الأعداء يتقهقرون . . .

فكان الديار ماجت يعيد . . .
في شرفة البناء المشيد (٣)

" وبنو الدار يخطررون إباء
والنساء الحرائر السمر يختلن

وفي غمرة هذا التفاؤل ، يبث يمينه بالقسم المقدس مرتبطاً بالثراث العربي المجيد ؛

ويا حبذا جوار الغيد
في خيال اليرموك وابن الوليد (٤)

" شرفاً بورسعيد ما أجمل الموت
انت ألهمت للبطولة طيفاً

من ابن الوليد الى المعتصم الى جمال ، الى آخر السلسلة من رجال عظماء غيروا في وجه التاريخ ، تتوقف بنا المسيرة عند أحد أبطالها " ابن بيلا " توقف المتأمل المعجب وقد وجد في الثورة المصرية المنتصرة معيناً غزيراً يعين الثوار في حربهم الضروس ضد الاستعمار الفرنسي المتصل تاريخياً بالاستعمار البريطاني والاميركي والايطالي . . . لا يمكن مجابتهه الا باتصال ثوري حقيقي محكم للأمة العربية ؛ فكما انتصب المارد في مصر ، كذلك

حساماً مضجج النصل باتر
شهوة بالدم الزكي العاطر (٥)

" في روابي أوراس يمتشق النجم
روحها فوق كفاها تلتطى

- ١- قصيدة " الثورة - مصر " ، الاثار الشعرية ، ص ٢٠٦ .
- ٢- نفسها ، ص ٢٠٧ ، وعلى هذه الصورة ورد البيت في الاثار الشعرية لكامل .
- ٣- نفسها ، ص ٢٠٨ .
- ٤- نفسها ، ص ٢٠٩ .
- ٥- قصيدة " في رحاب الجزائر " ، الاثار الشعرية ، ص ١٩٥ .

والثورة ليست انتحارا ولا رغبة ملحة في الاستشهاد بقدر ما هي استماته لتحقيق الحياة العزة الكريمة . والنائر ليس بواضع روحه فوق راحته إلا لإيمانه العظيم بأن راحته من الصلاة بحيث تستطيع طرد كل شرير محتل . ونرى ان الشاعر قد شبه النجم بفارس يمتشق السيف فيلتهب الفارس والسيف معا في صميم المعركة . ولا يطول البحث عن هويته ، ففي المدينة "وهران" تتراعى ملاحح المعجزة :

"من ترى الفارس الأبي على السفح
يُثبُّ النور حوله مثلما
مهيبا يشح بين المنائر
الحلم الرقراق في خيالات شاعر" (١)

فاختلف الاشعاع بين هذه الصورة والتي سبقت . . . كان اشعاع الثورة المضطربة ، فغدا اشعاع النصر وكلما أطفأت منه فرنسا منارة شمخت منارات وشعت . وصور الشاعر البطل هنا على السفح ومن قبل فوق الروابي ، فيشف المشهد البديع عن حركة بطل هو إما على الرابية يضيء مشعل الثورة ، وإما على السفح ها بظا بعدما أضاء مشعلا فوق . . . وتستمر المشاعل الى أن يتأكد كل فرنسي يظأ أرض الجزائر معتبرا آياها ارضا فرنسية ، أن . . .

"كل حي على جحيم لظاها
وحرام عليه أن يطلع الدهر
في الملم العصيب عبد القادر . . .
على ملعب العروبة كافر" (٢)

وبالفعل ، طلع الدهر وما من كافر . وإن كان شاعرنا ينظر الى الجزائر بعين الحب والإكبار ، فما ذلك إلا رجاء أن يحدو والشعب العربي كذلك مع فلسطين برغم اختلاف أرض الصراع ؛ ففي الجزائر قاتل الشعب أعداءه من فوق أرضه وفي عمقها الى جانب العمق العربي بشريا وجغرافيا . أما في فلسطين فقد افتقد الشعب العمق البشري العربي افتقادا يكاد يكون شبه مئس . وافتقد العمق الجغرافي افتقادا قاتلا مع انتفاء امكانية النضال الفعلي والفعال من داخل الوطن تبعا لظروف ووقائع ملموسة .

تحررت الأقطار العربية جميعها بشكل أو بآخر ، ألا يحق للشاعر أن يتساءل : ولماذا فلسطين دون سواها ؟ وماذا لو كان أي قطر سواها في مثل موقعها ؟ فهل يقصر الشعب ؟ !

يرى شاعرنا أن الشعب لا يقعد ولو تعدت همم الحكام ، فالشلل جزئي . ويوم عيد المغرب الوطني ، وقف ليهتمف :

"يا جراحات شعبنا لا تبالي
وانضحي بالدماء فالأرض ظمأى
ان مهر العلياء والمجد غالي
للضحيا وللعلسى والنضال" (٣)

الشعب المغربي توأم للشعب الجزائري ، والعدو فرنسي المولد والنشأة والتاريخ ، فليتوحد الجهود وليندفع كل عربي يقتلع أنياب الذئب عبر الحدود المصطنعة .

١- قصيدة "في رحاب الجزائر" ، الآثار الشعرية ، ص ١٩٦ .

٢- نفسها ، ص ١٩٨ . هكذا ورد عجز البيت الثاني غير مبدؤ بواو الحال اللازمة

للمعنى ، لكي يستقيم الوزن .

٣- قصيدة "في يوم المغرب" ، منشورة في جريدة فلسطينية قديمة لدي منها جازاة بلا رقم ولا تشير الى اسم الجريدة أو تاريخها .

وهناك رأى الشاعر البطولة * تتلّى بمصرع الابطال * . . .

و "كلما أدمت الجريمة شيلاً
قدفتها بموكب من رجال" (١)

فدگر فرنسا بالزعيم الالمانى هتلر كيف ولّى أمام سيول التضحيات الراضية لسيطرته فخلد طاغية بينما تخلّد الشعب رمزاً للثورة ورفض الاحتلال ه منه يستمدّ شعب المغرب ايمانه بقوّته في موكب البعث المتخظّر فوق أجنحة الشعاع . . .

كان شاعرنا في تفكيره مشدوداً بخيط دقيق متين الى تجارب الأنبياء والرسل يستمدّ من سير حياتهم ومن همودهم واستشهادهم ، العبر والمواقف الكفيلة بجعله انساناً ينقّب عن رسالة دنيويّة يحمل أعباءها راضياً ويرى مصير الشعب بين حرفها ، وعليه يقع واجب تحرير الانسان بما يرضي الانسان والله تعالى .

وكان الرسول العربيّ الكريم أعظم مثال للنائر الصامد في وجه الأعاصير المنبعثة مع رمال الصحراء العربية بوحشية وعنّف . وأعجب شاعرنا به وأغراه انتصاره بعودته الكبرى وان لم يخفّه نضاله الدؤوب لتحقيق ذلك الانتصار . واندفع يشابه نفسه به بقوله :

"أنا من هذه الرسوع أمير
بدويّ السمات والخلق والخلق
عربيّ ، أزهد بدعيّ وقوسي
وإن أنتي فمن عبد شمس
همس الله في ضميري فما جت
نخوة الفتح بين سيف وترس" (٢)

ينفحها الشاعر من قلب الصحراء ، فيها نفس العربية القديمة ، ومن أنفاس أبي تمام في سينيته الشهيرة ، وكأننا به ألبس الحالة الشعورية ثياباً خاصة بها تبعا للتقاليد المرعيّة كالدرع والقوس والسيف والترس ، وتذكيراً بقبيلة عبد شمس العربية ، وفتوحات الرسول وخلفائه من بعده في بلاد الروم والفرس حتى شعت منارة الاسلام عبر ليالي ضلالهم وعاد الى "المدينة" "النور" وراحت تمشي به للقدس كما يحلم بذلك شاعرنا . فهل يتحقق أم أنّه مجرد حلم لا يتحقق الا بتشابه العناصر والمكونات الأساسية الأولى للحادثتين : الارادة والإيمان ، ورسول رائد يقود الخطى ؟

يبدو شاعرنا متشائماً من التمثل الكليّ بالماضي المشرق ، فنراه في صرخة المشدوه يأساً ينادي :

"يا خيال الصحراء ماذا دهى الحكم
فكأن الرمال أسكرها المال
فقد خاب فيه ظنيّ وحدثني
وطهر الثرى أصيب بمسّ
وجمت همّة السلاطين في الدار
وطابت ما بين صمّ وخرس
طعنوا وثبة العروبة في الشرق
وخانوا التاريخ باسم الفلّس" (٣)

وليس أدلّ على تشاؤمه من مناداته "خيال الصحراء" ذلك أن الناس لم يفعلوا شيئاً فكيف الخيال ! ولعلّ الشاعر في مجانسته بين الرمال - المال "أراد تبيان حقيقة أنّ

١- القصيدة السابقة نفسها .

٢- قصيدة "في الصحراء والخليج العربيّ" ، الآثار الشعرية ، ص ٢١٠ - ٢١١ .

٣- نفسها ، ص ٢١٢ .

المال أكثر من حبّات الرمال ، فبدلاً من أن تنور بالمال ، سكرت به فأضحى الوضع مناقضاً للصواب . أليس شاعرنا محقاً في يأسه وثورته لأن الأرض التي كانت أول من استجاب لدعوة الرسول قد غدت أول من نسيت - والأدهى إن تناست - تعاليم الرسول الفكرية والعملية ؟ أهكذا يخبو النور في منبع الشعاع برغم انطباق الظلام ؟ ألم ينتصر الرسول بالجدب والقحط وينهزم الناس اليوم بالمال والرّفاه ؟ يرى كمال أن الثورة لا تتفجر إلا من بوء البؤس والشقاء ، وتتطلق بذورها صوب النور من قلب الظلام الشديد . . .

ثم تهوي على الظلام بفأس . . .
غضبة الله غضبة الأحرار (١)

" فإذا الشعب ثورة تتنادي
حمل السيف من جديد فكانت

ونلمح فصلاً مرحلياً بين التخاذل والثورة من بعده ، من خلال الفصل في القافية إقصاء للسّين التي ارتبطت بالتحوّل ، إلى راء الأحرار المتكررة . ونلمح بالمقابل ربطاً بين ما يُغضب له الأحرار وهو الحق ، وبين ما يُغضب له الله نفسه وهو الحق أيضاً . ذلك ، لكي يوحى الشاعر بأن صرخة الحرمان يردها الله فيأخذ بيد الصارخين الثائرين . وراحت صرخات الثأر تتردد أهداؤها وتعمّ الكويت والبحرين والقوين وعمان " متحدية الاستعمار البريطاني حتى تحقّق لها انسحاب جحافلها عنها . ولكنّ الحلم يظلّ شيئاً ، وتظلّ الحقيقة شيئاً آخر وغالباً ما يكونان متناقضين . الإمكانيات لم ترتفع يوماً إلى مصفّ الاعمال حتى نسي أشدّ ظروف الأمة حلقة وتحدياً لوجودها الجذريّ . ولقد زين الاستعمار لحكام كثر أن اعتمادهم على الكنوز الدفينة الرمال خير من القائمة فوقها . . . فانبهرت أبصارهم بالذهب الأسود حتى عميت وضلت أقدامهم عن كراسيهم أو انقلبت فانقلبوا . . .

هـ - خيانات رسميّة

هذا عبد الكريم قاسم حاكم العراق في أواخر الخمسينات يُبكي الشعب فيبكي

الله هناك :

" ماذا دهى العراق . . وما هناك في العراق ؟

أني رأيت الله في العراق مرتين °

رأيت يبي مخضب العينين

رأيت في دمعتين وجثتين . . وثورتين

رأيت في دمة الشّواف والصبّاح

وفي الجراحات التي تخضب النهرين . . .

أنا عرفت قاسم العراق °

وأذكر الجريمة . . معالم الجريمة

تحاك في وزارة الدفاع . هناك في وزارة الدفاع

رأيته يمهّر الجهاد

لكنما أعماقنا رأته به نوري السعيد

بنوهِ المَلطخ الجديد . . . (١)

خطاب قاسر عنيف اللهجة يرفعه الشاعر في وجه الطاغية الذي أبكى حتى الله ساعة أن أبكى شعبه وكان الشعب لم يكفه نوري السعيد في زمن الملكية وحلف بغداد الوصمة حتى جاء عبد الكريم قاسم يعيش في العراق فسادا ، وقد عرفه كمال شخصيا ورجع من لقائه لسيرد لبغداد تأكيدهُ النعم وسقوط الحاكم الغبي ، وتأكيد الثورة الشعبية التي تحققت فيما بعد . .

" لن تعقدي الغار على هامةٍ

فالشرق لم يعرف له مجرما

بغداد ، لن تعلوله راية

وتتكرّر مآسي الشعب مع حكّامه ، لا في تشابه بل إغراقا في التثكّر للشعب المتلهّف

الى أنفاس حياة نقيّة كسائر شعوب الأرض ؛ ففي أوائل السبعينات ، وقد مضى على انطلاق

الثورة الفلسطينية خمس سنوات ، تعرّضت لمجازر ومذابح جماعية في الأردن أودت بحياة

الألوف من الشعب والثوار الذين انصاعوا لرغبة عربية أطلقتها جماعة من الحكام ، وحشدوا

جموعهم المقاتلة خارج المدن وفي أحراج بعيدة عن أرض الوطن . ولبثت الوساطات العربية

تتناوّد الى الفشل واحدة فواحدة في الوقت الذي كان الشعب يعاني الأمرين : الجوع

والموت . والثورة تعاني كذلك الأمرين : التكريع والتحجيم . وكان الباهي الأدغم ، رئيس

وزراء تونس ، رئيسا للجنة العربية في عمان لتطبيق اتفاق القاهرة بين الثورة والنظام .

كان الباهي الأدغم يتنقل بين العواصم حتى بدا للشعب يومذاك أنه في كل مجيء يحمل

سلاما وحياة ووفاقا . . الى أن خاب الأمل وزهق الرجاء ممّا دفع شاعرنا المعهود بسخريته

الى تسجيل تلك الوقعة المرّة غير أغنية شعبية قديمة ^{تنضج} تتضح اليأس والشعور بالأسى ، وسخافة

طيبة الانسان أمام بطش السلطان . ممّا قال في ذلك :

" تريلم تريلم تريلم

قد عاد الباهي الادغم

قد رجع الباهي الادغم والشعب بعثان يغني . . تريلم تريلم

ويموت بوعي وبجهل ويحزن . . تريلم

ويكاد لشدة ما عانى ويعاني

في الهمّ وعبر سراب الوهم

يهتمّ ولا يهتمّ

١- قصيدة "رسالة الشهيد" في محفوظات مركز الابحاث ، غير منشورة كلها مع أنها تتمّة

للمنشور في الآثار الشعرية هو ٣٠٧ - ٣١٢ .

٢- قصيدة "يا شعبنا في العراق الأبي" الآثار الشعرية ، ص ٣٠٦ .

إن عاش الباهي الأدغم
أومات الباهي الأدغم . . . تريلم
ماذا في الأفق ومن يدري
لا تسألني وأسأل غيري
فأنا إنسان لا أفهم
مذ جاء الباهي الأدغم
ضيّعتُ مقاييس الأمر
وغدت برغبي لا ثوري
فلمت شريكا بالعهر
ولست شريكا بالقدر
لا تسألني وأسأل غيري
تريلم تريلم تريلم (١)

الصورة لإنسان صعقته خسة المؤامرة والتواطؤ العربي الواسع فيها ، فأفقدته القدرة على التفكير والمعرفة وتقوم الاوضاع ، وصار لسانه يعثر ما بين العمائية والفصحى . وليس أدل على التخبط الفكري من استعارته لفظة " تريلم " المضطربة الساخرة تتردد مطلقا ومفصلا وخاتمة . ووسط هذا التخبط العشوائي ، تطالعنا الآمال في سير متكررة ومتعاطفة لأبطال عرب رواد نرى من الواجب أن نتبين مدى تأثيرهم في وطنهم . يعتبرهم شاعرنا أبطالا يسعون لتحقيق أجمل أحلامه وأعدب أمانيه .

و - أبطال عرب

في الأردن ، قامت تظاهرات صاخبة ضد الرغبة الرسمية بالانضمام الى العراق وإيران في حلف بغداد الاستعماري وقد سقطت الطالبة رجاء أبو عماشة برصاص الخدر بينما كانت ترفع العلم العربي في احدى التظاهرات . وكان شاعرنا يسجل بعينيه ثم بقلمه تلك الملحمة البطولية بقصيدة طويلة مطلعها : (٢)

" أمّة فيها رجاء لن تزول

هكذا صلى الرفاق

يوم ناروا واستفاقوا

يحملون النعش ، نعش النائرة

والدم الحرّ مرقاق

والجراحات انطلاق "

هكذا يجعل الجراح أمكنة تنطلق منها الحراب وتندلع نيران الحروب ، وعهوداً على النار

١- قصيدة " تريلم تريلم " ، غير منشورة ، في مركز الابحاث الفلسطينية .

٢- قصيدة " الشهيدة رجاء " ، الآثار الشعرية ، ص ٣٣٨ - ٣٤٢ .

للشهيدة وخلوداً سرمدياً ، الى أن يقول :
" في ثرى الاردن يسمو اليوم قبرٌ
هو قبر لرجاء
يتنزي بالإباء "

كله نور وسحر ، ومصابيح وفكرٌ
نسجته في العلاء أيدى الخفاء . . .
والرفيقات اللواتي يتنن ينسجن الفداء . . .
ونضال لم يهن يوماً بأحلام النساء بأحلام
وهراع أبدى للبقاء
انه يوم رجاء . . . "

وقد جعل يوم الشهيدة ذكرى مقدسة ويوم عيد .
وفي سوريا كانت له وقفة ملحمية طويلة أمام رحيل الشهيد عدنان المالكي في حفلة
تأبينية له عام ١٩٥٩ ، فخاطبه بقوله :

" وكنت يا عدنان . . . "

ولم تنزل تطاول الزمان
تختصر الحدود والمكان
في ثورة البقاء والنزول
وثورة الأجيال

في كل شبر ملهم بالمجد والنضال . . . " (١)

الس أن يقول :

" عدنان بعد لم يزل هنا

يصيح ملء درنا

يصيح ملء شعبنا

يصيح ملء حشدنا

رسالة الشهيد . . . أن ينتصر الشهيد !! "

كانت قصيدة مطولة (٢) تنفس بها شاعرنا وقت كان البعث متجلياً فيه بفكره وعقيدته ،
وفلسفته للشهادة الكبرى عبر أحد أبرز قادته . ولا يختلف أسلوب هذه القصيدة من حيث

التعبير ، عن القصيدة السابقة بسبب وحدة الموضوع العقيدى ووحدة الشعور في كلتا الحالتين .

١- قصيدة " رسالة الشهيد " ، الآثار الشعرية ، ص ٣٠٩ وما بعدها .
٢- نشر قسم منها في الآثار الشعرية من صفحة ٣٠٧ إلى ٣١٢ ، وظل قسم يطاوله غير
منشور محفوظاً في مكتبة مركز الأبحاث الفلسطينية - بيروت .

وإذا كان وطن الشاعر هو الوطن العربي الكبير ، فلماذا لا يغني بطولات شعبه في طوله واتساعه ، ومع نسائه يمثل ما مع رجاله ! وليس انتصار الشهيد الا موازاة مخضبة لانتصار البطلة الجزائرية جميلة بو حيرد وهي تخوض حرب التحرير والكرامة ، وقد لفتتني حينها أنظار العالم الى بطولاتها النادرة والى وقتها الاسطورية بين أنياب الاستعمار الفرنسي وقد تمكنت من وضع قبضته بين فكيه كمثل حديد اللجام فتلاشى الفكان بأنياهما ، وانتصرت القبضة الحديدية فانتصر الانسان . وراح الشعراء يعظمون جميلة . . . ينظمونها وينشدونها ويبثونها مع كل الرياح الربيعية ، فكان أكثر من طبيعي أن ينافس شاعرنا كل أولئك في تقديم قرابينه على حواف هيكل جميلة المتقد بنار إلهية وفي رواية حكايتها :

" السجن والقيود يا جميله
حكاية يعزفها حمانا
حواء يا شهية المعاني
آى روى مشت الى دراك
حكاية في درنا طويله . . .
منذ قديم العمر في الطفوله . . .
والمقلة الحاملة الكحيله . . .
فاشتعلت بالمجد والرجوله " (١)

وفي القصيدة سرد قصي وفي لإحدى ألفاظها " حكاية " وخاصة في اختيار الشاعر للقافية الهادئة خاتمة مرحلية لأبيات قصيرة كي تناسب المقام السردى وتواكب المعاني من هجس وهدس ووثبة وثورة " ، وكلها حركات متتابعة . ثم يمعن في التساؤلات المجاب على أكثرها بالفطرة ، الى أن يخاطب جميلة خطاب الحاسد على الموقع . . .

" لا تعبثي بالقيد في يدك
ترى بماذا تهجس الأفاحي
مواكب الايمان ، فاستنفيقي
قومي انظري الجيل الذى نماك
قومي انظريه نائرا الحنايا
فكل سجن في العلى خميله . . .
وتهدس الزنايق المطلوله . . .
تلقينها دفاعة خجوله
في الوثبة الكبرى يباهي جيله . . .
يحمل في جراحه بتوليه " (٢)

لقد برع الشاعر في رسم عناصر للصورة وظلالها ، فمن القيد جعل البراعم كلها " خميلة وأفاحي وزنايق " من عصف الرياح أنبت الربيع الزاهي ، يدفعه الى ذلك تفاوته واستبشاره بالنصر وتحطيم القيود وهو يرى مسحة القداسة على " جميلة " المناضلة السجينة . . . وكمن قد يس بعد صعود سيده ، راح يشع بالنور الإلهي من وراء قضبان السجن الشبيه بسجن جميلة ! فمنها صدرت ألحان عذبة ودموع غزيرة ، فلا الألحان تغنياً بالسجن كانت ، ولا كانت الأدمع حزنا من إسار وحنينا الى الذل في الديار ؛ ولكن ، عندما تبرز النساء الرجال في ميادين النخوة والمجد ، ساعتئذ يقال :

" ما أجمل الألحان أطلقتها
وأفتك الدموع إن تـمـرّت
بلايل محبوسة مغلوله
على النضال ، دمعة بخيله " (٣)

١- قصيدة " الى جميلة " ، الآثار الشعرية ، ص ١٩٩ .

٢- نفسها ، ص ٢٠٠ - ٢٠١ .

٣- نفسها ، ص ٢٠١ .

وكلمة حق ووفاء لا يمكن أن ينساها شاعرنا في معرض تقديم المناضلة الجزائرية
جميلة " ابنة ثورة المليون شهيد ، كلمة يزجها الى قائد تلك الثورة " احمد بن بيلا " وقد
تعرض لمثل ما تعرضت له مواطنته من اختطاف وأسر وغير ذلك من تعميدهم للابطال على أيدي
الفرنسيين . وصفه كمال بالفارسي الأبّي المشعّ بين المناثر وقد راح النور يتواثب حوله جذلان
كتواثب الخيالات العذبة في مخيلته ، حتى راح يسأل نفسه عن ذلك الفارس :

" أتراه طيفا بدا لا بين بيلا
هّب من سجنه الرهيب على الشوق
يلثم الزهو في جبين مغانيه
ربّ ليث مكبّل في فرنسا
لم يزل منه في الوجود زئير
وهنّ القيد في يديه عياء
مشرقا بالعطاء يقظان ساهر
ليحظى بصحبه في المغاور
كما النحل في ثغور الأزاهر . . .
عربيّ الجنان ظمآن صابر
تدعيه على الوجود القساور
فهوى مثنى العزيمة خائر (١)

ونلمح شعرا تأريخيا للمراحل التي مرّ بها المناضل الجزائري الصامد رغم القيود . البطل
لا يفاخر البطل بالثورة ، ولكنهما يتفاخران معاً : جميلة وابن بيلا ، كلاهما " وهنّ القيد
في يديه عياء " وكلاهما كان في سجنه شوكة في جانب السجان أقضت مضجعه ، وكلاهما
سطر للرجولة في البطولة سفاهاً متميزاً وبديعاً كلما قرأه الشعراء فتفتحت قرائحهم . ما أضعف
شاعرنا حيال البطولات ، فكيف اذا كانت اسطورية خالدة لم تنتصر آنياً ، بل انتصرت مستقبلياً
مع رجاء والمالكي قبلاً ، ومع غيرهما كما سنرى .

في قصيدته " رسالة الشهيد (٢) يذكّرنا الشاعر ببطلين عربيين تركا في العراق أنسرا
على الرغم من قصر الأجل . أولهما الصباح النائر في ثورة رشيد عالي الكيلاني عام ١٩٤١
وقد أعدم . وثانيهما الشواف الذي قاد انتفاضة الموصل في آذار ١٩٥٩ وقد كان متوقّعا
لانتهاضه أن تنجح في الاطاحة بحكم عبد الكريم قاسم لولا أن غدر به الشيوعيون على يد
حلاق في الموصل قام بذبحه . ويبدو أنّ لأبطال العراق نصيباً أكبر في شعر كمال ناصر ،
وربّما لكثرتهم في العراق الذي عرف البعث باكراً فعرف فيه البعث العقائديين الذين لُدّ
لهم الموت وابتسموا له ، فماذا ينيرهم لو

" صرعوا (ناظم) لو يدري الحمى
قتلوا (رفعت) لو تدري المنى
أي مجد في حمانا نظموا
أي درب للأمانى رسموا (٣)

وختاماً ، كانت لشاعرنا وقفات إكبار أمام بطولة أحد قادة الحركة الشعبية في
المغرب وأحد معارضي الحكم الملكي فيه . هو المهدي بن بركة الذي اغتاله القائد

١- قصيدة " في رحاب الجزائر " ، الآثار الشعرية ، ص ١٩٦ .
٢- في الجزء غير المنشور منها في الآثار موجود في مركز الأبحاث .
٣- قصيدة " جرح بغداد " ، الآثار الشعرية ، ص ٢٥٧ . والشهيدان ناظم الطبقجسي
ورفعت الحاج سري من قيادات الضباط الاحرار في العراق . حاكمهما المهدي و
أعدهما في عهد عبد الكريم قاسم البائد والذي استمر من ١٩٥٨ - ١٩٦٣ .

العسكري الموالي للملك - الجنرال أوفكير - في باريس مما أثار في العالم ضجة وصخباً
واتهامات مباشرة للنظام المغربي . فكان لشاعرنا أكثر من اصبع اشارة وقصيدة مجّد بها
صديق شبابه ورفيق نضاله في خدمة الشعب . . . تساءل في إنكار العارف ، إنكار الموت
الفعلي لفكر المهديّ ونضاله ، والاعتراف بموته الجسدي فقط . . .

" المهدي مات !

من قال بأن المهدي مات ؟

المهدي أحلام لا تفتنى

المهدي معنى وحياة

أسمى بطلاً . . . رمز الأجيال الموتورة . . . والمقهورة . . . (١)

والشاعر في تعابيره يستعين بالفاظ خاصة من القاموس السياسي اليوميّ كمثل " الموتورة . . .
المقهورة . . . " وكذلك الأمر معه في اسلوب السؤال متّعهما :

" أين المهدي ؟ من قتل المهدي ؟

من سدّد للشعب الطعنات ؟

الشعب تعدّد به الهمسات

والدار البيضاء تطاردها الهمسات

باريس تمدّدها الشبهات

والشعب الطيّب في الحانات

يسترجع تاريخ الغابات

شغلته جراحات المهدي . . . (٢)

تساؤلات وتساؤلات واتهامات كلّها بصيغة الجمع دلالة على جماعية القتل والتصفيات
الجسدية للخصم السياسيين فقد تأمرت الدار البيضاء وتواطأت باريس لقتل الانسان المكافح
لحياة بيضاء بيضاء . . . ولم يفكر أحد يوم قتل المهديّ ما حال " بنيات كورغب القطا رددن بعضاً
على بعض . . . "

" أطفال المهدي . . . زوج المهدي . . . أم المهدي

الحب الفائع في المهدي

الشوق وأصداء القبلات

واليتيم وأحلام الزهرات

أحلام في عمر الورد تتهادى في جفن البعد

ومن يعلم ؟ فقد يرث نضال المهدي غير جميلة وناظم وابن بيلاً . . . عندئذ يكون الشعب قد

هزم أمره للنار من سقّاحي المهدي . . .

" ليقتل في الحكم النزوات

فندم المهدي . . . معنى وحياة

ودم المهدي نار وصلاة

١ - قصيدة " أين المهدي " ، غير منشورة ، لديّ من مركز الأبحاث . . .

كمال ناصر شاعر الـ "جراح تفتي" سواء أكانت جراح وطنه وشعبه الـ رازحين تحت الاحتلال والتشريد ، أم جراح أمته الموهنة في القيود ، أم جراحه هو متأثراً بما آل إليه شعبه ووطنه وأمته . لذلك ، فالالتزام عنده مطلق دخل الحياة من بابها العريض على معيدين : الأدب والنضال . وحمل شعره الهوية الفلسطينية الى جانب السمات العربية من خلال الموضوعات التي طرحها وطرقها ، من وطنية وقومية وسياسية وانسانية واجتماعية ووجدانية .

من الزاوية الوطنية ، قابلناه في هذا الفصل في قصائد منها " فلسطين الأبية - الدمعة الحاقدة - في فلسطين - زعامات بلادى . . . " ومن القومية في قصائد " السى جميلة - جرح بفساد - اسكندرون - في رحاب الجزائر - الثورة مصر - من وحي الوحدة - الشهيدة رجاء " . ومن قصائد الانسانية والاجتماعية " عودة النائر ، نداء الخيام - صرخة الخيام - شاعر في العيد . . . " أما قصائد الوجدانية فقليلة هنا وان كانت تتوزع ابياتها أحيانا على قصائد ذات موضوعات مختلفة . حسبنا الاشارة الى قصائد " الى أمي - حقيير - اين المهدي - لبنان - من الاعماق . . . " وفيها نفسها يمازج بين ذاته وذات وطنه . والشاعر في كل هذه القصائد ممجد للحق والحرية ، نائر على الاستعمار والظلم ، مشعل الحماسة في الصدور باسترجاعه صور البطولات العربية الماضية فلسطينية كانت عبر الشهيد بن عبد القادر الحسيني وخالد الـ شرطي ، أم عربية واسعة عبر جميلة بوحيرد الجزائرية والشهيدة رجاء في الـ اردن ، وعدنان المالكي في سوريا ، والمهدي بن بركة في المغرب ، وغيرهم . . . في هذه الذكريات ، كان كمال انسانا يتقلب بين مشاعر الحزن والتضحية والشك والايام .

وكان طبيعياً أن يفرد الكثير من شعره للشهداء والثوار وهم وجه الوطن وقلبه . ولشباب الجيل الجديد بناته حراً سيّداً ، فكانت قصائده " رسالة الشهيد - الشهيدة رجاء - الأنبياء الصغار - مصر البطل - جريمة الأوس " . وفي استرجاعه التاريخ لا ننسى قصيدته التي ذكّرت به " لغم باب العمود " نسبة الى الحادثة نفسها ، لعلها تنفع الذكرى . من الوطن استمد موضوعاته ، ومن ألوانه لَوّن صورته ، وفي جراحاته عمق عواطفه وأحاسيسه فتدفق منفعداً بأسلوب مباشر وعاطفة جيّاشة مخاطباً العقل والقلب معاً في شعر رقيق عذب هو كالغزل الا أنه في الوطن الحزين .

كان يعاني من محاولات اقتلاع الوطن وقطعه عن ماضيه ، فأدرك أنه بالشعر يمكن الاتصال بالماضي والارتباط به ، فأركن الى القصيدة العمودية في تقليد معنوي للتراث العظيم ، فجاءت أكثرية قصائده في هذا الفصل عمودية ملتزمة بالقافية الواحدة التي تحدث الرنين الساحر والايقاع العذب في تواترها ، فالدعوة الى الوحدة العربية وتعميق مفهوم

القومية والتغني بالبطولات العربية ، موضوعات يجب أن تكون مبنية على تقاليد عربية عريقة تذكّر بالماضي على سبيل الحث على استرجاعه . والشاعر ، حتى في قصائده الحرة ، ذات الأشر غير المتوازنة ، لم تفارقه التفعيلة الخليلية والوزن ، حتى القافية كانت تتنوع في القصيدة الواحدة ولكن من خلال مقاطع قصيرة متواصلة تتم في ذلك عن ايمان الشاعر بقدره القافية على تحقيق وقع هو بالضبط ما تحقّقه " الطبول " في الفرق الموسيقية العسكرية إثارة للحماس والتنظيم المشرم . ثم ان المواقف الخطابية كانت تفرض على الشاعر ألفاظاً حماسية فخمة مستمدة من واقع الحال وواقع الثورة ولاسيما أن شعره قد ولد وسط ضجيج المعركة . فاعتمد القصيدة العمودية الكلاسيكية وسيلة للتأثير في النفوس كما فعل في قصيدتي البعث^(١) . هذا لا يعني ان قصائده الحرة لا تحقّق مثل هذا ، فهو قد أبدع في قصيدتيه " الدمعة الحاقدة - يا مجرمون " ^(٢) رغم تمزق الابيات ولكن من خلال القوافي المتكررة ذاتها بين الغينة والغينة ، وعلى الرغم من انتقال الشاعر في قصيدته الثانية من الشكل الحر إلى الشكل التقليدي العمودي فنعتبر هذا الانتقال إما عفويًا وإما مقصوداً ، وفي كلتا الحالتين تعزير لمدھبنا إلى أنه كان يرتاح إلى الشعر الكلاسيكي في كل حياته أكثر من سواه^(٣) .

ولا يسعنا إلا الاعتراف بتأثير الشاعر بالموجة الجديدة من الشعر الحر حين عالجه في أكثر قصائده الربع الأخير من حياته فيما عدا قصائد المناسبات الخطابية التي كان يُنطقه فيها التزامه الوطني والقومي والادبي فجاءت ذات سمات ملحمية وزناً وموسيقى وألفاظاً صاخبة ، وموضوعات متصلة بماضي الشعب وحاضره كقصيدتي البعث ، وبعض مطوّلات " أنشودة الحقد " و " إنّا حملنا عن المصلوب رايته . . . " ^(٤) .

أما القصائد الهدية المتحررة من الوزن الخليلي جملة وتفصيلاً ، فلا نكاد نقع عليها في هذا الفصل ، حتى في آثاره المنشورة كلها نلحها في قصيدة واحدة هي " البهلوان الأعظم " ^(٥) ولكن موسيقاها بين سواكن ومتحركات ، تعوّض عن القافية والوزن التقليديين . أما قصيدته غير المنشورة " تريلم . . . " فموسيقاها شعبية ، لا خليلية ، تمشياً مع تسميتها ومع مضمونها . ولا بدّ من الاعتراف كذلك بأن الشاعر ظل في كل كتاباته شديد الاهتمام بموسيقى القصيدة ولاسيما أنها قصيدة غنائية في الوطن والثورة . كما أنه راعى قواعد اللغة الى حدود بعيدة وإن زل أحياناً ، فمنجرفاً بتيار الموسيقى العذبة إلى أن ينسى نفسه .

كذلك اهتمّ كمال ناصر بدقّة اللفظة لاسيما إذا كانت تدور القصيدة حول فكرة خاصة ، فقد اعتمد اللفظة المناسبة - ولو سوقية - يردّها العامّة قبل الخاصة ، كقوله :

- ١- الآثار الشعرية من صفحة ١٢٨ - ١٤١ .
- ٢- الآثار الشعرية ، ص ٢٣٦ و ٩٥ على التوالي .
- ٣- سنّفصل هذا في الفصل الأخير ان شاء الله . ص ٣٢٢ .
- ٤- الآثار الشعرية من صفحة ١٤٦ - ١٥١ .
- ٥- صفحة ٣٨٢ - ٣٨٦ .
- ٦- سنبيّن هذا أيها في الفصل الأخير . ص ٢٩١ .

"هل تعمّدت رقيقاً في القطيع
لا تخف ، واسخر من الجرم الفظيع . . .
وأنا اليوم - على رغي - شيعي . . .
هالهم أن حطّم الشعب أساطير الخضوع
فضوا يحدون في ذلّ وضع
ويقولون : هنا شعب شيعي ! (١)
إلى أن يقول :

"كل عشرين لهم رطل طحين
ويعود بالفرج . . . وهدايا ووجع"
ومن الملاك الغني . . .

"هام بالاقطاع واستعدي البرية
همه كأس وسيجار ندييه
وصبايات ، وحسنا شهيه"
ومن الالفاظ السوقية كذلك ، بعض ما ورد في قصيدته اللقيطة " نكتطف منها :

"شيدوها مستنقعا للدنيا
دولة للخنا أقام بها الإنم
سوف نأتي لنصفع الظلم والرجس
تحضن النازحين فتفنى

فازدهاها التقويد والخيلا
وماجت في رحمة الفحشاء . . .
فتبيضن بالسنا الأرجاء . . .
في سماها الأثقال والاعباء . (٢)

وكما اهتمّ بموسيقى القصيدة وألفاظها ، فقد اهتم بوحدة موضوعها على غير ما كنّا نعهده
في القصائد الكلاسيكية القديمة . وفي هذا الفصل تطالعنا قصائد الوطنية والقومية
والسياسية بحقيقة الالتزام الشكلي والالتزام الضمني ، ولا تكاد تخرج عن وحدة الموضوع الا
تلك القصيدة التي أمكن تهيئتها لتلقى في مناسبة استفاد الشاعر من خصوصيتها للتعبير
عن خصوصية مشاعره وأحاسيسه الوطنية . كذلك فعل في خطبته "إنّا حملنا عن المصلوب
رايته" بدأها بذكر المناسبة والحنين إلى لبنان ، ثم تعظيم الشاعر المحقق به ما بين
الشكوى الذاتية ومعارض البطولات ، وصولاً إلى الفدائي الفلسطيني ، وانتهاءً بالشاعر
المحقيق به ثانية .

وإذا كان مفيداً الاستشهاد بقصيدة تتسم بوحدة الموضوع ، فإنّ " من الاعماق " (٣)
تحقق هذا وأشياء أخرى أدناها سمو العاطفة واضطرابها ، ومدى تعلق الشاعر بالشكل
الاتباعي للقصيدة فنظمها على البحر المتقارب رغم انها معارضة لقصيدة فدوى طوقان

١- قصيدة "النسر الشيعي" الآثار الشعرية ، ص ٢٩٥ - ٣٠١ ، ومنها الاقتباسان
التاليان .

٢- الآثار الشعرية ، ص ١٨٥ و ١٨٩ .

٣- الآثار الشعرية ، ص ٣٤٩ - ٣٥١ .

"المغرّد السجين" مرسله اليه وقد كان من حقّه أن يحرّرها من البيت التقليدي ذي الشطرين ومن القافية التليدية كما فعلت هي بالبيت والقافية . ولكن كمال ناصر عرض رغبته دليلاً على طول باع في الشكل مع المضمون جنباً الى جنب فصدت قصيدته نشيداً رائعاً من أناشيد الحرية . ولعل شاعرنا يرى التجديد أهمّ ما يكون في المضمون أكثر مما في الشكل . لأجل هذا ، رأينا غير قادر على الانسلاخ عن الشكل الاتباعي للقصيدة ، ولكنه قادر جداً على الانطلاق في آفاق المضامين الجديدة التي فرضتها عليه حالة وطنه فلسطين وشعبه ، وأوضاع الوطن العربي المختلفة ، فغمس ريشته هنا وهناك غير آبه بالزخرف الفني فهو هدف بحد ذاته ، ولكنه منشغل بابتكار الصور الجديدة تحمله اليها بعض الاساليب البيانية من تشبيه واستعارة ومقابلة ومجاز وغير ذلك . . (١)

وحسبنا في ختام هذا التقييم لشعر الاتجاهات الوطنية والقومية ، أن نشير الى الاساليب التي اعتمدها الشاعر في مخاطبة جمهوره الذي لم يكن سوى شعبه الذي يصغي الى شعر يلبّي حاجات نفسه وضميره ووجوده .

ففي قصائده الوطنية يطغى اسلوب التوكيد وكأنّ الشاعر يؤكّد بالقول ما يريد تأكيداً بالفعل حول حقيقة الارتباط المصيري والالتزام بالقضية الكبرى . وفي هذا الباب يدخل القسم عنصراً مؤكّداً آخر . وعلى سبيل المثال لا الحصر ، يمكننا ملاحظة التوكيد في قوله : " لا هوان ، لا ذلّة ، لا سلام ، لا احتواء ، لا تبعه ، لا حصار " . هذا نفيّاً ، وإيجاباً يؤكّد " من سار في درب العلى ، لا بدّ أن يموت " . " أردت أن أغيّر الدنّى ، أردت أن أعيد مولدي ^{مولدي} وإليّك إيليك . مددت يميني " و " لقد كفرت بالقطيع ، لقد كفرت بالقطيع " وتكراره " أنا " عشر مرّات في بداية عشرة أبيات في قصيدة واحدة (٢) . وفيما يكثر من الاستفهام نراه يؤاخي ما بين التوكيد والاستفهام كمثل قوله " أنت لم تطوّه جباناً ، هل ترى من عليه " في مخاطبته للموت الذي غدر بالبطل وها هو مهول فوق نعشه . أما الاستفهام المحض فيتكرر بشكل ملفت : " كيف ننسى الهوان ؟ كيف ننسى المروءات ؟ " . ومنه الاستفهام الإنكارى " أتبكين ؟ ماذا ؟ أمات أبوك ومات أخوك ؟ " كما قد يجمع الأمر بالاستفهام فيقول : " قل للعذارى . هل يعرف المجد أغلى من عذارانا ؟ " مثلما يجمع الأمر مع النداء : " يا طيف ، هذا خنجري فاضرب به اضرب جارحاً مؤمناً " و " أيها الموت ته علينا وفاخر " و " يا أيها الجيل من أبناء أمّتنا ، لا تخمدوا ثورة الايمان في دمكم " . هذه الامثلة السريعة تصيب كبد الحقيقة التي عانى منها الشاعر في وطنه ، وشعره ثمرة لتلك المعاناة ، فحقّ له أن يتألّم فينادي من يعتقد بقدرته على الرأفة به ، ويستفهم عن الخطيئة التي استحقّ وطنه العذاب لأجلها . ولكنه يستدرك ويؤكّد أنه لن يستسلم للحزن ، تأكيداً صارماً : " أنا الشعب ، فلتسمعي يا ذرا نشيدي " و " قد صحا المارد الجريح " و " لا تخافوا فقول الحقّ مرحة " .

١- سنّفصل ذلك كلّ بالشواهد في الفصل الاخير ان شاء الله . ص ٣٠٤ - ٣١٣ .

٢- الآثار الشعرية ، ص ١٧٢ .

أما في قصائد القومية والسياسية ، فيطغى الاستفهام وكأننا بالشاعر يرمي في وجه الزعماء العرب والسياسيين علامة استفهام كبيرة صلبة تحمل العقاب ولا تحمل الثواب . يسألهم : " أين الطريق الى آفاق وحدتنا ؟ ماذا دهي العراق ؟ وما هناك في العراق ؟ من ترى القوم زرق العيون بيض الخدود ؟ أتراهم من القراصنة البيض من عالم مضى مؤود ؟ " كما قد يتضمن استفهامه طابع المعرفة المسبقة بالجواب : " أتراه طيفا لابن بيلا مشرقاً بالعطاء ؟ أتحبون أن عُرد للبعث ؟ ليس عندي فقد سفحت شبابي فيه .

وإذا كنا نفتقد اسلوب التوكيد في هذا القسم قياساً الى ما سبق ، فإن النداء هو الوجه الطبيعي المقابل للاستفهام . نادى الزعماء والساسة ، ونادى نفسه والطبيعة وكل من استشعر بغيرة منه عليه . ولعل نداءه الأشهر : " يا أمة ظمئت والماء يغمرها . . . " وفي الحال كالجهم نادى " دمشق ، يا بلد الأحرار " ونادى الجراح " يا جراحات شعبنا لا تبالي " . ولما ذهب نداءه في كل واد ، نادى الخيال : " يا خيال الصحراء ، ماذا دهي الحكم ؟ " وعبثا كل ذلك ، فالتجأ منكفئاً الى الشعر وسيلة للخلاص يناديه بحرارة ولهفة : " يا شعر لم يبق لي في حرقتي الآن " سواك . يا شعر خذ بيدي

وبعد ، اذا كان المنادي في نداءه سابقاً في عوالم مجهولة ، فإنه ، مستفهماً ، غارق كذلك في عوالم مجهولة خلقها الله جنات تجري من تحتها الانهار فحولها بنو البشر مستنقعات ، وإلا ، فما معنى السكوت عن جريمة ضياع فلسطين جزءاً متقدماً وأولياً من الجسد العربي الكبير ! ولكن موقف الشاعر أزاء كل هذا بينه وبينه نفسه حين أكد أن " لا هوان ، لا ذلة ، لا احتواء ، لا تبعة ، لا حصار " وكان منطلقاً في هذا من ثورة شعبه التي انخرط فيها تقرباً من وطنه وسلاحه الحاد شعر مقاتل ازدهت به حياته فقال :

"عشرين عاماً بعثت الشعر عاصفة من التضال ووشحت الدنى أدباً" (١)

الفصل الثاني : الاتجاهات الانسانية

مقدمة منهجية

تفصيل الاتجاهات الانسانية هذا يتنازع الأسبقية مع الفصل الأول من باب التساؤل : هل يحقق المرء حريته الوطنية قبل تأكيد انسانيته الذاتية ؟ وهل تتحقق الانسانية الذاتية بمعزل عن تحقيق حرية الوطن ؟

في هذا الجؤن درس نزعة الحب لدى الشاعر وهي طبيعة متأصلة في نفسه ، مقدّمين آياها ، تفاؤلاً ، على طفرة الحقد . وعودة الى ينابيع الايمان تفجرها المسيحية والاسلام فيلهج بها الشاعر في أناشيد . ثم نقم على أجنحة الشعر برحلة في رحاب الله والحياة متتبّعين مسيرة الشاعر النفسية والايمانية في تعرجات السماء والأرض بعد الاشراف على انسان مفعم بالحب قلبه ، ولكن الحقد يبلغ منه مبلغا يلزما بالتوقف والتأمل لعل ، ولا بد من أن يكون ما في القلب خبيثاً ، دافعا الى الحقد بقوة .

وفي هذه الرحلة سوف نتعرف الى أساليب الشاعر اللغوية التي أنشأها بغية جذبنا الى جنبه حسّاً وشعوراً ، وهي أساليب اشتمر بها واختص لقدرة أشكالها على أن تصبغ أطرا تستوعب ، فتنتقل بدقة صورة ما يوضع في داخلها . فنحن نستطيع أن نقرأ حياة الشاعر في هذا الفصل شعراً خالصاً من غير الحاجة للعودة الى أي ضوء يلقيه امرؤ أو كتاب أو هادئة على حياته وشخصيته .

١ - الحب

أ - الأم

نحن أزاء شاعر - انسان يتطرف في كل ما يهوى ، وفي لكل ما يحب . وبين حبّ الأم وحب الوطن يهارج النفس مرفقا ، فهل يستطيع التحقيق ؟ واذنا قلنا : الوطن ، فهو الايل الى الضياع ولا مفر من المعركة . حبّ الأم اذن ، مقابل خوض المعركة .

يعيش كمال هذا الواقع الصعب على ثلاث مراحل : في حزن أمه ، وفي خضمّ

المعركة ، ثم في حزن أمه مستقراً .

ما ان يفتح عينيه على المأساة ، ويفتح قلبه على الجراح ، حتى يبدأ التنقيب عن

مستراح فلا يجد الا ذكريات الطفولة وأمّه . .

عن سرّ آلامي وأتاني
حزني . . وأشلاء اسبتساماتي
بحنانها الظمان من ذاتي
هماً وتقسو في مناجاتي
طفلاً ، أعاني من شقاواتي
أحلى سوهعاتي وأوقاتي (١)

وتصيح بي وتصيح تسألني
قد هاجها ألي وروعها
فضت تهددني وتسرقني
وتلجّ في نصحي وتقبرني
وتردني ولدا وترجيعني
تستلهم الماضي ، تدگرني

تصوير دقيق لعاطفة الأمومة المتدفقة وقد ترجمتها حركات تتم عن ذوبان القلب الحاني على الطفل حنو الخائف من احتمال فقد . وما تصرفاتها هذه الا لكي تحتفظ به لنفسها دون واجب يدعوه . ولعل الشاعر قد أدرك سمو العاطفة الرقيقة ، فعزم على الاحتفاظ بها من غير أن ينسى واجبه ، فقال :

سألّمها في قبضتي ووطنها
فوجودها كل احتياجاتي (١)

سيلمها استثنارا بحبها ، فمن أنفاسها عبير الوطن ولا حياة له بغير أنفاسها . ومن خير منها تسهر على آلامه تهدده بغنائها العذب لكي ينام وينسى . وأجمل من الهدية ، تلك الكلمة التي يقولها العائمة " تقبريني " دليلاً ساطعاً على تفاني الأم في سبيل سعادة طفلها ، لا بل هي على استعداد لاعتباره طفلاً ولو جاوز سن الشباب . ذكريات عذبة وإن كانت تحمل بعض ملامح الحزن والألم .

ولكن ، هل كان يوسع الشاعر الاستغراق الأبدى في أحلامه وذكرياته ؟ أم كان

حبّه لها مدخلاً لكل حب آخر ، وخصوماً الوطن وهو يردد :

أنا نائس ، روحي تطاردني
ضاعت على درسي سماواتي (٢)

يضئ السماء بعدما كاد أن يضيّع درب الوطن . " الذئب ذنبها " فهي التي أرضعته الحب . وللوطن أعظم الحب . علاقة تكاملية بين الوطن والمعركة التي تطرق الابواب . وتمرّ بعض قطاعات الجيوش العربية بقرية بيززيت في طريقها الى معاركة الصهاينة ، فيهرع كمال للحاق بهم . وكما تفعل كل أم ، تحاول أن تشبه بكلمات رقيقة مشيرة للشفقة على قلبها الحنون . ولكنه لا يلبث طويلاً بين يديها ، يتغلّت مؤثراً حبّ الوطن . ويخاطبها مفاجئاً بأمر يراه مفروفاً منه :

" ولا تطرقي ١٠٠ "

فوجهك هذا الحزين

سأنساه في فرحة المعركة (٣)

علّمته الفرح في عزّ الوطن ، فلتعلمه الحرب في محنته . ولن يستدرّ وجهها الحزين عطفه ولا يحني كبرياءه ، فهو شغوف بالفرح ولا سيما فرح المعركة التي لن تكون جراحها أشدّ إيلاً من جراح الذلّ في صدره . وهذه الجراح أيضاً تعدّ بها هي ، فلماذا تسفح دموعها كفراً ؟ إن في عينيه من بيض الرغاب ما يتخطى الميادين والأمداء والأجيال ، فلن يكون الدمع عن التساقط مسؤلاً . فيا أم ، لك مكانتك في نفسي ، إلا أن . .

" دموعك كفر فلن ترجعيني

ولن تضعفيني

فحقي يريد الذهاب

١- القصيدة السابقة ، ص ٥٤ .

٢- م . ن . ص . ن .

٣- قصيدة " إلى أمي " ، الآثار الشعرية ، ص ٢٨٦ .

الى المعركة
الى الجد كي أدركه
صلبت مصيري هناك
هنالك بين الشعب
والمحبة باسمها هازجاً
يرفرق بين الحرب (١)

تشبيهه بليغ : دموعها كقرّ بعينه . وتأكيد جازم أرفعُ منه نفيه التراجع والضعف " لن .
لن . " فإن البشر الواصل اليه لا محالة ، لا تبصره الا عيناه وحدهما ، فلن يشعر به
أحد غيره . هو ما تخلفه المعركة من مجد الانتصار او الشهادة وكأنه يتنبأ بمصير ينتظره
على الصليب . وجعل المصير أكثر من باسم ، تذكيراً بفرحة المعركة . ولم تكن أمه لتتصور
ذلك المصير وهو يقول في ختام قصيدته نفسها : " مصيري . مصيرك بين الحرب / وهذا
الدهاب " ولكنها ، وقد علمت بنهايته ، ما زالت توقن أنه لم يمّت وتنتظر عودة مسيحتها الخاص
الآتي لا محالة . (٢)

كانت تحبّه وتحب وطنها ، ولكن ابنها كان أثيراً . لم تزعه عاطفتها المتأججة
ولكن لكل قوة في الوجود مدى يجب أن لا تتعداه أو أنها لا تستطيع تعديّه . وحاول كمال
أن يسير في عالمين متكاملين : الجغرافي ووطنه ، والانساني أمه . ويعودة الجيوش العربية
من المعارك خاسرة ، ومرور الشاعر بتجربة التشرّد والفرار من السجن عام ١٩٦٦ ، نتوقف
ملياً مع صوته الذي يشكّل نقطة الانكسار في خط مسيرته الأول نحو المعركة ، ولكن عودة
عنها الى حضن أمه . يقول : " كان دليلي يجهل مسالك الطريق . فتّمنا ساعات طويلة ،
وأهسست بغربة ووهشة وبشيء من الخطر . فبدأت هذه القصيدة - من لا مكان في الدنيا -
تجول في خاطري . ولم أجد أحسن من صدر أمي أبته أشواقي وآلامي في هذه اللحظات
التي كنت أضيع بها . " (٣)

لقد تغيرت لهجته هنا عمّا في القصيدة السابقة . كانت لهجة عنيفة تحمل الاصرار
على ما لا بدّ منه في رأيه ، فأصبحت تكلمة للهجة القصيدة الاولى . حيننا الى ذكريات
الطفولة . ونحسب أن عوامل ثلاثة أثرت على تطوّر خطّه الى المتّجه الأخير هي : الشعور
بالخيبة من تراجع الجيش الذي التحق به لأول مرة . والشعور بتخطّم المثال بعدما سجن
اثر اقتتال جناحي البعثي سوريا وتعرّضه للسجن عام ١٩٦٦ حتى فراره منه . والشعور
العميق بأن أوفى الملاهي وأرحبها وأكثرها صفحاً وحناناً هو حضن أمه . بعد شعور

١- قصيدة " الى أمي " ، الاثار الشعرية ، ص ٢٨٢ - ٢٨٨
٢- خلال لقائي بها في بئر زيت يوم ١٣ / ١٠ / ١٩٧٦ ، حدّثني عن كمال كما لو كانت
تنتظر رسائله أو عودته ، وقد فقدت جزءاً من ذاكرتها بعد استشهاده .
٣- هذا التقديم للقصيدة المذكورة " من لا مكان في الدنيا " مسجل معها بصوت كمال على
أسطوانة يلقي من عليها أربع قصائد له هي هذه و " المظلة الضائعة " و " انتظار " و
" النبي العاجز " .

متصاعد بالخيبة والفشل، نراه يلتصق العزاء لدى أمه التي طالما رددت على مسمعها :
" أمّاه .. يا ظلي ومراتي

فنادى " أمّاه " ولم يقل " يا أمي " ، لكي يجمع بين الأمومة والتأوه هادفاً من تكرارها وجعلها مفهوماً مطلقاً .

وفي قصيدته الاخيرة " من لا مكان في الدني " احساس بالغرابة عن الأهل والوطن حين أمسك القلم وانحنى به كالمبضع يشقّ الجليد المتراكم على صفحة قلبه يستعيد الحرف لكي يستعيد " حرّيته وصبوته وما احترق من جسده الأسير في القيود " مقيماً من الحرف المقاتل - المستريح " جسراً من المنى يعبره الى أمه في حنان و صمود وإيمان " فكاد أن يذيب العاشقة تحناناً وودّ " لو يرقّ كالغمام .. لو يسقي الذرى وودّ في زحمة الاضطراب وإرهاق الذات " لو يشدّ أوجاعه الى وساوسه " فلما أن يرسو ولو في بحر صاخب ، ولما فلتكن الساعة في بعض علامات قيامتها ؛ في ملتقى الأهداد : " فيعانق العطاء موكب الجحود ، ويولد الصباح كالمساء في دوامة الأنقى ، والحبّ كالبغضاء في دوامة الوجود . كل هذه لأجل " انتحار ومضة الخلود في البعث " (٢) ولأجل الجرح الفاعرفاه ، فمتى يصل الى مؤاسيته الوحيدة .. أمّاه ؟!

للحقيقة يقال : في الليل تستيقظ تباريح الألمس . وفي ليل الهروب من السجن ، تستيقظ الذكريات ويشرق وجه أمه فيكرّر صورتها وهي " تهدده " :

" وفي الظلام .. عندما يغمرني اللاشيء والملل

وعندما يلقني المجهول

في الأزل

ألملم الحبّ الذي هدّدني

وأكتبُ

أمّاه

أشواتي التي لا تعرف الكلل

وليس تتعب

وهفنة سخية مشوقة من القبل

أبعثها تنساب .. تهرب "

صورة رائعة لهذا الجوّ المملّ من ذلك " اللاشيء " ، وهل يكون مذاق لأيّ شيء اذا غابت الأمّ عن حضور اللحظة ؟ حتى القبل المشوقة التي يبثها الى أمه يراها تهرب ولا تصل اليها تقبل قدميها قبل يديها وقبل وجنتيها تعتذر وتتوسّل أن تصفح عن زلاته ، عن تكفيره لها عندما حاولت عاطفتها الجياشة أن تشنيه عن المعركة وأبناء جيله . ها هو الآن في عالم لا

١- قصيدة " سألمها في قبضتي وطننا " ، الآثار الشعرية ، ص ٥٣ .

٢- كل ما وقع بين الشولات، المزدوجة ، مقتطع من قصيدة الشاعر " من لا مكان في الدني " الواقعة في آثاره الشعرية ، ص ٤١٤ - ٤١٩ .

يحسد عليه ، يسعى للانسلاخ عنه ولكنه . .

هيهات منه أهربُ

فإنني وقد مضى الشتاء بالرييح لم أزل

من لا مكان في الدنى

اليك أكتبُ

وفي قوله أنه يكتبُ من لا مكان في الدنى "بيد والأمر واقعيا - وهو كذلك - لأنه قد ضيَع الطريق والمكان . كما قد بيد والقول تعبيراً إنشائياً الغاية منه أن يؤثر فينا على أساس اعتبار كل وطن خارج حوض الأم لا وطن . . ولا مكان من الدنى . نحن بينا الحقيقة في الوجه الأول ، لوكن لا شيء يقف دون اعتبار الثاني حقيقة أدبية حين يكون العمل الأدبي ، أو الصورة الشعرية تعبيراً عن مشاعر انسان ما فرها أو حزنا أو ما شابه . . عاش كمال ناصر معركة الصراع المرير بين واجبين يكُن لهما في صدره عاطفة واحدة . ولكنه حاول الاستجابة لما لا يقبل التأجيل ، الا أن ظروف الوطن المعقدة أجهضت تخيالاته .

كانت أمه الوطن مهجراً ، والوطن أما معظمة تقدر واجب افتدائه . أما المعركة فهي عرس يهزج فيه الشاعر النائر بسيفه ، أو عرس تخضيبه بدمه . وأما كمال ناصر ، وكل أم ، فتبكي وتتحب وتتوسل وتتمزق طويلاً قبل أن تقول لولدها : يكون النصر حليفك بعونه تعالى . لقد استطاع الشاعر نقلنا الى أجواء الصراع التي عاشها فجعلنا نسير في ركابه ، ثم تنكفي معه ، بوسائله التعبيرية التي تتراوح بين المعاني التي ألفناها في طفولتنا أو نرفب بها في شبابتنا ما بين ذكريات حلوة وحماسيات مشيرة ، أو تتراوح بين الشكل التقليدي للقصيدة الأولى "سألها . . . " وقد أنشدها في مطلع حياته الأدبية حين كان الشكل القديم مثلاً ينسج على نوله وإن كان يبتدع مادة جديدة ، وبين الشكل الآخر في القصيدتين الأخيرين حيث نلاحظ تسارع أنفاسه وتقطعها في تسارع نبض قلبه المتحمس الى المعركة ، مؤزج الجهد بين تهدئة الأم وبين اللحاق بركب المجاهدين . ولا يغيب عن بالنا أن الشاعر كان في ذلك الموقف المؤثر يخنق العبرة ويقطع العبارة والكلمة قبل أن تدرك الأسع . وهذه الحالة تتسحب على الشاعر في قهيدته الأخيرة "من لا مكان . . حيث يتحرر من الشكل التقليدي المنتظم كونه هو في مُطَرَّب من الكون يهيم فيه ، لا يدري كيف يتجه . والشعر ، حديث النفس حرّيته تمنحها حرّية ماثلة ، وقد انقطع الشاعر عن حدود الوطن فماذا لو أشاح عن حدود الشعر القديمة ! !

ب - الأطفال

لم يتزوج كمال ناصر ولم يكن له طفل قط . ومع ذلك فقد كتب رسالته التربوية المطولة
" إلى ولدي " (١)

وفي الأسبوع الذي سبق استشهاده ، وعد أطفال العائلات المقرّبة منه ببقاء خاص
ليجاد نهم غير شؤن الثورة الفلسطينية وشجونها . . . لكن الموت لم يمهله ليبي بعد أسبوع (٢)

فما سرّ الاهتمام البالغ هذا بالأطفال والتعلق بالطفولة الى هذا الحد ؟
كان شاعرنا مشدوداً الى أشهر مراحل حياته وقت كان يتصيد فراشات الحقول
بقبّعه ، ولا سيما أن حقول بيززيت حقول نديّة للفراشات المزركشة والعصافير الشادية .
وكان " الطفل المدلل " لعائلته وأصغر بنيتها ، أغدقت عليه من الحنان ما أغراه
بأن يتمنى استمرار طفولته . ولكنه استطاع تحقيق أمنيته في أشكال شتى من عناصر الوجود
ورجوه الحياة ، فرأى الطفولة متجلية فيها بصفاء .

- رآها في " القبله " التي نقشها " رودان " تمثالا في صخر باريس وقد وقف يتملّى من
روعتها عبر عينيّن لم يقح الشاعر على صورة لهما الا عيني طفلة . .

" تبيكان ، تشهقان

في فرح الأطفال . . (٣)

فجمع بين الضدين بكاءً وضحكاً في صورة واحدة مجازيّة ما أكثر ما نلمحها حقيقية في
تصرفات الأطفال الأبرياء فما أسرع ما يضحكون وما يبكون . أما فرحهم فهو قمة كل فرح
باعتبارهم الوتر الأشد حساسية ، لم يداخلهم تعقيد ولا يخضعون لتقييد .
- وفي البحر رأى الطفولة البريئة . وليست نسيمه الروح لمن يشرف على التلّهب اليها ،
بأقلّ نعمة على الانسان من لحظات ابتراده - حران - بملامسة مياه البحر لجسده .
لتلك الغاية قصد كمال البحر ، وفي " رسالتالي دوفيل " أنشد واصفاً فرحه :

" فقد رأيت البحر هذا اليوم عاريا

وشاقني بأنّه جميل "

وقد فرحت كالأطفال عند ما ضمته ، فضمني

ولم يخفني موجه الثقيل " (٤)

حتى أنقل البحر تنهال عن الأكتاف اذا واجهها الفرح الطفولي . واذا كانت الامواج
الثقيلة رمزا لمآسي الحياة ، فإن شاعرنا كان في تشبيهه الصريح مثال الفرح الضاحك
خلال مصارعتة للحياة - المأساة .

- ١- رسالة مخطوطة ، غير منشورة ، حصلت عليها من مركز الأبحاث الفلسطينية - بيروت .
- ٢- صرح لي بذلك كامل قسطندي وفيوليت ناصر في لقاء يوم ٢٣ / ٢ / ١٩٧٦ ببيروت .
- ٣- قصيدة " المتحف الكبير " ، الآثار الشعرية ، ص ٣٩١ - ٣٩٢ .
- ٤- قصيدة " رسالة الى دوفيل " ، الآثار الشعرية ، ص ٤١٢

- وفي مدائن الأموات كانت تعدّله الآمال المنبئة من ضحكات الأطفال حتى تسيطر على حسّه
وخياله معا . ففي الثورة رأى أداة الحرب بمنظار الطفولة :

"كأنما المدفع الرشاش في يده
طفل ينام على زنديه جذلانا" (١)

لجذّل الطفل مغزى رائع كروعة مغزى الرشاش لدى الفدائي الذي يحمل السلاح لتحقيق
السلام في وطنه . هذه الصورة الجزئية قادت الشاعر الى تصوير أشمل مبنيّ عليها . . من
الفرد الى الجماعة ، ومن المكان الضيق الى مدينة كان اسمها من قبل : " مدينة الأموات " .
فكيف جعلها الشاعر مدينة " الحياة والوجود والمني " ؟ لنتركه يصف ذلك التغيير الممتع :

"ألفيت نفسي أعبّر الحياة

أسير كالإيمان في مدينة الأموات

أجيش بالوجود والمني

لمحت طفلا عمره سنة" (٢)

يفاجئنا بسرّه ، بنوعية المنقذ وحجمه ، فإذا بنا أمام شاعر يعلّق على الطفولة آمالا
عظيمة هاشت بها نفسه . فالحركة ذاتية داخلية في الاعماق ومنها يخرج الفرح لمعا . .
أو حلما يتحقق كما أخرج للإيمان صورة جميلة حين رسمه سيّارا يؤدّي مهمة مقدّسة
في إحياء الحياة من الموات .

- ويلسان حبيبته ، صرّح الشاعر بحقيقة في قرارة نفسه هي أن يظلّ طفلا أبديّا
وقد تمتّته . . .

"يفار من طفلي ، يريد أن يكونه . . .

طفلي الكبير ، كم تمنّى أن يكون ولدي ، ووالدا لولدي

أبعدته عن كبدي ، أطعمته من جسدي" (٣)

جمع الشاعر بين أمنيّتين : الطفولة والأبوة ، الى جانب جمال التعبير في ربط ضمير
" يكونه " كأنّه خجل من التصريح برغبته . لهذا عمد الى التضادّ في الحركة التي " أبعدته"
و " أطعمته " التي تحمل معنى " قرّبته " . اننا نلاحظ ارتباكا في التعبير " يفار . . . لولدي "
ناجم عن توزّع الشاعر نفسيا بين رغبتيه وانعكاس هذا على موسيقى الشعر التي تكسر انسيابها
تحت وطأة اتصال كلمة واحدة بمثلها مرّتين معاً مع تكرار الواو في العطف الى جانب الأصل .
وحين لم يستطع أن يكون أباً ولا أن يرجع طفلاً ، نراه في غمرة أحزانه ينسى كل ذكرى -
ولو أشرقّت - من هيبية هافته ، وهديق غدر به ، ووطن ضيّعه صغيراً . حتى أحد أجمل
أسفار حبه يصدم به وجهه هيبته معلنا :

١- قصيدة "إنّا حملنا عن المصلوب رايته" ، الآثار الشعرية ، ص ١٥٠ .
٢- قصيدة "الضوء الأخضر" ، الآثار الشعرية ، ص ٤٠٤ . ونحن نلاحظ أنّ عنوان هذه
القصيدة يحمل مضمونها بأمانة للعلاقة الحميمة بين لثم الأطفال ومرأى الربيع ، كلاهما
ينعش الفؤاد .
٣- قصيدة "طفلي الكبير" ، الآثار الشعرية ، ص ٣٦٢ .

"سأساك في موجة الذكريات
وأخنق في الصدر كل نداء
وكل حياة
سأنسى بأني حملتك طفلاً
جميلاً شهياً... (١)"

إن هي الآ محاولة للنسيان دفع إليها الشاعر قسراً بدليل أنه يقترف جريمة
"خنق" حياة . فهل وصل به الارتداد إلى هذا الحد من نسيان الطفولة ؟ أم قد نشهد
عودته إليها مهووساً بها ؟ ما يهمنا أكثر هنا ، أنها كانت تصويراً ذكياً بارق الذكاء
أن يثبت عزمه الأكيد على نسيان الحبيبة عن طريق نسيان طفولتها ، حتى طفولتها ، ونحن
نعلم أنه لا ، ولن ينسى طفولته .

وفي ضوء هذا الانتقال الشعوري ، نتبع الجانب الآخر من موقع الطفولة في
قلبه ، جانب التعويض عن العالم المفقود برموزه الأصلية حين لم يبق لديه إلا الذكريات
يستعيدوها ويعزّي النفس بها . الأطفال هاجس يملأ سمعه وقلبه وخياله ، فهم . .
"ملء جنبي في العشيّات هاموا
ومشوا لوعة بدنيا يقيني" (٢)

توحي هذه الكلمات بشئى الفكر ؛ فهل هيامهم هو الحقيقي أم هيامه هو بهم ؟ اننا نميل
إلى الرأي الثاني ، ان لماذا جعل لنفسه جنبيين فمألهما كليهما ؟ هل للتعبير عن عمق
تغلغل الطفولة في جسده وكيانه ؟ ولماذا جعل العشيّات وقت هيامهم ؟ أليوضح لنا
حقيقة كان يتلّف إليها مستمداً من صور لقاء الأطفال بأبيهم عائداً من عمله وقت العشاء ،
خلاصة النهار ، فيمنحهم خلاصة شوقه وحنانه ؟ كل ذلك نلمحه بوضوح ، ولسنا نستطيع
تخيّل الصورة فيما لو كان كمال ناصراً حقيقياً . الا أنه بـ "لوعة" يوحي إلينا بعظمة تلك
الأبوة بصورة معكوسة تتمثل في لوعتهم هم بينما الحقيقة لوعته هو لغيابهم مثلما رأينا هيامه
هو بهم خلافاً لما صرح به في التعبير نفسه . ان هذه طريقة بارعة في التصوير تنحفر أشد
رسوخاً بأقلّ الأدوات وأبسطها .

كان كمال ينظر إلى الأطفال نظرة السيد المسيح اليهم قائلاً : دعوا الأطفال يأتون
اليّ ولا تمنعوهم . وشاعرنا كذلك ، يخاطب من كانت حبيبته ، وأمّ أطفاله المنتظرة يتوسّل
إليها ألا تحرمه من تمتع العينين بعد حرمانه من تمتع الفؤاد وقد تزوّجت من سواه وصارت
تخشى أن يرى أطفالها من كان "تمنى أن يكون والداً لولدي" ، ربّما كبرياً ، وربّما
إشفاقاً عليه من إثارة جراح النفس الزمنة ، يخاطبها :

"وتعودين للديار اشتياقاً
وتصيحين بالصغار فيمضي
وحوالك من صغار البنين . . .
واحد في سعادة يحتويني . . .

١- قصيدة "الصنم" ، الآثار الشعرية ، ص ٣٧١ .
٢- قصيدة "لحظة ظمأ إلى دنيا الأطفال" ، الآثار الشعرية ، ص ١١٧ .

لا تردّي الصغار عني دعيهم
انهم ملك أد معي وخيالي

في أطاييب لهوهم ودعيني . . .
فَسَجَّتْهُمْ خَوَاطِرِي وَظَنُونِي (١)

بسرّد قصصيّ مؤثّر يعلن الشاعر حقيقته فيثير شفقتنا وحزننا على أحلام يقظة هيئات أن تتحقق . تمّى الاطفال فتدحرجوا على وجهتيه دموعاً . ومدّ يديه ليحتضنهم فرّقوا بأجنحة خياله التي نسجتهم على صورة حبّه ومثاله ، فحسبه أنّه يحاول تصديق صورة من نسج ظنونه وخياله . كان وقت نظم مشاعره وابداع صورته قد بلغ الثالثة والثلاثين من العمر ، وهذا يعني جوازه مرحلة المراهقة وأحلام اليقظة . ولكن ، لا بأس ، فهذا الامتداد "الأحلامي" ردّ فعل تلقائي وطبيعيّ للامتداد الطفولي الذي طبع نفسه العمر كلّهُ .

ولعلّ وقفة متأملّة ازاء الأبيات الاربعة من قصّته ، تجعلنا نتساءل عن سرّ اعتبار "البنين الصغار" بصيغة الجمع ، ونحسب أنه كان يريد لنفسه هذه الصيغة منهم . وتجعلنا نتساءل عن الوجهة التي تطلب أمّ البنين منهم أن يتجهوا اليها لدى مشهد "الرجل" شاعرنا ، فنقول : الابتعاد عنه ، أمّا الشاعر فيفاجئنا مرتين : الأولى "يمضي واحد" فنعتقد أن الطفل أطاع أمّه بالابتعاد . والثانية "يحتويني" فإذا باعتقادنا يئنّكس ، وقد لا يكون أراد من قوله "يمضي واحد" "أن مضي واحد اليه يشجّع اخوته الكثيرين على القيام بعنّله فيحتويهم الشاعر جميعاً وتتضاعف سعادته . الا اننا نرى هذه الصورة الجميلة من صلب تعبيره بهذا الاسلوب . لقد رسم لنا لوحة رائعة متدفقة الحركة فاعلة في النفس الى درجة رفيعة تجعلنا نقف مع الشاعر في صدق صرخته العميقة "لا تردّي الصغار عني" لنصرخ مشاركين : لا تردّي الصغار عنه . . دعيهم يأتون إليه ، كفاه ما في جفنيه من قروح وما في فؤاده من كلوم .

وكأنّ تلك العذابات لم تبلغ من صميم نفسه بعد مبلغاً عظيماً وتوشح سماءه بخيوم داكنة ، حتّى بلغه ما لاقى أطفال شعبه من المجازر والمآسي التي لم توفر طفولتهم البريئة فذهبوا ضحايا رعى الصراع السياسي والعسكري ربّما لأنّ الشاعر عاش الفرح الطفولي طويلاً ، فقد لاحظ الفرق الشاسع حين شاهد أطفال شعبه يخرقون في تعاسة الطفولة . . ولم يستطع أن يغضّ الطرف عن الوجه الآخر من ذاته المتحقّقة في شعبه ، فقد كان بكاء الاطفال يقض مضجعه فيما يتدكّر . .

"دير ياسين والدماء الغوالي
والضحايا الاطفال كلّ صغير

لم يزل في العروق منها شذاً
بين جفنيّ دمعّة خرساء" (٢)

وتعظيماً للأطفال الضحايا ، جعل لدّمهم "شذاً" تذكيراً بتشبيه مجازيّ عرفه العرب هو "السكّ بعض دم الغزال" وللمسك شذاً ، والشذا هو شدّة ذكاء الرائحة . وعنى كمال

١- أبيات أربعة متفرّقة من القصيدة "لحظة ظمأ الى دنيا الأطفال" الآثار الشعرية صنفحة ١١٦ - ١١٧ . وقد نظمها الشاعر يوم ١٥ / ٩ / ١٩٥٧ . أطلق عليها المحقّق الدكتور احسان عباس عنوانها استناداً الى ترديد "أنا ظمآن" أربع مرات في مطلع القصيدة .
٢- قصيدة "اللقطة" ، الآثار الشعرية ، ص ١٨٥ .

معنى عميقاً بقوله " بين جفني " ولم يجعل المكان " فوق " لكي لا تبهت الصورة لأن أقتل
الدمع ما يختنق حبيس المقلتين يد ميهما من الداخل اضافة الى مرأى البشاعة في تلك المذبحة
التي بقر الصهاينة فيها بطون الحوامل وحزوا رقاب الاطفال وفجروا أحشاءهم وقطعوا أوصالهم
فتحجرت أطرافهم الناحية دموعاً خرساء تؤرق الشاعر وتستنهضه ضميراً نائراً ، تهزكيانه ،
تستنطقه عيباً يردد :

" فلذات تصيح عبر خيالي وتنادي بأننا أبرياء "

فإذا لاحظنا صيغة النداء في الشطر الثاني ، وجدناها أكثر ما تتمثل في اشتغال " أبرياء " على أداة النداء التي تزيد من استعانة الاطفال الملهوفين امتداداً . لقد استفند أطفال " دير ياسين " كل مشاعر الشاعر وطافوا بلياليه فأطالوها حين تزداد جراح الليل عمقا واتساعا . فلو أمعنا النظر في أبيات المجزرة الثلاثة هذه ، لاستوقفنا امتدادات " الألف " في " دير ياسين ، الغوالي ، شذا ، ضحايا ، أطفال ، فلذات ، خيالي ، تنادي ، أبرياء " اضافة الى " ألف " القافية التي تمتد وتمتد ثم تنكسر عند حدود " الهزجة " في وهنٍ مثل ضعف الفوائد الكسير . كل ذلك منبعث من الاحساس الدفين الذي يفتت قلب الشاعر وقد شهد المجزرة بالكلمة والصورة فلم تعد طفولته ذات أهمية أولى ، بل تعدتها الى طفولة كل انسان من بني وطنه .

كان يتمنى أن يكون لأطفال العالم قاطبة ما كان له من ترف الطفولة ؛ قرار واطمئنان وأجراً حنان ، ولكن شتان ما بين الأماني وما كان بالامكان . ولعلّ الجازر التي شهد هولها أطفال دير ياسين وكفر قاسم ومجازر اللد والرملة وقبية . . . قد ولدت في نفس الشاعر عقدة مستعصية تجاه القوى التي تمارس مظالمها على الشعوب المستضعفة والآمنة ، ويخص بالذكر أميركا التي ارتبطت احدي قريبات الشاعر برجل منها فأنجبت منه طفلاً . وهال الشاعر أن يترعع الطفل على سياسة وطن أبيه لأن انعكاسها السلبي واقع على وطن أمه الوديح ، فيكتب الى قريبته تلك قصيدة يضمها قوله :

" علمي طفلك الصغير بأننا
بي حنين للطفل عذب شهّي
في صراع الوجود أعظم شانا
في ضلوبي يطوي المدى والمكانا " (١)

أمنية الشاعر أن تؤهل في طفلها العاطفة البناءة ، حب الناس كلهم . فإذا تغلغل الحب في نفوسهم ، نما سريعاً وقضي تلقائياً على صراع الوجود الذي يجرّ المآسي والعذاب . فالطفولة ليست عمراً زمنياً ، بل مفهوما حضارياً للوجود تجب رعايته وهددهته باستمرار . والشاعر الذي يحنّ الى ذاك الطفل ، متفائل بأن يبادل له الحب نفسه كما أحبته أمه فانقطع في حبه لها ، وحتى قبيل استشهادها ، تذوق لذة الطفولة في آخر لقاء جمعهما . لم تعلمه حب الوطن فحسب ، بل كل حب ولاسيما الطفولة التي كانت تشع على وجهها رغم تجاعيد السنين ، فمن أخرج قلبه الى وجهه ، عاش طفلاً مدى حياته .

١ - قصيدة " الى ديانا " ، غير منشورة ، حصلت عليها من محفوظات مركز الأبحاث الفلسطينية - بيروت .

عرف الشاعر في حياته أكثر من حبّ وحبّية ، في السرّ والعلن ، دأبه في هذا
دأب من مسّن عليه الله بعينين متفتحتين على أروع لوحات الجمال الأنثوي الساحر ، وبقلب
آمن بالروح ، عذ وبتبها ، فأمن ولما يبر . وآمن بالحسن الذي يرى فتعمق إيمانه ، وأصبح
الحبّ عنده قوتا يطلب منه أكثر من كفاف يومه " كما في الدعاء الذي يا طالما رددّه في
صلواته . . . انه الحبّ . . .

فهامت
.....
وأصلي للمجد بين الغدائر (١)

" انه الحبّ مسّروحي بالنور

انه الحبّ مزق الليل عني

ألثم الفجر في سكون ولسين

الفتى العاشق يصاب بمسّ الحبّ ، ولعله لا يحتمل عنفه فنراه في صباه يتألق ما بين التفتح
والانطلاق بنيران عاطفة ما شبت نيرانها وتطاوالت ألسنتها الا لكي يظهر فيها جلياً فصل
الرياح . ويبعث كمال بقصيدته الى " حبيبي الحلو " (٢) صريح هواه ، يبين الجوى الذي
شقه . . .

راح في ضعف وإنهاك يغني
يا حبيبي الحلو رفقا وأعف عني

" فأنا كالطيران عذبته

فأرحني من عذابي في الهوى

فما بال شاعرنا يهيم هربعا لدي أول لمسة حبّ أهى الشافية المنبئة أم الحساسية
المهيئة لتغيرات القلب المتقلب وفق تلونات الصور واهتزازاتها ! فنسمعه يقول مبكّرا
في القصيدة نفسها :

فسل الأشجان قد تخبرك عني

" ظلما قالوا بأني مرح

وحامل الهوى صغيرا ، هو حامل الأشجان صغيرا وكبيرا . عظمت وطأته على من رق قلبه
حتى بات أحد أهمّ شرايينه الرئيسية التي تمدّه بنسخ الحياة . فالحبّية هي " دميتها الصغيرة
. . . شمعة تضيء حياته . . . كأسان من فتون وفن . . . ضفتا نهر لان بهما زورقه التائه . " (٣)

ويعد هذا ، ماذا عسانا أن نقول في تولّده البين شديدا في نقيض حاله :

إقباله وإدباره ؟ ففيما يسألها أن تنشده لا ليصغي اليها انما للسماء في شفيتها ، يقول لها :

بات أحنى عليه من ناظريك (٤)

" ربّ موج لم يعرف الحبّ يوما

فليس ان ، " مصدر آلامه وشقائه إن كان يستطيع ، ولكنه ، المؤمن بتفتيق الألم للعبقريّة ،
لا يمكنه تحقيق وجوده الا بتحقيق وجودها الملتحم به . فإذا كانت الجسد ، كان دمه :

١- قصيدة " تحية الشعر في عليا وناصر " ، غير منشورة . من شعر الصبا . في مركز الأبحاث .

٢- غير منشورة . وهي كذلك من شعر الصبا . في مركز الأبحاث .

٣- من أبيات قصيدته " أنت كأسان " ، الآثار الشعرية ، ص ٣٢ - ٣٣ .

٤- القصيدة نفسها ، ص ٣٣ .

"أنساها وذاك دمي

يلوح بخدّها خمرا
فتمنعي يدي الأخرى (١)

أمدّ يدي لأقطفها

وهو المؤمن بعبرية الحب ، يتطلع إليها سبيلا إلى الخلود في ظلال الجنة الوارفة يعيد ذكريات حبه الأول . والخلود هاجس من هواجس الشاعر لازمه حياته . وهو يتمناه مع وجوه البراءة ، مع زقزقات العصفير ، مع تنهدات شبّابة الراعي " ، مع حبيبته لا ينساها ،

إذا أنسى ، وما العمر . . .

"أنا ما نفع أيامي

لا ذكر ولا خبر (٢)

أيضي الدهر بي كالطيف

فهمل خير من الحبّ يخلده

كان ذلك في مطلع شبابه وقد تفتّحت أزاهير فؤاده في حنايا أشجار قرينته المطلوة . فعاش مع الماضي الجميل ، واقعه المبتعث بين الروابي الخضري صوغ "تمثال" حبيبته من وريقات الزهور وتلاتها وأنفاسها ، ومن ليالي النجوم وتناديلها ، ومن العيون وحشيتها ، حتى ليظنّ المرء أنّ هذا الشاعر العاشق بكلّ حواسّه ودقائقه لن ينشد إلا الغزل .

منذ نعومة بنانه ، تلمس الجمال ففرد له أشرعتة يبخر في جدول "ليلي" وغدير

"هند" ويحر "سلي" . وسار مع ليلي شوطا بعيدا في الحقيقة والخيال : فلا هي ليلي

الحسنة التي جنّ بها كما به جنّت ، ولا هي الاسم - الرمز الذي تضوّع من اثره عطرا

وتلوى قهرا . حينما يقول في صباه :

بعد ليلي ، لقد تحطّم قوسي (٣)

"يا ليالي الغرام ، لا عشتُ ليلاً"

ثم يستدرك في ميعدة الصبا فيقول :

جننت بليلى وجنت بيّه . . .

"هناك هناك على الرايبه

وحوليّ ترح حوائيكه

كأتني بهذي الدني آدم

بحبّ ، ولا قال أشعاريه (٤)

أحبك ، لا قيس قد فاتني

ولكنّها ، في رسالة إليه من ابنة خاله "ريما" تقول له : "تعرفت هباحا اليوم على ليلي . . .

تكلمنا عن أعيادنا حتى قالت إن عيدك في عشرة نيسان ! أنّها تذكرك جيّدا يا كمال . . .

لقد أعجبتني ليلي وأريد أن تجرد صحبتها . (٥)

نقول ، يجوز أن تكون قصيدته "إليها" عن "ليلي" ما ، أو عن "ليلي" هذه ،

والله أعلم !

وقد تكون "هند" (٦) مثل سلمي ، ممّن ينشقّ الفجر عنهم ويظنّ النبيوع بأجسادهم .

فإذا كانت هند بنت البادية ، فإنّ سلمي لم تجسّمه صدّاً إلاّ لتذيبه وجدّاً إذ تلتفت

إليه فيسألها :

١- قصيدة "أنساها" ، الآثار الشعرية ، ص ١٠١ .

٢- نفسها ، ص ١٠٠ - ١٠١ .

٣- قصيدة "أين مني عزيّمتي ومضائي" ، غير منشورة . من مركز الأبحاث .

٤- قصيدة "إليها" ، الآثار الشعرية ، ص ٢١ - ٢٢ .

٥- رسالة من ريما إلى كمال . بيروت ، كلية بيروت الأميركية ، ١٣ شباط ١٩٤٩ .

٦- قصيدة "الفجر العاشق" ، غير منشورة . مركز الأبحاث .

أَلَمَّا ذَا الْهَجْرَ وَذَا الصَّدِّ

سَلْمَايَ أَلَمْ تَجْنِي الثَّمْرَا
وَجَمِيلَ الْقَدِّ قَدْ كَبْرَا (١)

سَلْمَايَ أَتَكَ قَاتِلَتِي

ولكن العاشق لما يكبر بعد سنًا . وماذا يمكن أن يقول في سن لم تدرك الخامسة عشرة . .
على هذا لا يقاس الا عند أهل الرِّيف الذين يخرجون صباحا ليتفقدوا أشجار التين طمعا
بثمرة أو ثلاث تتضح قبل أخواتها بوقت بعيد ، حيث تكمن لذتها في أسبقيتها .

ولكن كمال ناصر كان أكثر انشدادا الى اسم " ليلي " في شعره المرسل . . استعارها
لرغبة في نفسه ليست من عالم الأخيلة بل من قامات الأشجار المتمايلة على حواف عيون قريته .
من هنا كان تأصلها في مخيلته وانجد لها مع شرايين فؤاده ، ففدت أثرا لا ينسى إذ ينكر :

أَأَنَسَاهَا وَهَذَا الْكُونُ
سَرَقْتُ رِوَاءَهُ مِنْ " لَيْلَى "

لي في لوجه أثرُ

فماجت للسنن صور (٢)

ماجت الصور وتألفت ، عربية أصيلة لفحتها أنسام الواحات فجعلت فيها نحولا ، وطرفها مكحولا
وقد خلع الفجر على وجنتيها حياءه . . هي " الفجرية الحسنة " (٣) منبج وحيه وسر إلهامه .
يقول في مرورها به سحرا :

" نَادَيْتُهَا فَاحْمَرَّ عَنْ خَفَرِ الْهَوَى

فَنَانَةٌ تَسْمَعُ عَنِ الْإِدْرَاكِ . . .

قَدَمَا الْمَسِيحُ النَّاصِرِيُّ كَذَاكَ (٤)

قَدَمَا كَرَّ عَارِيَتَانِ يَا بِنْتَ الْهَوَى

ليست هذه مقاييس الجمال عند شاعرنا فحسب ، وإنما كان للعيون قصب السبق في
ميدان الغزل حتى كان لها دلالات مهما أحصيت وتعددت ، فإن التقصير بادٍ لا يشفع
له قول كمال الخاطف :

" عَيْنَاكَ سَرَّكَ آبَتِي عَيْنَاكَ
عَرْضًا صَرَعْتُ بِلِحْظِكَ الْفَتَاكَ (٥)

فالعيون معبوده أينما حل وارتحل ، لا وطن لها ، ولا مصلي في محرابها القدسي .
هي إن ضحكت كانت ضحكة من الأعماق استمرت صافية مورقة كان فيها صورة " فينوس " أو
" عشتروت " . فبينما لا يمكن لامرئ أن يعبر عن صدق ضحكته وعمقها الا من خلال العينين ،
لذا يجدها شاعرنا كالزهور الموعنة وهاء زجاجيا مزركشا ليس فيه ماء . . وها هو يرتحل
الى الجمال يحس به في العراق عبر " موصليّة " حسناء ، فيداعبه ويضاحكه ويستعيره للدنيا
ألوانا . . يقول :

وَأَلْتَقَى طَيْفَ الْهَوَى الْمَقْبَلِ

" تَضْحَكُ لِي ، فَيَضْحَكُ الْعَمْرَلِي

بِأَخْضَرِ رَيْبَعِهِ مَخْمَلِي

عَلَى عَيْوُنِ لَوْنَتِهَا الدَّنَى

١- قصيدة السماع " ، غير منشورة . مركز الابحاث الفلسطينية .

٢- قصيدة " أنساها " ، الاثار الشعرية ، ص ١٠١ .

٣- قصيدة " الفجرية الحسنة " ، الاثار الشعرية ، ص ٣٠ - ٣١ .

٤- القصيدة نفسها ، ص ٣١ .

٥- نفسها ، ص ٣٠ .

لا يرتمي في طرفها الأكل . . .
هوجاء لم تتعب ولم تخجل
عيونها بوحيا المنزل (١)

أسطورة ، من قال ان السنا
تطلبني في وجهها نظرة
كأنما شئت الى قلتي

وكأنما العيون ، في لحظات الصفاء ، تمارس السحر على الشاعر فلا حول له ولا قوة ، اذ على قدر التلاشي في الحب يكون التفاني في العطاء . ولقد نالت هذه القصيدة الجائزة الأولى في مباراة الانتاج الشعري المقامة في مدرسة بيرزيت .

لذلك ، فمن شعره الخزلي نستشف دلالات للعيون ودلالات ، ولجمالها مفاهيم أبرزها "الوحشية" والحركية المعبرة الموحية التي تدع به نواحي الجنة ونواحي "الجحيم" .
لدى هذا ، لا يمتنع عن إباحة سره قائلا :

"فتشت يا وحشية العينين
فتشت كل عمري
فتشت عن عينين حلوتين
أغريهما بشعري
أجمع في جفنيهما الضدين
عردتي وطهرى
فأهزم المثال في بيتين
وأصلب الجمال في عينين (٢)

ومع ذلك ، لم يكن باستطاعته العيش بين بين . . . فقد تمت حكاية القصيدة الأولى في هذه الثانية . . . يصلب الجمال ، يسمره ، فيخلده في عينين . وآية عينين هما تفاعلان في جسده وقلبه وتحفران في صدره وروحه ، وتلهمانه أحلى القصيد ، وتبمانه الى أجمل حقيقة وأبشع حقيقة في طرفي الوجود ؟ آية عينين هما توقعان فيه ستة عشر فعلا في صيغة الحاضر والمستمر المؤبد ؟ وهاك هي في قصيدة واحدة يصف فيها اللوحة الشهيرة باسم "مونا ليزا" والتابعة شهرتها من دقة رسم عينيها :

"عيناك تتبعانني وتعدوان خلفي
تطاردانني وتلحقان بي
توهقانني ، وتضمران خوفي
وتسرقان النوم من جفوني
وتهجعان في جفوني
وتحرقان لي جبيني
تستجديان عطفني

١- قصيدة "عيون من الموصل" ، الآثار الشعرية ، ص ٣٤ - ٣٥ .
٢- قصيدة "وحشية العينين" ، الآثار الشعرية ، ص ٣٥٥ - ٣٥٦ .

كأنما تستجد يان حنفي ٠٠٠

وتلهمان حربي

عيناك أول النهار

تمزقان في دمي الإسار

وتكبحان في أعنتي الفرار

عيناك تهرمان في حقيقتي السوداء غايبي

عيناك تدعوانني ٠٠٠

أتيت ٠٠ فاحتويني (١)

إنها "مونا ليزا" حياته هو التي رآها في كل بقعة من أرض ووطن ، وفي كل قطعة من
جسد وثوب وفن . . . رأى الجمال في تمثال "القبلة" لرودان ، وتمثله في "مونا ليزا" فكانت
باريس له موطن الجمال الذي ذكره بأحبته المرتحل عنهم بسببهم . ولكن شاعرنا العاشق
لم تكن ذكريات باريس في مخيلته مشرقة تفرقه في لجاتها ، فقد ظلّ وفيّاً على العهد
الأول ، مما أكسبه بحق صفة الطهر والبراءة فيردّد مفاخرها :

ولم أهاجع في هواها امرأة ٠٠٠

قلّبت ، أبيت أن أقرأه ٠٠٠

ما أروع الشاعر ، ما أبراه ! (٢)

"روضت باريس وأذلتها

كتاب لهو أحمر نائر

وقال صحبي كلّمنا أقبلا

وتظل العيون عند كمال فتنة تغار من فتنها العيون . . . ملجأً أوحده . . . يتداخل في
كل أجزائها طفلاً يرضع من عينيّ أمه حناناً أكثر مما يرضع من صدرها قوتاً . ولعل عيونها التي
يغار منها ، تمارس قوّة سحرها على عاشقها فيلتصق بها يمرّح أنفاسها عبر مجاريها ،
وينسرح مع خصلات شعرها في تدليها ، ويلتفّ حول جسدها منافسا ثوبها الثمين ، فلإنك
يا حبيبتني . . .

"لورحت تبحشين ، وجدّني في ذيل ثوبك الثمين"

أمّد أنفي باحثاً عن عطرِكَ الذي أحبه ٠٠٠

وعن عيونك التي تغار من فتنها العيون ٠٠٠

تراه أين الفارس الذي أحبّني ؟

وشمّني وضمّني

فأنت تعرفين . . . تعرفين (٣)

وحدها تعرفه فارساً زلّت به قدم الزمان فتهاوى ، ثم اعتلى صهوة الرياح الهوج يشدها -
عبر السدود - إليها ، تارة طفلاً كبيراً "تارة فارساً أثيراً ، وتارات في محاجرها دمع فاضح .
فيها أكثر ما فيه ، وفيهما معاً ما لا يتحمّل يوم أن طلب منه أهله وصحبه أن ينساها - وهذا

١- قصيدة "مونا ليزا" ، الآثار الشعرية ، ص ٤٠٧ - ٤٠٩ .

٢- قصيدة "ما أروع الشاعر ما أبراه" ، الآثار الشعرية ، ص ١٢٧ .

٣- قصيدة "طفلاً كبيراً" ، الآثار الشعرية ، ص ٣٦٥ .

هو دائما موقف الأهل والاصحاب من العاشق المولّه : أنس، أنس، الأ آنه - آكل المرار وحده - الوحيد من يلتدّ بالحبّ ويقاسي من فقدّه فيكون ردّه الوحيد أيضا أن النسيان يقضي على عالمين من عوالم حياته : هي الأول ، وبها يكون الثاني . ويكون ردّ فعله على تلك الدعوة ، القول الجازم والفعل الفاصل تحت لوائين تحملانه " لا النافية للجنس و "ل الأمر ، الذي لا حياتمن بعده في تقريره :

أأنساها وأسلوها	اذن ، فليسنني القدر
ليخرس كل لحن في	دمي ، وليهجم الوتر
ليصمت كل طير	عبرتي ضمّه شجر
لتظلم مقلّة الشمس	أسى ، وليخشع القمر
ليفنّ الضوء عن ظمأ	فلاضرع ولا شجر
ولا جنات أحلام	يرفّ بصدورها الزهر (١)

عشرة تداعيات سلبية للحبّ المنتزع من برائن الصدر . حتى لو كانت حبيبته هي البادية بالصدّ ، فقد - من قبل - استهواه الحبّ فقرّبه بعد أن عدّ به . وكأنا بالشاعر المستيم يستعذب الحبّ ولو من طرف واحد ، فيكون قناعة ذاتية أولا ، منزّهة مستديمة ، فما من حبّ في تاريخ الانسانية سار حياته كلّها مع الينبوع الصاعد ، بل تحدّر مع الشلال المتساقط أحيانا . من هنا كانت اللوحة الملونة الرائعة . ألم يقنع آدم بحبّ حواء مع إدراكه بأنّها عملت اليه التفاحة المحرّمة بيد يها ونفسها ؟! وهكذا تخيل كمال ناصر نفسه في مطلع حياته الشعرية ، في طفولة الربيع ولما يبلغ العشرين :

كأني بهذي الدني آدم	وحولي تمن حوائيه (٢)
وها هوذا الذي رضي بنفسه آدم	لا يتراجع عن حبّ حوائيه على الرغم من أخطائها
وذنوبها . هي الأفعى التي تسعى الى روحه في ثياب الآلهة ، ومع ذلك يناجيهما :	

"لبيك ملء الروح يا أفعى
لولاك لم أعرف صبا باتي
أصداء أشواقي ولداتي
ولم يهد هد في وجودي جمال
ولم يرفرف عبر جفني خيال
يا ربّة لما تزل تسعى
في خدر أحلامي وفي بيتي
وقيل : يا حواء أخطأت
عفو الذي قالا (٣)

- ١- قصيدة "أأنساها" ، الآثار الشعرية ، ص ١٠٠ .
- ٢- قصيدة "اليها" ، الآثار الشعرية ، ص ٢١ .
- ٣- قصيدة "التفاحة المحرّمة" ، الآثار الشعرية ، ص ٢٣٣ .

لم لا تكون اذن فلسفته في الحب : اللذة بعد الألم ، وأوضح : اللذة فالألم فاللذة المطلقة؟
عرفنا حتى الآن أن شاعرنا المتيّم قد عرف الحب مبكراً جداً فمماش أول صدمة حب
أول ، ذات أثر ممتدّ فيه الى آخر حياته حين كان يخفّف من وطأة الصدمة ويعمّر أحلامه
النايرة . . . يخفّف ويعمّر عن طريق التعويض باحتضان كل أطفال العالم ، وعن طريق اجترار
الذكريات التي أزهرت على غصنه زمناً . . . ترهّل النخس وتعرّى وتحطّم والزهر زهر لم يعد
من البداية كان حبه عنيفاً . الصنف في وجهين متناقضين : عنف التفاني ، وعنف كبح الذات .
أحبّ حتى التلاشي ويئس حتى الرمق الأخير . في البدء كانت قصيدته "عنفوان" (١) وقد
ضمّنها ذكريات حبّ وفي مضي يندبها آياها ونفسه . فبيل أن لهذا المبتدئ أن يعيش
الأحداث فيلتدّ ويأس ويتذكر ؟ فإذا ما قال في قصيدته تلك : "فاندب به عهد حب قد مضى ،
نجدّه في أواخر حياته موقناً بأنه انتهى فيقول : "أعلم انني انتهيت / لم يبق من أحبّه /
ومن يحبّني" (٢)

لم يبق مصدر اطمئنانه وعشقه للحياة ، فلا مؤنس ولا مؤاس الا الذكريات في حلوها
ومرّها كون شاعرنا العاشق قد مرّ بأكثر من حب ، وإن كان يبدو هادئاً كفعل الماء في
الصوّان .

وقد تكون قصائد الذكريات هذه موجهة الى حبيبته الأولى ، وباباً ربيعياً لمعاتبتها
على طفل لها كان يتمناه له ، وعلى أحلام كانت تحلم بها فأيقظتها من سباتها . ففي قصيدته
" طفليها الكبير " يستثير خيالها قائلاً :

" وفي غدٍ
وعند ما في الصمت تجلسين
وحيدة ، وعمّة السنين
تساب فوق وجهك الحزين
لطالما أحببت وجهك الحزين . . .
وتسألين . . . تسألين
تراه أين الفارس الذي أحبّني ؟
وضمّني وضمّني وتصرخين وتصرخين
لشدّ ما أحبّني . . .
يحملني يضمّني يضمّني يعبدني
كأنني لعبته التي صلّى لها
وكان في محرابها الأمين . . .
يغرقني بالسحر والفتون

لشدّ ما أحبّني ، لشدّ ما أحبّني" (٣)

١- من شعر الطفولة . غير منشورة ، في مركز الأبحاث الفلسطينية بيروت .
٢- قصيدة "النهاية" ، الآثار الشعرية ، ص ٤٢٤ .
٣- الآثار الشعرية ، ص ٣٦١ - ٣٦٢ .

يستتر خيالها عندما أصبح عجوزا يجترّ ذكرياتها غداة أن نسجها لعبة ، أحببها
••• تعشقها ••• صلى لها ••• وعين دبت فيها الحياة تعالت فحطمتها في خياله وها هو
يعود فيذكرها ••• وحطمتها هي في خيالها وواقعها ، وها هي تعود فتذكره في خيالها
وواقعها وتناجيه وتناجيه ••• تنفخ إليه ••• تراه عبر الوهم •••

••• قرب مقعدي

ويده على يدي

يشربني ••• يأكلني

يغرقتني بالحب ، بالذات ، بالتودد •••

وضعت منه في الهوى ، غرقت في تعددي

أواه من ترددي ومن تعددي * (١)

روءيتها هذه له تدكرنا برسالته الآتفة عندما قال بأنه سيأتي يوم ويندم فيه الجميع وخاصة
العائلة على عدم زواجه منها ••• ولعلّه في قصيدته هذه يضع الجميع أمام مسوءوليتهم عن
تشرده النفسي والعاطفي ، فما حنوا عليه بقدر حنوّهم عليها - حبيبته التي يسبر أغوارها
عبر فيض غور حنانه ، حين ينطق بلسانها :

"أحسه الآن معي ، يشدني من أضلعي

ينشدني ألحانه في الحب والتوجع •••

وقدمي يحبها ، وطالما قبلها

قبلها ، قبلها

أواه كم أحس رعدة الحنان إذ قبلها * (٢)

وحقاً يقولون إنّ العتاب على قدر الأمل ••• فهل عند شاعرنا المبرّي وجداً ، هكذا
تعظم القبل ! أم أنها تكشف عن عظمة حبه لها كما أنّ في حبه لوطنه ••• لوطنها ••• لوطنهما
معاً ؟ أم أنّه العاشق الذي أحب كل شيء في جنون فأحبته لذاك الجنون ؟
كان نفسه زهرة لطالما انتشى عند قدمي الحبيبة فانتشت هي بانطراحه ••• وأثارت
جنونه فهبّ صارخا :

"أعود ؟ محال ••• ليقّ المحال

لتشقى روعي ويهو الخيال

سأنحت ألف غرام جديد * (٣)

وهوى النساء هبّوه مثل الهوا
كل القلوب قلبٌ وهي هي
وفؤادها ضلّ السبيل إلى السوا

يا عاشقاً لم تدر ما معنى النوى
نعت الهوى ما عاد من طلب العلى
قد أصبحت سقّطاً ابتذال وهوى

١- القصيدة السابقة ، ص ٣٦٢ - ٣٦٣ •

٢- نفسها ، ص ٣٦٣ •

٣- قصيدة "الصنم" ، الآثار الشعرية ، ص ٣٦٦ •

(١) يا نَعْمَكَ تطوي ، ويثُست ما انطوى

فاطو الفؤاد على ظبي ذوى

فهل يفيدك عتابك لها بقولك :

"وكتت على صدر أمين"

شهي حنين ، ومعنى ثمين

ولكنك لا تأبهين ، ولا تشغرين ، ولا تعلمين

فقلبك أضحى مريضاً رخيصاً (٢)

ولقد وقعنا نحن في الخطأ ذاته ، في حثه على النسيان . ولكن عذرنا أننا نرى الشاعر المولّه يخاطب هيبته في النهاية : "يا عسنا" وبأنه سينسى وينسى . بالطبع ، هي تجارب سنين طوال ، وألف غرام عابر محوره الغرام الأول . ولم لا ندعوه أيضاً الى ذلك طالما انه ينسى أحب صورة الى نفسه - كما أسلف - إذ يقول :

"سأنسى بأنسي حملتك طفلاً"

جميلاً شهياً . . .

سأساك في موجة الذكريات

وأخنق في الصدر كل ندا . . .

سأنسى بأن لكل ملاك

فتاة تدنسه فاجره . . .

فيا صنما أنهجته يدي . . .

نحتك من دمعي ودمي . . .

خلقتك من خاطر المستحيل . . . (٣)

(٤) ينساب هادئاً كصفحة النهر المترقق بالإوز العائم جارفاً في أعماقه رواسب الرمال والحجارة المعيقة . ولكن شاعرنا في قصيدته هذه ، لا يعترف بالموت حقيقة واقعة مثبتة ، لأن الجسد عنده ، يموت ويفنى . للقلب انتفاضة وللروح انتفاضة . ولعمري ، هذا هو الفتى . . . فيا أيتها الحلوة التي ترقب ذبولي :

يملاء الليل بالسنا الدقاق

قبل أن يعول الردى بالفراق . . .

وشمّت الفناء في أحداقي

تتهادى في موكب الأنطلاق . . . (٥)

"فإذا شع من سراجي نور"

فاعلمي انها انتفاضة قلبي

ولمحت المأساة في وجهي الساجي

فاعلمي أنها انتفاضة روحي

- ١- قمت بصياغة هذه الأبيات الأربعة بمعانيها ، استناداً الى معاني بعض أبيات قصيدة الشاعر "الصنم" في آثاره الشعرية ، ص ٣٧٠ .
- ٢- القصيدة السابقة نفسها ، ص ٣٧٠ - ٣٧١ .
- ٣- نفسها ، ص ٣٧١ - ٣٧٣ .
- ٤- الآثار الشعرية ، ص ٣٨ - ٤٠ .
- ٥- القصيدة نفسها ، ص ٤٠ .

وهكذا ، فإن الذي يُحِبُّ لا يموت . والعاشق الصادق لا ينتحرفي ومضات اليأس ،
لذا ، فما ان ينتهي كمال من قصيدته نفسها بقوله :
”رَبِّمَا يَصْمِتُ الْعَوِيلَ بِصَدْرِي
وَيَمُوتُ الصَّرَاعُ فِي أَعْمَاقِي”
نقول : رَبِّمَا . . . رَبِّ لَنْ .

هذا هو شاعر الغزل الرقيق والقلب الرفيق ، وقد افتتح في صدره هيكلًا لكل حسن
وفتحة فأقيمت الصلوات وصعدت الدعوات في ليلة كانت ذاتها ليلة انفتاح ابواب السماء .
وإذا ما خانت الألفاظ شاعرنا في أوج حياته وقمت الصورة بقوله :
”من الماهي لنا قبر
أنام به فتوقظني
فإنها خيانة المراهقة الساذجة البريئة ، أوهي صورة لتداعيات حُبِّ لم يوءت جنى موعودا ،
لذلك يسميه الشاعر . . .

”أنت أسطورة الحياة فخلد
خير أنشودة نسجت رؤاها
كل يوم لحنا شجيا عاطر
منذ أنشبت في القلوب الأظافر” (٢)
القبر والأظافر ، صورتان باهتتان لا بل منقرتان تبعثان على التقزز . وترانا معترفين بندرة
هذا النمط التصويري في شعره عامة . لذا نكتفي بهاتين لما ذكرنا ، لننتقل الى أرق غزله
على الاطلاق ، عبر قصيدته التي صاغها في ذروة حياته الادبية والنشوة الانسانية (٣)
فهي خير شاهد من بضعة عشر شاهداً يروي فيها إحدى قصصه متذكراً ومذكراً بيوم
جاء حبيبته القديمة يطرق بابها ، يقف به مستأذنا الآذن بالدخول . فإذا به يدخل ،
فيكتحل ويزدان ، ثم يخرج بينما الآذن خير شاهد عيان . ولعل ايرادنا لأبيات منها يورد
المقصد وينيل المرام . . . يقول :

”سيدتي ا

في الباب شاعر جميل

يقول انه رآك مرة على خياله

فجن واشتعل

قد جاء يحمل الزهور في يديه : باقة من الغزل . . .

فارس منعم طويل

وشعره على جبينه الفضي كالإكليل

وفي عيونه غمامة مجنونة من الخجل . . .

أراك قد وجمت وشرأب جيدك النبيل

١- قصيدة ”أنساها” ، الآثار الشعرية ، ص ٩٩ - ١٠٢ . وقد نظمها كمال في

دمشق سنة ١٩٥٢ .

٢- قصيدة ”تحية الشاعر في عليا وناصر” من شعر الصبا ، غير منشورة . في مركز الابحاث .

٣- قصيدته ”سيدتي” ، الآثار الشعرية ، ص ٤٠٥ - ٤٠٦ . نظمها في ١١ / ١١ / ٦٥ .

وعرِدت في جفونك الشَّعْلُ . . .
 سيِّدتي : الشاعر الجميل بيتنا دخل . . .
 أراه يدنو حاملاً جنونه بلا وجل
 أراه يدنو نحو ثغرك البخيل
 أراه يسرق القبل
 ذراعته تلتف حول خصرك النحيل
 وشعرك الطويل يا سيدي ، على يديه شعرك الطويل . . .
 تجاوز الحدود يا سيدي فماج وانتقل
 يقطف النجوم من قوامك الأصيل
 أواه . . . يا سيدي ويشرب العسل . . .
 قومي وللمي الخرام من مخدعك الأثيل
 عن بصري الكليل ، وللمي القبل
 فالشاعر الجميل يا سيدي
 الشاعر الجميل . . . غاب وارتحل (١)

ولقد أجمع كل من عرف الشاعر على أن شعره على جبينه الفضي كالإكليل . . . يموج وينتقل ،
 ونحن في أسرع من الموج معه انتقالاً . . . ترك في كل موطن له آثاراً ، وفي كل قلب شقوه
 تذكاراً ، وفي كل جسد حل ندوباً مفتحة وأجفانا مقرحة . . . تداخل في الحبيبة المتوحدة
 المتعددة . . . فالحديث عنها عنه ، فكما لها ألف ذكرى وذكرى يقول لها : " ولي في
 خيالك ألف جنين " (٢) . قلنا : أحبها حتى التلاشي وأحبته حتى الكبت ، فانزع فيها
 وحلت فيه ، فلم الكبر إذ ن ؟

وشاعرنا ، وإن كان في مواقف يدعي الضعف وينتسب إليه ، فما كان ذلك إلا ثبت
 إقدام وجسارة . . . وإذا كان رافضاً لهذه البدعة ، فلأسباب رأينا بعضها في رسائله . . .
 ولأخرى ، استخفافه بكل سايق ضد التيار الجارف ، وأخذ به بما يقال فيه تجنياً من أقرب
 المقربين إليه . فالعاشق هذا ، لا يخاف كلام الناس بقدر ما هو مقتنع ضمناً بأن الحب
 ما أحلى عذابه ، لا بل لا يحلو بدون عذاب . ورداً على دعوته إلى النسيان ، يجيب ساخراً :

" أنساها وأسلوها
 لأنني الكبر في نفسي
 فأنحر مهجتي نحراً
 وأقضي في الهوى كبراً " (٣)

لا ، ليس هذا العاشق بالذات من يقدم على نحر نفسه بنفسه مرضاة لمن يكابرون . وفي
 رأيه أن من يكابر لم يعرف الحب يوماً . فلو اجتمعت له ظروف " مجنون ليلي " لما كان أقل
 منه جنوناً . ولم كان صعباً عند كمال أن يقوم العقل على العاطفة ، وكأنه بهذا يحقق مقولة

١- قصيدة " سيدي " ، الآثار الشعرية ، ص ٤٠٥ - ٤٠٦ .
 ٢- قصيدة " الصنم " ، الآثار الشعرية ، ص ٣٧٢ .
 ٣- قصيدة " أنساها " ، الآثار الشعرية ، ص ١٠١ .

"أنا أفكر، اذن أنا موجود". أجل، ما كان مجنون ليلي ولا عنقرة عبله ولا جميل بثينة، ما كانوا ليرضوا بالممالك والصروش بدائل عنَّ يعبدون. كانوا ينتهون كما يعتقد شاعرنا بنهايته ان يقول:

"فتعَبْتُ بي شقيقاتي
وما يعلمن لو أنسى
وإذا كان هذا رأيه في الحب، فإن آخر أشد تطرفاً كان بدأت مطالعته في صباح المبكر
وقد قال:

"وحسبت الحياة باتت نعيماً
هكذا الحب يكون في بكور خطاه
تتغنى الهوى بليلي وقيس
مشرق ينجلي محوطاً برجس" (٢)
لعله رأي هيات له الضرورة أحكاماً لا يقاس عليها، فمن طبع ابن آدم أن يدنس ويظلم
مثلما فعل آدم نفسه.

وشاعرنا عاشق يعود بكل الامور الى منابعها الأصلية. يريد "احتواء الغرام بريثاً" براءته طفلاً. ويريد "بكور الحب" في حضن البوادي، فيردنا الى عشق الجاهلية، آنا في استعارته كأهل الجاهلية ومن لحق بهم لأسماء حبيبات عمّت. وأوانا في تغنيته "بوحشية العينين مكحولة الطرف في حور المما" "تغنياً جريئاً"، وأحياناً تسييرنا في واحات الصحارى العربية بين قطعان الظباء ما بين واردات لرييونا فرات من وجه الصياد. وما هن في الفجر
"والغواني الحسان فيه تغنت
في دلال كأنهن ظباء
خائفات فهن حيري وجزعي
تبعث السحر والهوى في البوادي
واردات وهن بكر حوادي
معرضات يخفن شر العوادي" (٣)
تراكيب وألفاظ من الجاهلية، وصور معدنة في الجاهلية بحيث لو سألنا الشاعر هل رأى ظبياً في حياته؟ لأنكر ذلك، حتى وإن رآه فليس خارج سجنه الحديدي، وليس في قطعان تزورها عوائج الطبيعة وتمزق شملها الأسود الشرسة. إلا ان وصف الخيال المجتج الحساس، قد يكون أدق وأجمل من الوصف بالعين. والرسم بريشة الخيال قد يكون أروع تعبيراً من الرسم بأهداب العيون. ألم ينفخ الخالق في الشاعر بعضاً من قدرته - تعالى - على أن يرى ما لا يرى!

الى أي حدّ كان يمكن لشاعرنا أن يصل لو وقف شعره على التغزل بالمرأة دون سائر آيات الجمال؟ ولعلّ خير جواب نتلقاه من دواخلنا هو أن المحب الصادق يرى في كل ما صنع الله حبيباً. سواء أكان امرأة أم أم طفلاً أم وطناً. وليس العجب في أن يحب الانسان، بل الأعجب هو أن لا يحب أبداً:

١- القصيدة السابقة، ص ١٠١.
٢- قصيدة "أين مني عزمي ومضائي"، غير منشورة. في مركز الأبحاث الفلسطينية.
٣- قصيدة "الفجر العاشق"، من شعر الصبا، غير منشورة. في مركز الأبحاث الفلسطينية - بيروت.

وتظلّ سمة أخيرة من سمات شعره الغزليّ ، وهي : هل كان كمال ناصر عاشقا في مدرسة جميل بن معمر صاحب بثينة ، أم في مدرسة عمر بن أبي ربيعة صاحب كل حسناء ؟ وهل من الضروري أن يجري على غيره ، أم أنّ العادة جرت على الإتياع ؟ وماذا لو لم يكن من قبل نماذج ؟

كم تسموا شعراء الغزل بين عذريين وإباحيين . . ما بين حسيين وماديين ، وقد فاتهم - وقولا - أن زعيم العذرية غرق مرّات في المادية ، وزعيم المادية تسامى أحيانا فوق الحسية . ولا أثر للسّن في هذا ، فقد يشهد الفتى العذرية والاباحية معا ، فالعاشق - أي عاشق - لا يعشق الروح فقط ولا الجسد وحده . لذلك ، فهو عندما يتنزل ، لا يخضع أحاسيسه ومشاعره واندفاعاته العاطفية لمقاييس ثابتة مقيدة . ولا غرابة إذن ، إذا ما شهدنا شاعرنا في مطلع صباه يدرج على ملاعب العذرية ويشبّ على أراجها ، ثم لا يلبث أن ينتهي على مذهبه في أخريات سنيه .

وإذا تصفّحنا قصيدته " اليها " (١) التي درّ بها مبكرا ، وجدناه انسانا قنوعا بالجمال يرتعش لدى رؤياه ، يحبه ناضجا فيضيؤه بشعاع روحه وقد جالس " ليلاه " :

هناك احتويت الغرام بريئا
تجردت عن كل ما أشتهي
أحبك حبّ السنّ للسنّ
بعيدا عن اللذة الفانية . . .
وأزهقت ما تشتهي ذاتيه
وحبّ العناقيد للدالية

فهذا الشعور اللذيذ بممارسة الأومة ، لا يمكن أن يكون غير عفيف . والعاشق العذري عادة عَفّ نقيّ أقلّ ما يفدي به الحبيبة ، روحه . لذا ، فإنّ شاعرنا هذا لا يتوانى عن اهلاك نفسه حبّا وغدا . . فيتابع قصيدته قائلا :

" سأهلك في الحبّ ، لكنّ غداً
سيبني لي الحبّ تمثاليه " (٢)

هذا في شعر الصبا والشباب ، فماذا في شعر الاكتمال ؟ يحدّثنا عن نفسه وقد ارتحل الى باريس موطن الحبّ والجمال ، فوجد الجمال ولم يجد الحب هناك . . لماذا ؟ ربّما لأنّه قد تجاوز الحب العادّي أو ما زال مشدودا الى حبه الأول الذي بدأ عفيفا طاهرا ألقت عليه براءة الطبيعة مسوحها المتألثة ؛ فابن القرية لا يشرب الا من النبع ومن غير النبع لا يستقي . ففدا الصفاء صفة ملازمة ، وها هو يعترف بأنّه في باريس

" أضاءه الطهر بلاؤه
لم ينسج الحبّ على درهما
وانطفأ الرجس وما أطفأه . . .
ولم يضاعف في ثراها امرأه " (٣)

بل ضاجع تماثيلها ورسومها في طقوس دينية حملته فيها أجنحة ملائكة الروح . وقد يكون لتربية كمال الأدبية والدينية ، تأثير كبير على روحانيّته ، فارتبطت الروح

١- الاثار الشعرية ، ص ٢١ - ٢٢ .

٢- هذا البيت غير منشور في قصيدته " اليها " في آثاره الشعرية كما وردت ، بل في صحيفة قديمة لدى منها جزازة لا اسم لها ولا تاريخ ، حصلت عليها من مركز الأبحاث .

٣- قصيدة " ما أروع الشاعر ما أبراه " ، الاثار الشعرية ، ص ١٢٧ .

بالقدسية ، والقدسية بالروح التي حلت على السيد المسيح ربه . فأصبح الحب مقدساً . .
حتى حبيبته يقول لها :

"فيك الهوى العذريّ بـتّ جذوره
قد سنه وحفظته لحماك" (١)

فإذا ما فعل الحب فيه فعل السحر ، رضي - كعاشق متمم - من حبيبته بنظرة واحدة .
من الطبيعي أن يشقه السهد ويبريه فيشرف على الهلاك راضياً يستزيد ، ولو نمت عنه
اليها صرخة الروح :

"هياً أعينيني فقد بات الهوى
ما ضرّ هذا والخرام منزّه
يستلّ من جسد ي النحيل عظامي
يسمو بروحي فوق كسل غمام" (٢)

إنما يحار المرء في أمر هذا العاشق كاتب قصيدة " حلوة أنت فابعدني" (٣) وقد صدرها
بقوله "عرفتها بعد الموت . . فما استطاعت أن تمب لي الحياة فأبعدتها وقررتها . أهسي
شعر غزل أم رثاء ؟! إذا كانت رثاء ، فأولى بنا أن ننزلها باب الغزل الحسي النقي من
أية نزوة عابرة او عاطفة متوهّرة . وإذا اعتبرناها غزلاً ، فإنها تمثل حباً عذرياً ارتفع فوق حب
البشر جميعاً . أما اذا اخذنا الاعتبارين معا ، فإننا نلمح الشاعر هو نفسه الميت لا محالة
مع أنها هي الميتة ، وهذا من جميل طبائع العذريين الذين يتمنون الموت افتداءً لمن
يعشقون وقد استوت عندهم الحياة مع الموت . الذين لا يؤمنون به ، راجين اللقاء الأبدى
بدى لآعن اللقاء الدنيوي . ان في هذه القصيدة إفصاحاً بليغاً عن الغزل الأسمى فيخاطبها :

" حلوة أنت فابعدني عن خيالي
انت مأسى من أن يلوثك الشوق
واحدري العاصفات من أشواتي
انت أحلى بعيدة عن ذراعيّ
وأشهى غريبة عن عناقني
أنالي فيك مطمع عبقرّي
فوق حسي ولهفتي واشتياقي
إيه يا حلوتي - برّك - ظلي
قطرة للندى على أوراقني

فهل يحقّ لنا أن نبني على البيت الأخير رأينا في أن الشاعر اعتبر حبيبته ميتة - وهي
حية - لمجرد أنها لم تؤلّ اليه . . فلا رثاء في القصيدة ! لم لا وهو يستحلفها -
يستحلف حياً - بأن تظلّ - والبقاء حياة !

قلنا : لا تأثير للسّن في اتجاه الشاعر عذرياً أم اباحياً وقد بينّا الأول لنلمس في
الثاني امتداداً من الصبا المبكر في الخامسة عشرة وصولاً الى منتصف الستينات وقبل النهاية
بومضات . ففي البداية الفجة كتب قصيدة أسماها "عنفوان" (٤) وقد مطّ شفتيه في حركتي
الإقدام واللهفة المحمومة لتسألها :

"أين مّيّ ثغرك الباسم كي
يتجلّى الإنم فيه بجلاء"

١- قصيدة " العجربة الحسنة " ، الآثار الشعرية ، ص ٣١ .

٢- قصيدة " الى بنت الطبيعة " ، الآثار الشعرية ، ص ٢٣ .

٣- الآثار الشعرية ، ص ٣٨ - ٤٠ .

٤- من شعر الصبا ، غير منشورة . في مركز الأبحاث الفلسطينية - بيروت .

وبعد شفثيه ، يدس أنفه في أثر عطرها الساحر . تحركت شفثاه ، وعندما صار رجلا يعرف من اين توكل الكف ، وجدناه يتمنى نفسه طفلا كبيرا لها . مغايته من ذلك :

”أمد أنفي باحثا عن عطرِكَ الذي أحبّه

عن صدرك الشهبيّ بالجون

وعن لهاتك المسعور بالجنون” (١)

ويختلط لهما تهما فكلاهما مسعور بجنون الجسد والمادة الفانية . ترى ، هل حصل انكفاء نفسيّ حادّ في نظرة كمال الى الحبّ ؟ أم أنها شهوة الروح الى التجسّد في مرحلة من العمر تقوم المادة على الروح فتغتصبا ؟ أم أنّ للحرمان دورا ، نعني به حرماننا من الحب الحقيقيّ الأول ؟ أم أنه تراجع واضح عن العفاف الذي لم يثمر ، الى العجون المغيبّ للتمنيّ في عالم حاربه بالمادة متسلّحا بالروح ، فانتصرت المادة الماجنة وسحقت الروح سحقا ؟ ومن ذا الذي يتخيّل شاعرنا العاشق وقد انتقل مثل الملح من طرف الى نقيضه ؟ فبصد الهيام والتهالك والمطمع العبقريّ ، نراه يهتك الحواجز بعنف وقد مثلت أمامه ”عشيّته” راح يعبث بها ، فصده عفافها فعريد صارخا :

أنا أولى بهنّ من راحتك . . .

وتغنّي بنشوة ، لبيك

تاه ثغري سعيا على كأسيك” (٢)

”العناقيد أثمرت فاتركيها

كلّما زدني العطاء ، تمادى

أنت كأسان من فتون وفنّ

فماذا يمكن أن يقال عن ظمأ عاشق يكره من كأسين معا ؟ إنّه جنون الشهوة من جنون الفشل ، هيناً يشفّ حتى الدّيان في سموّ العاطفة ، وأحياناّ يجمع حتى الشراسة في تعرية الجسد : نهود راعشة ، وعيون وحشية ، وشفاه ماجنة ، وشعر متمانيّ ، وخذود متورّدة . نحن نتقبّل منه كل هذا عاشقا ، إذ ماذا يمكن لشاعر أن يصف في حبيبته التي فاقت روحها وروحه معا ؟ المرأة هي المرأة في كل زمان ومكان . . . الأداة ذاتها والمقاييس ذاتها . . . إلّا أننا لا نستطيع القول بأن العاشق كمال ناصر كان ماديا وإباحياّ بكليته وديمومته . كلاء ولم يكن ليرى المرأة جمالا فحسب ، فقد أحبّها مقاتلة في الجزائرية ”جميلة بوحيرد” ، وتمنّى الموت مع شهيدة الأردنّ ”رجاء أبو عماشة” . وتمناها طفلة تملأ رحب خياله ونسيح جنّته . وتمناها أمّا هو طفلها في ظمأ الصدي الى أمّه الأسيرة في القرية النائية عن مدى عينه ، الدانية من مدى ظنّه .

وإذا كان كمال ناصر عاشقا عذرياّ أم إباحياّ ، فهو العاشق الصادق الصادق الى حدّ التشكيك بنفسه . صادق في حرمانه من حبّه الأول ، وصادق في أنه لم ولن يكره من أحبّه ، حتى لنجده مدفوعا الى أغلظ التسمم . . . وكم من امرئ يشكك حتى بما قد لمس ورأى بنفسه . وكمال مثير للشفقة حين يقسم :

١- قصيدة ”طفلها الكبير” ، الاثار الشعرية ، ص ٣٦٥ .

٢- قصيدة ”أنت كأسان” ، الاثار الشعرية ، ص ٣٢ - ٣٣ .

" بأبي ، بالوجود ، بالصبا ، بالشباب ، بالأمل ، بعمري ، بحرقتي ، بأنيني ، بعدابي
المطعون ، بنداء السنين بين جفوني ، بإبائي الصريح ، بكبري المجرح " (١) . .
يا أيها العالم ، ساعة واحدة من الحبّ العفيف العنيف ، والطمأنينة والاسترخاء في
أحضان الطبيعة :

ساعة بعدها ، لينتحر الموتُ
ساعة بعدها ، أبيع حياتي
ساعة بعدها ، أتم في الناس
على لذتي وشوقي الدفين
للسنا ، للمنى ، ودنيا السكون
أيا ناس ، أيكم يشتريني (٢)

فإذا بدا لنا كمال هنا مادياً إباحياً ، فقد عرفناه من قبل يستهين بمطلق مادة . عاش
العمر عاشقاً في كل ساعات حياته ودقائقها ، يعيش القلق في شتى مظاهره : في المجتمع ،
في السياسة ، في العاطفة . كان يريد عالماً مثالياً خالياً من الهموم ، يكرس المحبة والخير
يرتفع إلى مراتب الجنة ليجاورها ، فإن به يسلب حباً ويختصب وطناً وينخدع سياسةً
انخداع الطير الذي ينتظر بين قضبان سجنه الكبير الحرية والانطلاق من عشه الصغير .
لذا ، فإن هذا العاشق المحبّ أبداً ، النقي جوهراً ، الظاهر مبسماً ، المصارع للشر
حتى يصرعه أو يسقط دونه ؛ قد حكمت عليه الحياة باستمرار الصراع بين الخير والشر ،
بين الحق والظلم ، بين الروح والجسد . فما أظهر هذا الصراع في قصيدته التي تحسم كل
تكهن لصالحه ، وتوضح كل التباس لمصلحته . إنها خير تمثيل للصراع بين الإباحية والعذرية
والصراع بينهما يرجح الثانية . .

أنساها وذاك دمي
أمدّ يدي لأطفها
أمدّ فمي لأرشفها
لقد بعّت الدماء لها
فلن أشربها جهرًا
يلوح بخدّها خمرا
فتمنعني يدي الأخرى
فتأبى شفة غيّرَى
وما قد بيع لمن يشري
ولن أشربها سرّاً (٣)

لكل حديث بداية ، وله نهاية ، ماعدا حديث الحبّ والغزل فيفرض البداية فرضاً
من حيث لا ندري ولا نتوقع ، ثم يفرض ألا تتحقق النهاية . فتكون استمرارية الحديث من أصل
استمرارية الحبّ ذاته .

ولكن الواقع يفرض أمراً حقاً ، فالحبّ كالسرّ ، عذوبته في الاحتفاظ به غير جار على
الألسن . إلا أن السرّ معدّب قاتل ، أما الحبّ فمُنشط للفكر والقلب والإحساس ، لها
محسي .

١- من قصيدة " لحظة ظمأ إلى دنيا الاطفال " ، الآثار الشعرية ، ص ١١٦ .
٢- القصيدة نفسها ، ص ١١٦ - ١١٧ .
٣- قصيدة " أنساها " ، الآثار الشعرية ، ص ١٠١ - ١٠٢ .

أ - دواعيه ومظاهره :

عشنا مع الشاعر جانبا من حياته طافحا بالحب ، عامرا بالمحبة ، فما باله يعيش الوجه الآخر الذي لا تشرق عليه الشمس ، جانب الحقد ، حتى ليخيّل اليّنا أنه انسان يعيش بوجهين متناقضين . من هنا يتوجّب علينا أن نكشف عن اسباب الحقد كما تصوّرها الشاعر وصوّرها من خلال قصائد طويلة أو أبيات مؤرّعة هنا وهناك .

لقد اعتنق الحقد مذهبا طارئا مع انه ابن العائلة المسيحية المؤمنة باله والوطن والشعب ايمانا عظيما . لعلّه في مذهبه هذا لا يجد غير السيد المسيح ليدعوه الى المشاركة ربّما للقاسم المشترك من الاضطهاد يعانيان منه معا . وربّما لأن بعض أداة البطش تدين بدّينهما . وربّما دفعاً له الى اتخاذ موقف صريح من قضية شعب كان أول من آمن به . لهذا ، يوجّه الدعوة العنيفة المفعمة بالأمل الى المسيح :

لربوعهم ، لا كت فينا الهادي
هو جاء تذكّي الحقد في الأغصان
ثأراً لتعلوراية الأجداد (١)

إن كنت منهم يا ابن مريم فلتعد
أما المحبة فلتحول غضبنة
أما الحنان فسوف نمشي باسمه

يلتقي الشرط والطلب والأمر معا بما لا يقبل باتخاذ موقف وسط من قضية مصيرية تهمّ الشاعر ولاسيّما أنّه في قصائده يسرف في استخدام تصريفات "الحقد" الى حدّ يلزم بالتأمل الملي فكل ما في الوجود حاقد : الدمعة حاقة (٢) ، والدم أسود حاقد ، والنصل حاقد ، والشعب والليل حاقدان . حتى في طفولته حاقد ، فما بعد ، من شيء لم يحقد ؟ وقد صيّر الحقد كائنا مجسدا منذ أن :

وتسمرّت بين أجنان حقد ي
وتراً أخرساً وحلماً شهياً (٣)

"تسمرّ الحقد فيه لا جنأ ، وتسمرهوني الأرض ظلّاعيدا نائرا على قبضة المعتدي الذي حاول إدخاله السجن عنوة لأول مرة يوم كان يعتقد أنّه من العار أن يرضى بدخوله على يد أعدائه وخصومه . (٤)

وليست القضية شخصية كما قد يبدو للوهلة الأولى ، لأنه يستدرك معمما نفسه في

شعب يجترّ المأساة ويمضغ الجرح :

أنا جيل مضيق مرقتني
أنا دار وجنة ورياض
ما على الحقد لو تسمرني

شهوة الغدر واستباححت إياي
مطرقات بالذل والإغضاء
روحي ولبي ضغائني واشتهائي

١- قصيدة "عيسى بن مريم" ، الآثار الشعرية ، ص ٣٤٤ .

٢- هو عنوان قصيدة له في الآثار الشعرية ، ص ٢٣٧ .

٣- قصيدة "حرمان" ، الآثار الشعرية ، ص ٢٤٩ .

٤- الآثار الشعرية ، ص ٢٦٨ .

ثورتى ، فانطلقتُ من أشلائي

.....

ناشرا في سمائها أحقادى ...

وستحيا في ظلّه أولادي^(١)

فإذا كانت هذه ذرائعه وتلك أمنيته وحلم أحلامه ، فلماذا لا يتخذ المسيح موقفاً ، لا بل لمن يصلي الشاعر؟ فيكمل صلاة حقه قائلاً :

وتفني حقيقتي في دعائي

ويذكي الدّفين من بغضائي^{*}

"لن أهلي ليسكر الهدى في عرقي

إنما للصراع يلهب أعماقي

للثأر يصلي ، وللحدق يصلي ، للبغضاء اللاهبة يصلي بعد أن ملّ الصلاة راعياً في خشوع

وغضوع بينما يدنس الصهاينة حرم هيكله المسيحي العريق . فلم يعد أمامه إلا حمل سوط

السيد ينهال به "أسود حاقداً" على "الأسود الحاقد" . وليس يحمله في موطنه فحسب

بل في كل موطن يدنس ثراه غاصباً أو معتد ، وفي مثل ومض البرق أو أسرع .

ألمته سهم الجحود

حاقداً سهل الورود^(٢)

"أنسى تشاب جاحد

ولمعت في جنبه نصلا

وفي أردن الشهيدة "رها" حيث الأمة ..

"بالأحقاد حبلى

بملايين عنيفه

وانتفاضات مخيفه^(٣)

وفي العمراق حيث ..

"شدّهت بغداد أحزان الثرى

دمعة الموصل لم يهدأ بها

فعلى بغداد منها مائت ...

في جفون الحدق يوماً وم^(٤)

حدق أينما كان ، وفي كل أرض لم يزرها السلام ، وكل شعب حشروه في أحشاء الخيام .

وفي بورسعيد أحقاد على المعتدين عام ١٩٥٦ ضد الانجليز هناك ، وضد الانجليز

والاميركيين الذين وضعوا ربيبتهم الشوها اسرائيل . في وجه كل أولئك ، لا يجد الشاعر

ما يشهره غير قوله :

يتلوى ، وطعنة نجلاء^(٥)

"فرحة الانتقام خنجر بطش

في الحقيقة ان الخنجر لا يتلوى ، إنما هذه الاستعارة دلالة على تلوي الجسد المتلقي

لطعنة الخنجر . وخيال الشاعر يسافر بعيداً في كل اتجاه بعيداً مدفوعاً بعاطفته في

في اثر كل أوجه الظلم في العالم يواجهها بحقه وإصراره^{بحقه} :

١- قصيدة "صلاة الحدق" ، الاثار الشعرية ، ص ١٦٤ - ١٦٥ .

٢- قصيدة "أغنية جزائرية" ، الاثار الشعرية ، ص ٢٩٣ .

٣- قصيدة "الشهيدة رجاء" ، الاثار الشعرية ، ص ٣٣٩ .

٤- قصيدة "جرح بغداد" ، الاثار الشعرية ، ص ٢٥٦ - ٢٥٨ .

٥- قصيدة "اللقطة" ، الاثار الشعرية ، ص ١٨٩ .

لن نستريح

والشعب دام جريح

والقيد في المعصر

والحقد ملء الدم

ودرنا شاحب الأنجم . . .

يجترنا حاقداً أعجمي . . .

فيا شعوب اصمدي

ويا خراف احقدي . . .

فكنا في غمرة القصد

مواكب حاقدة تعتدي . (١)

كلها تأكيدات أمره ينطق بها الشاعر على وتيرتين متلاحقتين تتقاسمان القافية بما يلفت الانتباه من تعمد جرّها ظاهراً ممّا يستدعي تداعي الأفعال واحداً إثر واحد على وتيرة

موسيقى الجرّ التي تكسر الحرف وتكسر القيود .

وكمال ، الوتر الحساس ، تهزّه المآسي بعنف ممزّق تنقض عيشه طفولة بائسة ، وترعش

كيانه ألما خيام شعبه التي تتلاقى فيها رياح الكون وأنوائه ، فيمسك بقلمه يلطّخ به رسالة

.. إلى لاجئة .. وقد سماها " اللعنة " (٢) ، ممّا سجّل فيها :

" يا لعنة سوداء في جيبيني

ودمعة للحقد في جفوني

ألخيمتان بعضهما يشقيني "

وسواء أكانت الخيمتان بعض قطيع من الخيام الشواهد على نكبة شعب ، أم كانتا عينيها

الغائرتين شاهدين على حفر الخريف في رخام الريح ؛ فإن الشاعر الملتزم بقضايا

شعبه ، مهيره في مولده ومقصده . . . حامل العبء الثقيل على كتفيه ، عبء قطيع . . .

" حبلٌ بالحقد وثارت شهوات الجراح في الأغنام ، فانهضي يا جموع وانتشري حقداً . . .

واعصفي بالدخيل وازهي على الحب ذليلاً واهزأي بالسّلام . (٣)

ممّا تقدّم من حقائق مرّة ، نلاحظ الأسباب التي دفعت بالشاعر إلى اعتناق الحقد

فلسفة آنية إلى درجة طلوعه بحكمتين متوازيتين في الحقد والسعادة بقوله :

" أحقد الناس في الوجود ذبيح
طعنته أنامل البغي غدرا " (٤)

فذاك هو كمال .

يطعم الثأر ما يشاء . (٥)

و " أسعد الناس حاقداً

وهو أيضاً كمال .

١- قصيدة " غصبة فلسطين " ، الآثار الشعرية ، ص ٣٢٠ - ٣٢١ .

٢- عنوان قصيدته في الآثار الشعرية ، ص ٢٦٧ .

٣- من قصيدته " عودة النائر " ، الآثار الشعرية ، ص ١٨٢ - ١٨٣ .

٤- من قصيدته " نسروبليل " ، الآثار الشعرية ، ص ١٦٣ .

٥- نفسها ، ص ١٦١ .

هكذا تتراءى له السعادة في عالم الحضارة المادية . وهكذا يعتنق فلسفته الخاصة التي يريد لها لكل أبناء وطنه ، فإن ..

"حقدنا حقدنا ، وإن يذهب العمر
حديثُ الركبان والسَّمَّار" (١)

والشاعر لا يقصر حقدَه على حدود الأرض ، بل يتعدى إلى السماء .. إلى الأنبياء طالبا تحدي موقف من قضية وطنه وظاهرة حقدَه ، يدفعه إلى السيد المسيح بوجه خاص ، خلفيته المسيحية التي تربى في نقائها ودعوتها إلى المحبة والسلام . ولما كان وطن المسيح بالذات مهدداً لأنه وطن الشاعر ، فإن الاثنين مدعوان معا للحفاظ على الوطن .

وكأنما الحقد متأصل في نفس الشاعر فكتب وأطال في "أنشودة الحقد" (٢) على خطى الملاحم في ثلاثة عشر نشيدا لم يختم آخرها . طوف بها في رحاب الوطن العربي الكبير منافحا عن الحق ، حاضها على النار مكتسحا كل عقبة قد تعترض مسيرته "الشهوانية للنار" . افتتحها آما الجموع "احقدي" ، ثم جعلها حوارا - صراعا بين بلبل هو أودع الطيور ، يمثل المحبة والسلام ، ونسر هو أشرسها ، يمثل الحقد وشهوة النار للحق . وجعل الشاعر نفسه مستمعا وقد راح كل منهما يدافع عن وجهة نظره في عملية مسرحية لا يتدخل الشاعر في أحداثها وإن تابعها متحيزا . ونلاحظ البلبل يتحدث إلى النسر أملاً مطمئنا مشوبا برعشة الضعيف الخائف من أن يبدي الحذر ، وقد هاله - رمزا للمحبة والسلام - أن يرى في جناته شاعرا حاقداً مكتئبا والشاعر من أقدر المخلوقات تحليقا في السماء . أما النسر فيرى أن الشاعر محق في إيمانه بينما يرمز البلبل إلى المثالية المسوخة والعظمة الفارغة . ولكن الشاعر الحاقد يتخذ النسر مثالا أعلى ويدخل طرفا ثالثا في مسرحية الصراع و "بين عينيه مصرع الكبر والزهو أطلا ليلاً رهيباً حقودا" (٣) .

يراه المتصارعان من غير تكافؤ ، ويسمعان دم دماته الصاخبة ، فيسأل النسر عنه غريماً :

"النسر : هل تمليت صوته
البلبل : لا

يصرخ الحقد في دمه ؟
بل فدرةً لحقده" (٤)

فهل كان البلبل يؤمن بأن الحقد قد تأصل يسري في دماته ؟ وهل هذا سبب كاف لأن يتخلى عن دعوته المقدسة ، فما الفائدة من داع إلى الإيمان في أرض كلها إيمان ؟ لذلك ، ما ان يروى النسر أخاه الشاعر ، حتى يدعو له لكي يعطيه الشراسة مع حقدَه بقوله له :

"أنا أعطيك جانح الثأرفانزع
قد حبوناك بالضغينة والحقد
في ذرانا من جانبيك السماها
فعلق بجانحيك السلاها ..

١- قصيدة " في الصحراء والخليج العربي " ، الآثار الشعرية ، ص ٢١٧ .
٢- في الأصول وفي الآثار المنشورة ، سماها كمال "أنشودة الحقد" . أما محمود الأخرس في "البيبلوغرافيا الأردنية الفلسطينية ١٩٠٠ - ١٩٧٠" ص ١٩٧ ، فقد سماها "أنشودة النار" .

٣- قصيدة "نسر وبلبل" ، الآثار الشعرية ، ص ١٦٣ .
٤- قصيدة "صراع وانتظار" ، الآثار الشعرية ، ص ١٦٦ .

يا نبيّ الآلام في ثورة المجد
من شرايينه يسيل دم الثأر

خلقنا اليك ديناً مباحاً
وينزوعوا صفنا ورباحاً (١)

وهكذا يستعير الشاعر جانح النسر ليخلق به في فضاء عالمه الراهن نبياً مختلفاً ، داعياً
الى ترك مبدأ السماح وتكسب السلاح . ولعل النسري يخذع الشاعر في تزيينه نفسه له على
أنه نبيّ الآلام . . . إلى أي مدى تنطبق هذه النبوة عليه ؟ لا تسل . أما الحقيقة فإنه لا يخذع
شأن المخدوع عن ضعف ايمان ، وهو الذي تجرّع الحقد السامي " مع اللبن . فعندما يقول :

وشفاهي عبّت من الأهوال

" انّ عينيّ تفتحت في المآسي

في وجودي غنيمةً باللالسي

وتعمّدت بالدماء فسالت

وسرى في جوانحي بالمحال (٢)

ليس بدعاً إن ضمّني الحقد طفلاً

يصبح لزاماً علينا الغوص في جوف هذه الكلمات ، بدءاً بقوله : " في المآسي " بدلاً من " على " لأنّ التفتح في الشيء أعمق من التفتح عليه ، تعمقه المشاركة . ومروراً بقوله : " شفاهي عبّت " حيث أن الشفاء تفيد الرقة والأخذ من الشيء بلين ، بينما " عبّت " توحى بالحركة الصاخبة المملثة شديداً وقد ففرت " العين " فمها " غاماً شرهاً . وقوله : " تعمّدت بالدماء " نقضاً لما عرف عنه مسيحياً تعمّد في طفولته بما " مقدس ، وقد حلّت الدماء محلّه لتتخذ من طريقة التعميد طريقاً لتغطية الشاعر كياناً كلياً . وقوله : " ضمّني الحقد طفلاً " حيث جعل الحقد أمّاً حنوناً ونفسه طفلاً . أمّا قوله : " سرى " ففي الفعل انتقال خفيّ يحمل في حركته مفهوم السموميّة الفتاكة - والحقد سمّ .

هنا يتدخل البلبل الوديع وقد هاله ما آل اليه الشاعر الذي يرفل بالحقد ، ويزرع الحقد . . . يلهبه الحقد وكان قد ألفه انساناً محبباً ودوداً يعشق ويفتدي بالنفس كل جمال . يتدخل البلبل في محاولة يائسة ، حسبه فيها أنه يؤدّي رسالة يعتبرها مقدسة . ويدم يتحرّق ، يناديه :

" أيها الشاعر الغريب الأمازي
خفّف الرطة . . . فالحيّة نداء
أيها الشاعر المضلّ ، روّدا
قلبك الطفل ضمّ في الحبّ دنيا
أنت روح الإله نشوته الكبرى
أنت عانقت صورة الشرّ بالعنف
وتهجّدت بين أروقة الحقد
أيها الشاعر الغريب الأمازي

أيها النائر الحقد الجنان
مشرق بالعطاء والألوان . . .
والمس الخير في جراح الزمان
.....
.....
تصلي في هيكل الشيطان
أين حبّ الانسان للانسان ! (٣)

١- القصيدة السابقة ، هي ١٦٧ .

٢- قصيدة " في فلسطين " ، الاثار الشعرية ، ص ١٧٨ - ١٧٩ .

٣- قصيدة " صراع وانتظار " ، الاثار الشعرية ، ص ١٦٨ .

أجل ، أين حب الإنسان للإنسان ؟ وهل " هي كلمة هو قائلها " ؟ ولم لا يحقّ
 لشاعرنا أن يطرحها في صراخه على العالم بدل أن يؤخذ بها ؟ ولم لا يطلب الحب الا
 من طرفه ؟ ولم لا يُعتبر انسانا ازا من يعتبر نفسه انسانا ؟ وأكثر من بضع مئات لم لا ؟
 دارت وتدور في خلد الشاعر . وعلى الرغم من تفتيح البلبل كوا من المحبة في صدره وتعظيمه
 بروح الألوهية وبراءة الاطفال ، ثم تنبيهه الى مداواة حقد الشيطان بحقد مماثل ، ورغم
 الاسلوب الهادي الرصين واللمحة المؤثرة ، فكل الحجج لم تنفع أمام اندفاع الشاعر الذي
 أوجز موقفه العام بـ " لا عين مؤكدين :

في مجال العلى ولا الحب يجدي (١)

" . . . لا الصبح يجدي

لا بل ذهب الشاعر الى أبعد من صمّ أدنيه عن نداء البلبل ، فتخلّى عن موقفه من الصراع
 واندفع منقضا على المسكين يمزق جانبيه ويحطم رأسه شرّ تحطيم ، مشبعا شهوة النار
 في دمه . ومن حيث أنه مأخوذ بغضبه ، أخرس همس الملائكة في اصطراع السنة اللهب
 الجهنمي فلم يبق الا النسروالآه ، تأخذ - بهما - العالم رجفة لا تلبث أن تصيبها
 بعد واهاء فيرتعدان . . . شاعرنا يبحث عن مبرر ، عن مفتاح لباب محبة أوصده ،
 فمن يدلّه الى الطريق . . .

" للبلدة الصابرة الكريمة

تنفض عن أشلائها الهزيمة

تنفض عن أشلائنا الهزيمة

والحقد والتّصغار والنميمة" (٢)

البلدة الرمز - الوطن ، هو الباعث وهو المرام . حتى في حبه عاد يصلي صلاة نادم

ظامي الى الطهر ، فيا . . .

بحنان يسمو على أحقادى (٣)

" ربّ صنها وامسح جراح فؤادى

ولعلّه تعب أو ملّ من سوداوية الحقد ، فعاد الى طبيعته الأولى الأعمق رسوخا
 في قلبه . من هنا كان للشاعر انطلاق متجدد الى رحاب السماء - لا الفضاء لأنه ينطوى
 على العدم والجهول - انطلاق حرّ كالطير من بعد أن حشر في سجن قليلا ، لأن طول
 الحشر يبّد الجانحين ويظفي شرر الروح . فكانت قصيدته " انطلاق" (٤) خير شاهد على
 تلهفه الى العيش الهاني ، وربيع الحياة الأبدى . . . يقول في القصيدة هذه :

" أريد حياتي تلون غصني

فيخضر عودي ، ويضحك سني

وتسمر روعي ، بيني وبينني

فأنسى الجحود

- ١- قصيدة " في فلسطين " ، الاثار الشعرية ، ص ١٧٧ .
- ٢- قصيدة " أذاكر بلدتنا القديمة " ، الاثار الشعرية ، ص ٣٣٣ .
- ٣- قصيدة " صلاة " ، الاثار الشعرية ، ص ٣٦ .
- ٤- الأثار الشعرية ، ص ٣٦٠ .

وأنسى جريمة قلبي وعيني
وما كان مني ، وما قيل عني
وذلي بدنيا غرامي . . وجبني
وهذي القيود . .
أريد انطلاقا لروحي وفني
على ملعب شاعر مطمئن
لأفرغ دني ، وأملأ دني
بخمر الخلود
فيمع معنى الحياة بذهني
ويحيا وجودي جديداً بعيني
وتزهو الورود

تنقلنا هذه القصيدة الى عالمين: الأول، شكل التعبير بثلاثيات متساوية على البحر المتقارب الذي يوحى بتكرار النموذج الانساني في تكرار تفعيلاته ، وقد اعتمد الوزن شطرا واحدا لكي تتلاحق الألفاظ سلسلة القيادة تسلم قافية كل شطر زمام المتابعة الى الشطر الثاني على وتيرة واحدة توحى بالهدوء . والعالم الثاني ، مضمون القصيدة حيث تطالعنا كثرة الأفعال مع وقوعها في صيغة الحاضر الذي يفيد الاستمرارية أيضا بدليل أن فعل المطلع (أريد) يوءدئ تدريجيا الى ما وصلت اليه الخاتمة من فعل (تزهو) الورود ، وقد أراد الشاعر حياة ملونة الغصون ، وما الورود الا ما أراد .

ولعله احياء بالثقة والطمئنان أن يعتمد الشاعر الى خمس تقسيمات رئيسية من حيث المبنى والمعنى مطابقة ومقابلة في الأشطر (أريد حياتي ، فيخضر ، وتسمر ، وما كان مني ، لأفرغ دني) . أما التقسيم في الشطر الثالث فتحمل مغزى خاصا لما فيها من حركة داخلية في التسامر داخل الروح نفسها وقد جعلها الشاعر طرفين مع أنها جزء لا يتجزأ ، فسور لنا بالنجمة تلك الرحلة الداخلية الحاصلة عندما تستفيق الحياة في البرعم . فرحة البرعم بحياته ، وفرحة الروح بحياتها .

ب - أنشودة الحقد شكلاً ومضموناً

الجزء الأكبر الذي بنينا عليه بحثنا هذا هو "أنشودة الحقد" (١) التي تتفرد بخصائص معنوية وتعبيرية مميزة عن سائر شعر كمال ناهر . من ناحية المضمون ، هي أمنية للشاعر تتحقق فيهبه الله جناحا قويا يتحدى به غيم فضائه ويطوي الربوع نبييا غاضبا الى أن يعود الحق الى نصابه . ولا يعود الحق الا على يد جيل ضيعته النكبة وحفرت فيه المأساة أخاديد ، فما زالت دماؤه تجري لكي يتذكر دوما : لماذا يتألم ، ولأجل من يثور ؟

فالثورة لأجل فلسطين الوطن ، " كعبة الشهداء " وبلاد النجوم والحلل الخضراء .
هي " لفته السنّا في السّما وانطلاق الربيع ورحاب الإلهام ترقص بالوحي وتختال في رؤى
الشعراء . " وهي أرجوحة الشعب فيها يطيب الغناء .

وبجناحه القوّ يحلّق الشاعر منطلقاً من بؤس الخيام ، فوق روابيها ومروجها ، فوق
يافا ببحرها الأزرق الرائع ومينائها الحنون ويرتالها الشهي . وفوق حيفا يحطّ على صنوبرات
جبل الكرمل الذي تغتسل بالبحر قدماه . وفوق عكا ، قلعة المجد وسور الصمود حيث لا
تزال حراب الجزائر أثراً شاهداً على النضال . وبعد أن يقتنعر لوحات الجمال ، يطير فوق
الناصره متسائلاً: ترى ، هل للمسيح مكان في الناصرة ؟^(١) ومنها الى " قانا الجليل " التي
شهدت أول أعجوبة للمسيح ، الى " الرملة " الأبيّة و" اللد " المناضلة الصابرة . وأخيراً ،
يطير فوق " دير ياسين و قبيا و بيت سير و صفيا " مذكراً شعبه بالمآسي ، جامعاً بين
الذكريات الحلوة والذكريات القاسية لكي ينفذ الى القلوب فيؤثر فيها بمثل ما تأثر في
مشاهداته ، ولينطلق من بعد " نداء الخيام " مكرّساً عودة النائر الى ارض وطنه محمولاً على
أجنحة عاطفة دفاقة ، وعلى لهب الحنين الى الفردوس المغتصب .

ومن ناحية الشكل ، فإنّ الأنشودة عبارة عن " ملحمة " أو مشروع ملحمة صمّ الشاعر
على تنفيذه ولكنه توقّف - أو أنّه مفقود - عن القسم الآخر وقد ترك النشيد الأخير قصيراً جداً
وفير مكتمل . وما يشجّعنا على اعتبار ملحمة ، أن الشاعر ينظمها على وزن واحد (الخفيف) هو
ذو نفسٍ ملحميٍّ يستوعب في إطاره الألفاظ الصاخبة والحماسية التي يستعين بها الشاعر
أثناء تحليقه فوق أجزاء الوطن العربي المترامية مستنهضاً الهمم في الاسكندرون والجزائر
ومصر والخليج العربي والعراق على امتداد تسع وخمسين صفحة من آثاره الشعرية . وفي
الملحمة تنوع اللقوافي يفرضه طول القصائد أحياناً ، وأحياناً الانتقال المعنوي داخل القصيدة
الواحدة والذي يلجأ اليه الشاعر بوساطة فواصل مجزوءة مستقلة القوافي .
ولا شك أنّ الشاعر اتخذ لنفسه جناحاً كي يحلّق بخياله وحواشيه فوق الوطن ، لذلك
كانت له انطلاقات خيالية من البداية في تصوّر حيثيات المعركة بين النسر والبلبل وصولاً الى
النهاية " الدراماتيكية " - المأساوية .

وأسلوب الملحمة فخم ، جملها رصينة بدعوى أنّها تجمع بين واقعيين ؛ الخيال والحقيقة ،
أمّا الواقع الاول فهو في خدمة الواقع الثاني . لذلك ، يركّز الشاعر كثيراً على أسلوب الخطاب
والحكم وطريقة التصوير لكي يؤثر في النفس بالشكل كما أثر بالمعنى العاطفي من قبل .
وللوقوف على حقيقة مذهبنا ، نجتزئ هذه الأبيات :

- ١- يا جناحي ، هذي رحاب الجزائر
 - ٢- تلك آكامها الخضيبية بالمجد
 - ٣- تلك ساحاتها المهيبة بالنور
 - ٤- صمدت فوق البطولات تعمرى
 - ٥- وتغني في الحق أنسودة النصر
- كّل شبر بها على الضيم نائر
وأبطالها الكماة الأساور
كصدر الايمان بالوحي عامر
بين شذقي أهوالها والمجازر
وتضي مجنونة للمخاطر (١)

وإذا كان للحساب أثر ، ففي الجمل والكلمات ، لا بل الأحرف إضافة الى الصور
الجريئة كالآكام الخضيبية بالمجد ، والساحات المهيبة بالنور شبيهة بصدر الايمان
العامر . ولنلاحظ جمال موقع لفظة " تعمرى " ، ودقّة " مجنونة " التي استعارها لاشتعال
المخاطر . ولنلاحظ تلك العبارة المتينة رغم طولها ورغم امتدادها على بيتين هما الثالث
والرابع .

وهكذا اجتمعت العاطفة الوطنية المشبوبة مع التعبير الحماسي الفخم لنخلص الى أن قارئ
الملحمة ، بعد أن يحوم مع الشاعر فوق تلك الأرجاء ، لا بدّ من أن يعود الى فلسطين
بقلب نبوي وهبر نبوي واندفاع نبوي منشداً ملحمة النصر .

١- قصيدة " في رحاب الجزائر " ، الآثار الشعرية ، ص ١٩٤ .

أ - في المسيحية:

ما ان وعى الشاعر الدنيا تردد في أمه الخاشعة "نؤمن باله واحد أب
ضابط الكل ، خالق السماوات والأرض، كل ما يرى وما لا يرى" (١) حتى ردد تلك
الانشودة العذبة فعذبت نفسه من حيث لا يدرك وان كان ادراكه مع الزمن قد ارتقى الى
مرتبة اليقين .

وسار في ركاب الأسرة مع جده يخطب في المسلمين، والمسيحيين على السواء
وبلغة سماوية واحدة . ثم كانت تلمذته الروحية مباشرة في حنايا الكنيسة التي أمها مصليا
ومرددا مع فرقتهما المنشدة ما يفيض من قلبه ايمانا ومحبة . فغدا الله مثله الأسى يهفو ،
يعدو اليه منذ الطفولة .

أما المسيح فهو "همس الله" في حشاشة الفؤاد يهزها فيوقظها . وكان
لهذا الحدث العظيم أثره في شعر كمال وخاصة حين سمعه يصف البشارة لمريم بقوله :

"همس الله في ترائبها النشوى فماجست أعطافها بالدييب . . .
عذو نفخة الساء فموني عهدا لدة وقري وطيبي" (٢)

بكلمات هامة تهفي "هأأتها" رهبة وخشوعا على الجوال شعري . ولكنها صورة أروع
مـبرعنها في "همس الله في ترائب مريم" وليس في سمعها ، فأحياها جوهرها . ولعل هذا
الشكل الاحيائي قد استوحاه الشاعر من عمق ايمانه بالوهية المولود المنتظر .

ويمضي متأثرا برهبة الموقف لدى تلقي مريم البشارة وقد أجابت متلعثمة
اللسان واجفة الجنان بلفظة تشد حركتها ركاب الأبطال الى الأرض شداً : "أتى يكون
لي ولد ولم يمسنني بشر" (٣)

وانا كان من اثر للمسيحية في شعر كمال ناصر ، فهو امتداد ظل المسيح
فوق مدى تفكيره ، فكما بشرته محبة فقد استعاد في ذهنه صورته الأولى حين طرد اعداءه
الذين جعلوا هيكله سوقا للتجارة . . هكذا سيطرد الشعب اعداءه من فلسطين وقد تأثر
كمال بقول المسيح " ما أخذ بالسيف فبالسيف يؤخذ " متصورا اياه

" نائرا يفرض المحبة في الناس ويدعو للخير والتهذيب
لا ييالي بالشوك يدمي خطاه في مجال الكفاح والترغيب" (٤)

١ - مطلع فعل ايمان يردد اثناء الصلاة في الكنيسة .

٢ - قصيدة " صرخة الميلاد " الآثار الشعرية ، ص ٨٤ - ٨٥ .

٣ - القرآن الكريم . سورة مريم : ٢٠ .

٤ - القصيدة السابقة ، ص ٨٦ .

فدرب الفداء والثورة هو درب الآلام المؤدى الى الانتصار على الموت بالموت رغم مرارته .
فالمسيح نفسه عندما استحق الموت ، نادى ربه : الهى الهى لماذا تركتني ؟ ذارقا
دمعة نبي . . . اله تجسد كان لها نفاذ عميق في قلب كمال فاعتبرها دمعة حب و

" ان للحب دمعة ما توانت تتهادى بالظهور فوق الصليب
سكبتها جراح عيسى فسالت بضياء الغفران بين القلوب " (١)

في الحقيقة لم تكن تلك دمعة واحدة بل انسكابا للدموع تحت وطأة آلام الجراح ، بل
سيلانا مشعاً وقد استعار الشاعر هذا المفهوم للدمعة من الضياء الذى فاض على سيده
وقت اعتماده على يد يوحنا في نهر الأردن . كل هذه صور كان الشاعر يطالعها فسي
الكنيسة فتتراكم في خياله وتتفاعل فيما لا يفوته ان يتساءل : ولماذا يكبد المسيح نفسه
كل تلك الآلام ؟

وسرعان ما يفقه الحقيقة التي يشق على كثيرين فقهها ، فالمسيح :

" لا ييالى أهغى له الشعب لماً أن دعاه أم هام غير مجيب
حسبه ان يغيريا لأمل العذب ويحيي في الناس ميت القلوب " (٢)

فمجيء السيد المسيح كان للضالين قبل المهتمدين ، ولموتى القلوب قبل أحيائها -
كالشاعر ينشد ليحيي النفوس الكئيبة بالفرح وليبني بيوتا لمن تجرفهم الرياح .

من هذا المنطلق فهم كمال ناصر معنى ان يكون المسيح " صفحا ورحمة

وحنانا يتنزى على جناح الكروب " . (٣) ان للفظه " يتنزى " احياء صوريا للصفح والرحمة

والحنان تتوالت كلها كتوائب حبيبات النور على صفحة الظلام . الصورة في مجملها نابغة
من تفاعل الشعربكل تفصيلات الرسالة منذ الولادة حتى الصلب ، يعيش أحداثها التفصيلية
فتصبغ حياته في شتى مراحلها وخطواتها . فحين وقف يكتم الشاعر بشارة الخورى ، نطق
بلسان الجمع الملتصق بالحقيقة المسيحية :

" انا حملنا عن المصلوب رايتة وقد نحتنا من الصليبان صلبانا " (٤)

الصورة مصغرة . . . صليب يحمله الشاعر لافتداء شعبه ووطنه وقد وضع في حسابه امثلة . . .

" عيسى بن مريم لم يرهب منيته
مضى الى الموت يغنيه بمصرعه
ولا رمى بيهودا الذى خاننا
على الصليب ، ففداه وفداننا " (٥)

١ - قصيدة " صرخة الميلاد " الآثار الشعرية ، ص ٨٤ .

٢ - القصيدة نفسها ، ص ٨٦ .

٣ - نفسها ، ص ٨٨ .

٤ - قصيدة " انا حملنا عن المصلوب رايتة " الآثار الشعرية ، ص ١٥١ .

٥ - القصيدة نفسها ، ص ٨٨ .

ويحكي عن المسيح فكأنما يحكي عن نفسه في مثل توقع المصير نفسه . ولكنه لا ينسى حقيقة الصفع والغفران التي رُكز عليها من قبل فيذكرونا بأن المسيح صَفَحَ حتى عن أبرز أعدائه ، يهوذا ، الذي خانته لا بل شمله بالفداء مع من شمل ، فلمثله من الخاطئين جاء .
لا ريب في ان تتبّع الشاعر لحياة المسيح برؤيتها كان بدافع التأثر العميق بسيرته وتمثّيه النسيج على منواله بدليل ما حمل في صدره من الحب للجميع ، وما حمل في جسده من آثار الصلب المروع .
ب - في الاسلام :

قال ثعلب : الاسلام باللسان والايان بالقلب . وقيل فيه قولان : المستسلم لأمر الله ، والمخلص لله العبادة . والسلم : الاسلام (١)
من حيث المعنى الأخير ، عرفنا شاعرنا يتلبس دور "الضيق" في الثورة التي تطلق رصاصة السلم . ومن حيث المعاني العامة ، هو من أصدق من آمن بالله وملائكته ورسوله وأنبياؤه وكتبهم ، ناهيا عن المنكر ، مغيثا للمهوف ، مسلما نفسه الى بارئها بريئة كما تسلمها ، وديعة زكاهها . فاستحق ان يكون مسلما حقيقيا بقدر ما كان مسيحيا . تلك العلاقة البيّنة بين التبشير بالمسيح والايحاء للنبي واحدة المصدر واضحة الأثر في الأولى همس الله في العذراء فارتعشت . وفي الثاني خطر الله في "اليتيم" فاستفاق يرتعش وقت كان في الغار وقد

"خطر الوحي ملهما عبقريا بين جنبه فاستفاق نبيا
وسرت رعشة النبوة فيهما تملأ الأرض والسما دويبا" (٢)

فمن هو النبي الجديد المولود بعد مخاض صحراء ما كانت تحلم بالمخاض . في أحشاء غار لم يَغْشَهُ شعاع ولا أشرفت على ليله شمس الى أن

"هبطت سورة الحجى فتغنى يا ليالى وكبرى يا ثريا
قيل للغار اى نطق جميل ما عهدناه قبل ذاك شهيا
فدوت آية الكتاب حنانا قد أتيناها منزلا عريا" (٣)

اعادة لقصة مهبط الوحي والنبوة وكتابها يختصرها الشاعر وقد سرى الوحي اليه بالتواصل بعد تخطر وارتعاش . وقد أبدع في قوله "استفاق" ايحاء برهبة الموقف الجديد وقد تحوّل الرجل فجأة الى نبي فشدّهته نعمة ربه ، ولو كان يقظاً لخفّ شدهه . لذا صورّه نائما فاستفاق على رعشة تضجّ لها الأرض مع السماء فكيف بالانسان ؟

١ - لسان العرب . مادة "سلم" .

٢ - قصيدة "مهد في الغار" الآثار الشعرية ، ص ٤٨ . نظمها كمال في ٢٤ / ١٠ / ١٩٤٧

٣ - القصيدة نفسها ، ص ٥٠ ن .

وكمال ناصر ، متأثرا بتفجر ينبوع النبوة من قلب الصحراء المجذبة ، يرفض ما يقوله العلماء عن جذبها وما يصفه الشعراء من سراب يحسبه الظمان ماء . ويروح يروي قصة حقيقية أعذب من الخيال يفتن في أسلوبها ، منقبا عن درر الألفاظ ، مقتنصا اجمل الصور . . . يقول :

"سجا الليل ، فانطوت الصحراء على صدرها الملتهب تفكر في أمسها الفاحل ، وفي غدها المجذب ، والصحراء ابنة الطبيعة . . . وهكذا غضبت الطبيعة من نفسها ولنفسها . . . ومدت سيفها نصله من عسجد ، فاذا الكون شعلة تتوقد ، والنسبا يملا الرى بالتجدد ، والصحارى تختال تيهما وتشهد . . . منذ أربعة عشر قرنا ، لغظ الله كلمته الأخيرة فكانت محمد ، ولا نبي بعد محمد " (١)

عقود متصلة من النثر الفني وقد اختار ألفاظها بدقة متناهية مسترجعا أشكال التعبير القديمة المعتمدة أساليب البيان والبديع من سجع واستعارة ومجاز . . . واذا كان المغزى ساميا من الربط بين الصحراء والنبوة ، فانه ارفع سمواً ذاك الربط الانساني الذي استأثر بفكر كمال يوم دعي شاعرا ملقيا في حفلة اليتيم بالجامعة الاميركية في بيروت مساء ١٠ آذار ١٩٤٤ . كان في عنفوان الشباب وأراد الكلام هناك عن يتيم فدّ نابه فلم يجد ما يملأه المحضر خيرا من

"أحمد ذلك اليتيم المفقدي رفع الحق فاستوى في نصابه
شع في غابر الزمان نبيا بهر الكائنات وهج شهابه
حمل المشعل الذي مزق الجهل الى ذروة الهدى وهضابه" (٢)

وكما توقّف الشاعر عند مرحلة صلب المسيح لافتداء الخاطئين ، يتوقف كذلك عند النبي العربي الذي حقق "العودة الكبرى" بعد الهجرة الكبرى من مكة الى المدينة . يتوقف عندهما يستلهمها ، لا فرارا من المطعب ، وانما لاستجماع القوى العربية المؤمنة بحق العودة وحتمتيها . الشاعر يصرخ بقلبه المتزق : العرب هم هم ، والرسول هو عو ، والهجرة هي هي ، فكيف عسا ما ان تكون العودة ومتى ؟ لعل شاعرنا في غمرة مشاعره العربية الأصلية وحلول الروح النبوية الثائرة فيه ، نسي في المقارنات بعض أركان المقارنات الصحيحة فأخطأ في القياس ولو عن غير تعمّد .

ان الانبياء يجسّدون احلام الشاعر في يقظته وفي حلمه . هم الثورة على الضلال ، والمحبة في الايمان . كذلك كان النبي الكريم مفجرا للتناقضات المكتنّزة ، مطلق أعنة الأجنحة المتكسرة بعد اصلاحها ، بان لا النفس لكل الكائنات فداء لحياتها . وكدمعة المسيح التي ذرفها في الحب طهرا ، ذرف النبي أدمعه الحرى . يصوره . . .

١ - كمال ناصر . قطعة من النثر الفني عنوانها " نور من الجزيرة " غير منشورة ، لدى من السيد ناجي علوش .
٢ - قصيدة " اليتيم " الأثار الشعرية ، ص ٥٠ .

"تهاديت لم تبخل على الرمل والحصى فمستهما بالغيث أد معك الحرى
وفجرت بالايمن أعماق عالم كسيح المنى ، ظمآن ، أحلامه اسرى" (١)
تصوير دقيق لموقف طريف يتأتى فيه التفجر عن طريق اللين ، لا العنف وبفضل التهادى لا
الكبرياء ، دلالة على ان العنف يحطم القلوب ولا يفتحها ، وان اللين اذا مس الحصى
أذابه وأسأله تحنانا على الرغم من وقوع الفعل "مساً" لا "لمساً" . وما يؤكد هذه الدلالات
تلك القافية المتشددة في البيت الأول و"سين" القافية الثانية السارية في الأعماق .
ولا يزيد الشاعر على أن يروى قصة الوحي فدخول الناس "في دين الله أفواجا"؛

"وهب اليك الشعب يباك داخلا بدين اله ، واحد خالد ، جهرا
فكت على التاريخ أعظم قائد تخلدت ان نظمت عودتك الكبرى" (٢)
وبذلك يصل الى بيت القصيد - كما يقال - حيث تكون قدرة الرسول الفائقة على تنظيم
عودته الكبرى المظفرة الى وطنه الأول ، من أول اسباب ايمان الشاعر به . ناهيك عن
الأسباب الروحية ، فليس الرسول الا منقياً من موطنه فعاد اليه بالقوة كأهل الشاعر مطرودين
من وطنهم فكيف يعودون اليه ؟

ما أحرى الشعب برسول جديد . . ولكن "لا نبي بعد محمد" . فلماذا
لا يكون انسانا من صفوف الشعب يحقق العودة اثر هجرة النكبة ؟
يحرز في نفس الشاعر ان يعود مسيحه الى هيكله محطما هياكلهم البغيضة ،
وأن يعود نبيّه الى مدينته - الوطن . محطما أصنامهم وأوثانهم البغيضة ، وفي الوقت ذاته
مؤمنون ، من أتباع الرسولين يقولون ما لا يفعلون ويحلمون بكل شيء ما عدا العودة الكبرى .
ليس الدين ، مسيحياً أم محمدياً ، طريقاً للإيمان فحسب بقدر ما هو طريق
للعمل وفق الايمان . . وكل امرئ ايمانه رهين بما تؤتي يداه .

وبعد ، فقد عبر الشاعر عن تدينه المسيحي والمحمدي على السواء في قطائد
جمعت أرقى أشكال التعبير والمعاني السامية النبيلة في ما يشبه تأكيد انسانيته
الأصيلة . فالمعاني كلها في الحمد والتسبيح وتمجيد الخالق عبر رسوله . يعرضها في
سرد قصصي متواز لوقائع الميلاد والنبوة والرسالة لكل من السيد المسيح والنبي محمد .
وكلتا القصتين مستعمدة من الكتابين المقدسين اللذين كان لكمال اطلاق عليهما ، فالانجيل
دارساً ومتملداً على أمه ، والقرآن طالبا معانيه وأساليبه التي لا غناء للكاتب والشاعر عن
مثاليتها .

أما الألفاظ ففخمة أدت وظائفها أداء تاماً ودقيقاً بأسلوب متزن فيه الكثير من

العظات ؛

١ - قصيدة "العودة الكبرى" الآثار الشعرية ، ص ٦٥ .

٢ - القصيدة السابقة ، ص ٦٦ .

"فجرت بالايان أعماق عالم
و "مضى الى الموت يقنيه بمصرعه
كسج المنى ، ظمآن ، أحلامه أسرى
على الصليب ففداه وفدانا
و "همس الله في ترائبها النشوي
فماجت أعطافها بالدبيب"

وغير هذا كثير . فلفظة "فجرت" توحى بالعطاء اللامحدود وهذه من خصائص النبوة التي فجرت عالما كسيحا فأقامته ٠٠٠ الخ . وقبول المسيح بالصلب كان عن قناعة افتداء أتباعه من بني البشر وفي افتداء الآخرين اغناء حتى للموت . و "الترائب" لفظة ليس أدق منها ولا "النشوي" صفة أكثر ملاءمة لوصف الفرح بالبشارة . وكذلك التماوج بالبشر يتسلل الى القلب كدبيب النعال من حيث لا يشعر الانسان . فما أعظم الفرح المفاجيء ! ومن حيث الشكل الشعري ، فان تمسك الشاعر بالأوزان التقليدية دليل على تمسكه بتعاليم هاتين الديانتين وتعبير عن تأثره بهما منقطعاً بكليته في محرابيهما . وقد زاد فصاغ مشاعره ومعتقداته في أوزان فخمة قادرة على استيعاب المعاني السامية الخالدة ، وهي أوزان يطردها كل من أخذ بناصية الشعر متمكناً . استخدم البسيط والطويل وهما أطول البحور وأكثر تفعيلاتها قبولاً للتليين والتطويح ، ولكنه استعمل البحر الخفيف في ثلاث من قطئه الخمس التي بين أيدينا نظراً الى تقبله المستساغ للسرد القصصي بسهولة . كان مؤمناً حقيقياً . واذ كانت له خلال حياته اللويلة ، مواقف أو خطرات ملفتة ، فسوف نتبينها فيما يلي من خلال شعره فيها .

٤ - رحلة فني رحاب الله والحياة

عاش كمال ناصر المأساة الحقيقية لشعبه منذ فتح عينيه على النور فتغلغل في صورها الى صدره وخياله ، ووثبت الى كفيه عبثاً ثقيلاً ثقيلاً جعله يردد "مأساة هذا الجيل مأساتي . . ." ويرسم حدود عالمه الخاص ؛
"في عتمة المصير والضياح والونى
أسائل الوجود في جنبي من أنا ؟
ومن رماني قسوة هنا ؟" (١)

في هذا الجو الداكن من تعاون "الضياح والونى" يتساءل مستفهما استفهام العارف : من أنا ؟ كيف جئت ؟ ومن أتى بي الى هنا ؟ هذه اللا أدريّة الزمزمة منذ ايليا ابي ماغي ، فجرت ينابيع السؤال في نفوس الشعراء وخاصة شاعرنا الملكوم الفؤاد في عالم دائري تلتقي نهايته ببدايته مثلما تلتقي "انا" بـ "نحن" شعباً مشرداً مضطرباً رغم الأرض الهيقة . وليست القضية مأساة الفرد في المجتمع بل مأساة الشعب في عالم فسح "كسج" ، ولولا اقتصر الأمر على المبدأ الفردي لكان شاعرنا من أسعد الناس طفولة وشباباً .

الا أنه امتد الى المبدأ الجماعي فسعى الى أن يكون خادم القوم - حاملا صليهم - مهاجرا من أجل تنظيم عودتهم الكبرى .
ومن خلال قصائده ، نستقرئ خطوط حياته الرئيسية من بدئها الى انتهائها وفق ارادة جبارة للحياة المنطلقة نحو النور وما تخلل تلك الحياة من شعور دفين بالاعتراب الكلي خارج الوطن وحتى في داخله ، مع رحلة قصيرة في قضية ايمانه وشكته المرتبطة ارتباطا وثيقا بحياته كدرد نواة المجتمع .

أ - البداية والنهاية:

اللعنة والمستنقع والمأساة هي قوام حياة كمال ناصر . كل امرئ يأتي الى الدنيا باسمها للحياة مقبلا على جمالاتها ، الا شاعرنا الذي أتاها آسفا مضطرا مغتالا النميمير ، وكان في هذا الاعتراف ما جعلها تعمن في اضطهاده وملاحقته كالرب يلاحق " قايين " بدم أخيه " هابيل " . فالشاعر هنا بجريرة من يلاحق ؟ ولماذا

" السيف يطلبه ، وتطلبه السجون

الأرض تلعنه ، وتلعنه السنون " (١)

ولماذا اللعنة تطارده منذ الأزل ؟ أمثلها لعنة الرب للأعشى على بطنها تسعى . . .
لعنة تنبعث من شبابة الراعي تنبئه . . .

متشرد ، وتموت من جهـد

" وتقول لن تحيا سوى شبح

تنساب من بلد الى بلد

وتهميم في الدنيا تواكبها

وتظل تجني لعنة الأبد " (٢)

لعنتك أحلام العلى أبدا

هذا الهيام استمد الثا عرهورته من حقيقة دينية أزلية تصور الأفعى الملعوننة ترابا تأكل وعلى بطنها في الأرض تهيم . فما هي هذه اللعنة التي طالما طالعت في الكتاب المقدس فطبعته او انطبعت في نفسه حتى جعلته يستسيخ البؤس والتشريد قانعا بقدره ؟ وما الذي جعله " يلعن " ساعة ميلاده ناعنا اياها بالبله القاتل ، الممتصة لماء الحياة حتى النضوب ، مستفيدا من تقلب أكف الدهر على اللعين وقد أدرك كمال ناصر منذ البداية أسلوب ولادته حيث يقول :

١ - قصيدة " حقير " الآثار الشعرية ، ص ٢٧٥ .

٢ - قصيدة " رؤى وأصداء " ، الآثار الشعرية ، ص ٢٨٤ - ٢٨٥ .

" ولدت أحمل جثمانى على كتفى

ولدت وأسفى

اللجنة ، اللعنة الكبرى ، تطاردنى

ولدت فى لحظة بلها ، تجهلنى

تمخضت بى ، وحارت كيف تقتلنى

وكيف أقتلها

تجترنى ، وتعزىنى ، وتبصقنى

كأننى قحبة فى كف قواد

حطت على دربها فى غير ميعاد . (١)

والألفاظ والأحداث تتلاحق ، نشعر بأنفسنا نواكبها ونساق فى تيارها كمثل ما
انساق الشاعر الى درجة الاسفاف فى الصورة البشعة وفى اللفظ العامى ، فمع اللعنة
كان ميلاده وبها استمرت حياته منذ اللحظات الأولى وكأنه اسقىها مع اللبن (٢) ولكنه
رغم ايمانه بها فقد كان يندفع عاملا لا يتوانى فى سبيل تجاوزها قدر المستطاع ، حتى ولو
كان الخطاب لخالقه :

" ماذا أنا جنيت ؟

رباه ما جنيت ؟

مستنقى يغرق بى . . بشرى . . وقبضتى تضربنى . (٣)

فجعل الصورة مقلوبة . . مستنقع هو الذى يغرق به وهذا جودة تعبير توافق حقيقة
الحالة النفسية . ولعل وطأة اللعنة قد نالت منه الكثير وأوصلته الى حد التوجه المباشر
الى الله يسأله بالحاح اسئلة لا يوجهها الى البرى وقد تأكد من براءته . وعندما لا
يلقى جوابا فى الحياة الدنيا ، يؤثر الرحيل تهريا من الواقع ، الى باريس ينشد فيها
راحة نفسه . ولكنه كمن يداوى الجرح بالمح فىقول :

" ورجعت يا باريس يحملنى جرح بدنياه تمزقت

ولدت معى أشباحه فمضى يمشى ورائى اينما كنت

تعوي بوجودانى وتضحك لى أشباحها ، أنى تلتقت . (٤)

فماذا ننتظر من حامل بالجراح ان يقول ؟ ومن مولود مع أشباح الألم أن يفعل ؟

تصوير بديع للموقف " يمشى ورائى اينما كنت . . أنى تلتقت " وأجمل منه لفظة "تعوي" التي لا نجد لفظة أكثر نفاذا منها الى القلوب وأدق تعبيراً وأشد إيحاء بالصورة المؤلمة .

١ - قصيدة " الميلاد " ، الآثار الشعرية ، ص ١٩ - ٢٠ .

٢ - من قصيدة " النكسة " ، الآثار الشعرية ، ص ٢٨٢ .

٣ - من قصيدة " رسالة من دوفيل " ، الآثار الشعرية ، ص ٤١٣ .

٤ - قصيدة " البعث والأيام والموت " ، الآثار الشعرية ، ص ١٢٤ - ١٢٥ .

لا بل أجاد الشاعر في تحقيق الطباق بين " الضحك والعداوة " وأضفى على الصورة ظلالاً معتمة حزينة لتلك الأشباح المخيفة . وصارت أركان الصورة ككل مجموعة مترابطة من الجراح والأشباح . ومن حيث التعبير ، مجموعة وافرة من الأحرف الساكنة تكون الليل البهيم الباعث على الشعور بالوحشة والاكتئاب .

وتفصح المأساة لتستغرق الشاعر فلا يرى الحياة الا من خلالها . لا يقعد بل يحاول التخطي ، فهل يستطيع ذلك وهو القائل :

جراحة الثكلى جراحاتي	مأساة هذا الجيل مأساتي
ضاقت ملاعبه بغاياتي	اني أحس الكون يصخب لي
جمحت على جنبه مرساتي	لما لجمت بصدرة وتبري
وأضمه عبر انطلاقاتي	أمضي الى قدرى أعانقه
هيات ، ينفصلان . هيات (١)	قد ران في درب العلى اعتقا

المطلع المهموز ينم عن غصة في الحلق ناجمة عن الشعور بالحزن . والقافية رغم شهادتها للألف المتطاوله ، تشهد تكسر الامتداد المفاجيء في التاء المكسورة مع الياء الشديدة الانكسار .

وهذه الأبيات بالذات تعبر عن مهانة الشاعر وانطباعها على شعره شكلاً ومضموناً ، حتى لفظة " هيات " تدل على بعد الفرح عنه بعداً شديداً ، فما باله وقد أراد التطرق في التعبير فأورد لها مرتين ، أمعانا في تأكيد استحالة مفارقة المأساة ؟ فقد ره ان يكون للجميع في مآسيهم ، ان ينزف قلبه كلما نزت جراحهم . ومن غيره أهل للعب هذا الدور القدري ؟

لم يكن شاعرنا ممن ينتهون ولو في أوج النهاية الشاحب ، وكان نارها عنده مطهر يعيد البداية صحيحة حقيقية رغم ما يطرأ على النهاية من تصدعات وانهايارات جسدية ونفسية بالغة وهو الغارق في أمواج اللعنة والضياع ، يصارعها بأطراف التشائم المرير تزيد من حدته الظروف السياسية والاجتماعية المحيطة فينسل يطهر نفسه من أمواج الحياة بأموج الوطن عله يجد شاطئاً يريح اليه رأسه وينفض فيه هواجسه فيلقى مصيره نقياً كما خلقه ربه ، مؤمناً كما لم يحبه عدوه . وأي شيء غير بحر يافا الأزرق يناجيه :

أنا أهواك باكيا مبكياً	" ايها الشاطيء المشوق اليّ
مات في أرضنا ليبقى نبياً	فكلانا في البال حلم نبى
وسننضي له سوياً سوياً (٢)	ومسير على جراح الأمانى

١ - قصيدة " سألمها في قبضتي وطننا " الآثار الشعرية ، ص ٥٣ - ٥٤ .

٢ - قصيدة " حرمان " الآثار الشعرية ، ص ٢٥٠ .

اننا نلمح بعدا جماليا جديدا من تألف الشكل مع المضمون، حيث طابق بين "باكيا مبكيا" وزاوج بين "سويا سويا" . . . في هذه العملية صورة للارتباط المصيري بين الشاعر والوطن منذ الأزل وحتى النهاية . وقد لعبت القافية المتماوجة ياؤها والمنطلقة فيها دورها النفسي في التأثير فينا ، وفي التعبير عن نفسية الشاعر المشوق عظيم شوق .

ولسنا ندري من أشد شوقا الى حبيبته ، الشاعر أم الشاطيء وان كنا نهتم بوجود لهيب الاشتياق في كل حال طالما ان المصير الذي ينتظرهما واحد هو الضياع والآلام . ومن كان يعرف مصيره مسبقا فلا عجب ان ، اذا بلغ به اليأس من الحياة حد القول :

" غدا يشهق الحق في المحكمة "

ويتلى القرار الأخير

وفي شفتيه يطل مصيري

كأنني أبالي بهذا المصير (١)

لقد اختصر موت الحق بكلمة واحدة " تشهق " التي تتم عن صورة قاتمة للحشجة التي تسبق الموت ، وفي اعتقاده ان الحق يحشر كذلك . فمن الطبيعي ان لا يبالي بهذا المصير وزاد لفظه " كأنني " التي توحى باللامبالاة المفرطة .

ان عالم الشاعر ليل دأبت فيه حشرات على رتابة التصويت ، وبدا هو " نبيا عاجزا " عن اصلاح ما في البشر مما أفسده الدهر . لا بل تخلل المعجز أنسجته فانحلت وتمالكت وغدا وحيدا كما بدأ وحيدا يحمل معولا " من غير الحديد " فلن تستقبله بعد الا مد ينته الأولى ، موطنه الأول وهو لا يدري بأنها ستستقبله او سيتعرف اليها بعدما طال غيابه . فاما أن تكون قد شوّهت جمالاتها ، واما شوّهت غربة المقاييس عينيه فاستوى لديه القبح مع الجمال .

ومن جديد كررت سبحة التساؤلات تهمس من داخله بقطيبيها : من هو ؟

وهل حقق هذه ال " هو " ؟

" وعدت اسمع الصدى في داخلي يصبح في جنون "

هل أنت ما تريد ؟

هل كنت ما تريد ؟

وكنت لا أدري بأنني لها أعود

الى مد ينتي أعود (٢)

العودة هنا عودتان : الأولى الى مسائلة النفس عما حقق في حياته من طموحات النفس ، ومطالبة صدى داخله له بأموركرهما الشاعر من قبل . والعودة الأخرى تعني الفشل واستمرار التعود والركود وكأنما أتم أمرا كان مقضيا او وهن امام صخرة الحياة فما استطاع قولها فيها ولو غزلا .

١ - قصيدة "القرار الأخير" الآثار الشعرية ، ص ٢٦٠ .

٢ - قصيدة "النبى العاجز" الآثار الشعرية ، ص ٤٠١ .

وحسب الموت في الوطن خيرا من الموت مشردا في الزمان والمكان فألقى سلاحه
والتف على ذاته يوضع اللعنة ويدندن اغنية النهاية فيما يتراقص من حلاوة الروح ، اللهب
فوق مسرحة لا يتمناها مُعَدَمٌ - ويأبئس ما يعلم :

"أعلم انني انتهيت

ولم يعد يصحبني

المارد الايمان

لم يعد يصحبني

واللعنة التي أدركتها تخيفني .. ترهبني ..

وانطفأ الصباح

لم يبق فيه زيت .. لم يبق فيه زيت " (١)

لقد بلغ قمة التشائم بتأكيد المطلق نهوب الزيت من مصباح ذاته مع ما يرافق هذا من
صورة البداية "انتهيت" وقد أرادها نهاية منذ البداية وكل ما بين تلاشي النور وانطفائه
"ولم يعد يصحبني .. يرهبني" هي عبارات ناطقة كالصراخ عن صور تثيرها الألفاظ
الفخمة كالمارد ، والرهيب كالعنة . بذلك يكون الشاعر قد وضعنا في أجواء مشحونة
باليأس والمرارة والاختناق البطي .

لا بد من الاعتراف بأن الشاعر ليس فردا ، بل يمثل مجموعة من الناس هم أهله

وشعبه ينطق باسمهم جميعا وترجم أحاسيسهم ويصور آلامهم وآمالهم وينير مظالم
طرقاتهم بلسانه وسنانه .

ولا بد من الاعتراف أيضا بأن الشاعر يتألم ويأس لآلام شعبه ويأسهم ، ولكنه ،

لا يكون مصلحا أو قائدا اجتماعيا أو سياسيا اذا كان يكتفي من التألم بجانب اليأس .

فالقضية ليست فردية ، كما قلنا . انها قضية شعب له حق بالحياة في وطنه . لذلك ،

ويعد كل ذلك ، كان أمامه خيار من اثنين : اما ان يتساقط فيذهب نضاله سدى ، واما

ان يتقوى بايمانه وقدره شعبه على النهوض من عثرات الزمان . ويبدو أنه اختار طريق

الخلود فيصرخ بفرح

"أريد أن أعيد مولدى

أريد أن أعيده في الأبد .. فأنجب

أريد أن انشق عن أمسى

وعن تعددى

وعن غدى " (٢)

١ - هذه الأسطر تكررت في قصيدته "رسالة من دوفيل" و"النهاية" الآثار الشعرية

ص ٤١٢ و ٤٢٥ والله يعلم القصد .

٢ - قصيدة "من لا مكان في الدنيا" الآثار الشعرية ، ص ٤١٥ .

وانتقل من علم بالنهاية القائمة الى ارادة علبة بالانطلاقة المتجددة باتجاه النور ، هي ارادته المارد • ولا عجب ان يتابع قوله :

” مثلي أنا ”

في التيه يضرب

أصارع الحياة

” تشدني في المستحيل رعدة الأمل ”

لعل الشاعر أراد رسم صورتين متناقضتين للسقوط ، فالنموض من باب ان ” الضد يظهر

حسنه الضد ” ومن باب عظمة سقوط العظيم مقابل عظمة نموض العظيم الذي زل به

الزمان • وفي الصورتين دقة تصوير تحملنا على مشاركة الفنان مشاعره وارادته الحرة فهتفت

معه ، حقا ما أضييق العيش لولا فسحة الأمل •

ب - الاغتراب النفسي والجسدي :

والجريح يهيم في كل وطن من غير ان يكون له وطن • الخربة غريتان : غربة

النفوس عن الذات ، وغربة الذات عن أهل الوطن • ولما كان الانسان والوطن صنوين

متلازمين ، فان الشاعر في ضياع الوطن أحس بضياع الانسان •• انسانيته هو • كلاهما

يفقد الآخر توازنه فيغدو

” سأمان ، لا أهل ولا وطن
حيران ، لا ظل ولا بيت ” (١)

حيران ، لا ظل ولا بيت ” (١)

عملية اقتلاع من الجذور وتعرية من الأوراق يرفضها الشاعر رفضه لاستبدال الوطن بآخر

والتخلي عن أهل وطنه في أشد ساعات الحكمة •

وغربة الشاعر من حيث المكان غريتان : غربة عن الوطن فيه ، وغربة عنه خارجه •

هذا الاحساس متأث من عوامل تتفاوت قسوة ورهبة أدناها فعالية تقصف الظهر ، فكيف

اذا كان المعني شاعرا يجاهد العمر لانقاذ الوطن فلا يجد غير وطن يضيح وشعب يضيح ،

فيسبر مع القافلة على طريق الضياع ؟

ان الذي يدعوه للاحساس بالغربة في الوطن فذل للمؤمن والكافر ، مهين للتائر

والمتفرج على السواء •• سبب ذلك :

” أطرق المجد في هياكل أجدادي

وناح القرآن والانجيل ”

فكان التاريخ بين يديه

يوم هان الرجال عبد ذليل

والجيوش التي رعتها بلادى

حيث مال الصراع راحت تميل ” (٢)

في هذا الوضع المشؤوم لا يبقى الا الشاعر يخني الجراح على أمل واحد هو أن المجد

قد ” أطرق ” اطراقا ، وهذا الفعل يمكن تقويمه بالعزم والايمان لانه لا يحمل صفة

الثبات والدوام خاصة اذا هان الرجال ويمكنهم النموض والتحرر ، واذا أمال الصراع

١- قصيدة ” البعث والأيام والموت ” ، الاثار الشعرية ، ص ١٢٦ •

٢- قصيدة ” وسبب البعث الأصيل ” ، الاثار الشعرية ، ص ١٤٠ - ١٤١ •

الجيوش عن هدفا النبيل ويمكن أن تعاد الى سوي السبيل • وانتظار تسوية الشذوذ
يطرق الشاعر الوطن الكبير فلا يلقى غير طبل كبير "أجوف الوقع يعربي الوعود" لا
مناصر من الانتساب اليه • وطالما هو على هذه الحال فكيف ينتسب؟ الحل في ان
ينسرب معزيا النفس بخير شاف لها ، يطرح تساؤلات الضياع والشك والتبرؤ ، والد هشة
تأخذه :

"أطلق في موطني أم سجنني
ضيعتني عشيرتي ، ليت شعري
أنا في غمرة الضياع جراح
لست أدري ؟ وليس تدري السجون...
من تراني بها ؟ ومن ذا أكون ؟
تتغنى دوما وروح حزين" (١)

وكيف لا يضيع من يعيش في أجواء التساؤلات التي لا تجد اجابات شافية : أطلق
أم سجين ؟ من تراني بها ؟ من ومن ومن ؟ وكأنه في وطن ليس من هذا الكون
مطلقا وفي شعب ليس من أمته الكبرى • فلو كان هو ضييع العشيرة لاهتدى بعد ضلال
لعربي أن الفتى اذا ضييعته عشيرته ضييعته الأرض كلها • ولم يعد السجن في عرفه كما
في عرفنا • اذن ، فلينطلق من السجن الصغير والسجن الكبير معا ولسان حاله يلتوي
ناعيا مرددا :

"شوّهت غربة المقاييس روعي
ليس يدري التاريخ من ذا يجازي
غرتي في الوجود يعرفها الله
طال في حماة الضياع بقائي
من تراني وما عساني أقول ؟
من بينه قايين أم هابيل...
ويدري الشكاة دمي البخيل
أذن البين واستحق الرحيل" (٢)

وفي خضم التساؤلات وتشوّه الروح ، يغترّب عن ذاته بقسوة تبلغ حد الالتباس بين
القاتل والمقتول ، بين الخاطيء والمؤمن ، علما بأن قصة قايين وهابيل ليست غريبة
عن عرفناه مسيحيا مؤمنا من قبل • فالتشويه اذن ، في الروح فما أبلغه ! ونحن لا
نعلم الا ان نشفق عليه وقد استوى لديه السجن والحرية فنعيش آلامه وتمزقاته ونغترّب
معه وقد شهد بعينيه أيدي الاحتلال تدنس جمال وطنه البكر الذي لأجله سفح من قلبه
ودمه ..

"وطني الذي لوّنته بدمي
وطنسي الذي مات الوجود به
قد ضاق بي حتى به ضقت
فهجرته لما به مت" (٣)

شعور بالضيق يجسد الشاعر بقوافيه ، لفظة "ضقت" تضيق شكلا مثلما ضيقها معنى
وصورة • ولفظة "مت" هي منتهى التضيق حيث تلعب التام المشددة دور الضاغظ
على الصدر لتحقيق الموت بالاختناق • ويجعل الشاعر موته سابقا لهجره كي يزيد من
سوداوية الواقع فيقنعنا بهجرته التي ليست بالطبع هجرة الارتفاق والترف ويتجدور

١ - قصيدة " أطلق أم سجين " ، الآثار الشعرية ، ص ٤٣ .
٢ - قصيدة " وسيبقى البعث الأصيل " ، الآثار الشعرية ، ص ١٣٩ .
٣ - قصيدة " البعث والأيام والموت " ، الآثار الشعرية ، ص ١٢٦ .

جديدة خارج تراب الوطن . انها هجرة المرغم بعدما صار يحسب ان جميع الناس يدظرون اليه باشفاق من سقوطه ، أو تتدّر من تراجع . وان سار في المدائن أو في الخرائب ، فشواهد مبصرة أو عشوا ، تفرغ فيه رصاصات أصابها بتهمة خيانة الوطن ! فليتها تعرف حقيقته وأنه هو الذي يتمنع ازاء وطن يتمزق وليس ممن يتحملون الاتهام . وقد يقال عنه وفيه الكثير مما يسحق الأكياد . . .

" وقد يقال بينما أسير في الخرائب التي ضلّت بها القطعان "

هل تعرفون من يكون ذلك الغريب . . انه فلان "

اسم على جريمة العلى

اسم بلا عنوان " (١)

" قد يقال " أراد بها الشاعر تكثير القول وتجاهل تحديد القائلين ليكون تصور عدد هم

الكثير غير ممكن ، امعانا في تكثيرهم ليشملوا الشعب كله .

ويعد أن كان علما مرفرفا أضحى منكرا وبلا عنوان لأن عنوان المناضل الحقيقي

وطن ، لا بضعة أو طان تطير في لياليها الخفافيش التائمة ، ويكثر الخراب ، فهل يعزّي

الغريب الغريب ؟ وما سبيل الشاعر الغريب للانتقام من غربته المفجعة وقد استهوى

لها باريس وطانا متصفا بالجمال ؟ فأيهما المزيف : الشاعر أم باريس ؟

نحن نتركه يدافع في شعره عن حقيقة الموقف :

ولم أضاجع في هواها امرأه

جرحي معي أخاف ان أنكأه " (٢)

" روضت باريس وأذ للثتها

وسرت في أحشائها طاويا

بكلمة واحدة يبرئ نفسه " روض " باريس " وأذ لها " مما يوحي بوحشيتها الشهيرة

تفترس كل الوافدين المشتين بأفكارهم في الأرض . لا بل استطاع اختراق باريس غير

هيباب رغم الضعف الذي ما زال يوهن جسده الجريح بالقرية . ولعل لفظة " أنكأ "

من أجمل ما ذكر في هذا المقام بهمزها كالوخز وبهاثها الساكنة منهية فعلا أراد

الشاعر انهاءه ، وموحية بوقفة أراد الشاعر الوقوف عندها لبدء مرحلة جديدة ومختلفة

من الروحانية .

ولا تذهب باعترافه بعيدا ، فكل جمالات باريس ومفاتها وملائكتها السابحة

في جداولها وغدرانها ، كلها لم تكن لتساوى حبة رمل متواضعة تدرجها الموجات

على شاطئ يافا الأزرق الجميل . حلم الشاعر هو هذا الشاطئ ، وماذا غيره يغسل

أحوال روحه وجسده وما علق بهما من غبار القرية والتشرد ؟ حمل الوطن الى غربته

فلم يفرق في مستنقعاته الحمراء . وعاد حاملا جرح وطنه الى وطنه حيث يعذب

الجرح في عذاب الوطن ويندمل بترابه ، تعزّيه وتخفف عنه هد هدة أم حنون ،

١ - قصيدة " المتحف الكبير " ، الآثار الشعرية ، ص ٣٩٤ - ٣٩٥ .

٢ - قصيدة " ما أروع الشاعر ما أبراه " ، الآثار الشعرية ، ص ١٢٧ .

وتربيت حبيبة مشتاقه ، وزقزقة طفل غريد • لذلك يعلن التوبة الى الحقيقة قائلاً :
" رجعت يا سجانى
أدفع للأوطان
اليك في ثوانٍ
ضريبة الحرمان " (١)

وكأننا بالشاعر في هذا الارتجاز المجرؤ وزناً والمتصل موسيقى ، يتوخى السرعة في قول ما وعمل ما فيخشى إن أطال البيت ان يتباطأ القول والفعل •
هل كما نتصور عودته ؟ وكرهى لمن سيتر ذلك ؟ رضى بالسجن مقابل التخصص من غربة الجسد • أما النفس فلا يمكن التغلب عليها الا بزرع النفس في الوطن والأهل زرعاً أصولياً أبدياً • • يتحرر الجميع أو يستشهدون ، حينئذ تعود النفس الى ربها آمنة مطمئنة •

ج - الايان والشك :

هما قطبان يتراوح بينهما الانسان على علاقة وثيقة بخالقه • • يفح اذ يقاربه ويجزع اذ يفارقه •

واذا كان للايمان شرط اساسي فهو ليس متى يقال : آمنت ، باللسان بل من عمل بالايمان • فلوطالعنا شاعرنا مؤمناً غالباً ومشككاً أحياناً ، فلا نه راسخ الايمان وما شكه الا أوقات انحسار مداه الايماني متى شخ يدركه ومتى خبا •
واذا كان كمال ناصر يعتقد كل دين سماوى ، فان كل جمال في عينيه هو من ذات الله • وظالما انه خلق البشر على صورته ومثاله ، فان شاعرنا يرى الله حالاً في كل حسن متجسد وحتى " في كل تمثال يطل الله والانسان " (٢) وقد أراد أن تتجلى فعال الخالق في شتى وجوه الكون لكي يشمل بعد له الشعب الفلسطيني الذي يعيش له الشاعر •

في الواقع ، لم يكن شاعرنا ليسأل الله ثواباً في آخرة - لا نعرف كيف كان ينظر اليها حيث أنه لم يتعرض في حياته لمثل هذا - وانما كان يسأله ثواباً فورياً يلف به جراح شعبه المتفجرة دمماً ودمعاً ، ويسأله مستراحاً دنيوياً مع من التقى بهم في الدنيا قبل أن يسأل عن ملتقى علوى •

هل نستطيع القول بأن كمال ناصر في ايمانه يعمل لدنياه فقط ؟ ثم أليس من موجبات العمل للدنيا السامية أن يعمل للفانية أيضاً ؟ وهل نبع ايمانه بالله من ايمانه بالشعب أم انهما مرتبطان لا يفترقان ؟ الغاية عنده أن يكون الايمان بكليهما منفذاً للفرد والجماعة ، وفي قضايها الشعب المصيرية لا يجوز ان يقف المرء على الحياد ولا سيما

١ - قصيدة "السجن الثاني" ، والآثار الشعرية ، ص ١١٢ •
٢ - قصيدة "المتحف الكبير" ، والآثار الشعرية ، ص ٣٩٣ •

الله الذي خلّف في وطن الشاعر فلذة من كبده ورسولا من عنده فصار وطن الشاعر نفسه وطنا لله . هو لا شيء من غير ربه ، فاذا ما تخلّى عنه تخلّت السعادة وانحسر الوطن . واذا ما نفحه بياسه تخطى الفضاء وحطم جدران القلق .

كما رأينا - من قبل - كيف كان كمال ناصر انسانا متدينا يذوب في الله ، مرّ في حياته بفواصل شائكة سوّرت وطنه المضيّع فطمست معالم الانسان البار . وهكذا وجد نفسه "عبدا" ضعيفا لا حول له ولا قوة الا بالله الذي تستدرّ رحمته صلاة صادقة . يقول، متوسلا :

"أنا عبد ألج في أصفادي سمة الضعف وصمة في العباد
فاعطني قوة تفكّقيادي" (١)

ولم يتوجه الشاعر طلبا للقوة الا لرّبه لعلمه انه مصدر كل قوة . وقصة الصداقة - ان جاز التعبير - بين الشاعر والله تعود جذورها الى الطفولة البريئة التي عاشها في مذوده العائلي كما في لقاءاته الدينية به في كنيسة القرية في ذلك الزمان :

"آمنتُ فيك صغيراً بالنور منذ الخليقة
وكننت في الناس رهزاً لدى السنا والحقيقه" (٢)

في هذا الظل عاش طويلا حتى بدأ يتفتح على واقع الشعب والوطن - كما رأيناه يفعل في حديثنا عن الدين - مفترضا أن كل من بجانب الله هو الحبيب والعكس صحيح . فالمبرر جائز اذن ، ولكي ينزع المؤمن الى العتاب ونراه بعد عميق ايمانه يعاتب ربه عتاباً لطيفاً يفعل كل عاشق مراهق فيقول :

"فَرَحَتْ تَرْجَمَ صَدْرِي بعريجات الفتون
حتى غدوت مريضاً أسير نحو الجنون" (٣)

لا بل يتطرق في العتاب الى قضايا مصيرية أهم حين يعترف بأنه ليس الا كافرا بيدي الايمان ويدا ري كره . أما سبب الكفر فهو ذاته الذي حمله على محاورة المسيح حول قتلته . قد لا يقصد الشاعر كلمة "الكفر" بمعناها الدقيق حين يقول : "اداري كفري بطهر ووجد" لأن الكافر لا يؤم هيكل الصلاة وليس الهيكل الا للصلاة . ولكننا نسأل : لماذا يريد كمال من ربه ان يعطيه كل ما يطلبه ؟

وما دور الانسان الذي أعطاه ربه العقل ليفكر والقلب ليشعر وبهذين ينتصر على أعدائه ؟ هو شك وليس كفرا . هو وقوع العبد الضعيف في التجربة وما كان أجهله بها

١ - قصيدة "صلاة" ، الآثار الشعرية ، ص ٣٦ .
٢ - قصيدة "مناجاة" ، الآثار الشعرية ص ١٠٤ .
٣ - قصيدة "مناجاة" ، الآثار الشعرية ، ص ١٠٤ .

غير معتبر من أيوب الصابر • امتحنه الله لمحق إبليس • فما بال شاعرنا لا يفقه حبائل إبليس؟ لا بل يعتبر تهاون بني البشر في حقهم وقعودهم عن انتزاعه من شدقي الذئب ، يعتبر ذلك اغماضة جفن سماوية • فما أدناه من الخطأ ينادي :

" يا عيون السماء أغمضت لماً
شرق الكون في أسى طوفانه " (١)

فهل يغمض الله جفن حقاً ؟ أم عميت بصيرة الانسان لدرجة أن يخاطب ربه بهذا الأسلوب ؟

" ان كنت الهمي
أما تراني حطاما
فهب لروحي السكون
أسير نحو الجنون ؟ " (٢)

وهل الله مسؤول عن شك الجازع المدمى القلب بخنجر الانسان القاتل خلاف ما هو فاعل ، المتخفي وراء قشور الدين ؟

هنا يعيش الشاعر ثورة الشك القاتل والايان المتزعزع مندفعاً في عكس

الاتجاه الصحيح ، مؤكداً الانغماس في الشك فإنه

" لن أصلي ليسكر الهدى في عرقى وتغنى حقيقتي في دعائي
انما للصراع يلهب أعماقي ويذكي الدفين من بغضائي " (٣)

لقد جعل للصلاة مفهوماً مناقضاً للحقيقة المتعارف عليها ، جعلها للصراع يغدب الحقد • وهي لعمرى طقس يعم جميع الأديان السماوية بلا استثناء لما تحمل من سمو الارتقاء الى الخالق ومحاولة الاتصال بأنواره •

ونحن لونتبعنا خط الشك والايان عند الشاعر ، لوجدنا انساناً يكافح من أجل شعب تخلى عنه بنو البشر فهو يعاني الأمرين ولا من ينصفه فلا يلبث أن يتوجه الشاعر الى ربه :

" رباه هلاً ترى
مهازلاً للورى

تحاك فوق الشرى

.....

.....

انت الذى أبدعت هذى الدنى
انت الذى رميتنا ههنا
أسعدتنا حيناً ، وأشقتنا " (٤)

أكان الشاعر يريد الحياة بسمة دائمة ؟ أكان يطلب الخلود بلا ثمن ؟ لعله لم يرق في ادراكه الى تلك الفلسفة التي ادركها المتنبى حول العبرة، الحياة تودع القديم وتمش

- ١ - قصيدة " الزعامات والشعب والطحين " ، الآثار الشعرية ، ص ٦٣ •
- ٢ - قصيدة " مناجاة " ، الآثار الشعرية ، ص ١٠٤ •
- ٣ - قصيدة " صلاة الحقد " ، الآثار الشعرية ، ص ١٦٤ •
- ٤ - قصيدة " رباه " ، الآثار الشعرية ، ص ٣٥٧ •

للجديد في عملية تبادل حتمي للوجود :

أتينا الى الدنيا فلو عاش أهلها
تملكها الآتي تملك سالب .
منعنا بها من جيئة وذ هوب
وفارقهما الغادي فراق سليب . (١)

فما هو مصير المثل العليا في عالم يخلد حياً شيطانه الى جانب ملائكة فلا عقب ولا ثواب ؟

ولكمال ، أين لذة السعادة بعد ألم الشقاء ؟ ولعله فقد حاسة التمييز الصحيح فنراه

يطالب الله بمساواة الناس ببعضهم بعضاً وكأنه سبحانه وتعالى لم يخلقهم متساوين . يقول :

" إِنْ كُنْتَ تَرْضَى أَنْ يَبِيدَ الْبَشَرُ
فابدل قلوب الناس خيراً بشراً . . .

انت الذي أبدعت هذا الوجود
مكبلاً مصقداً بالقيود

لو كنت ترضى للوجود الخلود
ما قام عيسى في سما اليهود . (٢)

فهل الشاعر محق في اقتراحه ومصيب في اشتراطه ؟ أم أنه في لحظات صفاء النفس

ومحاسبتها يحاول أن يبين للعالم تناقضه ، وأن ما كان ظاهره تجديفا إنما هو ايمان شك

لا هفي الى الرحمة وبخاصة في قوله :

" أَلَسْتَ تَوَانَا بَعِينَ السَّمَاءِ
ترمقنا في لذة واشتها

فنحن من جنبك ضلع البقاء
ولم نزل في الأرض طين وماء

ولم يزل يجني علينا الشقاء
ما كلنا يا ربنا . . . أنبياء . (٣)

إنها صرخة خاطيء " ما كلنا يا رب أنبياء " يصدرها عن قلب يغوص في الظلمة كارها لما

وصل اليه . لذلك يجد ربنا ابراز ظاهرة الصعود والهبوط في ايمانه لنتبين تبريره لأسباب

يأسه وشكّه بأن الله قد خلقه جريئاً في عالم الجبناء ، دامعا رغم كبريائه ، عبقريا يشقى بظنه ،

ووحيدا محروما في روضة الجمال . فاما أن الصدمة عقدت قلبه فالتوى ايمانه ، واما لسن

الشباب حق عليه حين يعتقد الشباب بأنهم الأعظمون ، وأن كل حسن بهم يبدأ . فيكون

تفكير الشاعر اليافع طائشا حيث يريد أصعب الأمور كأيسرها . واذ يخاطب ربه فبصيغة الأمر

اللامسؤول لانسان متمرّد حيث يقول لربه :

" هذا عطاؤك فاهزأ
بعيدك المستكين

عساك لم تتس يوماً
أني ثمار يدك

وما يحلّ بروحي
يعود خزياً عليك

ألسنتُ نفحة حيب
هبطت من جانحيك

فاشرب معي من شقائي
غدا أعود اليك

عفو الجلال ، أتسى
دماك فوق الجبين

فكيف تغدو حطاماً
تسير نحو الجنون . (٤)

١ - ديوان المتنبي : ج ١ ، ص ١٧٥ .

٢ - قصيدة " رياه " ، الآثار الشعرية ، ص ٣٥٧ - ٣٥٨ .

٣ - القصيدة نفسها ، ص ٣٥٨ .

٤ - قصيدة " مناجاة " ، الآثار الشعرية ، ص ١٠٥ - ١٠٦ .

ويبدو لنا في ما يبدو ومن هذه الأبيات ، أنّ الشاعر حيناً يمعن في شكّه وحيناً في ندمه ؛ فهو حيناً يعيد الخزي إلى غيره ويأمره بشرب الشقاء ، وحيناً آخر يصف نفسه بالعبد المستكين . ولعلّه أراد التمهيد لتوبة تلي الشك المتطرف الذي أرغمته عليه أوضاع شعب أوضاع جزأ من وطنه وافترش الشوك في الجزء الآخر .

وليس كمال ناصر بالمؤمن الكلي الثبات ، ومع هذا فإيمانه عظيم وبحسبه ارتداده إلى الله في ساعات ضعف وصفاء ييسرها له الله تعزية . وليس كمال بالمشكك الهادم للأعراف والمعتقدات والطقوس ، لكنّه لا يقبل بأمر على علّاته ، يتساءل . . . يشك . . . يناقض ، وقد يؤمن وقد يتممّل في الحكم . كما قد يخطيء في إصدار الحكم الأخير فيعتبر التراجع عن ذلك إيماناً راسخاً ، وما من منير لطريق التقويم أمامه غير بصيرته التي تملّت من سنا الحقيقة الإلهية منذ الصغر ، وغير عيينين " خضراوين رماذيتين " يطلّ عبرهما ليكسو كل تمثال يطلّ منه الله . . . فنتساءل عن سرّ رؤيته الله في كل تمثال بديع ، ويتغاضى عن رؤيته في مخلوقاته الأجلّ إبداعاً .

ويستيقظ في غفلة عن الشك على تغيير جذريّ سريع في مواقفه من قضايا الله والدّين والخطأ والصواب ، ومن وقوع في نزع الصبا وعنقوان الشباب ، وإن كان لا يزال يعتقد ضمناً بأنّ قضية الوطن تحزّ في قلبه . فهو مستعدّ للتراجع عن كل اعتقاد قد يشعر بانحرافه ، ما عدا قضية وطنه الانسانية فهي أكبر من الانسان العامّ ككلّ . . . وهي هند الله قضية الله ذاته . وإذا ما اضطرّ إلى الفصل بين القضيتين ، فإنّنا نراه عائداً إلى الينا يبيع ينهل منها الصفاء والنقاء وقد انسلّ من ثوب شكّه دامع العين دامي الفؤاد حيث ان الله عنده قد تبدّل ، وراح بين الايمان والشكّ فالإيمان . . . أمّا الوطن فما زال عقدته الكبرى المؤجّلة على صعيد الله . لذلك ، فإنّنا يستغفر وإليه يؤوب تائباً :

"أصلي اليك"

وكت نسيت الصلاة °

وشككت فيك كثيراً

وناقشت فيك الإله

ولكنني خائف يا الهي

أعود جباناً اليك °

فلا تتركني وحيداً

أمارس خوفاً وحيداً

لأنني برغم ادعائي

أحب الحياة °

وكت أظنّ الفضاء مكاني

وكت أظنّ النجوم °

لذاتي
وكت أظن الغيوم (١)

هذا هو شاعرنا المصدوم ، عاشق الله والوطن ، يتناسى الله في آلام وطنه فتضغط عليه آلام الشك فيخشى فقد رحمة ربّه ونعمة الوطن الفقيد معا . لذا ، يؤثر الحضور الإلهي مع الجرح المقروح في القلب خبيثا نابضا أبدا .
تحامل بالله ولم يستطع أن يكون بدويا رحالة على أطراف الوطن الأم عندما حظر عليه الدخول الى نعيمه . يفعل أفعاله كل من يعيش مثل حالته النفسية التي تؤثر في كل تصرفاته وأفكاره ، وقد جلّ من لا يخطيء أو يخطأ .

د - تقويم أدوات الرحلة

بعد ارتحالنا مع الشاعر في رحاب الأرض والسماء ، حرّينا بنا أن نتأمل تلك الأدوات التي استقلها في رحلته .

يسيطر عليه فيها جو قائم يمكننا تبين تلبده من خلال الألفاظ التي عبر بها عن نفسه وعن عالمه ما بين " الضياع والوني ، وشبح متشرد يموت من جهد ، ويهيم وينساب تطارده لعنة الأبد فيحمل جثمانه بنفسه في المستنقع التّيه . عندئذ تفجعه عظمة مأساته وتنزف جراحه الثكلي فيدركه الجنون ويقرفي نفسه : انتهيت ، انطلقا المصباح ، لم يبق فيه زيت ، لم يبق فيه زيت . " هذا العالم اللفظي هو عالم الشاعر في " البداية والنهاية " يضيف اليه ألفاظا أخرى ، فهو " سأمان حيران ، ينوح ويندب ، ذورج حزينة ، يستجدي دمه البخيل حين يأزف البين والرحيل فيدفع ضريبة الحرمان . ويعي ذاته عبدا يلجّ في أصفاده ، تمتصه البغضاء ويرهقه الجنون . "

كل لفظة من ألفاظه عالم جزئي قائم بذاته ، يتصل مكملا بالعالم الآخر فالآخر . والشاعر بين هذا وذاك ، يسأل الله ويسأل نفسه ، ولا منا هو من أن يعرف الانسان نفسه أولا فيعرف الله خالقه .

وباب السؤال والاستفهام مفتوح أمامه يكثر من استعماله " من أنا ؟ من رمانى هنا؟ ماذا جنيت؟ أطلق أم سجين؟ من تراني بها؟ ما عساني أقول؟ " ويكاد ينجر في التّيه فيعمد الى أسلوب جديد من الجمع بين النداء والاستغاثة " رباه ماذا جنيت؟ " وقد يضيف اليهما التحضيض ترجيحا للاستغاثة " رباه .. هلا ترى؟ " أو يكتفي بالتحضيض على الإنقاذ " أما تراني خطاما؟ " ومن بعد أن أكد إنكاره " لن أصلي .. " نراه واقعا في التناقض المعنوي محاولا تبين أحد طرفي المطابقة " طليق أم سجين؟ " وقوله " أسعدتنا وأشقيتنا " حتى تبد وحيرته في محاولة تبين الزمان الصحيح لتحوّله " هل أنت ما تريد؟ هل كنت ما تريد؟ " فبين الحاضر والماضي انسان ينساب مشردا في الزمان والمكان

١- قصيدة " صلاة لم تتم " ، الاثار الشعرية ، ص ١٠٣ . والشاعر يعني العنوان بالذات ، فالقبية متروكة للقاري ، أي قاري التفت في مشيبه الى ما كان يقوله في عنفوان شبابه ؛ فماذا تحقق منه؟

لا يعي بأي أسلوب يخاطب ربه ، فحينما بالطلب العادي " فهب لروحي السكون ، وأعطني
توة " ، وحينما بالشرط المتحدي عن غيبوبة فكرية " إن كنت أنت إلهي .. " أو بالطلب
المشروط في آن واحد كقوله: " إن كنت ترضى أن يبئد البشر ، فابدل قلوب الناس خيرا
بشر . "

وتكاد تغص الشواهد التي بين أيدينا بهذه الأساليب التي لجأ إليها الشاعر
عن وعي منه أم غير وعي ، مصورا عالمه المضطرب داخليا ، فحينما يسأل ربه معترفا " ألسنت
ترعانا ؟ ألسنت نفحة حب هببت من جانحك ؟ " يخاطبه كالمعاتب حينما آخر " لو كنت
ترضى ... فكيف تغدو حطاما ؟ " فلا يلبث أن ينادي بملء قلبه تائبا " ما كلنا يا رب
أنبياء ! "

بين مصاد الحياة ومهابطها ، وشكها وإيمانها ، واغترابه الأبدى ، عاش الشاعر
حياة شعبه مضطربا لا يعرف مستقرا . ولو أجرنا البصيرة في هذه الشواهد ، لوقعنا على
الشاعر عازفا على وتر الأوزان التامة حينما ، وعلى الجزوة أحيانا ، مما يدلنا الى حقيقة
القلق الذي كان يعيشه موزع النفس بين نقيضين وعليه أن يختار بينهما عمليا ، فهو غير
مستقر على حال . قد يكون امتشق الحرية في الوزن في محاولة للتحرر من الهواجس التي
نقضت عيشه . لهذا ، فإن لجوءه الى الشكليات معا للقصيدة : الاتباعي والابداعي ، يفسر
وقوعه تحت وطأة السأم والضياح والاعتراب طيلة حياته ، ماضيا وحاضرا ؛ فالعامل النفسي
يفرض نفسه على الشكل التعبيري ، فيما يستدل بدقة على النفس من التعبيري . ألا
نلاحظ إيثار العربي القديم للرجز وهو ممتط ناقته في سفر ؟ أو ليس القلق والاضطراب
مما يدفع الى تقطع الأنفاس الحقيقية كما الشعرية معاً ؟ !

عشنا اذن ، مع عالم مضطرب في داخله ومن خارجه ، شكلا ومضمونا لأنه كان
عالم انسان شاعر حمل جثمانه على كتفه في سبيل ألا يحمل شعبه جثمانه على كتفه ، بل
علم حرّيته وكرامته .

الفصل الثالث : الشاعر والشعر - من النظرية الى التطبيق

مقدمة منهجية : وأين أصبحت تجربة كمال ناصر الأدبية ؟ صحيح أن الشاعر لم يضع تعريفات أو حدودا شاملة حول مفهومه للشعر والشاعر ، الا أنه فعل شيئا من هذا يجعل بداية بحثنا " كيف فهم كمال ناصر الشعر " - (١) وننتقل بآرائه هو لكي نرى كلاسيفيكته وحرية ، ورمزيته ورومانتيكيته (٢) متدخليين نحن في عرض شعره شكلا ومضمونا وفق تلك الآراء . ولكننا لن نقف عند ما وقف عنده ، فندرس القصة في شعره ، والمناسبات ، ثم نبين كيف تولد لديه معجمه اللغوي الخاص . ونقوم بعدئذ بدراسة تفويمية لشعره قصائد وأبياتا كظواهر فنية ومعنوية ابداعية نقدم فيها " ما عليه " لقلته ، على " هاله " لأهميته ومن باب الاختتام بالمسك .

في الحقيقة ، سوف نعرض بشكل خاص وموسع البناء الشعري عند كمال ناصر من حيث الألفاظ ، والموسيقى ، وهيكلية القصيدة ، والمعاني ، والعاطفة ، والصور والأخيلة ، والأساليب من حيث الاستفهام ، والتأكيد ، والنداء ، والتعجب والدعاء . بكل هذه الأسلحة الشكلية والمعنوية خاض الشاعر النائر والانسلان معركة الحياة والكرامة بشهادة كل من عرفه عن كتب أو سماعا وقد غدا ككل من أقرب الناس اليه .

أ - كيف فهم كمال ناصر الشعر؟

آمن كمال ناصر منذ البداية بأن الشعر من وحي الشيطان العبقري الذي يدفع الشاعر الى التصريح به . وها هو يعبر عن ايمانه ان احتضنه الروض وحببيته " فوثبت لرأسي فكرة ، سمها ما شئت ان تسميها ، شيطانية ، شعرية ، وهما لفظتان مترادفتان " (٣) وطالما صرح في شعره المبكر بذلك :

" يا أمير الشعراء مجدأ وتحية
شعرك الدرّي آى سرمدية
ألبسته الجنّ تاج العبقريّة " (٤)

ولكنه ينطلق من الخيال الى الواقع كي يحدد بواعث العبقريّة الحقيقية في الحزن والألم والحب .

- ١ - هذه التسمية مستمدة من تسمية كمال نفسه لمخطوطة له غير منشورة " كيف أفهم الشعر " في محفوظات مركز الابحاث الفلسطينية - بيروت ، وقد حصلت على صورة لها .
- ٢ - كمال ناصر يرفض المدرسة في الشعر عبر مخطوطته المشار اليها ونحن ان نتناوله في الرمزية والرومانسية فليس لوضعه في حدود مدرسة معينة وانما لتبيين المظاهر الرمزية والرومانتيكية في شعره من حيث كان ذهابه اليها عفويا أم غير عفوى .
- ٣ - كمال ناصر ، " كيف أفهم الشعر " مخطوطة لدى من مركز الابحاث الفلسطينية - بيروت .
- ٤ - قصيدة " انشودة لشوقي " الآثار الشعرية ، ص ٢٨ .

ففي الموضع الأول قال :
" لا يعرّي المساة الأحزين
عبقريّ مأساته الانتظار " (١)

وفي الألم :

" أهدهد جرح العلى المرع

وألثمه في شجن "

يعانقني في الوطن

فجرحيّ من جرحه المبدع " (٢)

وقال في الحب المفجّر للعبقرية المبدعة :

" أما غنيت يا شاعر
المههم الشاعر " (٣)
ولولاها ، أكت العبقريّ
في مهد الصبا الباكر

وأطلق كمال على كل ذلك لقب " الشعر العالى الرفيع " (٤) فما هي نظرتة الى

هذا الشعر ؟ مواصفاته ، خصائصه الفنية ، الشعورية والتعبيرية .

حاول ان يضع تعريفا للشعر فأعياه الى أن خرج بقوله :

" ان الشعر شيء لا يعرف . . لا يقبل التعريف الوافي . . ان الشعر حاسة خاصة بالشعراء
فقط يتفردون بها دون غيرهم من الناس . . حاسة سادسة فطرية في الشاعر " (٥) وقد

علّل تخريجه بأن الزهرة عابقة بالرائحة الذكية العاطرة التي لا يمكن لأحد ان يدرك كمها ،

وكذلك لا يمكن تحليل الشعر طبياً . الا انها آراء له خبرها من تجربته الأدبية الطويلة .

لم يعتبر كمال الشعر فنا كالرسم والنحت محتجا بأن الشاعر الحق " يعبر

عن اللامرئيات ويرسم لك صورة انت لم ترها ولم تسمع بها ولم تتخيّلها ما لم تكن شاعرا تحسّ

بما يحس وتشعر بما يشعر " (٦) وذلك من مهلم الحاسة السادسة الموهوبة .

لهذا ، تعرض لمسألة " متى ينظم الشاعر ؟ " التي فلسفها كثيرون فأغربوا :

هذا ينظم في الحلم ، وذاك وهو يقوم برياضة ما ، وذلك في الثمل او النور الأحمر القاتم . . .

أما هو فقد استهجن غرائبهم التي يستطيعون تسخيرها للنظم تسخيرا مستمرا بينما الحقيقة

ان الشاعر الصادق " يتأثر ، وهذا التأثير يضعه في الحالة التي نسميها الحالة الشعرية . .

حالة عدو ، رغم أنها قد تنجم عن اشياء مهيّجة . . ان الشاعر ينظم في اي مكان وفي اي وقت

اذا توفرت له هذه الحالة " (٧) وترانا نحترم شرطه الأخير " اذا توفرت " خلاف اذا وفرها هو لنفسه .

١ - قصيدة " خالد مات " الآثار الشعرية ، ص ١٥٢ .

٢ - قصيدة " ثلاث سنين " م . ن . ص ٢٦٣ .

٣ - قصيدة " أنساها " م . ن . ص ١٠٠ .

٤ - " كيف أفهم الشعر " المخطوطة .

٥ - المصدر نفسه .

٦ - م . ن .

٧ - م . ن .

هذا يعني ان الشاعرية طبع من لون الخالق ، لذلك سوف نرى شاعرنا وقد جافاه الطبع أكثر من مرة عندما التجأ الى ذهنه يكده ويستجديه قصيدة بل أبياتا في مناسبة معينة .

اعتبر كمال الشعر عملا ابداعيا ركيزته " العبارة الانشائية التي تبدو جدوة من نار متأججة اذا اضطرت الألفاظ فيها على هذا النحو من حسن الاختيار ودقة المكان (١) . . . يظل هذا مجرد اعتبار نظري لا بد من النظر اليه على ارض الواقع من حيث دراستنا لعباراته واطراد الفاظها ، فإما تأجج عاطفة وإما توهج التعبير الانشائي هو اما اتحاد ذلك معا ما يتفق ودعوته الى شعر يفيض " بالسمو والابتكار مع سهولة وحلاوة وموسيقى " .
وقد رُكز على الموسيقى التي اذا فقدتها الشعر " فقد ثلاثة أرباع روحته " فاقترب في ذلك من النثر وما أسهله .

وتعرض لأسلوب السهل - الممتنع في الشعر باعتباره نافذة أولية عليه مقدماً حسن المطلع في القصيدة . ثم أوضح بحزم رأيه قائلاً : " . . . وأمقت كل المقت أولئك الذين يدعون الى الاسلوب الصعب غير المفهوم . . . ان اجمل الشعر هو أسهله " (٢) وهو لا يعني بالسهولة الغثاثة والركاكة ولا السوضح الباهت مقابل الغموض الموحش . فهناك نوعان من الغموض في الشعر : أولهما ناتج عن العمق . . . عن صعوبة الموضوع . وثانيهما ناتج عن التقليد " الموضة " وهو ما نراه في شعرنا الحديث غالباً هذه الأيام . (٣)
وشعر كمال لم يعرف الغموض الا لماماً في قصيدتين له هما :

" البهلوان الأعظم " (٤) التي قد يذهب القارئ في ترجمتها اكثر من مذهب .
وقصيدته " خول " غير المنشورة (٥)

أن السمو والابتكار . وقف على المعاني الجديدة في الشعر مع ما تفيض من عاطفة صادقة . فاهتم كمال بالمعاني أكبر الاهتمام ينقب عن حسانها يقتنصها قبل اقتناص حسان القدود المياسة من ليلى الى زينب الى سلمى ورباب ان قال :

" يا شعر فيك أرقّت ماء شبابي لا في الغرام بزنب ورباب
حسن المعاني لا الغواني شقني وأحال في العشرين لون خصابي " (٦)

والمعاني بذاتها هي التي تحقق للشعر مجدا وخلودا - وقد أدرك كمال حقيقة " ان الشعر لا يعرف الزمان ، فهو يلى وما دته حية خالدة واحدة في جميع العصور " . (٧)
ان معانيه هي التي تخلده على الزمان بغض النظر عن الاسلوب المتميز في النظم والذي

- ١ - المصدر السابق . أورد (اضطرر) هكذا ، والصحيح (اطرر) فهي افتعل " من " طرد " .
- ٢ - ن .
- ٣ - من حديث خاص للشاعر محمود درويش بتاريخ ٤ / ٧ / ١٩٧٨ .
- ٤ - الآثار الشعرية ص ٣٨٦ .
- ٥ - يمكن مطالعة القصيدة كاملة في ملحق الرسالة ص
- ٦ - كيف أفهم للشعر " المخطوطة .
- ٧ - المصدر السابق .

يمتاز به شاعر عن شاعر . ولا تكون المعاني الا حيث التجارب العميقة تثريها وتخصبها على الدوام . وسوف نرى تجديد كمال في المعاني وتعميقها خلال دراستنا للصورة في شعره فيما بعد .

ولا نبتعد كثيرا عن اشارته الى ضرورة فيض الشعر بالسمو والابتكار اللذين

يكفلان له التجديد والصدق في الشعور . تمثل صدقه المطلق في قضايا الوطن بما أودى به الى نهايته . وفي فرديته كان يحطم القلب غير مرة ، ويخلط روعة الحب بلذة الألم ، وغناء الجراح في أناشيد الغزل . وكان صدق شعوره في التعبير يتخطى كل عرف منظور وهو يعترف قائلا :

" ناجيت نفسي وقلت الشعر أصدقه في الشاعر الفدّ بل في شاعر الأم " (١)

ونكاد نجزم مطمئنين بأن كمال ناصر لم يعرف غير الصدق في حياته لكونه اكوى بنار

معاناة محرقة تتجدد في جرح الوطن العميق .

ووجد كمال نفسه يردد مقولة شائعة مفادها " نحن العرب أشعر الناس في

بيت ولكننا من أهزل الأم شعرا في وحدة القصيدة . . . فاذا نظرت الى القصيدة العربية ، راعك هذا التفكك في أجزائها رغم متانتها . . اي انه ينقصها الحيك " (٢) فهو بهذا

يأخذ على القصيدة العربية معالجتها لموضوعات مختلفة ومتعددة جمع بينها الوزن والقافية

في قصيدة واحدة على ما يستتبع ذلك من تنوع وتفاوت في المشاعر ، وما يطرأ عليها من صدق في التعبير . ولكن ، ما بال شاعرنا يقع في المحذور في بعض قصائده التي ألقاها

خاصة في بعض المناسبات ، كما نرى لاحقا ؟

نحن لا نقيس على القليل ، فلو أخذنا مثلا على الوحدة الموضوعية والشعورية

في القصيدة الواحدة لتوقفنا أمام الآيات الكثيرة وخصوصا قصيدته " أنساها " (٣) فهي

شاهد رائع على رأينا رغم طول القصيدة وهي في الغزل الحزين ، التذكارى ، الرثائي

المنسكب في الحبيبية ، الاحياي في قوله :

" من الماهي لنا قبرٌ
سأحيي ذاك القبرا "

ومعظم شعره يسير على هذا النسق وهامسة بعد بلوغه مرحلة التكامل البنيوي شعوريا وفنيا

جنبنا الى جنب .

كانت لكامل في الشعر آراء وتطلعات حاول ان يبلورها عبر تجربته الأدبية

الغنية . ولم يبتعد كثيرا عن شعراء عصره يتأثر بهم وان كان يتفرد عنهم في أسلوبه

ومعانيه . من مظاهر ذلك التأثير ، حواراه في مخطوطته " كيف أفهم الشعر " مع فتاته وقد

جلسا تحت ظل شجرة أرز ، جاريا مجرى ايليا ابي ماضي في قصيدته " الشاعر " (٤) وقد

حاور حبيبته كذلك مرددا :

- ١ - الآثار الشعرية ، ص ١٤٣ .
- ٢ - رددتها وأوضحها في مخطوطته " كيف أفهم الشعر " .
- ٣ - الآثار الشعرية ، ص ٩٩ .
- ٤ - ديوان ابي ماضي ، ص ٤٣٤ .

لست مني ان حسبت
خالفت دريك دريبي
الشعر الفاظا ووزنا
وانقضى ما كان منّا (١)

ولم يقل شيئا عما احتبس في صدره من روح ومعنى وعاطفة صادقة ، الا أن هذا لم يمنع شاعرنا من اعتباره " أبا الشعر ورسول الجمال " في قصيدته " يا رسول الجمال " .

يا أبا الشعر قم تطلّح فهذي
صور للوجود صُغت رؤاهـا
ومعان نسجتها فاستفاقت
وبيان كأنما الفيض فـيه
وجد يد في القول برعم شعرا
زمر الخلد قد أطلت فضولا ...
في سما الوحي أنزلت تنزيلا
في ذرى الفكر تستغز العقولا
أزلي المسير يروي الحقولا
قد سيات كرمت فيه الهدى (٢)

وحين دعي لتكريم الاخطل الصغير ، بشارة الخورى ، راح كمال يكمل ما بدأه مع سلف بشارة متأثرا بمدحبه في الشعر فقال :

طيف من الأزل المسحور ناجانا
مجتجح الروح والأشواق يحملنا
ينساب عبر حنايانا فيشعلها
كأنما لم تكن منا حنايانا (٣)

وهذا الطيف الحامل الشعر مكتمل عناصر التكوين من وزن وموسيقى وسمو وخيال وعاطفة متأججة ، كل هذا من المثل العليا التي يطمح اليها ويعمل لابرازها كمال ناصر في شعره . وما بين ابي ماضي وبشارة ، يظل تأثره بأحمد شوقي أولا وفريداً بيتدئ مع شعر الصبا الأول ويستمر حتى مرحلة متأخرة من حياته الأدبية . وهو وإن سعى الأول " أبا الشعر " ، فقد سعى شوقي " رب القريض " يبيت ويحيي . ولعل تطرف كمال في هذه التسمية عائد الى تفتح على مبايعة شوقي أمارة الشعر فأضحى طبيعياً ان يتأثر به شاعر ناشئ يبحث عن مثل أعلى يستضيء بشعاعه ، فأحمد شوقي الذي اعتبر الشعر تقطيع اوزان ما لم يكن ذكرى وعاطفة او حكمة (٤) ودفع شاعرنا الى مخاطبته :

رب القريض امير الشعر والقلم
مات البيان ونزل الفن واضطربت
وأجهش السحر في هم وفي شجن
قم أبعث النور فينا نحن قد ذبلت
فأعمل الذل فينا منجلاً هـرمياً
يا بانى المجد للأعراب مفخرة

قم للقصيد وأنقذه من السقم
زمر القوافي من الإعياء والألم
مات الأبى ربيب الشعر والكم
منا قلوب وأضحى الشعر كالعدم
وأعرض الفن في كثره وفي سقم
هذا ضريحك للحجاج كالحرم (٥)

- ١ - ديوان ابي ماضي ، ص ٥٠ من مقدمة بقلم زهير ميرزا .
- ٢ - الآثار الشعرية ، ص ١٤٢ - ١٤٣ .
- ٣ - م ن ص ١٤٦ .
- ٤ - ديوان ابي ماضي ، المقدمة ص ٥١ . ولسنا هنا في معرض ذكر الذين تأثر بهم كمال ناصر بقدر ما نحن بصدد تحديد ملامح هوية الشعر العالي الرفيع الذي تمثله وطمح الى تحقيقه .
- ٥ - قصيدة " الى امير الشعراء " غير منشورة . لدى من مركز الأبحاث الفلسطينية - بيروت .

وأوضح ان في الخطاب نعيّاً للشعر الرخيص المبتذل الخالي من بريق السحر وتوقّد البيان
ورنين القوافي • ومن هذا المنطلق قال كمال :

" ناجيت نفسي وقلت الشعر أصدقه •• "

وزاد مفصلاً :

" والشعر للنفس مرآة ومفخرة
في مهجة الضاد لحدّ انت ساكته
فهو الخيال الذي أرقصه بالحلم
قد خطّه الدهر ، فارقدها نثاً ونم (١)

وهكذا كان شعر كمال مرآة مجلّوة لنفسه عكس عليها خياله وواقعه بصدق
متناه في التعبير عن قضيته الانسانية الكبرى • ذلك حقق له مرقدًا هائلاً ولشعره خلوداً
ولقضيته استمرارية وقودها الحرف وحده السيف على السوا •

ب - الشعر بين الكلاسيكية والحريّة:

بدأت أولى ملامح الشعر الحر بالظهور

في النصف الأول من هذا القرن مع الشاعر أحمد زكي أبو شادي زعيم "جماعة ابولو" •
وبشكل أوضح مع "جماعة المهجر" يتزعمهم جبران خليل جبران مع فوزى المعلوف ونسيب
عريضة وايليا ابي ماضي • حتى كانت اواخر الأربعينات حين بدأ سلطان الشعر الحر
بمحاولات ناجحة لتشييد عرش جديد له على يد نازك الملائكة وبدر شاكر السياب ولويس
عوض وعلي أحمد باكثير •• واختلفت الآراء بأيّ هؤلاء كان البدء •

لعمركم ، أيهم المصيب ؟ لنعبر الاحصاء اذن في باب النجاح في "تحرير"
الشعر ان صح التعبير • ولناخذ السياب حاسماً " ومهما يكن ، فان كوني انا ونازك وباكثير
اول من كتب الشعر أو آخره ليس بالأمر المهم ، وانما الأمر المهم هو ان يكتب الشاعر
فيجيد في ما كتبه •" (٢)

وكان لشاعرنا جريّ في هذا التيار الشعري الحديث مذ عرف ارماساته

الأولى بغض النظر عن مدى فهمه للتيار واستيعابه له • وعلى اوراق مجموعة له كتب
" من شعر الطفولة " ولما يتجاوز آنداك الثالثة عشر بعد هوفيهما وقعنا على قصيدة
سأها " وطني " وقد كتب عليها " في الشعر المنثور " •• مطلعها :

" وطني ايها التراث المقدس ! ايها الارث الخالد ، ايها الكوكب الساطع في افق
حياتي ، انت رمز آمالي ••• وسار شوطاً فيها ثم ختمها بأبيات كلاسيكية منها :

١ - المصدر السابق •

٢ - ديوان بدر شاكر السياب • من مقدمته هي (يبي) بقلم ناجي علوش •

" وطني حياتي ا مهجتي تهواه
 آمنت بالوطن الشقي وبؤسه
 اني لأشبح بعربيا مخلصا
 اني لأضرع ان اموت فداه
 فالعيش حلّوني جحيم شقاه
 وأذوب قديسا لدى ذكره" (١)

كان يعي الشعر الحديث والمنثور وان لم يكن قادرا ، لصغر سنه ، على استيعاب اصوله بعد ، فكانت عودته السريعة وفي القصيدة نفسها الى الاتباع . مجرد محاولة مبكرة باءت بالفشل وان كان حظه أوفر في " بواكير - من شعر الصبا الأول " حيث حرر البحر البسيط في قصيدته " الميلاد " (٢) ومطلعها :

" ولدت احمل جثماني على كتفي / ولدت رأسي في

لا شأن لي بجيئي أو ببعيادي / أنا ضحية تاريخي وأصفاي ."

وتخلص من الالتزام بقافية واحدة في قصيدته " صلاة " (٣) ومطلعها :

" رب صنها وامسح جراح فؤادي
 أنا عبد ألحّ في أصفاي
 بحنان يسمو على أحقادى
 سمة الضعف وحة في العباد

فأعطني قوة تفك قيادي

رب صنّها لأنني اهواها
 وعروقي مشحونة بدماها
 لفظة يعرف الأسي معناها
 خضبت خافقي الطمّوح فتاها

فكبا خاطري وضلّ رشادي

ولجأ كذلك الى التشطير في " انشودة لشوقي " (٤) بحيث يقف كل ثلاثة أسطر ويحلّ

عقال الرابع مع اختلاف قافية الثلاثة الثانية عن قافية الثلاثة الأولى ، وكذلك رابعها .

الا ان شاعرنا ظل وفيا لا بل متمسكا بالشعر التقليدي القديم في المرحلة

التكوينية الأولى ولمدى بعيد في المرحلة الثانية عندما أصدر ديوانه الاول " جراح تغني "

في مطلع الستينات .

آنذاك ، كانت الآراء والنظريات تتوارد حول تقنين الشعر الحر - الحديث

وتنظيمه في محاولات للرفع من مستواه وتأهيله للاستمرار في النمو . وقد حملت نازك

الملائكة تلك المسؤولية الطوعية فراحت تفلسف دعواه وجدواه في إقبالها وأقرانها عليه بقولها :

" والشعر الحر ، بأشطره المتفاوتة الطول ، النائرة على الوحدة الثابتة والنموذج المقنن ،

وبمساعده على الاسترسال وطول العبارة يساعدنا اليوم في الانطلاق من قيود الشكلية

الصارمة . . . اننا نجح الى عدم التقيد ، والى التمرد على النماذج الصارمة المتحكمة .

وهذا هو السرفي إقبالنا على الشعر الحر . " (٥) وهي هنا تساوى بين الملل من طراز المدن

١ - قصيدة " وطني " غير منشورة . لدي من مركز الأبحاث الفلسطينية - بيروت .

٢ - الآثار الشعرية - ص ١٩ .

٣ - ص ٣٦ .

٤ - ص ٢٨ .

٥ - عادت نازك فشكت من استرسال الشعراء وإطالة العبارة الى حد عدم التخلص من الاستمرار في القصيدة حيث يجبرون على اختتامها بمثل البداية ليتسنى لهم التوقف عن التدفق .

٥ - ديوان " للصلاة والثورة " ص ١٩ .

القديمة بالملل من طراز الشعر القديم رغم اعترافها فيما بعد بالحاجة الى القديم ورغم قيامها بوضع قوانين جديدة تعتقد وتتمنى الالتزام بها . ونحن نرى شاعرنا مهيباً لأن يطمعه الشعر الحر بالاسترسال في قصيدته " أذا كر بلدتنا القديمة " .^(١) وحيث يكون مملاً أحياناً في قصيدته تأبيناً للمالكي " رسالة الشهيد " .^(٢) فان لم يكن اطماعاً كان تعبيراً صادقاً عن الشعور بالحزن والاكبار للشهيد بن رفيقي النضال الطويل عبد الله نعواس وعدنان المالكي .

وهكذا نرى شاعرنا اكثر أخذاً بالصيغة الجديدة للشعر الحر في ديوانه " جراح تغني " حيث يتبين ذلك بوضوح اذا ما أحصينا القصائد التقليدية فيه باحدى وعشرين ذات الوزن والقافية الموحدتين ، وجدنا سبع عشرة قصيدة من الشعر الحر غير الملتزم أحياناً بوزن واحد مع الانتباه الى ان قصيدة واحدة هي " عرفت يا الله " .^(٣) يغلط فيها ما بين الحرية والكلاسيكية معا .^(٤)

هذا يعني انه اصبح أكثر توجهها الى التحرر سواء أكان ذلك بدافع رغبة داخلية ام عامل خارجي فرضته مناسبة أو هيأت له ظروف محيطه . من ذلك ، كان ، ناجحاً في بعض هاتيك القصائد الحرة وأقل توفيقاً في بعض منها . ولا بد من ان يكون للطبع في الأمر تدخل فعال يمكننا تبينه اذا نحن نظرنا الى قصائد النهاية^(٥) لما تتمتع به من مستوى فني ومعنوي رفيع .

وكان يكتب قصائد حرة على بحر ما فلا يلبث ان يخرج الى آخر في بعض أسطره وأبياته خروجاً عفويلاً لا يفقده موسيقيته ولا سيلانه . ففي قصيدته " الصنم " .^(٦) جرى على البحر المتقارب حراً باستثناء بعض السطر الأول في مطلعها :

" انا الذي تجهلين ! ولا تعرفين ولا تفهمين / غريب عليك /
سأبقى بعيداً / شريداً وحيداً / فمثلك لا يستطيع سمْواً /
لأنك لا ترتقين الياً "

وكذلك في قصيدته " النهاية " .^(٧) التي تجري رجزاً حراً باستثناء السطر

الرابع من مطلعها التالي :

- ١ - يحسن الرجوع اليها في الآثار الشعرية ، ص ٣٢٥ وما بعدها .
- ٢ - المصدر نفسه ، ص ٣٠٧ . وهناك في أوراق الشاعر بمركز الأبحاث (نقلتها) جزء طويل غير منشور من القصيدة .
- ٣ - المصدر نفسه ، ص ٢٢٥ .
- ٤ - وكذلك في قصيدته " وحشية العينين " في الآثار الشعرية ، ص ٣٥٥ حيث يوسط أسطرها الحرة بقطعة من خمسة أبيات تقليدية الشكل .
- ٥ - للقارئ الحق في ان يعتبر هذه اللفظة بمعناها المتعارف عليه ، وأيضا بمثل ما استعملت في آثار الشاعر الشعرية عنواناً للباب الأخير المشتمل على بضعة قصائد حرة من آخر حياته .
- ٦ - الآثار الشعرية ، ص ٣٦٦ .
- ٧ - الآثار الشعرية ، ص ٤٢٤ .

"أعلم انني انتهيت / لم يبق من أحبه / ومن يحبني /
اللذة التي مارستها / في موكب العطاء والفداء /
لم تعد تلهبني . . ."

وهناك قصائد أخرى غير منشورة . ومع ذلك لا يحدث ذلك انكسارا في
النغمة الموسيقية لما فيها من صدق مشاعر وروعة تعبير . لم لا والشاعر حرفي ابتكار ما
يعتبره جديدا وجميلا حتى ولو كان بلا وزن . ساعتئذ ، يستعير عنه بقافية ملزمة او غير
ملزمة كليا . . . وهذا نراه عند شاعرنا في قصيدته " البهلوان الأعظم " (١) الحرة بغير
وزن ولكنها في اعتماد النبرات الساكنة والمتواترة بسرعة متناغية وعصبية . في ذلك تكمن
روعيتها الموسيقية ودقة تعبيرها الحركي والنفسي معا . فلنقرأ بصوت عال مطلعها :

"دحرجها . رقصها بيديك / وأدخلها حلقات ، واخرجها /
حلقات سكرى من فخذيك / حرك عطفك ولا تحفل /
حرك عطفك / باريس تحبك فنانا / قد يسا أو شيطانا /
لا تبصر فيك الانسانا / فامنحها الآن النسيانا . . ."

وهكذا تستمر القصيدة عامة مع استمرار تراقص البهلوان وتلاحق طاباته المسحورة
بغير نظام - لا فرق - أو بنظام . المهم ان الشاعر مناسب في قصيدته حتى ولو كانت
عمودية كلاسيكية وانتقل فيها من بحر الى بحر مختلف كما حدث مرة في قصيدته " الى العمال " (٣)
ومطلعها :

يا بلبل الروض الشقي الحزين غنّ الدنى وخلّ عنك الأنين
غنّ الدنى لحنا شجي الهوى فلهوى حق عليك مكين
وبعد أن يستمر فيها على " السريع " أربعة وعشرين بيتا ، يتحوّل الى " المتقارب " في ستة عشر بيتا . . . أولها وآخرها :

" ولا حاكم يرحم المخلصين لتحكمنا عصبة الظالمين
ويهتف في وطني باكيا متى يا أخي يرجع اللاجئون
لنا أن نعتبرها استغراقا شعوريا في الفكرة ، ولنا أن نعتبرها قصيدتين في موضوع واحد
وقد جرى النظم في فترتين منقطعتين .

نلاحظ في مختلف عصور الشعر شعراء جدد وافي المعاني ولم يجددوا في
الأوزان والقوافي فاعتبروا مجددّين أمثال ابي نواس وخلييل مطران . . . وكما ناصر في قصائده
" الى الحاخام (م) " و " صرخة الميلاد " و " صلاة لم تتم " و " لحظة ظمأ الى دنيا الأطفال " و
" الحنين الى الاكربول " (٣) وكثيرات غيرها ، كان مجددّا في الموضوع رغم التمسك بالأوزان

١ - الآثار الشعرية ، ص ٣٨٢ .

٢ - غير منشورة .

٣ - القصائد الخمس لكامل في آثاره الشعرية على التوالي ص ٧١ - ٥٤ - ١٠٣ - ١١٦ - ١٢١ .

القديمة ، كما أن التجديد في الأوزان أو التحرر منها بجانب المعاني المجترة يعتبر مراوحة في الهواء . وكمن شاعر يطالعنا بدعوى التجديد ولا يجيد المسائل البنائية اللغوية جاعلا من نفسه شاعر معني لا مبني وكأن هذا الفصل التبريري يعني من سمة الضعف . وهذا الشاعر محمود درويش " لا يوافق على ان التعبير الشعري مسألة انفعال وحساسية وتوتر لا مسألة نحو وقواعد . . فلا بد من معرفة القواعد الشعرية " (١) وعسى أن تكون القافية من القواعد الشعرية ان يرى أحدهم الوزن والقافية ضرورتين ولا بد للشعر الجديد من الارتباط بهما رغم كل شيء لأنهما عصب الشكل الشعري . والقافية ضرورية لإحداث التماسك حتى لو كانت داخلية مع ما يصحبها غالبا من زين في تطرفها ، او يصحبها بعض الملل . وحسبنا أن نشير الى الأمر الأخير في واحدة من بعض قصائد كمال الجديدة ان يقول :

" عندما أكتب تاريخ بلادي / بدموعي ومدادي /

سوف ابقى صفحة للخزي تنزوب بالسواء / صفحة

أرهبها الليل بأسمال الحداد / صفحة تفضح اسرار الفساد " (٢)

وتستمر دالية الى آخر المقطع في احد عشر سطرا ، بينما تستمر الفقرة الثانية خمسة أسطر (٥٠) وخمسة دالية ، وهكذا . . .

الا أن التعلق بالقافية النونية حتى الملل في جميع سطور القصيدة الحرة " المتحف الكبير " (٣) أكثر وضوحا ودلالة عبر ثلاثة وتسعين سطرا نونيا متابعا ومطلعها :

" أنامل الفنان / والقبلة التي خلدها على المدى رودان /

تظلمات قبليتي / وترعيان نشوتي في معبد الحنان / النشوة

التي ضمنت فيها العمر والأوان . . .

وعلى الرغم من اي قصد ، قد يكون خفيا ، للشاعر من وراء ذلك فان في التكرار باعثا على الرتابة ولا شك ، كما قد يكون في القافية المتكررة تأثير نغموي ساحر يتذوقه خاصة الشعراء الذين يهجزون القافية عمدا او عفويا ثم يجدون أنفسهم يبحثون عن ايقاع بارز لا يتحقق الا بقافية يتلقفونها بفرح وتهيئة منصب ملائم حتى ولو كان منسوبا داخل السطر الشعري ، وليس أدل على تعلق شاعرنا بالقافية خاصة ، ولوفي الحر ، وعامة في الشعر الخليلي ، ليس أدل من قصيدة فدوى طوقان (٤) التي أرسلتها اليه فأجابها بقصيدته

- ١ - من حديث خاصي معه في ٤ / ٧ / ٧٨ ان لي بنشره . أدونيس يرى العكس تماما في كلمته بكتاب " الأدب العربي المعاصر " ص ١٧٩ .
- ٢ - عز الدين اسماعيل في كتاب " الشعر العربي المعاصر " ص ٦٥ في عارض في كلمته لويس عوض في كتابه " دراسات في أدبنا الحديث " ص ٢٠١ القائل باعتماد الشعر الجديد على بلاغة المعنى لا اللفظ ولا الموسيقى التقليدية بل الحان الحياة اليومية وهي أعقد وأرقى من موسيقى الطرب القديم .
- ٣ - قصيدة " زعامات بلادي " - الآثار الشعرية ، ص ٢٧٩ .
- ٤ - الآثار الشعرية ، ص ٣٩١ - ٣٩٦ .
- ٥ - " المغرد السجين " في الآثار الشعرية لكامل ، ص ٣٤٦ . وهي على البحر السريع في خمسة وثلاثين سطرا ، ومختلفة القوافي .

" من الأعماق " (١) نموذجاً صارماً للشعر العمودي القديم . وشاعرنا هذا الذي حظّ
زمناً في باريس منبع الشعر الحديث ، وجد نفسه هناك متأثراً بتيارها الجديد وجارياً مجرى
شعرائها في اواسط الستينات في قصائده امثال " انتظار " ، " البهلوان الأعظم " ،
" المتحف الكبير " ، " رسالة من دوفيل " ، " المظلة الضائعة " (٢) قصائد حرة التزم
في أكثرها الوزن والقافية حسب مذهب المجددين فيهما ، وكانت هذه الآونة من حياته
الأكثر توجّهاً الى الحرّ ، ولا نقول الأشد ميلاً منه اليه - فذلك حديث آخر - وخاصة انه
فعل ذلك في منتصف حياته الأدبية ايام مولد قطائده الحرة : " صرخة الخيام " ،
" صلاة لم تتم " ، " الدمعة الحاقدة " ، " الى امي " ، " اليوم الباكي " . (٣) وهذه
نفسها عاصرتها قصائد كلاسيكية من أرفع ما أبدع في حياته . ويغني عن الاكثار قصيدته
اللتان أنشد هما في الذكرى السابعة عشرة والثامنة عشرة لميلاد حزب البعث العربي
الاشتراكي .

لقد أدلى بدلوه في البئر فاغترف ولكن بمقدارين متراوحين ، وطموحا كان
ذلك او قل تأثراً بالرياح الناشطة من الغرب ، والمتشطة بالمتأثرين بها في الشرق ،
حتى بدا أن القديم أفناه الجديد بغض النظر عن مقومات حياة كل منهما ووجوه الابداع
في كليهما . هذا دفع أحدهم للفت انتباه المجددين الى ان " كل ابداع في نظري لا
يبد له ان يكون مبنياً على الاحاطة التامة بتجربة شعرائنا الأقدمين وتجربة غيرهم من شعراء
الأمم ، لأنه اذا لم يستند الشاعر الى هذه التجارب ، ظن نفسه مبتكراً وخالفاً وهونسي
الحقيقة لا يكرر الا اقوال غيره تكرر أعمى " . (٤)

وكمال ناصر ، ينظر الى الشعر العربي القديم نظرة تعجيد ، وباعتباره تراثاً
حضارياً جديراً بأن يكون نموذجاً حياً للشعراء ، فالزمان لا يؤثر في مادة الشعر مهما
تقدم . وهو يشير الى رأي الباحثين في أن الشعر الجاهلي لم يولد هكذا في طور
الرجولة ، فلا بد من طفولة أولى هي بلورت شخصيته المثالية التي تناهت اليها (٥)

ولقد ساء الاعتقاد بأن الحركة الشعرية الحديثة تقوم على التحرر من الأوزان
التقليدية والقوالب المتوارثة . ولكن الحقيقة ان الحديث بحد ذاته هو ما حدثت مادته
وأسلوبه ونمط تفكيره انسجاماً مع الذوق الانساني الرفيع . . . اما تحطيم العروض استهانة ،
وتكسير قواعد اللغة ونبذ التراث القديم احتقاراً ، فأمر يرفضها كمال رفضاً قاطعاً ويدعو
الى البناء التكاملي للقصيدة من حيث المضمون والشكل الشعري والاسلوب " السهل -

- ١ - الآثار الشعرية ، ص ٣٤٩ . وهي بائنة على البحر المتقارب في اثنين واربعين بيتاً .
- ٢ - الآثار الشعرية ، صفحاتها على التوالي : ٣٧٧-٣٨٢-٣٩١-٤١٠-٤٢٠ .
- ٣ - ٧٥-١٠٣-٢٣٦-٢٨٦-٢٨٩ .
- ٤ - جميل صليبا في كلمته في كتاب " الأدب العربي المعاصر " ص ٢٠١ .
- ٥ - كمال ناصر ، " كيف أفهم الشعر " مخطوطة لدى من مركزاً لأبحاث الفلسطينية - بيروت .

المتع " تحقيقاً للوحدة العربية من خلال اتحاد الأدب واللغة معا بما يحقق وحدة تآلفاً أدبيا ولغويا وحضاريا في المجتمع العربي عامة .

تظل المسألة اذن، مسألة خلق وابداع لا مسألة قديم واجب التقليد ولا جديد من دون تنظيم لاعتبارنا غياب النظام فوضى وسيرا في كل اتجاه . المسألة أن نرى ما اذا كان شاعرنا مبدعا للصور والمعاني ، ممثلا للقيم الانسانية ورافعا لها ، مبتكرا لما يلائم روح العصر ، صادقا في التعبير عن رؤيته الذاتية مقرونة بالانفعال الصادق ، مجيدا في اتقان صناعته الشعرية مستفيدا من حيوية اللغة وقدرتها على العطاء الدائم المتجدد .

في اطار الصدق كان كمال ناصر صدوقا مع نفسه ومع المجتمع حين وجد نفسه حاملا قلمه وسيفه ، فأجاد في حمل السيف اكرما في حمل القلم - رغم إجادته - . وكان مشدودا الى ماضي الشعب المجيد والى ماضي الأمة العربية الذهبي الى حد أن أصبح ارتباطه بالشعر التقليدي القديم جزءا من ارتباطه بالتراث العربي القديم ، والارتباط احيا ، مستمر . . وكما رأينا في هذا البحث من تشكيل القصيدة الوحيدة ربطا للجديد بالقديم ، فان ذلك لم يتم لولا وقوع الشاعر تحت تأثير حب الواقعيين . حتى قصيدته " في المستنقع الكبير " (١) قد حررت نصفها الأول ترتيبا فقط على " الرجز " بينما أخرج النصف الثاني على البحر الكامل كلاسيكيا على طريقة الأقدمين . هل يمكن اعتبار هذا الاخراج اخضاعا تعسفا للقلب الشعري رغم مجيئه على بحرین مختلفين الا ان تفعيلتيهما متشابهتان وما أيسر ما تتداخلان [مستغلن - متغلن] . كلا ، وان كان هذا الاخضاع باديا في مواضع أخرى .

وانا نظرنا الى أعماله الشعرية الكاملة وخاصة الى " اغنيات النهاية " (٢) وجدناها منظومة في اواسط الستينات فلا تتجاوز حدود الخمس الأخيرة منها ، كما وجدناها كلها قصائد حرة الوزن والقافية . . خمس عشرة قصيدة - باستثناء " البهلوان الأعظم " الحرة من كل قيد ، وباستثناء قصيدته " رياه " المنسوجة كالأناشيد على البحر السريع تاما ومجزؤا ، وقصيدته " انطلاق " المنسوجة ثلاثيات في بضعة مقاطع تلتزم قافية واحدة ولكنها تنفصل بسطر واحد من تفعيلتي " المتقارب " بحر القصيدة كلها التي جاءت على مشطور المتقارب حتى النهاية . وهذه المجموعة الخاصة من آثاره الشعرية تمثل شاعرنا في مرحلة متقدمة جداً من مراحل تكوّنه ونضجه الشعري الحديث وان تكن سابقة لمرحلة أخرى تقع في السبعينات وقد وقف شعره على الثورة الفلسطينية خاصة وفي مناسبات عديدة كان لوقفاته الخطابية فيها تأثير على صيغ قصائده تلك ، - كما سنراها في شعر المناسبات - حتى ان الخطابية المعروضة عليها في مناسبات وطنية متعددة من بداية النضال حتى أواخره ، جعلته يتكلم بلهجة حماسية ونبرة عالية في مهرجانات الشعر في بيرزيت ونابلس وسواهما . كذلك في ذكرى البعث وتكريم الشعراء وتعظيم أبطال الثورة الفلسطينية . وقصائده في الذكريات الحميمة شواهد حية على صدق ما نذهب اليه .

ومن ذلك أيضا ان شاعرنا وجد نفسه في مكان خاص وفي زمان خاص ليس له أفضل منهما ، اما الزمان فهو الثورة من منشأها الشعبي الى انطلاقتها الصاخبة وزخمها المعاتي . وأما المكان فهو المنبر العالي محوطا بجماهير حاشدة جاءت لتستمع الى شاعر خطيب مفوه ، سواء أكانت الجماهير جماهير ثورة أم أعدادا غفيرة من ممثلي الشعب فقد صق لوقاته الشعب في مناسبات للثورة متعددة بمثل ما صق له مثلوه في خطبته الشعرية بمجلس النواب الأردني عام ١٩٥٧ . وفي جميع حالاته كان يتخيل نفسه على منبر الحياة دائم المثول دائم النطق . . وليس غير الشعر الكلاسيكي ، برأيه ، قادرا على ايصاله الى جمهوره لما يتمتع به من عنف الحركة وتدقق المشاعر الصاخبة لتلتقي في عنف وتدقق مماثل مع الجماهير المتفاعلة والمنفعلة .

هذا الوجود المريح في هذا الطراز من الشعر ، كان أسلوبا من أساليب تحقيق الذات في مرحلة طويلة من حياته . وحين كانت تطرح قضايا التجديد والتقليد في الشعر ، أراد ان يواكب العصر حين قال : " انني لا أعني بالبقاء على الأهل ، ان لا نجدد في الألفاظ والأوزان لأن هذا شيء ما لسوف وطبيعي في الشعر . فالأوزان اختلفت وزيد عليها في معظم العصور والموشحات الاندلسية والعباسية تشهد بذلك . . وانما أقول ان هناك كثيرا من الشعراء من حاول أن يبتدع أوزانا جديدة أو أوقانا ، ان لم تكن أوزانا ، قيد بها الشعر وحد من طلاقته وروعته وموسيقاه " . (١)

بهذا نرى ان كمال ناصر ظل ابنا مخلصا للمرحلة الأولى من حياة الشعر فلم يبتدع وزنا ولم يقر بذلك لسواه معتبرا ان ابتداء اوزان جديدة تدخل اللعبة في موضوع الالتفاف والرجوع الى القيود الأولى لأن في الجديد قيودا وما اختلفت الا التسميات . ربما كان فهمه للتجديد في القالب الشعري هو ما نلاحظه في ديوانه " جراح تغني " أوائل الستينات ، والذي رأى فيه الناقد ان " أكبر أثر للاثبات تجاه الشعري الحديث في شعره انه خفف لديه من صلابة القصيدة الكلاسيكية في الشكل ، وحطم قاعدة الشطرين المتساويين في البيت الواحد ، وحين تعرضت قصيدته لهذا التأثير اضطرب المبنى الشعري بين يديه . . وربما كان هذا هو السبب في ان الديوان لم يلفت اليه الأنظار يومئذ . ان لم يكن الشكل الشعري المجدد فيه جديدا بالمعنى الصحيح " . (٢)

وكما رأينا من قبل ، فقد كان ممكنا ان تتبلور نظرتنا الى الشعر الحديث وتستمر محاولاته على غرار ما لاحظناه في مجموعة " أغنيات النهاية " التي فتحت أمامه الطريق واسعا للتجديد بكل ما يحمله من مفاهيم . ولكن الزمن لم يمهلنا ان من جهة العمر وان من جهة استنزاف قضايا الثورة لجهوده ونشاطاته في الاطار السياسي على حساب الاطار الأدبي وقد حرمته لذة المطالعات الأدبية وأمسكت عنه قلمه الا في مناسبات نادرة ولصالحها الخاص وهو صالح الشاعر والشعب معا .

ان هذا الاخلاص لتراث الأمة العربية العظيم وللمرحلة النضالية الراحنة كان

قادرا على ابقائه شاهدا على الحب والوفاء للانسان أينما كان ، وللانسانية في كل زمان .
ولعل نظرة أخيرة على مجموعة قصائده التي سماها "أنشودة الحقد" (١) ترسخ مذهبنا
واعتقادنا بأنه ولد مخلصا وعاش مخلصا وقضى شهيدا الحرف والسيف وفاء لشعبه ووطنه وأُمَّته .
تقع الانشودة في اربعة عشر نشيدا يطول بعضها كثيرا وبعضها يقصر قياسا ، وقد
جاء ثلاثة عشر منها كلاسيكي الشكل وعلى البحر "الخفيف" باستثناء واحدة (٢) على البحر
"الرجز" التقليدي كذلك . وهو وإن جعل لبعض قصائده هنا مقدمات ومفاصل ، فإنها لم
تكن لتتعدى حذف تفعيله أو أكثر من البيت . والتزامه ببحر واحد عائد الى رغبته بتسمية
المجموعة "ملحمة" كونها تحكي بطولات عربية وآلاما وآمالا .

ويصح القول أن كمال ناصر ليس ضد أي تجديد في الشعر ، لا شكلا ولا معنى ،
ولكن بما لا يفقد الهوية العربية الاصلية ، وبما لا يقيد ، ولا يحد من طلاقته ؛ فليس الخلق
والابداع رهنا بزمان أو بإنسان .

ج - على هامش الرمزية

الواقعية كتاب مفتوح ، والرمزية قراءة عنوانه على دقته الاولى . ومتى أغنى العنوان
عن المضمون أو أدخل القارئ بين سطوره ، كانت الرمزية واقعية عذبة .
وعندما يكون كل شيء في الوطن جميلا ، فإنه يذگر بالوطن اينما تواجد الانسان .
ووطن كمال ناصر ، الشهير عالميا بالبرتقال ، تراءى له من خلال برتقالة يتقاسمونها ، تماما
كما تبايع ذئاب العالم وطنه ، فكانت مأساة برتقالة في قصة برتقالة :

هانت على الفصن فلم تحتمل	جراحها ، فأبحرت للبعيد . . .
تسمو وللجوع بها صرخة	تضمها على الخضم الجديد
فاستسلمت وللهمى أرخصت	أحلامها الثكلي بسوق العبيد
كأتما الجوع له غلّمة	تصبح بالعشاق ؛ يا من يريد
قديسة في ديرها أرغمت	على الخنا بين حراب الوعيد ! !
ترمقني بأهدابها مثلما	يصحو على جفني حلم وليد . . .
دنوت منها راعشا لاهنا	يشدني سحر لعوب ، مرید . . .
أغويتني بنظرة لوهوت	على جراح الثلج ، ذاب الجليد . . .
يانجمتي قولي ، اذا شئتني	فإنني لبيك ، خمروعيد
فلملت أنفاسها وانبرت	تصب في أذني أشقى نشيد . . .
حملتها بين يدي جائع	يعوي لدى جنبه جوع شديد
وذقتها ، فارتعدت جبهتي	كأن في ضجري طعم الوريد

١- الاثار الشعرية ، ص ١٥٩ - ٢١٨ .
٢- الى جميلة ، الاثار الشعرية ، ص ١٩٩ ، وقد نظمها في زمن مختلف عن زمن الملحمة .

جرح على الأمانى وحيد
وملعبى الدامى، وعرضى الفقيد (١)

فضضتها فانشق عن صدرها
عرفته، فذاك جرح الصبا

وهذا الوطن هو آنا زورق قذفته الرياح الى مجاهل المحيطات، وأوانا هو "قديسة
في دبرها أرغمت على الخنا بين حراب الوعيد" فراحت تغرى الشاعر. ويقسم بالله وبالوطن
أن الجمال - والجمال وحده - هو مصدر الاغراء حين وجد نفسه يحملها بين ذراعيه
وعسوي لدى جنبيه جوع شديد "، وقد سمى الصوت عوا" ، تضخيما للمأساة، حتى اذا
تذوقها "ارتعدت جبهته" وأحس بوريدها ينفجر في وجهه. وكشف عن سرها فإذا به جرح
بليغ، والشاعر ابن الجرح البليغ: إما أن يجسّم الجراح، وأما أن يوءسنها. وهنا يتعرّف
الى وطنه "ملعبه الدامى وعرضه الفقيد". وهنا أيضا يعدّ به الظن في الخيال؛ فإذا ما
وقف أمام شاطيء تذكر شاطيء يافا، واذا ما شاهد برتقالة حسبها يافا في "بيارة برتقال"
وليست برتقالاً في يافا. ما أجمل أن تعظم البرتقالة لتصبح وطناً أو رمزاً لوطن، وما أروع
الوطن الذى ينصهر في برتقالة خاصة أنّها يافا. على عدد برتقال يافا، جراح شاعرنا.
الرمز في القصيدة تلك رمز للوطن. وكذ لك التفاحة او الوطن "كالتفاحة المحرّمة" (٢)

يقدم كمال قصيدته بقوله: "كان لا بدّ أن تُقطّف التفاحة من الفردوس لتولد الحياة ويولد
الجمال، وما أشبه هذه التفاحة ببلدى فلسطين التي كان لا بدّ أن تهوى ليكون البعث
العربي بأشمل معانيه". وتفاحة الفردوس لولم تكن الأشهى، لما اختارها الله رمزاً.
وفلسطين، لولم تكن الأبهى والأروع؛ لما اختارها القدر "مسيحاً" و"كان لا بدّ أن
يجلدا ليفتدي ويفتدي. ليولدا ١٠٠"

هذه التفاحة كان عليها أن تُقطّف عن دوحها المترّف لأنها "عذراء كنه البشر" فهل فقه

البشر كنهها؟ كلا، وألف كلاً. بلا حساب، وشرّ البليّة أن يفتئت المارقون عليها، على

شعبها يخطئونه، ولم يدرك كل مارق متهم.

"لم يدرك من أنت

لو أنه نالا

بعض الذي نلناه لو نلت

ما قال: يا عذراء أخطأت

ولم جيئت!

فبدل أن يكون السقوط أمثلة، أصبح تشقياً وإيغالا في غياهب التجاهل. انها قصة افتداء
الفرد للجماعة، أمثلة تلقن واحدة ثم الويسل والثبور لمن لا يستوعب. ما أكثر من لم يستوعب،
والأفما معنى تواتر الزحف العربي لردّ جحافل العدوان المسلح بال "ليت" وال "لو"
وال "يجب". وحقوق تقرير المصير، شأنها شأن الشاة تطلب حقها من جزّارها المشهر

١- قصيدة "قصة برتقالة"، الآثار الشعرية، ص ٢٥٣ - ٢٥٥.

٢- هو عنوان قصيدة لكامل ١٠٠ الآثار الشعرية، ص ٢٣١، ومنها نقتطف العبارات والأبيات.

سكّينه على حدّ عنقها صباح يوم عيد .
لم يكن شاعرنا ليكّد الذّهن في أثر الرمز كدّاً . وذلك واضح من قلّة الرمز
في قصائده قياساً الى آثاره عامة . كان الرمز عنده عفويّاً غير مقصود بحدّ ذاته لولا أنه على
ارتباط وثيق بالواقع لا يكاد ينفصل فهمهما .
ففي قصيدته "الضوء الأخضر" (١) دلالة أوليّة على أن هذه الضوء إشارة آذنة بيد
التفاعل مع الحياة - وسرّت في مدينة الأموات - التي أمست خرائب مقفرة حتى من اليوم
والغريان فلا أثر فيها لحياة . ضيّع الاتجاهات وتعثر بحجارتها فسقط على ظلّه . . داس
فوق ظلّه . . الى أن يسر له الله "طفلا عمره سنة" أشعل الضوء الاخضر فأورقت الارض
اليباب وارتعش التراب بأنفاس الحياة ، فاذا بالحجارة المسجاة رجال تقاتل ، والظلال
الملقاء شعراء ، واذا مدينة الاموات هي احدى خلايا الثورة الملتهبة ، واذا
الشاعر ينظر الى ظلّه المديد المديد ، ورغم امتداد ظلّه ، يظلّ الجسد أكثر امتدادا بالثورة .
هذه هي قصة الضوء الاخضر الذي أشعله طفل عمره سنة في الذكرى الاولى لانطلاقة الثورة
الفلسطينية المسلّحة في مطلع ١٩٦٥ ، ممّا أحيا الوطن العربي ونبّه الى الخطر الصهيوني
الذي يتحسّن الايقاع بكل أعضائه . والقصيدة بسيطة التعبير تسجيلية تقريرية لوقائع يحياها
الوطن العربي الكبير قبيل ميلاد الثورة . لذلك ، لم يجد الشاعر معاناة في تسجيل
الوقائع والاحداث حتى لو كان ذلك بالرمز المشعّ بالحقيقة (٢)
وللشاعر قصيدة أخرى ضمن مفهوم الرمزية تحت عنوان "المتحف الكبير" (٣) المتحف !
وأى مكان سواه يضمّ الاضداد فيجمع القبح الى الجمال والماضي السحيق الى الحاضر
الراهن بعائلته ! وأى مكان سواه يجمع بين وجوه الحضارة الى جانب وجوه الانحطاط !
المتحف ، جامع المتناقضات - أطرّفها .
واذا كان الوطن العربي في عرف الشاعر جامعا لهكذا ، فانه بعينه هذا المتحف و . .
"المتحف الكبير بعد لم يزل يعجّ بالأوثان"
المتحف الكبير هولة وهولجان
المتحف الكبير خطبة ومهرجان
دبّابة وديدبان
أسطورة لفقها الدعاة . . وحاكها الكهان
وزيّفوا في كل ركن غامض جثمان
ودفنوا جثمان "

وكما يصحّ في الوطن متحفا كبيرا ، يصحّ فيه مستنقعا كبيرا (٤) ، وكيف لا يكون مستنقعا ؟

- ١- الاثار الشعرية ، ص ٤٠٢ .
- ٢- عرضنا بعض سطور هذه القصيدة أثناء الحديث عن الثورة وشعر كمال فيها .
- ٣- الاثار الشعرية ، ص ٣٩١ .
- ٤- إشارة الى قصيدته "المستنقع الكبير" ، الاثار الشعرية ، ص ٣٩٠ .

فلو كان نهرًا حقيقيا لجرف الاقدار والوحول ، أما أنه لم يفعل ، فهو مستنقع آسن . . . مستنقع كبير .

ولما كان البحر عنده موهن عشق وهيام اذا كان امتدادا لبحر يافا المشوق اليه ، كان البحر أينما وجد رمزا للوطن ؛ ففي "رسالة من دوفيل"^(١) كتبها الى حبيبته في الوطن ، قال لها :

"فقد رأيت البحر هذا اليوم عارياً

وشاقني بأنه جميل"

وقد فرحت كالاطفال عندما ضمته فضمني

ولم يخفني موجّه الثقيل"

رأيت في أعماقه الأسماك لا تبكي وترقب السبيل

ولا الكبير من حيثانه يهّم بالنحيل . . ."

والبحر الذي مدّ اليه يد يمعاننا فباد له العناق ، هو بالطبع ليس وطنه الكبير الذي سبق له أن حطّ يدى الشاعر يوم مدّهما اليه ، وإن كان يتمنى ان يكون وطنه كالبحر ، وأن يكون البحر رمزا للمجتمع العربي إن لم يكن للمجتمع العالمي الذي يدعي التقدم والحضارة بينما هو في الحقيقة غابة يفترس كبيرها القوي صغيرها الضعيف .

ولما كانت الرسالة منطلقة من فرنسا ذات المجتمع الذي أراحه وقتما أشعره بالأمان ، فقد حرك فيه من الذكريات ألوانا ورسوما كان البحر واحدا منها .

ولعدّل أكثر قصائده دنوا من الرمزية بعد "قصة برتقالة" هي قصيدته "المظلة

الضائعة"^(٢) التي يصرّح بصوته بالدافع الى كتابتها في باريس قائلًا: "وبالفعل ضاعت

مظّلتى أكثر من مرة بينما كنت أرتاد شوارع باريس وحواريها . "حتى هذه المظلة الحقيقية

تعني لنا ذاك الرمز للوطن الضائع ، لجواز السفر الذي لا يستطيع أن يعبر به الجسر

الشاهق من عالم الضياع الى عالم الأمان والقرار ، وتعني رمزا لضياع الوطن - المظلة ،

فماذا يقيه بعدد الشمس الساطعة ؟ ولو كان كمال يقصد بالمظلة تلك الأداة الجامدة

فقط ، فأية مظلة - ولو ذهبية - تستحق منه أن ينظم فيها قصيدة "الرياح المنسلّ وموسم

البكاء والدموع" قصيدة العذاب والتوجع والتائه عن القطيع في حاضر فجيح ؟ قصيدة

"استمراء الضياع لإنسان ينشد القرار" ! وما مقاهي باريس وحواريها الحقيقية الا أوطان

الآخريين التي ضرب في طولها وعرضها متسكعا فوق أرضفتها وغائرا في دها ليزها المعتمة

يصرعه صخبها فلا يجد نفسه حينما أمل في أن يجدها . وقارئ القصيدة يلاحظ على

الفور أن عباراته تخرج من على لسان انسان يلهث راكضا وراء مظلة لاذت بها الريح ، أو

كأنها لهثات مصدر بحمى الوطن ، تقطعت واتصلت وتلاحقت ؛ فسطر يطول يطول وآخر

١- الآثار الشعرية ، ص ٤١٠ .

٢- الآثار الشعرية ، ص ٤٢٠ . وهذه القصيدة مسجلة ، مع قصائد أخرى ، بصوته

على اسطوانة مع تقديم صوتي له لكل منها .

يقصر الى حدود الكلمة . وليس أدل على ذلك من حرف السين المتكرر بوضوح ما بين انتهاء الشهقة وابتداء الزفرة . وليس من حرف العين رويًا طاغيا في مخرجه من أسفل جوف الفم المتصل بالحنجرة فيحس لفظه بعوارض الاختناق . .

"يا من رأى مظّلتني تضيّع"

تنسلّ مني خلسة"

كأنها الريح . .

ينسلّ من صدري

وليس أستطيع . . .

يا من رأى مظّلتني تضيّع"

تهجرني في موسم البكاء والدموع"

ومقلة السماء لم تزل

تجتاحني ،

تغمزني ،

بالماء والصقيع"

تهجرني

كأنني وحدي المعدّب الصريع . (١)

وهكذا يكون ضياع المظلة ضياعا للأرض الصلبة ذات جواز المرور أينما يشاء ، وقد حرم من أدنى ما يشاء الانسان . الوطن . لأجل هذا كانت صرخته الختامية في يأس : "ليتني أضيّع مثلها . . يا ليتني أضيّع"

وبعد ، فقد عشنا قليلا مع رموز الشاعر المحببة في بساطتها وسهولتها واقترابها من الواقع المعلن . وربما تكون له نظرة خاصة يطالعنا بها في وقوفه ضد الإبهام والغموض ، ضد الرمزية المتطرّفة والرمزية المستحيلة كما قالوا : الجرح الاخضر والغم الأزرق . (٢)

خلاصة القول ، انه كان يعني ما يقول بالفعل متأثرا في كل أفعاله بالتزامه المطلق بخدمة شعبه وقضيته الوطنية المقدسة بالأسلوب المباشر الصريح ، وهو أقرب الطرق الموصلة الى مطحنة الأعداء .

١- قصيدة "المظلة الضائعة" ، الاثار الشعرية ، ص ٤٢٠ - ٤٢١ .

٢- هذه النظرة يلقيها كمال ناصر في دراسته غير المنشورة "كيف أفهم الشعر" سوف

نلقي أضواء عليها في مطلع الفصل الأخير من هذا الباب ان شاء الله .

درج الدارسون على نسبة الشعراء ، هذا الى المدرسة الكلاسيكية ، وذلك الى الرومانتيكية أو الرمزية . الى ما هنالك من مدارس تفقز فوق الحصر والتحديد ، ناهيك عن امتثال الشاعر المنسوب الى مدرسة فيها بحيث نتساءل معه : هل وعى ذلك الانتساب في حياته ؟ وهل كان يرضى عن نسبته اليها لو خير ؟ والسؤال الحق ، هل ينتسب الشاعر الى مدرسة بكل تعاليمها ومبادئها وأبعادها خارجا تماما عن كل مدرسة عداها ؟ يرى الناقد " أن الشعر لا يستطيع أن يكون إما صادقا وإما عاطفيا ، بل لا بد أن يكون صادقا وعاطفياً معا . ومثل هذه الرأي نجد عند مكسيم غوركي ، حين يصح بأن أعظم الفنانين تلتقي فيهم الرومنطيقية والواقعية معا . (١) "

فأين يقع شاعرنا كمال ناصر من هذا الالتقاء ؟ وهل يمكنه ألا يقع عند التقاء حدّيه ؟

هواذن ، ينتسب الى الواقعية في أسس معانيها وهورها ، وإلى الرومانتيكية في بعض أبعدها وإن كان يصحّ بعدم اعترافه بوجود مدارس في الشعر معلقا على اختلاف النقاد في نسبة الشعراء " ذاك رمزي وذاك عربي " . مسكين الشعر ، كأنما حين ولدته ربة الشعر ، علمت أنه سيتفرق شيئا وأديانا . . . نعم ، هذا سخف وهلال . . . وحتى هذه المدارس التي يصفونه بها أكاد أجزم أنها خطأ . (٢) " إلا أن شاعرنا يرشّف من كل كأس رشفة من غير أن تحيِّزه الرشفة الى مفهومها وحدها .

وبالنسبة للحركة - المدرسة الرومانتيكية ، فقد امتدّ أمدّها لجيل كامل ما بسين الحربين الكونيتين ، وتأثر شعراء تلك المرحلة بما قرأوه من الشعر الرومانتيكي ، والفرنسي على حدّ تعبير بدر شاكر السياب ، (٣) فلم يكن التأثير المدرسي السريّ منفصلاً عن التأثير بالشكل الشعري في انكلترا وفرنسا كما رأينا في مطلع حديثنا عن الشعر الحديث .

وحيث أن الرومانتيكية اشتهرت بتغليب المضمون على الشكل محطمة قالب اللغوي المتزمت ، فقد شهد شاعرنا أوج المدرسة " الرومنطيقية الحاملة فوق زورق على محمود طه المهندس ، وكوخ محمود حسن اسماعيل ، والمطلق الجهول لدى مدرسة أبولو ، استطاع أن يحتفظ بنزعة الكلاسيكية الممتزجة بشيء من مثالية المدرسة الرومنطيقية وأن يحطّم ذاته في سبيل الجماعة . (٤) "

كلاسيكيا كان ورومانتيكيا كان . . الكينونة الأولى عِصّة لازمت الجسد . أما الثانية فظاهرة جاءت تلبّي حاجات الوجود فوق هامش الحياة .

- ١- احسان عباس ، فن الشعر (بيروت : دار الثقافة ، ط ١٩٧٥ / ٥) ، ص ٤٣ .
- ٢- كمال ناصر ، " كيف أفهم الشعر " ، دراسة مخطوطة في مركز الابحاث .
- ٣- من كلمته في كتاب " الأدب العربي المعاصر " ، ص ٢٤٣ .
- ٤- احسان عباس في تقديمه " الاثار الشعرية " لكمال ناصر ، ص ١١ .

وقبل النظر في شعر كمال من هذه الزاوية ، ترانا متجهين الى تبيان بعض خصائص

الرومانتيكية كما وردت في مصادر عدة (٠٠ ومنها :

أ - وصف الطفولة والاطفال .

ب - الحب العذريّ حبّ رومانتيكيّ تكفي فيه عذوبة الروح ويتحمّل المحبّ الألم راضيا .

ج - الحنين الطافي والكآبة والنفور من حياة المدينة والثورة على التقاليد والشرائع .

د - تقدير شريعة الحبّ .

هـ - الثورة على الشكل والاهتمام بالمضمون وتحطيم قالب اللغويّ الصّلب . (١)

من هذه الخصائص^{نصف} ما استعرضناه في مباحث سابقة ، فقد رأينا الشاعر غارقا في

رومانتيكية الحب من خلال رسائله الى الحبيبة ومواقفه منها ومن حبه لها رغم الصعاب . كما

رأينا وضوح الخاصّة الأخيرة في مطلع بحث هذا الفصل . ومنها ما سوف نبجته في ما يلي .

تستأثر العاطفة بمرتبة عليا متقدمة ، تليها الرغبة بالخرج من جاذبية العالم غير

المثالي ، ثم الرغبة بالثورة على كل ما يخالفها سبق . فبينما تقوم الكلاسيكية على النقل

والمحاكاة ، يتبين لنا " أن في طبيعة الرومنطيقية نزوعا شديدا الى الثورة وتعلّقا بالمطلق

اللامحدود . (٢)

الرومانتيكية نزوع الى الثورة ، والثورة توغّل في الرومانتيكية . معادلتان متساويتان

عكسيا مما يجعل شاعرنا رومانتيكيا نائرا أو نائرا رومانتيكيا ، ولاسيّما أننا رأيناه يحرك

الجوامد وينفخ الروح في المرثيات عندما حرك بحريانا اشتياقا وأنطق الخيام وعصف بها

لتنشق عن حياة جديدة . (٣) فبدأ في كل ذلك رومانتيكيا بقدر ما كان كلاسيكيا منبعثا من

الواقع منبثقا فيه متفاعلا وفاعلا في حركة دؤوب ، ورومانتيكيا سابحا في فضاء النجوم وانطلاق

النسور داعيا جميع أسرابها الى الرفيف المستمر محققة أحلام البشر " فلنسر هذا الفضاء "

وللشاعر ذلك الانطلاق اذا شاء .

صحيح أنه حاول الهرب مرّات يائسا من واقع مجتمعه المظلم الى أحضان الطبيعة

الهادئة ، ولكنه لم يكن هربا مستمرا يؤمن له راحة النفس والعيش في مجتمع جديد لا يتألم

ولا يعاني ، بل كان يعي الحقيقة أشدّ مرارة من ذي قبل . ليست هذه الظاهرة الا من

صلب نشأة الرومانتيكية في أحضان الثورة الفرنسية . وعند اندلاع كل ثورة ، لا بدّ من الفرز

قطاع من الشعب ينخرط في صفوفها ، وآخر يقف موقف اللامبالي ، وآخر يدرب من أتونها

منطويا يحتمي بنفسه . ونحن حيال وجهين تاريخيين للرومانتيكية : الأول سلبيّ تمثّله

أجنحة الرومانتيكية السربية السابحة في خيالات حسّية مترفة ، هربا من الواقع لا عجزا وإنما

خوفا من المواجهة وهياما بالراحة . والوجه الثاني ايجابيّ بكل ما تحمله الإيجابية من معاني

الثورة على الواقع المزري . ولسوف نرى تجلّي كمال في ما بين الوجهين في شعره ، ولاسيّما

١- أورد الدكتور احسان عباس (ج ٤ ، هـ) في كتابه " فنّ الشعر " ، ص ٥١ .

٢- المرجع نفسه ، ص ٤٠ .

٣- احسان عباس . فنّ الشعر ، ص ٣١ . وهو يرى ذلك ايضا من خصائص شعرا
الرومانتيكية الى جانب تدفق العواطف بعنف حيا وكرها ، ألما وسرورا ، يأسا وأملا .

الحب عند ه بما فيمن مظاهر الجنون وحب الانطلاق والارتفاع فوق الحواس ، وذلك بين
في قصيدته " حلوة أنت فابعد ي " (١)

في خيالي المجنح الآفاق
ظلي طيفا على أحداقي
فوق حسني ولهفتي واشتياقي

" حلوة أنت عذبة الانطلاق
فاصعدي للنجوم في خاطري المجنون
أنا لي فيك مطمع عبقرى "

والحب عند ه إما اندلاق بين أحضان الحبيبة ، أو انتشار في أرجاء الطبيعة الغناء
يستمرى العذاب والغناء تألما ووجدوا وقد بات الهوى يستل العظام من جسده النحيل
بعد أن أثقل قصيدته " أحبك طفلة " (٢) بالجراح حتى لتبدو مركز الثقل في دائرة حياته
العاطفية .

ومن رومانتيكية الحب الى الطبيعة ملجأ الانسان في أحزانه وفي هربه من سموم
المجتمع المتمدن الى صفاء جناتها الوارفة . الهروب مما يجهد الى ما يريح حتى لو كان
الهرب لا يبغى الراحة هدفا أسمى . لذلك ، عندما فاجأته السماء وهو مختفٍ مشردٌ وحيد ،
وجد نفسه بأكيا مع الطبيعة بكاءها دموع الشتاء ولكنه غير قادر أن يعطي عطاءها لأن الرجاء
كان يجتره كالمجرم يدفع هزيمة الوجود صاغرا .

قلنا ، لم يكن الهروب الى الطبيعة هدفا ثابتا لما ينطوي عليه من عذاب يفتك
بالجسور ، وها هو الشاعر (٣) إنسان يسكن في حجر عيباً عاريا ضجرا يجتر الماضي
تغرقه الأمطار وتعصف به الرياح . . يهرب الى عالمه الخاص .

" أد ميت أشواكي

نحرت آلامي على الطرق

فانتحر العذاب . . . "

وكيف لا ينتحر بعدما حشا التراب في جرحه على اعتقاد الأقدمين به دواء يدفعه اليه اليأس
من العثر على ضماد طبيعي أو دواء حقيقي .

وتدخل رومانتيكية " الآثار القديمة " باب الطبيعة الجميلة وقد تهدمت ودال تاجها ،
تدخل باب التعلق بالماضي كتابا زالت نقاطه وفواصله الزهرة وانتصبت الحروف أشباحا
قائمة باردة لا فرح في تذكيرها بماضيها بقدر ما في ذلك من إتعاس واجترار للذكريات
التي عبرت مع تمنيات بالعودة إلى سابق العهد . . ولن يكون نيل الحياة بالتمني . شاعرنا
لنا جاهلي ، اذا جازت لنا النسبة اليهم على أطلال أحببتهم شعراء بكاءين رومانتيكيين .
أما في رومانتيكية الاطفال والحلم بالطفولة - وهي أيضا من باب التعلق بما هن لسن
يعود ومن المجهد كثيرا إفراغه حقيقة في الحاضر القائم - فقد كانت قصيدته " لحظة ظمأ
الى دنيا الأطفال " أعذب حلم وأعظم أمنية ، وفيها يقول :

١- الآثار الشعرية ، ص ٣٨ .

٢- يحسن الرجوع اليها في " الآثار الشعرية " كمال ، ص ٢٥ .

٣- في قصيدته " أغلقت شبأكي " ، الآثار الشعرية ، ص ٣٧٥ .

ضاق في ثورة الأسي بالحنين
أتلهى بحلمه المجنون . . .
في أطايب لهوهم ، ودعيني
نسجتهم خواطري وظنوني (١)

"أنا ظمآن والحنين بصدرى
أنا ظمآن لا خيالي طليق
لا تردى الصغار عني دعيم
انهم ملك أدمي وخيالي

ومن هذا الخيال الجانح الى دنيا الطفولة ينطلق الى الأبعد ، الى حبيبة كان يفترض أن تصيح له زوجها وأما لكذا عدد من الأطفال يدرجون على صدره قبل أرض بيته فيتخيّلها وقد راحت تتخيله بدورها طفلا كبيرا يغرقها بالسحر والفتون ، يحدّثها عن وطنه وأرضه وتاريخه ، معتبرة ذلك منه جنونا وقد أحببت ذاك الجنون لأنه "أحبني كما أحب وطنه" ولا بأس في بحثه الدائب "عن لهاتك المسعور بالجنون" مستمرّا العذاب اذا كان من "الأصابع التي تجرفني بالنار والأتون" (٢)

هكذا يحب الرومانتيكيون طالما أن وراء أكثر الحبّ أحبّ وطن . بدأ ، تقترب الرومانتيكية من وجهها الايجابيّ الأول : الرومانتيكية الثورية . ازاء هذا ، نرى شاعرنا كمال ناصر يتحسّس مجالات التقلّت والانطلاق من جوف الزنزانة البارد الى ملاعب الخلود الفسيحة . . من الحرمان والألم الى دفق العطاء والسكر بخمر الخلود . .

"فيمر معنى الحياة بذهني

ويحبا وجودي جديدا بعيني
وتزهو الورود" (٣)

الا أنها وإن كانت مجرد "أريد" فإنها خير ألف مرة من القعود ، لا بل هي طريق الى الحقيقة الأزليّة الثابتة : كن . . فيكون . والعمل الثوري أكثر النشاطات البشرية تعرضا لذبذبات المدّ والجزر . . ما أشدّ ما تطبّع الشاعر فنلحظه في قصيدة واحدة : حيننا نائرا ، وحيننا خائرا . .

يخضرنى عمري لها نبت
ينهار عبر ظلاله الوقت
فالكون في بعض الذى قلت (٤)
وفضضته لما تخيلت

(١) "لو تستجيب الأرض ثانية
لو يرجع التاريخ مرحلة
لغزت جبين الكون عاصفتي
أبدعته لما تغزلت

ومن حال التميّ والتشوق المبدع ، ينتقل الى حال الاكتفاء بما قسم له (حسبي) . . والى الاستفهام الذي يحمل معنى الكره لما يستفهم عنه : العمر ، والوجود ، والحياة . . الى العدميّة بعد الإبداعية الأولى . .

أتي بدنياها وما شئت
بل قبلما كوّنت أعدمت

(٢) "حسبي من الدنيا ولعنتها
من غير إذني كان لي جسد"

- ١- قصيدة "لحظة ظمأ . . ." ، الآثار الشعرية ، ص ١١٦ - ١١٧ .
- ٢- من قصيدته "طفلها الكبير" ، الآثار الشعرية ، ص ٣٦١ .
- ٣- قصيدة "انطلاق" ، الآثار الشعرية ، ص ٣٥٩ .
- ٤- الحالتان (١-٢) هنا من قصيدته "البعث والأيام والموت" ، الآثار الشعرية ، ص ١٢٣ .

ما العمر ما معنى الوجود ولم^٥ جئنا جميعا ، لم^٥ أنا جئت^٥

ولعل الموقف الرومانتيكي الأشد ثورية هو موقفه شاعراً يتخيل نفسه ثالثاً مع طرفي الحوار بين نسر وبلبل^(١) وفي اتخاذ الرمزين دليلاً على "انطلاقه" من عالم الواقع المظلم على غير ما يشتهي، إلى عالم مثالي مشرق حرمته على الشمس^٥ فكانت رومانتيكية التحليق في أجواء رقيقة سامية عسى أن يكون فيها منبع للراحة والفرح . وهو في هذا الموقف المتصف بالثورية العنيفة التي تلزم النائر باتخاذ موقف جازم حاسم وتنفيذه بلا تردد . . . كانت هذه من أخلاقه منذ الصغر ، منذ غنى الوطن مبكراً ونظم الأناشيد متغنياً ومشيراً إلى "الزورق الحائر" وطنه ، وورغبته ، أو فلنقل تهئية النفس لقيادته إلى الشاطيء المفقود حيث يتواجد الشاطيء مع وصول الزورق فيكون العناق متبادلاً :

يا زورقا يجري	في شاطيء القيود ^٥
غداً بنا تسري	طلائع الجنود
يا زورق النجاة	مرسك في الضلوع
هل تنطوي الحياة	لا أرى الربوع ^(٢)

نداء المحرور في غياهب المجهول ، وتساؤل عن المستقبل البعيد ، وحنين يرف بأشعة الزورق نحو الربوع

وشاعرنا نائر في قصيدة الحياة أكثر منه في قصائد الأوراق . لو قلبنا الأولى لوجدناها تنطوي على صفحات متهاكة الحروف شأنها شأن حروف الثانية المتجسدة في "عارض" رومانتيكي سلبى ، تكفي الإشارة إلى ملامحه من خلال بضع قصائد هي :

"موناليزا"^(٣) الصورة التي يهرب إليها ناشداً الراحة من عذاب الحياة ، فإذا بعينيها تتبعانه . . . تحرقانه . . . تؤرقانه . حمل إليها شجونه فما وجد لديها الا اضطرام الحقيقة السوداء في نفسه . ومع هذا يجرؤها بحرارة الشجن المجنون أن تحتويه لتتقده فلم تفعل مع أنه أحسن موت الناس والزمان في حياتي .

"الحنين إلى الأكربول"^(٤) قصيدة الرومانتيكية السلبية متمثلة في التلذذ بالعذاب ، والجموح إلى الخيال لدى وصوله إلى الأكربول . . .

ولما وهلت لسط الأمان	عراني من الشوق دنيا زهول
فرحت أحلق في مقلتي	لألمح في مقلتي الذبول
نجم تماوت على جانحي	ترصعني بوميض الأفول
ونار خيالي الكسيح وماجت	بصدري رغباً وغنت تقول
سيخلد حبك يا شاعر	ويبقى حنينك للأكربول

١- يتوضح الأمر أكثر بالرجوع إلى "نشودة الحقد" ، الآثار الشعرية ، ص ١٦٠ .
 ٢- نشيد "الزورق الحائر" ، الآثار الشعرية ، ص ٩٠ - ٩١ ، وقد لحنه ربما ناصر وأنشد في كلية بيرزيت .
 ٣- الآثار الشعرية ، ص ٤٠٧ .
 ٤- الآثار الشعرية ، ص ١٢١ .

حتى خياله - عدا جسده - كسيح مقعد رغم انطلاق رغبته وإيمانه بالخلود فيما بعد . ولكن ، ماذا يقول في حنينه الى بلد المنفى النفسي والجسدي معا ! ألم يكن هروبا ما أشبهه بهروبه الآنف الى الطبيعة وقد جاءته الشبابة في المرح . .

شمست مجنحة تذكّرني
والشيب اذ رقصت بشائره
يمشي كفاحا فوق ناهيئي
لا تشدني ، واخرسي فأنا
عمري وما ضيّعتُ من أمسي
وتشاءت حزنا على رأسي
ويشدني كبرا الى رمسي
ألتدّ تجربتي على بوّسي (١)

وهكذا يصبح المشي معكوسا بعد أن كان للشاعر أصلا . زد على آتة " الشدّ " القاتل لإنسان حفر له رمس وقيل له : هَوْلَكَ . فالشيب في صورته متراقص يرتعداه بسفور ، والحزن في تناوؤه صورة واضحة للألمالي الذي يلتدّ بوّسه في قعوده كونه لا يستطيع أن يغيّر في الأمر شيئا .

" حرمان " (٢) قصيدة الشعور بالعجز المطبق والتفكك المهلك أمام شاطي ، تعجز خياله
الهم وتمون الأوصال . .
فكأنني وقد بكيت عليه
في سعير الحرمان ، أبكي عليا .

نحن هنا أمام تداعيين مؤلمين لمشهد الشاعر يبكي بلوعة ، يجهش حتى الانهيار فيرتعي على الشاطي ، الحبيب الذي تتقاذفه بدورها موجات اللاهته ، ولكن لهاته أشد . لعله في هذا الموقف السلبي ، محقّ كما يقال : الموت حق ، لأن أشجع الفرسان قد ينهار - كالشاعر - اذا ما وقف قبالة وطنه الحبيب المغتصب قيد أذرع ولا يستطيع أن يقبل تراه . عند هذا الحدّ تسقط النظرية ويصبح الشعور سلطان الوجود ، فمن بلا سلطان الحدِيث عن رومانتيكية الشاعر السلبية يطول ويطول على قدر السنوات الطوال التي عاشها منفيا ومشرّداً أو هاربا من وجه السلطات . ونلاحظ في استعراضنا لبعض قصائد هذه الظروف ، أنها كتبت في مرحلة زمنية واحدة أو مراحل مشابهة جدا تعود الى أعوام منتصف العقد السادس ، وبالتحديد ، لدى وجوده الاضطراري في باريس حيث ولدت قصائده . انتظار ، النهاية ، رسالة من دوفيل (٣) بما تحمله من سلبيات الحياة وتعرض أنفاس الشاعر الثورية الى احباطات قاتلة تعود لتلتقي بقصيدته " الشعب أقوى " (٤) وملوعها أحلام وأحلام وانزواء في كهف لا تصافحه الشمس ، يجترّ الأحلام وقد أدركها الصباح ، وتنتابه الهواجس التي لم يدركها أي صباح ؛ فنراه في الجوف قابعا " يستجدي الصمود على ارتعاشات العشايا " مذكريّ الحنين الى ماضيه يوم كان يستبِق ثورة " النسر " منقضا على " البلبل الوديع " القانع بالأمر الواقع سلبا أم ايجابا .

١- قصيدة " رؤى وأصداء " ، الاثار الشعرية ، ص ٢٨٤ .

٢- الاثار الشعرية ، ص ٢٤٩ .

٣- الاثار الشعرية ، وصفحاتها على التوالي : ٣٧٧ ، ٤٢٤ ، ٤١٠ .

٤- الاثار الشعرية ، ص ٢٣٩ .

ما بين الثورة واللائحة، والإرادة المطلقة والارادة المكبلة، والوطن المعدب والوطن المنكوب بحكامه، لا يظل أمام شاعرنا سوى اللجوء الى عالم الأساطير يرتاح اليه في حكايات البراءة الطفولية ويتمنى أمنيات الاطفال. لا عجب وهو الطفل الذي لا يتحول، وأمانيه أيضا لا تريحه. . . يقول :

"لو كان لي طاقة الإخفاء
من سحرها وخلقها المرائي
عقدتها بالتيه فوق رأسي
لأختفي عن نفسي
فلا أرى أسقامها
ولا أرى آثامها
ولا أرى الجراح تدمي كأسى
ولا أرى الضرور في عيوني. . . (١)

وبعد، فمن ينكر أن هناك تكاملا بين الرومانتيكية الثورية والرومانتيكية السلبية - التاريخية في شخصية شاعرنا الأدبية، ألا يقود جموح الأولى وغفوانها الى الثانية إن لم تلح الأولى ثمارها؟ ألا توقظ الثانية صاحبها لإيمانها بأن جنوحه لا يعدو كبوة أو إرخاءة جفن، ومصداقا. . . قول شاعرنا: "والله ما نام الزمان وإنما أرخى الجفون؟" يمتاز شعر كمال الرومانتيكي بخاصتين اثنتين: أولاهما، أنه يخلق في أجواء الخيال في رسم الصورة اثر الصورة. وثانيتهما، أنه يتغيب عن نمط القصيدة الكلاسيكية لكي ينطلق في القصيدة الحرة مدفوعا بنفسيته المتعطشة الى الانطلاق والتحرر. تظل كلمة أخيرة، وهي أن كمال ناصر لم يكن في شعره أسير مدرسة معينة ولا شكل تعبيرى واحد ثابت. . . كان شعره متطورا ومتلونا ومنطلقا في شتى الاتجاهات التي كان يرق نحوها انسانا ومناضلا.

د - القصة الشعرية

نحن أمام خمس من قصائد كمال المنشورة تحمل صبغة قصصية، سوف نلقي بعرضنا لها وتحليلها، ضوا على كمال الشاعر القصاص الى حد، وإن كانت قصصيته أكثر تبلورا في قصصه الثرية على قلتها وتفرق أزمنة كتابتها. (١) صرخة الميلاد (٢) قصيدة تقع في اثنين وسبعين بيتا، ولكن النفس القصصية يتجلى في التسعة والأربعين الأولى فقط. هي قصة ميلاد السيد المسيح، بدأها بمناسبة الميلاد غداة أن غطى الأذى أكثر وجه الأرض نباتات الحاجة ملحة الى "جراح عيسى تسيل بضيء الغفران".

١- قصيدة "طاقة الإخفاء"، غير منشورة، في مركز الابحاث الفلسطينية - بيروت.
٢- الآثار الشعرية، ص ٨٤ وما بعدها.

وينتقل الشاعر الى ارتعاشات أمه " مريم البتول " بسحر خفي راح يهزها وهي التي
عهدها بالهوى كعهد رضيع
ضلّ عن أمه بقفر جديد
فماجت أعظافها بالدبيب "

وأتقن تصوير هذه اللحظات الوحلة ، ورسوا العذراء البائس الى السماء باكية خجلة وقد
ظهرت امارات الحمل واضحة فجعلها ..

" تتلوّى كأنها قد أباحت
وأقامت بها مكانا قصيّا
هكذا خبر الكتاب المقدس ، وبلغ القرآن لكريم ، والشاعر لا يعد وأن يكون ناظما لما جاء
في كليهما من الوحي والبشارة .

وفيما مريم كذلك ، هبط الوحي " مبشرا بالغيّب " :
" إليه يا مريم اهدأى لا تخافي
عده نفحة السماء فصوني
وكان الميلاد لمات ليلة ..

" أنها ليلة أفاق بها الفجر
كوكبت فوقه النجوم سناها
على مذود حقير مهيب
وأضأت في وجه طفل عجيب "

ولم ينقص من سرد الشاعر لقصة البشارة والميلاد الا أن يذكر النجم والرعاة الساجدين
محمّلين بالمرّ واللبان لتقدمه الى ملك الملوك . ولكنّه لم يفعل ، اختصارا ، ولكي نقلنا
بسرعة من فرحة الأم بالميلاد الى تصوّرات مبكرة " للغد الأحمر المخضب بالمجد والبؤس
والأذى " الذي ينتظر المولود . وكبر الطفل " نائرا يفرض المحبة في الناس ، ولا يبالي
بالشوك يدمي خطاه . " ورسول كالسيح ، منتظر منه فوق ما يدرك كنهه البشر . كان قبلة
آمال الشعراء بن " الشاطي " الوجيع السليب . شرقت ضفتاه بالهمم والإثم والدّخيل " فبدرت
منه استغاثته من صميم القلب الى السيد ..

" قم تطلّع أختا المروءات واشهد
مصراع المجد فوق هذي الدروب "

وتنتهي أحداث قصة الميلاد عند هذا الحد ، وما تبقى من القصيدة إسهاب في شرح حالة
الوطن المنكوب وتصوير جمالاته وحتمية الثورة والانتصار والتحرير .

يمكننا تقسيم هذه القصيدة المطوّلة الى نصفين : قصة الميلاد التي هي مدخل
للقسم الآخر ، قضية الوطن . جرى فيها طويل النفس دقيق الاختيار للألفاظ على الوزن
الخفيف الذي يستحوذ على أكبر اهتمام للشاعر في معظم نتاجه . كما ونلمح الصور المتوالية
بكثر من ..

" صدرها البيض قمة لم يلامس
عهدها بالهوى كعهد رضيع
ربوتها الا خفوق الرجوب
ضلّ عن أمه بقفر جديد "

وقوله :

"فضى ذعرها يجرح خديها
تتلوى كأنها قد أباحت

بدمع على الهوان سكيب: ..
نفسها وانثنت بأمر مريب"

ونكتفي بالصورة الثانية :

"كوكبت فوقه النجوم سناها
هالة للنمى ترفرف بالشمس

وأضاءت في وجه طفل عجيب
وترهو على احتضار المنجيب"

وإذا بنا أمام لوحات ، جزئية في الصورتين الألبين ، ومرتبعة في الصورة الثالثة في انتظام النجوم كوكبة فوق طفل يشع وجهه عجائبية ، وشمس ذات هالة متألقة تدغرنا ، بصورة معكوسة ، بصورة شمس ابن الرومي محتضرة وقت الأصيل ، أما الخلاف بين شاعرين : كمال ناصري ، الشمس بداية حياة مشرقة انطلقا من نفسيته المتفائلة ، على نقيض رؤية ابن الرومي ونفسيته . هذه القصيدة القصصية تقودنا الى قصة مكملة لها تتبع من تأثر الشاعر بالمسيح تأثرا

بالغا ، كما بينا في مبحث الدين في نزعات الشاعر الانسانية .

(٢) "لست ممي يا غرب فاحمل صليبك" (١) بدأ القصة بالمكان وهو الكنيسة ، وبالمناسبة

وهي "مدارة الكفر بطهر ووجد" والتقاؤه بالمسيح حيث كانت أسئلة واجابا توراج الشاعر يسوق براعيه الدامغة للغرب بالكفر عبر الوطن العربي . ويحرض المسيح على الشعب الذي صلبه من قبل ويصلبه شعبه من بعد . المحطة الرابعة في القصة هي نتيجة أولى في تبرؤ المسيح من اليهود بصوت مخفوض لا يلبث أن يجهر في المحطة الخامسة كنتيجة ثانية أعسم ، بالتبرؤ الصريح من الغرب :

راعفا بالذما واتبع ريبك

"لست ممي يا غرب فاحمل صليبك

حسبي العمر قد حملت ذنوبك"

لست ممي فانزع شعاع علاتي

وخاتمة القصة نتيجة نهائية للمقصد الذي من أجله انتظر الشاعر المسيح في الكنيسة وقد نجح في مهمته عندما أمر السيد الشعب المظلوم قائلا: "حطوا دولة الأذى واليهود". وهكذا يجعل كمال للقصة هدفا أسمي يتمثل في قضية وطنه العادلة . ينتهز القصة والمناسبة للوصول الى هدفه ، ويحاول لذلك بالتداء "يا رسول السلام" عدة مرات وبالاستفهام المثير للإجابة "فيم تشكو وأنت كالفجر؟" و "أنت ابن مريم؟ لم أتيت الدنيا وروحك تعلم أن عهد السلام ولى وأظلم؟"

ومن الوجهة الفنية ، كان لمحة ذكية اجراؤه القصة كلها على نمط واحد يتمثل في مجموعات متساوية مزدوجة ومقفاة الصدر والأعجاز ، يفصل بين كل سطرين سطر يلتزم في هيئة قافية واحدة غير قافية كل بيتين متلازمين في القصيدة ككل . ولعلّه بهذا الانتقال والتنويع في القوافي ، أراد إضفاء مسحة القصصية على القصيدة شكلا أكثر منها مضمونا بدليل أن تبادل القول بينه وبين شخصية القصة لا يتواتر كما يجب .

ومرة أخرى نلاحظ ارتماؤه في أحضان الخفيف يستعين به على موضوعه الذي يشغل

كل تفكيره مما يدغرنا بوزن أنشودة الحقد كلها التي أرادها ملحمة للوطن والقضية .

(٣) "القائد القائد" (١) القصيدة هذه ليست أكثر من أقصوصة مأساوية لثائر يقود الشعب

المكافح . .

"نجمة كان في النجوم البعيدة
فهفت روحه لذيها جديده"
ويجسد أحلامه أعمالا بطولية تدهش أولي الألباب بأسطورتها . . يتمسك به الشعب تمسكه
بأهداب الحياة الى أن يستشهد القائد فتنتهي قصة نضاله عند حد مأساوي اصطاح على
ايجاده وتعميمه العالم العربي ، وهذا الواقع في نهاية البطل قول الشاعر مختما قصته :
"وقدا قد يموت . . واضيعة المجد
وقد يظهر اسمه في جريدته !"
بهذه اللهجة الساخرة المريرة يطالعا كذلك في قصته مذكرا بجحود الشعب لبطله وقد

ضمته النجوم . .

"فهي أحنى عليه منا وأولى
تتحقق به وتدرى خلوده"
فهذا اتهام مباشر بخذلان البطل بعد سقوطه و اشعار بمسؤولية الجميع عن سقوطه . .
"ربما . . ربما نكون قتلناه
ربما . . ربما اذا نحرناه
لنذكي وجوده ونعيد
فكنا اساره وقوده"

ونحن اذا كنا نميل الى قصد الشاعر أن البطل يحيا بموته ويخلد حرا من عبوديته ، فإننا
أكثر ميلا الى استشعار خيبة نفسه من الشعب الذي قد يجد نفسه مؤثما شهيد حقه فيما
اذا "ظهر اسمه في جريدته" وكان الشاعر يرمي الى تذكيرنا بالقول المأثور : لا كرامة
لنبي في وطنه .

(٤) "قصة برتقالة" (٢) وقد عرضناها في المبحث السابق رمزيا ، بينما يصر الشاعر على
تسميتها "قصة . . . " فإذا تتبعنا أحداثها وجدناها فعلا كذلك ، وقد بدأها بهرب
البرتقالة الى عالم التشرد حيث تتعرض لإغراءات السقوط ، فتتعثر ثم تعي فتكلم جراحها
وتتنصب حقيقة أليمة تصفع وجوه المتهاونين بكرامتها ، فإذا هي قصة وطن لم يدرك الشعب
قداسته الا بعد تساقطه وتعسر تضديد الجراح .

اننا نشتم رائحة الفجيعة من الفاظ القصة - القصيدة : "هوان ، وصرخة الجوع
وعلمته وعواؤه ، ارغام على الخنا ، تذوق طعم الوريد ، انشفاق الصدر عن جرح الصبا ،
والإباء الشهيد . . . ولا تكتمل معالم الجريمة الا بصورة "شراعها روح خضيب الرؤى" وما
فيها من تأكيد ظاهر . وصورة "ترمقي أهدابها" وما فيها من استعارة لطيفة تولقها
لفظة "ترمقي" . ونكتفي بصورة الغاوي :

"دنوت منها راعشا لاهنا ، يشدني سحر . . . حملتها بين يدي جاعا . . . وذقتها
فارتعدت جببتي . . . وفهضتها فانشق صدرها عن جرح عرفته . . . وسرت في سمعي
عويل الصدى ."

١- الآثار الشعرية ، ص ١١٨ ، وهي في خمسة عشر بيتا فقط .

٢- الآثار الشعرية ، ص ٢٥٣ ، وهي في ثلاثين بيتا فقط .

هذه كلها عناصر قائمة تتألف لتخرج علينا بصورة مأساوية أقل ما فيها ايحاء استعارته
العواء للجوع ، ودقة " ارتعدت " التي يحمل بناؤها وموسيقاها معناها ذاته . هذا إذا
كنا نرى حدوث الارتعاد في الجبهة حيث تمتد الحركة الصاخبة لتؤثر في منطقة التفكير
الانساني . عندئذ يصبح الارتعاد أعمق وأشمل وأدق توصيلا من التشبيه التالي لــــه
" كأن في شغري طعم الوريد ."

لقد أبدع في السرد ونقلنا خطوة خطوة وزفرة زفرة بمثل ما انتقل وأشعرنا بالمرارة
والخيبة بما يوازي شعوره حتى بتنا ، كلما هممنا بالتقاط برتقالة ، نسترجع تلك الصورة
فنحجم عن الالتقاط خلاصا من العذاب في تصور العذاب .

٥) " سيديتي " (١) تظل القصيدة الأخيرة هنا وموضوعها الغزل . قصة قصيرة جداً وسريعة
جدا . أما القصر فعائد الى السرعة ، وأما السرعة فعائدة الى أنها سرد للقاء مفاجيء خاطف
بين الشاعر وحبيبته في غفلة عن عين الرقيب الواقف بالباب . وكما جاء حضور الشاعر العاشق
خاطفا ، جاء السرد متسارعا موحيا بكل دقيقة وثانية من لحظات اللقاء زمن الوقوف بالباب
فالدخول فالرحيل رغم تنبيه الآذن . في هذه القصيدة (٢) يوزعنا الشاعر بين موقنين : الأول
الى جانبه ، بيد و فينسل ثم يرحل بما في ذلك من حركية مرهقة عذبة . والثاني الى جانب
الآذن " عبدها الذليل " الذي لا يصدق أنه يرى ما يرى ولا يصدق أنه لا يرى رغم تفتح
بصره وبصيرته معا . لعمرونا ، أنه تصوير رائع وسرد حي يثير الحيوية في الدهن بأعلى
درجاتها .

وهكذا وجدنا شاعرنا يقصر في شعره قصصاً لم تكن هدفا للقص بحد ذاته ، وإنما جاءت
تسجيلات عفوية وهانقة لأحداث ووقائع وأحلام عاشها بكل حواسه فانطلقت بكل احساساته
أو أكثرها . والقصة في شعر كمال ناصر هي هيكل قصة تجرد من بعض الحلي والثياب في
حين ظل هيكلها متميزا ينقصه غالباً أسلوب الحوار ، وإن ظهر فلحماً بحيث يشعرون للحال بالفرق
الشاسع بينه وبين تواتر قصصية عمر بن أبي ربيعة في سرعة نقله الحديث على السنة
شخصياته .

و - شعر المناسبات

يمكن اعتبار شعر المناسبات عند أي شاعر أدبياً ، ويمكن تأدياً ؛ فحيثما يكن عمق
الشعور والاحساس والانفعال الصادق بالمناسبة يكن الأدب وإلا فهو تأدي في المخاطبة
يدخل في اطار حسن التخلص على أساس حسن الاستقبال .

تفرض المناسبة أحيانا على الشاعر جواً خاصاً وموقفاً متميزاً ، مما يدفعه الى البحث
والتنقيب عن مشاعر وألفاظ مناسبة من شأنها مجازاة الشعراء الآخرين في مضمار الإثارة ولو
تفاوتت درجات الصدق . ولوعدنا نستقرئ الماضي يوم كان الشاعر العربي يقف مادحا

١- الآثار الشعرية ، ص ٤٠٧ .

٢- لا يعني شيء عن الأطلاق على القصيدة كاملة في الآثار الشعرية .

الخليفة أو الحاكم طمعا بمال خاصة ، وطمعا برضى أو عفواً أو مجارة شعور عامة ، لوجدنا الصدق بمقدار فيه من الصنعة أكبر مقدار ما لم يكن الشاعر مقتنعا بمدحه غاية الاقتناع ، صادقا في شعوره نحوه . أن ما يهمننا من أولئك اليوم هو شاعرنا بالذات ، خاصة عندما أنشأ يستقبل عائدا الى الوطن فراح يشكو إلهام الشعرى عن إسعافه بما يقوله في تلك المناسبة ، الى أن استهلك في تصوير تجهّم الروض ستة عشر بيتا قبل الدخول في صلب الموضوع . ولم يدخل ان قال أخيرا (١) :

"فانظري يا روع كيف يحيي
موكبُ المجد سيّد الشبان"

وهذه النهاية للقصيدة تملي علينا الافتراض أن العائد الى الوطن ربما كان انسانا تداعى لاستقباله كثيرون ودعي كمال كونه شاعرا فرضت عليه المناسبة قصيدة فأجهد نفسه وهاج مشاعره وما نال الا إرهاق النفس وجنوح المشاعر . لم يخلق لمثل هذه المواقف بل لأعظم مما عبر عنها بقوله :

"عشرين عاما بعدت الشعر عاصفة
من النضال ووشحت الدنى أدبا
ولم أجد حاكما في الدار يسمع لي
ضاع رجع نشيدي في البلاد هباً" (٢)

فما وقف بباب حاكم الا حاملا مطرقة الإيقاظ ، ولا قال كلمة الا والحقيقة اشعاعاتها ، وما ضاعت الحقيقة الا على أبواب الحاكمين .

يمكن النظر الى شعر المناسبات عند كمال بعد تصنيفه وعلى هذا الأساس نفسه حيث يتميز شعره فيه بالعودة الى الجاهلية في تعدد الموضوعات داخل القصيدة الواحدة وتعدد الأغراض ، إنما بعناصر أقل . يبدأ مادحا صاحب المناسبة ثم يتخلل الى القضية الوطنية ومن خلالها الى قضية الشاعر نفسه كما يفتخر هنا بشاعريته العاصفة مذكرا أيانا بالمتبّي الذي سار الشعراء بشعره مشمرين منشدين .

(١) المناسبات الدينية : كما في قصيدة " لست مئي يا غرب فاحمل صليبك " ، وقد انتهز مناسبة عيد الميلاد ليقم مقابلة روحية مع المولود العظيم . وقصيدة " اليتيم " (٣) التي ألقاها في حفلة الجامعة الأميركية ببيروت - وهو تلميذ فيها - مساء ١٠ آذار ١٩٤٤ بمناسبة دينية حين راح يبين كيف أن الله عوض يتيماً الوالد بنعمة الرسالة السماوية ، فما كان ذلك النبي الا الرسول الكريم . وقد جاءت القصيدة صلوات خاشعة ووقفات تسبيحية وأحاسيس ايمانية في غاية الصدق والخشوع . تتميز بالحفوية وبوحدة الموضوع وحدة شديدة التماسك من حيث المضمون . ومن حيث الشكل يأخذ كل بيت بناصية البيت الذي يليه ولو تجاوزه لبدا الانحدار شديدا وملحوظاً . قال :

"كم يتيّم جنت عليه الليالي
عبقريّ الفؤاد أروع نايه
لو حبته الأيام حظاً وعطفاً
لمشى المجد والغنى في ركابه" (٤)

- ١- قصيدة " الطبيعة المتجهمة " الآثار الشعرية ، ص ٤١ ، وقد أشار المحقق الدكتور احسان عباس الى هذه الفكرة .
٢- قصيدة " جريمة الأمس " ، الآثار الشعرية ، ص ٩٤ .
٣- الآثار الشعرية ، ص ٤٩ .
٤- نفسها ، ص ٥٠ .

ثم زاد ..

"أيها ذي الألف سيلي حنانا
أنت واحدة لله للإحسان
وانبري كالغمام عند انسكابه
بل أنت ديمة من صحابه"
ولا ريب في أن للمناسبة هنا تأثيراً خاصاً في نفس الشاعر جعل يراعه يخط ما

يسيل من فؤاده أحاسيس ومشاعر قمة في الصدق والرفقة .

(٢) مديح الحاكمين : سجل الشعر ككمال ناصر مد يحا خاصاً لشخصيات ملكت عليه حواسه
إن لم يكن امتلاكاً كلياً ودائماً ، فهو امتلاك جزئي ومرحلي استدعاه موقف طارئ . ففي
قصيدته " يا أمير البلاد " (١) ، يمدح أمير الكويت عبد الله السالم . . يقدم لها بقوله : " عرفت
أنك انسان يحمل بين جنبه أسى العواطف وأنبيل الشعور فألهمني هذه الحقائق أبياتي
هذه ، أنا الشاعر الذي سخرت قلبي وفني لبعث أمتي الطامحة للوثبة ، والتي ألمح بعض
معالم نهضتها في هذا الجزء الناهض من الجزيرة العربية . . . ومطلع القصيدة :

" يا أمير الشعراء إن قصر الشعر
شاعر يحمل الوفا بين جنبه
ويرى الصولجان في يد نسر
هوذا الشعب ضاحك السن فاخطر
فابن مجد الكويت علماً وشييداً
فحسبي من لومه وعتابه
فيزجيه للعظيم النابه
عربي يعتز في أنسابه
فوق أحلام شبيهه وشبابه
صبحها البكر في حجي طلابه "

قد يكون الشاعر صادقاً في ورائه وإكباراً لميرخلال اقامته في الكويت مستشاراً
وصديقاً حميماً للشيخ فهد السالم الصباح ، ولكن هذا الاعتبار لا يغير من نظرنا الى
اعتيادية المعاني وتقريريتها خلوا من النفحات البطولية النابعة من انسياح الشاعر في
بوقة حبه للمدح .

وربما نلقاه في موقف آخر أوضح لصدق المديح مع الأمير طلال وقد استقبله الشاعر
عائدا الى وطنه الأردن بقوله :

"هتف النسر من أعالي صحابه
أسمر الوجه ضامر الجسم يخفي
ذا طلال يطل كالنجم فينا
فاستفاق الإباء ملء رحابه
وثبات المنون بين ثيابه
بهر الكائنات وهج شهابه (٢)

نقول بصدق المديح استناداً الى معاني الأبيات الثلاثة هذه من جهة بلاغة التعبير
مستعيراً المهتاف للنسر والاستقامة للإباء . ومن جهة الى ما كان يتحلى به الأمير طلال
من براء وإشراق ونفس نائرة على موعد دائم مع الشهادة والتضحية في سبيل الوطن . الس
جانب ذلك ، خلق ، ووطنية مثالية لم يرض عنها الانتداب البريطاني فقام الانجليز فيما بعد
بإقصائه عن العرش لكيلا يفتك بسياستهم ويقتلع مخالبيهم المنخرسة في جسد الوطن .

١- غير منشورة ، حصلت عليها من مركز الابحاث الفلسطينية - بيروت .
٢- قصيدة " يا مليك الشباب " ، منشورة في جريدة قديمة جداً ، لدى جازة منها لا
تحمل اسماً ولا تاريخاً .

تظل ملاحظة حول مدح أمير الكويت هي ترديد الشاعر للبيت الأخير: "هوذا الشعب فاخطر... أيضاًني قصيدته بمدح طلال، ولنا الحق في إلحاق هذا البيت، من جهة التعبير الصادق، بالقصيدة الأخيرة، إذ ربما يكون أنزله في مدح الأمير استعارة لإذكاء المناسبة لأن من الثابت أن مدح طلال جاء تاريخياً قبل مدح الأمير بين عامي ١٩٥١ - ١٩٥٢. ومهما يكن من أمر، فإن شعر المديح غالباً ما يكون مطبوعاً على التكلف والصنعة لأنه صنيح مناسبة ولم تكن المناسبة أبداً من صنيعة. ونحن نرى أن آية قصيدة مدح في ملك زائر أدنى مستوى من مديح بطل خارج من موقعة عظيمة، لأن مشاعر الإعجاب في الأولى فجزتها المناسبة التي يتحکم بها الزمن، أما المشاعر في الثانية فقد فجرها الواقع شعراً غب وقوع الموقعة مباشرة وتحت تأثير خمرها المباح. هنا يظهر التفاوت في صدق المشاعر لدى التأثر والتعبير.

(٣) شعر التأثر الأدبي: وقد كان فيه كمال شاعراً يدعى إلى الإلقاء تكريماً لشاعر ربما كانت بينهما علاقة ود أو تفاهم أدبي أو وشائج إعجاب وتأثر وتقليد، كما بدأني تأثر شاعرنا بإيليا أبي ماضي في "اللاذرية" وفي معارضته قصيدته "أي هذا الشاكي وما بك داء...". بقصيدته التكريمية "يا رسول الجمال والحب والخير...".^(١) فكان طبيعياً أن يعبر عن حب عميق وتأثر بالغ بأبي ماضي، ورغبة جامحة باقتفاء آثاره ما دام رسول جمال وحب وخير. ومثل هذه، كان شاعرنا في تكريم الأخطل الصغير (بشارة الخوري) حين تمخض عن قصيدة^(٢) رائعة خاطب فيها أمير الشعراء ولبنان سلطان الجمال... لا بل جعل المناسبة إبرازاً للوجه الحقيقي العربي في بطولات فدائييه وقد خصه بقوله:

وقد نحتنا من الصلبان صلباناً
لا زلت في الحسن أبهانا وأحلامنا

"إننا حملنا عن المهلوب رايته
لبنان يا مقلد الدنيا وقبلتها

وفي الأخطل خاصة قال:

يمون بالطيب ألحانا وأوزاننا

"طيف من الأزل المسحور ناجانا

تنوء دونك إلهاما وتبياننا

عفواً أمير التواني، كل قافية

أعيد بعض الذي في الشعر أعطانا

وقفت أنشد في ذكره ملحمتي

وحظيت القصيدتان بالإبداع المتكامل يعني ومبنى، فكانت له انطلاقات شعورية تتناول مع انطلاقات القافية اللامحدودة وقد / الشاعر فيها عن تألقه في المناسبات التي يندفع إليها بمثل اندفاع فؤاده. وهكذا تظل آخر قصيدة أراد كتابتها ليلقيها بمناسبة تكريم الشاعر اللبناني أمين نخلة^(٣) تظل أعظم شاهد على روعتها وصدقها، وقد تعمدت بالدم مع شاعرها ليلة ١٠ - ١١ نيسان ١٩٧٣.

١- الآثار الشعرية، ص ١٤٢.

٢- "إننا حملنا عن المهلوب رايته...". الآثار الشعرية، ص ١٤٦ - ١٥١. وقد

نظمها وألقاها في مهرجان تكريم الأخطل الصغير ببيروت يوم ٢٨ ك ١، ١٩٦٩.

٣- كان مقرراً إقامة حفلة التكريم هذه يوم الأحد ١٥ نيسان ١٩٧٣.

(٤) مناسبات وطنية : وما أكثر هذه المناسبات التي لم تفت واحدة منها شاعرنا وقد رأينا ملتزما بالوطن وعناصره التزاما أقرب من الضلوع إلى القلب . وهكذا غنى تاريخ الشعب قبل النكبة ، ويعدّها نائرا على الإذلال ، مستعرضا حياة اللاجئين في الخيام . . . ونخصّ بالذكر قصيدته " يا مجرمون " (١) ؛ فالشعب لن يسكت على ضيم الحكام بل يقسم بالحقد النائر :
"إمّا يعود اللاجئين
أو أن يموت اللاجئين"
والقصيدة غنائية ذات توزيع موسيقيّ بديع بين الحرية والكلاسيكية ، فهو وإن بدأها بقوله :

"يا مجرمون !

وتلقت الوطن الحزين يصغي لزعجرة السكون

وقد استبدّ به العجب !

ماذا هناك؟

ماذا دهي دنيا العرب؟

ما هذه الصرخات . . .

يسفحها الغضب !

يا مجرمون ! . . .

وانشق صدر الأفق ينضح باللهب

وعليه من وحشي البطولة والأرب

(٢)

والكون ، يهتف والسنون . . . يا مجرمون !

فهذه بداية تمتزج فيها القوافي وأشكال العبارات امتزاجا يفرضه الايقاع الذي يوقع عليه الشاعر أحاسيسه وخفقات فؤاده ولاسيما أنه يوجّه النداء الاتهامي إلى النكبة المعروفة فلا يلبث أن يعود إلى الشكل التقليدي للقصيدة وكأننا به يعود إلى القيود . . .

أضّم في صدرى الشجون

حاتي فتخذلني العيون . . .

الأبّاة الموءنون "

"وغرقت في دنيا الظنون

أطوي على الذكرى جرا

فجريمة الأجيال محوها

ولكنّها عودة آتية إذ يختتمها بقوله :

"وضريبة الايمان أن

إمّا يعود اللاجئين

نبقى على القسم المصون : -

أو أن يموت اللاجئين " (٣)

أمّا القصيدة الملقاة في مناسبة وطنية أخرى عام ١٩٥٧ وهي إعلان مجلس النواب

الأردنيّ إنهاء المعاهدة الاردنية البريطانية ، فوجدّها كمال مناسبة وطنية مؤّاتية حين وقف - على أنغام أكف رفاقه النواب - يغني الشعب وارادة الانتصار في ارادة الحياة حتى بلغ به عمق مشاعره وصدق أحاسيسه حدّ أفراد الجزء الأخير من قصيدته لمدح الملك - رأس النظام - الذي في عهده تحقّق للشعب حلم طالما راوده . . . ومّا قاله فيه آنذاك :

١- الآثار الشعرية ، ص ٩٥ ، وقد أوجت بالقصيدة ذكرى ١٥ أيار بعد عام ١٩٤٩ .

٢- نفسها ، ص ٩٥ .

٣- نفسها ، ص ٥٠ ن .

ويا ملكا قد حمته القلوب
تطلع فشعبك شق الحناجر
فلو شئت تسمو به للنجوم
فمنا الوليد ومنا الرشيد
وصانته من كل هول وشر
في فرحة من ليالي العمر
ولو شئت تسمو به للقمر
ومنا علي ومنا عمر (١)

ليس شعر المناسبات بالضرورة زائف العاطفة ولا سيما اذا كان نابعا من القلب
قناعة تجسدها أحلام وآمال عظيمة . ولا بد من الإشارة الى أن الشاعر الحق يعيش مرحلته
الحاضرة بغض النظر عما كان وما سوف يكون . وبهذا تظل القصيدة بنت ساعتها ، تخرج
من القلب ويكل ما في القلب .

(٥) مناسبات قومية : وشعر هذه المناسبات مصداق لما أسلفنا . ولعل الشاعر البعثي العريق ،
كمال الناشي ، على مبادئه والمستشهد عليها ، لعله في شعر البعث من أصدق ما يكون عليه
انسان . ولا شاهد على ذلك إلا الرجوع الى قصيدته في الذكرى السابعة عشرة والثامنة
عشرة لميلاد حزب البعث العربي الاشتراكي ، وقد أتينا عليهما في " اتجاهاته القوميّة
والسياسية " . قال في الأولى :

"أتينا نلبي صرخة ، وبها
لولا ه ما ركبنا للشمس هممتنا
كنا الضمير له فانهد يرهقنا
تألق المجد فينا ما اغتصناه . . .
تموج في العاصف المحموم ، لولاه
حتى تفجرنا ما تمناه" (٢)

ومن عواطف الشاعر المحمومة وتفجرات الأحاسيس المرهفة صدقا ، قوله في القصيدة الثانية:
"نتسامي الى الفداء فسر
ورضعنا من العقيدة حتى
وحملنا راياتنا متخينات
أتحبون أن أغرد للبعث
ليس عندي . فقد سفحت شباي
نائر في الدرى ونسر قتل . . .
قبسته جراحنا والعقول . . .
تتلوى وقد عراها الدهول . . .
وأشد وفي عيده وأطيل
بين جنبيه واحتواني الذبول (٣)

فهو تارة نسر مخلق ، وطورا شهيد . وحين يرهقه النضال الدؤوب ، يستريح استراحة
المحارب الذي أدى قسطه للعلی وهار يبغي السكون .
كذلك قصيدته " من وهي الوحدة " (٤) ، فهي من أجود القصائد في أسمى المناسبات .
راودته الوحدة كالحلم فذغذغ بقصيدته الأسماع يوم استمع الى المذياح يعلن نبأها ، وقد
اعتبرها خمرة ضرورية . ولأول مرة يدعو شاعر الشعب الى ارتشاف الخمرة ، فالمناسبة جلييلة ،
كالأعاجيب تحدث نادرة متفرقة في الأزمان المتباعدة :

١- هذه الأبيات مقتطفة من سبعة عشر لم تنشر الى جانب القصيدة نفسها المنشورة في
الآثار الشعرية ، ص ٨١ في ٢٢ بيتا بعنوان " انتفاضة الخيام " .
٢- قصيدة " وأنا هزنا في بعث أمنا " ، الآثار الشعرية ، ١٢٩ .
٣- قصيدة " وسيبقى البعث الأصيل " ، الآثار الشعرية ، ص ١٣٥ - ١٣٦ .
٤- الآثار الشعرية ، ص ٢٤٧ .

"أنهى المنى ما نبضت بالكفاح"
 تومىء للدنيا بأحلامها
 اليوم لا فجر ولا صحووة
 طلائع الوحدة هذي فلان
 في وحدة كبرى تلمّ الجراح^١
 وتزدهي بين القنا والرماح...
 وإتما مواكب للصباح...
 يخمر بها العرب فخمربياح^(١)

والغريب في أمر هذه القصيدة ، قافيتها التي تبدو "الحاء" فيها جزءاً من روح الشاعر في مرحها وانطلاقتها وقد أحصينا أبياتها فكانت سبعة وعشرين في سبع وعشرين قافية : أربعة منها فقط ذوات روى قائمة هي "الرماح ، السلاح ، الجراح ، الجراح" وما عداها فكلما تفيض فألاً وإشراقاً ومنىً تترجم حلم الشاعر المتحقق بالوحدة .

(٦) شعر المراثي : قد يحجم شاعر عن العطاء إما عجزاً متأثراً عن جفاف الشعور واستجداء

الصنعة ، وإما عجزاً متأثراً بتدقق العواطف الزخم فلا بد من تنظيمها في لحظات تأمل هادئة . رثى شاعرنا في مطلع شاعريته زميله في الدراسة ببيزيت ، رزق سليم المنير^(٢) ، فلا نتظر منه عاطفة جياشة أكثر ، نظراً إلى صغر سنّه ولتعبيره الفجّ عن عاطفته . لكن عاطفته أشدّ تأججاً ، والجمر الذي تركه الفقيد أشدّ لسعاً في فؤاده . فهو ابن خالته :

"وكانما الباكي عليك بدمعه
 وقد تدموع العين تجرح مقلتي
 وحسبت أمك تستطيع تجلدا
 ما لي أنا لا أستطيع تجلدا^(٣)

فلاحظ عاطفته الجياشة ومبلغ حزنه في تشبيهه لبكائه بالبكاء البكر وهو أشدّ الدرجات مرارة وهدقاً . وفي الجراح التي أصابت العين من جراء الذكرى - السيف فيها ، وهذا تشبيه أبلغ من سابقه ، لا بل يفوقهما كليهما هذا الاعتقاد الخاطيء وقد قصد الشاعر تلك التخطئة ليبيّن بالمقارنة أن حزنه على الفقيد يفوق حزن أقرب المقربين منه - أمه ، وفي هذه المقارنة مبالغة مستحبة لها دلالتها على سموّ العاطفة وصدق الشعور . ولعلّ مبلغ صدقه ووفائه لابن خالته نابع من اشتراكه في حفر منبع الحنان مع أخيه الأكبر ، سامي ، الذي قفى قبل العشرين من عمره . ويومذاك استنفذ عليه كل دموع القلب فإذا بالفقيد الجديد يفجر الدموع من جديد . قال :

"بالمسجدت أخي بأخر عبيرة
 واليوم يفجعني القضاء بأخري
 وحسبت أن الحزن لن يتجددا
 تبّاً لهذا الدهر كيف تنمردا"

فساوى بين فقد أخيه وفقد ابن خالته ليفتح باب المقارنة بين ما يبيّنه من صدق شعوره نحو أخيه ، وما يريد من تبيان لشعوره نحو قريبه ، وهذا يمكن النظر إليه كالتشبيه المقلوب وهو الأشدّ بلاغة .

١- قصيدة "من وحي الوحدة" ، الآثار الشعرية ، ص ٢٤٧ - ٢٤٨ .
 ٢- قصيدة "الزهرة الصريعة" ، الآثار الشعرية ، ص ٤٥ ، وهي في خمسة أبيات فقط .
 ٣- قصيدة "فقد سبيل" ، الآثار الشعرية ، ص ٤٦ .

ويبلغ صدق الشاعر الوفي مبلغاً عبقرياً في رثائه البطل الفلسطيني الذي عرفه عن كذب والتحق بقواته ذات يوم ٠٠ هو عبد القادر الحسيني ، في قصيدته الرائعة "مصراع البطل" (١) وقد ألقاها في الكلية أمام حشد من المكرمين للفقيد الذي كان اتخذ القرية مقراً لقيادته . والقصيدة ذات نفس ملحمي خطابي تجلجل فيه الألفاظ وتتواكب الصور الرائعة انطلاقاً من المطلع :

"أيها الموت ! ته علينا وفاخر
لم يطش سهمك اللثيم الغادر"

وهذه الوقفة المتعجرفة للموت ليست له فخراً بقدر ما هي للشهيد . ثم الصورة المركبة من حيثيات متألفة :

عصبة الموت من وراء المحاجر	هيه يا موت ! أين أنت فلبت
همسات الجهاد عبر الحناجر	فإذا الأرض شعلت ألمبتها
راية المجد بهجة للنواظر	فجثا الحصن في يديه ولاحت
ومضة النصر في صدور البواتر . . .	ورنا صامتا وفي مقلتيه
فوق أرض نديّة بالمآثر . . .	وإذا الفارس الأبى طريح
مقلناه على الطيوف السواحر (٢)	لاحت الدار دارة ثم أغفت

ف عناصر الصورة نلثة من الأبطال يتدافعون من حدقتي الموت شعلة لا تنطفيء . وحسن جاثٍ خشوعاً ، وراية مرفرفة كبرياء ، ومقلتان مشعّتان بالنصر ، وفارس يفترش جسده الأرض النديّة فتلون دماؤه اخضرارها وتشع صورة الوطن لتتخلق مقلتا الشهيد عليها في إغماضتهما الأخيرة وكأنتهما تخشيان أن تفر الصورة في شكل آخر .

ما أكثر الشهداء يتساقطون على درب الثورة ! ومن غيرهم يستحق الإكبار والتقدير وعبون الشّعور وجواهر النثر ! وماذا لو كان الشهيد هذه المرأة فتاة غضة اسمها رجاء أبو عماشة وقد جند لها رصاص الجند في الأردن عند رفعها العلم السري عالياً في تظاهرة جماهيرية كان الشاعر أحد روادها ! شاهد كل ما في الجريمة من بشاعة وكل ما في الشهيدة من طهر وقداسة ، فأفاض بكل ما في قلبه من عاطفة وتعظيم . وكانت القصيدة فيها يومذاك من واجبات النضال ، فلم يتخلف ، شأنه يوم سقط رفيقه في البعث ، الشهيد عبد الله نعواس ، بعيداً عن بلده . ورفاق النضال عند كمال هم ذخيرة الوجود وشعلة الظلام وربيع الحياة . . .

"لو كنت أستطيع
أن أسمر الربيع
في جوانح الحياة
في غفلة عن الإله
يا حبذا لو كنت أستطيع
أن أصلب الزهور في الحقول"

١- الآثار الشعرية ، ص ٥٥ .

٢- نفسها ، ص ٥٦ .

شهية لا تعرف الذبول

لو كنت أستطيع

دفع الموت عن رءاك

يا رفيقنا

سكبت من دماي في دماك

لو كنت أستطيع أن ألمم النجوم

من بيادر الغيوم

وأن أمدّ مخلبي للردى . . . (١)

سلسلة متصلة من التمنيات الربيعية توصل في النهاية الى مستراح للشهيد .
وفي شهيد الدرب ، شهيد البعث عدنان المالكي (٢) كانت للشاعر وقفة أخرى
ظاھرھا التسليم بحق الموت على البشر ، وجرھھا قدرة رجال البعث خاصة على الموت
شرفاء أبطالا ، وحيثما يندفع البطل ينحسر القدر ، وليس بالأمر اليسير أن يندحر .
ولا مناص من الاعتراف بأن كمال ناصر كان أكثر تألقا وترجمة لمشاعره في قصيدته
الراثية لرفيق وأخ جمعته به رفقة البعث رائدا ، وأخوة الثورة أخا قائدا ، حتى فجعه
القضاء بالشهيد خالد الشرطي ، ولسان حاله يقول :

بين عيني وبين دمي حوار
خالد مات فليس كل عرق
سقط الفارس الجميل فضجبي
يا رفيق الدرب الطويل جراحي
خالد لا يموت يا قبضة الريح
أزلي على الأسى مدار
من عروقي وليصدع القيثار
يا ليالي وكبري يا دار
كلها فيك غضة أبكار
ولكن تشتاقه الأسفار (٣)

هذا الذويان والسيجان الشعوري الحزين قد أحدثه في القلب حدث مفعج أليم ، على أن
الشاعر جرى في قصيدته مجرى الأقدمين في نعمته الشئيد بشمائل " النبل والحصافة والفكر
والهجي والوقار والبسمة والجلال والإباء والريبع والنضال " . ليس ذلك فيه عيبا بقدر ما
هو إبراز لحقيقة لم يختلف حولها اثنان ولا عشرون ممن عرفوا الشهيد كما عرفه الشاعر . ونلج
عمق مشاعره في هذه الأبيات وقد جاء بحوار الذم الأزلي على صيغة المبالغة " مدار ،
واعتمر فواده اعتصارا بلهجة الأمر " فليس ، وليصدع ، فضجبي ، كبري " ، وبلغ منتهى
التفجع والمبالغة الممكنة في وصفه الجراح بالأبكار مذكرا إيانا بحقيقة أن أعظم صدمة تواجه
الانسان في الفاجعة الأولى في حياته .

ولسنا نرى من الوفاء بشيء أن نخفل رثاء شاعرنا لصديقه الشيخ فهد السالم الصباح
الذي عرفه انسانا كبيرا ، والانسان الكبير لا يدخل الا القلب الكبير . . . والبكاء عليه أوجع

١- قصيدة " أذاكربلدتنا القديمة " ، الأثار الشعرية ، ص ٣٢٥ .

٢- قصيدة " رسالة الشهيد " ، الأثار الشعرية ، ص ٣٠٧ .

٣- قصيدة " خالد مات " ، الأثار الشعرية ، ص ١٥٢ - ١٥٦ .

من البكاء على الدنيا واسترجاع ذكرياته العابرة استرجاع اختياري للأسى . وحسب القصيدة في بعضها أن ترينا أي صديق هو صديقه ان يقول :

لي دمعتان فيك يا صديقي
احدهما ماتت على جفوني
أذاكر أنت؟ أفوق تجديني
تجدتني الذكرى على جناح
ضللت على جراحك المعاني
كدمعة سفحتها فضاعت

شحيحتان على الأسى العميق
وغصت الأخرى أسى بريقي
ما بين عم في الأسى وضيق
يحملني في نعشك الأنيق
وأجبلت في وتري الدقيق
في غمرة البكاء والشهيق (١)

إيماناً منه في دقة التدبير عن مشاعره ، لا يتكفي الشاعر بدبارته "لي دمعتان" وفيهما من الشح ما يكفي من حيث العدد ، ولكنه يردف ذلك بقوله "شحيحتان" تعميقاً لمفهوم العجز البليغ . ومثل هذا يفعل تقسيمه للدمعتين في البيت الثاني "واحدة ماتت" و "أخرى غصت" ، فكانت الغصة مضاعفة : مرة من غصة الأسى في غمرة البكاء والشهيق ، ومرة أخرى من عرف الروي من فعل "للقاف" يضعف النفس ساعة اللفظ .

وماذا نجد شاعرنا قلباً طافحاً بالحنان لأعله والوفاء لأصدقائه ورفاق النضال يبكيهم بدموع تلبسها يديهم بديرن شمره عدداً وروناً ومحبة .

ز - المعجم اللغوي للشاعر

يتفتح الشعر على حياة الشاعر بمرورها ومهاثتها . لذا ، فإن لكل شاعر ألفاظاً وتدبيرات تدفع إنتاجه الشعري مكثراً في مجرورها ما يسمى بالمعجم اللغوي الشعري الخاص بحيث يدور الشاعر في عالمه الذي خلقه ووجد فيه راحة نفسه . فإذا ما ذكرنا شاعرنا ، ذكرنا معجماً خاصاً يوحى به ويرمز اليه وهو وليد ظروف حياته الروحية والسياسية والوطنية والنفسية والاجتماعية . فمن إيمانه السماوي برزت فكرة "الصلب" ، ومن تشرد شعبه ولدت "الخيام" ، ومن بؤسه تدفقت الدماء من "الجراح" "نكان لا بد من "البعث" الجديد متوقفاً "الوحدة" الشاملة انطلاقاً من أساس "العقد" على العدو ومشايغيه وبناء "بالثورة" المسلحة على أكتاف "الشهداء" الذين عصفت بهم "الكسبر" فأقسموا على بذل أرواحهم "للماء" لتحقيق "النصر" . هذه هي بعض ألفاظ معجم كمال الشعري التي تظالعتنا في مدغم قصائده الوطنية والسياسية والوجدانية ، بما فيها الغزل أحياناً . وتكفي الإشارة الى بعض هاتين الألفاظ من خلال ما نشر من آثاره فقط ، وما أمكن الإرجاع الى مصدره :

الصَّيْبُ : صار واضحاً في أذهاننا أن الشاعر يعتبر شعبه خليفة للمسيح في حمل الصليب لما كابد من آلام وتحمل من أوجاع . وكونه ابن ذلك الشعب ، ناطقاً بلسانه ، فإنه كان قادراً على صلب كل شيء لنراه أحياناً غالباً وأحياناً مهلوباً . صلبته جوارحه وصلبته

جريمته" (١) ثم "صلبته الأيام في نهدين رصليه قلبه في الفضاء الشريد" (٢) ، وعندما "صلبته
 هو اجسه وظنونه" (٣) فقد "علب هو مصيره مثلما صلب الأبطال مصيرهم في خاطر السلاح" (٤)
 و "صلب العدل و صلب الجمال و صلب طيارته على أرض المطار" (٥) كذلك صلب جبال
 "الكرمل في حيفا ، والناصرة بلدة المسيح" (٦) و "أمته وخيمته المدعورة" (٧) عليهما . وما
 لم يتمكن من صلبه فقد تمنّاه بعزارة في تسبيره عن ارادته "أريد لو تعبرني السياة نائرا
 فأصلب" (٨) . وفي عجزه لو كان يستطيع "أن يصلب الزهور في الحقول شبيبة لا تعرف الذيل" (٩)
 ولعل أكثر عمليتي صلب أثرتا في حياته ، تلك التي لم تتحقق الا فيما بعد وقد "صلب
 المأنون في بغداد" (١٠) والثانية تلك التي جعلته دائم الارتفاع على الصليب وقد صلبته
 "البرتقالة ما بين نحر وجيد" (١١) ، فإذا هولا حول ولا قوة . . وكان ذلك الحدث إيذانا
 بالنهاية مصلوبا تسرّه على أرض الخرفة بضع عشرات من الرصاصات . . بعض المهاجس يصدق
 ويتحقق !

الجراح : ولم تتم عملية الصلب الا مع طعن اليهود للمسيح بالخراب في جنبه وإصابته
 بجراح بليغة لعبت دورها العظيم في جعل "توما" المتشكك ذا إيمان مطلق . واستموى
 هذا المنظر شاعرنا الذي راح يؤنس الجراح بعد أن لم تكف تخلو قهيدة له من لفظة
 "صلب" بأشكالها ، حتى أن حصر تكرارها بيد وضربا من الميت .
 وراح يجسد الجراح بجعلها في كل متحرك وجماد . . أنطقها مرارا حتى لاحظ ذلك
 بنفسه يوم أخير ديوانه الأول "جراح تنخي" ، ولأول مرة كانت الجراح تنخي ، فما أغنيات
 الجراح لولا أن فيها قدرات فائقة على الارتفاع فوق مقدرة البشر العاديين من خلال الارتفاع
 فوق الآلام الثالثة ؟ عزاء عظيم أن يحس المتألم بالجميع حوله يتألمون له أو معه ، وكذلك رائع
 الإحساس بأن كل شيء حول الشاعر الجريح هو شيء أو مخلوق جريح . فمن الأشياء كان
 "الشاطي" الجريح والثرى الجريح ، حتى وللثلج جراح (١٢) وجعل "للمقل جراحا وللملاعب
 والرّبي والأزهار جراحا" (١٣) فكأنها قلوب تأسى وتدمى . وتطرق في ذهابه قائلا : "شبهوات
 الجراح وللبحر قلب وفم ، وذو صفة مكانية تضيق وتتسع" (١٤) ولكنه معق في تلوين الجراح

- ١- الآثار الشعرية ، قصيدتا "خالدات - النهاية" ، ص ١٥٥ - ٤٢٢ .
- ٢- م . ن . "أنت كأسان - عرفت يا الله" ، ص ٣٣ - ٢٢٥ .
- ٣- م . ن . "حرمان" ، ص ٢٥٠ .
- ٤- م . ن . "الي أمي - إهداء ديوان جراح تنخي" ، ص ٢٨٢ - ٢٢١ .
- ٥- م . ن . "وحشية العينين - انتظار - القرار الأخير" ، ص ٣٥٥ - ٣٧٨ - ٢٥٩ .
- ٦- م . ن . "في فلسطين" ، ص ١٧٤ .
- ٧- م . ن . "عرفت يا الله - خيبة" ، ص ٢٢٢ - ٢٠٢ .
- ٨- م . ن . "من لا مكان في الدنيا" ، ص ٤١٦ .
- ٩- م . ن . "أذا كر بلدتنا القديمة" ، ص ٢٢٦ .
- ١٠- م . ن . "يا شعبنا في العراق الأبوي" ، ص ٣٠٦ .
- ١١- م . ن . "قصة برتقالة" ، ص ٢٥٤ .
- ١٢- م . ن . "حرمان - في فلسطين - قصة برتقالة" ، ص ٢٤٩ - ١٧٤ - ٢٥٤ .
- ١٣- م . ن . "رسالة الشهيد - الأنبياء الصغار" ، ص ٣١٢ - ٣١٤ و ٣١٥ .
- ١٤- م . ن . "عودة الشاعر - جن بغداد - صراع وانتصار" ، ص ١٨٢ - ٢٥٦ - ١٦٩ .

لحياته وإحيائه هو للجراح الخضبية طالما أن ما "بين جنبه جراحات نبي" (١) وجراحه ما نثتت "تعمله بدنياها فتمزقه وهي تتشظى" (٢) وتلك هي "جراح الشباب وللجرح في دمه براعم" (٣). أو ليس من كانت كل حياته جراحا تكون "الجراحات انطلاقات" (٤) ؟ ولكي يطلع القارئ على شتى تصورات الشاعر للجراح ، نعمله الى صرخته التي أطلقها :

"عشرين عاما نضى الليل من دما
في كل نجم لنا جرح أضاناه" (٥)

وكما في الصلب ، كذلك في الجراح ، عن كليهما تحدث حلوة الروح .

الخيام : ليس للخيام مفهوم لدى من يراها الا أنها تجمع في أحشائها الفقر والبؤس والجوع والمرض . ولكن ، في نظرة ثابتة الى تلك الأضواء كما فعل الشاعر ، يراها أستارا واقية للمشجيرات التي تنمو في فيئها ولا بد لها من أن تصبح أشجارا باسقة لا تقوى رياح الشرق ولا رياح الغرب على اقتلاعها . لأجل ذلك ، كرمها شاعرنا في أكثر قصائده ورفدها الى مرتبة الإنتاج الأفضل لمعدن انساني أجود . .

"فللخيام التي أغفت على أمل
همس اذا مس من أوتارها التيبا" (٦)

لا بل جعلها ملاذ له إنسان آباء يتردد في ظلها اللاعب - رغم لهيبه - فيستريحها عذرا :

"يا خيامي أنا رجعت فهل لي
ليتني أستطيع أنثر قلبى
ساعة في حماك تطفي أوامي
بين أضلاعك العواري الدوامي" (٧)

وليته يستطيع أن يمزج دمه "بدموع مقلتيها" تعبيرا صادقا عن حبه الأبدي لها داعيا أياها الى "تمزيق أردية الذل" وأن تميد وتتبخر بجنون كاشفة عن الجيل الجديد ، بعد أن بدا نياما لكل ناظر ، حتى السيد المسيح قد استدعاه الشاعر في قوله :

"انظر هناك تر العذاب مجسدا
في خيمة مقرورة الأوتاد" (٨)

ولكن الخيمة لم تعد رمزا للموات بل رمزا لإنجاب الجيل التائر الذي . .

"مضى يشعل ما بين الخيام

ثورة العودة في دنيا الظلام

قد أفاقت بعد أن طال المنام

تتململ . . (٩)

الخيمة رمز حافظ . هي كالإنسان : قلب يخاف وفكر يحار ويدان وعينان وشاهد على أشلاء

١- الآثار الشعرية ، قصيدة "النسر الشيرعي" ، ص ٣٠٠ .

٢- م ن ، "الحنين الى الأكربول" ، ص ١٢٤ .

٣- م ن ، "الى أمي - اليوم الباكي" ، ص ٢٨٧ - ٢٩٠ .

٤- م ن ، "الشهيدة رجاء" ، ص ٣٢٨ .

٥- م ن ، "واتما هزنا في بدت أمتنا" ، ص ١٢٩ .

٦- م ن ، "جريمة الأمس" ، ص ٩٢ .

٧- م ن ، "عودة التائر - نداء الخيام" ، ص ١٨١ .

٨- م ن ، "عيسى بن مريم" ، ص ٣٤٥ .

٩- م ن ، "النسر الشيرعي" ، ص ٢٩٨ .

حكم بجان . . . " مندودة مملوكة على رحاب الزمان ، موصوبة وعيناها الى السماء شاخصتان (١)
أراد الشاعر استنطاقها فشرقت بالدمع وعسى البيان اللسان . وتطلع في عيني لاجئة فرأينا
" نيتين ترويان أسطورة الضياح رحيبتين للذئاب . . . للصراع . . . للرياح " (٢) فأيقن أن الضيلم ،
وإن نسجت من شعر البهيم ، إنما هي رحم الطبيعة المتهمي ، لولادة عجائبية ، وستظل ؛
" خياما ستقف باللاجئين الى موعد مقبل منتظر
خياما تدلنا أن نظل قلبا تجمد فيها الحجر
خياما تذكّرنا بالصحايا ، تشير لسنى الحياة
تشير الى بدننا . . . " (٣)

وخيام كهذه ، تستحق من الشاعر أوزانه الفخمة من " بسيط الى خفيف " وتستحق انطلاقاته
الحرة مثلما تشظيراته ذات الصور الجميلة قاءلا :

عيناك خيمتان ترويان	أسطورة الضياح في الزمان . . .
عيناك خيمتان للذئاب	تطلّ منهما رؤى المصاب . . .
عيناك خيمتان للصراع	مخموستان في دم الجياح . . .
عيناك خيمتان للرياح	تذكربان في ذرا الكفاح " (٤)

الشعب ، الشهيد ، الكبرياء ، والوحدة (٥) ومتى ذكرت الخيام ، ذكر الشعب المتطلمل والمجاهد
وصانع التاريخ المشرق الجديد في وحدة كبرى تلمّ شعث الشعب وتحقق الانتصار . لذلك
تكاثرت هذه المفردات في شعر كمال الذي عاش بالشعب وللشعب وبالثورة وللثورة . وكما رأينا
المتزما بشعبه وتضحيته ، فمن الطبيعي أن تدور قصائده في فلك التزامه قولاً وعملاً ولا سيما
في إكباره للأبطال هائلي التاريخ وبوجه خاصّ للشهداء الذين سقطوا وقود الانبعاث
ثورة الصباح . الشهداء الأبطال يمثلون قمة الصفوان والكبرياء لدى الشعب ؛ فحيثما تنادي
الرجال ، كان الكبر نشيدهم السماوي . وسيثما سجن مناضل ، كان كبرياؤه اختراقاً لهواجز
الظلام . وشاعرنا لم يبن يوماً ، لا في الفضال ولا في حياته الخاصة لأن الكبريسري في دمه
سريان الثورة وتدقّو الدماء في الشرايين .

البحر = : ما أكثر ما ردد شاعرنا هذه اللفظة في قصائده وفي مرحلة مهيّنة من نضاله
وشاعريته الى حدّ أن أطلق على "أنشودة" (٦) له في اربعة عشر نشيداً - قصيدة نضالية ضد
الاستعمار الجاثم على الصدر العربي ، أطلق عليها اسم "أنشودة الحقد" وقد تظّف أحدهم
ندعانا "أنشودة النار" . الا أنّنا نرى هنا أن نبيّن مدى اعتماد الشاعر فيها على لفظة

- ١- من معاني قصيدة "خيمة" ، الاثار الشعرية ، ص ٢٠٢ .
- ١- من معاني قصيدة "اللجنة" ، الاثار الشعرية ، ص ٢٦٦ .
- ٢- قصيدة "انتفاضة الخيام" ، الاثار الشعرية ، ص ٨١ .
- ٤- قصيدة "اللجنة" ، ص ٢٦٦ - ٢٦٧ .
- ٥- يفتن المكان عن شواهد تشمل هذه المفردات ، إنما لكثرتها الظاهرة ، يمكن لأي قارئ
لآثاره الشعرية أن يلاحظها بوضوح متكررة في معظم قصائده المنشورة حتى وغير المنشورة .
- ٦- يعنن الرجوع اليها في "آثاره الشعرية" ، ص ١٥٢ - ١١٨ .

"العقد" بالذات بكل ما تحمل من مشاعرهما التي صبغت الملحمة نشيدا نشيدا وقد وردت
 نحو إلى أربع وثلاثين مرة. وهذا جعل اهتمامنا ينصب عليه ظاهرة تستحق الإيضاح والتبرير.
 قد تكون بررت نفسها، فما الحاجة إلى ذلك وقد عرفناه بعثيا من مطلع حياته حتى
 استشهاد في إطار مهمته الرسمية في الثورة الفلسطينية، لم يكن قد تغلّى عن مبادئ
 البعث، وكيف يتغلّى عن طريق سار عليها رداً طويلاً وبخاعة أن في الثورة الكثير ممّا
 فيها... فقد تمّ بعض التزاوج الفكري.

البعث: حسبنا إذن، القول بأنه أخذ لفظة "البعث" وأمعن في تصريفها بشتى الوجوه
 ثم قدّمنا في عيرن قصائده فوشحتها، فما علينا للمتعمّق ممّا نقول إلا أن نجرى عملية
 إحصائية على قصيدتين له مما نشر - عدا ما لم ينشر وفيه الأثير - ففي قصيدته "وإنما همزنا
 في بعث أمّتنا... (١) ترد لفظة "البعث" هكذا ومصرّفة أربع عشرة مرة على امتداد خمسة
 وثمانين بيتا هي قوام القصيدة. وفي قصيدته الأخرى "وسيبقى البعث الأصيل" (٢) ترد
 إحدى وعشرين مرة في مئة ورواعد وثلاثين بيتا، أي بمعدّل كلمة واحدة في كلّ ستة
 أبيات... وهذه ظاهرة لم تتكرر في مطلق كلمة أخرى من ألفاظ معجمه اللغوي الشعري.
 نقول: إن المعجم اللغوي لشاعرنا - تسديدا - هو عالم خاص قائم بذاته،
 وانسان يدبر عن نفسه وعالمه بطريقتين: أولى خطط لها في وعيه، وثانية لم يدرك بها
 رهي التي تطبده بطابع القويّة وتصبغه بصبغة الالتزام الكليّ فكرا وعملا كالسائح في بحر
 إن يشرب منه فماء ملحا، وإن في غد يرعذب نماء عذبا.

ح - محارلة نقد وتفسير

تعددت آراء الشعراء والنقاد، تدامى ومحدثين، وتفاوتت وتضاربت حول نظرتهم
 إلى الشكل والمضمون في الشعر أي ما يسمى اللفظ والمعنى.
 التكامل شرط أساسي بين اللفظ ومعناه لكيلا ينساق وراء مجادلات حول دقة اللفظ
 وعسن قيامه بالمهمة أوفى قيام، وكذالك نتوقف باهتمام غير مجد أمام من قالوا بأن المعاني
 سوقية مطروحة على قارعة الطريق والشأن للفظ وعده. لذا يكون التبريد في اللفظ مثلما
 في المعنى سراء بسواء، ولا يكفي في واحد دون الآخر لكيلا ينتقصر من الجودة والإبداع.
 وقد ذهب شاعرنا كمال ناصر إلى هذا في تكريمه للأخطل الصغير بقوله في امرته:
 "وجد يد في القول برعم شعرا
 لا نحيب على الطلول ولكن
 قد سيات كرمت فيه الهدى
 غضبة للوجود تمحو الطلولا" (٣)

حيث جعل للتبريد في المعنى هالة مقدّسة مع احتفاظه المسبق بحق التبريد في الشكل
 من جهة أنه حاول ذلك كما رأينا من قبل، وكما سنرى على صعيد الشكل والمعنى فيما بعد.

١- الآثار الشعرية، ص ١٢٨.

٢- ص ١٣٤.

٣- قصيدة "يا رسول الجمال" ص ١٤٢.

أولاً : ما عليه

كون كمال ناصر شاعراً عربيّ الثقافة منذ جذور الجاهلية حتى امتداد العصور الى الحاضر ، لم يستطع أن يكون منقطعاً عن ثبات الجدور لتثبيت أركانه ، ولا منغلقة عن خيلاء النصوص لمدّ أغصانه . شعراء أثروا فيه أو داروا في فلك بعض معانيهم دوران المشدوه بجمال الصنعة والابداع . وشعراء تأثروا بهم في فتوتهم المقدم الى جانب شاعريتهم ذات العنفوان ، فكان له في بعضهم مثل عليا يطمح للارتقاء الى عليائها .

تقليد : وفيه منه أو لا وفيه ، راح يدخل عالمهم في عالمه الشعريّ لنلمح التقليد في قوله :

تفطرت أكبداً واستنزفت تعباً (١)

"لولا العلى لم يسئل جرحي ولا كبدي

كقول المتنبّي :

وجنأ حرف ولا جرداً قيدود (٢)

"لولا العلى لم تجب بي ما أجوب به

وفي قول كمال :

أصبحوا للغريب من عبدانته
احتمال الأذى ولثم بنانه (٣)

"ما أضاع البلاد الا طاعة

كلهم مجرم ، ومن نكد الدعر

عدواً له ما من صداقته بد (٤)

تراه ستاء من التزلف الى الحكام في موقف حين استياء المتنبّي في مثل موقفه :

"ومن نكد الدنيا على الحرّ أن يرى

وليس غريباً أن يرى كمال ناصر نفسه في مواقف شبيهة بالتي كانت للمتنبّي رمز الشباب النائر على واقع الحكام الفاسدين ، والطامح الى ثورة اصلاح عارمة يتمنى قيادتها بنفسه . هذا جعل شاعرنا يعتبر نفسه جزءاً من المتنبّي نفسه ، ولا يجد أبلغ من قوله في تحديّ البطل للموت وانتصاره :

لم يطش سهمك اللئيم الخادر

"أيها الموت تبه علينا وفاخر

ليتحّد ان رابط الجأش نائر
بتّ تلقاه خاشع الطرف حاسر (٥)

كم تحاشيت أن تراه فألوى

كم سعى في مجالك العنصب حتى

كقول المتنبّي :

كأنت في جفن الردى وهونائم

"وقفت وما في الموت شك لواقف

ووجهك وضاح وشغرك باسم (٦)

تمرّ بك الأبطال كلمى عزيزة

فالأول ، وإن قتل الموت بطله ، فما تمّ له ذلك الا بعد أن أذله البطل أشدّ الإذلال

١- قصيدة "جريمة الأوس" ، الاثار الشعرية ، ص ٩٤ .

٢- المتنبّي . ديوانه ، ج ٢ ، ص ١٤٠ .

٣- قصيدة "الزعامات والشعب والطغين" ، الاثار الشعرية ، ص ٦١ .

٤- المتنبّي . ديوانه ، ٢ : ٩٣ .

٥- قصيدة "مصر البطل" ، الاثار الشعرية ، ص ٥٥ .

٦- المتنبّي . ديوانه ، ٤ : ١٠١ - ١٠٢ .

هتّى بات يخشاه الموت ويترصّبه ترصص الأفعى الجبابة للمارد في فيء جحر حقير . ووجه
الشبه واضح بين " موت البطل " وبين " أبطال " المتبّي الذين يمثلهم سيف الدولة المتحدّي
للموت نفسه منتصرا عليه .

ولشاعرنا أيضا التفاتة الى قول عنتره الشيبير :

" لا تسقني كأس الحياة بذلّة
فجهنّم بالحرّ أطيّب منزل "

وذلك في قوله :

" فأسمع صوت الغيب يهتف في دمي
واقتداء بشوتي شاعر " العقيدة والجهاد " قائلا في " باب الحرّية الحمراء " الذي لا يدق
الآ بأيد مضرّجة " . قال كمال ناصر :

" فنظّم صفوف الشعب ، نظم سبيله
ندقّ به باب الحياة عتيّدة
على هدف واع وحريّة حمرا
ونلهب في أرجاءها العقل والفكر " (٢)

كان ذلك اقتداءً بالبنوة بأبوة أحمد شوقي في مطلع حياته الادبية ، كما أنّ ابراهيم طوقان
في قصيدته " الفدائي " (٣) حفرت بعض تعبيراته الجديدة آثارا لها في مشاعر كثيرين ومنهم
شاعرنا القائل :

" روحه فوق كفه
تحمل الثأر والعدم " (٤)

وهي عملية تلوين لنظري لمعنى طوقان في تلك القصيدة :

" لا تسل عن سلامته
روحه فوق راحتته "

يتم كان معنى طوقان جديدا ورائدا .

وفي وهج الثورة ، لم يذنب مذهب شاعر الرومانتيكية علي محمود طه المهندس في

قصيدته المخنّاة ، بل عارضه في رومانتيكية نائرة تجلّت بتوله :

" بما عمو النيل دمنة الله في المصحور
لم تشب فوقه الليالي ولكن
وجبال العلى به لم تضئح
عمرها واكتست بعمر مديد " (٥)

بنى قولاً على قول المهندس " شابت على أرضه الليالي وضئعت عمرها الجبال " ، ولكن

بناءً كمالاً لنا يتسبب تينة جمالية أرفع لما يدخل من معنى بديع مبتدع وقت أن " مادّات الأرض

به " كما " مادّات الأرض أم زالت رواسيها ! " بالشاعر المهمل عند ما " نصّ النعاة اليه كلييا " .

وتصرّح شاعرنا للجزّة نفسها ولشعور مماثل في قوله راثيا رفيق نضاله العقائدي خالد اليرطبي :

" سألتني السماء : هل مادّات الأرض
يا رفيق الدرب الطويل ، جراحى
وغابت من أفقنا الأعمار ؟
كلها فيك غصة أبكار " (٦)

١- قصيدة " العودة الكبرى " ، الاثار الشعرية ، ص ٢٠ .

٢- نفسها ، ص ٦٨ .

٣- ابراهيم طوقان ، ديوانه ، ص ٩٤ .

٤- قصيدة " اللقيطة " ، الاثار الشعرية ، ص ١٨٨ .

٥- قصيدة " الثورة " ، ص ٢٠٢ ، الاثار الشعرية ، ص ٢٠٢ .

٦- قصيدة " خالد مات " ، الاثار الشعرية ، ص ١٥٤ - ١٥٦ .

فاجتمع التقليد الرائع بإبداع أروع من استلهم الشاعر التراث القيم والتخدي الروحي
به مثلما فعل في احدى قصائد غزله (١) لَمَّا أن صرعته عيناها لأنهما :
"مكحولة في طرفها حور المها
فنانة تسموعن الإدرا"

ملتقيا في تشبيهه بقول جرير الشهير :

"ان العيون التي في طرفها حور
قتلنا ثم لم يحيين قتالنا"

عند الأوصاف المنسوسة تتشابه مشاعر وأحاسيس عديدة ، والشاعر المبدع هو من
يرتقي فوق الحسيات غالبا وإن كانت تشده اليها بصورها الجميلة ، وبحيث قد يصلح في
خيالاته بواقع علم لم يتحقق فيضطر للعودة الى الواقع . والواقع عندئذ واقع تحت العواس
وقوعا حميما .

تظل عملية التنقيب عن ترويض ما قيل من قبل الشاعر في ما يمكن أن يكون عريحا
أو سوء ولا ، تظل عملية مضمية مضمية للذة البحث الأدبي ، الى تسقط الأخطاء بما فيه
غالبا من إجحاف لأنه لا بد لأي إنسان في الكون من أن يتأثر بأحد غيره إن لم يكن علنا
نفس الخفاء . وهذا التأثر في خفائه يجب أن لا يرفع صاحبه أكثر مما يرفعه التأثر المدلس
عند ما يفكر المتأثر بصوت مسموع مكتوب . ليس لأن الإقرار أو إبداء مواطن التأثر هو فضيلة
صدق ، وإنما لأن الإخفاء هو من باب الأدعاء والتشوف . لذلك ، فنحن لا نخمط شاعرنا
حقه في التأثر وخافة أن مواطنه قليلة نسبيا ، وليس تأثره بنسر عمر أبي ريشة (٢) الا من
قبيل الإعجاب بالفكرة وبما في النسر من مزايا شبيهة بمزاياه ، أو العكس ، على أنه لم
ينزله الى الحضيض مثلما فعل "عمر" . قال كمال :

"جراحي استفيقي ، فإن جرح النسر

ظل جريحا بأعلى القمم

وإن غاله الموت ، مات على أفته

ومنقاره راعش بالشَّم (٣)

أخطاء لغوية : يقع الشاعر أحيانا في فجوات مفاجئة لا تنجيه منها الغفلة وقد لا تنجيه
اليتظة أن دهمته الفكرة الجميلة البكر متدرجة نحو الروعة . وهكذا كانت لكمال أخطاء لغوية
مختلفة وقليلة ، لكنه لم يجد نبيها عن مثلها عند قدامى ومحدثين . قال في قصيدته
"وسيبقى البحث الأصيل" (٤)

قاتل في انطلاقنا أو قتيلا

وأشد وفي عيده وأطيل

"عبثوا طاعة المسير نمسي

أتحبون أن أغرد للبعث

فلماذا لم ينصب "قاتل أو قتيلا" بعد "نمي" ؟ واستدراكا لرد التسكين الأخير ، فإن
القصيدة مضمومة الروي أصلا ، فلماذا لم ينصب الفعل "أطيل" المعطوف على "أغرد المنصوب

- ١- قصيدة "النجربة العسنا" ، الآثار الشعرية ، ص ٣١ .
- ٢- قصيدة "نسر" لأبي ريشة . ديوانه (بيروت) دار العروة ، ط ١ / ١٩٧١ ، ص ١٥٨ .
- ٣- قصيدة "النم" ، الآثار الشعرية ، ص ٣٧٣ .
- ٤- الآثار الشعرية ، ص ١٢٤ .

بعد " أن ؟

وفي قصيدته " لحظة ظمأ الى دنيا الأطفال " (١) قال :

" وتطيلين نظرة لحطامي
في فضول كأنما تعرفيني "

حيث حذف نون الفعل من " تعرفين " بدون ناصب أو جازم ، مكتفياً بنون الوقاية .

وفي قصيدته " من وحي الوحدة " (٢) قال :

" لمصرنا والشام منها جناح
وللعلى والمجد هنا جناح "

وقد سکن " جناح " الأولى على غرار " جناح " الأخيرة المسكنة الروي كسائر القصيدة ؛

فالخطأ في تسكين الأولى مع أنها ليست " تصريداً " لأن البيت ليس مطلقاً للقصيدة .

وقال في قصيدته " جرح بنداد " (٣) :

" اصمدي ينهارُ صرح باطل
وسيهوي من علاه التسم "

فلم يجزم " ينهار " الواقعة جواباً للطلب بعد فعل الأمر " اصمدي " مع أنه أصاب الجزم

في بيت آخر من هذه القصيدة ، وهو :

" اصمدي بنداد تصمدُ فكرة "

فجزم جواب الطلب " تصمدُ " على الوجه الصحيح لأنها لو حرّكت لانكسر الوزن " الخفيف "

لعله الوزن الذي جعله يستسيح الخطأ مخرجاً من أن البديل لذلك أيسر فيما لو قال :

" اصمدي يندك صرح باطل " فلا انكسار ولا زهابٌ معنى . المخرج الأخير هو أنه مد

المحرّكة عند الحاجة كونه شاعراً - يجوز له ما لا يجوز لغيره - لأن مثل هذا فعل في

قصيدته " رباه " (٤) :

" فانظر الينا تری
أعراضنا تشتري "

أما في قصيدته " التفاحة المحرّمة " (٥) فقد نادى الضمير على غير المألوف حين قال :

" يا أنت ، يا عذراء ، يا كفة البشر "

وما يشبه ذلك ، فعل في قصيدته " من الأعماق " (٦) قائلاً :

" طليق كأنك على كمال ثغر
تدلين بالفن بين الكعاب "

حيث جرّ الضمير بكاف التشبيه ، وهذا لا يجوز (٧) ، إلا أنه في الحالتين يحبب الينا

الإخراج لما يتمتع به من موسيقية عذبة مستحبة ، ولا سيما وهو ينادي بعد ذلك ظرف

الزمان " يا أين ؟ أين في ؟ " (٨) وقد جدّ الوزن في أثر حرف النداء ليستقيم ويرحم في

موسيقى البيت عامّة .

١- الآثار الشعرية ، ص ١١٧ .

٢- نفسها ، ص ٢٤٧ .

٣- م ٠ ن ٠ ، ص ٢٥٨ .

٤- م ٠ ن ٠ ، ص ٣٥٨ .

٥- م ٠ ن ٠ ، ص ٢٣١ .

٦- م ٠ ن ٠ ، ص ٢٤٩ .

٧- أثناء لقائي بالذكور إحسان عبّاس يوم ٢٤ / ٤ / ١٩٧٨ ، أنضى التي بعدم الجواز

هذا حتى وإن كان موجوداً في بعض الشعر العربي .

٨- في قصيدته " عيسى بن مريم " ، الآثار الشعرية ، ص ٢٤٣ .

وتذ لك لا يجوز له أن يقول :

«يا نبي الآلام في ثورة المجد
خلقنا اليك ديننا مباحا» (١)

لأن الصحيح "خلقنا لك" ولا يجوز غير هذا وزن يطلب أن يستقيم .

وأخيرا - كما يبدو - يظل قوله في قصيدته "رباه" (٢) :

"هذي بلاد مرقتهما الممن
جبارة هانت بكفن الزمن"

أخطأ في تسكين قلب "كفن" وقد وردت في لسان العرب ، مادة "كفَنَ" بالفتح : الكفن ،

معروف . ابن الاعرابي : الكفن : التغطية . قال أبو منصور : ومنه سمي كفن الميت لأنه

يستره . والكفن : غزل السوف .

يتضح إذن ، أن "كفن" الساكنة القلب قد استعملت للمصدر وليس للمادة ، بينما أرادها

شاعرنا ساكنة خلافاً للسان . مما يجوز للشاعر أن يحرر الساكن في آخر البيت كقوله :

النهر يدل النهر ، والعمر بدل العمر .

كانت تلك أخطاء أو سقطات يدخل فيها عامل السهو وغيبة الحضور الملائم . ولكننا

الآن حيال ماخذ أوضح أثرا تستوجب وعيا أوضح حضورا .

تكرار القافية : من ذلك تكراره المريح لكلمة القافية أكثر من مرة في أكثر من بيت في

قصيدة وأكثر من قصيدة . وحسبنا هنا تبيانها من خلال المنشور فقط من آثاره . ففي قصيدته

"السودة الكبرى" يكرر (حرت) في آخريتين صفحة ٦٤ و ٦٥ ، حتى وإن كانت الأولى -

لمؤاخرتها (مشدوغة) أراد بها (حيرى) فإنها أيضا متكررة صفحة ٦٧ . وفي القصيدة

نفسها تكررت (السرا) صفحة ٦٨ و ٦٩ . إلا أن تكراره الوعيد لكلمة (كبت) صفحة ١٢٤

نفسها في قصيدة "البعث والأيام والموت" ليس بتكرار ملفت بقدر ما هو تسقط نترق عنه ، بينما

لا نتغاضى عن تكراره الممل في قصيدته "وسيبقى البعث الأصيل" وكلمات القوافي هي :

(تطول) صفحة ١٣٤ و ١٣٥ . (البديل) ١٢٤ و ١٣٧ . (المستحيل) ١٣٤ و ١٤١ .

(يسيل) ١٣٤ و ١٣٦ . (قتيل + أثير البيت) ١٣٤ و ١٣٦ . (نبيل) ١٣٥ و ١٣٩ .

(الأصول) ١٣٥ و ١٣٨ . (ظليل + أثير البيت) ١٣٧ و ١٣٩ . (السيول) ١٣٧ و

١٤٠ . والأبيات (٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١١) صفحة ١٣٧ تتكرر نفسها الأرقام (٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧)

نفي الصفحة ١٣٩ ، وقد كان بإمكانه حذف الأبيات (٤ ، ٥ ، ٦) وإلحاق ٧ ب ٣ مباشرة

صفحة ١٣٩ نفسها فلا يحدث التدرار الكلي في القصيدة . وتفصيل ذلك :

خاب فيها الرجاء والتأميل

هان ذللاً كأنه أيلول

ليس يجدي الترقيع والتفصيل

وحدة روحها المدى والشمول

جسدته المنى وظل ظليل

(١) قد دعا الوحدة الكريمة لكن

(٢) قل لنيسان كيف عزت روه

(٣) وهجوا دونه شروطاً ولكن

(٤) غير أننا لو أجهضوا كل يوم

(٥) فهي في أرضنا الجريح وجرد

١- قصيدة "عيران وانتصار" ، الآثار الشعرية ، ص ١٦٧ .

٢- قصيدة "رباه" ، الآثار الشعرية ، ص ٣٥٨ .

(٦) ما علينا لو شوّهوا من سناها

فكأن الأفراد عنها البديل
وسيبقى البعث الأصيل الأصيل

(٧) فبذور الحياة تكمن فينا

موجز القول : ضرورة حذف (٤ ، ٥ ، ٦) لأنها مكررة في صفحة سابقة ، ولأنها
كذلك "ترقي" فعلي وحشو ، إذ يمكن قراءة (١ + ٢ + ٣ + ٧ مباشرة) بحيث يكون
للأخير متصل طبيعي بما قبله .

ثم قصيدة "في رحاب الجزائر" تكررت قافية (البشائر) صفحة ١٩٥ و ١٩٨ .
(الكواثر) ١٩٦ و ١٩٧ و ١٩٨ . وكذلك في قصيدة "الثورة" مصر "كّر كلمات :
(الوجود) ٢٠٣ و ٢٠٤ ثم (الوليد) ٢٠٢ و ٢٠٥ وأخيراً (ورود) ٢٠٤ و ٢٠٥ .
أما بعد ، فالتكرار أمر غير مرغوب به وهيف ثقيل يطرق المنافذ الخلفية لبيوت الشعر
فحينما يدخل وحينما يكون الشاعر الحارس مرهوب الجانب حصين البناء .

ومن حيث العمارة معنى ومبنى ، فلنا على الشاعر ماخذ إن أصبنا في بعضها
بيننا الصواب ، وإن لم نصب بيننا رفعة الصواب عند الشاعر ، وفي كلتا الحالتين
خدمة واجبة .

ضعف وتناقض في المعاني / : نتوقف أولاً عند إتيان الشاعر بمعنيين متناقضين تماماً من
حيث المبدأ . ففي قصيدته "يا شعبنا في العراق الأبّي" (١) قال :

موعدنا على الردى يعرسي

"يا شعبنا في العراق الأبّي

وكان قال في قصيدة سابقة (٢) :

أجوف الوقع يعرسي الوعود

"ربّ طبل أسمع الدهر صوتها

فاختلف الأمر بين الموعد والوعد "يعرسيًا" وتناقض مع أن الوضع "يعرسي" لم يتغير منذ
نكبة فلسطين الى ما قبل ثورة ١٩٥٨ في العراق ، إلا اذا كان الشاعر يكشف عن رؤيته
لتحوّلات جديدة ببناءة . ستطراً على الوضع فتقلع من الوعد الأجوف الى الموعد الخصب بالنضال ؛
حتى في تفكيره بهذا ، كان ممكناً تحاشي اللفظة الخاعة بصورة سابقة مظلمة .

وفي قصيدته "إلى أمير الشعراء" (٣) قال :

زمر القوافي من الإعياء والألم

"مات البيان وذل الفن واضطرت

فنحن لا نعرف أن الشيء اذا عبي وتألم ، اضطرم أي توقد اشتعالاً ، والاضطرام يكون من
شدة الحماس لا من فرط الفتور . وكذلك في قصيدة دينية له غير منشورة (٤) قال :

أنا أخشى أن تغوري وتميدي

"يا بلادي ، والأسى يخمرها

نسأل الشاعر : لماذا قدّم "تغوري" على "تميدي" مع أن الحركة الثانية تسبق طبيعياً

الحركة الأولى ؟

١- الآثار الشعرية ، ص ٣٠٥ ، نظمت في الخمسينات .

٢- قصيدة "لنم باب الدمود" ، الآثار الشعرية ، ص ٥٨ . نظمت في الأربعينات .

٣- قصيدة لكامل ، غير منشورة . في محفوظات مركز الأبحاث الفلسطينية - بيروت .

٤- لدن ، ومطلعها : "يا جراحات الهوى سيلبي عن يدي وانزني فوق شقائي وقهودي" .

ويلجأ كمال أحيانا الى ألفاظ ومكان جاثية للطبع عندما تدهمه القافية كما
في قصيدته "الصنم" (١) حيث قال:

"وكتت على صدر أمين
شهتي حنين ، ومعنى نمين . . .
فقلبك أضحى مريضا رخيما بدين
ولي في خيالك ألف جنين"

فهل أراد القول "شهتي حنون" ؟ وما الذي استدعى "نمين" غير القافية النونية مثلما
استدعتها "بدين" نابعيك عن انتفاء شاعرية اللفظة ؟ إن ما يجعلنا نتساءل بهذا الأسلوب
هو إجادته التصوير والتعبير في القصيدة ككل ولا سيما قوله : "ولي في خيالك ألف جنين".

فلا يجوز أن يتصل بياض النهار مباشرة بسواد الليل . وفي موضع آخر قال كمال :

"وعندما ينتهي الأفراد ، لا صنم
مقدس ، أو زعيم ليس إله" (٢)
فليس مأخذنا هنا على قوله "إله" على غرار "ليس إلاك يا علي همام" ، بل على زيادته
"ليس" حشواً مقيتا في البيت تاركا للمعنى أن يضطرب أكثر من المبنى ، لا بل نقف الى
بنايه حتى في ما نعتبره مبالغة ان قال :

"وغدت دموع العين تجرح مقلتي
فكأنما سيف بجفني أغمدا" (٣)

فندتبر تجريح العين بالدمع أمرا مدفولا تخيلا ، ولكنها مبالغة متطرفة تشبيهه الدمع في
المقلة بسيف تحت الجفن . لا غرو ، فشاعرنا - الكتاب المنقوش يقروءه كل من يتطلع فيه -
غالبا ما يفكر بصوت عال وإن خالف التفكير أصول المنطق عندما "داس فوق ظله" في خرائب
مدينة الأموات (٤) فالمخالفة سابقة في مدينة ماتت بأكملها ، وتفكيره ذاك مردّه الى طفولته
المستمرّة والمستمدّة من طفولة حافلة بذكريات عذبة . .

"وأمتطي حمارتي الشقراء في دارتهم أسابق الفرسان
وقطة جريحة ، عرفتها في سالف الأزمان" (٥)

من أجمل سرور الطفولة ، ينقلها الى عالمه الجديد ، فحمارته الشقراء وقطته الجريحة تدخلان
عالم شعره من باب خياله المتذكر مثلما دخلت ألفاظ أخرى إمّا إسفافاً كقوله :

"كأنني تحبة في كف قواد
حطت على دربها في غير ميعاد" (٦)

وإمّا رغبة فاحشة بالأمانة في نقل الوقائع مؤكداً في الموضع نفسه أن "باريس أقبية وبار"
حيث استعمل كلمة اعجمية أدقّ تعبيرا وأصدق تصويراً وأقرب تقبلاً . وذهابنا الى الاستعمال

-
- ١- الآثار الشعرية ، ص ٢٧٠ .
 - ٢- قصيدة "وإنما هزنا في بحث أمتنا" ، الآثار الشعرية ، ص ١٣٢ .
 - ٣- قصيدة "فقد سهيل" ، الآثار الشعرية ، ص ٤٦ .
 - ٤- قصيدة "الغزو الأخضر" ، الآثار الشعرية ، ص ٤٠٣ .
 - ٥- قصيدة "المتحف الكبير" ، الآثار الشعرية ، ص ٢٩٥ .
 - ٦- قصيدة "الميلاد" ، الآثار الشعرية ، ص ١٩ .

هذا ، مع ندرته ، يجدد فتح أعيننا على حيوية لغتنا في إجادتها فنين متناقضين تماما
عما اللفظ والامتصاص من عالم اللغات الأخرى .

يقع شاعرنا أحيانا في هدف التصوير مصطبغا بالعادة المألوف غير النابض بأنفاس
جديدة تنعش أجواءه . ولسنا نرى له مخرجا ، وخاصة اذا وقع هذا الخلل في أحد أعظم
موضوعات قصائده . . . تمجيد البطولة :

عانقيه ، ورخي بالزائر
عانقيه ، فذاك عبد القادر (١)

" زارك اليوم فارس عربي
زارك اليوم فارس عربي

وليته أعار اعتما ما أكبر فحذف ما يغني عنه سواه وقال :

عانقيه ، فذاك عبد القادر -
- زارك اليوم فارس عربي

لأن العناق " يغني عن " الترحيب " ويخرج من التكرار . وفي القصيدة نفسها يقول :

" هيه يا موت ! أين أنت ! فلبت
عصبة الموت من وراء المحاجر "

ففي عرفنا " المحاجر " موضع في الوجه لا يمكن أن يأتي شيء من ورائه ؛ حتى اذا كان
يقصد " العيون " من وراء وضعة " المحاجر " بين شولتين .

ومن المألوف في معانيه قوله :

" قد جاع تاريخ الأولي

فتحرروا بين الملا

واستعظموا بين الأنام

وتفيموا معنى الصيام " (٢)

على الرغم من أن القصيدة ككل جميلة وفق الشاعر في بنائها وصورها الى حد بعيد ، ولكن
في هذه الأسطر منها ثغرة باهتة التصوير . كذلك خانته المعاني فجاءت عادة مألوفة
باردة في قصيدة يفترض أن تتدفق حماسا وحنفوانا . ولا سيما أنه يخاطب شعبا يأمل منه
الثورة سبيلا الى التحرر .

هذا يقودنا الى عشرة له في قصيدة من الغزل الرقيق (٣) باستثناء المقطع الثاني

منها ، وفيه :

" أحبك مثلما أنت . . فلا تتغيري أبدا

رأيتك فاستشاط الوجد في جنبي واتقدا

وجئت عبر آفاتي روائي ، ومزقت بـددا

أحبك مثلما أنت . . فلا تتغيري أبدا

أخاف اذا تغيرت سلاني الحب وابتعدا " (٤)

١- قصيدة " مصرع البطل " ، الاثار الشعرية ، ص ٥٥ .

٢- قصيدة " صرخة الخيام " ، الاثار الشعرية ، ص ٧٦ .

٣- قصيدة " وحشية العينين " ، الاثار الشعرية ، ص ٣٥٥ .

٤- نفسها ، ص ٣٥٦ .

وهذا المقطع يبد وغريباً عن القصيدة؛ إن من حيث البناء الشعري، فهو موزون مقفى ونسيج وحده. وإن من حيث العاطفة العامة في القصيدة وهي عاطفة باردة هنا في قالب عادي لا أثر للإبداع في نسجه على الرغم من أن هذا المقطع يتوسط القصيدة. وفي موضع آخر يطالعنا قوله:

"ويضحّ قلبي بالوجيب"
سحقاً لذّيكَ الوجيب"
هيهات لو صمت الوجيب"^(١)

ففي التكرار ابتدال ما كان أغنى الشاعر عنه، بل أنه في

.. لا"

لن يموت أنبياءنا الصغار
ولن يذلّ أنبياءنا الصغار
ولن يهون أنبياءنا الصغار"^(٢)
ما كان أجمله لو تحاشى التكرار فقال:
- ولن يذلّ أو يهونَ
أنبياءنا الصغار-

وظلّ الوزن مستقيماً كما كان.

نتبين من هذا، أن اللفظة لم يكن لها حساب دقيق عند كمال في بعض الأحيان مما دفع المحقق لآثاره الشعرية إلى حذف بيت أو سطر أو تبديل كلمة أو عبارة بما يخدم القصيدة عامة. وهذا واضح لكل من يقارن بعض أصول قصائده رجوعاً إليها منشورة.^(٣) وحسبنا الآن أن نشير إلى بعض الشواهد على مذهبنا، من المحقق أولاً ثم من الشاعر:

(١) "فهني أحنى عليه منّا وأولسى
تتحقّى به، وتدرى خلوده"^(٤)

كان يسقي بحبّه وبيداري
وقدا قد يموت^(٥) واضيعة المجد

وكان كمال قد كتب: (تتعري له) بدلاً من (تتحقّى به) و (يشقى) بدلاً من (يسقي).

و (يبدو) بدلاً من (يظهر). كما أن المحقق حذف هذين البيتين من الأصل وقد كان الأول بعد البيت (وظفرنا ٠٠٠) والثاني بعد (لم تكن ثورة الجياح ٠٠٠)، والبيتان هما:

"كان سلماً في الببال لا يزعجنا
وعبدناه في العلى، وقد يمّا"

١- قصيدة "حقير"، الآثار الشعرية، ص ٢٧٧.

٢- قصيدة "الانبياء الصغار"، الآثار الشعرية، ص ٣١٢.

٣- نظرة إلى قصيدته "التجربة الأولى" في آثاره المنشورة، ص ٢٦٨، وأخرى إليها بخط الشاعر في الأصل، نتبين مدى لامبالاة الشاعر من جهة توفيقه في اختيار الالفاظ الملائمة والأدق، فكان الدكتور إحسان عباس يتدخل أثناء التحقيق، حاذفاً الهنات دافعاً الكبوات. وكذلك "عيسى بن مريم"، ص ٣٤٢ مقارنة بها في صحيفة قديمة بلا اسم

تمكن مطالعتها في مركز الأبحاث الفلسطينية - بيروت.

٤- قصيدة "الثائر القائد"، الآثار الشعرية، ص ١١٨.

تتلوّى بالتأرّفي كل غمد^(١)

(٢) "الأما ني البيضاء منّا أطلّت

وكانت عند كمال في الأهل : "السيوف الحمراء"

(٢) "تسمرت في الأرض ظلّاً عنيداً

تعدّ بني قبضة لا تعفّ

وأعري فيسقط عني قميص

لتفنّ الروى البيض عبر السما

يقود خطاي فيزهو المكان

وقد كانت عند كمال : (سيفاً) بدلاً من (ظللاً) . و (تسمرتي) بدلاً من (وترت على) . و (تذغذغني) بدلاً من (تعدّ بني) . و (أبّي) بدلاً من (مشوق) . و (لتفنّ الروى البيض في كل صدر) بدلاً من (لتفنّ الروى البيض عبر السما) . و (لهذا) بدلاً من (فيزهوا) .

(٤) "يا ليلة الميلاد هذا شاعر

أحلامه ولّت ، وعاجلها الردى

يا ليلة الميلاد قولي للذي

والانكليز بنوك ، كلّ ذميمة

عيسى بن مريم قد عرفتك هادثا

أما الحنان فسوف نمشي باسمه

وكان الشاعر قد وضع (كم من شاعريكي أسي) بدلاً من (هذا شاعريشكو الأذى) . و (ولّت) بدلاً من (ذبلت) . و (أنجبتّه) بدلاً من (أنزلتّه) . و (الخاصبون - دسيسة) بدلاً من (الانكليز - ذميمة) . و (حقداً) بدلاً من (ثأرا) . كما أنّ المحقّق بعد البيت :
"والساسة العظما لما يخرّجوا
نمتي نزيل جريمة الأسياد"^(٣)

إنّ قد أسقط أربعة أبيات هنا على الصفحة ٣٤٥ قبل المقطع الأخير ، وهو في خمسة .
أما الأبيات المسقّطة فهي :

"هيا معي يا سيدي ولطالما

وأسمع صدى الفردوس كلّ ضحية

يافا الجميلة ! أيّ ثغر باسم

والزورق الحيران ، لست مع الأسي

ولوعدنا الى تأكيد ضعف بعض حساب الشاعر للألفاظ أحيانا ، لطالعنا قوله :

طفت الرّبي ، وخطرت في الأبعاد

في لحدّها تشكو النوى وتتادي

جئت عليه قبلة الميعاد

أدرى اذا ما رايح أم غادي؟^(٤)

١- قصيدة "في فلسطين" ، الآثار الشعرية ، ص ١٧٦ .

٢- قصيدة "التجربة الأولى" ، الآثار الشعرية ، ص ٢٦٨ - ٢٦٦ .

٣- قصيدة "عيسى بن مريم" ، الآثار الشعرية ، ص ٢٤٣ - ٢٤٤ .

٤- استندت في تبيان الأصول الى آثار كمال ناصر الشعرية حين كانت مودعة محفوظات مركز الأبحاث الفلسطينية ببيروت ، وقد حصلت على نسخ مصورة لها أو مقتبسة .

" ويفتشون ، ويرجعون ويسألون
هل عاد صاحبنا البطل ؟ ويتمتمون
مات الأمل " (١)

بغض النظر عن أفضلية حذف " ويرجعون " مقابل حسن جعلهم يندتونه - ولو أعداء -
بالبطل ؛ فإننا لا نسوخ له أن يسمي رجاءهم بالحثور عليه - ولو ميتاً - بـ " الأمل " لأن
الأمل كلمة مشرقة سامية ولا يجوز نسبتها الى أعدائه وحتى لو كان النطق من جانبهم وفي
القصيدة نفسها يخالف العرف بقوله :

" وأحس أنفاس الكلاب تشمّني

وتصيح في مسج : جبان "

حين كانوا يفتشون عنه بكلاب " بوليسية " معروف عنها أنها لا تغفل عما أغفلها عنه الشاعر
" المتكدر تحت السرير " . لعل هذا يقودنا للإشارة إلى ضعف التصوير وعدم قبولنا به
على علته ، كمثل قوله :

على جراح الثلج ، ذاب الجليد " (٢)

" أغويتني بنظرة لوهوت "

فليس للثلج جراح ، والجليد هو غير الثلج ، ولا يمكن القول : جراح الثلج مثلما لا يمكن
القول : جراح الصخر . أما اذا قيل : للحجارة آذان ، فهو مثل شعبي ، ثم ما العلاقة
بين الجراح والذويان ؟

بعد هذا ، نتوقف عند ضعف المعنى وركاكة البناء في إحدى قصائد كمال " في

الصحراء والخليج العربي " (٣)

عصبة الشعب حرّة في الدار

" الأخلائات سوف تمضي وتبتسى

في ربوع البناء والازدهار

حيث يحيا على القصيدة جيل

ويمحو أسطورة الاحتكار "

ينشر العدل والمساواة في الناس

فلاحظ غلبة المداني العامة المبتذلة حيث لم يأت بجديد وخاصة أنها أبيات حقيقيّة
تجاريّة اقتصاديّة عمرانيّة لا تمت الى العالم الشعريّ بوشيجة لا من حيث المعنى ولا من
حيث النغمة الموسيقية التي تجافي ألفاظاً مثل هذه . كما أنه يقع في ثنرة مشابهة من ضعف
الأسلوب وقد جاء تقريرياً بارداً لا أثر للعاطفة فيه فلم يثر عاطفة ما ربما لاقترابه الوثيق
من النشيد الذي يشترط ما افتقد هذا اليه . قال :

يا عبيد العبيد

" أيها المجرمون "

أنا لن نبيد

أنا لن نـون

كيف تأتي الحدود

في غدٍ تعلمون

كيف نطوي السدود

وغدا تدركون

رغم دامي القيود

أنا راجعون "

١- قصيدة " حثير " ، الاثار الشعرية ، ص ٢٧٦ .
٢- قصيدة " قصة برتقالة " ، الاثار الشعرية ، ص ٢٥٤ .
٣- الآثار الشعرية ، ص ٢١٦ .

رغم كيد الوجود^(١)

رغم أنف المنون

ومثلما جافته العاطفة والخيال والابداع، فإن النخمة الموسيقية قد تخلت عنه في ساعات
غادرة وأكبت قصيدته السابقة نفسها وعند خاتمتها حيث قال :

والضحايا الخضيبية الحمراء^٢

"ملء أسمعنا عويل المنايا

ولا ينفع الردى استخذاً"

حيث لا ينفع البكاء ولا الحزن

فالبيت الثاني هو كالتثر العادي ، ربما لأن بحره "الخفيف" يغيب النخمة الموسيقية
أحياناً لاختصاصه بتمزيق تفهيلة الصدر الأخيرة (العروض) والحاق جزء منها بصدر العجز
رغم عدم وقوف هذا التبرير حاجزاً في مختلف قهائد على هذا البحر. وربما لأن البيت
يعتو تضمين لقول ديني من صلاة الوجود على الانسان أن يعمل صالحاً لآخرته حيث " لا
ينفع البكاء ولا الحزن وصرير الأسنان . " لقد أفقدت أمانة التضمين النخمة سحرها .
وكما رأينا الفاظاً غير شعرية وتعابير غير موسيقية ، فإننا نحبد التنازل عن فكرة

الإلزام في الشعر لكيلا يتولد شعور بالإكراه لدى المتلقي ، كقول شاعرنا :

فيجري في صدره التحويل

"كان لا بد أن يعمق مجراه

فمن بؤسه يطلّ الليل^(٢)

كان لا بد أن يعيش مع الشعب

وعدا الشعور ، غياب آخر للنخمة الموسيقية الرنانة أودت بها الطلبيّة الحكميّة في قصيدة
تدقق عاطفة ورنينا حماسياً يوافق مناسبتها التومية والوقفة الخطابية المؤثرة .

وإذا حاولنا ترسم خط ما وفسق اليه الشاعر في ميدانه وما لم يوفق ، اكتفينا

بالوجه الثاني كما عرضناه لتبيين الوجه الأول والأهم ، فنفي الشاعر حقه مع استمرار مبدأنا :
أن لكل شاعر عشرة ، وحسبنا أن نواكبه في إشرافته .

١- قصيدة " اللقيطة " ، الآثار الشعرية ، ص ١٨٤ .

٢- قصيدة " وسبقي البعث الأصيل " ، الآثار الشعرية ، ص ١٣٥ .

ثانياً : ما لَه

دِيَّةِ اللَّفِظِ : تشعُّ أولاً في شعر كمال ناصر ، اللفظة الرقيقة الموحية المعبرة ، والتي تشكل مركز ثقل المعنى في البيت ، كمثل قوله :

* تَطَلَّعَ إِلَى الْقَيْدِ

يهسهس بين يديك

بشوق حزين (١)

حيث تعبّر "يهسهس" عن صميم المعنى ؛ ففي اللسان : صوت حركة الدرع ، ومنه الصوت الخفيف . ومثل تلك كلمة "قهقهت" في قوله وقت كان مشرداً وحيداً ففاجأته السماء :

"وأقبل الشتاء

وقهقهت حناجر الفناء والسماء" (٢)

وكلمة "أجهشت" في تذكرة بلدة رفيقه الشهيد : الحبيبين الى قلبه . . "أجهشت ذكراك في خيالي" (٣) . وعندما ارتأى الإيحاء الأروع يتأتى حتى من كلمة شاع استعمالها العامي ، فإنه لم يتورع من الاستعانة بها في قوله :

* كل عشرين لهم رطل طحين

ووعود وفرج . . وهدايا ويَقِّحُ (٤)

منتزعا الكلمة من حياة اللاجئين اليومية وكأنهما أصبحت مرتبطة بحياتهم ارتباطاً معيارياً . ولعله أبقى استعمالاً لللفظة الدقيقة الرقيقة في وصف الحبيبة :

"كل شيء فيها يثرثر بالحسن وَيَهْمِي بالنور والإشراق" (٥)

واللفظة التي تثير الخيال وتسلسل التصورات في "أغنية جزائرية" (٦) تغني الثورة . أما اللفظة فلمح بصر وبريق نصل . . قال :

* ولمعت في جنبه نصالاً حاقداً سهَّلَ السورود

وقد جعل النصل ذا حدّين : القلب الحاقد والحدّ اللامع مضاء ؛ ولكن الالتعاض رمز لسرعة الانقراض . واللفظة التي توشع البيت نضارة وتتأسب مع تصوير المرارة في وضع مزر للعروبة ؛ فقد فتش عنها . .

* فوجدتها كتلاً تدب على النميمة والفساد

وتحكوك للشعب الكئيب ، بلدّته ثوب الحداد (٧)

فالمسورة من دون "بلدّة" صورة اعتيادية جدا .

- ١- قصيدة "عودة السجين" ، الآثار الشعرية ، ص ٢٧١ .
- ٢- قصيدة "اليوم الباكي" ، الآثار الشعرية ، ص ٢٨٩ .
- ٣- قصيدة "أذاكر بلدتنا القديمة" ، م . ن . ص ٣٣٢ .
- ٤- قصيدة "النسر الشيوعي" ، م . ن . ص ٢٩٧ .
- ٥- قصيدة "حلوة أنت فابعدني" ، م . ن . ص ٣٨ .
- ٦- م . ن . ص ٢٩٢ .
- ٧- قصيدة "الى أقطاب الجامعة العربية" ، م . ن . ص ٥٩ .

وإذا قرأنا خطابه الى جميلة الجزائرية :

والشفة الرقيقة المعسولة...
وتهدس الزنايق المطلولة (١)

"حوا" يا نديّة الثنايا
تري بماذا تهجس الأتاحي

ردّتنا "الثنايا" الى الوصف الضربي القديم لأسنان الحسان ، وأضفت "المعسولة" مذاقا خائفاً على الشفة في وصف حسي رقيق يتألف مع "تهجس" و "تهدس" وكلتاهما تعتمد "الهاء" و "السين" في تصوير حقيقة النمس الجميل فيما تتراقص أمام أنظارنا الزنايق والأتاحي وتتمايل فنحسب التقاء رؤوسها وسيلة للتهامس والتحاب .
وفي قصيدته "النور الأخضر" (٢) أصبح للفظه حرية أقدس واعتناء أدق بها ، أي أن حساب اللفظة بدا دقيقاً وهو يصف تباشير ميلاد ربيع طفولي للشورة - الأمل :

"لمحت طيفاً يهتد الفنا
يدب كالسنا على الدنى
ألفيت نفسي أعبّر الفلاة
ألفيت نفسي أعبّر الحياة
أجيش بالوجود والمنى
لمحت طفلاً عمره سنة "

ففي "لمح" شبه رؤية يتلّف اللامح الى أكمالها ، وهذا يتناسب مع تلّف الشاعر لرؤية الطفل . وفي "يهتك" معنى البطش بالصدوّ ، وهو الفناء هنا . كذلك "يدب" تصوير رائع لحركة النور المتقدم الى الدنيا خجلاً أو جهلاً للدرب . والشاعر يجعل الفلاة حياة ثم يعبر الحياة وقد أجاد في حذفه لحرف الجرّ وسط "أعبّر الحياة" لأنه لو أبرزه لانتقل المعنى من عبوره الحياة بملئها ، الى عبوره الى عثبتها لم يتجاوزها بعد .

حسين المطلق : ومثلما تبدع اللفظة البيت فإنّها قد تبدع المطلق ، والمطلق قد يبدع القصيدة فاتحا الطريق اليها عريضا مغرباً . ولو أردنا تعداد المطالع التي وفق الشاعر في استهلال قصائده بها لتوقفنا أمام الكثير الكثير ، ولكن حسبنا الإحالة والإشارة . ففي "الميلاد" (٣) كان المطلق :

"ولدت أحمل جثمانى على كتفى
ولدت ، وأسفى "

فوضعنا في الإطار الذي سيحتوي الوليد الجديد خلال حياته فلا نعجب لجراح ولا لتشرّد وضياح ولا لصلب واستشهاد . . . المطلق نياً جوّ الحياة فوق تهيبته جوّ القصيدة الأضيّق ، فوق أنه بادرنّا بإثارة السؤال فينا حائرين : كيف يولد الانسان حاملاً جثمانه على كتفه ؟
وفي احدى قصائد "النباية" ، وقد راح ينتظر القطار . . . انطلق لسانه حاله معبراً

١- قصيدة "الى جميلة" ، الآثار الشعرية ، ص ١٩٩ - ٢٠٠ .

٢- الآثار الشعرية ، ص ٤٠٤ .

٣- م ٠ ن ٠ ، ص ١٩ .

عن مله وضجره من الانتظار ملل من عاشر في الحياة ألفاً لا أبا لك يسأم " فقال :

" ووقفت أنتظار القطار "

عمرى انتظار

باريس من حولي تجاذبني الحوار . . . (١)

فناحظ " الواو " وحسب ما قبلها لنتصور أن الكثير المسم من الانتظار هو ما قبلها ، مع ملاحظتنا لحرف المد في المطلع ككـلّ والذي من شأنه اطالة الانتظار واطالة الشعور بالسأم حتى أن كلمة " ووقفت " تبد وكتيجة طبيعية حقيقية من الحركة السالفة المرهقة وقد أسلمت أمرها للعدم .

أما قصيدته " المظلة الضائعة " (٢) ومطلعها :

" يا من رأى مظّلتى تضيح

تتسلّ مني خلسة

كأنها الريح "

فقد كان لنداءه الصاخ لمجهولٍ مطلقٍ وقع عظيم في نفس القارئ السام صوت النداء منبعثاً من داخله في نداء النكرة غير المتصورة التي تكتسب صفة العمومية وكأن بني البشر جميعهم لم ولن يتمكنوا من رؤية المظلة " تتسلّ " منه خلسة كالريح ، فكيف يراها هو إذن؟ هذا بالإضافة الى ان انسلال الريح يكون مؤلماً ولاسيما أن الانسان ينتظر تباشيره بلهفة ، فيعمل ثم يعبر الحياة سريداً حتى ليخيّل اليه - لجماله - أنه أقصر الفصول . . . هكذا تنقضي سعادة الحياة عند الشاعر تتسلّ من ضلوعه رغم تمسكه بها . الى أي عالم ينقلنا هذا المطلع؟ وفي عالم الخزل ، يستوقفنا مطلع قصيدته " الخجربة الحسنة " (٣) :

" عينك سرّ كآبتي عينك - عرضاً صرعت بلحظك الفتاك

هيئات أن ييرا العليل من الهوى - حكم الهوى فوقعت في الأشرار

لا يسعنا أمام تكرر " عينك " الا استشعار الفعل العظيم لهما في قلب الشاعر فلم يؤلمه ولم يؤثر فيه غيرهما فباشرا الحديث بهما . وكأنه شاء مد تأثيرهما فيه باعتماده امتداد اسم الفعل " هيئات " في البيت الثاني في معناه المبعد بين الحقيقة والخيال بحيث ترتفع الحقيقة التي عاشها بتأثير عينيها فوق الخيال ، وهذا تعبير في منتهى التطرف وصدق الشعور .

أما في الرثاء فمطلع قصيدته " فقد سميل " (٤) وقد صخ :

" يا يوم فقدك يا سميل وقد غدا

وكأنما الباكي عليك بدمعه - لم يبيد قبلاً في البرية أوحدا "

١- قصيدة " انتظار " ، الآثار الشعرية ، ص ٣٧٧ .

٢- م . ن . ٥٠ ص ٤٢٠ .

٣- م . ن . ٥٠ ص ٣٠ .

٤- م . ن . ٥٠ ص ٤٦ .

فالشاعر ، بعد أن خـر فعل الردى في الفتيد بالفردية غير المتكررة ، خـر عينيه في التشبيه الثاني ببيكاره البكاء ، وهي أعظم وقعا مما قد يليها . وهذا المطلق يدخلنا بالفعل في جو الحزن القائم الذي يسيطر على القصيدة عامة .

وفي ميدان البطولة والشهادة ، لا تغنينا الإحالة عن الإشارة الى مطلع قصيدة "مصنع البطل" (١) - البطل عبد القادر الحسيني ، إذ قال فيه :

"أيها الموت ! تـء علينا وفاخر
لم يطش سهمك اللثيم الخادر"

فافتخار الموت بالبطل أرفع من افتخار البطل بالموت ، على مذعب أبي الطيب المتبني الذي يرفع مده ووجه ثم يعتليه . ثم أن مفاداة الموت فيها الكثير من التحدى للموت من قبيل الاستدعاء الإلزامي بما يردفه من الأمر في الفعلين اللاحقين .

ومن الكلمة الى البيت المتأسس بالكلمة ، نصل الى الفكرة العامة والصورة المكتملة

الجوانب حتى إذا لم يكتمل جانب أو أكثره ، قام الجانب الآخر بالتعبير عنه كتعبير القمر بوجهه اللامع عن وجهه الآخر ، وقد تبادل ، وسوف يتبادل ، الموقع معه لأن القضية مبدئية .

التقسيم والاستعارة : لم يهتم كمال ناصر كثيرا بألوان البيان والبديع ، لأن حياته كانت خالية من أي اهتمام لا يخدم قضية الوطن خدمة مباشرة وعبر الطريق الأقصر والأسرع إثمارا . لهذا ، كان لها نصيب يتراوح ما بين الضالة النسبية في التقسيم ، والكثرة المتفرقة في الاستعارة والتشبيه .

ففي التقسيم ، نكاد لا نلق في شعره إلا على النادر منه ، مثل :

"فلا الحب أبغي ، ولا البنض أبني
وسيان عندى ظلام ونور
فلا الحق يجدي ، ولا الخير يرضي
فدنيا السلام كدنيا الشورور" (٢)

ولا بد من الإشارة الى أن هذا ورد في بواكير شعره حين كان ، ككل شاعر ناشئ ، يهتم بالطباق والجناس أو التقسيم وما شاكل . وبعد حين أراد تكريم بشارة الخوري ، قال عارضا مفهوم الشعر والثورة معا :

"نذبي طلائعنا ، هذي ضحايانا
هذي مواكبنا ، هذي شظايانا" (٣)
ونراه في قصيدته "عرفت يا الله" (٤) منذ مطلعها :

"لماذا يا رب ألهمتني
فأبعدتني وأشقيتني
لماذا عمدتني بالروءى
فأضحكتني وأبكتني
لماذا رميتني بالسلى
فأعليتني وأذلتني"

ومناك مقطعان آخران شبيهان بهذا النموذج في القصيدة نفسها .

لم يكن التقسيم مقصودا بعد ذاته ، ولكن الاستعارة من المحسنات التي لا غناء

- ١- الآثار الشعرية ، ص ٥٥ .
- ٢- قصيدة "عمر قصير" ، الآثار الشعرية ، ص ٤٤ .
- ٣- قصيدة "إنا حملنا عن المصلوب رأيت" ، الآثار الشعرية ، ص ١٥١ .
- ٤- م ٠ ن ٠ ص ٢٢٥ .

للشاعر عنها يوشح بها نتاجه . وما أكثر الأمثلة ! إلا أننا نعدّد بعضها .

جعل التفاحة قديسة تسقط في " قصة برتقالة " (١) لما أن . .

" حملتها بين يدي جائع " يعوى لدي جنبه جوع شديد "

فما أروع إحياءه باستعارة العواء للجوع تبياناً لفعشه ، كما أتد استعار العواء للجراح في

قوله " شبابي

وكّل شبابي جراح

تئن وتعوى عذاباً شديداً " (٢)

وفي قصيدته " أغنية جزائرية " (٣) استعار لـ " الخناجر أحفانا " تنزومها الدماء ، كما

جعل غير الحيوان يرضع في قوله :

" زرائب يرضع بها الضباب والدخان " (٤)

حيث استعار للضباب والدخان ما أظهرهما للعيان بهيما أكولا لا يبقي بعد موطنه في

الأرض أثراً لحياة ولا اخضراراً . وفيما يشبه الناس بالنجوم في النجوم ، نراه يستعير خاصة

السّير حتى للأرقام في قوله ضالاً وسط زحام غربته في " دوفيل " :

" الناس كالنجوم في الخيوم تختفي وتنجلي

تسير كالأرقام في دوامة الزحام " (٥)

لذا تراءى له كل شيء تولد سرعة حركته ما يشبه دوامة الزحام فتسير الأرقام بينما الشاعر

مفترض أن يسير لا الأرقام ، يراقب هذا المجهل الواقع وسط عالم متمدّن !

وفي الغزل ، أسكر الشاعر الكمان وجعل رغباتها أمواجاً تدافع زورقه التائه :

" نبرات كأنها بعصر روشي تتسامى نشوى على عينيك

سكرت دونها الكمان ، وراحت تتلوى حتاجراً في يدك . . .

زورقي تائه المنى قدفته رغباتي شوقاً على ضقتيك " (٦)

تحمل الاستعارة علاقة مشابهة مجازية ترتفع بها الى مرتبة المبالغة المأنوسة وسيلة

فعالة لإبراز الحقيقة التي هي سلف فوق حدود التصور :

" وإذا الشعب صامت يمزغ العسف ليمضي الموتور في إيمانه . . .

يا عيون السماء أغضت لما شرقت الكون في أسى طوفانه " (٧)

وزاد بأن جعل للسماء عيوناً كي يكون لإغماضها معنى يمدن في تأزيم الموقف المأساوي الناجم

عن انسان يتألم وياب العدل موحد أمامه .

١- المصدر السابق ، ص ٢٥٤ .

٢- قصيدة " الصنم " ، الآثار الشعرية ، ص ٢٦٧ .

٣- الآثار الشعرية ، ص ٢٩٢ .

٤- قصيدة " النبي العاجز " ، الآثار الشعرية ، ص ٤٠٠ .

٥- قصيدة " رسالة من دوفيل " ، الآثار الشعرية ، ص ٤١٠ - ٤١١ .

٦- قصيدة " أنت كأسان " ، الآثار الشعرية ، ص ٣٢ - ٣٣ .

٧- قصيدة " الزعامات والشعب والطّحين " ، الآثار الشعرية ، ص ٦٢ - ٦٣ .

وعمد الشاعر الى التلوين بالاستعارة في موضعين متقابلين من قصيدة واحدة (١) :
 لم يزل يرتقالها يتهادى
 أين حيّ المنشية الحرّ يزشو
 فوق أغصانها بأسخى العطاء . . .
 بالميامين والهدى والمضاء
 وذرتهم في الأرض روح العدا . . .
 حصدتهم يد الجريمة ظلما
 فبرتقال يتهادى غنجاً ودلاً ، وجريمة يُنبت لها الشاعر يداً تهوي على الأعناق بمنجل
 الحصاد . واستعارات أخر : "لنا ولسنا وقد أقلع الصباح في بحيرة الجراح" (٢) كأنه
 المركب ، و "شوق الحق في المحكمة" (٣) كأنه الانسان المحكوم ظلماً وعدواناً .
 وأخيراً ، وعلى سبيل المثال لا الحصر ، هذا هو الشاعر وقد استعار للشاطيء
 أجنحة مشبهاً ايّاهما بالطير . واستعار له واجسه القدرة على فعل الصلب كالأشجار :
 "أيها الشاطيء الجريح بصدرى
 صلبتني هواجسي وظنوني
 لا تترف بالعجز في مقلتي . . .
 نظرة عبر رمله تنفياً" (٤)

التشبيه : أما في التشبيه ، فقد تيسر له منه الجميل حتى الروعة في مواطن عدة ،
 حسبنا أن ندلّ الى كثير منها عبر قصائد متفرقة تغطي أجزاء المنشور من آثاره .
 يطالعنا الشاعر بتشبيه مؤثر لباريس بالقديسة المتساقطة ، بحاله هو متساقطاً على

أرضفتها قائلاً :
 "باريسيا قديسة سقطت
 وقد جعلها قديسة في حكم التأكيد لكي يتسنى له الارتفاع بمستوى تشبيهه بحيث يصبح
 وقع سقوطه مستوحى من عظم سقوطها . ولعل تشبيهه من أروع ما أبدع في قوله هنا :
 "وفوق جبيني لهيب الصراع
 كطفل تعشق صدر الحياة
 وفي مقلتي الأسى والتندم
 فلما تملك منها انظم" (٥)
 فشبه نفسه بالطفل المتلف لأسباب الحياة ولكنه يتحوّل بمنعها عنه من طفل بريء الى
 انسان مأزوم .

وأحسن في تشبيه النهر بالنهر بالدمر خلوداً ورمزاً الى الثورة . . . ذلك في صورة متكاملة
 متناسقة شكلاً وتصويراً ان قال :

"طاحونة الدهر لم تهزم مناجلها
 والنهر كالدهر في تاريخ ثورتنا
 حمراء قد حفرت للنهر مجراه
 فما تخير لكن شباب فوداه" (٦)
 فشبه شفرات طاحون الماء بأذرع مناجل الحصاد ولكنها بلون الدم ، والنهر محفور في

- ١- قصيدة "في فلسطين" ، الاثار الشعرية ، ص ١٧٣ .
- ٢- قصيدة "النهاية" ، الاثار الشعرية ، ص ٤٢٥ .
- ٣- قصيدة "القرار الأخير" ، الاثار الشعرية ، ص ٢٦٠ .
- ٤- قصيدة "عمران" ، الاثار الشعرية ، ص ٢٤٩ - ٢٥٠ .
- ٥- قصيدة "البعث والأيام والموت" ، الاثار الشعرية ، ص ١٢٣ .
- ٦- قصيدة "الحنين الى الأكربول" ، الاثار الشعرية ، ص ١٢١ .
- ٧- قصيدة "وأنا عزتنا في بعث أممتنا" ، الاثار الشعرية ، ص ١٢٨ .

الأرض كالثورة في التاريخ • والشيب ليس دليل شيخوخة النفس والجسد بقدر ما هو إيقاع
بالهيبية والوقار المتأتين من حكمة •
وكان تشبيهه بلينا في قوله :

” قد ماك عاريتان يا بنت الهوى
أنت القصيد ووحى كل مشاعري

فقد ماها هما قد ماها ، وهي نفسها الوحي وقصيده ولا مجال للتشكيك في ذلك • كما
أنه تأكيد مطلق تشبيهه أيها بالشمعة :

” شمعة أنت قد أضاءت لأحيا
أنت كأسان من فتون وفسن

وعلى امتداد بيتين ، ينسج تشبيهه الرومانتيكي في أحضان الطبيعة :

” طفلة أنت مثلما اشتباك خيالي
كانسجام العنقود فوق الدوالي

الطفلة كالعنقود ، كلاهما يضري بالسعي والشوق ، وأمنية النفس البشرية •
وهذا تشبيه آخر واصل الأرض بالسما :

” إن للدمع صرخة تسمع الله
كوقع الصلاة في محرابه ” (٤)

كما تشبيهه لموطنه بالدرة الثمينة :

” وفلسطين فتنة الشرق تهوي
فقد بالغ وأكّد ان لا شيء يرتفع فوق صورة الوطن • وعندما يتعلق الأمر بالوطن ، نلمح
الشاعر في وضع لا يحسد عليه •• صورته :

” كأنّ الأسى لعنة في عروقي
تمشى ، وأسقيته في اللبن ” (٦)

ولا غرو فهو مسكون بالوطن وكل ما فيه يذكره به ويستثير خياله ومشاعره ، فيرى في
برتقالة منه شبيها لإنسان يتحاشى أن يواجهه ، فهي ” ترمقني أهدابها كأنما تعرفني ” (٧)

أمّا الخيمة فعيناها ، وأمّا عيناها فخيمة •• توحد الطرفان و ” عينان خيمتان •• للعذاب
•• للصرع •• للرياح •• ترويان ” (٨) • وهذه التشبيهات ذات الصور القاتمة ، صبغت

حياة الشاعر فتراه ان يخاطب صديقه الراحل ، لا يعدو أن يشبه معاني الجراح بالدموع
مستمداً الركنين من منبع واحد :

” ضلّلت على جراحك المعاني
وأجبلت في وتري الدقيق
في غمرة البكاء والشهيق ” (٩)

- ١- قصيدة ” النعيرية العسنا ” ، الآثار الشعرية ، ص ٢١ •
- ٢- قصيدة ” أنت كأسان ” ، الآثار الشعرية ، ص ٣٢ •
- ٣- قصيدة ” حلوة أنت فابعدى ” ، الآثار الشعرية ، ص ٣٨ •
- ٤- قصيدة ” البتم ” ، الآثار الشعرية ، ص ٤٩ •
- ٥- قصيدة ” الزعامات والشعب والطحين ” ، الآثار الشعرية ، ص ٦١ •
- ٦- قصيدة ” النكسة ” ، الآثار الشعرية ، ص ٢٨٢ •
- ٧- قصيدة ” قصة برتقالة ” ، الآثار الشعرية ، ص ٢٥٣ •
- ٨- قصيدة ” اللعنة ” ، الآثار الشعرية ، ص ٢٦٦ - ٢٦٧ •
- ٩- قصيدة ” دمة على صدين ” ، الآثار الشعرية ، ص ٣١٩ •

فساوى بين ضلال المعاني وضياح الدموع مزينا الصورة بالفاظ ذات ظلال سوداء "أجبلت"
الخشنة الموحسة في إلصاقها بدفق الوتر، و "البكاء" والشهيق "يلتقيان معا عند حد
الاختناق .

وإذا كان لنا أن نكتفي هنا بالشواهد على كثرة التشبيهات في شعر كمال المنشور ،
فعند هذا التشبيه الأخير الذي يمتزج فيه مع الطباق ليؤلف صورة نادرة مثلما شاءها ، وقد . .
" ولد الصبح كالمساء في دوامة الأفق
والحب كالبغضاء في دوامة الوجود " (١)

ولا بأس إذا نحن انتزعنا شاعرنا من هذا العالم الذي عليه أن يواجهه بشجاعة ، وليكن
الإيمان أول دعائها ، وما هوذا يعترف بنفسه للمناضل " صمدت كالإيمان " (٢) ، فنجد
أن تشبيهه المرسل هذا أفضل منه مؤكدا خلافا لما هو متعارف عليه .

وإذا كانت الاستعارات والتشابه التي ذكرنا صوراً مسطحة أو ضيقة بالقياس إلى
الصور العميقة المركبة ، فإنها جميعاً تظل خير معبر عن إحساس الشاعر بواقع الحال وعقد
مشاعره وسمو عاطفته وسعة خياله ونضج تفكيره .

معان وصور مبتكرة : كمال ناصر شاعر يصدر شعره عن نفس معدّبة حتى الموت ولكنها
لا تهت إلى الحياة . وفي حركتها هاتين ينفث أعذب الشعر وأصدق فتخرج الصور خضبية
مشرقة وتخرج المعاني بكرا ضحوكاً أو ليثاً حاث الخطل إلى مرماه الشهي .
في قصيدته " إلى أمي " (٣) ، وقد حاولت الحؤول دونه واللحاق بالمعركة بادرها :

" ولا تطرقي

فوجهك هذا الحزين

سأساه في فرحة المعركة "

فكان في مباشرته القول مفاجئاً جازم الإرادة يذكرنا بموقف أبي فراس الحمداني من الحرب
ووداع ابنته . . إلا أن شاعرنا يقلب المقياس : ففي المعركة اكتب يذكر بالأحبة ، لا فرحة
تنسي الوجوه الحزينة . إنما قلبه للمقياس مقصود لإبراز حق المعركة قبل حق الأمة عندما
يتعلق الأمر بالوطن . هذا يقودنا إلى ذكر حديث البطولة عندما كان يناضل سياسياً في
البعث حين قال :

وأفصح الدهر يوماً عن خباياه

فلم نجده ، ولكننا خلقناه ! ! ! . . .

وما استحيننا بعجز ، بل أدناه " (٤)

" وذنبتنا إن حكى التاريخ قصتنا

بأننا قد بحثنا العمر عن بطل

لم يستح الحق أن يعرض على خطأ

معان جميلة مبتكرة وفق الشاعر فيها أيما توفيق ، إن لجهة دقة التعبير أم لجهة القدرة على
الإثارة والتأثير والدفاع عن النفس تبرئة لها مما ارتكبه غيرها .

١- قصيدة " من لا مكان في الدنيا " ، الآثار الشعرية ، ص ٤١٧ .

٢- قصيدة " غصبة فلسطين " ، الآثار الشعرية ، ص ٣٢٤ .

٣- الآثار الشعرية ، ص ٢٨٦ .

٤- قصيدة " وإنما مزنا في بحث أمتنا " ، الآثار الشعرية ، ص ١٣١ .

وللتعب أيضاً جمال لم يحرمه الخالق منه ، فكيف بالجمال نفسه ؟ ونفس الشاعر عفيفة
حنون ، وهو هنا في رثائه ابن خالته يقول :

”بالأمس جُدْتُ أخي بآخر عبرة
واليوم يفجعني القضاء بآخر
وحسبت أن الحزن لن يتجدد
تبا لهذا الدهر كيف تمردا (١)

الصورة رائعة في تركيبها المتوازي : فالحزن استنفذ مخزون قلبه على أخيه فمن أين يأتي
لحبيب آخر بمثل ذلك؟ اتنا لا نلبث أن نتخذ موقف المشاركة في الحيرة والأسى معه ، وذلك
أقصى ما يطلع إليه شاعر من قرائه . وليس التأثير بالصورة الجميلة من قبيل الرثاء فحسب ،
وهو شعر وجداني ، ففي ميدان البطولة تشاركه رؤاه :

”ونفوس الأحرار تدرثر في التيه
ما علينا وللعمراق بلاد
وقد تجمع العتاق الخيول . . .
ماج فيها على النخيل النخيل
فتكبو على سناه الفصول
وببقى البعث الأصيل الأصيل (٢)

وإذا نحن أمام صورة أشجار النخيل الباسقة وقد راحت تتعانق هاماتها في تمايلها بفعل
الرياح . . وهذه الرياح كما نعلم ، ضرورية لإحداث العناق الذي ينتج عنه تلقيح البذور
بعضها بعضاً . من هذه الحقيقة العلمية استمد الشاعر الحقيقة الأدبية فجعل بذور الحياة
تنبض بعد تموجات النخيل .

ويفرحنا العجب من تضخيم الصورة الطبيعية وإخراج اللوحة المتناسقة الألوان عدلا
في تحذيره لقوى الشر :

”وازدهاها الغرور فاستجبيل السّفح
يا أميركا ، لو يورق الدهر عدلا
وقادت رياحها الأهواء
لأتاك وفي يديه الفناء (٣)

وينطلق الشاعر من العالم الأرضي الى الملاء الأعلى محققاً ذاته الطامحة وما الى
الجمال والمثال ، فنراه في صورة الشاعر وقد ارتقى فوق الغيوم في مهمة مستعجلة لأنها أرقى
صينج الجمال ؛ ولكن الحلم سعادة مؤقتة ، وأية سعادة تطيل عمر الانسان . . قال :

”لو كنت أستطيع
أن ألمم النجوم
عن بياد الغيوم (٤)

صورة يفقدها التفسير كثيرا من جمالها باعتبار الشعر أرقى أشكال التعبير ، مما يكسب هذه
الصورة بركبتها روعة الجمال . والشاعر ، ابن القرية ، كان طبيعياً أن تنطبق مظاهرها في
ذاكرته وخياله ، فحين أراد الإشارة الى تاريخ الشعب النضالي الطويل الحافل ، تدكّر
معاصر الزيتون في قريته - بنت القدس - وفي ”غزّة” مسقط رأسه ، فقال :

- ١- قصيدة ”فقد سهيل” ، الاثار الشعرية ، ص ٤٦ .
- ٢- قصيدة ”وسيبقى البعث الأصيل” ، الاثار الشعرية ، ص ١٢٧ - ١٣٨ .
- ٣- هذان البيتان من قصيدة ”اللقيفة” ، الاثار الشعرية ، ص ١٨٧ .
- ٤- قصيدة ”أذا كر بلدتنا القديمة” ، الاثار الشعرية ، ص ٣٢٧ .

"لم يبت في الملعب المطعون ذابحه
في القدس ، في غزّة الثكلي ، معاصرنا
وفي باريس - المنفى ، تذكّر كيف أنّ المسيح تعرّض من قبل لما ذوفيه فقال :
"وفوق كل مقعد لي مذود

مجنّح رفيع
أجترّ أحلامي على تاريخه" (٢)

وقد استعار المذود لنفسه بقصد تداعي الصورة الأولى . ومن الطبيعة استعار صورة الذّوح
المثقل بالطيور الصادحة وقد رأى منها الكثير في ملاعب صباه بضواحي "بيرزيت" ، فأوحت
إليه بأنّ "الطير كما أنّ الأفانين" (٣) ؛ فالأفانين مسن تتغلغل فوقه الألحان وشّتى أجمل
الألوان . عذا المشهد نراه وجها مشرقا لآخر محتم في إعادة رسم مشابهة لصورة الخراب
الأنف من العيش إلا مع الطواويس :

"زينوا الريش للهزار فلما
عقرته النسور ظلما فقامت
نال سَبَقا بعالم الطيران
عنه في الأرض فرحة الخربان" (٤)

تري ، هل صوّر الشعب الفلسطيني عزاراً عندما همّ بثورته لإنقاذ الوطن فأفلحت أولى
خطاه ، وصوّر العالم المتواطىء مع العدوّ نسورا عقرته ظلما ، ففرج العدوّ - الخراب بذلك ؟
ليس غريبا اذن ، أن يصوّر الوجود مستنقعا كبيرا ، وأبشع ما في الصورة إجادة تصويرها
وبيان تأثيرها في الشاعر قائلا :

"مستنقعي يخرق بي
يشدّني
يشربني
وتبضتي مريضة ، تضريني
تضريني" (٥)

صورة رائعة للشعور بالعجز وبداية الخرق فتتبايع الاستغاثة كلمات مفردة متسارعة ، وفي
أقصى لحظات العجز يستشعر المرء بأنّ كلّ الوجود يصفعه ، حتّى قبضته نفسه . من هذا
الشعور الغريب تنبع روعة التصوير .

وفي المقابل ، نراه يشفّ عن شعور ليس أصدق ولا أجمل في معرض تصويره للحظة
عناق مع من أحبّ ، ولسانها :

"أحبّني كما أحبّ وطنه
وضمّني وضمّته ، وشدّته وشدّني" (٦)

- ١- قصيدة "إنّا حملنا عن المصلوب رأيت" ، الآثار الشعرية ، ص ١٤٨ .
- ٢- قصيدة "المظلة الضائعة" ، الآثار الشعرية ، ص ٤٢٢ .
- ٣- قصيدة "الطبيعة المتجمّمة" ، الآثار الشعرية ، ص ٤١ .
- ٤- قصيدة "ملعب الشرق" ، غير منشورة ، في مركز الأبحاث الفلسطينية - بيروت .
- ٥- قصيدة "النهاية" ، الآثار الشعرية ، ص ٤٢٦ .
- ٦- قصيدة "طفلها الكبير" ، الآثار الشعرية ، ص ٣٦٣ .

فلنا أن نتصور تبادل القمّ والشّم وقد حلّق الشاعر في إبراز التبادل أسلوباً حيث جعل الوجه الأول للمتكلّم فالغائب ، والثاني للغائب فالمتكلّم . أما هكذا تتشابك الأيدي في العناق !

ومن ثا هذا الحبّ للوطن يخشى فوّاده ، فلا بدّ له من مثل حماسة أبي تمام ،
وعنفوان أبي الطيّب ، فنسمعه ينشد :

" سبعمون عاماً لم ينم سيني ولم يخمد وقودي

أنى تشاء جاحد ألقمته سهم الجحود

ولمعت في جنبه نصلاً حاقدا سهل الورود

سبعمون عاماً والدّم المسفوك يجري في حدودي (١)

الصورة تضحّ بالحركة الثوريّة من سيف يلوّح وألسنة لهيب تتأجج ونصل منطلق كاللمع ، ودم يتفجّر . صورة غنيّة بالعناصر المتألّفة ، قادرة على الانسكاب دفقة واحدة في الوجدان ، ولاسيّما أنّها حصيلة سبعين عاماً من الرّسم المتأني ، فكيف لا يتمّ الإبداع؟ الصورة اذن ، تكسر عناصرها وتورق ظلالها ، ومتى توفّر كل هذا لها ، توفّرت لها قدرة اختراق الفكر واستلاب اللب واستراق زفرة الإعجاب سواء أكان الموضوع غزلاً أم وطناً كان .

الصورة الأولى المرّبة في النزل :

" لورحت تبحين ، وجدتي في ذيل ثوبك الشمين

أمد أنفي باحثاً عن عطر ك الذي أحبّه

عن صدرك الشهيّ بالمجون

وعن لهائك المسعور بالجنون . . .

عن الأصابع التي تجرفني بالنار والأتون (٢)

لماذا جعل نفسه في ذلك الموضع ، وهل شوغير أنف خلق لشمّ عطرها ؟ وهذا اللهاث المسعور والأصابع المكتوية بنار الحبّ ، كلّها عناصر متكاملة تترك لنا أن نعيش جوّها الحقيقي عبر الصورة الناطقة .

الصورة المرّبة الثانية في الوطن بما ابتلى به :

كلّها للثفاق خيل رهانِه

العسف ليضي الموتور في إمعانه . . .

ودماه جقت على أردانه

رقصت غيلة على أشجانه

حاكّه وهمّه على بنيانه (٣)

" والزعامات قلب خائفات

وإذا الشعب عامت يمزغ

أشعث الشعر مزقته الليالي

جائع البطن والدّئاب سكارى

عاري الصدر لم يجد غير ثوب

لم يخلق للكمال ناصر ليحيد الرّسم بالألوان ، بل ليبين في الرسم بالكلمة الملوّنة ، فما علينا

١- قصيدة "أغنية جزائريّة" ، الاثار الشعرية ، ص ٢١٢ .

٢- قصيدة "طفلي الكبير" ، الاثار الشعرية ، ص ٢٦٥ .

٣- قصيدة "الزعامات والشعب والطعين" ، الاثار الشعرية ، ص ٦٢ - ٦٣ .

بعدئذ إلا أن نأخذ هذه الأبيات ونرسم اللوحة فلا نحيد عن مرسومه أنملة . . كما لو
تطلّعنا الى رسم مدينة دمرها عدوان أو مربيين جدرانها طيران عسكري ، لما كان لنا
غناء عن رسم الشاعر لوطن هجره الانسان . .

" زرائب يرعى بها الضباب والدخان
تناثرت من حولها الذئاب والقطعان
فاعتق الضدان

وعششت في صدرها اللديان (١)

للوحة لوان هما الأسود والرمادي القائم ، وقطرة دم ملصقة على فم ذئب .
الشاعر مصور بارع ومصور أمين ، ينقل من الواقع لوحات أمينة النقل ليسر له فيها غير
فضل الصنعة - وقد رفض الصنعة في الشعر - فلا بد له ان ، من إضفاء روحه وحسّه
وخياله على مكوناتها الأولى كي تنطق لمن يستنطقها ولمن لا . . ولكي ترف اذا لامسها
وتفرّد اذا أصاخ لها ، وتنتحب اذا أهملها ، وتتشظى اذا تحدّاها . ألا تنتصب النون
في القافية متتابعة مسئمة بما يناسب الجو العام كأنها الأطلال الدارسة وقد ذهب منها
رونق الحياة ؟

لهذا ، كان وقوف الشاعر متأملاً أمام شتى مظاهر الوجود وفيها كلّها تمثّل الخالق
عظيماً رائعاً وبخاصّة في وضعه تمثال القبلّة " للفنان الشير " رودان " ، فهناك " في كل
تمثال يطلّ الله والانسان . (٢) ومن عالم الجماد الناطق الى عالم الطفولة المتصل بالخالق
اتصالاً مباشراً ، بدأت أولى ملامحه في عبور الأطفال الى الله عبر السيد المسيح الذي قال :
دعوا الأطفال يأتون اليّ ولا تمنعوههم . فيكون ظمأ الشاعر الى عالم الأطفال بحد ذاته ،
ظمأ الى الوجود في حضرة الله أو الاتصال به لأن الاتصال اذا تمّ كان نعمة منه تعالى
ورضى كأقصى ما يطمح اليه انسان . . قال لحبيبتة :

وتعودين للديار اشتياقاً	وحواليك من صفار البنين
وتمرّين في المساء بدربي	تلمحين المساء فوق غضوني
وتطيلين نظرة لحطامي	في فضول ، كأنما تعرفيني
وتصيحين بالصغار فيأتي	واحد في سعادة يحتويني
لا تردّي الصنار عني . . دعيهم	في أطاييب لهوهم ودعيني
انهم ملك أدمعي وخيالي	نسجتهم خواطرى وظنوني
مل جنبّي في العشيّات هاموا	ومشوا لوعة بدنيا يقيني (٣)

صورة مأساوية ، مبعث أساها الطافي أنّها في عالم الطفولة البريء الضاحك ، فلم يعد
أماناً إلا أن ننصر الشاعر المعدّب بناء على ما صور ، وحتى لو كانت الحقيقة مغايرة .

- ١- قصيدة " النبيّ العاجز " ، الاثار الشعرية ، ص ٤٠٠ .
- ٢- قصيدة " المتحف الكبير " ، الاثار الشعرية ، ص ٣٩٣ .
- ٣- قصيدة " لحظة ظمأ الى دنيا الأطفال " ، الاثار الشعرية ، ص ١١٧ .

وقبل القاء أعضاء أسطح على الصورة عامة في شعر كمال ناصر، نتوقف عند بعض

لوحاته الطريفة مترسمين ثلاثة مشاهد في ثلاث قصائد :

— "الشهيدة رجاء"^(١) وفيها وصف دقيق وحركية معبرة تذكّرنا بلوحة الجماهير في "مصراع
بزرجمير" للشاعر خليل مطران وقت سئلوا عن شفيح لـ "بزرجمير" فأنكروا . أما صورة جماهير
الشهيدة "رجاء" فمنقضة مشاعر وإن تشابحت حركات فقد . .

"غمغم الناس ذعولا

ويكوا فيها القتيلا

وانبرى رأس الى رأس يميل

واشرأبت مقلة حيرى تجول

وبها ألف سؤال وسؤال

ودموع وظلال"

فالألفاظ توحى بهمسات يرددها الناس خشية أن يسمعهم الحاكم . كما أنها تنبض بالحركة
التي تضيق عنها الألفاظ ولو أوجت بها .

— "المعركة - بورسعيد"^(٢) وفيها وصف للإنزال الجوى البريطاني أثناء الاعتداء

على مصر عام ١٩٥٦ الى جانب فرنسا والصهاينة . .

تهادت بالتيه فوق الصرود

وغطت من نورها المعقود

حقد ها من شقائه في الضمود . . .

وأمت فريسة للأسود"

"والمظلات مثل أجنحة الطير

حجبت مقلة الشعاع عن الأرض

فأرتها العيون فانسل منها

فتهاوت كالشلو في المخلب الدامي

ففي لمح من الكتم تهاوت أجنحة الطير من عليائها الى أديم التراب أشلاء مدمّاة تذكّرنا

بفخامة قصيدة المتنبّي الحماسية "الحدث الحمراء" . . .

ويعد أن صور الشاعر لنا عظمة القوّات المعتدية فأرهبتنا بتصويره ، أردفها بقوله في

البيت الأخير "تهاوت . . . للأسود" فتعظّم الأبطال تلقائياً .

— "الثورة . . . مصر"^(٣) ويشاء شاعرنا أن يصف كما شاع الوصف أيام العباسيين مسترجعا

صور الباحثرّ في "بركة المتوكل" ، وصور هارون الرشيد غارقا في طناقسه وأمامه الغانيات

راقصات صادحات . يسترجع كمال التاريخ ليشهد على تكرار نفسه ، فإن ذهب الرشيد فهذا

"فاروق" الملب والغانيات متكررات في كل أوان وهكذا مكان . وقصر "عابدين" يضا هي

قصور الخلفاء العابدين :

كان ، حفيّا بناعسات الفيد

مسرحا للغرام والتقويد

"قصر عابدين لم يزل مثلما

فكأن الأيام قد شيّدت له

١- المصدر السابق ، ص ٢٢٩ وما بعده .

٢- م . ن . ص ٢٠٨ وما بعده .

٣- م . ن . ص ٢٠٤ وما بعده .

مثلما كنّ في بلاطك دنيا
يتلّهين فوق عرشك خزيًا
قم تطلّع أخا الصباية واشهد
يستقين الأنخاب في سدة العرش
من فتون وخقّة وقد ود
خجلنّ منه غانيات الرّشيد
كيف خنّ العهود تلوا العهود
على صحّة المليك الشريد

جمع الشاعر ما بين التصوير الحسي والتصوير النفسي ملوّنا رسومه بالتشبيه أحيانا وبالاستعارة
حيثما . فمن مسرحين قديم وجديد ، وبلاطين كذلك ، الى خفق النود ، وكل لفظة تقوم
مقاما لا يزحمها فيه سواها . كقوله "ناعسات" للخيد . و "التقويد" لأسلوب الغرام
"الفاروقى" . و "خفق" للنهود المترافقة في أجساد الخيد المترافقة . و "الشريد"
للملك الذى تشرد على اثر ثورة الشعب يوم ٢٣ تموز ١٩٥٢ . وتكفي بالقول : إنّ هذه
الصورة الرائعة قد نقلتنا فعلا الى عصر خلا لا سبيل الى تصوّره أفضل ممّا في هذه
الصورة المركّبة بانسجام تامّ ليس أروع .

ط - البناء الشعري شكلا ومضمونا

من يقرأ كمال ناصر شعرا ، يظالعه انسانا يحتفل بالمضمون أكثر بكثير ممّا يحتفل
بالشكل باعتبار أن المضمون يتعلّق بالمعاني المتى يعالجها الشاعر ، بينما الشكل يتعلّق
بالمظهر الخارجى الذى يساعد الشاعر على التحليق في معانيه ولكنّه لا يفيد به بشي . اذا
ارتقى الشكل دون المضمون .
لذلك ، لم يهتمّ كمال بالصناعة اللفظية الا بمقدار ما جاء عفويًا ، بينما اهتمّ بالمعاني
والصور والأخيلة اهتماما كبيرا ، مدفوعا الى ذلك بدافعة صاحبة انسانيا ووطنيا .

أولا: الألفاظ : الألفاظ عند كمال ناصر معبرة وموحية أحيانا في صيغتها المفردة، ولكنها
تصبح أكثر فعالية عند انسكابها في العبارة حيث تغدو العبارة كلّها ذات قيمة ، وقد قال :
" لا يستطيع أن يتصوّر الانسان كم تلعب اللفظة الواحدة في البيت ، فهي تخلق في نفس
المرء عالما من الاحساس ودنيا من الصور ، أفما تراها بربك اذا أحسن اختيارها وأنزلت
موضعها من العبارة تعمل عمل السحر في الجمال؟ " (١)

وكما رأينا عند التعرّض لبدع ألفاظه الشعرية الدقيقة والرقيقة ، فإننا قليلا ما نلاحظ
اهتمامه بهذه الدقّة وهذه الرقّة في مطلع شاعريته . ولعلّ ذلك عائد الى القائه الشعر
هكذا وبالطريقة التي توصل الى الفكرة كيفما كان التوصيل . فلوقرأنا هذه الأبيات :

"موطني النبيض والأجم"
أتلّس على الغصو
لا جناحي يشدّني
وذرا الدّوح والأكم
ن وأستلهم النغم
في ادّعاء الى القم

١- كمال ناصر . "كيف أفهم الشعر" دراسة غير منشورة ، حصلت عليها من مركز الأبحاث .

أنا والحبّ توأمان
أما الكون قبله

في ريقه الألم
لخصت شهوة العدم (١)

لألفيناها على لسان البلبل البريء الذي يحاور النسر الشرير ، فلا يعد وأن يصف حياته
الرتيبة بألفاظ عادية مثل " الخيض والأجم والدج والأكم وريقة الألم " وكان باستطاعة الشاعر
- عملا بقوله السابق - التعبير بألفاظ أكثر اشراقا كما فعل في القصيدة نفسها وعلى لسان
البلبل أيضا :

" من ترى الضيف ، هناك على الدر
شرقت مقلتاه بالغيب وانها
يتلوى كأنما النار فيه
أنبي يسبح الله في الأرض

ب يغني جراحه وأساه
رت على مهجة الفراغ يده
بنضة أحرقت بقايا صباه...
فيجترّ وحيه وهده (٢)

ولنا أن نتذوق الجمال في تعبيره " شرقت مقلتاه ويجترّ وحيه " وفي تشبيهه تلويح " بالبنضة "
واستعارة المهجة للفراغ ، وحركة انهيار اليدين وحركة نثر الوهم " للضيف فتدعى حتى
" خطاه " . كلها ألفاظ عبّرت بصدق عن صورة البلبل الحزين .

ونظرة أخرى الى احتلال اللفظة منزلتها الخاصة ان قال :

" أنت كأسان من فتون وفنّ
كلما زدني العطاء تمادى

تاه نخري سعيا على كأسيك
وتغنى بنشوة .. لبّيك (٣)

فجمع لها ما بين الفتنة والتفنن وجعلهما كأسين اثنتين . وإذا قرأنا البيت متوقفين عند
التغني ، لما وسعنا إلا أن نكمل لفظة لا ينوب عنها نائب آخر فقلنا مع الشاعر : " لبّيك " .
كان كمال في الغزل رقيقا ، وفي الشعر الوطني حماسيا متدفقا وخطابيا عنيفا يذكّرنا
بشعراء الحماسة في تاريخ الأدب . استمدّ تعبيراته من أرض الواقع التي عاش عليها وهي
أرض الانتفاضات والثورات . هذه صورة تتوآب ألفاظها وتتطاعن وتتقاذف كأنها في ساحة
القتال .. قال :

" يا مجرمون !

لدى الجريمة يرجفون

وتمللم المتأمرون

ومضوا الى ثكتهم

يتحصنون

والمدفع الجبار يعصف بالمنون

وتخضّب الرّحّب الأشمّ

وسال في البطحاء دم

واحمرّ أفقّ وادلهم

١- قصيدة " نسر وبلبل " ، الاثار الشعرية ، ص ١٦١ .

٢- نفسها ، ص ١٦٢ .

٣- قصيدة " أنت كأسان " ، الاثار الشعرية ، ص ٣٣ .

وتقشمت سحب المنون

فإذا هناك على الأكم

علم يرفرف بالشَّم يهترّفي ظفر

وشبيبة يتبسّمون ، ويمزأون ، ويهتفون ٠٠ يا مجرمون! (١)

ولدى انتكاب البلاد بساستها ، راح ينتقي الألفاظ الساخرة الدّقيقة لينعتهم :

" يا عصابة " الذخير " التي انتعرت على تنر الجهاد ٠٠٠

أين العروبة " ركبها الجبّار " ما بين العباد

فتشت عنهما كلّ شبر في الوهاد وفي النّجاد

فوجدتّهما كتلا تدبّ على النميمة والفساد (٢)

ووضع بين شولات " الذخير ٠٠ ركبها الجبّار " غلاً وحقدًا ، وجعل سقوط السّاسة على

" ثغر " الجهاد والثغر هو أول الشيء ٠٠ ثمّ جعل تفتيشه في الوهاد المنخفضة والنّجاد

القليلة الارتفاع لإدراكه المسبّر. بأنهم لن يكونوا فوق القم ولا سيّما أنّهم " كتّل " توحى شكلا

بجمود معناها وتحجّرها .

وكما في الوطن والسياسة كان دقيقا وصاخبا ، كذلك في الغزل كان رقيق الألفاظ

يتخيّرنا بعناية متناهية :

وألتقي طيف الهوى المقبل

بأخضر ربيعته مخمليّ

لا يرتني في طرفها الأكل

همى علينا في رمى الموصل (٣)

" تضحك لي ، فيضحك العمر لي

على عيون لوتتها الدّنس

أسطورة ، من قال أنّ السننا

أسطورة ، بل قل شعاع المنى

وظالما أنّ البداية ضحك برىء ، فقد لَوّن الطبيعة بالخضرة والمخملية وإشراقه السننا

وإشعاعه المنى فنقلتنا هذه الألفاظ الرقيقة الموحية الى جنّة نديّة فاجأها الفجر فترنّحت

سكرى بقبلته .

وبلغ كمال ذروة الاهتمام باللفظ في أواخر حياته الأدبية حيث تطالعنا في أغنيات

النهاية تعبيرات من مثل : " أشدّ أوجاعي الى وساوسي ٠٠ وأكتب " (٤) في قصيدته التي

يتوجّه بها الى أمّه غداة ضياعه في العالم . وكتوله :

" يا من رأى مظّلتني تضيح

تسّل مني خلسة "

كأنّهما الربيع

ينسلّ من صدرى ٠٠ (٥)

١- قصيدة " يا مجرمون " ، الاثار الشعرية ، ص ٩٦ - ٩٧ .

٢- قصيدة " الى أقطاب الجامعة العربية " ، الاثار الشعرية ، ص ٥٩ .

٣- قصيدة " عمير من الموصل " ، الاثار الشعرية ، ص ٣٤١ .

٤- قصيدة " من لا مكان في الدنيا " ، الاثار الشعرية ، ص ٤١٦ .

٥- قصيدة " المظلة الضائعة " ، الاثار الشعرية ، ص ٤٢٠ .

وقوله :

"وأقلع الصباح في بحيرة الجراح . . . يمتصني . . . يعبني
وأست الرياح تناوى الرياح . . .
وانظافاً المصباح

لم يبق فيه زيت . . . لم يبق فيه زيت . . . (١)

وغير هذه كثير من الألفاظ التي تنطوي أو تنفتح عن عوالم رحبة سواء أكانت مشرقة أم مظلمة
الآ أنها من عوالم الشاعر نفسه .

تطوّرت الألفاظ عند كمال حتى ارتقت عالياً متدرّجة من بدء حياته ، ولكنها من حيث
لهجتها ، لم تفارقه الخطابية الحماسية لحظة في حياته . حتى عندما كتب القصيدة الحرة
الحدیثة ، ظلّت الخطابية تصيخ قصيدته فيبحث عن الألفاظ القويّة المجلجلة يقع بها على
الأسماع فيلهبها ويشيرها . ففي السبعينات وقف يرثي رفيقه في الثورة خالد الیشرطي قائلاً :

"الثلاثون يا شهيد الثلاثين
فضحايًا صراعنا تتبارى
عزّت الأرض فانتخى من سمانا
قد صحا المارد الجريح فهذي
طلقة تفتح الكوى للأمانی
سمعتها الدنيا وضجّ لها الكون
ولدت عبرها الإرادة والبذل
الأعاصير والعواصف والبرق
ودوت في رواسب الشرق معنى
جمع الثائر المكبل بالقيّد
لا عوان ، لا ذلّة ، لا سلام
إنما وثبة تطلّ مع النّصر
وفينا لا تحسب الأعمار د
حسدت دونها الصغار الكبار
في البطولات شعبنا الجبار
طلقة الفتح ثورة وشعار
وصداها على الدّرا إنذار
فكّكت سلاسل وإسار
فكان الفداء والانتصار
تلاقت فسالت الأمطار . . .
قدسيًا ، فأينح الانفجار . . .
وهبّ المشردون وثاروا
لا احتواء ، لا تبعة ، لا حصار
فيُحسى على لظاها العار (٢)

وأخيراً ، يمكن القول ان القصيدة الكلاسيكية - وكما أحد روادها - تنطوي على

إيثار شديد للفظّة الدقيقة المعبرة بإيجاز ، الموحية بسحر نظرا الى انها أفضل صيغة
للمناسبات الوطنية والقومية . وكما ناعمر الذي كان شاعر البعث ، بعد شاعر الوطن المنكوب
أصبح شاعر الثورة ينثي آمالها وآلامها باللغة نفسها التي يحسن الشعب فهمها وترجمتها .
ثانياً : الموسيقى : اذا كان للفظّة المفردة نغمة موسيقية محدودة ، فإنها أوضح
في البناء المتكامل للعبارة . . . للبيت . . . للقصيدة كمعزوفة واحدة تتألف فيها الألفاظ تألفاً
موسيقياً يغطّي في عذوبته عيوباً في ألفاظ بحدّ ذاتها .

١- قصيدة "رسالة من دوفيل" ، الاثار الشعرية ، ص ٤١٢ .

٢- كان ذلك عام ١٩٧٠ في قصر اليونيسكو ببيروت ، وقد استمعت اليه يلقي هذه القصيدة
"خالد مات" وما زلت أذكر الجمهور يقاطعه مرارا بعواصف التعفيق تجاوبا وانفعالا .
يمكن الرجوع اليها كاملة في آثاره الشعرية ، ص ١٥٥ - ١٥٦ .

بهذا ، نعتبر كمال ناصر شاعرا غنائيا بالدرجة الرئيسية ، غنى ذاتيته ، ووطنه ، وأُمَّته ، وثورته أعذب الغناء . فأمتعنا بننائيته الساحرة في قصائد الغزل والخطابة والبطولة .
حسبنا هنا أن نشير الى بعضها .

في الغزل ، قصيدته "إليها" (١) أنشدها في صباه المبكر إذ قال :

"هناك هناك على الراية
هناك استحال الزمان عشيقين
فلم يبق في الأرض شيء سوانا
كأنني بهذي الدنسى آدم
هناك احتويت الغرام بريئاً
هناك ضممت الوجود وعممت
وأهدى لي الحب أحلامه
فراحت تعانق أحلامي"

على هذه التقسيمات الرباعية المتساوية من البحر "المتقارب" يتقافز قلب الشاعر في اثر قلب حبيبه ، ولا يكون هذا الا في أحضان الطبيعة التي تشهد الحب البكر .
وإذا كان هذا الانسياب الموسيقي متأثراً من النموذج الكلاسيكي ، فإن الأمر لا يختلف مطلقاً مع الشعر الحر فترانا نستمتع بموسيقى مشابهة إن لم تكن أجمل في قصيدته

"سيدتي !

في الباب شاعر جميل

يقول إنه رآك مرة على خياله

فجئن واشتعل

قد جاء يعمل الزهور في يديه : باقة من الغزل

أتسأليني ؟ ما شكله ؟ وكيف يبدو ؟

فارس منعم طويل . . .

وشعره على جبينه الفضي كالإكليل

وفي عيونه غمامة مجنونة من الخجل

يصر أن يراك - لو للحظة - يدفعه الأمل (٢)

أما في شعره الخطابي ، فإن أكبر قدر من الموسيقية المهيجة نقابله هناك في تأثر

الشاعر بالموقف ، والمعاني السامية التي ينضج بها :

فقد حشدت له الأعطار أوزاننا

وفي الضحى دمة تنساب تحنانا

في ظلمة الليل قد يسأ وشيطاننا

(١) جلّ الفدائي عن شعر يراودني

(٢) يبصره في جحيم الليل عاصفة

(٣) الفارس الفاتح المخوار يحرسنا

١- الآثار الشعرية ، ص ٢١ .

٢- قصيدة "سيدتي" ، الآثار الشعرية ، ص ٤٠٥ وما بعدها .

- (٤) اني لألمحه في الوهم أحيانا
(٥) ينير كالطرب عبر المستعيل كما
(٦) عيناه في عتمة الأغوار تسبته
(٧) يطارد الخطر البنشود ولهانا
وخلف خلف جران الصمت أحيانا . . .
تخير في صدره الدامي نجاوانا
لتستفيق على الأغوار آذانا
ويلتقي القدر الموعود نشوانا (١)

اننا نرى ان النخمة الموسيقية الصاخبة متحققة لدى الشاعر من عوامل عدة: فالقصيدة على
البحر " البسيط " وهو فخم بطويل يستوعب الألفاظ القوية المجلجلة ويمتد مع الأنفاس
الملحمية التي تتجلى في هذه القصيدة بالذات .

وفي هذه الأبيات خاصة ، فعلت القافية فعلها البارز وقد استمدت نغمتها المضاعفة
من ألفي الإطالات مما في القافية نفسها علماً بأن ألف الإطالات الأخيرة وحدها كافية
لإحداث الرنة الموسيقية المميزة .

ونلاحظ كذلك تصريحاً تاماً في البيتين الرابع والأخير ، ومثل التصريح ، تكرار روي
" النون " في تفعيلات عروض أكثر أبيات القصيدة ، وهذا التكرار يحقق نغمة موسيقية اضافية .
وبلغة علمية ، هناك سبعة وعشرون تكراراً لحرف الروي في (عروض) الأبيات البالغ عددها
مئة بيت . كما أن هناك ستة تصريحات داخلية عدا مطلع القصيدة . ولا شك في أن
انقسام الابيات الى شطرين متساويين يحقق فواعل موسيقية متساوية ومتواترة للشطر الواحد .
وفي شواهدنا نفسها نرى تعداده السريع لألفاظ " الفارس ، الفاتح ، المغوار . . . "
مما يرغما على اللحاق بموسيقاها المتسارعة . كما حققت " يبصرنه " نغمة جميلة في
تسكيناتها ونون نسوتها الى جانب تكراره " خلف . . . خلف " موحياً ببعد معنوي الى جانب
تحقيق الامتداد الموسيقي .

وهكذا انسابت الموسيقى عذبة وفي رقة أم في صخب وعنفوان ، غير متأثرة بشكل
القصيدة الكلاسيكي أو الحديث . ولا نستطيع إنكار ما للقافية في كلا النموذجين من دور
أساسي فعال في تكوين النغم الموقن بعناية الى درجة أن كمال ناعر نفسه الترم أحيانا بقافية
واحدة في القصيدة نفسها . وسواء أكان هذا باعثاً على الملل من الرتابة الموسيقية أم على
الموسيقية الممتعة ، فإن التزامه ذلك هو من باب ادراكه لقيمة القافية . ومن ذلك قصيدته
الرائية " القطار " (٢) حيث قال :

" . . . ووقفت أنتظر القطار "

عمرى انتظار

باريس من حولي تجاذبني الحوار

وتهميب بي ، والليل جنّ بصدري العاري وثار

اشرب على ألم الدني ، واخلع بنفرتك العذار

باريس أنبية وار

١- قصيدة " أنا حملنا عن المملوب: رأيتة " ، الاثار الشعرية ، ص ١٤٩ .
٢- الاثار الشعرية ، ص ٢٧٧ ، وتقع القصيدة في خمس صفحات .

نور و نار

باريس حبلى بالمجانين الصغار والكبار . . .
وكذات في قصيدته التونوية " المتحف الكبير " (١) وفيها :

"أنا مل الفنآن

والقبلة التي خلدنا على المدى رودان

تظللان قبليتي

وترعيان نشوتي ، في معبد الحنان

النشوة التي ضمنت فيها العمر والأوان

واجترت عبر نبضها المجهول في الزمان والمكان

ولم يزل رودان

وخير شاهد على موسيقى اللفظة والبيت والقصيدة معاً ، هو ما تمكن ملاحظته في قصيدة

" صرخة الخيام " (٢) ذات المنضمون الاجتماعي . . . يقول :

" رمضان يا شهر الصيام

حزن الجياع البائسون ،

المفطرون المائمون .

وتجاوبت رغباتهم ،

وتصاعدت صلواتهم . . .

حتى يطول بك المقام

فيستوي في ظلك المتأمرون . . .

المنعمون المترفون ،

بالبائسين الجائعين . . .

الصامتين ، الصابرين على الجريمة . . . في الخيام

هذه الانسيابات المعنوية واللفظية تذكير بقول الشاعر من قبل : " أنا لا أدعوا الى كلام موزون ،

وإنما أدعوا الى شعر يفيض بالسّموم والابتكار مع سهولة وحلاوة وموسيقى . . . " (٣) وقوله إن دل ،

فعلى قلة اعتباره الوزن شرطاً وعبداً لتحقيق الموسيقى العذبة ، وقد رأينا الموسيقى فسي

قصيدته غير الموزونة " البهلوان الأعظم " (٤) ، وفي غير المنشورة " خول " (٥) وفي غيرها

مما يثبت صدق مساواته للشعر مع الموسيقى فكلاهما " ألحان الشاعر " (٦) والشاعر قد يكتفي

بالحان هو يعزفها وفق أوزان توافق هواه . . . وفطن كمال الى هذا حين قال في مخطوطته

١- الآثار الشعرية ، ص ٢٩١ ، وتقع القصيدة في حوالي ست صفحات .

٢- م ن . ص ٧٥ .

٣- كمال ناصر . " كيف أفهم الشعر " ، المخطوطة .

٤- الآثار الشعرية ، ص ٣٨٢ .

٥- يمكن مطالعتها في ملحق هذه الرسالة ، ص ٣٦٣ .

٦- مخطوطته " كيف أفهم الشعر " .

"كيف أفهم الشعر" : أنني لا أعني بالبقاء على الأصول أن لا نجدد في الألفاظ والأوزان لأن هذا شيء مألوف وطبيعي في الشعر ، فالأوزان اختلفت وزيد عليها في معظم العصور ، والموشحات الاندلسية والعباسية تشهد بذلك . . . ثم قال كمال في الموضع نفسه : "الشعر يضطرب ويبرزل مهما سمت معانيه بدون الموسيقى والوقع . . . والحقيقة أن شاعرنا الذي كان يحزن الموسيقى سماعاً ، وروض نفسه على أن موسيقية سهلت له الأمر في الشعر ، فنحن بكّد النفس نكاد نتع على أبيات لا نعمة لها ولا وقع .

رأيناه في قصيدة "الميلاد" (١) يعرّر البسيط . ويعرّر في غيرهما الكامل والمتقارب والرجز والرمز ، ثم يشطر السريع في كل قصيدته "المنازل" (٢)

"بُعِثْتُ لِلدُنْيَا خَضِيبَ الْجَنَاحِ
تَسِيلُ مِنْ جَنَبَيْكَ حَمْرَ الْجِرَاحِ
فَأَخْلَدُ عَلَى صَدْرِ الْعَلَى وَالرَّمَا
وَأَصْمُدُ وَعِشُّ لِلشَّعْبِ عِشٌّ لِلْكَفَّاحِ"
ويجزّي "الخفيف" في كل قصيدة "نسر وبلبل" (٢)

"إنما الكون للهوى
مسح الله جفنه
ورمى الأرض بالهيا

شاب فيه وما انفطم
للكرامات والتعمم
م وأحيا به الأمم"

ويتكرّر هذا في أكثر من قصيدة من غير أن تتأثر موسيقى القصيدة بأي حال ستي لورا وحت أبياتها ما بين الحرية والكلّاسيكية والتفلّت من تفعيلة الوزن أو التعلّق بها من حين لآخر كما نبي الحال في القصيدة التي تمثّل تموجاتها الموسيقية تموجات الشاعر الإيمانية بين الشك واليقين ، إذ قال :

"لماذا يا ربّ ألهمتني
لماذا عمدتني بالرؤى
لماذا رميتني بالعلی

فأسعدتني وأشقتني ؟
فأضحكتني وأبكيتني ؟
فأعلّيتني وأذلّلتني ؟

لماذا ؟

يا ليت كان لي

روحٌ بليدٌ

قلبٌ بليدٌ

أرفرف من دون غاية

وأحيا فصول الرواية

أراقبها من بعيد (٤)

١- الآثار الشعرية ، ص ١٩ .

٢- م ٠ ن ٠ ص ٣٢٣ .

٣- م ٠ ن ٠ ص ١٦١ .

٤- قصيدة "عرفت يا الله" ، الآثار الشعرية ، ص ٢٢٥ .

والحقّ يقال : انّ اللفظة السهلة الرقيقة تولّد الارتياح بموسيقاها العذبة وتعمل في الإسراع في نقل الصورة كما أرادها الشاعر علما بأنّ السهولة ميزة ووسيلة مباشرة لمخاطبة العقول بمثل مخاطبة القلوب .

ثالثا : هيكلية القصيدة : الحديث عن موسيقى القصيدة مرتبط وثيقا بهيكليتها الشكلية ،
فللشكل مفاهيم واعتبارات مثلما للمضمون .

صحيح أنّ التطوير والتجديد أول وأفضل ما يكونان في المضمون ، إلا أنّ ذلك واجب أيضا في الشكل لأنّه لا سبيل الى فصل طرف عن آخر . بالنسبة لكمال ناصر ، عادل بينهما قدر المستطاع كما هو بيّن من محاولتنا تتبّع سلّم الارتقاء تاريخيا .

في الأربعينات ، كان الغزل مادة شعره الرئيسية ، وهو شعر ذاتي تأثري ووجداني . وقصائده كلاسيكية تكاد تلائم "الخفيف" ثم "الكامل فالمتقارب فالسريع" ، تامة الأوصال باستثناء قصيدة واحدة على "مجزوء الرمل" هي "الزهرة الصريخة" ، ومنها :

"زهرة الروض ذوت
ليس في القبر ثوت
كفّوها بالدموع
أتما بين الضلوع... (١)

وفي الخمسينات غبّ النكبة مباشرة ، كان على الشاعر أن يثبت انتماءه الى الوطن الأمّ قولاً وفعلاً . لذا ، فإنّ النسيج على منوال الأقدمين أمر واجب للإثبات ولاسيما أنّ ابن وطن مختصب وشعب مشرد منكوب ، عليه هو يقع واجب تضديد الجراح وتعيين سبيل التحرير . في هذه الأجواء المستجدة كانت قصائده المثبتة تحت "خيمة في وجه الأعاصير" (٢) - فيما عدا قليلا منها - تسير وفق المنهج الكلاسيكي للقصيدة من حيث الهيكلية الشكلية والمعنوية باستثناء أربع قصائد متحررة من أصل ثلاث وثلاثين . وهذا الاتباع من علامات الانتماء الكلي .

ولو أمعنا النظر في الجزء الثالث من آثاره المنشورة "أنشودة الحقد" ، لوجدنا التزام الشاعر بالكلاسيكية فيه التزاما مطلقا حيث أنّ الأنشودة منظومة فعلا في الخمسينات كما تشير عنوانات قصائدها أمثال "الثورة... مصر" و "المعركة - بورسعيد" وكتاتهما تأريخ لعامي ١٩٥٢ و ١٩٥٦ على التوالي . ثمّ "الى جميلة" و "في رحاب الجزائر" في نهاية العقد نفسه . و اذا اتّسمت الأنشودة بِسْمَةِ خَاصَّةٍ ، فَجَرَّيْهَا عَلَى الْبَحْرِ "الخفيف" في خطّ مستقيم يوحد ما بين شكل التعبير والإرادة النفسية والشعورية لدى الشاعر .

وفي قصائده المنشورة في الستينات ضمن ديوانه "جراح تفّئي" ، بدا واضحا ميله الى التحرر من كلاسيكية الشكل الى مختلف الموضوعات التي طرقتها من وطنية الى وجدانية الى سياسية . و ان نتصّفح الجزء الأخير من آثاره المنشورة في "أغنية النهاية" ، حتّى نقع

١- الآثار الشعرية ، ص ٤٥ .
٢- الآثار الشعرية من صفحة ٥٢ - ١٥٦ . ودلّ القصائد التي في المجموعة محدّدة بالتاريخ المذكور باستثناء الثماني الأخيرة وأكثرها يحمل صراحة تاريخ الستينات .
٣- م . ن . ، من صفحة ١٥٩ - ٢١٨ .

على قصائد كلها متحررة وقد جاء نظمها في الثلث الأوسط من العقد السادس، هذا لا يعني أن الشاعر هجر تماما الشكل الكلاسيكي للقصيدة، فهو قد ظل متمسكا به طيلة حياته يؤوب اليه مرتاحا اليه مسجلا به إحدى أواخر قصائده المعروفة "خالد مات" (١) كان هذا تعرضا لهيكلية القصيدة شكلا، أما من حيث المضمون فيجب ألا يتبادر الى الأذهان أن اعجاب شاعرنا بالشعر الجاهلي ومن ثم نسجه على منواله، دفعاه الى الوقوع في اساره الذي نبه اليه كمال نفسه من تفكك بنية القصيدة الواحدة عند القدامى . وهو بذلك يشير الى انتقال الشاعر القديم من غرض الى غرض آخر مستقل عما قبله وما بعده . حاذر كمال ناصر تلك التعددية المستقلة الأجزاء، فإذا ما كتب قصيدة في الغزل، بدأها متغزلا وانتهى متغزلا يفيض في حناياها مما في حناياها . والشواهد كثيرة أقلها قصيدته "الى بنت الطبيعة" (٢) ومطلعها وخاتمها :

يا سحر إلهامي وسر غرامي

وتمتّع العشاق بالأحلام
.....

ولأنت أحلى من شذا الآكام

وتفتّحي كالزهر عن أكمام

وقصيدته "النجربة الحسنة" (٣) في مطلعها وخاتمها :

عرضا صرعت بلحظك الفتاك

حكّم الهوى فوقعت في الأشرار

فسرى كمسرى النور في الأسلاك
.....

قلب البهاء عرفته بسننك ...

السحر صانك والقريض روك

هذا غزل في مطلع حياته، أما في أواخرها فإنه لم يجد كذلك عن خطه الوجدوى في

مسار مضمون القصيدة فنقرأ له "وحشية السينين" (٤) ومطلعها :

"فتشت يا وحشية العينين

فتشت كل عمري

فتشت عن عينين حلوتين

أغريهما بشعري

أجمع في جفنيهما الضدين

عريدتي وطهرى

١- الآثار الشعرية، ص ١٥٢ - ١٥٦، وفي ختامها تأريخ بشباط ١٩٦٧ وهذا خطأ، لأن مهرجان تأبين الشهيد الذي ألقى فيه كمال القصيدة، كان أقيم في قصر اليونيسكو ببيروت يوم الخميس الواقع فيه ٢٦ شباط ١٩٧٠ .
٢- الآثار الشعرية، ص ٢٢ - ٢٤ .
٣- م . ن . ص ٣٠ - ٢١ .
٤- م . ن . ص ٣٥٥ - ٣٥٦ .

فأهزم المثال في بيتين
وأصلب الجمال فسي عينين
الى أن يختتمها بقوله :
” .. وتعلمان العمر في بحر
من صدف ودرّ
فلا أرى غيرهما جفنين
ولا أرى غيرهما هديين
وكذلك تتساب معانيه في الغزل عبر كل لفظة وبيت وسطر شعري ، كقصيدته ” طفلها الكبير “^(١)
وقصيدته ” سيدي “^(٢) من حين افتتاحها :
” سيدي !
في الباب شاعر جميل
يقول أنه رآك مرة على خياله
فجسّ واشتعل “
الى حين اختتمها :

” قومي وللمي الغرام من مخدعك الأثيل
عن بصري الكليل ، وللمي القبل
فالشاعر الجميل يا سيدي
الشاعر الجميل - غاب .. وارتحل “
وكما في الغزل ، كذلك في الوطن ، غارق فيه حسًا وشعورًا وتعبيرًا دائرًا حوله
دورة كاملة . ففي قصيدته الطويلة ” جريمة الأمس “^(٣) التي ألقاها في كلية النجاح ” بنا بلس
بعد نكبة ١٩٤٨ يطالعنا قوله :

” تلملم الشرق في صحرائه سغبًا
وجوع الشعب في أكناف جنّته
وشردّ الناس كلّ عن خميلته
وتستمرّ القصيدة على هذا النغمة الثائرة في حزن حتى يختتمها بقوله :
” جريمة الأمس هيّا اليوم ندفعتها
قد يحسن الحرب من يمشي لساحتها
ومن الوطن الى الثورة في قصيدته ” جرح بغداد “^(٤) ومطلعها :
” لا تقل هان على الجرح الدّم
كلّما أرهقه البطش نزا
والماء ينضح من صحرائه ذهبًا
كأنّما لم تفض شهدا ولا رطبًا
ليصبح الناس في أوطانهم غربا “
موحدين ، فنرضي الأمس والحقبا ...
ويحسن الكرّ من قد أحسن الهربا “
لم يزل للجرح قلب وفم
بالبطولات .. وصاح انتقموا ...

١- الأناشيد الشعرية ، ص ٣٦١ - ٣٦٥ .

٢- م . ن . ٥٠ ، ص ٤٠٥ - ٤٠٦ .

٣- م . ن . ٥٠ ، ص ٩٢ - ٩٤ ، منشور من أصلها هنا خمسة وأربعون بيتًا فقط .

٤- م . ن . ٥٠ ، ص ٢٥٦ - ٢٥٨ .

شَمًا يَنْضَحُ مِنْهَا الشَّمَّ
تَتَلَهَّى ، وَالرَّدى يَحْتَدِمُ

والبطولات جراح همدت
والميامين على نحر الردى

ويعد أن يعدد الجراح ويثني على البطولات ، يختم بقوله :

كَلْنَا مِنْ دُونِهِ الْمَعْتَصِمُ . . .
والمنى شعب ، وقلب ، ودم "

"ألف لييك . . . وما عزّ الفدا
منطق الوثبة أن نجني المنى

ولم تشهد قصائده الاجتماعية الوجدانية حدًا أدنى من وحدة القصيدة مما رأينا
حتى الآن ، وحسبنا الإشارة الى قصيدته الطويلة الى أمه " من لا مكان في الدنى " (١)

التي يبدأها بالكتابة من . . .

" من الدنى . . .

من لا مكان في الدنى

اليك أكتب . . .

في عتمة المصير والضياغ والونى

أسائل الوجود في جنبى من أنا ؟ "

ويتساءل ويتساءل ويريد فيدزم ، ووسط هذه الأجواء المفعمة بالتمنيات الملتفة بالظلمات

" يظلّ يكتب " الى أمه . . .

" لعالم بنيتّه في خاطري

شيدته بأحرفي

خلقته بالوهم عبر لدّتي في الصحو

والثمل

هيهات أهرب

هيهات منه أهرب

فإنني وقد مضى الشتاء بالربيع لم أزل

من لا مكان في الدنى

اليك أكتب "

وهكذا دار في أرجاء موضوعه دورة تنتهي الى حيث بدأت ، ولا عجب فذلك هو عالم الشاعر

الذي عاشه في الفرح مثلما عاشه في الأسى انسانا عاطفيا يستهلك ذاته على لسانه فلا يتعب

ولا يتوقف ، خاصة اذا كان موضوع القصيدة يدور حول شعبه المشرد في الخيام ، البائس

الجبائع ، الطامع الى ريس وطنه ، كما في قصيدته " اللعنة " (٢) موجها خطابا الى لاجئة . . . :

" عيناك خيمتان ترويان

أسطورة الضياغ في الزمان . . .

١- الأناشيد الشعرية ، ص ٤١٥ - ٤١٩ .

٢- الأناشيد الشعرية ، ص ٢٦٦ - ٢٦٧ ، ومنها اقتطفنا هذه الأبيات المتفرقة بالتالي .

عيناك خيمتان للعداب
تطلّ منهما روى المصاب . . .
عيناك خيمتان للصراع
مغموستان في دم الجياح . . .
عيناك خيمتان للرياح
في عاصف مصقّق الجناح . . .
وأنت يا صاحبة العيون
في غمرة الأشجان أن تكوني . . .
لاجئة . . . ظلّي على يقيني
يا لعنة سوداء في جبيني
ودمعة للحقد في جنفوني
أالخيمتان بعضهما يشقيني
في وجهك المؤرّق الحزين
از تصرخان : للربّ أرجعوني ،
للشاطيء المعدّب الطعين
لحلم شاخ على ظنوني ”

ولن نكون مبالغين أبدا إذا قلنا إنّ شاعرنا سار على هذا النهج من تأليف عناصر القصيدة تألّفا وثيق الصّلات والارتباط لأنّ شعره كان دائما نابعا من مصدر شعوره ، وعمر مصدر لم يشحّ يوما ولم ينضب .

الا أنّنا مطالبون بالكشف عن مجرى جاهليّ له اضطرّ اليه حينما يعامل المناسبة غير المؤثرة في نفسه كما في قصيدته ” الطبيعة المتجهمّة ”^(١) وقد جعل لها مدخلا احتفائيا طويلا أقصاه بعنف عن المضمون الأساسي في المديح .

واضطرّ أيضا الى مثل هذا ، ولكن تلوينا للموضوع الأساسي عن طريق الاستدراج بالمطلع . ففي قصيدته ” عيسى بن مريم ” ينتهز مناسبة ميلاد المسيح الطعين يوم قصف الاحتلال الصهيونيّ كنيسة القيامة ، لكي يحرضه على مشاركته الاقتصار من العدو والمشارك ، فينهي قصيدته قائلا :

” قسماً (بباير) رملها وعوائها
وسياسة التشريد والإبعاد
سيعيش هذا الشعب مهما أبطأت
أحلامه في غفلة الآباد
فأصوغ شعر البعث قرباناً له
وأصوم عنه ليلة الميلاد ”^(٢)

ولكنّ شاعرنا ، من فكرة أخرى انطلق في مطلع هذه القصيدة إذ قال :

” يا ليلة الميلاد هذا شاعر
يشكو الأذى في ليلة الميلاد
أحلامه ذبلت وعاجلها الردى
فذوت على غصن الصبا المياد

١- الاثار الشعرية ، ص ٤١ - ٤٢ .

٢- م . ن . ٥٠ ، ص ٣٤٥ و (باير) منفى صحراويّ في الأردن .

يا أين ؟ أين في الذي أوقفته

وفي مجرى القصيدة قال :

"هذي دماؤك لم تنزل مسفوحة

إكليلك الفخيم الجميل تناثرت

لحناً على التسبيح والإنشاد؟ (١)

فوق الصليب تصيح بالجلاد

أشواكه في أمّتي وبلادي" (٢)

ففي كل هذا سعي الى الهدف الأخير من خلال الإثارة الدينية تحقيقاً للاستجابة الدنيوية .

أما ما يجب قوله هنا ، فانساق كمال ناصر في شعر المناسبات مثلما انساق الشعراء

الأقدمون في موضوعات قصائدهم المتعدّدة ، إلا أنّها عند كمال أشدّ ترابطاً وتلاحقاً . نتوقف

مع قصيدته "يارسولّ الجمال والحبّ والخير" (٣) المهداة "الى روح أبي ماضي" ومنها :

عن مغانيه والضحي لن يميلا

"لا تقل مات ، فالشدا لن يزولا

ثم

يا أبا الشعر قم تطلّع فهاذي

ومشت في ركابه تتملّكي

زمر الخلد قد أطلت فضولا . . .

من حجاه وتستمدّ الأصولا "

ثم يتابع قوله :

"صور للوجود صفت رواءها

ومعان نسجتها فاستفاقت

وبيان كأنما الفيض فيه

وجديد في القول برعم شعرا

ويكمل :

"لست تدري من أين جئت

لست تدري من أنت

الى أن يقول :

"قم تطلّع أخا الشرق واشهد

صرعته أظافر البغي لّما

ويخاطب الشرق :

"أيها الشرق والخلافات ألت

كلّ قلب يرزأ بالخطب

حسبنا حفنة الصعاليك تغزو

وأيرا :

"أيها الشرق يا كريم الضحايا

كنت أرجو أن يعقد النصر تاجا

انّ "قايين" بات يبكي دماها

مصراع الشرق ملعبا وخيولا

حطم الخلف سيفه المسلولا "

من ظلام الأذى عليك السد ولا

ويشكو التشريد والتكिला

من فلسطينا الرّبي والسّهولا "

يا قتيلا يطوي الحياة قتيلا . . .

بين عينيك خالد مجد ولا . . .

بعد أن أورث الرّدي هابيللا "

١- م . س . ، نفسها ، ص ٣٤٣ .

٢- نفسها ، ص ٣٤٤ .

٣- م . ن . ، ص ١٤٢ - ١٤٥ ، ومنها نسجرتي الأبيات التي تمثّل في تسلسلها

ومن تتبّع هذه المعاني نراه ينطلق من مطلع عاطفي فصي شاعر حبيب طواه الردى ، ثم ينتقل الى تمجيد شاعرية الفقيد ، الى توضيح وجوه التجديد في شعر ذاك ، ثم تضمينه بعضا من فلسفات أبي ماضي نفسه ، خالصا الى استنهاضه أولا ليشهد الخطب النازل بالامة ، ثم استنهاض الشرق عامة وقد جعل من فلسطين مادة مثيرة لذلك ، وأخيرا اختتامه القصيدة بحملة من التمنيّات والأحزان "كنت أرجو . . . كنت أرجو . . ." ولو سألنا : ما علاقة نهاية القصيدة بمطلعها ؟ انها سلسلة من التّداييع الفكرية والمعنوية صاغها الشاعر على هذا النمط مثلما بكى الأقدمون على الأطلال ثم تغزّلوا فوصفوا فمدحوا . . الخ .
وعلى غرار هذه ، نسج شاعرنا قصيدته الأخرى في ذكرى الأخطل الصغير "إنّا حملنا عن المصلوب رأيتة . . ." (١) وقصيدته "خالد مات" التي تعرّضنا لها قبل قليل .
وكمال ناصر كعادته لا يستطيع التفكّك من الوطن ، وحتى لو كانت القصيدة دينيّة الطابع وتضمينا لقصة الوحي والبشارة ، فميلاد المسيح . وبعد أن يسير في قصيدته "صرخة الميلاد" (٢) بهذا المضمون خمسة وأربعين بيتا ، نراه ينتقل في مرحلة ثانية الى الشاطيء والبحر والغرب المجرم في ثلاثة عشر بيتا ، ويستقرّ أخيرا على أرض الوطن في الأربعة عشر بيتا الأخيرة قائلا :

يا طرّة الغمام القشيب	"يا بلاد النجوم والحلل الخضراء"
ويا بسمة المنى للغروب . . .	يا رحاب السنّا المطلّ على الكون
عبقريّ المنى ، رهيب غضوب" (٣)	ذات يوم يكبر المجد فيه

من الدّين الى الوطن ، من المآسي والحب والبطولات ، من أخسّ مشاعر الفؤاد الى الوطن . . كل شيء الى الوطن يؤول طالما أنّ الوطن بعيد ، وإلا فهو المصدر . بهذا نفسر سبب سكب الشاعر لوطنه في مختلف قصائده .

رابعاً : المعاني : الوطن مضيق والامة العربية شيع ومذاهب ، فكيف لا يحلم الشاعر بالوحدة والعودة ! في إطار هذين ، دارت كل معاني كمال ناصر سواء أكانت ذات مضمون ثوري أم انسانيّ أم اجتماعي أم دينيّ أم نفسانيّ .

تطنى المعاني الوطنية في شعر كمال على سائر المعاني الأخرى وفي سائر مراحل انتاجه ، في حين يتضائل شعر الفزل لديه بالقياس الى حياته عامة . ففي الوطنية نلمح هاجس الوحدة والعودة قائلا :

إذا ما اقتحمنا رحاب الحذر	"نعود ، بلى اننا سنعود
تعانق من أمسنا ما اندثر" (٤)	على وحدة لملمت شملنا

وفي قصيدته "جريمة الأمس" قال :

١- الاثار الشعرية ، من صفحة ١٤٦ - ١٥١ .

٢- م . ن . ص ٨٤ - ٨٨ .

٣- نفسها ، ص ٨٧ - ٨٨ .

٤- قصيدة "انتفاضة الخيام" ، الاثار الشعرية ، ص ٨٢ .

بالأسجرت علينا الويل والحرأ
وحسبتم أن غدوا في أرضهم شعباً (١)

ويحلوا الرضا ويحلوا القبول...
وحدة درهما طويل طويل (٢)

نجمة نجمة الى أرجائي
وتلقي بمهجتي في لوائي
ويلوح السننا بكل قباء
وتملئي من فيضها اللالاء (٣)
فمنزل يتحقق الحلم ؟ تجيب على ذلك قصيدته "عودة النائر - نداء الخيام" (٤) وقصيدته

فجر أحلامه سخى النهار
ويدعو للضم والأنصار
بين خفق الآمال والأفكار
فتسعى لفرضها في الديار
منذ أن شب فوق تلك الصحارى...
وحنين الأقطار للأقطار (٥)

ويطول بنا المقام في معرض تبيان شعر كمال ناصر في الوحدة والعودة ، فنكتفي

بقصيدته "من وحي الوحدة" (٦) القائل فيها :

"أشهى المنى ما نبضت بالكفاح
فانتفضي يا أمتي واصدحي
اليوم ، لا فجر ، ولا صحوة
طلائع الوحدة هذي ، فإن

وإياحة الخمر في سبيل الوحدة طريقاً للعودة كما تخيلها الشاعر ، ذاك أن نكبة فلسطين كانت سبباً في انخراس الداء الأجنبي في جسم الوطن الكبير ، فلا بد من تقوية هذا الجسم لكي يستطيع قهر الداء نهائياً .

ثم نقصر التمثيل على الجوانب الدينية ؛ ففي شعره عن المسيحية صفاً ونقاءً وظهر

١- الآثار الشعرية ، ص ٩٣ .

٢- قصيدة "وسيبقى البعث الأصيل" ، الآثار الشعرية ، ص ١٢٧ .

٣- قصيدة "في فلسطين" ، الآثار الشعرية ، ص ١٧٢ - ١٧٣ .

٤- المصدر نفسه ، ص ١٨٠ - ١٨٢ .

٥- م . ن . ص ٢١٥ .

٦- م . ن . ص ٢٤٧ - ٢٤٨ .

وشغف بدين التسامح والمحبة ، دين الدعوة الى إقرار الحق وسحق الباطل . في هذا الشعر يدخل السيد المسيح طرفا على الطريق الى الوطن :

يا نبيّ السّلام في الهدأة اليك
على الشاطيء الوجيع السليب ...
ألباد التي عرفت صغيرا
ماجت اليوم بالنوى والشحوب ...
نام عنها حماتها واستباحوا
كعبة النور في الملم العصيب (١)

ويبدو كمال أكثر صراحة مع السيد يستثيره لفضيته بسوءه له :

لم أتيت الدنيا وروحك تعلم
أن عهد السلام ولى وأظلم ...
فهنا سيد السلام بروحه
لامسا في أسى بقايا جروحه ...
ردنا سيد السلام وتمتم
لست منهم ، فإنني أتألم ...
حطموا دولة الأذى واليهود (٢)

وفي شعره عن الاسلام يهيج السبيل نفسه متمثلا بإصرار الرسول على العودة فسي

قصيدته " العودة الكبرى " ومنها قوله :

تهيات اذ هاجرت ، للعودة الكبرى
مشيت اليها ، والخصومات تحني
كأتك في أعصابها الموت : كلما
فكنت على التاريخ أعظم قاءد
فما ضربنا ، لو نظم الشعب نفسه

عدت فراح النصر ينتزع النصارى

أمامك ، لا تنفك مشدوهة حرى

تسامت الى دنياك ألقمتها المرأ ...

تخلدت اذ نظمت عودتك الكبرى

وهيا للفردوس : عودته الكبرى (٣)

ومن وحي رمضان ، نسمعه يطلق صرخته الشهيرة من الأعماق داعيا الزعماء والسياسيين الى تجربة الصوم ..

" فلربما يتألمون ويدركون

معنى الطعام

ولعلهم يتساءلون

ويشعرون ويفهمون :

أن البطولة أن تكافح للجوع ، وللحقيقة .. في الخيام (٤)

وقد شاء الشاعر أن ينهي قصيدته بالسنة التاريخية ..

" أن النهاية للشعوب ، وإن تأخرت الشعوب ..

فبها .. ستنتصر الخيام "

وشاء أن ينطلق من أحد الواجبات على المسلم لكي يكمل اسلامه ، فكان الصيام لأنه يحقق انتصارين يتولد ثانيهما عن الأول ، هما : الانتصار على الجوع بالصبر ، والانتصار على العدو بالصبر المؤمن .

١- قصيدة " صرخة الميلاد " ، الآثار الشعرية ، ص ٨٦ - ٨٧ .

٢- قصيدة " لست مني يا غرب " ، الآثار الشعرية ، من صفحة ١٠٧ - ١٠٩ .

٣- المصدر نفسه ، الصفحات ٦٤ ، ٦٦ ، ٦٩ .

٤- قصيدة " صرخة الخيام " ، الآثار الشعرية ، ص ٧٦ .

أما شعره الاجتماعي - الذاتي ، فالوحدة والعودة كذلك محوره . في قصيدة
" العيد في الخيام " (١) بشير وتأكيد :
" أقبل العيد ، فانهضي يا أماني
لن تعود الحياة للشعب إن لم
وفي قصيدته " شاعر في العيد " (٢) استبشار كذلك وتأكيد للتمخض الطبيعي عن ولادة
الحلم حقيقة ناصعة :

" يا شقاء الحياة أين بياني؟
فالرسول العظيم قد بارك العيد
وحدة العرب لم ينم عنك يوماً
أنت أنشودة تزغرد في القلب
سيلم الزمان شملك مهما
أتراني أضعتته أتراني !
وللعيد روعة ومعاني ...
عربي ينمى الى عدنان
فتأتي بأروع الألحان
أنكرته ذئاب هذا الزمان "

وإذا كانت هناك قيم ومثل عليا يدعو اليها الشاعر كإقرار الحق والعدل وإشاعة
المحبة وإبراز جمالات الخالق في مخلوقاته ؛ فكلها قيم ومثل تنطلق لتلتي في مصب واحد
هو الوطن .

كان متأثراً بالوطن ، بالديانات السماوية ، بالشعب الجريح ، وبالثورة أبطالا وشهداء
فأهدى إليهم عيون قهائده ، وديوان شعره " جراح تغني " (٣) فالشهداء أنبياء والأبطال
براعم تكمن فيها كل مقومات التفجر والعطاء .

خامساً : العاطفة : هل تسمو العاطفة بالمعاني أم المعاني بالعاطفة ؟ عالم الشاعر
كيان متكامل متحد العناصر في توافق تام يرفع واحدها هامة الآخر إن من حيث اللفظ
أم المعنى أم العاطفة أم الصور والأخيلة .

تتوزع عاطفة شاعرنا على ثلاثة خطوط متوازية : العاطفة الوطنية ، والعاطفة الانسانية ،
والعاطفة الدينية ، مع اعتبار ما يتفرع من مظاهر ملموسة . وهو في كل ذلك عاطفة متأججة حادة
مبعثها اكتواؤه بنار الجهاد الطويل في سبيل الوطن . ولا نراه متذبذب العاطفة طالما أن
عاطفته الوطنية دائمة الاستعارة .

في قهائده الدينية هو انسان يذوب تحنانا وإيمانا في محراب الكنيسة ، وأمام المسيح
النائر والنبي المنتصر . لذلك ، أقيم حواراً مع السيد ينم عن تحرره الى انتزاع اعتراف سيده
بحقه المغتصب كما في قصيدته " عيسى بن مريم " وقوله :

" يا أين؟ أين في الذي أوقفته
ما للرؤى العمياء تجس مقلتي
تجري دما ، في مهجتي وتعيش في
لحناً على التسبيح والإنشاد؟ ...
تنتابني في صحوتي ورقادي
روحي ، وتسري عنوة لفؤادي ...

١- الاثار الشعرية ، ص ٧٤ .

٢- م . ن . ، ص ٧٨ - ٨٠ .

٣- م . ن . ، والاهداء ، صفحة ٢٢١ - ٢٢٢ .

أنا لا أرى غير الدموع تسيل من
كبد ي فتغرق مضجعي ووسادي (١)
ولعل الشاعر نظم هذه الأبيات في لحظات امتزاج العاطفة الدينية بالعاطفة الوطنية فقام
يدافع عن كنيسة القيامة التي قصفتها اسرائيل ليلة عيد ميلاد المسيح . لذلك ، وتحت وطأة
عواطفه الجارفة ، يبرر دخوله الى الكنيسة (٢) لا للصلاة وإنما لهدف آخر سام يفصح عنه
في مناسبة أخرى وقد خاطب الرسول بقوله :

”تهيات اذ هاجرت ، للعودة الكبرى
طلائع بعث لم يزل ومضها هنا
تهاديت والإيمان سر ، وللهدي
وفجرت بالإيمان أعماق عالم
وعب اليك الشعب يلقاك داخلا
فكثت على التاريخ أعظم قائد

تأثر الشاعر بالدعوة الاسلامية العملية ، فوحد مع الرسول وعظم قيادته طمعا بنظير لذلك
في شعبه . ولعل أشد ما أثر في نفسه ، أن يتمخض الفقر المدقع واليتم الرهيب عن
انسان غير عادي ، عن نبي ، فقال فيه :

”كم يتيم جنت عليه الليالي
لوحبته الأيام حظا وعظما
كم يتيم جم الرغاب طموح
أحمد ذلك اليتيم المفدى
أيها ذي الألف سيلى حنانا
انما أنت راحة الله للإحسان

وترسيخا للإيمان في صدره ، نراه يردد :

”ونشدنا السلام في كل أرض
وارتضينا بالحب والصنع حيناً

وقد قال في الموضوع نفسه :

”ان معنى الحياة صفح تهادي

ولطالما دار في فلك الدين مشفوعا بعاطفة صادقة ، كأن يقول :

”هذه بلدة السننا
حملت في الأذى الصليب
أترى بعدد للمسيح
لم تنزل بعد صابرة
وشالت بشائره ...
مكان في الناصره ؟ (٦)

١- الآثار الشعرية ، ص ٣٤٣ - ٣٤٥ .

٢- في قصيدته ”لست متي يا غرب“ ، الآثار الشعرية ، ص ١٠٧ - ١٠٩ .

٣- قصيدة ”العودة الكبرى“ ، الآثار الشعرية ، ص ٦٤ - ٦٦ .

٤- قصيدة ”اليتيم“ ، الآثار الشعرية ، ص ٤٩ - ٥٠ .

٥- قصيدة ”صراع وانتصار“ ، الآثار الشعرية ، ص ١٦٩ .

٦- قصيدة ”في فلسطين“ ، الآثار الشعرية ، ص ١٧٥ .

ويكثر الشاعر من ذكر الصّلب - وقد رأينا ذلك في معجمه اللغوي الخاص به - كما يبدو وتأثره بقصص الأديان من مثل "قايين وهابيل" في خاتمة قصيدة "يا رسول الجمال" (١) ، وسيرة النبيين الرسولين ، وقد وقف هوته على الإنشاد والتسبيح باسم الله :

"يلدّ لذكرياتني أن تغني
كما غنى العذارى للمسيح" (٢)

وحين يحاول التشبيه بمطلق ، يقول في حبيبته :

"قدماك عاريتان يا بنت الهوى
قدم ما المسيح الناصري كذاك" (٣)

وفي قصائد كمال الانسانية ، تتجه عواطفه نحو فريقين : الشعب المشرد في الخيام ،

والأطفال الأبرياء البائسين . وهذا الوطن . . .

كم شريد على ملاعبه التلكس
أشعث الشعر مزقته الليالي
أغبر الوجه ، ضامر الجسم يخفي
جائع البطن والذئب سكارى
عاري الصدر لم يجد غير ثوب
يرتديه والريح تعوي وتزري
ويجودون بالطحين عليه
غريق في كبره وهوانه
ودماه جفت على أردانه
ما تبقى منه ومن عنفوانه
رقصت غيلة على أشجانه
حأكه وهمه على بنيانه
ببقايا الأطنار من أكفانه . . .
والعطايا كنّ من إحسانه" (٤)

وهذا هو شعب الشاعر وقد رسمه حقيقة في أطنار كالكنف ، ممزق الوجه والقلب ، دامياً جائعاً عارياً ، والأنكى من هذا كله ، والذي يطعن قلب كمال ، هو مشهد الشعب ينعم الآخرون عليه حتى بالطحين ، بعد عزّ كان فيه ينعم على الآخرين . . . فكيف لا يتحرّق ألماً وتتصاعد زفراته الحرّى ، لا بل يكاد يجدف في القصيدة نفسها قائلاً :

"يا عيون السماء أغمضت لّما
شرّق الكون في أسى طوفانه"

فعندما يستشيط القلب ، يتغافل العقل والمنطق .

وإذا كانت هذه الصورة التابضة أسى ولوعة تختصر ما في صدر شاعرنا من عاطفة متقدة ، فإننا نراها عاطفة تضاهيها في أطنال الوطن ما بين مشردين أو شهداء ، وقد أبصر الشاعر ذلك بأم عينه فتملّت من المشهد بصيرته اثر مجازر اللدّ والرملة وديرياسين وسواهما فهتف :

"ديرياسين والدماء الغوالي
والضحايا الأطفال كلّ صغير
فلذات تصيح عبر خيالسي
لم يزل في العروق منها شذاء
بين جفني دمة خرساء
وتنادي بأننا أبرياء" (٥)

١- الآثار الشعرية ، ص ١٤٥ .

٢- قصيدة "أحبك طفلة" ، الآثار الشعرية ، ص ٢٥ .

٣- قصيدة "الفجرية الحسناء" ، الآثار الشعرية ، ص ٣١ .

٤- قصيدة "الزعامات والشعب والطحين" ، الآثار الشعرية ، ص ٦٣ .

٥- قصيدة "اللقطة" ، الآثار الشعرية ، ص ١٨٥ - ١٨٦ .

ولعلّه تسأل إذّاك : لماذا لا يكون لأطفال شعبه مثل ما كان له من ترف ورفاء واستقرار؟ ومّا أذكرى عوطفه أكثر، طفولته هو أو نظرتة الخاتمة الى الاطفال الضاحكين أو البائسين:

”انهم ملك أدعبي وخيالي
ملء جنبي في العشيّات هاموا
نسجتهم خواطرى وظنوني
ومشوا لوعة بدنيا يقيني“ (١)

من هذه المراحات بين ما كان وما يجب أن يكون عليه الشعب كبارا وأطفالا، راوحت كذلك عواطف الشاعر ما بين الحب العفيف العنيف، والحدق العظيم لأن عاطفة الحب حين لا تجد متنفسا طبيعيا، تختنق فتتحول الى غازات سامة من حدق وبخضاء الى حين يستوي الحق في نصابه. لذلك كان كمال متطرفا في حبه، ومتطرفا في حقه أيضا.

هنا لا نستطيع الفصل بين عاطفته الانسانية وعاطفته الوطنية لأن الجدير بعطفه وحبّه هو ذلك الانسان نفسه قوام شعبه، وقد ربط طرفي القضية من البدء قائلاً:

”مأساة هذا الجيل مأساتي
أنا بعض ما ينساب من دمه
قد ران في درب المني اعتقنا
الارتباط مصيرى محتوم، فليغنّ شهداءه الأبطال بقصائد مفعمة بالحبّ والإكبار... هذا عبد القادر الحسيني أمام الموت:

”ومشى القائد الكبير اليه
ورمى جبهة الصعاليك بالنار
فجنا الحصن في يديه ولاحت
فلذا قبضة الردى تدعيه

ملعبا بالشباب والشيب زاهر
وللصعاليك منا الخناجر...
راية المجد بهية للنواظر...
لا انتقاما، وأتما للمفاخر“ (٢)

وأمام هذا الموقف المهيب لا يسعنا الا اتّخاذ موقف البطل نفسه متأثرين ببطولاته، مثلما جعلنا نقد من الشعب المنتفض وقد...

”حبيل العقد بالقطيع وشارت
سئمت حفنة الطحين على الدّل
وأشاحت عن كلّ بذل رخيص
ان دمع التماسح في الخبث أزرى

شهوات الجراح في الأغنام...
وعافت في الجود خبز اللثام
من السّم والردي في الطعام
بحنان الذئاب في الآجام“ (٤)

فهو مطالب بالثورة التي تطرق أسماع العالم أعداء وأصدقاء...
”علميهم بأن للشعب يوماً
خطرت شمسه الأصيلية في الأفق
تسكب النور والكفاح وترهو

عبقرياً في عمرنا لن يطولا
وماجت فيه ضحى وأصيلا
في جبين الكفاح نصرا ظليلا“ (٥)

- ١- قصيدة "لحظة ظمأ الى دنيا الأطفال"، الاثار الشعرية، ص ١١٧.
- ٢- قصيدة "سألها في قبضي وطننا"، الاثار الشعرية، ص ٥٣.
- ٣- قصيدة "مصراع البطل"، الاثار الشعرية، ص ٥٦.
- ٤- قصيدة "عودة النائر - نداء الخيام"، الاثار الشعرية، ص ١٨٢.
- ٥- قصيدة "صراع وانتصار"، الاثار الشعرية، ص ١٧٠.

لا ننكر أن عاطفة الشاعر في تموجاتها الطويلة قد يصيبها بعض التبدل والخمول فيضعف وهجها تشاؤماً أو يأساً أو ثكلاً ، ولكن ليس قصوراً عميقاً بل انكساراً ناتجاً عن الانكسار الداخلي في نفس الشاعر المرهف .

فلو استعرضنا أكثر قصائد " النهاية " (١) ، لقراءنا عنواناتها : " الصنم ، أغلقت شباكي ، انتظار ، في المستنقع الكبير ، النبي العاجز ، من لا مكان في الدنيا ، المظلة الضائعة " والقصيدة الأخيرة " النهاية " التي تمثل انتهاج الشاعر المرتقب جسدياً ونفسياً . وهذه المجموعة تصطبغ بعاطفة طاغية من الحزن المطبق ، حتى أن قصيدته " الموناليزا " (٢) تنفص بالفاظ موحية بذلك : " الحرق ، الشجون ، الجنون ، الألم ، العدم ، السأم ، الحرمان ، الإسار ، الفرار ، الظنون ، الخوف ، الحثف ، الحنين . . . " هذا اذا علمنا أن لوحة " موناليزا " الشهيرة ، إنما بجمالها ودقة تصويرها للعاطفة الانسانية . ومثل ذلك يفعل شاعرنا في قصيدته " رسالة الى دوقيل " (٣) الى حبيبته في الوطن

وقد جعل قوام سطورها هذه المجموعة من الألفاظ التي تشف عن عاطفة مفعمة بالحزن : -
" الزوال ، الرحيل ، غربتي ، وحشتي ، دوامة الزحام ، الجرح ، العري ، الشكوى ، العذاب ، البكاء ، العويل ، الأسى ، اللعنة ، الدّم ، تخيفني ، ترهبني ، يمتصني ، يعبني ، انتهيت . "
وقد مرت بنا مقاطع عدة متفرقة من هذه القصيدة في صفحات سابقة يختصر جوها العام قوله فيها :

" .. لكنني أسير خلف لعنتي ، أسير خلف ظلي

يحملني الضياح عنسوة ..

وشهوتي للسّير .. للزوال للرحيل .. ! "

ويلجأ الى تشبيه تعارف الشعراء على جمال إشراقته ، ولكن كمال ناصر يقرب المقاييس إبراها لتصوير عاطفته الخاصة فيقول :

" الناس كالنجوم في الغيوم تختفي ، وتجلي

تضي ولا تمضي الى سبيل "

وفي هذا التشبيه لا يمكننا إلا الإقرار بصدق عاطفة الشاعر الحزين الذي تمزق فؤاده وسالت تغتي جراحه .

سادسا : الصور والأخيلة : العاطفة الرقيقة الصادقة مصدر خصب للخيال والإبداع في الشعر ، وألوان ضرورية للصور المنتزعة من الواقع الذي يعيشه الشاعر فردا وشعبا وقضية . وعندما يسوء الواقع ، ينطلق الشاعر في خيالاته معتمدا حتى الأسطورة في قصيدته " طاوية الإخفاء " (٤) متخذاً إيّاها وسيلة للإفصاح والتعبير عن الارادة الحقيقية وقد قال فيها :

١- هي الجزء الأخير من " آثاره المنشورة " من صفحة ٢٥٥ - ٤٢٦ .

٢- م . ن . ص ٤٠٧ - ٤٠٩ .

٣- م . ن . ص ٤١٠ - ٤١٣ .

٤- القصيدة غير منشورة ، حصلت عليها من محفوظات مركز الأبحاث الفلسطينية - بيروت ، وفيها يتعرض كمال لأسماء سياسيين أحياء مما لا يجيز نشرها كاملة للطابع الاتهامي الذي تحمله القصيدة .

* لو كان لي طاقة الإخفاء
من سحرها وسرها
وخلقها المرائي في المكر والدهاء
أبدعت في دربي جديدا عجا
فرضت فيه البذل أما وأبا
.....
لو كان لي طاقة الإخفاء
وزندها الرهيف بالمشاء
عقدتها وسرت في الأيام
أسوح في معاقل الحكام
زرائب الهنات والإجرام
.....
وفي يدي خناجر رهيبية
خناجر مسمومة رهيبية
بالحقد والعذاب والآلام
أضربها في شهوة عجيبة
جريحة الإباء والأحلام
أشفي بها انتقامي
أشفي بها السعير في ضلوبي
والشوق للرجوع
وصرخة الحياة في دموعي
أحيي على شهوتها حطامي
وكبرياء الجوع في عظامي
وذلة الوجود في الخيام
لو كان لي طاقة الإخفاء *

والشاعر ذو خيال مجتج رفيع يرف به في عالم الحقيقة وعالم المجاز (الخيال) عبر
صور بسيطة ومرتبطة ، حسية ومجازية ، وتشبيهات مختلفة تفتح كوى أو تفتح آفاقا وسريعة .
كل ذلك سواء في الشعر الوطني والذاتي الانساني .
من التشبيهات البسيطة في الغزل ، قوله :

وحولي تمسح حوائثيه (١)

*كأني بهذي الذنى آدم
فهو آدم وهي حواء . وهي كلعبتة المحببة . . كوطنه :
"يحملني يشمني يضمني يعبدني
كأني لعبتة التي صل لها

وطاف في محرابها الأمين . . .
فقد أحبني كما أحب وطنه .^(١)

ويرتفع الى تشبيهات وصور مجازية ، كما في قوله : " أنت القصيد ووحى كل مشاعري " .^(٢)
و " شمعة أنت قد أهأت لأحيا ... " .^(٣) ثم في تشبيهه أياها " طفلة كأنسجام العنتود فوق
الدوالي ... " .^(٤)

ثم تتعقد هذه الصور والتشبيهات وتتكاثر عناصرها ، وها هي صورة مركبة للحبيبة
وذكرياتها . . .

وتمرين في المساء بداري
تسألين الضوء الصغير بقربي
وإذا ما دخلت داري وداعسا
ولمحت المأساة في وجهي الساجي
فاهدئي جانبي ولا تتركيني
بين نهب الخطى واستراق
من بعيد عن شقتي واشتياقي . . .
ولمست الصدود في استغراتي
وشممت الفناء في أحداقي . . .
كهد و الحياة بين السواتي .^(٥)

صورة مركبة من عنصرين : أحدهما متحرك هو الحبيبة التي تسترق الخطى لتراقبه . وثانيهما
هو المراقب لا يخترق حاجز الصمت الرهيب بحركة ما . وسواء أكانت هذه الصورة لفتاة
عرفها الشاعر بعد انتقالها الى العالم الآخر .^(٦) أم غير ذلك ، فإن الصورة نفسها تحمل
في طياتها ظللاً معبرة بصدق عن أحلام الشاعر وخيالاته .

يجب الاعتراف بأن الصورة الشعرية المركبة تقل عند شاعرنا بالقياس الى صورته
البسيطة المسطحة في مختلف الموضوعات . وعلينا أن نشير الى بعض تلك في غير الغزل ،
لنرى صورة حسية رائعة للمعركة وكأنا بالفعل نشهدها . . . وقد قال :

" يا مجرمون !

لدى الجريمة يرجفون

وتلعل المتأمرون

ومهوا الى ثكناتهم

يتحصنون !

والمدفع الجبار

يعصف بالمنون

وتخضب الرحب الأشم

وسال في البطحاء دم

واحمرر أنقى وأدلهم

١- قصيدة " طفلها الكبير " ، الآثار الشعرية ، ص ٣٦٢ - ٣٦٣ .

٢- قصيدة " العجربة الحسنة " ، الآثار الشعرية ، ص ٣١ .

٣- قصيدة " أنت كأسان " ، الآثار الشعرية ، ص ٣٢ .

٤- قصيدة " حلوة أنت فابعدى " ، الآثار الشعرية ، ص ٣٨ .

٥- نفسها ، ص ٣٩ - ٤٠ .

٦- هذا المعنى يثبته الشاعر نثرا في مطلع قصيدته من ضمن " آثاره المنشورة " ، ص ٣٨ .

وتشعنت سحب النون

ماذا هناك هل الأكم ؟

علم يرفرف بالشّم

يهتز في ظفر الألس

وشبية يتبسمون ، ويهزأون ، ويهتفون : يا مجرمون !^(١)

أدوات الحرب ، ونفسية المجرمين ، ودم ، وأفق مد لهم ، وغبار المعارك ينجلي عن علم

يرفرف وفريق منتصر . كلها تتآلف لترسم صورة حقيقية تذكّرنا بتلك الصورة التي رسمها

الشاعر " للمظلات كأجنحة الطير " عند مهاجمة الأعداء لمصري عدوان ١٩٥٦ ، وقد برع

كمال في رسم ذلك الإنزال الجوى^(٢)

وفي موقف آخر ، يعيد الى أذهاننا صور طفولتنا بتصوير طفولته تصوير دقيقاً

مستعياً باثنين : أمه ، والطفل كمال . . . ولوحة ناطقة :

عن سرّ آلامي وأنا تبي

ويظلمها تعرّى حماقاتي

حزني وأشلاء ابتساماتي

بحنانها الظمآن ، من ذاتي

هماً وتقسوني مناجاتي

طفلاً أعاني من شقاواتي^(٣)

"وتصبح بي وتصبح تسألني

فعيونها في الهّم ترمقني

قد هاجها ألمي وروعها

فمضت تهدهدني وتسرقني

وتلحّ في نصحي وتقبرني

وتردني ولدا وترجعني

فمن منّا ، صغيراً ، لم تعرف أمه لمرضه فلا يغمض لها جفن ذات ليل ؟ ومن منّا لم تهدده

ترتّب على صدره وتغني له أمه لكي يهجع ؟ وكمن مرة نسمعها تقول " تقبرني داعية

لنفسها بالقبر لقاء الحياة لطفلها ! ولا نستطيع هنا إلا أن نسجل ارتياحنا المتناهي الى

هذه اللفظة التي انتزعها الشاعر من الحياة العامة شأنه في كل صورته وتشبيهاته التي

هي بعض أجزاء مبدثرة هنا وهناك للصور المركبة أو ما يدانيها .

أراد أن يسجل سخطه على نفسه في حالة نفسية متردية فقال : " كأنني قحبة

في كرف قواد"^(٤) مبالغاً في التشبيه . وأراد أن يصوّر مدى فعل الحب فيه فقال :

"هياً أعينيني فقد بات الهوى

يستلّ من جسد النحيل عظامي^(٥)

فجاء تصويراً مجازياً يشابه ذاك في قوله : "والدهر يجتاح الكرام كأنه الخصم العنيد"^(٦)

كما في تشبيهه المجازي الأخير ، مقلوباً عن السابق ، وقد قال فيه :

فما تغير لكنّ شاب فوداه^(٧)

"والنهر كالدهر في تاريخ ثورتنا

١- قصيدة " يا مجرمون " ، الآثار الشعرية ، ص ٩٦ - ٩٧ .

٢- يمكن مراجعة هذه الصورة وغيرها في هذا الفصل ، ص ٣١٣ .

٣- قصيدة " سألتها في قبضتي وطناً " ، الآثار الشعرية ، ص ٥٣ .

٤- قصيدة " الميلاد " ، الآثار الشعرية ، ص ٢٠ .

٥- قصيدة " الى بنت الطبيعة " ، الآثار الشعرية ، ص ٢٣ .

٦- قصيدة " فلسطين الأبية " ، الآثار الشعرية ، ص ٢٩ .

٧- قصيدة " وإنّا هزنا في بعث أمّتنا " ، الآثار الشعرية ، ص ١٣٢ .

وللأبطال شذو عطر، وخاصة اذا كان الشهيد "عبد القادر الحسيني" ،
" لك ذكركم كالزهر يبقى جنيًا " في جبين الخلود ريان عاطر (١)
عندئذ ينطلق التشبيه من صيغة الفرد " طليق كأنت " (٢) في معرض تشبيه الشاعر لنفسه
الحرّة رغم السجن ، بالشاعرة فدوى طوقان الطليقة في الوطن ، ينطلق الى التشبيه بصيغة
الجماعة وهي الشعب ؛ "فصلاة الصائمين كأنما السحر فيها " (٣) لا بل أن الشعب كالإيمان
وقد صور طلائعه المقاتلة :

"آلنا والشعب يحملها
هذي طلائعها مجنحة

ولذلك شبه " صرخة الدمع كوقع الصلاة " (٥) مسموعة لدى الله سماعا مباشرا .
وفي التشبيه البليغ المؤكّد ، أرقى أشكال التشبيه ، كانت قصيدته " اللعنة " (٦)

وقد أرانا صورتين جميلتين لعينين ترويان بالشعور والإحساس ، ولخيمتين ترويان بالمظهر
المأساوي ، فأثار فينا الخيال والشعور بأقصى ما يطمح اليه الشاعر من تشبيهه .
أما التشبيه التمثيلي ، فنق عليه قليلا جدا في صورتين حسيتين أولا ثم في صورة
مجازية . الصورة الحسية الأولى في قوله :

" يا من رأى مظّلتى تضيع ..

تسلّ متي خلصة

كأنها الربيع

ينسلّ من صدري " (٧)

فشبه المظلة في حركة الضياع منجرفة بتيّار العواصف ، بضياع الربيع من صدره بما تحمله
حرارة الصيف من قضاء مبهم على اخضراره . وكما أنّ المظلة رمز للأمل ، كذلك الربيع .
لذلك جعل صورتي التشبيه بحالة " انسلال " توحى بالسرية - الخفة والخفية - لأنّ العمر
هكذا ينفضي وكل شيء طيب .

والصورة الحسية الثانية في تشبيهه التمثيلي :

" يا أمة ظمئت والماء يغمرها
كأنما وضعوا في مائها الرقبا " (٨)

الطرف الأول أمة ظمأى الى ماء يغمرها دون أن تستطيع الشرب منه ولو قليلا . والطرف الثاني
نبيع ماء عذب تتراعى في صفحته أشباح مخيفة . ووجه التشابه بين الطرفين هو ذلك الخوف
الذي ينتاب الأمة كلّما همت بالشرب وهي تعلم أنّ الأشباح التي في الماء لا تعدو سرايا
أو وهاما يتوهمها ضعيفوا الإيمان .

- ١- قصيدة " مصرع البطل " ، الآثار الشعرية ، ص ٥٧ .
- ٢- قصيدة " من الأعماق " ، الآثار الشعرية ، ص ٣٥٠ .
- ٣- قصيدة " شاعر في العيد " ، الآثار الشعرية ، ص ٧٩ .
- ٤- قصيدة " إيمان " ، الآثار الشعرية ، ص ٢٢٤ .
- ٥- قصيدة " اليتيم " ، الآثار الشعرية ، ص ٤٩ .
- ٦- قصيدة " اللعنة " ، الآثار الشعرية ، ص ٢٦٦ - ٢٦٧ .
- ٧- قصيدة " المظلة الضائعة " ، الآثار الشعرية ، ص ٤٢٠ .
- ٨- قصيدة " جريمة الأمس " ، الآثار الشعرية ، ص ٩٣ .

ومن الصور المجازية ، تشبيه الشاعر لطيفه الجبان ..
مكأتما النصر على كفه
شُدُّ بأوتار العلى والجنى (١)

فصور النصر جسما محسوسا فوق كف الطيف ، كأنه قد شدُّ بأوتار تقيده وتتحكم به مثلما فعل الشاعر الجاهلي امرؤ القيس حين شدَّ النجوم وسكَّها " بكل منار الفتل شدت بيد بل " هذه التصويرات والتشبيهات ، لمحات خاطفة في شعر كمال ، الا أن التشبيهات البسيطة والمجازات تكثر وتكثر لديه مضمية على شعره ألوانا بديعة وفاتحة آفاقا زاهية تتمازج فيها متعة حلم اليقظة بالحلم الحقيقي ويصبح للشاعر عالم جديد من أولى خصائصه ، عمقه واتساعه وشموله لما يرضي الطموح ويخصب الخيال . وفوق كل هذا ، كان الواقع الذي يعيشه كمال ناصرا يتحكم بأكثر صورته لكي يقربها ممن صاغها لهم ، لعيونهم وأفئدتهم ووطنهم ، لأبناء شعبه .

ي - الأساليب

يمقت كمال ناصرا الأسلوب الصعب غير المفهوم .. ويؤكد أن لكل شاعر أسلوبا يميزه عن سواه فيشتهر به .. ويعتبر العبارة الانشائية جذوة من نار تلهب الخيال بقوة إحراقها . (٢)

بالنسبة للقضيتين الأوليين ، فقد عرف كمال بأسلوب متفرد يتسم بالسهولة المثيرة ، وبالخطابية المباشرة مفصحا عما في داخله بوضوح شديد لأن قضيته - من خلال شعره - لا تحتمل التأويل والاختلاف في التفسير ، فهي شعب مشرد من وطن مضيق . فكيف لا تصبح عبارته انشائية محرقة للأيدى مثلما أحرقت مكانها ؟ وقوة الإحراق التي يعينها كمال هي قوة التأثير في القلب وإثارة المشاعر والأحاسيس تضامنا مع قضيته الانسانية والوطنية . لذلك ، فعبارات الانشائية تلك تنوز على أساليب الاستفهام والتأكيد والنداء والتعجب فالدعاء ،

يحيث يغطي كل منها جوانب الغزل والوطن والحياة دينا ودنيا ..
أولا : الاستفهام : وسط أجواء الصراع والضيق ، راحت تتواتر على لسانه أسئلة واستفهامات شتى . فهو يسأل الله بأسى :

فأسعدتني وأشقيتني ؟ ...

" لماذا يا ربَّ ألهمتني

فأيقظتني وأشعلتني ؟ ...

لماذا يا ربَّ جرَّبتني

فأطمعتني وأقحمتني ؟ ... (٣)

لماذا كللتني بالمنى

وأكثر من " لماذا ؟ " يطلقها بعد أن " وقع في التجربة " ، فما تحمّل هولها ، فانبجس بلهجة التحضيض يسأل ربه :

مأزلا للورى

" رباه هلا تبرى

تجارك ببقو الببرى ؟

- ١- قصيدة " الطيف الجبان " ، الآثار الشعرية ، ص ٢٥٢ .
- ٢- من أقواله في مخطوطته " كيف أفهم الشعر " .
- ٣- قصيدة " يا أله " ، الآثار الشعرية ، ص ٢٢٥ - ٢٢٦ .

إن كنت ترضى أن يبئد البشرُ
فالإثم ثارت نفسه وانتشرُ
وهام بين الدرّى
معدّ با خيراً

فابدل قلوب الناس خيراً بشرُ
والحق يا ربّي استحق وانتحرُ
يطوي بنا الأعصرا
محطّما أصفرا

ربّاه هلّا ترى ؟ (١)

وهكذا وجد نفسه متلهّفا للانطلاق وهو يسأل نفسه :

" أغتبي ؟ لماذا تراني أغتبي ؟

لماذا أعدّب قلبي بلحني ؟

وألهب جرح الحياة بظنّي ؟ (٢)

لقد وجد الحياة صعبة وعبتا ، ففيها ما لم يمكن تفسيره ولا إيجاد تأويل له :

" جريمة العمر هذي ، من يفسّر لها
ومن يبيّن لأحفاد لنا السببيا ؟ ...

يا أيها الحاكمون الشعب هل شهدت
عيونكم ، شعبيكم في عرضه نكيبا ؟ ...

فيم التناحر والأخصام ترمقنا
إنما ، وتلقي على أوهامنا الرهبيا ؟ (٣)

ويأخذ السؤال بناصية السؤال ، فالضياح متصل الحلقات وسط المستنقع الكبير الذي يجد

كمال نفسه فيه مشدوها :

" من أنت في المستنقع الكبير ؟

لا حول . . لا وجود ، لا قوّة ؟

معدّب مطارد أسير

من هوّة تضي الى هوّة (٤)

وحيث أنّ المستنقع الكبير هو نفسه الوطن العربي الكبير المتساقط تدريجيا ، فقد بدت من

الشاعر صرخة استهجان تستهزئ بقايا الحياء والكرامة في الحاكمين :

" ماذا هناك ؟

ماذا دهي دنيا العرب ؟

ما هذه الصرخات . .

يسفحها الغضب ؟ (٥)

فلا صدق لصرخته يتردد ، بل مزيد من التساؤلات التي تحمل التشكيك بالنفس :

" أظليق في موطني أم سجين ؟

لست أدري ، وليس تدري السجون . .

من تراني بها ؟ ومن ذا أكون ؟ (٦)

ضيعتني عشيرتي ، ليت شعري

١- قصيدة " ربّاه " ، الآثار الشعرية ، ص ٣٥٧ .

٢- قصيدة " انطلاق " ، الآثار الشعرية ، ص ٣٥٩ .

٣- قصيدة " جريمة الأمس " ، الآثار الشعرية ، ص ٩٢ - ٩٣ .

٤- قصيدة " في المستنقع الكبير " ، الآثار الشعرية ، ص ٣٩٠ .

٥- قصيدة " يا مجرمون " ، الآثار الشعرية ، ص ٩٥ .

٦- قصيدة " أظليق أم سجين " ، الآثار الشعرية ، ص ٤٣ .

فلا سبيل اذن ، الا الاعتماد على الذات وتفجير الطاقة الكامنة في النفس .

كيف السبيل الى التاريخ نبعثه

هيا ، نعيد الى التاريخ معناه ؟

أين الطريق الى آفاق وحدتنا

ترد للكبر منا ما فقدناه ؟

أين الحقيقة ضاعت ، كيف ندرکها ؟

حتى نشيد منها ما هدمناه (١)

كيف السبيل الى انتصار الأمة وهذا جزء عزيز منها يتعرض للدمار على يد الأعداء فلا يسعفه

أحد ؟ وفي تساؤل الشاعر حول هذا المشهد ، إدراك ضمني للأمر ، ولكنه يستحث

أصحاب الحق على الأعداء بنعتهم بالصوصية :

دفع القوم لاقتحام الحدود ؟

" من ترى القوم أي وهم مريب

عاصفا بالدمار والتهديد ؟ ...

لمن المدفع الملح يدوي

ومن عالم مضى مؤود ؟

أتراهم من القراصنة البيض

الغرب من عالم جديد تليد ؟ (٢)

أم تراهم من اللصوص ؟ لصوص

هم أنفسهم الانجليز الذين أعطوا فلسطين لليهود ، جاءوا من جديد لكي يعطوا مصر
لحلفائهم ولأنفسهم كذلك (٣) العدو هو نفسه عبر السنين ، فلا ينفع استجداء ولا قعود .
ووجد كمال ناصر نفسه يهاجم بعنف السؤال فتاة من شعبه هي رمز للشعب عامة ، فقال لها :

" أتبكين ؟ ماذا ؟

أما أتبكين ؟ وما أتبكين ؟

وجارت عليك جراح السنين ...

أتبكين ؟

قومي نشد الإباء

على ملعب الكبرياء ...

أيجدي البكاء ، فتحنو عليك عيون السماء ؟ ...

أتبكين دارا سليبه ؟ ...

بريك ، بالدمعة الحاقده ...

سألتك بالكبر لا تسفحها

ولا تطرحها

وهمني عليها العيون

فأنت عليها ، وفيها

إلى روضنا ترجعين ! (٤)

ولا يرجع الروض الا الأبطال والشهداء . وعندما سقط المناضل خالد اليرطبي ، رفيقه ،

وقف كمال غيب الفاجعة يتساءل :

١- قصيدة " وأنما هزنا في بعث أمتنا " ، الآثار الشعرية ، ص ١٢٨ .

٢- قصيدة " المعركة - بورسعيد " ، الآثار الشعرية ، ص ٢٠٦ - ٢٠٧ .

٣- اشترك في عدوان ١٩٥٦ ، كل من بريطانيا وفرنسا واسرائيل التي احتفظت بقطاع غزة
الفلسطيني بضعة أشهر قبل إجبارها على الانسحاب منه .

٤- قصيدة " الدمعة الحاقدة " ، الآثار الشعرية ، ص ٢٣٦ - ٢٣٨ .

من ترى يملاً الفراغ بقلب
من ترى يملاً الخواء بروح
من ترى؟ من ترى؟ وأصمت إكباراً
سقط الفارس الجميل عن السرج
هجرته الأنداء والأزهار؟
خلفتها الأصداء والأطيّار؟
فيا بئس الوفاء والإكبار...
فهبّ المدى وماج العنّار^(١)

ويتساءل الشاعر ويتساءل ، والوطن محور تساؤلاته ، لا يترك له متسعاً لشؤونه الذاتية .
فتراه في الغزل يقول حيناً :

”أنساها ، وفي قلبي
أنساها ، وذكرها
أنساها ، وآلامي
أنا ، ما نفع أيامي

فنحس بأنه يدور في السؤال نفسه دورانا ملفتاً ، ثم لا يلبث أن تتقلب الآية في أواخر حياته ،
ولربّما تكون أثرت مسيرة قضيته الوطنية في كل مظاهر وجوده فظللّتها بالشحوب حين قال :

”أحبّ ، لماذا أحبّك ؟

هل ظلّ لي ..

حنان بقلبك يا قاسيه !

لقد فات ركب الهوى وارتمت

أمانيه ، تكلّى على الرأبيه

فهل تسمعين نداء الحياه

تصيح ، وتصرخ عبر السنين ...

تحرّرا !

فللنّسر هذا الفضاء

يضمّ على مخلبيه الضياء ...

فهل تسمعين عذاب النسور؟

محال . فإنّك لا تلمسين^(٢)

ولا أحد في الكون يعرف طعم عذاب الشاعر ولا كنه آلام أبناء شعبه . لذلك يسأل ربّه مجدّداً :

”ماذا أنا جنيت؟

ربّاه ما جنيت؟^(٤)

وقد أحسّ بالاغتراب النفس عن وطنه في وطنه ، وعن أمته في أمته ، فشكك وآمن وتساءل هل
كان على فلسطين أن تكون ”تفاحة التجربة“ لكي يمتدى بها الآخرون؟ وعاد ليسأل نفسه ،
فقد يكون هو المسئول عن التصور :

١- قصيدة ”خالد مات“ ، الآثار الشعرية ، ص ١٥٣ - ١٥٤ .

٢- قصيدة ”أنساها“ ، الآثار الشعرية ، ص ٩٩ - ١٠٠ .

٣- قصيدة ”الصنم“ ، الآثار الشعرية ، ص ٣٦٦ و ٣٦٧ و ٣٧٣ و ٣٧٤ .

٤- قصيدة ”رسالة من دوفيل“ ، الآثار الشعرية ، ص ٤١٣ .

"وعدت أسمع الصدى في داخلي يصبح في جنون:
هل أنت ما تريد ؟ هل كنت ما تريد ؟" (١)

وقد تسأل في الموضوع نفسه على رؤاه الداخلية : "ماذا أردت أن تكون ؟ ماذا أردت أن تكون ؟" ثم نراه يعترف في موضع آخر ، مجيباً على كل تلك العلامات : "كيف جئنا ؟ وكيف نمضي ؟ لماذا ؟ كلها ، كلها لنا أسرار" (٢)

وهكذا يظل السؤال مثيراً يحرك فينا أعماق النفس البشرية بعنف حتى تتمخض عن شتى التساؤلات حول الكون والحياة والذات ، على أمل أن تعيد بناء الكون الجميل والحياة الحلوة والذات النقية المستقرّة .

ولأن كمال ناصر لم يعرف شيئاً من هذه المظاهر طيلة حياته ، فإنه لجّ في السؤال يودعه كل قصيدة من قصائده لتدبّ الروح فيها ، والروح تبعث الحياة .

ثانياً : التأكيد : ما كان أحرق شاعرنا أن يؤكد مذاهبه ومعانيه ومواقفه جمعاء ، سواءً أكانت مخاضاً يأساً ولوعة أم تشقّ عن حيوية وأمل ، فلكل وجه مظلم وجه آخر مشرق ، وإلا فلا بهجة لدنيا ذات لون واحد و "الفدّ يظهر حسنه الفدّ" .

في البدء كان تأكيد "اللعنة ، اللعنة الكبرى تطاردني" (٣) ثم قطع في الحياة شوطاً أشبه بدرب الآلام الذي سلكه السيد المسيح حاملاً صليبه وإكليله الشائك . كذلك شاعرنا يقول :

"ما أكثر الصلبان . . . ما أكثر الصلبان ! . . .
فلم أعد انسان . . . لم أعد انسان" (٤)

لم تعجبه انسانيته التي لم يستطع تحقيقها فعلاً ، فارتد إلى جراحه يضمّد بها بأسى وهو يعلم علم اليقين أنه في وحدته ، كالنبي العاجز .

"وكنت أدري عندما رأيت ، فاستيقظت ، فانطلقت
أنتي وحيد

لا معولي صلد . . . ولا يداي من حديد" (٥)

ورغم توكيده علمه ، فقد سار متحاملاً محاملاً حتى صرخته مظاهر الحياة في شعبه ووطنه ، فأمن بأن الفرد انتهى أمره ، وغنى أغنية النهاية (٦) وقد ردّد فيها : "أعلم أنني انتهيت ، أعلم أنني انتهيت" كما ردّد "لم يبق فيه زيت ، لم يبق فيه زيت" وانطقاً مصباحه لأسباب يختصرها في القصيدة نفسها بقوله :

"لم يبق من أحبه ومن يحبني . . . اللذة التي مارستها لم تعد تلهمني . . . ألمارد الإيمان لم يعد يصحبي . . . مستنقصي ، لم أعد أحبه ولم يعد يحبني . . . وانتصبت جرمي

تصليبي ."

- ١- قصيدة "النبي العاجز" ، الآثار الشعرية ، ص ٤٠١ .
- ٢- قصيدة "خالد مات" ، الآثار الشعرية ، ص ١٥٢ .
- ٣- قصيدة "الميلاد" ، الآثار الشعرية ، ص ١٩ .
- ٤- قصيدة "المتحف الكبير" ، الآثار الشعرية ، ص ٣٩٢ .
- ٥- قصيدة "النبي العاجز" ، ص ٣٩٧ .
- ٦- قصيدة "النهاية" ، الآثار الشعرية ، ص ٤٢٤ - ٤٢٦ .

الشاعر، هذا العالم من الجراح، يضعنا في الصورة التي آلت ببدايته الى نهايته تلك، فإذا هي أجزاء متناثرة في قصائد... ومنها:

إلاي غفاني فغنييت	"جرح كبير ليس يدركه
.....	جرح تشظى عبر أنسجتي
.....	جرح كإيماني يطاردني
إنسي تعددت تعددت	انظر حناناً عبر تجربتي
وطني الذي ضاع وضيعت	وطني الذي أدميته بيدي
قد ضاق بي حتى به ضقت	وطني الذي لوّنته بدمي
فهجرت له لما به مت (١)	وطني الذي مات الوجود به

فهل هي حقاً جريمته؟ أم جريمة الذين خاطبهم مؤكداً أن نفضهم مهدر في غير وجه خير؛
 ما ضاع من غنى ونضار
 استجددي مسيرة بالشعار...
 حديث الركبان والسّمار (٢)

ثم ينتقل الى أسلوب آخر في تأكيد مبادئه ومواقفه، أسلوب الرفض المطلق:
 لا عبيد ولا صعاليك فيها
 لا اتكالات، لا خرافات تمشي
 لا انحياز للغرب يدمي قواها
 وفي وضع آخر يقول:

لا هوان، لا ذلّة، لا سالم
 وفي مجال التأكيد أيضاً، استمرار الثورة حتى انتصارها، نسمعه يردد:
 لا، لن يموت أنبياؤنا الصغار
 ولن يذل أنبياؤنا الصغار
 ولن يهون أنبياؤنا الصغار (٥)

وهو تأكيد مطلق كنتيجة حتمية لتأكيدات سابقة تتناول الشاعر فرداً، والشعب مجموعاً.
 أما فرديته فليست في الحقيقة الا الصورة الظاهرية للمجموعة، وكل فرد فيها ذاق
 وعانى مما ذاقه كمال وعانى منه، وقد ردد "الأنسا" في عشرة أبيات متتالية من قصيدته "في
 فلسطين" (٦) ناهيك عن ترديداتها متفرقة في هذه القصيدة نفسها ذات الأنفاس الملحمية التي
 ينفثها الشاعر ذكريات خضراء وخضيبية، وتساؤلات وتأوهات، وجراح نائرة على جراحها،

- ١- قصيدة "البعث والأيام والموت"، الآثار الشعرية، ص ١٢٤ - ١٢٦.
- ٢- قصيدة "في الصحراء والخليج العربي"، الآثار الشعرية، ص ٢١٧.
- ٣- قصيدة "في رحاب الجزائر"، الآثار الشعرية، ص ١٩٨.
- ٤- قصيدة "خالد مات"، الآثار الشعرية، ص ١٥٦.
- ٥- قصيدة "الأنبياء الصغار"، الآثار الشعرية، ص ٣١٣.
- ٦- الآثار الشعرية، ص ١٧١ - ١٧٩. والأبيات المشار إليها صفحة ١٧٢ منها.

والتاريخ الثوري لمدن فلسطين ، ولمسات القداسة التي مسح بها الله على تلك السدروب الربيعية . كل ذلك التفت بأسلوب خطابي يعنف حيناً ، ووجداني يرق ، ويطولتي يصخب بالصور التاريخية القديمة :

"إيه عكّا ، عفواً النضال فهذا
البطولات لم تكن غير أنت
قلعة المجد لم تنزل تتنادي
وحراب الجزار ما زال فيها
ويجأ إلى أسلوب أشد تأثيراً ، هو الديني ؛ فالسيد المسيح قام بأولى عجائبه في "قانا
الجليل" ، لذا ، ذكرها الشاعر :

بعض أمسي طلق المنى والجماح -
صمدت فيك زاهيات الصفاح ...
بالمروءات والتعدى والسماح
أثر في النضال شاكي السلاح (١)
عبر بحر الجليل من كل وغد
تتلوى بالثار في كل غمد ...
وغدا بالجهاد والسيف يهدي (٢)
أسلوب اثاره فعال وقد صور عيسى " بالسيف يهدي " وهو نبي الغفران وسيد السلام بالحب
يفعل ما ليس الأب بالسيف يفعل .

وأما فردية الشاعر الأوضح بروزاً على لسان الجماعة ، فنراها في قوله مؤكداً :
"أنا الشعب ، فلتسمعي يا ذرا
أنا الشعب ، إما تلقّت كبر
أنا الشعب ، يا حفنة المرجفين
وفي غمرة هذه الاتحادات التلقائية بين الفرد والجماعة ، يخرج الشاعر بتأكيدات أشد
تفاوتاً ولا بالتصر :

"إن يوم الحساب يكبحه النصر
قد عقدناه في جبين الليالي
سوف نمشي إليه يحملنا
سوف نمشي إليه يوماً كبيراً
نداء يجمع بين "إن" المؤجدة و "قد" للتحقيق وضمان المستقبل رغم الأجواء القاتمة
التي توهم العزائم وتشبث الهم ، وقد استشرى حقد الشاعر على الزعامات الطفافة كلهم
دون استثناء :

ويلوي لجامه الازدراء
خالدا لا ينام فيه الجزاء
الحقد وتذكي روحنا البغضاء
ونهارا تختال فيه الدماء (٤)
"كلهم مجرم" دخيل على الشعب
كلهم مجرم ، ومن نكد الدهر
كلهم مجرم ، فلا تسألوني

يرى راقصاً لدى أحزانه
احتمال الأذى ولثم بنانه
واسألوا الحكم عن مدى أهغانه (٥)

١- قصيدة "في فلسطين" ، الاثار الشعرية ، ص ١٧٥ .

٢- نفسها ، ص ١٧٦ .

٣- قصيدة "أنا الشعب" ، الاثار الشعرية ، ص ٣١٧ .

٤- قصيدة "اللقطة" ، الاثار الشعرية ، ص ١٨٧ - ١٨٨ .

٥- قصيدة "الزعامات والشعب والطحين" ، الاثار الشعرية ، ص ٦١ .

وتكتمل فصول المأساة وشعور الشاعر بالحزن من ارتباطه بالمأساة التي تقف مضاجع أهله
وشعبه ، فإذا به يردد :

"مأساة هذا الجيل مأساتي
قد ران في درب المنى اعتقا
وجراحه الشكلي جراحاتي ...
هيهات ينفصلان .. هيهات" (١)

عن هذا العالم المادّي ينكفيء الشاعر الى عالمه الداخلي لعله يجد مستراحا لقلبه ، ومنهلا
لحنانه ، فإذا به يشاق الى عالم الطفولة الهرىء ولا ينفك يستنثيث :

"أنا ظمآن يا روى فاسقيني
أنا ظمآن لا حبيب جديد
من جراحات حاضرى ، ينسيني
ضاق في ثورة الأسى بالحنين
أنا ظمآن لا خيالي طليق
أتلّس بحلمه المجنون" (٢)

وبسبب هذا الظمآن القاتل رأيناه يقف متبالكأ على محطة العطش المزمين الى الاستقرار وبلوغ
الأمانى ، يقف مردداً :

"وهى القطار
مضى القطار ...
مر القطار
مر القطار ... مر القطار ... مر القطار ...
لم يبق للدنيا وقار
لم يبق للدنيا وقار ...
الشعب نار
الشعب نار ... الشعب نار ... الشعب نار ...
ومضى القطار ... مضى القطار"

وهكذا كان كمال ناصر في أكثر تأكيداتاه معبراً عن يأس قاتل ، وعن تفاوت شبه مطلق ،
وعن ضياع عماشه فنقلنا الى عالمه في شتى وجوهه ... بعبارة يفرحنا وبعبارة يحزننا ، وبعبارة
يحيي آمالنا هذا الشاعر الخطيب ، الشاعر الوجداني الرقيق ... بأسلوب عاطفي مؤثر ،
وأسلوب حماسي مشجع ، فنشاركه النداء ونتعجب لتعجبه ، وندعو أن تستجيب السماء لدعائه .

ثالثاً : النداء : =====
وآى شيء ينادى كمال ناصر ، الشاعر ، العاشق ، ابن فلسطين
المؤمن بالله وبالوطن ؟ ينادى الرسول العربي تكراراً :

"يا رسول الاسلام قد أقبل العيد
وللعيد روعة ومعاني" (٣)
ويناديه في موضع آخر :

"يا نبي الهدى وحامي الديار
ورسول السماء للأحرار ..."

- ١- قصيدة "سألها في قبضتي وطناً" ، الاثار الشعرية ، ص ٥٣ .
- ٢- قصيدة "لحظة ظمأ الى دنيا الأطفال" ، الاثار الشعرية ، ص ١١٦ .
- ٣- قصيدة "شاعر في العيد" ، الاثار الشعرية ، ص ٢٩ .

يانبىي الالهام والشعب ثارت
يا نبىي الصراع أشرق على الأرض
يا نبىي الصحراء هذي بلادي

وينادي السيد المسيح مرارا :

"يا رسول السلام ، ان بلادي
يا رسول السلام ، هذي الجزائر
يا رسول السلام في بورسعيد

وفي كلا الندائين خشوع وأمل بأن تتحقق أمنية الشاعر في وطنه . وينادي بحبيبته الصغيرة
نداءً مطلقاً :

"فيا حبا شقيت على يديه
يلسذ لذكرايتي أن تنغي

ويترجى أن تحييه بعد افتراق :

"إيه يا حلوتي - بريك - ظلي

أتبقى العمر تلهيني وتوحي
كما غنى العذارى للمسيح (٣)

قطرة للندى على أوراقتي (٤)

وأجمل نداءً ، ذاك الذي وجهه الى أمه حين أحس بوطأة الفراق وطغيان المآسي على
حياته وليس له غير صدرها متكا ومستراح ، فنادهاها :

"أماه .. يا ظلي ومرآتي

إني أحس الكون يصخب لي

فترقني أماه واصطبري

أماه .. يا أعلى صدقاتي ...

ضاقت ملاعبه بغاياتي ...

سأظل أعد وخلف زلاتي (٥)

ومن المشاعر الحميمية التي يضح بها قلب الشاعر ، كان رثاؤه الحميم لقرينه وقد ناداه متفجعا :

"يا يوم فقدك يا سهيل وقد غدا

يا أيها الملك الوديع ألا اتئد

والهفتاه لبيرزيت قد قضى

فرداً لدي الأيام في حكم الردى ...

قرحت أجفاناً عليك وأكبدا

غضاً فأبكانا وأبكى الجلمدا (٦)

ورثاؤه الذي تتفجر العاطفة فيه كالبركان يتحدى صلابة قشرة الأرض فيحطم ضلوعها :

"أيها الموت ! ته علينا وفاخر

أيها الموت ! لا تسل أنت أدري

يا فقيد الشباب حسب المنايا

لم يطش سهمك اللثيم الغادر ...

كيف يسعني الى حماك المغامر ...

لوعة أن تقول : مات القادر (٧)

لا عجب ، فالقادر البطل هو الشهيد عبدالقادر الحسيني الشهيد في سبيل الوطن نفسه ،
وطن الشاعر الذي يناديه :

- ١- قصيدة "في الصحراء والخليج العربي" ، الآثار الشعرية ، ص ٢١٣ و ٢١٤ و ٢١٦ .
- ٢- قصيدة "لست مني يا غرب ..." ، الآثار الشعرية ، ص ١٠٧ - ١٠٨ .
- ٣- قصيدة "أحبك طفلة" ، الآثار الشعرية ، ص ٢٥ .
- ٤- قصيدة "حلوة أنت فابعدني" ، الآثار الشعرية ، ص ٣٩ .
- ٥- قصيدة "سألها في قبضتي وطناً" ، الآثار الشعرية ، ص ٥٣ - ٥٤ .
- ٦- قصيدة "فقد سهيل" ، الآثار الشعرية ، ص ٤٦ .
- ٧- قصيدة "مصراع البطل" ، الآثار الشعرية ، ص ٥٥ و ٥٧ .

"يا بلادَ النجوم والحلل الخضراء
يا رحاب السّنا المطلّ على الكون
يا ندا" يرفّ عبر خيالسي
وينادي الشاعر وطنه من خلال الرّمز :
"أيها الشاطي" الجريح بصدري
يا يديّ المديدين إليّه
أيها الشاطي" المشوق إليّ
ويناديه رمزاً مرتبطاً بالشاطي" ، "زورقاً حائراً" (٣) يجري في الشاطي" الحزين ، زورقاً للنّجاة
يستجد بالثائرين على الحاكمين :

يا طرّة الغمام القشيب
ويا بسمة المنى للخروب
خالدا بالحداء والتّشبيب (١)

لا ترفرف بالعجز في مقلتيّ ...
ناء عبّ الحنين بين يديّ ...
أنا أهواك بأكيأ مبكيأ (٢)

(٣) يجري في الشاطي" الحزين ، زورقاً للنّجاة

"يا أيها الحاكمون الشعب هل شهدت
يا أيها الجيل من أبناء أمّنا
ومن غير شباب الجيل الجديد ، عماد تحرير الوطن ، فيناديهم :
"يا شباب البلاد ، ما أضيع العمر
يا رجال البلاد هذي البقايا

وفي النداء حفا واستنهاض للهمم . ولم يكن ذلك مقصوداً على بني البشر ، فقد شمل نداؤه
فلسطين الوطن مشيعاً روح السفال فيها :
"يا فلسطين ، لا تبالي فإنا
يا فلسطين ، لا تنامي ففينا
وشمل نداؤه كل ما تُعروف على أنه مظهر فقر وبؤس وخضوع في حين لم يرها كمال واجهته
أن تظلّ كذلك فينفع فيها :

قد روينا والخصم ظمآن صاغر ...
أمّة تصفع الزمان القاهر (٦)

"فيا بقايا الخيام

يا وهمة لا تنام

يا قنبا جريحة بالطعام

يا قنبا شقيّة بالكسرام (٧)

ولا تندلع شرارة الثورة إلا من هشيم الفقر والبؤس والحرمان والاضطهاد . بهذا الهشيم
التّف الشاعر المؤمن بشعبه من بعد الايمان برّه . لذا ، يستعير لنفسه أجنحة من الوهشم
ليرتفع الى الحقيقة :

وندا" الماضي وأحلام أمسي ...

"يا جناحي ، هنا مرابع أنسي

- ١- قصيدة "اسكدرن - اللواء السليب" ، الاثار الشعرية ، ص ١٩٣ .
- ٢- قصيدة "حرمان" ، الاثار الشعرية ، ص ٢٤٩ - ٢٥٠ .
- ٣- هو عنوان قصيدة له في "آثاره الشعرية" ، ص ٨٩ - ٩١ .
- ٤- قصيدة "جريمة الأمس" ، الاثار الشعرية ، ص ٩٢ - ٩٣ .
- ٥- قصيدة "الزعامات والشعب والطعين" ، الاثار الشعرية ، ص ٦٠ و ٦٢ .
- ٦- قصيدة "مصراع البطل" ، الاثار الشعرية ، ص ٥٦ .
- ٧- قصيدة "غضبة فلسطين" ، الاثار الشعرية ، ص ٣٢٢ .

يا خيال الصحراء يذكي خيالي لا الأمانى ولا التشوق ينسى (١)

وأبي شيء لم يناده الشاعر كرمي لوطنه؟ الغرب المجرم سبب ضياع فلسطين؟

"يا مكذونالد ، ترى تناسيت المودة والعهدود

أيام كنت لنا الحليف وكنت ذا الخلل الودود ...

يا ليت شعري هل عفت تلك الوثائق والوعود ...

يا دولة التيمس ابعدى عنا أذى الشعب الطريد (٢)

وفي ندائه التذكيري هذا استرجاع لسيرة الغرب الخائن للوعود التي قطعها على نفسه

للغرب إن هم ساعدوه ضد الأتراك ، ففعلوا ولم يف بوعوده ، لا بل غصبهم فلسطين غنيمة

للصهاينة - الشعب الطريد .

أبي شيء ينادى أيضا؟ الشرق ...

"أيها الشرق والخلافت ألفت

أيها الشرق يا كريم الضحايا

أم بقايا الحنان في هياكل الشعب القاحلة !!

"يا بقايا الحنان ، ثوري على الضيم

أيها الحب في الضلوع تلمس

حتى الجوامد يناديها الشاعر بحرارة تفجر أعماقها :

"يا خفقة العمر بخلع القدر

يا فكرة ناءت بحمل الثمر

عذراء ، من أنت؟

يا بكر أم حملت بالمنى

تسكبها على جراح الدني (٥)

"ترزعبها خصبا ، ونعمى سنى" فيخصب تراب الوطن حرية ومجدا فيتغيا الشاعر أيكبه

وتقطع الجراح عن الغناء .

رابعاً : التعجب : والتعجب أسلوب اعتمده الشاعر لفائدتين اثنتين : إما إعجاباً

بواقع عذب جميل يتمنى دوامه ؛ ولما استنكاراً لواقع مرير يحاول تغييره . فكيف نتبين كليهما

في شعر كمال ، ولو قصرنا التمثيل ؟

عندما حل العيد على الشعب في مطلع تموز ١٩٥١ ، لم تكن مضت على النكبة

الكبرى خمس سنين ، فاجتمع في العيد مكروهان حولاه عن سعادته : استمرار النكبة ،

وفرق الشاعر في بؤس التشريد مما دفعه الى التعجب من الواقع المختلف للعيد وقد ضيع

١- قصيدة "في الصحراء والخليج العربي" ، الآثار الشعرية ، ص ٢١٠ - ٢١١ .

٢- قصيدة "فلسطين الأبية" ، الآثار الشعرية ، ص ٢٩ .

٣- قصيدة "يا رسول الجمال" ، الآثار الشعرية ، ص ١٤٤ - ١٤٥ .

٤- قصيدة "صراع وانتصار" ، الآثار الشعرية ، ص ١٦٩ ، والبيت الثاني يسبق الأول أصلاً .

٥- قصيدة "التفاحة المحرمة" ، الآثار الشعرية ، ص ٢٣١ .

نفسه يوم تاه عن لسانه وأحلامه فقال :

" يا شقاء الحياة ، أين بيانسي

أين شعري ؟ ولم يكن غير شعري

أين ما قد بنيت في عالم الوهم

ويقترن أسلوبه التعجّبيّ باللّهجة الساخرة تضي عليه من مارتها في تصوير الواقع المأساوي وهو يخاطب الزعماء العرب المسؤولين عن النكبة :

" ماذا فعلتم بالبلاد سوى القضاء على البلاد ؟ ...

أين العروبة ، ركبها الجبار ، ما بين العباد ؟" (٢)

من هذا الواقع المزري ، يريد التخلّص إلى واقع مثاليّ ينشده عبر الحياة الدنيا والحياة العليا .

ففي الحياة الدنيا ، يغم قلبه إعجاباً ببطولة الثورة الجزائرية العربية عبر بطولتها جميلة .

في غمرة الأهوال والبطولة

أطلّ في سماءك الظليله

فاشتعلت بالمجد والرجوله ...

بلا بل حبيسة مغلوله ! (٣)

" أي هوى إلى العلى دعاك

أي نداء خالد جريء

أي روىّ مشت إلى ذراك

ما أجمل الألحان أطلقتها

وفي الحياة العليا تهزّه نفحة النبوة عبر يتيم نابه هو الرسول الكريم :

أين منه الأنيس من أصحابه

وللمرء هزيمة في شبابيه ...

عبقريّ الفؤاد أروع نابه ...

للمعالي قضى صريع رغابيه ...

رفع الحق فاستوى في نصابه (٤)

" أين منه الحنان في ظلّ أهل

أين منه أبوه ينفحه العزم

كم يتيم جنت عليه الليالي

كم يتيم جمّ الرغاب طمّح

أحمد ذلك اليتيم المفدى

وفي مواقف أخرى مختلفة ، يقف الشاعر موقف المتعجب والمعجب معاً : المتعجب من أمر

يرى ضلاله ، والمعجب بتصرف يوقن من صوابه .

ها هو يرفض أن يرى ابن وطنه واقفاً في ذلّ ، كلاجي مقيد لا يستطيع فككا

وانطلاقاً ، فلا شيء في الكون مستحيل . وبإيجاز بليغ وصارم يخاطبه :

دنيا تُظلّ وجودي ، والعلی قدر

تشيلني بين عينيها فانتصر ...

من مقلتي دمة حمراء تهمر ...

هانت وهان بها التاريخ والبشر (٥)

" ألاجي أنت ؟ لا . فالمجد والظفر

أتى تشردت لي في الدرب قافلة

ألاجي أنت ؟ عفو الكبر إن نفرت

هان العذاب على صدر الخيام وما

وفي موقف آخر مطلوب منه أن ينسى ، يميّز بإرادته ما يجب وما لا يجب ، فإن ينس فلن

ينسى واقع حاله ولا بطولات رجاله :

١- قصيدة " شاعر في العيد " ، الآثار الشعرية ، ص ٧٨ ، وقد نظمها للإذاعة في ٥ / ٧ / ٥١ .

٢- قصيدة " إلى أقطاب الجامعة العربية " ، الآثار الشعرية ، ص ٥٩ .

٣- قصيدة " إلى جميلة " ، الآثار الشعرية ، ص ١٩٩ و ٢٠١ .

٤- قصيدة " اليتيم " ، الآثار الشعرية ، ص ٥٠ .

٥- قصيدة " ألاجي أنت ؟ " ، الآثار الشعرية ، ص ١١٩ .

كيف ننسى الهوان والبطش والقدر
 وللجرح في ربانا لواء؟
 كيف ننسى أبا المروءات لَمَّا
 صرعته في القسطل البرحاء (١)

بهذا الأسلوب الاستفهامي الذي يحمل معنى التعجب، يخاطب الشاعر جمهوره وشعبه
 معبراً عن أفكارهم وقضاياهم اليومية، وعن تطلعاتهم إلى المستقبل المنشود، كاشفاً عن
 الحق كاشفاً الباطل بالتعبير الشعري المشهور "ليت شعري" ..

"ليت شعري! والموت يمشي إلينا
 بالأعاصير، أينما المسؤؤل ...
 من خلال المأساة ألمح يافا
 كسراب يمشي إليها الجليل
 كيف لا تغضب الجبال وتسري
 شهوة الفتح دونها والسيول (٢)

لا بل فلتغضب الجبال - حتى الجبال - والعجب، كل العجب، إن لم تغضب، أيتها
 دعوة وقادة للغضب كي يثور شهوة المنتقم من أعدائه الذين شوّهوا جمالات يافا مدينة
 البرتقال الجميلة، وأفسدوا الجليل العربي أرضاً وسماً.

وكل ما في الكون يدعو إلى التعجب، من مأساة تشده التآهين، إلى بدائع ما
 صنع الخالق تبقي في نفوس القانطين من رحمة البشر شعاعاً من أمل برحمة الخالق الرحيم.

خامساً: الدعاء: يكون الدعاء لله تعالى أصلاً، فيتجه المؤمن إليه مستغيثاً
 من مستكراً أو مستزيداً لِمَسْتَحَبٍّ .

وإذا كنا، في ما مضى، بيتاً عمق إيمان شاعرنا بالأديان السماوية، فإن الإيمان
 الحق يوجه صاحبه إلى الخير دوماً، ولكننا إذا وهدنا شاعرنا يقول في أحد أدبيته:

"لا سقى الله حقبة
 جمعتنا على الوجود
 شوّهت من وجودنا
 طعنت وثبة الجدود (٣)

فإنه يلعن تلك الحقبة التي صار خلالها المستعمر العثماني يتلاعب بأعناق الشعب العربي
 ومقدراته، فيتمنى الشاعر أن يبذل الحال بأحسن منها، وهكذا يفعل حين يدعو القضاء
 والقدراً أن يتدخل فعلياً في عملية التغيير، متمنياً:

"لو تستجيب الأرض ثانية
 لو يرجع التاريخ مرحلة
 لو يستحيل العمر معجزة
 يخضّرني عمري لها نبت
 ينهار عبر ظلاله الوقت
 أرتدّ فيها مثلما كنت (٤)

وفي الدعاء والتبني محاولة خلق وابداع وقفزة من جحيم المألوف المملّ باتجاه الأحلام البيضاء،
 وهذا الشاعر - محمولا على أكف الله - يدعو بخسارة وهدق:

"فلا تتركني وحيدا
 أما رسخوني وحيدا

- ١- قصيدة "اللقطة"، الآثار الشعرية، ص ١٨٦، وأبو المروءات هو الشهيد عبد القادر الحسيني الذي سقط في نيسان ١٩٤٨ بمعركة القسطل.
- ٢- قصيدة "وسيبقى البعث الأصيل"، الآثار الشعرية، ص ١٤٠. ويافا مدينة ساحلية في وسط فلسطين. أما الجليل فهو القطاع الشمالي من فلسطين ومن أجملها وأخصبها.
- ٣- قصيدة "اسكندرون - اللواء السليب"، الآثار الشعرية، ص ١٩٢.
- ٤- قصيدة "البعث والأيام والموت"، الآثار الشعرية، ص ١٢٤.

لأنني برغم ادعائي
أحب الحياة (١)

ويؤكد دعاءه بالنفي وحرف التوكيد معاً "لا تتركني" ، فهو الانسان ، يتمنى أشياء وأشياء
يلون بها عمره فيزدهي . ومما تمنى لشعبه كما تمناه لنفسه :

" لو كنت أستطيع "

أن أسمر الربيع

في جوانح الحياة

يا حبذا لو كنت أستطيع ! !

أن أصلب الزهور في الحقول

شهوة لا تعرف الذبول

لو كنت أستطيع "

أن ألمم النجوم

من بيادر الغيوم

أنثرها في درنا الشقي بالوجوم

أذا كرت . . يا حبذا خيالي

يشيلني من مقلة الآمال

ينثري في القدس ، في رباها

أعقر الشقاء في ثراها (٢)

والشعب هو محور تفكير الشاعر يدعو الله لأجله ، فليس غير شعبه من هو أحق بالنصرة والتأييد .

الآن لحظات التشاؤم والياس تتلبد في حياته فيحس بالارهاق النفسي قبل الجسدي ،

فيدعو بحرقة :

" يا ليت كان لي

روح بليد

قلب بليد

أررف من دون غايه (٣)

ليس هذا الدعاء الى هكذا حياة " من دون غايه " من صلب أخلاق الشاعر وممارساته الواقعية

لولا أنه يبادرنا بقوله :

" يا حبذا السكون !

في خاطر الدنى

يا حبذا الجمود في الوجود

مشرّد المنى (٤)

- ١- قصيدة " صلاة لم تتم " ، الآثار الشعرية ، ص ١٠٢ .
- ٢- قصيدة " أذا كرت بلدتنا القديمة " ، الآثار الشعرية ، ص ٢٢٥ و ٢٢٦ و ٣٢٢٧ و ٣٣٠ .
- ٣- قصيدة " عرفت يا الله " ، الآثار الشعرية ، ص ٢٢٥ .
- ٤- نفسها ، ص ٢٢٦ .

فقد أصابه التعب من الاغتراب وأوهنه التشرد والحنين الى الوطن فصرخ بملء فؤاده :

" ... فليتني أضيع

يا ليتني أضيع (١).

ولا مجال أمامنا لكي نستفسر عن سبب اطلاقه هذا الدعاء - التمني ، لأن كمال ناصر استطاع من خلال " انشاءاته " التعبيرية - إن جاز التعبير - أن ينجح بنا في زحمة حياته بشتى عناصرها المتصارعة فيشيرنا بأسئلته ويقنعنا بتأكيداته ، ونشاركه النداء أو نحسب أننا المعنيون به إذا شاء . واستطاع أن يهز أوتار قلوبنا اعجاباً وتعجباً على السواء فندعو له بالعيش المطمئن مثلما توصل الينا بدعائه أن نشاركه الدعاء ليعيش شعبه مطمئناً في وطنه . من لوحات الواقع انتزع صورته ومعانيه وأفكاره بمختلف الأساليب التي من شأنها أن تولد التأثير الصادق من التأثير الأصدق .

ك - شهادات في شعر كمال ناصر

يتضح لنا جلياً ، كيف آخى كمال ناصر الوطن - القضية ، وتنفس المأساة بخلايا الشعب ، جزءاً من خلاياه ؛ فجاء شعره عاطفياً ذا نغمة حزينة ورنّة صادقة ، ملتزماً في حدود إفناء الذات مع انطلاق ميدانيّ سياسيّ - أكثر منه أدبيّاً - تجاه تحليل النكبة ورسم معالمها ووسائل معالجتها .

أنشد النكبة فهيج النفوس ، وغنى الثورة فأطلق كوامن الهمم . بدأ واقعياً في الغالب ، وأحياناً عاش الرومانتيكية العابرة حالماً وناثراً ، فحاول أن يحقق أجمل صورة لذاته . عالج أفكاره بأسلوب سهل لا تعقيد فيه ولا التواء ، حتى في التفاتته العابرة إلى الحقائق من خلال رموزها ، فقد عالجها بأسلوب قصصيّ وتصويريّ مفصلاً من البحور " الخفيف " لطواعيته في تقبل مختلف موضوعات الحياة . انفعل بصدق ، وعبر عن ذلك بأمانة أدت به إلى الانطلاق من بعض قيود الشكل الكلاسيكي خاصة في إظهاره الحنين الأموميّ إلى الوطن المتمزق ما بين تعاسة الخيام وماضي القصور والجنائن . كان منحازاً إلى الحق وإلى كل دين يناصره . وأحب فضحى وأخلص حيث لا يضحى إلا من أخلص . وحقد عن وهي إلى أن ينمر الحقد نأراً وحرية لأن الفلاح لا يحقد إلا على أرض يعطيها فلا تعطيه ، وخصن يشد به فلا ينمر .

يمكن النظر إلى نتاج كمال الشعريّ متمحوراً حول الوطن ، مصطبغاً بلوانه في أحواله ؛ ففي " بواكير " (٢) شعره ، طغى عليه قصر القصائد . وفي الموضوع ، طغى الغزل ، والعيون بصورة خاصة ، كما أنّ فيه الرثاء ، والتجديف في البحر " الخفيف " . أما الغزل ، فلأنه مرتبط بالحب الذي تتفتح أزاهيره مبكرة قبيل الرشد . وأما الرثاء ، فلأنه - صبيّاً - سريع التأثير والانفعال ولاسيما ازاء الأقراب والأصدقاء حين تكون العاطفة جائحة وغفوية

١- قصيدة " المظلة الضائعة " ، الآثار الشعرية ، ص ٤٢٣ .

٢- الآثار الشعرية من صفحة ١٩ إلى ٥٠ .

الظهور. ولا يخفي في هذه المجموعة تأثيره بالرسول العربي رمزاً لليتيم التأبه الناخ، كما يبد وتأثره المبكر بأحمد شوقي الشاعر. وإذا كان لشعر الصبا دلالات، فهي من قبيل الإيحاء أو التنبؤ بشاعرية خصبة لا بأس إن تعثر صاحبها في البداية وتلك سنة الطبيعة، إنما شعر الصبا هو الأساس الذي ينطلق منه الخط البياني المرتقي دائماً نحو النضج والاكتمال سواء في ما يختص بالشاعر نفسه أم بدارسي شعره.

وفي مجموعته الثانية "خيمة في وجه الأعاصير" (١) هو فعلاً نافذ إلى قلب الخيمة بشعبها المتعالي الصراخ في العيد أكثر منه في غيره، ونافذ إلى ما يحيط بالخيمة من زعامات وذئاب وحكام وتعالب، وإلى ما يمكن أن يقف بالخيمة لي وجه الأعاصير لا تشبيهاً لوجودها، بل اتقاءً لفقدان البائسين لها وهم في أمس الحاجة إليها. وتطفح المجموعة بشعر البطولات والأبطال والشهداء، ثم بالشعر "البعثي" السياسي وشعر التجوال في أوطان الآخرين. في كل ذلك كان أصدق شعوراً من ذي قبل وأوضح نمواً وتكاملاً فنياً. بالنسبة للأوزان، فقد ارتاح كذلك إلى "الخفيف" يليه "الكامل" بأشكاله حراً وكلاسيكياً. ثم "المتقارب" في زمنيته، كما أن "للبيسط" وجوداً بيناً إلى جانب اختفاء الحرّال في أربع. كذلك، فإنّ اللهجة الخطابية العالية النبرات بادية في صخب في قصائده: خالد مات، إنّا حملنا عن المصلوب رايته، يا رسول الجمال، جريمة الأوس، انتفاضة الخيام، وقصيدي الذكرى لميلاد "البعث". في كل تلك القصائد كان خطيباً منشطاً لا بل مهيّجاً للمشاعر مُثيراً للأحاسيس، وقد أسعفه شكل القصيدة الكلاسيكي القديم فيما أسعفه البحر. والناظر في شعر المجموعة يلحظها تفيض بشعر المناسبات سياسية أو وطنية أو دينية وأدبية وجدانية، وتغطي حلقة من الزمان تبدأ بعام النكبة ١٩٤٨ وتستمر حتى منتصف العقد السادس، وإن امتدت إلى أول السبعين فقط في رثاء خالد اليشرطي.

"أنشودة الحقد" هي المجموعة الثالثة من ضمن "أعماله الشعرية" (٢) المنشورة. وكما مر، فهي في أربعة عشر مقطعاً وقصيدة ٠٠ الحقد في سبيل الثأر مبدأ عام فيها ٠٠ حث على الثورة وتمجيد لثورتها مندوعة. ولسنا نرى اعتماداً فيها البحر "الخفيف" إلا لشعوره بأن القصائد - الأوطان، تمثل كلها وحدة متكاملة والوحدة مطلب قديم من التاريخ الأول. والتعلق بماضي التاريخ يجعله - كما فعل - يتعلق بماضي الشعر الكلاسيكي القديم. وكانت مجموعته الرابعة "جراح تغسّي" (٣) قد صدرت وحدة مستقلة في ديوان عام ١٩٦٠. أما موضوعاتها فتنبع من تسميتها ٠٠ كل شيء يمكن أن يُجرَح فهو ينزف دماً والدنيا لا تسمع إلا جراح الأبرياء الشرفاء من أبناء الشعب. والمجموعة تعالج موضوعات متفا وتسه الوجوه والمضامين ٠٠ الموضوعات هي التي يفكر فيها شاعر نزوعاً بساط الربيع من تحت قدميه فهام في وحول المستقع.

١- الآثار الشعرية، من صفحة ٥٢ إلى ١٥٦.

٢- م. ن. ٠ ص ٢١٨ - ١٥٩.

٣- م. ن. ٠ ص ٢٢١ - ٢٥١.

وأخيراً ، المجموعة الخامسة "أغنية النهاية" ^(١) مصوّغة في أغنيات قوامها ثمانى عشرة قصيدة نظمت في منتصف الستينات الى ما قبل السبعين ، وتحديدأ بعيد ١٩٦٣ . يمكن القول بأنّها تترجم تساؤلات إنسان وعن حقيقة ذاته في عباب الوجود فراح يتلقّت ، يراقب ، يتوه ، يستدرك . . . أنّ الضياع ذ وجبروت . . . أذن البين واستحقّ الرحيل ، فكانت النهاية تماماً كما تخيلها ، ولأول مرة يصدق حلم . وطالما كان يردّد : " تحرّر ، فللتسر هذا الفهاء " حتى غدت قصائده في هذه المجموعة قاطبة حرّة التقسيم وكل ما تراوده الحرّية لا بدّ أن يلد العظّمة .

لم يحبّ القيود اجتماعية أم سياسية ، حتى ولا أدبيّة ؛ فإذا ذهب ذاهبون الى تقييد جديد للشعر ، رأيناه يحرّر " البسيط " الذي حُدّر من تحريره ، فأحقّهم القول بوقوعه في الخطأ عائداً في خطأه الى صحّة قولهم بأنّ الموسيقى لا تدانيه في حرّيته . وكما رأيناه ، آخر من يتنبّه الى خيانة الموسيقى فيشرد بيت أو تشرد لفظة ، أو تنشطر القصيدة كما أنشدها في العمّال " ، أو ينساق لاشعورياً في النغمة العذبة فينسى تفعيله كما فعل في البيت :

"من أرجع الفرس الغزاة
ودوّخ الأمار نصل يمانه"

من قصيدته الملحميّة الأنفاس ، غير المنشورة ومطلعها :

"خفق الشراع ولجّ في خفّانسه
وانساب تحناناً الى شطّانه"

وعندما رغب في أن تكون القصيدة وحدة متكاملة ، فإنّه غالباً حقّق رغبته ، وعلى سبيل المثال قصيدة "عيون من الموصل" ^(٢) وهي في الغزل الكليّ متماسكة البناء صادقة العاطفة واحدة الموضوع . ضحك من الأعماق كاختراق العيون للأعماق . . . ضحك صاف فلا جراح ولا أحزان ولا صلبان . تقابل هذه ، قصيدته "أنت كإسان" ^(٣) حيث لا وحدة في القصيدة التي تمثله بالفعل زورقاً حائراً لأنّها لم تستقرّ على موضوع واحد في النزول ؛ فهو يحار في تشبيه حبيبته فيكثر من التشبيهات بدون روابط تجمعها ، فهل القلق النفسي أو التمزج العاطفي من أسباب ذلك ؟ شبهها بالدّمية والشمعة والكأس والنهر ذي الضفتين الضيعتين وبهيكّل للصلاة وبـ . . .

ومن حيث التجديد فيّ القالب الشعريّ ، نلجّ الذكّر الى أربع قصائد غير منشورة في آثاره الشعرية وهي : "الجلاد ، ضباب ودموع ، بعض الجنون ، سقراط" .

(١) من قصيدة "الجلاد" وقد نظمها الشاعر في أوائل الخمسينات :

"مزّق وحطّم أضلعي
فلم يزل في أضلعي

قلب نببيّ

واضرب فهذا عنقي
على الأذى لم يطرق

هيبا اضرب . . .

١- الآثار الشعرية ، من صفحة ٣٥٥ إلى ٤٢٦ .

٢- م . ن . ص ٣٤ .

٣- م . ن . ص ٣٢ .

يا أيها الجالاد أقدم ولا تغضب

هذي الجباه السود

يعرقها المعقود

ثورني القيود

لتنشر الخلود

فانحرو ولا ترهب

.....

كلله بالخلود

يحقق الوجود

فقم إلى رأسي

دمي لدي كأس

والبعث في الرمس

(٢) من قصيدة "ضباب" ودموع ، وهي رجز حر :

"نحن الملايين على شرقنا

ضبابه مريضة"

تحجبها ضبابه

وشرقنا في ذاته سادر

مستمرنا عذابه

ولا يرى عذابه

مسكين هذا الشرق .. يا أعصراً

قد أطلعت مصابه

وقوضت رحابه

وأنبشت في كل شبر بلقماً

وأبدعت خرابه

مستنقع ضحل .. مزاربه

عتيقة باليه

تقمصت أريابه

ومزقت حجابيه

.....

قولوا له لو يستحي لانشى

فمزق الضبابه

محطماً أنصابه

محطماً أريابه

والنأي والريابه

والأوف والعنابه

- (٣) قصيدة " بعض الجنون " وهي تمازج بين الكامل والبسيط والوافر . (١)
 (٤) قصيدة " سقراط " (٢) تمتاز بالتجديد في القلب الشعري والوزن ، وفي الفكرة مع الحفاظ على موسيقية خلابة . . . نقتطف منها :

" الشاعر : ولست أدري كيف مات وانتحراً
 وكيف أحنى رأسه الكبير للقدرة .
 وكأسه لدى يمينه تهتز بالظفر !
 نشوى على ثغر الردى تساب بالعبء
 فضمَّ فضمَّ كأس الموت في شوق وما انتظر
 لعده من شرفة الفناء يسمع البشر !
 سقراط : أكواب السم تنادي بي وتساب إلي وتدعوني
 وتطوف على ثغري شبقاً وتهيم بهدري تغريني
 أصوات : اشربي اشربي منتحراً أكفيك الهم وتكفيني
 صوت : لن اشربها . . لن اشربها فأداويها وتداويني
 لن تشربها . . لن تشربها أنت هزيل أنت جبان
 صوت : لن اشربها . . لن اشربها فشبابي الغص ينادي بي
 أوهامي السكرى في خلدي ما زالت تجتر يقيني
 آمالي كيف سأهجرها

ولذا ذاتي وصبا باتي

ومضاجع لهوي يقيني "

أما النفس الملحمي عند شاعرنا فقد كانت تستدعيه أحياناً مناسبات خطابية خاصة ،
 وقصيدته " خفق الشراع " غير المنشورة ، شاهد على طول بعض قصائده الملحمية .
 كمال ناصر قومي عربي يقدر الوحدة إيماناً يسري في عروقه . يمقت التشردم ويعظم
 اللغة التي كرمتها السماء . أليس غريباً أن يعتمد شاعر التعبير بالفصحى إلى التعبير حيناً
 بالعامية التي لا يستمرها لذلك ؟ ولكن إصراره المسبق على تشويه الغربة لمقاييس روحه
 وانقلاب المقاييس حتى غدت " القطط نواباً " وغدا الشعب في غمرة الدل " ليس يدري حصانه
 من حمارة " ، إصراره المسبق على كل هذا ، هو سبب لجوئه الى العامية في مطولته " صندوق
 العجب " في أخبار العرب " (٣) بما يحمل عنوانها الشعبي المألوف منذ زمن بعيد ، من مضمون
 ومغزى . وسوف تظل هذه القصيدة ومثيلات لها أعنف لهجة ومعنى ، بعيدة عن مداد المطابع
 لا ترى النور شأنها شأن الوثائق السرية للحكومات والتي من شأنها أن تفضح الخارجين عن

١- يمكن للقارئ أن يطالعها كاملة في ملحق هذه الرسالة ، صفحة ٣٦٢ .
 ٢- لدي صورة للنسخة الأصلية بخط كمال وقد كتب تحت هذه القصيدة : (يعاد لها) .
 لم العودة إليها ؟ أميل الى إرادته تهذيبيها ، فقد تكون لفتته بنيتها ، أو إكثاره من
 (أصوات . . أصوات) فجاءت على غرار مسرحية شعرية قصيرة ، ولا يحتمل الموضوع ذلك ،
 ولا أطول قصيدة كذلك .
 ٣- هي قصيدة بالعامية طويلة وغير منشورة ، حصلت عليها من محفوظات مركز الأبحاث ،
 ويمكن للقارئ مطالعة بعض منها على الصفحة التالية .

الحقيقة دون رحمة ولا مهادنة^(١) هذا يعني أن شاعرنا لم يقل كل ما دار في خلد ه ، ولم يدون كل ما قاله ، ولم تنهياً له فرصة التعبير عن الذات تعبيراً متكاملًا كونه يتجدد باستمرار ، والتجدد تغيير وتطور ومعنى وحياة لا تتوقف إلا بتوقف النبض .

كان حرباً بشاعرنا أن يستمر في "هقل القصيدة الكلاسيكية والاحتفال ببدا الجزالة والتأثير الخطابي ، وأن يعمق هذا الاتجاه فكراً وشعوراً" .^(٢) وفي اعنا ، كان جديراً به أن يتوجه مع الزمن إلى اختياره بين أن يكون شاعراً فقط ، أو أن يكون نائراً مناضلاً . ولكنه حاول أن يجمع بين الاثنين فانتهى على تلك الصورة . ووجوده سياسياً جعله شاعراً مقلاً من حيث الكم والنوع قياساً إلى حياته الأدبية المترامية من ١٩٤٠ حتى ١٩٦٦ ، وعام انصرافه الكلي إلى المقاومة في ١٩٦٧ وغرقه في شلالاتها . أننا نطمع بإيفاء كمال الحق لكل من الشعر والنضال فنستفيء بكليهما ولا ينتصر واحد على حساب الآخر . فما أصعب الاختيار ! لكن الناقد لا يخلط بين الاختيارين في تأثيرهما على الشاعر ، ونحن نحاول - إذا حكمنا - أن نعدل ما أمكن . وإذا شعرنا باجتهاف حقسه ، فلنترك الأمر لسوانا : -

* إثر إحياء ندوة شعرية - وقد ألقى كمال قصيدة "إليها" - ، نشرت جريدة "المنتدى"^(٣) صورة "أصغر الشعراء سنًا ، وقد يكونان أحلاهما شكلاً ، قد لفتا أنظار وأسماع وقلوب الحاضرين ما عدا الشعراء" . كان تعليق الصحيفة يتناول الشاعرين الفتيين : كمال ناصر وعصام حماد . وكتب المحرر في الجريدة نفسها مقالاً بعنوان "عكاظان في شهر واحد" قال : "أعجبني في عكاظ القدس ، قيس خوري والعاشق الموحد كمال ناصر . . . وإن كمال ناصر انغمس في المهرجان إلى أخمى قدميه ، وغمر معه الحضور ، ثم صحا على نفسه بعد دوره ، فإذا به يبكي مع عصام في الغرفة التي ناما فيها ، ويضحكان على من أعجب بهما . . . وشـرّ البلية ما يضحك" .

عند شهادة حق كهذه في شعره المبكر ، يصبح من حقنا أن نتمنى عليه العمل على

صقل شاعريته والتفرغ لها بما ينميها وعمق مذهبها .

١- ارتأينا فتح "صندوق العجب" . . . عن مقاطع لا تمس ملوكاً وحكاماً وزعماء وساسة عرب معروفين ؛

وعن قصيدى شلحتو	- شعر الفصحى هجرتو
لغادة السمان ونزار .	والأدب كلو تركتو
وأفتح صندوق العجب	- ويدي أروي للحقوب
بأشعار وأبكي بأشعار	وتألم مع العرب
وقلنا الحكم بيتغير	- وإحنا صنعنا العسكر
وهايدا جزا سنمار	طعمونا لوز وسكر
ويعدّ بني ويدميني	- لكن إلسي بيكيني
على راسي عم تتهار	شايف بلاد دي الحزيني
ولا وحدة ولا حريرة	- ما بدك اشتراكية
من المخبي في الآبار	طيب أعطينا شوية
والباكستان ود يترويت	- ساعة رايع عاكسويت
عم يجري زي الأنهار	يا أخي ما عندك زيت

٢- الدكتور احسان عباس ، في تقديمه "الآثار الشعرية" لكمال ، صفحة ١٣ .

٣- جريدة "المنتدى" - القدس ١٣/١٢/١٩٤٦ ، وهي من محفوظات الشاعر عصام حماد .

* وكتب ناصر الدين النشاشيبي^(١) "كمال ناصر ، عندى ، خريطة ناطقة أقرأ عليها صور فلسطين ! وشعره قريب مني وقريبي ، فمواضيعه من أهلي ، ومسارحه من حارتي .. وعندما ينشد قصيدة "القرار الأخير" أو "ثلاث سنين" أحس وكأنني أنا المعني من اضطهاد الأردن لأحرار الأردن . وعندما يغني كمال قصيدة "حرمان" أو "قصة برتقالة" أو "أولاً إلى لاجئة" يهز الدنيا ويسرق العبرات من عيني ."

* لهذا ، اكتسب كمال لقب "شاعر فلسطين" - في لبنان - يدعى إلى حفلات تكريم الشعراء وإلى المناسبات الأدبية . وقد كان تكريم الشاعر اللبناني أمين نخلة ، آخر مناسبة سيشارك فيها . يقول الدكتور ميشال غريب إنه وجه دعوة إلى شعراء من كل البلاد العربية ، ولما قال ان الدعوة ستوجه إلى شاعر فلسطين ، كمال ناصر ، امتعض شاعر لبناني مشهور . فقرر إشراك كمال ، فانسحب الشاعر . إلا أن المهرجان لم يتم بسبب استشهاد كمال^(٢) .

* وعلى الصعيد العالمي ، فقد أرسلت "جمعية خريجي الجامعات العربية الأميركية" شهادة تقدير إلى عائلة الشاعر الشهيد في بيرزيت ، معتبرة شعره تجسيداً للمثل العليا والقيم الانسانية ، وخدمة للأدب وللإنسان أينما كان .

* شاعرة فلسطين ، فدوى طوقان ، شهادتها في كمال ناصر الشاعر شهادة صادقة صدق البوح في كل زنبقة من زنايق قصائدها ورياحين كلماتها . ومما شهدت :

"ملء أغانيك اخضرار المروج
ونضرة السّفح وسوح الأريج
وملؤها كان هدير الرياح
وكان فيها من شموخ الجبال
في وطني ؛ وهزة لا تتأل
إلا مع النصر وفوز الكفاح"^(٣)

نعم الشهادة الشاعرة ، ونعم الشاعر الشهيد !

XXXXXXXXXXXXXXXXXXXX
+++++++
XXXXXX
+++
XX
+

- ١- صحيفة "الجمهورية" المصرية ، القاهرة ٢٧ / ٤ / ١٩٦٠ .
- ٢- الدكتور ميشال غريب ، مؤسس الندوة اللبنانية التي نظمت للاحتفال ، وذلك في حديث له من الاذاعة اللبنانية استمعت إليه حوالي الساعة ٨٣٠ من ليل ١١ / ١١ / ١٩٧٦ .
- ٣- قصيدة "المغرد السجين" مهداة من الشاعرة فدوى طوقان إلى كمال ناصر ، وهي مدرجة في "الآثار الشعرية" لكمال ، صفحة ٣٤٦ .

الملحق

نصوص شعرية ونثرية

هذه القصيدة نظمها لدى سماعه نبأ الانفصال بين مصر وسوريا وقد وجدتها بين

الأوراق التي يحتفظ بها صديقه وابن قرينته ناجي علوش بخط يد كمال .

- جن الوحدة -

سواك ينفض وهم الشك ايماناً
جرحي السخي وايماني الذي خاننا
لما تئنا أشكلاً والواناً
اشراقة للأسى ، فارتد ظمآننا
وسال ينبس^ض شرينا فشرينا
محاجر التكل آلاما وأحزاننا
واهبط الى جلدى نورا ونيراننا
يطوى جناحي على الجرح الذي كانا
تحيلني في ضمير البعث بركاننا
أدمت جناح العلى زورا وبهتاننا

يا شعرلم ييق لي في حرقتي الآنا
اني لجأت اليك اليوم يحملني
جرح تمزق في صدرى فضيعني
فطمته بين آمالي وما انفطمت
لجمته بين أضلعي فحطمتها
انظر الى دمه المسفوك يعرض في
يا شعره ، خذ بيدي وامسح على كبدي
عساي ألمح عبر الجرح منطلقا
يشيلني من ضباب الفجر عاصفة
دمشق ، يا بلد الأحرار ، اي يد

قرينة الشاعر ، تزوجت من أميركي وغادرت بيرزيت الى الولايات المتحدة الأمريكية
حيث يكمن في قلب كمال حقد دفين على ذلك النظام . . . لذلك ، لا يستبشر خيرا بميلاد
ابنها الذي ربما سيكون على " دين " ابيه - والدين معاملة .

- الى ديانا -

للذي منك جانا وأتاننا
مستبيحا لأرضنا وحمانا
ودهاننا في بطشهم ما دهانا
زرعوا شوكة الأذى في سماننا
فتشككت في قبرها موتانا
يملاً الدار بهجة وحنانا
فينمو معقدا وجباننا
تحت اقدامه تثن هواننا
عربيا ، مهذباً وانساننا
في جبين العلى يهز الزماننا
والحضارات أشرقنت في رباننا
لأميركا من كل ارض ووانساننا

يا ديانا ، لا تفرحي يا ديانا
ربما جاء للديار عدواً
ان آباءه تجننوا علينا
كلهم مجرم لثيم حقوق
وأباحوا ديارنا للمآسي
الصغير الذي وضعت برئ
غيراني اخاف ان يقلب العرف
همه ان يرى بلاد أبيك
علميه بأن في القدس شعبا
هزم الاثم في رباد وأضحى
نحن أخواله جياذ كرام
بئس أعمامه الذين أضاءوا

لقطاء* مشردون يتامى
علمي طفلك الصغير بأننا
نحن عيسى المسيح زار ربانا
وهدانا بالحب والرفق حتى
نحن روح ورحمة وصفاء
بسي حنين للطفل عذب شهى
ليس يدعا ، ففيه شيء كثير

وأرقاء في الوجود حزائي
في صراع الوجود أعظم شانا
ومشى في يسوعنا وقرانا
بات فردوسنا أعز حنانا
كل شيء بالحب والروح كانا
في ظلوعي يطوي المدى والمكانا
من دمانا ، ونفحة من هوانا

في هذه القصيدة ، يجمل الشاعر فلسفته في الحياة من بابيها : بدءاً بالجنون وانتهاءً بالبسمة . . . والقصيدة ثورة على المقياس اللفظي القديم للبيت ، وشاهد على اكتمال الروعة في الوزن والموسيقى .

- بعض الجنون -

بعض الجنون ، فتضحك الدنيا ، يموت الوهم والألم
بعض الجنون ، تعريها ، وتفضحها وتنتقم
بعض الجنون ، يزلو الهم عن جبينك والسأم
وتحملك الرؤى البيضاء ، تخطفك النجوم ، تضمك القم
وتضعفك الحقيقة . . . لا خوف ولا ندم
ويمدُّ عينيه لك العدم
ويصحو الليل في جفنيك ، تعري عبرك القيم
وسينتهي الحلم
ويغشى روحك النغم
بعض الجنون

ترويض الدنيا ، وتضحكها . . . وتبتسم !!
بعض الجنون . . . فتبصر الدنيا ، ويعري الخمر في العنب
بعض الجنون ، ولن تساب من هرب الى هرب
ولمדת عفواً ، ولن تدري عن السبب
مكبلاً بعري جثمانك الخرب
مبعثر الروح بين الحزن والروعب
من قال أنت نبي ؟
أحب ، واشهد صراع الشمس في السحب
تمشي الى الموت في تيه وفي غلب
غداً تنزل ويهوى جسمها الذهبي
أحب للحب ، تدني أبعد الشهب (١)

تطوي به غصة التاريخ والحقب
تختال بين جناحيه على الكذب
الرأس كالذئب
والحزن كالطرب
والجد كاللعب

بعض الجنون، فتدرك الدنيا ، يضيع بدرىك الزمن
وتضيع ، لا دمع ولا شجن
بعض الجنون ، فلا يطارد مقلتيك القبر والكفن
السدود والعفن . .
ويهجروك الدرن

وتصعد للرياح الهوج ، تضحك عبرها السفن
محملة بأشواق لها في الأرض تمتهــــن
بعض الجنون ويستفيق المجد والوطن
ويحلو الموت في جبينه ، أما خانك الوطن
وقد تتسى مآسيه الكبار ، ويعذب الثمن
ويشدو الطير والفن

بعض الجنون بها . . ترؤسها ، وترقصها
فاضحك لها ، يجتاحك النغم
والشم جراحك . . يهدم الصنم
تنجاب في أعماقك الظلم
ويزيل عنك الوهم والألم . . وتظل تبتسم وتبتسم !

هذه القصيدة شاهد على تفكير كمال ناصر عمالياً ، بصوت مسموع . . كان يجب
ادراجها في الأعمال الشعرية له مجاورة قصائد " موناليزا " و" قبلة رودان " وسواهما . .
وقد يكون موضوعها أسقطها عنها وان كان يعالج حقيقة واقعة .

- خَوَل -

ولمحتته ، يختال للمقهى ، يعرّيه
ويزرع نفسه فيه
عينان ، لا أسنى ، ولا أبهى
عطفان كالتيه ، وفي التيه
يلتف في بنهال ساحرة تأبى أن توافيه
وترضى أن تؤاخييه
تتعانقان ، لا أحلى ولا أبهى

تتعانقان باغرايات وتأليه
جسد ، أفاعيه لها نبهى
تعوى بجبينه ، فتشقيه
أجراسها الظمأى تناديه
فيهبّ يحمل جسمه المجهد
فمن مقعد ، الذى مقعد
يسمّر نفسه فيه
ويدتيه ، ويقصيه
اشارات لها في عرفه مقصد
تهدهده ، وترضيه
وعام غامض أسود
يساقيه ، ويسقيه ، ويدريه
وكل الناس في باريس تدره !!
ومضيت أضح عينه النظر
فيموت منتظرا
يحيا على أمل ، يمنيّه
والشهوة الحمراء ، تدميه
ويظل منتظرا .. ومنتحرا
عيناه ، تختطفان من ولى ومن عبرا
لتغريه ، وتغويه
ويكاد يلوح في توجهه أوهام مضجعه
باريس تعرفه ، وتنكره
تجافيه
والقهوة النشوى ، تجافيه
يا غرباً ما بين أهليه
يا متعبا طالت لياليه
الشرق .. والحرمان .. والأدمان .. دنيا مغانيه
" فالسان جرمان " لم يجحد أمانيه
في كل ركن له ظل يلاقيه
عين من الليل ، إلف يناغيه
" فالسان جرمان " حزن أحمر
نعاجه فيه ، أشواقا أفاعيه
لكه في شوقه احتضرا
فانسأل مستترا

وبقيت في ركي لأبكيه
أجرّ ألفاظي ، لأرثيه
هـذا الفتى المغنّاج أعرفه ، وأكاد أذكره
هل في ديارى من يدانيه
يختال في المقهى ليغريه ، ويغويه
يلتفّ في بنطال سـاحرة
يستقطب الاثم ، فيعليه
يستلهم الذلّ ، ويغنيه
هـذا الفتى المغنّاج أعرفه وأنكره
شيء به في الوهم حرّكني وذكّرني
حكما مريضاً ، عاش في وطني
ما زال يدميه ، ويؤذنيه
شيء لدى شعبي يعذبه ويظلمه ويرديه
أزرى به في حالك المحن
ومضى يشيعه بلا كفن
شيء يخادعه ، يماثله ، يرمقه ، يداجيه
فضحكت - واخجلي - وآلمني
عبر الرؤى السوداء تقويدي وتشبيهي
ورأيت حكامي ، تراوده ، تضاجعه
وتعود للمقهى . . . تعرّبه ، لتغويه

(١) ٢٨ أيلول
كمال

هذه القصيدة المطوّلة ، كانت منشورة في جريدة قديمة وقصّت غفلا من اسم وتاريخ ، وحتى عنوان القصيدة قد أخفيت معالمه ٠٠ يبقى القول : انها قصة دينية ٠٠ مولد الرسول ودعوته ، ولا تخفى الأنفاس الملحمية التي تتمّ عنها الغنائية العذبة والألفاظ الضخمة والمعاني الانسانية النبيلة .

وانزفني فوق شقائي وقيودي
هو سرفني لقائي ووجودي
بعدهما حطمت الأيام عودي
جفّت اليوم على ثغر نشيدي
سكرة تعصف بالروح وتودي
فرقا تاهت على كل صعيد
وطريد بات يشكو لطريد
في شرع من ذنوب وجحود
كيف لا يغضب للعرش الوطيد
سنن العدل لدى البأس الشديد
هجمت ما بين صحراء ويدي
لاهت الأنفاس من بين اللحود
يا شعوب الأرض من هذا الجمود
حاجة الشروق سوى بعث جديد

تتهادي في سما الماضي البعيد
أمة تحيا على كهـر ثمود
واستطابوا الدين في ظل الجحود
فتجلّى كل شيطان مرید
مقلّة حيرى الى رب الوجود
كل ملهوف بها في يوم عنيد
تحمل الفرحة للعهد الجديد
يا ليالي النور بالطفل الوليد

يسا جراحات الهوى سيلبي وزيدي
أنا لي في البؤس معنى خالد
ذكرياتي في الهوى حطمتها
والأماني التي هددهتها
سكرت روحي بآلام السورى
فرأيت الشعب في آلامه
ربّ شعوب بات يشكو حظّه
ورأيت الناس لجّوا ونسّوا
فسألت الله في أمجاده
كفرت هذي الدننى وانتحرت
وطغت في خاطري أخيلة
وسرى في سمعي صوت الثرى
صرخة الأجداد هذي فانهضى
لا تسئل عن حاجة الشرق فما

* * * * *

في خيالي صور المحما
يوم كان العرب في صحرائهم
عبدوا الأصنام في كعبتهم
فأباحوا الأثم عن غير هدى
بكت الصحراء بؤسا ورنّت
وإذا بالأزد تبيد وشعلة
وتعالست صرخة عبر الفضا
جاننا النور فهيا رّحبي

* * *

وعلى عينيه أحلام السجود
ثائر الآمال مشبوب الوقود
لمعة المجد واشراق الخلود
يسرق الفتنة من عين وجيد
يتحلّى من حجي العقل الرشيد
يترك الكبر اتساعا لمزيد
نهض الفجر به الا لجود
تطأ الأحقاد في صدر الحقود
راعش الأوصال للحن الفريد
منزلا بالعدل والحق الاكيد
كثبوا بالحمد لله الوحيد
ينثر الهدى بهاتيك الصدور
سرمع النور على صدر العود
تبعث الايمان في الشعب العنيد
جنمت في كف جبار عنيد
حطمت بالأمس اصنام الجدود
وتحدّ النجم في هذا الصعود
بطل الصحراء في أزهى البرود
دمعتا عدق على الدين الوليد
هكذا يسعد ذو الخلق الحميد
ومشوا في موكب الضيف العميد
أحمد بينكم بيت القصيد

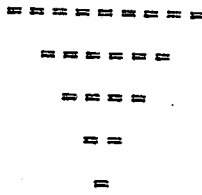
فتحدّته قريش بالعود
أن ترى الآثام في الماضي التليد
وازد هي النصر بايمان الجنود
ونصير الكفر ولى بعد يد
فاستفاق الشوك مزهوا الورود
أسهم الكيد الى صدر الحسود
وسما الدين به عبر الحدود
علم الاسلام خفاق البينود

ونما الطفل كريما سيذا
بين جنبيه فؤاد خانق
وعلى جنبه من سحر التقى
ان مشى يمشى السنّ في ركبه
أوبدا سار الهدى في ظله
قلبه دنيا من الكبر فلم
كفّه تنضح بالجدود فما
المرؤات سياج حولوه
هبط الوحي عليه فانبرى
ودوى القرآن في أسماعه
فأتى العرب وقال انطلقوا
وسرى في الليل من مسجده
يا براقا ، ومضت أجفانه
طفت هذا الأفق نشوان الخطى
وعلى ظهرك لاحت أمة
أنت لم تحمل سوى امنية
سر على الريح وأمعن في الذرى
هوذا الله غدا منتظرا
رقت العين له وانهملت
وتلقاه وأعلى شأنه
وشدا الرسل له وابتهلوا
كلكم يا رسل شعرا نما

جزع الاهل لدى دعوته
كفرتة الناس ظلما وأبت
جمعوا الشمل فأردى شملهم
كم قليل في التقى قد غلبت
وضعوا الشوك على أعتابه
ورموه بالأذى فانقلب
فغزا دنيا ودانت أمم
فاذا بالشرك ينأى واذا

أنا أخشى ان تغوري وتميدي
وهمة التاريخ عن دنيا العبيد
لم يزل فينا بقايا من أسود
كيف ترض العيش في ظل القعود
يملاؤن الأرض إفكا بالوعود
حاجة الشرق سوى بعث جديد

يا بلادي والأسى يغمرها
مزقي الظلمة جهرا وامسحي
ان تلك الأيام قد أودت بنا
أيها الشعب استفق من غفلة
واترك الساسة في أحقادهم
لا تسئل عن حاجة الشرق فما



النقد الأدبي

إن من يمارس عملية النقد الأدبي ، لا بد أن يكون واثقاً من نفسه ومقدرته وثوقاً مطلقاً ، ناهيك عن شرط الموضوعية والنظرة العلمية وطرح البدائل وغير ذلك .
من المنطلق الأول ، مارس كمال ناصر وظيفة النقد الأدبي في مطلع حياته الأدبية عبر ما تراس إلى أيدينا من جازات صحف وصفحات مجلات وأوراق خاصة . ففي مقالة له بعنوان " بين قصيدتين .. توارد خواطراً مسرقة " (١) يقارن كمال ، بدقّة وموضوعية وشواهد ، بين قصيدتين أولاهما للأخطل الصغير والثانية لبديوي الجبل ، فيرى ان أحدهما قد أخذ عن الآخر - من حيث يدرى ومن حيث لا يدرى - فكان التوارد في الخواطر أو خلاف ذلك . ان هذه المقالة الطويلة تشير الى مقدرة شاعرنا على ممارسة النقد الأدبي وهو في مطلع حياته الأدبية مما يؤهله للتمكن من هذا الفن الرفيع .

الا ان دماء الشباب - وكان ذلك في منتصف الأربعينيات - كانت تتدفق في أكثر من اتجاه واتجاه ، والشباب ذوهوى وأهوا . ذلك لم ينزهه حيناً وقد تناول شاعر فلسطين الأول ، ابراهيم طوقان ، بالنقد قائلاً : " شعر ابراهيم لا يرفعه الى مصاف كبار الشعراء العرب ولا يضمن له الخلود في الأدب الرفيع العالي " (٢) ثم يحي فيقول حظ طوقان ، بأنه جاء في مرحلة انعدام الأدب على الاطلاق شعراً ونثراً " فتلقاه الناس بصدور رحيبة ونفوس عطشى لكل جديد " . نقول : لا بد لرياح الغرور من أن تفتح شاعراً شاباً في الثانية والعشرين من عمره وقد أدرك الشعر وطوقان علمه الخفّاق . لم يخفض من عرش ابراهيم ولكنه قارنه بأعلام الشعر العرب - ولكننا نرى انه كفى ابراهيم فخراً أنه استطاع أن يكون جديداً عبقرياً - وسط جبهة من الشعراء لم يلفتوا اى انتباه - في رأى كمال على الأقل - . لذا فان كمال ان يعجب ببعض شعره مشيراً الى تلك المواطن ، نراه يزن بعضها آخر . . . وللناس في ما يحكمون موازين .

وأخيراً ، يتناول كمال بالنقد الشاعر " الأفغاني " صديق حيث يهرق عليه " دمة نعمة واخلاص " . . . هذه الدمة بقطرتيها كفتا ميزان شاعرنا ولن ترجح الا الثانية ، وها هو ذا يكتب الى " شاعر الشباب " الافغاني مقالته " وأما الزبد فيطفو معاتباً اياه وقد احتضنه أهل فلسطين فشكاً من " جفاف الأدب في فلسطين " . ثم يجادل " علمياً وأدبياً " بأنه ما من شاعر نظم الشعر وأجاد في دوره الأول . . . حتى ابن ابي ربيعة قيل فيه : " ما زال هذا القرشي يهذي حتى قال الشعر " . . . ايها الأفغاني ، لم تكن تجيد لغة الضاد فقومناك وعلمناك ، فلماذا تعقرنا في عقر دارنا ؟

١ - جريدة الشعب " يومية تصدرها الصحافة الأهلية المحدودة - يافا .
المرجح انها في منتصف الأربعينيات وحيث لا يذكر كمال في ذيل المقال الا رام الله - في ٣ نيسان .
٢ - جريدة بلا اسم . . . صفحة الآداب . . . صفحة ٢ تاريخ ٤ أيار ١٩٤٦ . عنوان المقالة : " بين ابراهيم طوقان وشعراء العربية " .

وهكذا كان لكمال ، بعد " دمة النعمة والاخلاص " على صديقه الأفغاني وكان له فيه نقد في عدد آخر . . نوره بحرفه وعنوانه : " فساد المعاني في شعر الأفغاني " . . قال المحرر مقدّمًا النقد والنقد ذاته :
" (نشر الأستاذ الأفغاني قصيدة ذات مرة في الوحدة الغراء ، هاجم بها الناشئين من الشعراء . . ويعد أن استوى على عرشه برز احد هم يرد عليه وهذا هو الرد بالرغم من أننا تأخرنا في نشره) :

١ - قلت :

يا هارفا في الشعر يحسب أنه كحبيب الطائي أو كالبحثري

وكان يجب ان تقول : يا بادئا بالشعر يحسب انه حبيب الطائي بنفسه او بالبحثري بذاته ذلك أولا لأن (هرف) ليس لها في العربية وجود . ويتأكد من هذا كل من يراجع قواميس اللغة التي تحدّرت الينا لهذا التاريخ . ثانيا لأن المقصود من عجز البيت هو التشبيه . والتشبيه بحذف الأداة أقوى وأبلغ منه باستعمالها . وهذا يعرفه كل لبيب . فقولك فلان أسد أقوى من قولك فلان كأسد . وعليه فالوجه الذي أوردناه في عرف البلغاء أقوى وأبلغ من الذي أوردته .

٢ - قلت :

أما القريض فانت من أذنا به فدع القريض لأهله وتبّودر

وكان يجب ان لا نقول شيئا من هذا بالمرة . وذلك أولا لأن صدر البيت سباب مكشوف كان يجب أن يترفع عنه أمثالك . وثانيا لأن في عجزه فكرة هدّامة نعبيدك منها . . وهي ان من (تبودر) ليس من أهل الشعر . وما أن الذي يتبودر هو المرأة ومن يتبعها - فاني لا أكاد اصدّق انك تريد ان تقول ان ليست المرأة من الشعر في شيء ، ومثلك شاب ذو مبادئ سامية وآمال ايجابية غالية .

٣ - وقلت :

والشعروحي القلب إما صنعته حركت قلبا ليس بالمستشعر

وكان يجب ان تقول : الشعر نبع القلب أو وحي الغيب اما صنعته حركت قلبا ليس بالشاعر . وذلك أولا لأن القلب لا يوحى وانما ينبع بالوحي ويفيض بالالهام . والوحي والالهام كلاهما خارجي من عالم الغيب . وثانيا لأنني لا أعتقد انك اردت ان تقول : حركت قلبا ليس (بالذي يطلب الشعور) (اذ ان الألف والسين والتاء في جميع اللغات السامية تعني الطلب) اذ ليست هذه غايتك كما استشف ، وانما اردت ان تقول (حركت القلب الشاعر) لا الذي يطلب الشعور . ولكنها اللغة خانت وانه الفكر أد لهم .

٤ - قلت :

الشعر نور الله يلهمه الذي هو أهله - لا للفتى المستصغر

وكان يجب ان تتحاشى كل هذا . وذلك لأن ليس في الله كبر أو عنده محاباة فيعطي

الفتى نور الله . فلهذا من ناحية دينية وأما من ناحية الواقع فقد برهنت الأيام على

عدم صحة ما ذهب إليه • فكم برز في الشعر مستصغر • فعنترة العبسي كان ابن أمّة
وكان مستصغرا حتى من أبيه ومع ذلك • • وطرفة بن العبد كان أيضا مستصغرا من بني
قرايته ومع ذلك • • وشكسبير كان مستصغرا في قومه ومع ذلك • • وكل بطل بدأ كذلك •

٥ - قلت :

ومن الرعونة أن نسي شاعرا
حدثنا رقيعا بالأديب الأكبر
وكان يجب أن تحذف (حدثنا رقيعا) كلها لأنها ليست من مفردات الأديب في شيء
وتستبدلها بغيرها مما هو أقرب للأدب كأن نقول مثلا (حدثنا بسيطا) وكان يجب ان
تستبدل (شاعرا) بغيرها من المفردات مثل (ناشئا) حتى يتم التوافق المعنوي بين
صدر البيت وعجزه ولكنك لم تفعل •

للعلم من ناحية وللحق من أخرى وللتاريخ من ثالثة ، كلّفنا نفسنا مؤونة النظر
في تلك الأبيات فوجدنا بنقض النظر عن المفردات اللغوية والبلاغية والفيلولوجية ان
الشاعر قد تورط في ظاهرة اجتماعية سلبية في بيته الثاني وبعدم توفيق في التوفيق
بين المعنى واللفظ ما أسماه الجرحاني (النمط العالي) في جميع أبياته • والسلام •

(١)
القدس - كمال ناصر

=====
=====
=====
=====
=====
=====

١ - نشر كمال مقالته الأدبية هذه " وأما الزيد فيطفو " في جريدة " الوحدة " القدسية
بتاريخ ١٩٤٥ / ١٢ / ٢٣ •

القصة القصيرة

لم يكن كمال ناصر قصاصاً محترفاً ، ولكنه كتب القصة القصيرة حين وجدها وسيلة تعبيرية فعالة فنشر في صحف تلك الايام القديمة ما نشر في زوايا منها كان يحررها ،^(١) وقصص أخرى لم تشهد الصفحات المدبجة فظلت سجينة أوراق تتناقل بين الأيدي^(٢) ومنها قصة "خائن" و"هل تعرفه؟ هل رأيتة" و"الزمن" فنكتفي بإيراد الأولين منها ثم واحدة مما نشر قديماً . ففي القصة الأولى "خائن" ، يضعنا كمال أمام رجل فلسطيني اضطره الازهاب الصهيوني الى ترك بيته وقريته ليقيم في بلاد الله الواسعة حاملاً على ظهره طفلاً . وراح العدو يراهنه على الجيلين : الكبير سيفنى ، والصغير الذي رأى لا يعرف فينسى . ولكن المفاجأة كانت رد فعل الشاب الجديد الطبيعي على محاولة العدو واقتلاع الشعب من جذور امتدت في أرض الوطن الوف السنين . وكانت قصة "خائن" سرداً جميلاً موقفاً لرد الفعل الفلسطيني ، وهجرة تكررت أحداثها الوف المرات فوق أرض الوطن . ملاحظة : يجب النظر الى القصة على انها كتبت في اول العمل الفدائي العريق ضد الاحتلال وليس في السبعينات : هذه الملاحظة تحفظ للقصة عمق فعلها في حينها حيث ان كتابتها في المرحلة السبعينية هي من قبيل تفسير الماء بعد الجهد بالماء . لذلك ، فان كمال ناصر قد واكب الحركة من طفولتها وشبابها واكتمال أسبابها فعبر عنها شعراً ونثراً ، قلماً ودمماً .

- خائن -

" بينما كان يحمله والده على ظهره ، طاوياً به السهول والغاب . . . لم يكن صا حينما ابن السنوات الخمس يعرف الى اين ينتهي به المطاف . . . ولعله كان يشعر بمرح شديد وهو يشاهد الناس من حوله يتناثرون تحت ظلال الاشجار ، يأكلون بعض ما يحملونه من طعام ، أو يستجمسون بعد هذا المسير الطويل الشاق . . . انه شأن كل صبي ، يستمرئ مثل هذه الأعياد والنزهات .

وتبرأيام طفولته ، في خيمة عتيقة بالية جهت على رابية في احدى قرى الأردن ، تصمد للريح وللأعاصير . . . ولكن لم ينس يوماً في حياته ان المطر كان يخترق هذه الخيمة ، فكانت أمه تضطر الى احتضانه ، وستره بملاء تها الممزقة الوحيدة .

وينمو صا حينما ابن السنوات الخمس ، فيصحو على بعض ما هو فيه . . . خيام متناثرة هنا وهناك . . . عري ، فقر ، جوع ، رجال ونساء زرق العيون ، يحملون اليهم بعض الكساء والطعام في أول كل شهر . . .

١ - كان يكتب في جريدة " فلسطين " زاوية " سوانح " وقد أدرج فيها بعض القصص مثل " تجربة العمر " عن د بلوماسي عربي تخدعه جاسوسة صهيونية وأخرى " مجنون " ، كذلك في عرف الناس ولكن الحقيقة منايرة . هذه الأوراق موجودة في محفوظات مركز الأبحاث الفلسطينية - بيروت .

٢ - من محفوظات ناجي علوش وقد هياها لي مشكوراً .

وبدا ، ومع كثرة التردد يعرف انه لاجي . وان جميع هؤلاء الذين من حوله وفي

أوضاع مشابهة لأوضاعهم ، هم اللاجئون المشردون الذين كانوا يعيشون فيما مضى في بلاد تسمى " فلسطين " .

ولعل صاحبنا اطمأن الى وضعه أو كاد يطمئن الى حياته الرتيبة في السنوات

الاولى من هذه الرحلة المبهمة العجيبة . . . ولكن سرعان ما راحت المعاني تتموي خياله كلما نما وتقدمت به الأيام . ويات يسمح له ان يجلس في ديوان المخيم ، فتلتقط أذنه الصغيرة أحاديث السياسة والعدوان والغدر الذي يفتعله أعداء بلاد الصهاينة على هذا الجزء المعدم الذي يعيش فيه . . .

وأكثر من هذا أو ذاك . . . فصاحبنا اليوم طالب يذهب كل صباح الى خيمة كبيرة يسمونها مدرسة المخيم ليجلس بين مئات من التلاميذ أقرانه ، يدرسون الحساب واللغة والتاريخ . ولم يكن استاذهم ، وهو شاب منهم يعيش بينهم ، ليبخل عليهم بحكايات وقصص وطرائف عن بلادهم السليبية الضائعة . . . وكان صاحبنا يحس ، وعلى غير ارادة منه ، بدموعه تهلل الى عينيه ويحرضهم بضرورة العودة اليه والتمسك به .

لقد أصبح هذا الأستاذ بالنسبة لصاحبنا ، وربما لغيره من أقرانه مسبودا بل بطلا يشار اليه بخشوع كلما دخل الفصل عليهم ، أو تناولوه بأحد يثم المختلفة بشأن الصبية في كل زمان ومكان . ولعل هذه الهالة من البطولة التي أضفاها عليه طلابه ، دفعتهم الى المزيد من الاهتمام بهم ، وكان يبلغ به حماسة الأوج كلما تحدث عن تلك بلادهم وبلد هم ، وكان هذا الحماس والاندفاع في حديثه عن التكية يفوق كل حديث آخر ، فالحساب واللغات والجغرافيا ، حتى الدين والأخلاق ، أصبح ثانويا بالنسبة للمعلم نفسه ولطلاب الذين انفعلوا به وتأثروا بحرارته .

وتسمر سنوات أخرى ، ويبلغ صاحبنا الرابعة عشرة من عمره ، ويتاح له ان يذهب الى المدينة ، ويقرأ الصحف ويستمتع الى دور الاذاعة ، وتصريحات الساسة . فلسطين ، انها هناك دائما مثل ملح الطعام ، في كل بيان وكل انقلاب ، في المجالات ، في الاعلانات . . . يافا ، حيفا ، اللد ، الرملة ، الفردوس المفقود ، الشاطيء السليب ، قصائد ، أناشيد . . . العودة للاجئين ، حق تقرير المصير . . .

كل هذا اختلط في حياة صاحبنا ، وربما لم يكن ليحس بكل هذا الحنين لولم يفرض عليه فرضا . . . انه يشعر به ، ويتخذ في نفسه أشكالا غريبة ، لم يكن أبرزها استرداد وطن أو عودة شعب ، بقدر ما كانت رغبة تصطرع في أعماقه ، ولهفة لرؤية ذلك المجهول الذي أصبح جزءا من حقيقته وخياله . . . انه يسمح بالبحر فلا يكاد يتأمله الا ويشعر وكأنه يطفو على مائة ويضرب في خضمه ، ويقرا عن بيارات البرتقال فترتدش خطاه بين رياضها ، ويرى حباتها الصفراء الحمراء تطل عليه في يقظته ومنامه .

وفي غمرة هذه الأحلام ، أحلام اليقظة ، تتكون عقدة طفولته وصباها الأول ، فيقرر بينه وبين نفسه أن لا بد له من الذهاب . . . ألا بد من المسير ، ولو بفرد . . .

ويستمع الى قصص واخبار المتسللين ، وما يلاقونه من عذاب واضطهاد . . . ولن ينسى وهو ينحت أحد المتسللين وقد وقف في جمع من أهله ، يصف شعور المتسلل بشعور طارق بن زياد " البحر من ورائكم والعدو أمامكم " لا . . . انه لن ينسى كل هذا ، ومع ذلك فقد عنم وهمم ، وأراد ان يهرب من أحلام يقظته ، ويظفي لهب حنينه برؤية ذلك المجهول الساحر ، ولو لمرة واحدة . . .

وسار وسار وسار ، وكان الآلهة أرادت ان تحقق له بعض حلمه . . . فاستطاع ان يدخل احدى البيارات ، ويقطف ، ويأكل وينام ، ينام مجهد اليصحو في الفجر على اصوات ووطانة غريبة عنه ، فتمتلكه غريزة الحياة ، فينتفض ويعدو ، ويعدو ووراءه أكثر من كلب ، ويطلق عليه أكثر من طلقة ، فيتوقف ويستسلم . . .

وحملوه ، بعد أن ركلوه ، في سيارة عسكرية راحت تنهب الأرض بسرعة عجيبة كأنما تشارك اسيادها فرحتهم باقتناص هذه الفريسة الصغيرة . . . ولم يفهم من رطبا نتم شيئا ، وسمعهم يقولون " الرملة " فاشرب عنقه الى مآذنها وبيوتها ولاحت له من بعيد اطلال النبي صالح الذي طالما قرأ وسمع عن مواسمه . . . وعبرت به السيارة أرضا كلها أريج وعبير . . . وعلى حين غرة أبصر المياه الزرقاء ، فعرف أنه البحر ، وكان يراه لأول مرة ، فاغرورت عيناه بالدموع ، دموع الحنين والظما والشوق ، دموع احلام يقظته . . . وظن جلا دوه بأنه خائف . . . فقهقها . . . اما هو فأدرك أنه في يافا . . .

وزمجرت ادارة الأمن العام وهي تتلقف الفدائي الجديد ، وقد موا به الى سجن الفدائيين " المجرمين " . . .

والتأمت المحكمة الفخمة السورية وراحت تستمع اليه . . . لم يكن خائفا ولا مترداه ، وكانت تبدو على وجهه علامات الرضى ، وتطل من عينيه سيما القناعة ، فاستفزهم ذلك ، وامطروه بوابل من الأسئلة ، لماذا جئت ؟ من ارسلك . . . الى اي فرقة تنتمي . . . ما عدد قواتكم في الأردن ؟ وابتسم صاحبنا رضم انفه ، ولم يشعر مطلقا بأنه رجل عظيم . . . وطلب إليه ان يتكلم ، ففعل ، وبكل سهولة ووداعة قال انه كان متلهفا لرؤية بلاده ، شاطئها ، فرد وسها ، بحرها ، رياضها ، ولم يستطع ان يقاوم الحنين في صدره ، فمشى ومشى ، هجرته للشوق والحنين . . .

وكشّر قفحاته على أنيابهم ، لم يهد قوه ، لم يصد قوا أسباب هذه الهجرة ، والتفت نائب اشتراكي الى زميل له كان في قاعة المحكمة وقال له هادئا : تذكرني هجرة هذا الغلام ، وورغبته في زيارة بلاده ، بأمركا وورغبتهما في مساعدة الشرق الاوسط . . . وخلا قفحاته الى أنفسهم بعض الوقت ، واختلفوا فيما بينهم فمنهم من قال انه جاسوس خائن ، ومنهم من قال انه فدائي جاء يخرب وينسف . . .

لم يقل واحد منهم أنه ربما ضل طريقه ، هذا الصبي المراهق ، ولم يشأ واحد منهم أن يفكر بأن ما رواه يشمل الحقيقة ، والحقيقة وحدها . . .

وقرروا اعدامه بتهمة الجاسوسية والخيانة . . . ولم ينسوا ان يسجلوا في محضر وقائع التهمة الموجهة إليه بأنه لص أيضا ، سرق بضع حبات من البرتقال من برتقالة كان يملكها أبوه . (١)

أرقى تعبير عن الاحساس هو ما كان صادرا عن نفس صادقة مرهفة ، مفرطة في الحساسية . . . فما حادت طبائع كمال ، معلما في القدس ، قيد أنملة عن طبائع المعلم في هذه القصة .

ومثلما تحدث عن الآخرين باسان ذاته ، والعكس صحيح أيضا ، فبطل قصته التالية " العاصي " هو شخصية تبدو للناس معتوهة ونكاد نجزم أن ما من قرية على الأرض إلا وفيها مثل شخصية العاصي وان اختلفت تفاصيل قليلة . أما القرية فقريه الكاتب ذاتها وأهلها أهله ، ولا نحسب كمال ناصر الا راويا لأحداث يراها الجميع ويسمعها الجميع ولكن قل من يدرك كنهها وحقيقتها المرة . نقول أنه يروي الواقع كما هو ، وينقله في جميع حركاته رافضا مطلق سكاته ، ينقله بدقة متناهية بحيث يتركها أمام رسمه لشخصية العاصي ونحن نخط على الورق صورة كاريكاتيرية له منطبعة في أذهاننا أكرما دونها . أما زمن القصة (٢) فهو الوقت الذي كان فيه كمال مطاردا مع أحرار الأردن وقد " تغيرت الحالة " - كما مررنا في مطلع الرسالة - . بهذا يكون " العاصي " بطل القصة قد عاش تلك الانتكاسة فالمطاردات ، وعاش ، فيما بعد ، هزيمة ١٩٦٧ . . . فمن هو العاصي ؟ هل تعرفه ؟ وهل رأيته ؟

- هل تعرفه ؟ وهل رأيته ؟

" أما أنا فأعرفه جيدا . . . عرفته طفلاً صغيرا يقود والده الضريف في أزقة

وهواري بلدي الصغيرة الوادعة . . .

بهذه المناسبة فإن بلدي هذه تدعى ببرزيت ، ولعل التاريخ لم يتوقف كثيرا عند

هذه البلدة ، لأن أعلم علمائها ، وأكبر شيوخها سنا ، لا يعرفون تماما لماذا سميت بهذا

الاسم ، وان اختلفت التأويل وكثرت التخمينات . . .

وهذا الذي " هل تعرفه ؟ " معروف لدى سكان ومواطني بلدي ، بل هو أكثر من

ذلك ، لأنه يعيش معركة الحياة في البلدة كأبرز وأخطر ما يعيشها حيوان اجتماعي يتفاعل مع

مجتمعه فيقدم له كل شيء ، دون أن يأخذ شيئا ، وهو لو فعل ، لم يكن ليحتفظ بما يأخذه ،

بل يوزعه على أكبر مجموعة من الناس تفضيلاً وتبذيراً ، فكأنه وعن غير وعي منه ، إشتراكيا بالفطرة ،

بل تعدى الاشتراكية إلى مجالات أرحب في الانسانية والعطاء .

اسمه العاصي ، ومصدر اسمه مجهول تمام الجهل كاسم البلدة التي ولد فيها ،

ونشأ فيها ، والتي سموت حتما فيها ، لأن العاصي لم يخرج منها بعد ، وكل الدلائل تشير

بأنه لن يرحها ، فهو في ذلك كجدنا الأول آدم قانع بجنته راضيا ، قبل أن تفتته حواء . . .

وكم لحواء ولفتنتها من ضحايا .

١ - يؤرخ كمال للقصة " يوم الاثنين ٢ حزيران ١٩٥٧ . . .

٢ - يؤرخ لها كمال " يوم الاثنين ٢٧ أيار ١٩٥٧ صباحا . . .

واسمه كما ذكرت ، مجهول المصدر ، وان كان بعض الذين يدعون فهم شخصيته وتاريخ حياته - وكل البلدة تدعي ذلك - يقولون بأن اسمه الأصلي - راجح - ولكن والده الضرير اشتق له اسمه الجديد من الفعل يعصو عصا لأنه منذ ان شب عن الطوق وهو يعصو وأمره ، لاسيما ما كان يتعلق منها بقيادته من شرفة صباح كل يوم طلبا للرزق . ولعل فلسفة العاصي في الحياة التي عاشها فيما بعد ، ولا يزال يعيشها ، انطلقت من هذه العقدة - عقدة قيادة ابيه الضرير الذي كان لا بد له من الاعتماد على غيره في شؤون حياته .

ونما العاصي وترعرع . . . وكأنما كان ينتظر وبغار الصبر ، ومنتهى الأمل أن يشتد ساعده ، وعلى الأصح ظهره ، لأنه وبهذا الظهر وحده استطاع أن يشق طريقه في الحياة ، فيذلل مصاعبها ويقطم تيارها الصاخب . . . أجل ، قد برز ظهره من بين أعضاء جسمه - وكلها بارزة - عالما قائما بذاته يتحدى أثقل الأحمال وأكبرها ، منافسا بذلك اكبر نور أو حمار أو جمل ترعرع ونما في ظل هذه البلدة الواحة الصامدة . . . وحتى تتم صورة العاصي في مخيلة القارئ العزيز ، يجدر بي أن أرسم له الصورة الزيتية التي قد رله ان ينمو ويتربص على شكلها . . . فالعاصي ضخم ، ولكنه غير ممتليء ، فالرياضة العجيبة التي يمارسها كل يوم تكفلت بأن تحيل كتل الشحم واللحم النافرة في جسمه الى عضلات مفتولة مكنتزة تطل من خلال سترته اليتيمة في المناسبات فقط ، أي في الأيام التي يغفل فيها العاصي عن رتق ورقع هذه السترة العجيبة التي وقف مذعورا أمامها خياط البلدة السابق المخرور عاجزا عن تقليدها لو أراد ذلك ، وهو - اي الخياط - لم يعجز طيلة عمره عن تقليد وتفصيل أي نوع من الألبسة . وكان يخيل إليه ان الناس يخرجون من بيوتهم ، ويتصلصون من نوافذ دورهم ليشاهدوا دقة صناعته وانسجام تفصيله على كل عابر سبيل . . . وكان الخياط - سهل الله أمره - بعد أن يقول ذلك ، يزوي ما بين حاجبيه ليتمتم " لقد خلغ الناس " . وكلمة " خلغ " هذه كلمة فصيحة تعبر عن شدة الدهشة ، وان كان يراد منها دائما لفظة العذار . . . !

والعاصي لم يكن مفرطا بالطول ، والحقيقة انه ليس من السهل أن يحكم الانسان على طول العاصي ، فحقيقة طول ضاعته الى حد كبير بحقيقة ظهره الذي لا يعرف اليأس أيضا ، إذ كان قد انحنى ، واتخذت الانحناء فيه شكلا طبيعيا . . . ولعلّ السبب في هذا الجهل يعود إلى الذين شاهدوا العاصي واقفا ، عاطلا عن العمل ، قلائل . . . فالعاصي وباستمرار وبدون ملل أو خجل ، يدب في أزقة وحواري البلدة ، حاملا على ظهره كل ما هب ودب ، لقاء القروش القليلة التي يدفعها له أهل بلدتنا الواحة ، مستغلين بذلك ما يحسبونه جنونا أولوثه . في عقل العاصي المسكين .

أما وجهه . . . فلا تسألني دقة في الوصف عن وجهه ، فهو عجيب بحيث أعجز عن نقل مختلف قسماته على الورق ، ولعل قذارة وجهه العامة هي التي تحول دون إجادة الوصف ، فالما ، على ما اعتقد ، لا يصيبه اكثر مما يصيب المطر الصحارى القاحلة ، ولذلك فأنت تلح أخاديد من السواد المزمع على خديه السوداوين ، وتحت عينيه وعلى جبينه . ولشعر العاصي

حالة خاصة لا أعهد لها بالانسان ، فهو في هذه الحالة يشارك أخاه الجمل ، فالعاصي مزبد الشدق ، مزبده دائما ، ينثر اللعاب على بعد أمثار اذا استبد به الغضب ، وطالما يستبد به الغضب لسوء العلاقة بينه وبين أطفال البلدة الوادة الذين ينقسمون الى فئتين : فئة تحاربه وتعتدي عليه من بعيد بالحجارة او بالصراخ ، وفئة اخرى تخشاه وترعبه ، وتتساب من امامه لتحتمي بأى شيء ، على ان لا تصطدم به شكلا وموضوعا . . . والأطفال بمجموعهم لا يجروون على الاقتراب منه ، بالرغم من طبيعته الأصيلة البعيدة عن الاستفزاز . اما عينا العاصي فكبيرتان . . . جاحظتان ، الأبيض فيهما يتناول على الأسود بوضوح . . . وليس لعينييه نظرات خاصة سوى ما تلمحه من مظاهر البله العام . . . وغير ان المدقق المتمعن يلحظ دوما طيف ابتسامة ساحرة سرعان ما تتحول الى شواظ من نار اذا استشير او استفز . . .

بقي أن اصف لك شعر العاصي الأسود ، الكث المتلبد ، الذى يجثم على رأسه الكبير ، ذلك الرأس الذى يستره بقلنسوة بالية يتيمة تخفي الجزء الأكبر من رأسه وشعره . انني - يا قارئى - وبعد الذى كتبت ، أشعر بأنني لم اتحدث عن العاصي ، وان حاولت ان ارسده . . . فالعاصي ، وكما اسلفت في مطلع حديثي ، اكر من ذلك ، ومن كل ذلك . . . انه انسان فرضت عليه عقدة شقائه والحاح ابيه ، ان يخوض معركة حياته القاسية حملا يائسا ، أو حمارا كما يصر بعضهم على تسميته . . . ولكن العاصي ، وفي وسط هذه الأجواء التي يعانيتها ويعمل فيها ، صوت صاخ رخيم في هذه البلدة الصغيرة الوادة . . . ولا أشك ان هناك من يشاركي مثل هذا الاحساس . . . فهو وبالرغم عن كونه وسيلة النقل الوحيدة في البلدة ، اذا تضررت وسائل النقل الحديثة ، أو نفقت الحيوانات . . . آلة موسيقى صادحة لا تنفك عن الصداح والهزيع والتسبيح طيلة الساعات الطويلة التي يقضيها في الجهاد والعمل .

ان العاصي يغني ، وصوت العاصي وانتاجه المبتكر شعرا ولحنا ، أصبح جزءا من حياة القرية ، بل أصبح مدرسة يردد صداها عن وهي وغيره جيل يأكله في القرية الوادة الصامدة . . .

والعاصي صاحب صوت قبيح ، ولكنه غير منفر . . . وبالمناسبة ، انه لا يجيد الكلام ويلتغ في معظم أحرف اللغة . . . ولكنه ، ومن الغريب ، لا يخطئ عندما يغني وينشد . . . وارجو ان لا يتصور القارئ العزيز ان العاصي قد أنتج انتاجا غزيرا في فن الاناشيد ، منافسا بذلك شعراء البلدة وهم أكثر من ربع سكانها . . . لا وألف لا . . . فالعاصي لا ينشد سوى بضعة مقاطع ، وأحيانا يقف عند شطر واحد من بيت واحد . . . ولكن العاصي كثير الترداد معن فيه ، الى الحد الذى أصبح فيه هذا الترداد يؤلف الجزء الأكبر من حديثه ، فهو لا يطرح عليك الصباح او المساء ، ولا يسألك عن صحتك ، ولكنه ينطلق وينطلق مرّدا مرّدا ، فتلقاه وتتركه وراءك ، ومقاطعته ، رغم انفك ، تلاحقك اينما كنت والى اى مكان تذهب إليه ولو لبعض الوقت .

والظاهرة الغربية التي لا بد وأن تلفت أنظار أهل بلده ، او لعلها فعلت اليوم ، هي ان العاصي لم يكن ، وهو مواطن فلسطيني ، لم يكن ليفني أو ينشد مثل

النكبة التي أصابت فلسطين . . . ولعل هناك أكثر من واحد من أبناء بلدته من يشاهد ميلاد عبقريته تتفتح غداة يوم كان يحمل فيه كيسا ضخما من الدقيق ، ينقله الى أحد خيام اللاجئين ، وهي كثيرة متناثرة في البلدة الصغيرة . . . في أحد هذه الأيام من عمر النكبة ، سمع الناس العاصي ، ولأول مرة يخرج عن وقاره ويهتف صائحا بصوته الأجرس العميق ، " يا ويل الحالة كيف صارت " .

والعاصي الذي لم يأنس لكلماته أي صدى في قلوب الناس ، وفي أي وقت من الأوقات . . . العاصي الحمار ، الحمال المعتوه ، صاحب الثغر المزيد والعيون البلهاء ، أصبح بين ليلة وضحاها حديث أهل القرية ، يسأل الواحد منهم الآخر . . . هل سمعت العاصي ؟ ولم أكن أنا سوى احد هؤلاء الذين يتساءلون . . . وكنت في غمرة هذه العبودية الجديدة ، عبودية تذوق موسيقى العاصي وأناشيدته ، أنتقل بخيالي الى ما قبل أشهر من النكبة عندما كان يسألني صاحبي : هل سمعت أو قرأت قصيدة ت . . . س . . . البيوت الجديدة ؟

وفي أجواء هذه المقارنة ، وعلى وعي شديد بوجود جديد بوجودي ، ووجود النكبة ، رحلت أراقب العاصي باهتمام بالغ لذيذ . . . وارتفعت أهانج العاصي ومقاطعته في القرية ، ولكن صدر هذا المقطع ، ظل ولا يزال يحتل مكان الصدارة بين كل ما يقول وما ينشد . . . " يا ويل الحالة كيف صارت " . وكان في كثير من الأحيان يغير اللفظة الأخيرة من المقطع فيصرخ " يا ويل الحالة تعبانة " . وأبرز من كل ذلك ان العاصي لم يكن يعرف ان الناس يبتسمون ويضحكون ، بل ويقهقهون عندما يستمعون اليه ، بل ربما لم يكن يعرف ما فهم في أعماقهم ، إنما يتألمون ويتجاوبون معه . . .

وهكذا تمر السنون ، والعاصي يهتف بمناسبة وبغير مناسبة " يا ويل الحالة كيف صارت " . سنوات بؤس ، سنوات جوع ، سنوات ألم وحرمان ، سنوات تفكك وانحلال ، سنوات نهال في بقايا فلسطين ، سنوات تخبُّط في العالم العربي . . . وفي القرية الوادعة البسيطة الهلامدة كانوا يرددون مع العاصي " يا ويل الحالة كيف صارت " وربما كان الناس ، وفي مختلف المستويات ، الناس الحساسون ، الواعون المؤمنون في كل جزء من أجزاء الوطن العربي يرددون مع العاصي " يا ويل الحالة كيف صارت " . . .

وكان صباح ، وكان مساء . . . وتقذف بي الظروف الى خارج قريتي . . . تقذفني الى العالم الرحب الواسع ، أغالبه ويغالبنني ، أصطرع فيه لأهزم وأنهزم ، لأضحك وأبكي . . . سنوات نمت فيها القرية ، اتردد عليها بعد الحين والحين . . .

وكان صباح ، وكان مساء . . . واذا بالوعي القومي يزداد وينمو ، واذا بشعبنا ينتفض في أكثر من قطر ، واذا بالنصر يدنو أو يكاد ، واذا بالحالة تتحسن والأوضاع تتقدم . . . وأعود الى بلدتي مظفرا ، ناسيا كل شيء الا ظفرا متي وبلادي . . . وكان لا بد لي من سماع العاصي ، ينشد ويهتف " يا ويل الحالة كيف صارت " . ولست أدري لماذا شعرت أنني أريد ان يصمت بل يموت . . . وقتلته في ذاتي الكهر من مرة واحدة . . . كت

أريد أن أستمع الى طبول النصر والتفاؤل ، ومع ذلك فقد استمرّ يغني ٠٠ لم تكن هناك قوة تستطيع ان تصمت هذا الحمّال الذي رحت ألعنه كما كان يفعل سائر سكان البلدة ٠٠ وكان صباح ، وكان مساء ٠٠ ويعزّ على الذين أسهموا في انتزاع النصر ، ان يقطفوا ثمرة جهادهم ٠٠ فتكبو القافلة ، وأعود مهزولا الى بلدي ، لاجئاً الى جحر أقيع فيه ريثما تنجلي العاصفة ٠٠

ومن مخبئي الذي كان يطلّ على أحد الشوارع العامة ، علا وارفع صوته صوت العاصي ، بنفس لهجته اياها ، وصوته اياه كان يهتف " يا ويل الحالة كيف صارت " ٠٠ لم أغضب ، ولم أحزن ، ورحت أفكر فيما اذا كانت العناية الالهية تغرس في نفوس مثل هؤلاء المعنويين أحاسيس أنصح وأعمق وأدق من تلك التي وهبتنا اياها ٠٠ ورحت أفكر وأختم وأحس ، فيما اذا كانت الآلهة تعوض النقص على هؤلاء البلهاء بشيء من المعرفة والتقدير لأمر غابت عنا ونحن في صميم المعركة ٠٠

ومن خلال هذه الأفكار ، أطلّ عليّ وجه العاصي الفيلسوف ، المخدّد بالسواد ، بشدقه المزيد ، وعينيه العجيبتين يهتفني : " يا ويل الحالة كيف صارت " ٠٠ (١)

القصة عند كمال ، ذكريات شخصية تبدو في تناثرها متناثرة ، ولكنها تصبّ معا في الشخصية ، مطلق شخصية تعيش في مجتمع كالذي عايشه كمال ٠٠ لقد عبّر بأحرفه عن كل ما يجول في خواطر أبناء قريته ٠٠ فهو يكتب للناس كلهم عبر ذاته ٠٠ مصداق القول قصته التالية التي يداعب بوقائعها أحلام الشباب الغضويذغذغ قلوبهم المفتحة على الحب الأول ٠٠ انها قصة " شجاعة " (٢) التي تشجّعنا على اعتباره بطلها لمطابقة بعض أحداثها لبعض أحداث حياته ، ولبعض جوانب شخصية شخصيتها لشخصيته هو ؛ فمثلاً : كان كمال طالباً جامعياً " داخلياً وخارجياً " ٠٠ وكان يحب القطط ويسمّيها كلها في بيته " موللي " ، ويكره الكلاب التي عقرته مرة في طفولته . وظرفه وخفة ظله وشجاعته هي ثلاث مزايا اشتهر بها كمال ٠٠ تظل الحكاية - القصة أصدق من أن نصادق ٠٠٠

- شجاعة -

هل تعرف الحب ؟ وهل مررت بمراحل الشائكة المعقدة ٠٠ وهل اكنويت بناوره ، وجنونه ٠٠ فانتصرت وهزمت ٠٠ وغلّبت (بالفتح) ، وغلّبت (بالضم) ٠٠ وسهرت وارقت ان كنت لم تفعل كل هذا ، ولم تمرّ بهذه التجارب الحلوة ، المرة ٠٠ فتأكد - يا قارئي - أنك ما زلت بعيداً عن صفات الانسانية الكاملة ٠٠ وانك لم تتطور بعد ، ولا تستطيع حتى الإدعاء بأنك " قرد " لأن القردود تحب ، وتعشق ، وتغامر ، وتصلب على صلبان الهوى ، والشباب ٠٠

١ - في ذلك اللقاء مع شقيق كمال ، وديع ناصر ، في بيرزيت عام ١٩٧٦ ، قال لي أنه كان في بيرزيت شاب ينقل الأكياس بمثل ما وصفه كمال في هذه القصة تماما ٠٠ سنة ٦٢ ، بعد النكسة ، عندما أخرج مع الناس الى شرقي النهر وعبر الجسر ، كان يردد " باعها ٠٠ باعها " ٠٠ ويقصد ان الضفة قد بيعت بيعاً ٠٠ فصرة الجنود عناك ٠٠ الا أنني لا زلت أذكر ان هديقا لكمال ذكر ان " العاصي " شوهد في الأردن بعد ٦٢ وقد مات هناك ٠٠ لا يهمننا ، بل لا يفيدنا كثيراً ترجيح الأولى ، بقدر ما يهمننا انتزاع كمال للحقيقة المرة وفتح الوجوه بها ٠٠

٢ - ذكرنا في هذا الملحق ، ص ٣٧١ ، ان هذه القصة القصيرة هم ، مما نشر قديماً لكمال .

وجنون الصبا والكهول .. ولكن لا تياس .. واياك أن تياس .. واياك أن تياس ، فلا بد
وان تمر بهذه المرحلة .. فهي طبيعية وطبيعية جداً .. منذ أن كانت الخليقة ومنذ
فتح " آدم " عينيه ليعرف الخير والشر .. ويشاهد " حواء " الفاتنة الشهية ، الحلوة ..
فيضمها إليه .. وميناهما وقلباهما تباركان (الحية) التي لعنها الله .. ولا تزال تعاني
من لعنته لها ...

وقصة صاحبي - التي أرويها إليك اليوم ، هي احدي قصص حبه الكبيرة ، التي
عبرت افق حياته فمرت بها ، صاحبة ، هادئة .. عنيفة .. ناعمة .. فتركت في قلبه ، آثارا
وجراحا كانت مصدرا ، لوحى عابر ، وإلهام مؤقت ..
وقال صاحبي : (وانني اذ ارى لك ، حديث هذا الغرام الذي تكرر كثيرا ،
وهذه المغامرة ، التي حدث لي مثلها الشيء الكثير ، احتفظ لنفسي وللأيام بقصة حبي
الكبير الذي لا أزال أطل على الدنيا من خلال لوعته والذي ترك في نفسي زوايا مظلمة ..
ظلمة القبر) ..

قال : كنت طالبا في الجامعة في سنتي الثانية حيث كان يسمح لنا أن نسكن
خارج أسوارها الحصينة وشأن الطلاب في اختيار دور مسكنهم شأن عجيب فهم يطوفون
مائة منزل ويزورون مائة عائلة حتى يهتدي الواحد منهم الى ركن يستأنس به ويأنس اليه
فيلقي بمتاعه الذي يتبخر مع الزمن . قطعة قطعة ويتسرب إلى أيدي الباعة المتجولين أصدقاء
الجامعيين التقليديين .

وشرد صاحبي قليلا واستطرد يقول : وكانت غرفتي تقع في عمارة أرضية ذات
طابق واحد تحيط بها عمارات احاطه السوار بالمعصم ، ومرت ايام قبل ان أشاهد
وجهها جميلاً يطل من شرفات احدي هذه العمارات ليختفي بعد دقائق ولست أدري ما
الذي جعلني أطيئ التفكير بهذا الوجه الصبح هل هي ضريبة الشباب التي ندفعها
مجونا ، ولهموا .. ورغبة في التطلع الى كل وجه .. أم هو الفراغ الذي كت أعانيه والذي
كان يهتف بي ويناديني إلى حب جديد أو مغامرة جميلة جديدة .. وقضيت اليوم الثاني
منبطحا على كرسي طويل أرقب بزوغ الشمس .. أو مطلع القمر .. ولم يخب ظني وخرجت
هي في العصر الى الشرفة تداعب كلبها الابيض الصغير وتحمله بين يديها الحلوتين
الناعمتين .. وبالرغم من كراهيتي وعداوتي للكلاب التي دخلت المستشفى بسببها عدة
مرات في طفولتي .. إلا أنني شعرت بحب مفاجي لها .. " للكلاب طبعاً " ورحت
أبسس لها وكانت انثى كما علمت بعدئذ . رحى " أبسس " لها كما يفعل الناس مع
القطط لقله خبرتي مع الكلاب فعوت الكلبة وراحت تتفلت بين أنامل صاحبتهما التي راحت
بدورها تضحك للمفارقة .. وكانت هذه الضحكة إننا لي بالدخول في مفاوهات واستفسارات
حول أهمية (الحيوانات) في المجتمع وامكانية السماح لي بأن أكون عضواً في لجنة رعاية
الكلبة بصفتي عضواً في جمعية الرفق بالحيوان في بلاد الاردن .. فابتسمت وأعجبت بها
الدعابة وكثيراً ما تحمل الدعابة أول سهم للحب او الاستلطاف ..

وتمرُّ الأيام وتتجج وساطة الكلبة بيننا .. وتتوطدُّ أواصر الصداقة العميقة .. التي تتحول مع الأيام الى حبِّ جارفٍ دفعني الى قضاء نصف النهار تحت الشرفة .. مبصهما .. مناجياً جوليت بنت السماء التي لم يكن يسمح لها بمغادرة الدار الا مع الحاشية الكريمة المؤلفة من الام والأخ والخادمة والكلبة الكريمة التي كانت تشعر معي أكثر من أفراد الأسرة مجتمعين ..

وتمرُّ الأيام وأنا أحاول عبثاً أن استدرجها خارج المعقل الحصين. فكانت تتوجع ولا تستطيع ان تفعل شيئاً من أجلي وكدت ألقى السلاح .. حتى ظهرت عصر أحد الأيام لتقول لي ان العائلة ذاهبة الى دمشق ولن يبقى في البيت سواها وسوى الخادمة المطلعة على مأساة الحرمان التي كنا نعيش فيها وهمست في أذني من أعلى الشرفة انني استطيع ان أصعد لزيارتها غداً بعد الظهر بعد سفر افراد العائلة ..

وانتظرت اليوم التالي بفارغ الصبر وهيات نفسي للمغامرة وحلت الساعة فتركت منزلي لأصعد الى حيث تنتظرنى صاحبتى الجميلة ودخلت غرفة الجلوس وصادفتها وما كاد المقام يستقر بنا وكلانا يحاول ان يمزق حجب الحياء حتى دق جرس الباب مرة ومرتين وتجمدت في مكاني وفقدت شجاعتي وحاولت هي ان تقنعني بالهدوء ولكنني كنت أجيئ من ذلك فرحت افتش عن مكان اختبئي فيه أو أهرب إليه ..

فوثبت من مكاني .. ولم أجد نفسي إلا على الشرفة .. الشرفة المعهودة وكأنما لاحظت الكلبة ذعري وجبني وهذه الخطوات المرتبكة التي أسير بها فخفلفتني وراحت تنبج وكان الجرس لا يزال يرن في أذني وفي أقل من دقيقة كنت أحاول أن أدلي بنفسي من على الشرفة ولما هبط جميع جسدي وبقيت أصابعي متعلقة بالشرفة نظرت الى الأرض فقدّرت أن المسافة كبيرة وبينما أنا في ترددي خرج بعض الجيران من منازلهم وراحوا ينظرون إلى هذا المشهد العجيب .. وكانت كرامتي فوق أن تتحمل هذا كله .. فسميت باسم الله .. وقفزت الى الأرض ولم أفق على نفسي إلا وأنا في مستشفى الجامعة على فراش وثير .. وقد كسرت ساقي ..

وصمت صاحبي كأنما أوجعته الذكرى .. واستطرد يقول: بقي ان تعرف أنني عرفت فيما بعد .. أن الذي دقَّ الجرس (زال) الحارة جاء ليجمع النفايات ..

كمال ناصر

رأينا كيف كان كمال ناصر شاعرا ملتزماً بقضية وطنه وشعبه التزاماً أزلياً سرمدياً . .
ليس شاعراً فحسب ، وإنما في كل لفظة تخرج من فيه أو يحفرها يراعه . وها نحن أمام مقالة
له نحسب لدى قراءتها انها كتبت للتو بقلب من فعل متوتر متفجر بالغضب أمام " شعب
أضحكته النكبة " ، ولكن المقالة كانت كتبت عام ١٩٥٠ اثر النكبة الأولى - المفتاح الصديء
الذي ما زال عرب يتمسكون به ويضحكون هزاً من أنه لا يفتح " وشر البلية ما يضحك " . (١)
- شعب أضحكته النكبة -

إننا اليوم نضحك من النكبة ! نضحك منها لانها استنزفت بقايا الدموع التي سالت
من مآقي الشعب ، منذ ان كانت فلسطين ، ومنذ أن حطم المستعمر الغاشم العالم العربي ،
بمؤازرة العرب . . . فكانت الاشلاء ! وكانت المقاطعات ! وكانت الدول المتعددة !
التي يجمع بينها الدين والثقافة ، والتقليد والتاريخ . . . فاصبح اليوم لا يجمع بينها
تاريخ ، ولا تقليد ولا ثقافة ! ! !
أجل ! اننا اليوم نضحك من النكبة ولها . . . نضحك منها ولها ، لانها عريقة ،
قديمة ، لازمتنا لقرون وأجيال خلت ، ولم تكن نشعرُ بها أو نحسُّ بوجودها ، وإنما كنا نستسيغها
ونرضى بدائها يخترم وينهش كياننا حتى لم يعد لنا كيان ، واختلط علينا الأمر ، فعجزنا
عن درثها عندما حلت فرحنا تضحك منها . . . ضحكة المهزوم المغلوب على أمره ! !
والنكبة ما أصابت فلسطين وحدها - يا قارئ - وإنما أصابت الشرق العربي . . .
أصابته بروحه ، وأخلاقه وقلبه . . . لان روحه كانت هزيلة وأخلاقه رخيصة ، وقلبه ينقصه
الايان والتضحية . . .

وهكذا ، - فإننا اليوم - والثلوج ما ذابت بعد عن هددور اللاجئيين العارية
والامطار لم ينقطع مدارها عن مخيمات العسف والشقاء ، والبرد يلفح كل طفل ، والتعب
والجوع يجهض كل امرأة . . . نبتسم أو نضحك للنكبة ، التي لا نعتبرها الاولى ولا الاخيرة
في عمر العرب ، ان ظل العرب على حالهم من انقسام او تصدع او انهيار !
اننا نضحك من الساسة ! ضحكات ملؤها السخرية والألم . . . وما أمرٌ يوم ان
تجتمع السخرية والالم . . . اننا نضحك من جامعة الدول التي لم تشعر في يوم من الأيام
ان فلسطين عربية . . . ولو شعرت ما تركت فلسطين وأهل فلسطين يموتون تحت الصقيع
ويحتضرون عبر العواصف الثلجية العاتية .

وأخيراً . . . اننا نضحك من قادة العالم العربي الموسرين الاغنيا ، الذين
يستطيعون لو ارادوا ان يشتروا ارض فلسطين " بالذهب " اذا ما (نبأ) السيف في أيديهم ،
ويستطيعون أن يغطوا الثلوج " بالدولارات " ان عز عندهم المأوى والبيت !
أجل . . . اننا نضحك منهم . . . ومن أنفسنا . . . ولم يبق في وجه الشعب
سوى العيون الذابلة فقراً وجوعاً ، ذلاً وصغاراً ! ولله در من قال . . . " وشر البلية
ما يضحك " .

" كمال ناصر "

لم يجد العالم المتمدّن تقويماً مادياً يكافئ به الانسان العظيم والأعظم في حياته ،
الدينيا والعليا ، فكانت الأوسمة تمنح درجات ومرتبات ، وشهادات تقدير ، وجوائز
أدبية . . كل هذه ليست مطامع للانسان الخير بقدر ما هو الخير بذاته مطمعه الأول
والأخير . وإذا كان اللسان يعجز أحيانا عن التعبير الأنسى عن الشعور ، فإن الصمت
عندئذ هو أرقى أشكال التعبير المرتسم على صفحة الوجه النبيل .
لقد منح الرئيس المصري جمال عبد الناصر ، شهادة تقدير للشاعر والمناضل
والإنسلن والسياسي كمال ناصر . (١)
ومنح ، بعد استشهاده ، جائزة " اللوتس " التقديرية وقد منحتها من شعبه كل
من غسان كنفاني ومحمود درويش . ثم الشاعر أبو سلمى فيما بعد .
وبعد استشهاده ، والشهادة أجل شهادة ، تلقى ذوهه في بيرزيت هذه
الشهادة (٢) :

The Association of Arab - American University Graduate, Inc.

Honors

Kamal Nasser

Post humously for his significant Contribution in
Formding humanistic Thought Through Literature.

Oct. 20, 1973

President

Baha Abu - Laban

-
- ١ - رأيتها عند أخيه وديع في بيرزيت ، تشرين الأول ١٩٧٦ كما ذكرت في الباب الثاني ،
الفصل الأول ، صفحة ٢٦ .
٢ - رأيتها أيضا في تلك الرحلة عند وديع ناصر .

الخاتمة

هذه الدراسة حول " تجربة كمال ناصر الأدبية " تغطي في الحقيقة شعره كله

ونشره جنباً إلى جنب مع تجربته السياسية بأدائها : العمل السياسي والصحافي . وإذا كان للشعر نصيبه الوافر ، فإنّ للنثر في الملحق نصيباً آخر يكمل وجهه الأدبي الوجه السياسي الأول في الباب الثاني .

لقد عايش كمال ناصر في جميع ما نشر وأكرم ما لم ينشر . وعاشته من خلال أهله وأصدقائه على امتداد أربع سنوات معايشة يومية مكنتني من الالمام بدقائق حياته ومعالم شخصيته ، والجو الأدبي الذي كان يعيشه ، والواقع السياسي الذي يتفاعل معه ويفعل فيه . فتوصلت أخيراً إلى فتاوح ونتائج عدة على مختلف الأصعدة :

١ - على الصعيد التاريخي : وجدت كمال ناصر إنساناً موضوعياً ينطلق من ماضيه المجيد فيناضل لاستعادة حقه التاريخي دون هوادهة ومختلف الأسلحة المتوفرة في النضال . وتعلّقه بالماضي هو تعلّق بالتراث المساعد في استنهاض الهمم على درب الثورة والتحرير . وتعلّق بالتاريخ الديني المتأسس على قداسة الفداء المسيحي وانتصار الإرادة المحمّدية .

٢ - على الصعيد الذاتي : وجدتته إنساناً ثابت القلب والايمان رغم التقلبات الظاهرية التي أحدثتها على صفحة نفسه تقلبات الدهر الساحقة . ووجدت ان ايمانه ينبع من طبيعة متأصلة وأن شكّه ناتج عن ظروف قاهرة تزول بزوال القهر ذاته . ووجدته إنساناً نقيّاً يحب الحياة أكثر مما ييغض الموت . يحب بني البشر دون تمييز . لا أتصوّر طفلاً يحب أمه ويطيعها أكثر من كمال وهو رجل متقدم . هو ضمير العائلة والقرية ، وضمير الوطن، والثورة معاً . يهمل نفسه في غمرة اهتمامه بالآخرين . ذو شخصية طريفة مميّزة تجمع بين براءة الأطفال وجسارة الرجال . لذلك شعر محيطه بوطأة غيابه .

٣ - على الصعيد السياسي : كان عقائدياً راسخ المبدأ وقد لازمته بعثيته طيلة حياته ورغم تقلّبه في مراكز مختلفة فقيل : كان فلسطينياً ، وقومياً عربياً ، وبعثياً اشتراكياً ، وكان مستقلاً . والغريب أن كلّ ما قيل عنه صحيح في صبغتي الفرد والجماعة . ترك في رحلة النيابة القصيرة أثراً بالغاً يوم أن عمّد الموقف السياسي بالممارسة العملية فطورد آيما مطاردة .

واستأثرت في منظمة التحرير الفلسطينية بمركز شغله طويلاً بجدارة فرفع من شأن فاعلية المركز . لذلك أصبح هدفاً مباشراً لأعدائه . وتعاطى السياسة على صفحات الجرائد فامتاز بأسلوب تحليلي بارع جذاب يخاطب العقل والشعور بمنطق وصدق . ولم يكن كمال ناصر كمن " يقول كلمته ويمشي " لأن الكلمة عنده مسؤولية جسيمة وموقف فتحملها فعلاً حتى أنقضت ظهره . صحافي استطاع أن يدفع بالعمل الصحافي الثوري إلى واجهة الميدان بفضل بُعد نظره

وعمق تحليله وسداد رأيه ، فأصبح صحافياً رائداً ومؤسساً ينطلق في أكر كتاباته من
أفكاره بيمدأين رئيسيين : العودة والوحدة .

كان عداؤه للأنظمة المتذبذبة موافقها من القضية الفلسطينية عداً ، ظاهراً على أسنة
الرياح . خافه كثيرون ولم يخف هو كثرتهم .

٤ - على الصعيد الأدبي : هو شاعر الالتزام المطلق عبر عنه بالشكل الكلاسيكي القديم
والمعاناة الذاتية والتعلق بالوطن أكثر من محنته . انشطربين الأدب والسياسة -
يعني تكاملاً - فأغرقته السياسة ولم يتنازل عن الأدب .

زاج بين الكلاسيكية والتحررية ، كمزاوجة الثورة للوطن ، والأبطال للبطولات . وحاول
التجديد في البناء الشعري المتكامل فأفلح في مواضع ولكنه ظل وفياً للماضي يرتاح
اليه في أغلب الأحيان .

رفض القيود المدرسية على الشعر فاستطاع بحق التفكك من تلك القيود والتقاليد
المرفوضة من قبله .

أكد أجزم أن ما يمكن اعتباره تقليداً لشعراء آخرين ، لا يعدو أن يكون تأثراً فرضه
الاعجاب ليس غير . فلو درسنا شخصيات أولئك لوجدناها شديدة التقارب مع شخصية
شاعرنا . . والشعر تعبير عن النفس في أرق اختلاجاتها .

غنى الوطنية الصادقة والانسانية النبيلة فهياً لنفسه حكاية أدبية مميزة بين جيل شعراء
فلسطين المخضرمين بتاريخ نكبة ١٩٤٨ وقد اختص أسلوب أدبي فريد قوامه العبارة
الانشائية المتوقدة في بنائها القائم على صيغ الاستفهام والنداء التي تلهب العاطفة
وترق بالخيال وتفجر الاحساس ، وتحول المتلقي طرفاً ثانياً في موضوعات شعره كلها .
كما نتمنى لو تفرغ كمال ناصر للشعر فيتبوأ مرتبة أرفع . ولكننا نتعزى بممارساته الوطنية
المشرقة التي دفعت ركب الشعب نحو الوطن دفعاً حثيثاً في خطوات عريضة .

وبناءً على كل ما تقدم ، فإنني أرى مقارن للأدب الفلسطيني الحديث ، لا يمكنه
اغفال الشاعر كمال ناصر كأحد أبرز الشعراء المعاصرين فله في مرآة الأدب الوطني
قطاع مشرق ، وله في قيامة الأدب الانساني وترقيق . فهو " شاعر فلسطين " لأنه
" خريطة ناطقة تقرأ عليها صور فلسطين " وهو " العاشق الموحد " الذي " ملأ"
أغانيه اخضرار المروج .^(١)

وبعد ، ان هذه إلا محاولة لدراسة تجرية كمال ناصر الأدبية لعلمي أكون قد وقفت وإلا
تظل محاولة خير ما أنتجتة هو فتح الباب امام سواي من المهتمين لإعادة الدرس والتقويم
وفق أسس يرونها جديدة .

كما أفوه بأن لكمال ثلاث مسرحيات في النثر وقد وقعت على إحداها باسم " الصح
والخطأ " لدى الأخ نزيه أبو نضال بينما ضعت في زحمة الاحالات بين أشخاص كثير

بحيث لم أتمكن من العثور على المسرحيتين الآخرين . ان المسرحيات - لو وجدت -
يمكن ان تصبح موضوع دراسة مختلفاً لآثار كمال في تجربة التأليف المسرحي من الناحية
المعنوية أكثر من الناحية الفنية .
وكذلك ، أحيل المهتمين على تناول جريدة كمال " الجيل الجديد " ومجلة " فلسطين
الثورة " لاجراء دراسات موسعة للأولى أو مقارنة لهما قد تتسع لتشمل جميع افكاره
السياسية طوال حياته وفي مواضع مهمة متفرقة .
كما أن الباب مفتوح للمنقّبين الدارسين كي يبحثوا عن آثار للشاعر غير منشورة وقد
تكون من موروثات بعض الناس عن الشهيد .
أما الاحاطة بكلّ شيء فلمر لا أدعيه مثلما لا أدعي أنني أخرجت الصورة المثلى .
إلا اني قرير العين مطمئن البال لبذلي جهوداً مغبية كي أرفع الدراسة الى مستوى
يليق بالشاعر والشهيد . . . إنما الأعمال بالنيّات .

xxxxxxxxxxxxxxxxxxxx

xxxxxxxxxxxx

xxxxx

x

فهرس المصادر والمراجع

المصادر المنشورة :

- الآثار الشعرية (بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط ١ / ١٩٧٤)
- الآثار النثرية (بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط ١ / ١٩٧٤)
- "جراح تغني" ، ديوان (بيروت : دار الطليعة ، ١٩٦٠)
- اليوميات الفلسطينية^(١) (بيروت : مركز الأبحاث الفلسطينية)
- أسطوانة مسجل عليها أربع قصائد ومقدمات لها بصوت الشاعر.

المصادر غير المنشورة :

- "كيف أفهم الشعر" ، مخطوطة أدبية (بيروت : محفوظات مركز الأبحاث الفلسطينية)
- "رسالة الى ولدي" ، مخطوطة تربوية (بيروت : محفوظات مركز الأبحاث الفلسطينية)
- قصص قصيرة (مخطوطات الاستاذ ناجي علوش)
- رسائل شخصية ، (مخطوطات مركز الأبحاث ، والاستاذ ناجي علوش)
- قصائد وخطب سياسية ، (مخطوطات مركز الأبحاث والاستاذ ناجي علوش)
- "الجيل الجديد" ، (مخطوطات مركز الأبحاث الفلسطينية)
- الجريدة الرسمية الاردنية ، (الأردن : محاضر جلسات مجلس النواب والأعيان - مداخلات النائب كمال ناصر ، ١٩٥٦ - ١٩٥٧)

الصحف - مصادر ومراجع :

- أخبار اليوم . القاهرة ، عدد ١٢٩٨ في ٢٠ / ٩ / ١٩٦٩
- الأنوار . بيروت في ١ / ٢٧ و ٢٥ / ٦ / ١٩٧٠
- الجمهورية . القاهرة في ٢٧ / ٤ / ١٩٦٠
- الجيل الجديد . رام الله - فلسطين ، من ٤ نيسان ١٩٤٩ إلى ١ أيار ١٩٥٠
- الدفاع . عمان في ١٤ / ٣ / ١٩٧٠

١- هي مجلدات نصف سنوية تسجل وقائع الاحداث الفلسطينية في مختلف أنحاء العالم وكل ما يتصل بالقضية الفلسطينية . فهي بالتالي ، تورء جميع الأحاديث الصحافية التي أدلى بها كمال ناصر خلال نطقه الرسمي باسم اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية . والأعداد المعتمدة في هذا المجال هي :

١٩٦٩	بتاريخ	١٠	و	٩
١٩٧٠	=	١٢	و	١١
١٩٧١	=	١٤	و	١٣
١٩٧٢	=	١٦	و	١٥
١٩٧٣	=	١٨	و	١٧

- السّفير . بيروت ، ١١ (٥ نيسان ١٩٧٤) .
- الشعب . (يافا : الصحافة الأهلية المحدودة . لا ت .) .
- فلسطين . القدس ، لا ت . ، أحد اعدادها المعتمدة في ٢ تموز ١٩٥٥ .
- المنتدى . القدس في ١٣ / ١٢ / ١٩٤٦ .
- النهار . بيروت ، عدد ١١٧٣٠ ط ٢ (١١ نيسان ١٩٧٣) .

المجلات - مصادر ومراجع :

=====

- آخر ساعة . القاهرة ، عدد ١٤٧٧ . (محفوظات مركز الابحاث . . بيروت) .
- أخبار الأسبوع . القاهرة . الأحد ٢٧ شباط ١٩٦٦ .
- الحوادث . بيروت ، عدد ٢٦٧ (٢٢ كانون الاول ١٩٦١) ،
- عدد ٨٥٨ (٢٠ نيسان ١٩٧٣) .
- شؤون فلسطينية . (بيروت : مركز الابحاث الفلسطينية)
- عدد ٦٣ - ٦٤ شباط ١٩٧٧ ،
- عدد ٢١ أيار ١٩٧٣ ،
- عدد ٤٤ نيسان ١٩٧٥ .
- الغدير . (عدد خاص) ، رام الله - فلسطين : مطبعة الشرق ، كانون الاول ١٩٧١ .
- فلسطين الثورة . بيروت ، ملحق يومي : الثلاثاء ٢٩ أيار ١٩٧٣ .
- عدد ٤٩ في ٢٧ حزيران ١٩٧٣
- الاعداد من ١ إلى ٤١ بتاريخ ٢٨ حزيران ١٩٧٢ ،
- الى ١١ نيسان ١٩٧٣ .

حديث اذاعي :

=====

- غريب ، ميشال . الاذاعة اللبنانية ، الساعة ٣٠ و ٨ من ليل ١١ / ١١ / ١٩٧٦ .

المراجع :

=====

- القرآن الكريم .
- ابن العبد ، طرفة . الديوان ، شرح الشنتمري (طبع في مدينة شالون على نهرسون بمطبعة برطرنده سنة ١٩٠٠) .
- ابن منظور ، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم . لسان العرب (بيروت : دار صادر ، لا ت .) .
- أبو ريشة ، عمر . الديوان ، مع . (بيروت : دار العودة ، ط ١ / ١٩٧١) .
- أبو يصير ، صالح مسعود . جهاد شعب فلسطين خلال نصف قرن (بيروت : دار الفتح للطباعة والنشر ، ط ٤ / ١٩٧١) .

- الأسد، ناصر الدين . الشعر الحديث في فلسطين والاردن (القاهرة : محاضرات في معهد الدراسات العربية العالية ، ١٩٦٠ - ١٩٦١) .
- اسماعيل ، عز الدين . الشعر العربي المعاصر ، قضاياها وظواهره الفنية والمعنوية (بيروت : دار العودة - دار الثقافة ، ط ٢ / ١٩٧٢) .
- انغرامز ، دورين . اوراق فلسطين ١٩١٧ - ١٩٢٢ (بيروت : دار النهار للنشر ، ١٩٧٢) .
- البياتي ، عبد الوهاب . الديوان ، ج ٢ (بيروت : دار العودة ١٩٧٢) .
- بيك ، فريدريك . تاريخ شرقي الاردن وقبائلها ، تعريب بهاء الدين طوقان (القدس : مطبعة دار الايتام الاسلامية "تاريخ المقدمة ١٩٣٥ م") .
- التل ، عبد الله . كارثة فلسطين ، ج ١ (القاهرة : دار القلم ، ط ١ / ١٩٥٩) .
- توما ، اميل . جذور القضية الفلسطينية (بيروت : منظمة التحرير الفلسطينية - مركز الابحاث ، حزيران ١٩٧٣) .
- جريس ، صبرى . العرب في اسرائيل (بيروت : مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، ط ٢ ، ١٩٧٣) .
- حجازي ، عرفات . فلسطين أرض الثورات ، الكتاب الرابع (لا مط . ط ١ / لا ت .) .
- حمادة ، سعيد . النظام الاقتصادي في فلسطين (بيروت : جامعة بيروت الاميركية ، ١٩٣٩) .
- حمادة ، محمد . كمال ناصر شاعرا ومناضلا (بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ط ١ / حزيران ١٩٧٧) .
- الحمداني ، أبو فراس . الديوان (بيروت : المطبعة الادبية ، ١٩٠٠) .
- الخطيب ، يوسف . ديوان الوطن المحتل (دمشق : دار فلسطين ، ١٩٦٨) .
- الدبّاغ ، مصطفى مراد . بلادنا فلسطين ، ج ١ ق ١ (بيروت : دار الطليعة ، ط ١ / ١٩٦٥) .
- الدبّاغ ، مصطفى مراد . بلادنا فلسطين ، ج ٥ ق ٢ (بيروت : دار الطليعة ، ط ١ / ١٩٧٢) .
- الذبياني ، النابغة . الديوان (بيروت : دار الرأي العام ، آب ١٩٦٩) .
- سعيد ، أمين محمد . الدولة العربية المتحدة ، ج ٣ (مصر : مطبعة عيسى البابي الحلبي ، لا ت .) .
- السكاكيني ، خليل . فلسطين بعد الحرب الكبرى ، ج ١ (القدس : مطبعة بيت المقدس ، ١٩٢٥) .
- السوافيري ، كامل . الاتجاهات الفنية في الشعر العربي المعاصر (القاهرة : مكتبة الأنجلو - مصرية ، ط ١ / ١٩٧٣) .

- السوفائيري ، كامل . الشعر العربي الحديث في مأساة فلسطين (القاهرة : مطبعة نهضة مصر ، ط ١ / ١٩٦٤) .
- السيّاب ، بدر شاكر . الديوان (بيروت : دار العودة ، ١٩٧١) .
- طوقان ، أبراهيم . الديوان (بيروت : دار القدس ، شباط ١٩٧٥) .
- العارف ، عارف . النكبة ، نكبة بيت المقدس ١٩٤٧ - ١٩٥٥ ، ج ٤ (صيدا : المكتبة العصرية ، ١٩٥٩) .
- عبّاس ، إحسان . اتجاهات الشعر العربي المعاصر (الكويت : المجلس الوطني والفنون والآداب ، شباط ١٩٧٨) .
- عبّاس ، إحسان . فنّ الشعر (بيروت : دار الثقافة ، ط ٥ / ١٩٧٥) .
- عبد الصبور ، صلاح . الآثار الكاملة ، مج ٣ (بيروت : دار العودة ، ط ٢ / ١٩٧٧) .
- عرفات ، ياسر (وآخرون) . ذكريات عن الشهيد كمال ناصر (تونس : الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين ، ١٩٧٧) .
- العقّاد ، أحمد خليل . تاريخ الصحافة العربية في فلسطين (لا مط . ط ٢ / ١٩٦٧) .
- علّوش ، ناجي . الحركة الوطنية الفلسطينية ١٨٨٢ - ١٩٤٨ (بيروت : منظّمة التحرير الفلسطينية - مركز الابحاث ، أيار ١٩٧٤) .
- الغوري ، إميل . فلسطين عبر ستين عاما ١٩٢٢ - ١٩٣٧ (بيروت : دار النهار للنشر ، ١٩٧٣) .
- الغوري ، إميل . المؤتمر الكبرى : اغتيال فلسطين ومحق العرب (القاهرة : دار النيل ، ط ١ / ١٩٥٥) .
- الكرمي ، عبد الكريم (أبوسلمى) . الديوان (بيروت : دار العودة ، ط ١ / ١ - ٥ - ١٩٧٨) .
- الكيالي ، عبد الوهّاب . تاريخ فلسطين الحديث (بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ط ٣ / لا ت . ٠) . صدرت الطبعة الثانية في نيسان ١٩٧٣ .
- المتنبّي ، أبو الطيّب . الديوان ، شرح البرقوقي (مصر : مطبعة السعادة ، لا ت . ٠) .
- محمود ، عبد الرحيم . الديوان (بيروت : دار العودة ، ١٩٧٤) .
- الملائكة ، نازك . ديوان "للصلاة والثورة" (بيروت : دار العلم للملايين ، ط ١ / ١٩٧٨) .
- الملائكة ، نازك . قهايا الشعر المعاصر (بيروت : دار الآداب ، ط ١ / ١٩٦٢) .
- نجم ، محمد يوسف . فنّ المقالة (بيروت : دار الثقافة ، ط ٤ / ١٩٦٦) .
- هلال ، محمد غنيمي . الرومانتيكية (بيروت : دار الثقافة - دار العودة ، ١٩٧٣) .
- ياسين ، عبد القادر . كفاح الشعب الفلسطيني قبل العام ١٩٤٨ (بيروت : منظّمة التحرير الفلسطينية - مركز الابحاث ، أيار ١٩٧٥) .

- ياغي ، عبد الرحمن : حياة الادب الفلسطيني من أول النهضة حتى النكبة (بيروت :
المكتب التجاري ، لا ت . ٠) . "رسالة مقدّمة في القاهرة ١٩٦٠" .

مراجع لم يحصر مؤلفوها :

- صحف فلسطين (١) . (بيروت : مركز الابحاث الفلسطينية ، لا مط . لا ت . ٠) .
- دور الادب في معركة التحرير والبناء ، قسمان (بغداد : مطبعة العاني ، ١٩٦٥) (٢)
- الأدب العربي المعاصر (لا مط . لا ت . ٠) (٣)

مراجع باللغة الأجنبية :

- Atlas of Israel (Jerusalem: Ministry of Labour, 1970).
- Kessing's Contemporary Archives. Weekly Diary of World Events
(April 30, May 6, 1973 - p.p. 25868A - 25974A).
- Rouleau, Eric. Le Monde (Paris: Trentième Année - N° 8784,
Dernière Edition 3, Mercredi 11 Avril, 1973).
- Salaam & Khalidi, Hala & Salwa. The Conscience (Beirut: Pales-
tinian Researches Center, 2nd. ed., 1974)..

مقالات خاصة ودراسات :

- الأب ابراهيم عياد
- ابراهيم بكر
- ابراهيم علوش
- جبران مجد لاني
- د . حنا موسى ناصر
- راجي صهيون
- زياد عبدالفتاح
- سلفيا ناصر
- سلوى ناصر
- سميح زيادة
- عبد الكريم أبو النصر
- آذار ١٩٧٥
رسالة ١٩٧٧ / ١١ / ١٤
١٩٧٦ / ١١ / ٢٠
١٩٧٧
١٩٧٥
١٩٧٦ / ٣ / ١
آذار ١٩٧٨
١٩٧٦ / ٢ / ٢١
شباط ١٩٧٥
١٩٧٧ / ٩ / ٢
١٩٧٤ / ١١ / ١٣

- ١- هو جزء من كتاب مطبوع ، وقد ضاعت أوراقه فلم يحفظ منه الا الصفحات من ٨١ إلى ٩٦ .
٢- هو تسجيل لمؤتمر الأدباء العرب الخامس ببغداد عام ١٩٦٥ .
٣- هو أعمال مؤتمر روما المنعقد في تشرين الاول ١٩٦١ . اشترك فيه أدباء عرب
وأوروبيون ، وعقد بإدارة مجلة "تمبوريذنته" ، ومعهد الشرق الايطالي ، والمنظمة
العالمية لحرية الثقافة .

١٩٧٥	- عبد المحسن أبو ميزر
١٩٧٧ / ١١ / ١٣	- عصام حماد
١٩٧٦ / ٢ / ١٩	- فريد الخطيب
رسالة ١٩٧٧ / ٩ / ٢٩	- د . فهميم ناصر
١٩٧٦ / ٢ / ٢٣	- فيوليت ناصر
١٩٧٦	- د . قسطنطين زريق
١٩٧٦ / ٢ / ٢٣	- كامل قسطندي
١٩٧٧ / ١١ / ١٣	- كوليت خوري
١٩٧٧ / ١٢ / ٨	- موسى علوش
عدّة مقابلات ١٩٧٥ - ١٩٧٦	- ناجي علوش
نيسان ١٩٧٥	- نبيل خوري
١٩٧٦ / ٢ / ٢٣	- د . نديم عيسى ناصر
١٩٧٦ / ١١ / ٢٠	- وديع بطرس ناصر

لقاءات ساعدت على اتمام البحث :

١٩٧٨ / ٤ / ٢٤	- د . احسان عباس
عدّة لقاءات ١٩٧٥ - ١٩٧٦	- د . انيس صائغ
١٩٧٥	- القس ايليا خوري
١٩٧٥	- ريم موسى ناصر
١٩٧٨ / ٣ / ٢٢	- عمر أبو ريشة
١٩٧٧ / ٨ / ٢٦	- د . كلوفيس مقصود
١٩٧٥	- لويس بطرس ناصر
١٩٧٨ / ٧ / ٤	- محمود درويش
عدّة لقاءات ١٩٧٥ - ١٩٧٦	- نزيه أبو نضال
١٩٧٦ / ١١ / ٢٠	- وديعه حنا ناصر
١٩٧٧ / ١١ / ١٣	- يوسف الخطيب

